

الْمُنْتَخَبُ فِي النُّوَبِ

ترجمته

الحافظ جلال الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر
المتوفى ٨٧٧ هـ

ترجمته

أستاذنا عبد الله العفلي

مترجمه

أستاذنا عبد الله العفلي

دار الكتب العلمية

DKi

بيروت - لبنان

تنبيه!

الاسم الصحيح للكتاب هو: **"منتخب المنتخب"**
(وهو مفهومٌ أيضاً مِنْ مقدمة ابن الجوزي!)

أما **"المنتخب في النوب"** - وهو أصل كتابنا هذا - فما زال مخطوطاً ولم يُطبع بَعْدُ.

وقد راسَلْتُ الدار الناشرة منذ زمنٍ؛ عساهم يصححون اسمَ الكتاب في الطبعات القادمة..

والكتاب به تحريفات وسقطات، والحق - غفر الله له - اعتمد على نسخة خطية واحدة! - مع أن الكتاب له نُسخ خطية قد تتجاوز العشر نسخاً! -، وقال إنها أزهرية، وهي تُركية!

مع العلم أن هناك نسخة خطية للكتاب بالمكتبة الأزهرية، وبنفس البيانات التي ذكرها الحق، وبنفس الوصف، ولكنه لم يعتمد عليها! بل أخذ بياناتها فقط، واعتمد على نسخة أخرى.....

أخوكم/ أحمد أبوزيد

aakamel18@gmail.com

اُمْلَيْتُخَبْرًا فِي النُّوْبِ

تأليف

الحافظ جمال الدين أبي محمد الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي
المتوفى ٥٩٧ هـ

تقديم

أسامة عبد العظيم



دار الكتب العلمية

Dar al-Kutub al-Ilmiyyah

DKI

الطبعة الأولى: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م
Ed. by Muhammad Ali Baydoun 1421 Hijrah - Lebanon
Drukking Muhammad Ali Baydoun 1421 Hijrah - Utten

الكتاب : المنتخب في القلوب

Title : AL-MUNTABAH FI AL-HUWAB

THE EXEGESIS OF
SOME SELECTED VERSES OF
THE HOLY QUR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of the Holy Qur'an

المؤلف : جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)

Author : Jamaluddine Abou Al-Faraj Ibn Al-Jawzi
(D. 597H.)

المحقق : أسامة عبد المظلم

Editor : Qussama Abdul 'Azim

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

عدد الصفحات 520

المقاس الصفحات 17* 24 cm

سنة الطباعة 2012 A.D. - 1433 H.

بلد الطباعة : لبنان

الطبعة الأولى

Edition : 1^{re}

Exclusive rights by © Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut-Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth-Liban. Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable écrite par l'éditeur est illicite et expose au contournement à des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والعلمية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت-لبنان. أي تصوير أو تصوير أو إعادة إنتاج أو إعادة تنظيم الكتاب كماً أو جزئاً أو لتجديله على الشبكات كالمسح أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات تخزينية (الكمبيوتر) الناشر مسؤولاً.

**Dar Al-Kotob
Al-Ilmiyah**

Est. by Mohamed Ali Baydoun
1871 Beirut - Lebanon

Arabic version : al-Qasbiyah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bdg,
Tel : +961 5 804 810/11112
Fax : +961 5 804813
P.O.Box 11 8424 Beirut-Lebanon,
Wiyad al-Salah Beirut 1102 2190

الطبعة العربية : جلي دار الكتب العلمية
مطبعة : ١١/١٣٧ - ١١/١٣٧
فاكس : ١١/١٣٧ - ١١/١٣٧
ص.ب. ١١٨٤٢٤ بيروت - لبنان
ر.ب. ١١٠٢١٩٠ - ١١٠٢١٩٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

تحقيق

أسامة عبد العظيم

وبه نستعين

الحمد لله نستعينه وتستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا.

أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله يأخذه ومراجعا منيرا، فهدى به من الضلالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد بالله حق جهاده، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه.

أما بعد: فإن الله عز وجل خص امتنا بحفظ القرآن والعلم، وقد كان من قبلنا يقرؤون كتبهم من الصحف، ولا يقدرون على الحفظ، فلما جاء عزير فقرا التوراة من حفظه، فقالوا: هذا ابن الله، فكيف تقوم بشكر من حولنا أن ابن سبع سنين منا يقرأ القرآن عن ظهر قلب، ثم ليس في الأمم ممن ينقل عن نبيه أقواله وأفعاله على وجه يحصل به الثقة إلا نحن، فإنه يروي الحديث منا خالف

عن سالف، وينظرون في ثقة الراوي إلى أن يصل الأمر إلى رسول الله، وسائر الأمم يروون ما يذكرونه عن صحيفة لا يدري من كتبها، ولا يعرف من نقلها، وهذه منحة عظيمة منحها الله لهذه الأمة.

فكان كل فرد من مخلصي هذه الأمة وعلمائها يتنافس مع غيره في أخذ نصيبه من الميراث، ويسابق الآخريين للاشتراك في أداء الرسالة، وكان العلامة المحقق والفهامة المدقق فريد عصره ووحيد دهره جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي القرشي، رحمه الله رحمة واسعة، واحدا منهم، فقد جاهد في سبيل الله بلسانه وقلمه وألف في شتى الفنون.

ومن أهم الكتب التي وصلت إلينا هو كتاب "المنتخب في النوب"، وهو كتاب تفرد به العلامة ابن الجوزي، فقال في مقدمته:

(فَإِنِّي لَمَّا رَسَمْتُ كِتَابِي الْمَوْسُومَ بِـ " الْمُنْتَخَبِ فِي النُّوبِ " ، قَتَمْتُ بَدِيعَ الرُّضْفِ، قَلِيبَ الْوُضْفِ، أَحَبَبْتُ أَنْ أُتَّخَذَ عُيُونُهُ، وَأَتَحَيَّرَ أَبْكَارُهُ لَا عَوْنَهُ).

وقال: (هذا الكتاب هو الذي وضعته للكلام على الآيات على الترتيب، كل آية تليق أن تقرأ نوبة، فإن أهملت ذكر بعض الآيات الالاققة، فلنبيابة أختها عنها، وقد أكملتها مائة نوبة).

فقد انتقى من بحار التفسير مائة مسألة أبدع فيها وأمتع، وقدم للفارسي كتاب رائع في التفسير والزهد والموعظة يجب ألا تخلو مكتبات العلم منه.

اللهم اجعل القرآن العظيم لقلوبنا ضياء، ولأسقامنا دواء، ولذنوبنا ممحوا، وعن النار مخلصا، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يا رب العالمين.

مقدمة

حول علم التفسير

التفسير في اللغة:

التفسير هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان آية [٣٣]: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ يَمَنُكَ يَأْتِيَنَّكَ الْفَقْرُ وَالْغَنَىٰ قَبِيحٌ ۖ﴾ .. أى بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال في القاموس: "الفسر: الإبانة وكشف المعطى كالنفسير، والفعل: كضرب ونصر". وقال في لسان العرب: "الفسر: البيان فسر الشيء يُفسره - بالكسر ويُفسره - بالضم لمرأً. وفسره أبانته. والتفسير مثله ... ثم قال: الفسر كشف المعطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ...". وقال أبو حيان في البحر المحیط: "... ويُطلق التفسير أيضاً على التعرّية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرتُ الفرس: عرّيته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه من الجرى". ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يُستعمل لغة في الكشف الحسى، وفي الكشف عن المعاني المعقولة، واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول.

التفسير في الاصطلاح:

يرى بعض العلماء: أن التفسير ليس من العلوم التي يُتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التي أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويُكتفى في إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ويرى بعض آخر منهم: أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية، أو الملكات الناشئة من مزاولة القواعد، فيُتكلف له التعريف، فيذكر في

ذلك علوماً أخرى يُحتاج إليها في فهم القرآن، كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات . . . وغير ذلك.

وإذا نحن تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلفوا الحد للتفسير، وجدناهم قد عرّفوه بتعاريف كثيرة، يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها، فهي وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ، إلا أنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه.

لقد عرّفه أبو حيان في البحر المحيط بأنه: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وتنمات لذلك".

ثم خرج التعريف فقال: "فقولنا: "علم"، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: "يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن"، هذا هو علم القراءات، وقولنا: "ومدلولاتها" أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يُحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: "وأحكامها الإفرادية والتركيبية"، هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: "ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب"، يشمل ما دلالة عليه بالحقيقة، وما دلالة عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: "وتنمات لذلك"، هو معرفة الشئخ وسبب النزول، وقصة توضيح بعض ما انهم في القرآن، ونحو ذلك".

وعرّفه الزركشي بأنه: "علم يُفهم به كتاب الله المُتَنَزَّل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه".

وعرّفه بعضهم بأنه: "علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالة على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية".

والناظر لأول وهلة في هذين التعريفين الأخيرين، يظن أن علم القراءات وعلم الرسم لا يدخلان في علم التفسير، والحق أنهما داخلان فيه، وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات، كقراءة: ﴿وَلَيْتَ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الأنعام: ١٠٨] - بضم الميم وإسكان اللام، فإن معناها مغاير

لقراءة من قرأ: "ونليكأ كبيراً" - بفتح الميم وكسر اللام. وكقراءة ﴿يَكُونُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] - بالتسكين، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ: "يظهرن" - بالتشديد، كما أن المعنى يختلف أيضاً باختلاف الرسم القرآني في المصحف، فمثلاً قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ يَتِى سَوَاءً﴾ [الملك: ٢٢] - بوصل "أتى"، يغاير في المعنى: ﴿أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَحِيدًا﴾ [النساء: ١٠٩] - بفصلها، فإن المفصلة تفيد معنى "بل" دون الموصولة.

وعرفه بعضهم بأنه: "علم نزول الآيات، وشؤونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعداها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وغيرها وأمثالها".

وهذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يشوق عليه فهم المعنى، وبيان المراد.

التأويل في اللغة:

التأويل: مأخوذ من الأول وهو الرجوع، قال في القاموس: "آل إليه أولاً ومآلاً: رجع، وعنه: ارتد... ثم قال: وأوّل الكلام تأويلاً وتأوّله: دبره وقدره وفشّره، والتأويل: عبارة الرؤيا".

وقال في لسان العرب: "الأول: الرجوع، آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً رجع، وأوّل الشيء: رجع، وألت عن الشيء: ارتدعت، وفي الحديث: "من صام الدهر فلا صام ولا آل" أي: ولا رجع إلى خير... ثم قال: وأوّل الكلام وتأوّله: دبره وقدره. وأوّله وتأوّله: فشّره... الخ".

وعلى هذا فيكون التأويل مأخوذاً من الأول بمعنى الرجوع، إنما هو باعتبار أحد معانيه اللغوية، فكان المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة وهي السياسة، فكان المؤول يسوس

الكلام ويضمه في موضعه - قال الزمخشري في أساس البلاغة: "آل الرعية يؤولها إيالة حسنة، وهو حسن الإيالة، وانتالها، وهو مؤتال لقومه مقتال عليهم، أي سائس محتكم".

والناظر في القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد في كثير من آياته على معانٍ مختلفة، فمن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران آية [٧]: ﴿وَلَمَّا أَتَيْنَا أَثَرَهُمْ فَقِيلَ مَا ذُنُوبُنَا أَوْفَوْهُ لَنُتَابَلَ رَبَّنَا وَيُنْفِثَنَّاتُ الْمَبَذَلِ فِيهَا وَلَيُبَلِّغَنَّ مِنَ رَبِّكَ الْبُشْرَى وَلَيَذَلَنَّ الْأُلْفَى﴾ .. فهو في هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين. وقوله في سورة النساء آية [٥٩]: ﴿وَلَمَّا تَتَذَكَّرْ فِي حَتْمِ رُزُقِهِ إِلَى اللَّهِ وَالْأُولَىٰ إِنَّكُمْ تَعْمَلُونَ بَأْسًا وَالَّذِينَ الْأَخِيرَ كَذِبٌ حَرٌّ وَأَعْسَىٰ تَأْوِيلُهُ﴾ .. فهو في هذه الآية بمعنى العقاب والمصير. وقوله في سورة الأعراف آية [٥٣]: ﴿وَلَمَّا يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ .. وقوله في سورة يونس آية [٣٩]: ﴿يَلْزَمُونَ مَا كَرِهَ جُنُودُهُمْ وَيَتَلَبَّسُونَ﴾ .. فهو في الآيتين بمعنى وقوع المخير به. وقوله في سورة يوسف آية [٦]: ﴿وَلَمَّا كَانَتْ هُدًى لِّرَبِّكَ ذِكْرُكَ وَمِثْلَكَ لَبَسَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ .. وقوله فيها أيضاً آية [٣٧]: ﴿وَمَا لَا يَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمٌ مِنْ رَبِّكَ فَإِذَا هُمْ مِنْكُمْ يُنْفِقُونَ﴾ .. وقوله في آية [٤٤] منها: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَكْثَمِ بِكَافِرِينَ﴾ .. وقوله في آية [٤٥] منها: ﴿لَمَّا أَتَيْنَكُم بِتَأْوِيلِ﴾ .. وقوله في آية [١٠٠] منها: ﴿هَكَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ مِنْ قَبْلُ﴾ .. فالمراد به في كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا. وقوله في سورة الكهف آية [٧٨]: ﴿سَأَلْنَاكَ بِتَأْوِيلِ مَا كَرِهَ جُنُودُهُمْ فَلَمَّا ضَرَّكَ﴾ ..

وقوله أيضاً في آية [٨٢]: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا كَرِهَ جُنُودُهُمْ﴾ .. فمراده بالتأويل هنا تأويل الأعمال التي أتى بها الخضر من حرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وبيان السبب الحامل عليها، وليس المراد منه تأويل الأقوال.

التأويل في الاصطلاح:

١- التأويل عند السلف: التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو مخالفه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين، وهذا هو ما عناه مجاهد من قوله: "إن العلماء يعلمون تأويله" يعني القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبري بقوله في

تفسيره: "القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا" ويقولوه: "اختلف أهل التأويل في هذه الآية" . . . ونحو ذلك، فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلياً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً، كان تأويله نفس الشئ المحكي به، وبين هذا المعنى والذي قبله فرق ظاهر، فالذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير، والشرح، والإيضاح، ويكون وجود التأويل في القلب، واللسان، وله الوجود الذهني واللفظي والرسومي، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج، سواء أكانت ماضية أم مستقبلية، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا في نظر ابن تيمية هو لغة القرآن التي نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني.

٢ - التأويل عند المتأخرين من المتهفقه، والمتكلمة، والمحدثه والمنصوفة: التأويل عند هؤلاء جميعاً: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجع إلى المعنى المرجوح لدليل يقتضيه، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف، فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث - أو هذا النص - مؤول أو محمول على كذا، قال الآخر: هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل. وعلى هذا فالتأويل مطالب بأمرين: الأمر الأول: أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذي حمّله عليه وأدعى أنه المراد.

الأمر الثاني: أن يبين الدليل الذي أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجع إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلاً فاسداً، أو تلاعباً بالنصوص. قال في جمع الجوامع وشرحه: "التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حُبل عليه لدليل فصحيح، أو لما يُقنّ دليلاً في الواقع ففاسد، أو لا شيء فلعب لا تأويل".

وهذا أيضاً هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات، فمنهم من ذم التأويل ومنعه، ومنهم من مدحه وأوجبه.

الفرق بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء في بيان الفرق بين التفسير والتأويل، وفي تحديد النسبة بينهما اختلافاً نتجت عنه أقوال كثيرة، وكان التفرقة بين التفسير والتأويل أمر معضل استعصى حله على كثير من الناس إلا أن سعى بين يديه شعاع من نور الهداية والتوفيق، ولهذا بالغ ابن حبيب النيسابوري فقال: "تبع في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اعتدوا إليه". وليس بعيداً أن يكون منشأ هذا الخلاف، هو ما ذهب إليه الأستاذ أمين الخولي حيث يقول: "وأحسب أن منشأ هذا كله، هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهب الأصوليون إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على السنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب".

وهذه هي أقوال العلماء أبسطها بين يدي القارئ ليفف على مبلغ هذا الاختلاف، وليخلص هو برأى في المسألة يوافق ذوقه العلمي ويرضيه.

١ - قال أبو عبيدة وطائفة معه: "التفسير والتأويل بمعنى واحد" فهما مترادفان. وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

٢ - قال الراغب الأصفهاني: "التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يُستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا، والتأويل يُستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها. والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ. والتأويل أكثره يستعمل في الجمل، فالتفسير إما أن يُستعمل في غريب الألفاظ كـ "البحيرة والسائبة والوصيلة" أو في تبين المراد وشرحه كقوله تعالى في الآية [٤٣] من سورة البقرة: ﴿وَأَنبِئُوا أَهْلَ لُوطٍ وَآلَ هَارُونَ﴾ . . وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوُّره إلا بمعرفتها نحو

قوله تعالى في الآية [٣٧] من سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا

... وقوله تعالى في الآية [١٨٩] من سورة البقرة: ﴿وَلَيْسَ إِلَٰهٌ بِأَن تَأْمُرُوا

الْبَشَرُ أَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَصِلُوا إِلَى الْكُفْرِ﴾.

وأما التأويل: فإنه يُستعمل مرة عاماً، ومرة خاصاً، نحو "الكفر" المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة. و "الإيمان" المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معانٍ مختلفة، نحو لفظ "وجد" المستعمل في الجود والوجد والوجود.

٣ - قال المانوردي: "التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عني باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي، وهو المنهي عنه، والتأويل ترجيح أحد الاحتمالات بدون القطع والشهادة على الله"، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٤ - قال أبو طالب الثعلبي: "التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير "الصراط" بالطريق، و "الطيب" بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى في الآية [١٤] من سورة الفجر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا

... تفسيره أنه من الرصد، يقال: رصدته: رقبته، والمرصاد مفعول منه، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأبهة والاستعداد للعرض عليه. وقواطع الأدلة تقتضي بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ في اللغة" وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٥ - قال البغوي ووافقه الكواشي: "التأويل هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط. والتفسير هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها" بتصرف. وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٦ - قال بعضهم: "التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية"، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٧ - التفسير هو بيان المعاني التي تُستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعاني التي تُستفاد بطريق الإشارة. فالتسوية بينهما التباين، وهذا هو المشهور عند المتأخرين، وقد نُبّه إلى هذا الرأي الأخير العلامة الألوسي في مقدمة تفسيره حيث قال بعد أن استعرض بعض أقوال العلماء في هذا الموضوع: "وعندي أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العُرف فكل الأقوال فيه - ما سمعتها وما لم تسمعها - مخالف للُعرف اليوم إذ قد تعورف من غير نكير: أن التأويل إشارة قديمة، ومعارف سبحانه، تنكشف من سجع العبارات للسالكين، وتنهل من سُحب الغيب على قلوب العارفين. والتفسير غير ذلك.

وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة، فلا أظنك في مرة من رد هذه الأقوال، أو بوجه ما، فلا أراد ترضي إلا أن في كل كشف إرجاعاً، وفي كل إرجاع كشفاً، فافهم".
هذه هي أهم الأقوال في الفرق بين التفسير والتأويل. وهناك أقوال أخرى أعرضنا عنها مخافة الطول.

والذي تميل إليه النفس من هذه الأقوال: هو أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.
وأما التأويل.. . فملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل.

والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويُتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك. قال الزركشي: "وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل: التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط".

المفسرون من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل، قالوا في القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأي والاجتهاد.

أشهر المفسرين من الصحابة:

وقد قدَّ السيوطي رحمه الله في "الإنشاد" من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبى كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، رضى الله عنهم أجمعين.

وهناك من تكلم في التفسير من الصحابة غير هؤلاء: كنس بن مالك، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة، وغير أن ما نُقِلَ عنهم في التفسير قليل جداً، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول في القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولاً، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا فُتَّةً وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم في التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أخفف إلى ذلك وجودهم في وسط أغلب أهل علماء يكتتاب الله، واقفون على أسرارهم، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم في التفسير غير كبيرة.

أما علي بن أبي طالب رضى الله عنه، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير، والسبب في ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضى الله عنه، ونأخر وفاته إلى زمن

كثرت فيه حاجة الناس إلى من يُفسّر لهم ما خفى عنهم من معاني القرآن، وذلك ناشئ من اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم في دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية.

وكذلك كثرت الرواية في التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، لحاجة الناس إليهم، ولصفات عامة مكنت لهم ولعلم ابن أبي طالب أيضاً في التفسير، هذه الصفات هي: قوتهم في اللغة العربية، وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها، وعدم تحرجهم من الاجتهاد وتقدير ما وصلوا إليه باجتهدهم، ومخالطتهم للنبي صلى الله عليه وسلم مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن، تستنى من ذلك ابن عباس، فإنه لم يلازم النبي عليه الصلاة والسلام في شبابه، لوفاء النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سن الثالثة عشرة أو قريب منها، لكنه استغاض عن ذلك بحلازمة كبار الصحابة، بأخذ عنهم وروى لهم.

أما باقي العشرة وهم: زيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، فهم وإن اشتهروا بالتفسير إلا أنهم قلَّت عنهم الرواية ولم يصلوا في التفسير إلّا ما وصل إليه هؤلاء الأربعة المذكورون.

لهذا نرى الإمساك عن الكلام في شأن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وزيد ابن ثابت، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، ونكتلم عن عليّ، وابن عباس، وابن مسعود، وأبى بن كعب، نظراً لكثرة الرواية عنهم في التفسير، كثرة علقت مدارس الأمصار على اختلافهم وكثرتها.

ولو أنا ربنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم لكان أولهم عبد الله بن عباس، ثم عبد الله بن مسعود، ثم علي بن أبي طالب، ثم أبي بن كعب وستتكلم عن كل واحد من هؤلاء الأربعة، بما يتناسب مع مشربه في التفسير ومنحاه الذي نجاه فيه.

٢- عبد الله بن عباس:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه لُبابة الكعبي بنت

الحارث بن خِزَن الهلالية. ولدَ والنبي عليه الصلاة والسلام وأهل بيته بالشَّيْب بمكة. فأُثِنَّ به النبي عليه الصلاة والسلام فتحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي عليه الصلاة والسلام في صغره، لقربته منه، ولأن حالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاتته من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت وفاته ستة ثمان وستين على الأرجح، وله من العمر سبعون سنة. مات بالطائف ودُفِنَ بها، وتولى وضعه في قبره محمد ابن الحنفية، وقال بعد أن سوَّى عليه التراب: مات والله اليوم خير هذه الأمة.

سبلغه من العلم:

كان ابن عباس يُلقَّب بالخَبَر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعنى كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير، وكان عمر رضى الله عنه يُجلسه في مجلسه مع كبار الصحابة ويُدنيه منه، وكان يقول له: إنك لأصبح فتياننا وجهاً، وأحسنهم خُلُقاً، وأفقههم في كتاب الله. وقال في شأنه: ذاكم في الكهول، إنَّ له لساناً شولاً، وقلباً عقولاً. وكان لفرط أدبه إذا سأله عمر مع الصحابة عن شيء يقول لا أتكلم حتى يتكلموا. وكان عمر رضى الله عنه يعتقد برأى ابن عباس مع حداثة سنه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن الأثير في كتابه "أسد الغاية" عن عبيد الله بن عتبة قال: "إن عمر كان إذا جاءته الأقضية المعضلة قال لابن عباس: إنها قد طُرأت علينا أفضية وعضل، فأنت لها ولأمثالها، فكان يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحداً سواه" قال عبيد الله: وعمر هو عمر في حذقه واجتهاده لله وللمسلمين، وما رواه البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وَجَدَ في نفسه وقال: لِمَ يُدخل هذا معنا وإنَّ لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره

إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لى: أذكلك نقول يابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجلُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ . فذلك علامة أجلك، ﴿فَتَبْتَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرُكَ يُقَرِّكَ كَانَ تَوَّابًا﴾ . . فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما نقول".

وهذا يدل على قوة فهمه وجودة فكره. وقال فيه ابن مسعود رضى الله عنه: "نعم ترجمان القرآن ابن عباس". وقال فيه عطاء: "ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع". وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: "كان ابن عباس قد فات الناس بخصاله: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتجج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، وتأويل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، ولا يقضأ أبى بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفله فى رأى منه، ولا أثقب رأياً فيما احتجج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازى، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سألته إلا وجد عنده علماً". وقيل لطاؤوس: لزمت هذا الغلام - يعنى ابن عباس - وتركته الأكابر من أصحاب رسول الله، قال: إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تداروا فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس". وروى الأعمش عن أبى وائل قال: "استخلف على عبد الله بن عباس على الموسم فقرأ فى خطبته سورة البقرة - وفى رواية: سورة النور - ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا" وكان على بن أبى طالب يثنى على تفسير ابن عباس ويقول: "كأنما ينظر إلى الغيب من بين رقيق".

وبالجملة . . فقد كانت حياة ابن عباس حياة علمية، يتعلم ويعلّم، ولم يشغل بالإمارة إلا قليلاً لما استعمله على على البصرة، والحق: أن ابن عباس قد ظهر فيه النبوغ العربى بأكمل معانيه. علماً، وفصاحة، وسعة اطلاع فى نواح

علمية مختلفة، ولا سيما فهمه لكتاب الله تعالى. وخير ما يُقال فيه ما قاله ابن عمر رضي الله عنهما: "ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد".

أسباب نبوغه:

ونستطيع أن نرجع هذه الشهرة العلمية، وهذا النبوغ الواسع الفياض، إلى أسباب نجملها فيما يلي:

أولاً: دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بقوله: "اللَّهُمَّ عَلِّمِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ"، وفي رواية أخرى: "اللَّهُمَّ فَتِّهِ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمِ التَّأْوِيلَ"، والذي يرجع إلى كتب التفسير بالمأثور، يرى أثر هذه الدعوة النبوية، يتجلى واضحاً فيما صح عن ابن عباس رضي الله عنه.

ثانياً: نشأته في بيت النبوة، وملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد التمييز، فكان يسمع منه الشيء الكثير، ويشهد كثيراً من الحوادث والظروف التي نزلت فيها آيات القرآن.

ثالثاً: ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، يأخذ عنهم ويروى لهم، ويعرف منهم مواطن نزول القرآن، وتواريخ التشريع، وأسباب النزول، وبهذا استعاض عما فاتته من العلم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحدث بهذا ابن عباس عن نفسه فقال: "وجدتُ عامة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأنصار، فإن كنتُ لأتَى الرجلَ فأجده نائماً، لو شئتُ أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس عليّ بابه تسفي عليّ وجهي الرياح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد، ثم أنصرف".

رابعاً: حفظه للغة العربية، ومعرفة لغريبيها، وآدابها، وخصائصها، وأساليبها، وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذي يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربي.

خامساً: بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه منه، وشجاعته في بيان ما يعتقد أنه الحق، دون أن يأبه لعلامة لائم ونقد ناقد، ما دام يثق بأن الحق في جانبه، وكثيراً ما انتقد عليه ابن عمر جرأته على تفسير القرآن، ولكن لم ترق إليه حمة نقده، بل ما لبث أن رجع إلى قوله، واعترف بمبلغ علمه، فقد روى

أن رجلاً أتى ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ بِهِمَ الْبُرْءَىٰ كَقَرَارٍ أَثْبَتٍ﴾ [الأنبياء: ٣٠] . فقال: اذهب إلى ابن عباس ثم تعال أخبرني، فذهب فسأله فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تثبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالثبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنت أقول: ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً.

هذه هي أهم الأسباب التي ترجع إليها شهرة ابن عباس في التفسير، يضاف إلى ذلك كونه من أهل بيت النبوة، منبع الهداية، ومصدر النور، وما وهبه الله من قريحة وقادة، وعقل راجح، ورأي صائب، وإيمان راسخ، ودين مثين.

قيمة ابن عباس في تفسير القرآن:

تبيين قيمة ابن عباس في التفسير، من قول تلميذه مجاهد: "إنه إذا فُسرَ الشئ رأيت عليه النور"، ومن قول علي رضي الله عنه يُثنى عليه في تفسيره: "كأنما ينظر إلى الغيب من بين رقيق"، ومن قول ابن عمر: "ابن عباس أعلم أئمة محمد بما نزل على محمد"، ومن رجوع بعض الصحابة وكثير من التابعين إليه في فهم ما أشكل عليهم من كتاب الله، فكثيراً ما توجه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم، ويكشف لهم عما عَزَّ عليهم فهمه من كتاب الله تعالى. ففي قصة موسى مع شعب أشكل على بعض أهل العلم، أي الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثمان سنين؟ أو أنه أتم عشرأ؟ ولما لم يقف على رأى يمم شطر ابن عباس، الذي هو بحق ترجمان القرآن، ليسأله عما أشكل عليه، وفي هذا يروى الطبري في تفسيره، عن سعيد بن جبير قال: "قال يهودى بالكوفة - وأنا أتجهز للحج - إنى أراك رجلاً تتبع العلم، فأخبرني أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حَبْر العرب - يعنى ابن عباس - فسألته عن ذلك، فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودى، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيهما، إنَّ النبی إذا وعد لم يُخلف، وقال سعيد: فقدمت العراق فلقيت اليهودى فأخبرته فقال: صدق وما أنزل على موسى، هذا والله العالم.

وهذا عمر رضى الله عنه يسأل الصحابة عن معنى آية من كتاب الله، فلما لم يجد عندهم جواباً مرضياً رجع إلى ابن عباس فسأله عنها، وكان يثق بتفسيره، وفي هذا يروى الطبري: "أن عمر سأل الناس عن هذه الآية - يعنى: ﴿أَيُّدُكُمْ أَنْ تَكُونُوا لَهُ جُنَّةً مِنْ تَغْيِيلِ وَأَغْتَابِهِ﴾ [البقرة: ٢٦٦] ... الآية، فما وجد أحداً يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين؟ إني أجد في نفسي منها شيئاً، فتلفت إليه فقال: تحوّل ههنا، لم تحط نفسك؟ قال: هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فنى عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقه أحوج ما كان إليه".

وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ أَقْوَى وَأَلْفَتْحُ ۝﴾ وجوابه بالجواب المشهور عنه، يدل على أن ابن عباس كان يستخرج حقى المعاني التي يشير إليها القرآن، ولا يدركها إلا من نضحه الله بنفحة من روحه، وكثيراً ما ظهر ابن عباس في المسائل المعقدة في التفسير بمظهر الرجل الشلّهم الذي ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، كما وصفه علي رضى الله عنه، الأمر الذي جعل الصحابة يُقدّرون ابن عباس ويشقون بتفسيره، ولقد وجد هذا التقدير صداء في عصر التابعين، فكانت هناك مدرسة يلقى تلاميذها التفسير عن ابن عباس، استقرت هذه المدرسة بمكة، ثم غدت بعلمها الأمصار المختلفة، وما زال تفسير ابن عباس يلقى من المسلمين إعجاباً وتقديراً، إلى درجة أنه إذا صح النقل عن ابن عباس لا يكادون يعدلون عن قوله إلى قول آخر. وقد صرح الزركشي بأن قول ابن عباس مُقدّم على قول غيره من الصحابة عند تعارض ما جاء عنهم في التفسير.

رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب:

كان ابن عباس كثيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يجمعون في فهم معاني القرآن إلى ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى ما يفتح الله به عليهم من طريق النظر والاجتهاد، مع الاستعانة في ذلك بمعرفة

أسباب النزول والظروف والملايسات التي نزل فيها القرآن. وكان رضى الله عنه يرجع إلى أهل الكتاب ويأخذ عنهم، بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في كثير من المواضع التي أجملت في القرآن وفُصِّلَت في التوراة أو الإنجيل، ولكن كما قلنا فيما سبق: إن الرجوع إلى أهل الكتاب كان في دائرة محدودة ضيقة، تتفق مع القرآن وتشهد له، أما ما عدا ذلك مما يتنافى مع القرآن، ولا يتفق مع الشريعة الإسلامية، فكان ابن عباس لا يقبله ولا يأخذ به.

اتهم الأستاذ جولدزيهر والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسع في الأخذ عن أهل الكتاب:

وإنما لتجد في كتاب 'المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن' مبلغ اتهام مؤلفه 'جولدزيهر' لابن عباس بتوسعه في الأخذ عن أهل الكتاب، مخالفاً ما ورد من النهي عن ذلك في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُصدّقوا أهل الكتاب ولا تُكذّبوهم" ونرى أن نذكر عبارة المؤلف بنصها، ليتضح مبلغ اتهامه لابن عباس، ثم نرد عليه بعد ذلك.

قال: "وكثيراً ما يُذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن، كان - أي ابن عباس - يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن قروة الأزدي، الذي أثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب، وعن ميمونة ابنته أنها قال: كان أبي يقرأ القرآن في كل سبعة أيام، ويختم التوراة في ستة، يقرأها نظراً، فإذا كان يوم ختمها، حشد لذلك ناس، وكان يقول: كان يُقال تنزل عند ختمها الرحمة، وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يمكن أن يبين لنا مكان الأب في الاستفادة من التوراة".

"ومن بين المراجع العلمية المفضلة عند ابن عباس، نجد أيضاً كعب الأبحار اليهودي، وعبد الله بن سلام، وأهل الكتاب على العموم، ممن حذر الناس منهم، كما أن ابن عباس نفسه في أقواله حذر من الرجوع إليهم، ولقد كان إسلام هؤلاء عند الناس فوق التهمة والكلب، ورفّعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم... ولم تكن التعاليم الكثيرة التي أمكن أن يستقيها ابن عباس، والتي اعتبرها من تلك الأمور التي يرجع فيها إلى أهل هذا الدين الآخر، مقصورة على المسائل الإنجيلية والإسرائيلية، فقد كان يسأل كعباً عن التفسير

الصحيح لأُم القرآن للمرجان مثلاً، وقد رأى الناس في هؤلاء اليهود أن عندهم أحسن الفهم - على العموم - في القرآن وفي كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما فيهما من المعاني الدينية، ورجعوا إليهم سائلين عن هذه المسائل بالرغم من التحذير الشديد - من كل جهة - من سؤالهم" اهـ.

هذه هي عبارة الأستاذ "جولدزيهر" في كتابه، ومنها يتضح لنا مبلغ تبحره على الصحابة وعلى ابن عباس على الأخص.

وقد تابعه الأستاذ أحمد أمين على هذا الرأي، حيث يقول في "فجر الإسلام": "وقد دخل بعض هؤلاء اليهود في الإسلام، فتنسَّب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار، ودخلت في تفسير القرآن يستكملون بها الشرح، ولم يخرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم. روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تُصدّقوهم ولا تُكذّبوهم" ولكن العمل كان على غير ذلك، وأنهم كانوا يُصدّقونهم ويتفلون عنهم".

فالأستاذ "جولدزيهر"، والأستاذ أحمد أمين، يريان أن الصحابة - وبخاصة ابن عباس - لم يأبهوا لنهي الرسول صلى الله عليه وسلم، فصَدَّقُوا أهل الكتاب وأخذوا عنهم الكثير في التفسير، وأن اللون اليهودي قد صيغ مدارس التفسير القديمة، وبالأخص مدرسة ابن عباس، بسبب اتصالهم بمن دخل في الإسلام من أهل الكتاب.

رد هذا الاتهام:

والحق أن هذا غلو في الرأي، ويُعَدُّ عن الصواب، فابن عباس - كما قلت آنفاً - وغيره من الصحابة، كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يكن سؤالهم عن شيء من العقيدة، أو يتصل بأصول الدين أو فروعه، وإنما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية، ولم يكونوا يقبلون كل ما يُروى لهم على أنه صواب لا يتطرق إليه شك، بل كانوا يُحكِّمون دينهم وعقلهم، فما اتفق مع الدين والعقل صدَّقوه، وما خالف ذلك نَهَوْه، وما سكث عنه القرآن واحتمل الصدق والكذب توفَّقوا

فيه. وبهذا المسلك يكون الصحابة - رضوان الله عليهم - قد جمعوا بين قوله عليه الصلاة والسلام: "حذِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرْجَ"، وقوله: "لَا تُصَلُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَلِّبُوهُمْ" فإن الأول محمول على ما وقع فيهم من الحوادث والأخبار، لما فيها من العظة والاعتبار، بدليل قوله بعد ذلك: "فَإِنْ فِيهِمْ أَحَاجِبٌ"، والثاني محمول على ما إذا كان الْمُحْتَرَبُ به من قتلهم محتملاً، ولم يقم دليل على صدقه ولا على كذبه، لأنه ربما كان صدقاً في نفس الأمر فيكون في التكذيب به حَرْجٌ، وربما كان كذباً في نفس الأمر فيكون في التصديق به حَرْجٌ، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوطاقه، كما أفاده ابن حجر وثبَّه عليه الشافعي رضي الله عنه - وسيأتى مزيد للكلام عن هذين الحديثين عند الكلام عن الإسرائيليات في التفسير.

ثم كيف يستبيح ابن عباس رضي الله عنه لنفسه أن يُحدِّثَ عن بني إسرائيل بمثل هذا التوسع الذي يجعله مخالفاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان ابن عباس نفسه من أشد الناس نكيراً على ذلك، فقد روى البخاري في صحيحه عنه أنه قال: "يا معشر المسلمين؛ تسألون أهل الكتاب وكتابتكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله، تقرأونه لم يشب، وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب يَدُلُّوا ما كتب الله، وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ فَقَالُوا: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَشْفِقُوا بِهِ ثَمَنًا لَيْسَ﴾ [البقرة: ٧٩] .. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم من مسألتهم، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رجلاً منهم قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم".

رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم:

كان ابن عباس رضي الله عنه يرجع في فهم معاني الألفاظ الغريبة التي وردت في القرآن إلى الشعر الجاهلي، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق في فهم غريب القرآن، ويحض على الرجوع إلى الشعر العربي القديم، ليستعان به على فهم معاني الألفاظ القرآنية الغريبة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل أصحابه عن معنى قوله تعالى في الآية [١٧] من سورة

التحل: ﴿لَوْ يَلْقَاكَ عَلَى قَوْمٍ﴾ فيقوم له شيخ من هذيل فيقول له: هذه لغتنا، التحلوف: التتقص، فيقول له عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فيقول له: نعم، ويروى قول الشاعر:

تَحْلُوفُ الرَّحْلِ مِنْهَا تَابِكاً قَرِداً كَمَا تَحْلُوفُ عُمُودِ النَّبْعِ السَّيْفِ
فيقول عمر رضي الله عنه لأصحابه: "عليكم بديوانكم لا تفلأوا، قالوا:

وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم".

غير أن ابن عباس، امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره، فكثيراً ما كان يُسئل عن القرآن فينشد فيه الشعر، وقد روى عنه الشن الكثير من ذلك، وأوجب ما روى عنه مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها، وقد بلغت مائتي مسألة، أخرج بعضها ابن الأنباري في كتاب "الوقف والابتداء"، وأخرج الطبراني بعضها الآخر في معجمه الكبير، وقد ذكر السيوطي في "الإتقان" بسنده مبدأ هذا الحوار الذي كان بين نافع وابن عباس، وسرد مسائل ابن الأزرق وأجوبة ابن عباس عنها، فقال: "يُنَا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتشفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إننا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ الْبَيْنِ وَنَحْيِ الْبَيْنِ﴾ [المعارج: ٣٧]؟ قال: العزوب: حلق الرقاق، قال: هل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا؟

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا إِلَهَ الْوَسِيلَةِ﴾ [المائدة: ٣٥]؟ قال: الوسيلة: الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إيلك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي
إلى آخر المسائل وأجوبتها، وهي تدل على قوة ابن عباس في معرفته بلغة

العرب، وإمامه بغريبها، إلى حد لم يصل إليه غيره، مما جعله - بحق - إمام التفسير في عهد الصحابة، ومرجع المفسرين في الأعصر التالية للعصر الذي وُجد فيه، وزعيم هذه الناحية من التفسير على الخصوص، حتى لقد قيل في شأنه: "إنه هو الذي أبدع الطريقة اللغوية لتفسير القرآن".

هذا وقد بين لنا ابن عباس رضي الله عنه، مبلغ الحاجة إلى هذه الناحية في التفسير، وحضَّ عليها مَنْ أراد أن يتعرف غريب القرآن، فقد روى أبو بكر الأنباري عنه أنه قال: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعتنا إلى ديوانها فالتبسنا ذلك منه".

وروى ابن الأنباري عنه أيضاً أنه قال: "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتبسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب".

فابن عباس رضي الله عنه كان يرى رأى عمر في ضرورة الرجوع إلى الشعر الجاهلي، للاستعانة به على فهم غريب القرآن، بل وكان أكثر الصحابة إماماً بهذه الناحية وتطبيقاً لها.

وقد استمرت هذه الطريقة إلى عهد التابعين ومن يليهم، إلى أن حدثت خصومة بين متورعي الفقهاء وأهل اللغة، فأنكروا عليهم هذه الطريقة، وقالوا: إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن، وقالوا: كيف يجوز أن يُحتج بالشعر على القرآن، وهو مدموم في القرآن والحديث.

والحق أن هذه الخصومة التي جَدَّتْ في الأجيال المتأخرة لم تقم على أساس، فالأمر ليس كما يزعمه أصحاب هذا الرأي، من جعل الشعر أصلاً للقرآن، بل هو في الواقع، بيان للحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، وقال: ﴿يَلَسَنَّ عَرَبِيٌّ﴾ [الشعراء: ١٩٥].. ولهذا لم يتحرج المفسرون إلى يومنا هذا من الرجوع إلى الشعر الجاهلي للاستشهاد به على المعنى الذي يذهبون إليه في فهم كلام الله تعالى.

الرواية عن ابن عباس ومبلغها من الصحة:

روى عن ابن عباس رضي الله عنه في التفسير ما لا يُحصى كثرة،

وتعددت الروايات عنه، واختلفت طرقها، فلا تكاد تجد آية من كتاب الله تعالى إلا ولايين عباس رضى الله عنه فيها قول أو أقوال، الأمر الذى جعل الثَّغَاد الأثر ورواة الحديث يفتقون إزاء هذه الروايات التى تجاوزت الحد وقفة المرتاب، فتتبعوا سلسلة الرواة فعُدُّوا العُدُول، وجَرَّحُوا الضُّعفاء، وكشفوا للناس عن مقدار هذه الروايات قوة وضعفاً. وأرى أن أسوق هنا أشهر الروايات عن ابن عباس، ثم أُبين مبلغها من الصحة أو الضعف، لتعلم إلى أى حد وصل الوضع والاختلاق على ابن عباس رضى الله عنه. وهذه هى أشهر الطرق:

أولها: طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهذه هى أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد رضى الله عنه: "إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً". وقال الحافظ ابن حجر: "وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهى عند البخارى عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها فى صحيحه فيما يُعلِّقه عن ابن عباس".

وكثيراً ما اعتمد على هذه الطريق ابن جرير الطبرى، وابن أبي حاتم، وابن المنذر بوساطة بينهم وبين أبي صالح. ومسلم صاحب الصحيح وأصحاب السنن جميعاً يحتجون بعلي بن أبي طلحة.

طعن بعض الثَّغَاد على هذه الطريق:

والقد حاول بعض الثَّغَاد أن يُثبِّل من قدر هذه الطريق فقال: "إن ابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد ابن جبير" وعلى هذا فهى طريق منقطعة لا يُرْكَن إليها، ولا يُعَوَّل عليها.

وقد استغل هذا القول الأستاذ "جولديهر" فى كتابه "المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن" فقال: "صرَّح النقاد المسلمون بأن ذلك الرجل - علي بن أبي طلحة - لم يسمع التفسير الذى تضمنه كتابه مباشرة من ابن عباس، وهكذا فإنه حتى فى صحة القسم الخاص بالتفسير الأكثر تصديقاً، يحكم النقاد

المسلمون بهذا الحكم فيما يتعلق بصحة نسبه لابن عباس على أنه هو المصدر الأول له" اهـ.

تفنيد هذا الطعن:

ويظهر لنا أن الأستاذ "جولدزيهر"، جهل أو تجاهل ما رَدَّ به النقاد المعتبرون على هذا الظن الذي لا قيمة له، فقد قُتد ابن حجر هذا النقد بقوله: "بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا خسر في ذلك".

وقال صاحب إشار الحق: "وقال الذهبي في الميزان: وقد روى - يعني على بن أبي طلحة عن ابن عباس تفسيراً كثيراً مستعاً، والصحيح عندهم أن روايته عن مجاهد عن ابن عباس، وإن كان يرسلها عن ابن عباس فمجاهد ثقة يُقبل"، وجملة القول: فهذه أصح الطرق في التفسير عن ابن عباس، وكفى بتوثيق البخاري لها واعتماده عليها شاهداً على صحتها.

ثانيها: طريق قيس بن مسلم الكوفي، عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس. وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يُخرُج منها القريائي والحاكم في مستدركه.

ثالثها: طريق ابن إسحاق صاحب السير، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهي طريق جيدة وإسنادها حسن وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الطبراني منها في معجمه الكبير.

رابعها: طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، تارة عن أبي مالك، وتارة عن أبي صالح عن ابن عباس. وإسماعيل السدي مُختلف فيه، وحديثه عند مسلم وأهل السنن الأربعة، وهو تابعي شيعي، وقال السيوطي: "روى عن السدي الأئمة مثل الثوري وشعبة، لكن التفسير الذي جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم ينفقوا عليه، غير أن أمثل التفسير تفسير السدي" وابن جرير يُورد في تفسيره كثيراً من تفسير السدي عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس، ولم يُخرُج منه ابن أبي حاتم شيئاً، لأنه التزم أن يُخرُج أصح ما ورد.

خامسها: طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس، وهي تحتاج إلى دقة في البحث، ليعرف الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع، وإنما روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم، فلم يتميز في روايته الصحيح من غيره، وقد روى عن ابن جريج هذا جماعة كثيرة، منهم بكر من سهل الدمياطي، عن عبد الغني بن سعيد، عن موسى بن محمد، عن ابن جريج عن ابن عباس، ورواية بكر بن سهل أطول الروايات عن ابن جريج وفيها نظر. ومنهم محمد بن ثور، عن ابن جريج، عن ابن عباس، روى ثلاثة أجزاء كبار. ومنهم الحجاج بن محمد عن ابن جريج، روى جزءاً وهو صحيح متفق عليه.

سادسها: طريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس، وهي غير مرضية، لأنه وإن وثقه نفر فطريقه إلى ابن عباس متقطعة، لأنه روى عنه ولم يلقه، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، فضعيفة لضعف بشر، وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابن جرير وابن أبي حاتم. وإن كان من رواية جوير عن الضحاك فأشد ضعفاً، لأن جوير شديد الضعف متروك، ولم يخرج ابن جرير ولا ابن أبي حاتم من هذه الطريق شيئاً، إنما خرجها ابن مردويه، وأبو الشيخ بن حبان.

سابعها: طريق عطية العوفي، عن ابن عباس، وهي غير مرضية، لأن عطية ضعيف ليس براو، وربما حُسن له الترمذي. وهذه الطريق قد أخرج منها ابن جرير، وابن أبي حاتم كثيراً.

ثامنها: طريق مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني، وهو المفسر الذي يُنسب إلى الشافعي أنه قال فيه: "إن الناس عيال عليه في التفسير" ومع ذلك فقد ضَعُفوه، وقالوا: إنه يروى عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما. وقد كذبه غير واحد، ولم يؤثقه أحد، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه، وتكلم عنه السيوطي. فقال: "إن الكلبي يُفضّل عليه، لما في مقاتل من المذاهب الردية" وقد سئل وكيع عن تفسير مقاتل فقال: "لا تنظروا فيه، فقال السائل: ما أصنع به؟ قال: ادفعه" - يعني التفسير - وقال أحمد بن حنبل: لا يعجبني أن أروى

عن مقاتل بن سليمان شيئاً. وبالجمله فإن من استحسّن تفسير مقاتل كان يُضَعِّفه ويقول: "ما أحسن تفسيره لو كان ثقة".

قاسمها: طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذه أو هي الطرق، والكلبي مشهور بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشيع كما قال عدي في الكامل، ومع ذلك فإن وُجِدَ مَنْ قال: رضوه في التفسير، فقد وُجِدَ مَنْ قال: أجمعوا على ترك حديثه، وليس بثقة، ولا يُكْتَب حديثه، واتهمه جماعة بالوضع. ومن يروى عن الكلبي، محمد بن مروان السدي الصغير، وقد قالوا فيه: إنه يضع الحديث، وذاهب الحديث متروك، ولهذا قال السيوطي في الإتقان: "فإن انضم إلى ذلك - أي طريق الكلبي - رواية محمد بن مروان السدي الصغير، فهي سلسلة الكذب"، وقال السيوطي أيضاً في كتابه الدر المنثور (ج ٦ ص ٤٢٣): "الكلبي: اتهموه بالكذب وقد مرض فقال لأصحابه لي مرض: كل شيء حدثكم عن أبي صالح كذب... ومع ضعف الكلبي فقد روى عنه تفسيره مثله أو أشد ضعفاً، وهو محمد بن مروان السدي الصغير" وكثيراً ما يخرج من هذه الطريق الثعلبي والواحدي.

هذه هي أشهر الطرق عن ابن عباس، صحيحها وسقيمها، وقد عرفت قيمة كل طريق منها، ومن اعتمد عليها فيما تُجمع من التفسير عن ابن عباس رضي الله عنه.

التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيمته:

هذا... وقد نُسِبَ إلى ابن عباس رضي الله عنه جزء كبير في التفسير، وطُبع في مصر مراراً باسم "تويز المقياس من تفسير ابن عباس" جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشافعي، صاحب القاموس المحيط، وقد اطلعت على هذا التفسير، فوجدتُ جامعه يسوق عند الكلام عن السلسلة الرواية عن ابن عباس بهذا السند: "أخبرنا عبد الله الثقة بن المأمون الهروي، قال: أخبرنا أبي، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازي، قال: أخبرنا همار بن عبد المجيد الهروي، قال: أخبرنا علي بن إسحاق السمرقندي، عن محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس".

وعند تفسير أول سورة البقرة، وجدته يسوق الكلام بإسناده إلى عبد الله ابن المبارك، قال: حدثنا علي بن إسحاق السمرقندي عن محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وفي مبدأ كل سورة يقول: وإسناده عن ابن عباس.

... وهكذا يظهر لنا جلياً، أن جميع ما روى عن ابن عباس في هذا الكتاب يدور على محمد بن مروان السدي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وقد عرفنا مبلغ رواية السدي الصغير عن الكلبي فيما تقدم. وحسبنا في التعقيب على هذا ما روى من طريق ابن عبد الحكم قال: "سمعت الشافعي يقول: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبه بمائة حديث" وهذا الخبر - إن صح عن الشافعي - يدلنا على مقدار ما كان عليه الوضّاعون من الجرأة على اختلاق هذه الكثرة من التفسير المنسوبة إلى ابن عباس، وليس أدل على ذلك، من أنك تلمس التناقض ظاهراً بين أقوال في التفسير نسبت إلى ابن عباس ورويت عنه. وسيأتي - عند الكلام عن الوضع في التفسير - أن هذا التفسير المنسوب إلى ابن عباس لم يفقد شيئاً من قيمته العلمية في الغالب، وإنما الشيء الذي لا قيمة له فيه، هو نسبة إلى ابن عباس.

أسباب الوضع على ابن عباس:

ويبدو أن السر في كثرة الوضع على ابن عباس، هو أنه كان من بيت النبوة والوضع عليه يُكسب الموضوع ثقة وقوة أكثر مما لو وُضع على غيره، أضيف إلى ذلك أن ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، وكان من الناس مَنْ يتزلف إليهم، ويتقرب منهم بما يرويه لهم عن جدهم... وستعرض إلى أسباب الوضع في التفسير، وإلى القيمة العلمية للتفسير الموضوع بصرف النظر عن وضعه، عند الكلام على منشأ الضعف في رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

٢- عبد الله بن مسعود:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل، يصل نسبه إلى مُضَر، ويكنى بأبي عبد الرحمن الهذلي، وأمه أم عبد بنت عبد ود، من هذيل، وكان يُنسب إليها أحياناً

فيقال ابن أم عبد. كان رحمه الله خفيف اللحم، قصيراً، شديد الأذعة، أسلم قديماً. روى الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود - : "لقد رأيتني سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا" وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريباً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأودى في الله من أجل ذلك، ولما أسلم عبد الله ابن مسعود أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فكان يخدمه في أكثر شؤونه، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله، يلبسه إياه إذا قام، ويخلعه ويحملة في ذراعه إذا جلس، ويمشي أمامه إذا سار، ويستتره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلج عليه داره بلا حجاب، حتى لقد ظنه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففنى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزومه له". وهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وصلى إلى القبلتين، وشهد بدرًا، وأخذًا، والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد اليرموك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وشهد له بالفضل وعلو المنزلة، يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو كنت مؤمراً أحداً دون مشورة المؤمنين لأثرت ابن أم عبد". وقد ولي بيت المال بالكوفة لعمر وعثمان، وقدم المدينة في آخر عمره، ومات بها سنة اثنين وثلاثين، ودفن بالبقيع ليلاً، تقيفاً لوصيته بذلك، وكان عمره يوم وفاته، بضعاً وستين سنة.

سبلغه من العلم:

كان ابن مسعود من أحفظ الصحابة لكتابة الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع منه القرآن، وقد أخبر هو بنفسه عن ذلك فقال:

"قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأ على سورة النساء"، قال: قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: "إنى أحب أن أسمعه من غيرى"، فقرأت عليه حتى بلغت: ﴿تَكَفَّ بِمَا يَسْكَنُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَعِندَكَ عَلَى هَذِهِ شَهِيدٌ﴾ [النساء: 41] فاضت عيناه - صلى الله عليه وسلم - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد"، وكان ابن مسعود يعرف ذلك من نفسه ويعتنى به، حتى إنه كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف فى عهد عثمان، وكان يرى أنه أولى منه بذلك، وقد قال فى هذا: "يا معشر المسلمين، أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر؟" - يريد زيد بن ثابت - وعن مسروق أنه قال: "انتهى علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ستة: عمر، وعلى، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، وأبى الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين: على، وعبد الله"، وقيل لحذيفة: أشخّرنا برجل قريب السمى والدك والهدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم نأخذ عنه، فقال: "لا نعلم أحداً أقرب سمناً ولا قديماً برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة". ولما سئره عمر رضى الله عنه إلى الكوفة كتب إلى أهلها: "إنى قد بعثت عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فافتدوا بهما، وأطعما واسمعا قولهما، وقد آثرنكم بعبد الله على نضى".

وقد أقام رضى الله عنه بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث والتفسير والفقه، وهو معلمهم وقاضيه، ومؤسس طريقتهم فى الاعتداد بالرأى حيث لا يوجد النص، ولما قدم على الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله وقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلاً أحسن خلقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من ابن مسعود، قال على: "أنشدكم الله أهو الصديق من قلوبكم؟" قالوا: نعم، قال: "اللهم اشهد أنى أقول مثل ما

قالوا وأفضل". ومن هذا كله يتبين لنا مكانة ابن مسعود رضى الله عنه فى العلم، ومزنته بين إخوانه من الصحابة، فالكل يشهد له ويُقدِّمه على غيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

قيمة ابن مسعود فى التفسير:

روى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه قال: "كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"، ومن هذا الأثر يتضح لنا مقدار حرص ابن مسعود على تفهم كتاب الله تعالى والوقوف على معانيه، وعن مسروق قال: "قال عبد الله - يعنى ابن مسعود -: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته"، وهذا الأثر يدل على إحاطة ابن مسعود بمعانى كتاب الله، وأسباب نزول الآيات، وحرصه على تعرف ما عند غيره من العلم بكتاب الله تعالى ولو لقي عنتاً ومشقة، وقال مسروق: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار، وروى أبو نعيم فى الحلية عن أبى البحتري قال: قالوا لعلى: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: علم القرآن والشُّئْة ثم انتهى، وكفى بذلك علماً، وقال عقبه بن عامر: ما أدرى أحداً أعلم منه بما نزل على محمد ابن عبد الله، فقال أبو موسى: إن تقل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل، وضح عن ابن مسعود أنه قال: أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة، وقال أبو وائل: لما حرق عثمان المصاحف بلغ ذلك عبد الله فقال: لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم، ولو أنى أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته، قال أبو وائل: فقمتم إلى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحداً من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه... وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد لمنزلة ابن مسعود العالية فى التفسير، وإذا كان ابن مسعود يعلم هذا من نفسه ويتحدث به، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينكروا عليه ذلك، بل وتحذَّثوا بمكانته فى العلم، ومقدار فهمه لكتاب الله، وعُلِّل ذلك أبو موسى الأشعري رضى الله

عنه، بأنه كان يسمع حين لا يتيسر لهم السماع، ويدخل حين لا يؤذن لهم بالدخول، الأمر الذي جعله أوفر حظاً في الأخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعظم نصيباً من الاعتراف من منهل النبوة الفيض، ولئن صح عن أبي الدرداء أنه قال بعد موت ابن مسعود: ما ترك بعده مثله، لهي شهادة منه على مقدار علمه، وسمو مكانته بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالجملته فابن مسعود كما قيل: أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، وأعرفهم بمحكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه، وقصصه وأمثاله، وأسباب نزوله، قرأ القرآن فأحلّ حلاله وحرم حرامه، فقيه في الدين، عالم بالسنة، بصير بكتاب الله.

الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة:

ابن مسعود أكثر من رُوي عنه في التفسير من الصحابة بعد ابن عباس رضي الله عنه، قال السيوطي في الإتقان: وأما ابن مسعود فقد رُوي عنه أكثر مما رُوي عن علي، وقد حمل علم ابن مسعود في التفسير أهل الكوفة نظراً لوجوده بينهم، يجلس إليهم فيأخذون عنه ويروون له، فمن رواه مسروق بن الأجدع الهمداني، وعلقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد، وغيرهم من علماء الكوفة الذين تعلموا له ورووا عنه. وسيأتي الكلام على هؤلاء جميعاً - إن شاء الله تعالى - عند الكلام عن التفسير في عصر التابعين، وقد وردت أسانيد كثيرة تنتهي إلى ابن مسعود، نجدتها ميثقة في كتب التفسير بالمأثور وكتب الحديث، ومن هذه الروايات ما يمكن الاعتماد عليه والثقة به، ومنها ما يعتريه الضعف في رجاله، أو الانقطاع في إسناده، وقد تتبع العلماء الثقات هذه الروايات، كما تبعوا غيرها بالنقد ترجيحاً وتعديلاً وهذه هي أشهر الطرق عن ابن مسعود:

أولاً: طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود، وهذه الطريق من أصح الطرق وأسلمها، وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه.

ثانياً: طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود، وهذه أيضاً طريق

صحيحة لا يعترها الضعف. وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه أيضاً.
ثالثاً: طريق الأعمش، عن أبي واثل، عن ابن مسعود. وهذه أيضاً طريق
 صحيحة يُخرِّج البخاري منها، وكفى بتخريج البخاري شاهداً على صحة
 وصحة ما سبق.

رابعاً: طريق السدي الكبير، عن مرة الهمداني، عن ابن مسعود. وهذه
 الطريق يُخرِّج منها الحاكم في مستدركه، ويصحح ما يُخرِّجه. وابن جرير يُخرِّج
 منها في تفسيره كثيراً، وقد علمت فيما مضى قيمة السدي الكبير في باب
 الرواية.

خامساً: طريق أبي روق، عن الضحاک، عن ابن مسعود، وابن جرير
 يُخرِّج منها في تفسيره أيضاً. وهذه الطريق غير مرضية، لأن الضحاک لم يلق ابن
 مسعود فهي طريق منقطعة.

٣- علي بن أبي طالب:

هو أبو الحسن، علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي،
 ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصهره علي ابنته فاطمة، وذريته
 صلى الله عليه وسلم منها. أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. وهو أول هاشمي وُلِدَ
 من هاشميين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأول خليفة من بني هاشم، وهو أول
 مَنْ أسلم من الأحداث وصُلِّقَ برسول الله صلى الله عليه وسلم. هاجر إلى
 المدينة، وموقفه من الهجرة مشهور، قيل: ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ
 مَنَ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْنَكَا مَهْكَا أَفَلَا يَذْقُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٧] . . وقد شهد علي
 المشاهد كلها إلا تبوك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه على أهله،
 وله في الجميع بلاء عظيم ومواقف مشهورة، وقد أعطاه الرسول صلى الله عليه
 وسلم اللواء في مواطن كثيرة، وقال يوم خيبر: "لأعطين الراية رجلاً يفتح الله
 على يديه، يُحب الله ورسوله، ويُحب الله ورسوله"، ثم أعطاها لعلي رضي
 الله عنه، وأخاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما آخى بين أصحابه وقال
 له: "أنت أخي في الدنيا والآخرة" وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، اجتمع
 فيه من الفضائل ما لم يحفظ به غيره، فمن ورع في الدين، إلى زهد في الدنيا،

إلى قرابة وصهر برسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى علم جم وفصل غزير، وقد توفي رحمه الله في رمضان سنة أربعين من الهجرة، مقتولاً بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي، وعمره ثلاث وستون سنة، وقيل غير ذلك.

مبلغه من العلم:

كان رضى الله عنه بحرّاً في العلم، وكان قوى الحُجّة، سليم الاستنباط، أوتيَ الحظ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر، وكان ذا عقل قضائي ناضج، وبصيرة نافذة إلى بواطن الأمور، وكثيراً ما كان يرجع إليه الصحابة في فهم ما خفى واستجلاء ما أشكل، وقد ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء اليمن، ودعا له بقوله: "اللهم ثبّت لسانه واهد قلبه"، فكان مؤلفاً ومُسلّداً، قيصلاً في المعطولات، حتى شُرب به المثل فقيل: "فضية ولا أبا حسن لها"، ولا عجب، فقد تربى في بيت النبوة، وتغذّى بليان معارفها، وغنّته مشكاة أنوارها. روى علقمة عن ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أفضى أهل المدينة عليّ بن أبي طالب، وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من عليّ؟ قال: لا، والله لا أعلمه، وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: "إذا ثبت لنا شيء، عن عليّ لم نعدل عنه إلى غيره".

والذي يرجع إلى أفضية عليّ رضى الله عنه وخطبه ووصاياه، يرى أنه قد وُهبَ عقلاً ناضجاً، وبصيرة نافذة، وحفظاً وافراً من العلم وقوة اليان.

مكانته من التفسير:

جميع عليّ رضى الله عنه إلى مهارته في القضاء والفتوى، علمه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفى معانيه، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: "ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب".

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عليّ رضى الله عنه أنه قال: "والله ما نزلت آية إلا وقد علمتُ قيم نزلت، وأين نزلت، وإن ربي وحيّ لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤولاً".

ومن أبي الطفيل قال: "شهدتُ علياً يخطب وهو يقول: سلوني، فوالله

لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فواللّٰو ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل، أم في جبل".

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود قال: "إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف، إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن".

وغير هذا كثير من الآثار التي تشهد له بأنه كان صدر المفسرين والمؤيد فيهم.

الرواية عن علي ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية في التفسير عن علي رضي الله عنه، كثرة تجاوزت الحد، الأمر الذي لفت أنظار العلماء النقاد، وجعلهم ينتبهون الرواية عنه بالبحث والتحقيق، ليميزوا ما صحح من غيره.

وما صحح عن علي في التفسير قليل بالنسبة لما وُضِع عليه، ويرجع ذلك إلى غلاة الشيعة، الذين أسرفوا في حبه فاختلفوا عليه ما هو برئ منه، إما ترويحاً لمذهبهم وتدعيماً له، وإما لظنهم الفاسد أن الإغراق في نسبة الأقوال العلمية إليه يُعَلِّي من قدره، ويرفع من شأنه العلمي. وأظن أن ما تُسب إلى علي من قوله: "لو شئتُ أن أُؤَيِّزَ سبعين معيراً من تفسير أم القرآن لفعلت" لا أصل له، اللهم إلا في أوهام الشيعة، الذين يغالون في حبه، ويتجاوزون الحد في مدحه. ثم هناك ناحية أخرى أغرت الوُضَّاع بالكذب عليه، تلك الناحية هي نسبته إلى بيت النبوة، ولا شك أن هذه الناحية، تُكسب الموضوع قبولاً، وتعطيه رواجاً وذهبواً على ألسن الناس، والحق أن كثرة الوضع على علي رضي الله عنه أفسدت الكثير من علمه، ومن أجل ذلك لم يعتمد أصحاب الصحيح فيما يروونه عنه إلا على ما كان من طريق الأثبات من أهل بيته، أو من أصحاب ابن مسعود، كعبيدة السلماني وشريح، وغيرهما. وهذه أهم الطرق عن علي في التفسير:

أولاً: طريق هشام، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، عن علي، طريق صحيحة، يُخَرِّجُ منها البخاري وغيره.

ثانياً: طريق ابن أبي الحسين، عن أبي الطفيل، عن عليّ. وهذه طريق صحيحة، يُخرَج منها ابن هبة في تفسيره.

ثالثاً: طريق الزهري، عن عليّ زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه عليّ. وهذه طريق صحيحة جداً. حتى عدّها بعضهم أصح الأسانيد مطلقاً، ولكن لم تشتهر هذه الطريق اشتهاً للطريقين السابقين نظراً لما ألصقه الطعفاء، والكذّابون بزين العابدين من الروايات الباطلة.

٤- أبي بن كعب:

هو أبو المنذر، أو أبو الطفيل، أبي بن كعب بن قيس، الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدراً، وهو أول من كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمة المدينة، وقد أثنى عليه عمر رضي الله عنه فقال: "أبى سيد المسلمين" وقد أُلْحِث في وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر على أنه مات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

مبلغه من العلم:

كان أبي بن كعب سيد القراء، وأحد كُتّاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال فيه صلى الله عليه وسلم: "وأقرؤهم أبي بن كعب"، وليس أدل على جودة حفظه لكتاب الله تعالى من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج الترمذي بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب: إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿ثُمَّ يَكُنِ الْوَيْلُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: أله سمائي لك؟ قال: نعم، فجعل أبي يكي".

وفي رواية أنه قيل لأبي: وفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعي وهو يقول: ﴿قَدْ بَقِيَ الْقَوَّ وَرَحِمِي قَدْ بَقِيَ كَفَرُوا هُوَ خَيْرٌ مِنَّا يَحْمِلُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وروى الشعبي عن مسروق قال: "كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة: عمر، وعليّ، وعبد الله، وأبي، وزيد، وأبو موسى".

مكانته في التفسير:

كان **أَبْنُ بِن كَعْب** من أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعاني كتاب الله، هو أنه كان حَبِيراً من أحبار اليهود، العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها، وكونه من كُتَّاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه، ومُلَظِّم القرآن ومُؤَخَّره، وناسخه ومنسوخه، ثم لا يُعقل بعد ذلك أن تمر عليه آية من القرآن بشكل معناها عليه دون أن يسأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لهاذ كله عُدَّ **أَبْنُ بِن كَعْب** من المكثرين في التفسير، الذين يُعْتَدُّ بما صح عنهم، ويُعَوَّل على تفسيرهم.

الرواية عنه في التفسير ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية عن **أَبْنِ بِن كَعْب** في التفسير وتعددت طرقها، وتبع العلماء هذه الطرق بالنقد، فعدَّلُوا وجرَّحُوا، لأنه كغيره من الصحابة لم يسلم من الوضع عليه - وهذه هي أشهر الطرق عنه :

أولاً: طريق **أَبِي جَعْفَر الرَّاظِي**، عن **الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ**، عن **أَبِي الْعَالِيَةِ**، عن **أَبْنِ رَضِيَ** الله عنه. وهذه طريق صحيحة، وقد ورد عن **أَبْنِ**، نسخة كبيرة في التفسير، يرويها **أَبُو جَعْفَر الرَّاظِي** بهذا الإسناد إلى **أَبْنِ**، وقد خرَّج ابن جرير وأبو حاتم منها كثيراً، وأخرج الحاكم منها أيضاً في مستدركه، والإمام أحمد من مسنده.

ثانياً: طريق **وَكَيْعٍ** عن **سَفِيَّانَ**، عن **عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ**، عن **الطُّفَيْلِ بْنِ أَبِي بِن كَعْبٍ**، عن أبيه، وهذه يُخَرِّجُ منها الإمام أحمد في مسنده، وهي على شرط الحسن، لأن **عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ** وإن كان صدوقاً تكلم فيه من جهة حفظه، قال **الترمذِيُّ** في سننه: "عبد الله بن محمد بن عَقِيلٍ، هو صدوق وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قِبَلِ حفظه، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان أحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، والحميدي، يحتجون بحديث عبد الله بن محمد بن عَقِيلٍ قال محمد - يعني البخاري - : وهو مقارب الحديث، ونص الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد على أن حديثه حسن".

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

أطلق الحاكم في المستدرک: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي، له حكم المرفوع، فكأنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعزا هذا القول للشيخين حيث يقول في المستدرک: "ليعلم طالب الحديث، أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل - عند الشيخين - حديث مستند" ولكن قيّد ابن الصلاح، والنووي، وغيرهما، هذا الإطلاق، بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأي فيه، قال ابن الصلاح في مقدمته ص (٢٤): "ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مستند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا مدخل للرأي فيه، كقول جابر رضي الله عنه: كانت اليهود تقول: مَنْ أتى امرأته من دُبُرِها في قُبُلِها جاء الولد أحول، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسَاءَ لَكُمْ تَرْتُّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]... الآية، فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشمل على إضافة شيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمعدودة في الموقوفات".

ولكننا نجد الحاكم نفسه قد صرح في "معركة علوم الحديث" بما ذهب إليه ابن الصلاح وغيره حيث قال: ومن الموقوفات ما حدثناه أحمد بن كامل بسنده عن أبي هريرة في قوله: ﴿لَا تَأْكُلْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [المائدة: ٢٩].. قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلتفحهم لفتحة فلا تترك لحمًا على عظم، قال: فهذا وأشباهه يُعد في تفسير الصحابة من الموقوفات، فأما ما نقول: إن تفسير الصحابة مستند، فإنما نقوله في غير هذا النوع.. "ثم أورد حديث جابر في قصة اليهود وقال: "وهذا وأشباهه مستند ليس بموقوف، فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخير عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مستند".

فالحاكم قيّد في "معرفة علوم الحديث" ما أطلق في "المستدرک"، فاعتمد الناس ما قيّد، وتركوا ما أطلق، وعُيِّل السيوطي في "التدريب" إطلاق الحاكم بأنه كان حريصاً على جمع الصحيح في "المستدرک" حتى أورد فيه ما ليس من شرط المرفوع، ثم اعترض بعد ذلك على الحاكم، حيث عُدَّ الحديث المذكور عن أبي هريرة من الموقوف، وليس كذلك؛ لأنه يتعلق بذكر الآخرة، وهذا لا مدخل للرأى فيه، فهو من قبيل المرفوع.

وبعد هذا كله نخلص بهذه النتائج:

أولاً: تفسير الصحابي له حكم المرفوع، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكل ما ليس للرأى فيه مجال، أما ما يكون للرأى فيه مجال، فهو موقوف عليه ما دام لم يسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: ما حُكِّمَ عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده اتفاقاً، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال.

ثالثاً: ما حُكِّمَ عليه بالوقف، تختلف فيه أنظار العلماء:

فذهب فريق: إلى أن الموقوف على الصحابي من التفسير لا يجب الأخذ به لأنه لم يرفعه، فليُلم أنه اجتهد فيه، والمجتهد يُخطئ ويُصيب، والصحابة في اجتهادهم كسائر المجتهدين.

وذهب فريق آخر إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه، لظن سماعهم له من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنهم إن فسروا برأيهم قرأهم أصوب، لأنهم أدرى الناس بكتاب الله، إذ هم أهل اللسان، وليركة الصحابة والتخلق بأخلاق النبوة، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالائمة الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس وغيرهم.

قال الزركشي في "البرهان": "اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين، فالأول يُبحث فيه عن صحة السند، والثاني يُنظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل

اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه^{١٠}.

وقال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره: " وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، إما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختلفوا بها، وإما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله ابن مسعود رضي الله عنهم".

وهذا الرأي الأخير هو الذي تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب إيمًا ذكر.

ترجمة المؤلف

١- اسمه ونسبه، وكنيته ولقبه:

هو جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي.

كان والده علي صفياراً قد أنجب ثلاثة أبناء، وهم: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرازي، وقد توفي والده في أول سنة "٥١٤هـ" وقد أتم ولده عبد الرحمن الثالثة من عمره. ولقب جده جعفر بالجوزي نسبة إلى فريضة يقال لها: فريضة الجوز على شاطئ دجلة بالقرب من بغداد على الأرجح.

٢- مكان ولادته وتاريخها:

ولد عبد الرحمن بن الجوزي في أواخر عام "٥١٠هـ" في درب حبيب من نهر الملعلى في الجانب الشرقي من بغداد المسمى الرصافة، كما أن الجانب الغربي يسمى الكرخ، يصل بينهما جسران على نهر دجلة.

٣- عصره وبيئته:

كان العراق تحت سلطان السلاجقة منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وقد شهد القرن السادس صراعاً وانقساماً في البيت السلجوقي، مما أتاح للخلفاء العباسيين في بغداد استرداد شيء من سلطانهم.

وعاصر ابن الجوزي ستة من الخلفاء العباسيين، وهم على الترتيب: المسترشد "٥١٢-٥٢٩هـ"، والراشد "٥٢٩-٥٣٠هـ"، والمقتضي "٥٣٠-٥٥٥هـ"، والمستنجد "٥٥٥-٥٦٦هـ"، والمستظفي "٥٦٦-٥٧٢هـ"، والناصر "٥٧٢-٦٢٢هـ".

أما بغداد فقد فقدت في عهده شيئاً من محاسنها، وخيم الخراب على بعض أجزائها، بسبب الفتن والحروب والكوارث التي كانت تتعرض لها بين الغيبة والأخرى؛ فقد حدث في حياة ابن الجوزي حريق كبير عام ٥١٠هـ، وزلزال عام ٥١١هـ، وحريق في دار السلطة عام ٥١٥هـ، وفتنة وحروب عام ٥١٧هـ، وزلزال عام ٥٣٨هـ، وزلزال آخر عام ٥٤٤هـ، وطوفان عظيم عام ٥٥٤هـ غرقت فيها دار ابن الجوزي وتلفت كتبه، ثم جاء الوباء والمجاعة عام ٥٧٤هـ؛ لكنها بقيت محافظة على مكانتها العلمية والأدبية، يقصدها العلماء من كل ناحية ليزدادوا علماً. وحسبنا أن نعلم أن شيوخ ابن الجوزي قد بلغوا تسعة وثمانين شيخاً، وهو لم يرحل من بغداد إلا مرتين إلى الحج: الأولى سنة ٥٤١هـ، والثانية سنة ٥٥٣هـ.

٤- نشأته وطلبه للعلم:

توفي والده وهو طفل صغير أتم السنة الثالثة من عمره، فكفلته عمته، وقامت بأعباء تربيته، والعناية به، فحملته إلى مسجد الشيخ أبي الفضل ابن ناصر الذي اعتنى به، وعلمه. يقول -رحمه الله- في "لغة الكيد": "ولقد وفق لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله، وهو الذي تولى تسمييعي الحديث من زمن الصغر، وهو الذي جعله الله تعالى سبيلاً لإرشادي إلى العلم؛ فإنه كان يجتهد معي، وكان يحملني إلى الشيوخ العوالي، وأنا لا أعلم ما يراء مني، ولا أدري ما العلم من الصغر، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، وأثبت لي ما أسمعته بخطه، وأخذ لي إجازات، وعنه فتلت منه معرفة الحديث والنقل، ولم أستفد من أحد كاستفادتي منه".

وهكذا نشأ ابن الجوزي شغوفاً بالعلم على اختلاف فنونه، يقول في صيد الخاطر: "إني رجل حُبِّت إلي العلم من زمن الطفولة، فتشأغلت به، ثم لم يحيب إلي فن واحد بل فنون، ثم لم تقتصر همتي في فن على بعضه بل أروم استقصاءه".

وقد سخر للعلم كل وقته وماله، قال: "فلما بلغت دفعوا لي عشرين ديناراً ودارين، وقالوا لي: هذه الشركة كلها، فأخذت الدنانير، واشترت بها

كتب العلم، وبعث الدارين، وأنفقت ثمنها في طلب العلم، ولم يبق لي شيء من المال".

لم تكن مسيرة ابن الجوزي العلمية سهلة، بل لاقى فيها الشدائد، لكن حلاوة العلم كانت تدلل له كل صعب، قال رحمه الله: ولقد كنت في حلاوة طليي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو. كنت في زمان الصبا أخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج إلى طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء؛ فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندي أنني عرفت بكثرة سماعي لحديث وسير الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه، وأحوال الصحابة وتابعيه؛ فصررت في معرفة طريقة كابر أجود.

٥- شيوخه وحرصه على العلم:

تردد ابن الجوزي على علماء عصره ينهل من علمهم، حتى بلغ عدد شيوخه تسعة وثمانين شيخاً كسر كتاباً لذكرهم هو "مشيخة ابن الجوزي"؛ إلا أن أبرز شيوخه الذين تركوا أثراً في شخصيته أربعة هم:

أ- محمد بن ناصر السلامي: أبو الفضل "٤٦٧-٥٥٠هـ"، الإمام المتحدث الحافظ، ربي يتيماً في كفالة جده لأمه أبي حكيم الخيري، الذي لقنه القرآن، وسمعه الحديث، وقرأ ما لا يوصف كثرة، وحصل الأصول، وجمع وألف، وبعد صيته، وكان فصيحاً، مليح القراءة، قوي العربية، بارعاً في اللغة، جم الفضائل، ثقة، ثبتاً، حسن الطريقة، متديناً، فقيراً متعقفاً، نظيفاً نزهاً، وقف كتبه، ولم يعقب.

ب- علي بن عبيد بن نصر بن السري الزاغوني، أبو الحسن "٤٥٥-٥٢٧هـ"، العلامة الإمام شيخ الحنابلة، ذو الفنون، صاحب التصانيف، كان بحرًا من بحور العلم، يرجع إلى دين وتقوى، وزهد وعبادة، قال ابن الجوزي: صحبه زمانًا، وسمعت منه، وعلقت عنه الفقه والوعظ.

ج- عبد الوهاب بن المبارك الأنطاقي أبو البركات "٤٦٢-٥٣٨هـ"، الشيخ الإمام، الحافظ، المفيد، الثقة المستند، بقية السلف، قال السمعاني:

هو حافظ ثقة متقن واسع الرواية، ذائم البشر، سريع الدفعة، حسن المعاشرة، خرج البخاري، وجمع ما لا يوصف، ولعل له ما بقي جزء إلا قرأه، وحصل نسخته، وقال أبو موسى المديني: هو حافظ عصره ببغداد، وقال ابن الجوزي: كنت أقرأ عليه وهو يبكي، فاستفدت بكتاباته أكثر من استفادتي بروايته، وانتفعت به ما لم أنتفع بغيره.

د- موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي، أبو منصور ٤٦٥-٥٤٠هـ، إمام في النحو واللغة من مفاخر بغداد، قرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي، ولازمه وبرع، وهو ثقة، ورع، عزيز الفضل، وافر العقل، مليح الخط، كثير الضبط، صنف التصانيف، وشاع ذكره. وقال ابن الجوزي: قرأ الأدب سبع عشرة سنة على التبريزي، وانتهى إليه علم اللغة، ودرس العربية بالنظامية، وكان الخليفة المقتني يقرأ عليه شيئاً من الكتب، وكان متواضعاً، كثير الصمت، متيناً، يقول كثيراً: لا أدري.

وقال ابن التجار: هو إمام عصره في اللغة، كتب الكثير بخطه المليح المتقن مع مائة الدين، وصلاح الطريقة، وكان ثقة حجة نبلاً.

وقال الكمال ابن الأنباري: وكان منتفعاً به لديانته، وحسن سيرته، وقال ابن شافع: كان من المحامين عن السنة.

ولم يكتب ابن الجوزي بما قرأ واستفاد على شيوخه الأماثل، بل عكف يقرأ كل ما تطاله يده من كتب قال في صيد الخاطر: "وإني أخير عن حالي، وما أشيع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أراه فكأنني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثبوت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية؛ فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلد، وفي ثبوت كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب، وابن ناصر، وأبي محمد الشهاب، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر، وأنا بعد في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر همهم، وحفظهم، وعبادتهم، وغرائب علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحقر همم الطلاب ولله الحمد".

ومن جملة ما قرأ أجزاء كثيرة من "كتاب الفنون" لابن عقيل، وهو كتاب كبير جدًا، فيه فوائد كثيرة جليلة، في الوعظ، والتفسير، والفقه، والأصول والنحو واللغة والشعر، والتاريخ والحكايات، وفيه مناظراته ومجالسه التي وقعت له، وخواطره ونتائج فكره قيدها فيه، فاستفاد منه فوائد جمّة، ولعله هو الذي نبهه إلى تقييد خواطره، فكان منها كتابه "صيد الخاطر"، وفي الجملة ترك كتاب الفنون آثارًا بارزة في علم ومصنفات ابن الجوزي، قال رحمه الله عن كتاب الفنون: "وهذا الكتاب متنا مجلد، وقع لي منه نحو مئة وخمسين مجلدًا" وقال سبطه في "مرآة الزمان": "واختصر منه جدي عشر مجلدات فرقها في تصانيفه".

لقد كان حرصه على أوقات عمره شديدًا، فلا يضيع وقته من غير فائدة، حتى السويعات التي يضطر فيها لاستقبال زائريه، كان يشغلها بأمور تتعلق بعلومه، يقول في صيد الخاطر: "ثم أعددت أعمالًا لا تسع من المحادثة لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من الاستعداد للقائهم قطع الكاغد ويري الأقلام، وحزم الدفاتر؛ فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر، وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي".

ثم حُب إليه في بداية الطلب طريق الزهاد، فاستمع إليه يصف حاله قائلاً: "كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد بإدامة الصوم والصلاة، وحببت إلي الخلوة فكانت أجد قلبًا طيبًا، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة، تنأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أسى وحلاوة مناجاة".

٦- تصوره للوعظ والإرشاد:

إلا أن الفن الذي أحبه ابن الجوزي هو الوعظ والإرشاد، فأعد له العدة من علوم الشريعة واللغة والأدب والتاريخ، فحفظ الكثير من الأحاديث والرفائق والأخبار والحكايات والأشعار، مع إحاطة تامة بأحوال عصره وشؤون مجتمعه، وأحوال الناس خاصتهم وعامتهم، وعندما استوت له أدواته

- وهو يعد في مقتبل العمر - أقبل يعقد مجالس الوعظ، وكان أولها في جامع المتصور سنة ٥٢٧هـ.

وبدأت مجالسه تستقطب الناس، فازدحم عليه أهل بغداد، ينهلون من علمه ووعظه وتذكيره خاصتهم وعامتهم، حتى صار علماً من أعلام بغداد، ومفخرة تفاخر بها غيرها من المدن، فكان زوار بغداد يحرسون على حضور مجالسه التي لم يكن لها نظير في العالم الإسلامي.

وها هو الرحالة الأندلسي الشهير "محمد بن أحمد بن جبير" يحضر أحد هذه المجالس ويصفها في بيان رائع في رحلته المشهورة، فيقول: "ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحّد، جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره، على اتصال من قصور الخليفة، وبمقرية من باب اليصلية آخر أبواب الجانب الشرقي، وهو يجلس به كل سبت، فشهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف القرا كل الصيد، آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلية هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والقائض في بحر فكره على نفائس الدرر، فأما نظمه فد "وهي" الطباع "مهياري" الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل به "قس" و "سحبان".

ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته: أنه يصعد المنبر، ويستدعي القراء بالقراءة، وعددهم نيف على العشرين قارئاً، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القراءة، يتملونها على نسق بتطريب وتشويق؛ فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية. ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة، وقد أتوا بآيات متشابهات، لا يكاد المتفقد الخاطر يحلها عدة، أو يسميها نسقاً، فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته صجلاً مبشراً، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دروا، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقرأ، وأثنى بها على نسق القراءة لها لا

مقدمًا ولا مؤخرًا، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها، فلو أن أبرع من في المجلس تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلًا، ويورد الخطبة الغراء بها عجلًا: ﴿أَفَيْسَتْ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ١٥]، ﴿إِنَّ هَٰذَا هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [النمل: ١٦]، فحدث عن البحر ولا حرج وهيهات، ليس الخير عنه كالحُجْر.

ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقًا، وذابت بها الأنفس احتراقًا، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن الثائبون بالصباح، وتساخطوا عليه تساقط الغرائس على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعيًا له، ومنهم من يغشى عليه، فيرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هولًا يعلل الأنفس إثابة وندامة، ويذكر بأحوال يوم القيامة؛ فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مقازة الغفر إلا للمشاهدة مجلس من مجالسه لكانت صفقة رابحة، والوجهة المفلجة الناجحة، والحمد لله على أن من بلقاء من تشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله، وفي أثناء مجلسه ذلك تبتدره المسائل، وتطير إليه الرقاع؛ فيجواب أسرع من طرفة العين وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، لا إله سواه*.

٧- تصنيفه:

ثم رأى ابن الجوزي أن التصنيف في فن الوعظ يكمل مجالسه؛ بل يعمم نفعها، فالكتاب يبلغ ما لا يبلغه الخطاب، وهو باق وصاحبه موصد تحت الثراب.

ويقول رحمه الله: "رأيت من الرأي القويم أن نفع التصنيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأنني أشافه في عمري عددًا من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلفًا لا يحصون ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصنيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم؛ فينبغي للعالم أن يتوفر على التصنيف إن وفق للتصنيف المفيد . . . *".

لقد ابتدأ ابن الجوزي في التصنيف وله من العمر سبع عشرة سنة؛ فلا

غاية أن يكون من أكثر المصنفين في الإسلام، وقد تجاوز عدد مؤلفاته أربعمائة كتاب، أفرد لها الأستاذ عبد الحميد العلوجي كتاباً سماه مؤلفات ابن الجوزي كما أن الإمام الذهبي سرد أسماء الكثير منها في سيره "٣٧٠ / ٢١" ومنها: أفة أصحاب الحديث والرد على عبد المغيث. أحكام النساء. أخائر الذخائر. أخبار الأعيان. أخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ. أخبار البرامكة. الأرج في الموعظة. إرشاد المريدين في حكايات الصالحين. الأريب في تفسير الغريب. أسباب النزول. أسباب الهداية لأرباب البداية. إسرار الموالى. الإشارة إلى القراءة المختارة. أعلام الحياء بأغلاط الإحياء للغزالي. أعمار الأعيان في التاريخ والتراجم. إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخة. أسس الفريد وبغية المريد. الإنصاف في مسائل الخلاف. إيقاظ الوسنان في الموعظة. البازي الأشهب المنقش على مخالفني المذهب. بستان الصادقين. بستان الواعظين ورياض السامعين. البلغة في الفروع. بيان خفلة القائلة بعدم أفعال العباد. تبصرة المبتدي. تحفة الواعظ وتزهة الملاحظ. التحقيق في أحاديث الخلاف. تذكرة الأديب في تفسير الغريب. تذكرة الخواص. تذكرة المته في عيون المشتبه. تعازي الملوك. تقريب الطريق الأبعد في فضل مغفرة أحمد. تقرير القواعد وتحرير الفوائد. تقويم اللسان في سياق درة الفواص. تلييس إيليس. تلقيح فهوم الأثر في التاريخ والسير. تنبيه التائب الغمر على مواسم العمر. تنوير الغيش في أحوال الأعيان من الحيش تيسير البيان في تفسير القرآن. الثبات عند الممات. جامع المسانيد بالحصص الأسانيد. الجمال في أسماء الرجال. الحليس الصالح والأنيس الناصح. حنة النظر وجنة المنتظر. جواهر المواعظ. الحدائق لأهل الحقائق في المواعظ. حسن السلوك في مواعظ الملوك. الخطأ والصواب عن أحاديث الشهاب. حسن الخطاب في الشيب والشباب. درة اللوم والفضيم في صوم يوم الغيم في جزئين. الدر الثمين من خصائص النبي الأمين. الدر القائق بالمجالس والأحاديث الرقائق. درة الإكليل في التاريخ. دور الأثر. دفع شبه المشتبه. الدلائل في مشور المسائل في مجلدين. درياق الذنوب في الموعظة مجلد كبير. دواء ذوي

الغفلات. ذم الهوى في مجلد. الذهب المسبوك في سير الملوك. الذيل على طبقات الحنايكة. الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد. الرافعات بأحوال الحيوان والنبات. روح الأرواح. روضة المجالس ونزهة المستأنس. روضة المريدين. روضة الناقل. زاد السير في علم التفسير. زاهر الجواهر. الزند الوري في الوعظ الناصري. الزهر الأنيق. زين القصص. السر المصون. سلوة الأخوان. بما ورد عن ذوي العرفان. السهم المصيب. سيرة العبرين. سيرة المستغنى. شاهد ومشهود واسطوانات العقود. شذور العقود في تاريخ العهود. شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم. شم الرياض. شيا نجد في الموعظة. صفوة الصفوة مختصر حلية الأولياء. صيد الخاطر. الطب الروحاني. طرائف الطوائف في تاريخ السوالمف. عجالة المنتظر في شرح حال الخضر. عجائب النساء. عجب الخطيب. عطف الأمراء على العلماء. عقائد المرافق. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية. علة الحديث المنقول في أبي بكرام الرسول. عمدة الدلائل في مشهور المسائل. عمدة الراسخ في المنسوخ والمناسخ. عيون الحكايات. غرر الأثر. غريب الحديث. غريب العزيز. غوامض الإلهيات. الفاخر في أيام الإمام الناصر. الفخر النوري. فصول المائة. فضائل المدينة. فنون الأفتان في علوم القرآن. القوائد عن الشيوخ. فيوح الفتح. انقطاع لمحال الدجاج الفاطم بمحال الحلاج. قصيدة في الاعتقاد. كتاب الأذكاء. كتاب الألقاب. كتاب البر والصلة. كتاب البحث على طلب العلم. كتاب الحمقاء والمغفلين. كتاب الضعفاء والمتروكين. كتاب الفروسية. كتاب اللطيف في المواعظ. كتاب المتعلقين في مجلد. كتاب الملتقط. كتاب النصر على مصر. كتاب النور في فضائل الأيام والشهور. كتاب الوفاء. كشف الظلمة عن الضياء في رد دعوى كنيا. كشف مشكل حديث الصحيحين. كناية الزهر وفريدة الدهر. كنز المذكرين في المواعظ. كنز المواعظ. كنز لملوك في كيفية السلوك. كنوز الرموز. اللآلي في خطب المواعظ. لباب في قصص الأنبياء. لفنة الكبد إلى نصيحة الولد. لفظ الجمال. لفظ في حكايات الصالحين. لفظ المنافع في الطب. اللؤلؤة في المواعظ. ما يلحن فيه العامة. مشير الغرام الساكن إلى أشرف

المساكن. مثير الغرام لساكني الشام. المجتبي في أنواع من العلوم. المجد العسدي. المحتسب في النسب. مختار المنافع مختصر المتافع في الطب. المختار من أخبار الأخيار. المدهش في المحاضرات. مذهب في المذهب أي فروع الحنابلة. مسبوكة الذهب في المذهب. مسلك العقل. مشكل الصحاح أربع مجلدات. المصباح المضيء لدعوة الإمام المستضيء. المصفي بالكف أهل الرسوخ من علم النسخ والنسوخ. المطرب لمذهب. مغاني المعاني. معنى في تفسير القرآن. المقامات الجوزية في المعاني الوعظية وشرح الكلمات اللغوية. المقترح الشامل. المقتضب في الخطب. ملئقظ الحكايات. ملح المواعظ. مناقب الإمام أحمد بن حنبل. مناقب الثوري. مناقب الحسين. مناقب الشافعي. مناقب الصديق. مناقب علي بن أبي طالب. مناقب معروف الكرخي. متحل المتخب. منتخب الزير من روس القواوير في الوعظ والتذكير. المنتخب في النوب وهو الكتاب الذي بين أيدينا. المتظم في تاريخ الأمم. منثور العقود في تجريد الحدود. المنشور في المواعظ. منتقد المعتقد. منظومة في الحديث. المنعش مختصر المدهش. المنفعة في المذاهب الأربعة. منهاج أهل الإصابة في صحة الصحابة. منهاج القاصدين على أسلوب أحياء علوم الدين. منهاج الوصول إلى علم الأصول. منهاج النظر وجنة الفطر. الفطر. موافق المرافق. في مجلد. المورد العذب في المواعظ والخطب. الموضوعات في الأحاديث المرفوعات. نخب المنتخب. نرجس القلوب والذال على طريق المحبوب. نزهة الأريب. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر. نسيم الرياض في الموعظة. نسيم السحر. النطق المفهوم. نظم الجنان. نفع الطيب في مجلد. نفس النقل في الحديث. نكت المجالس البهية. النور في فضائل الأيام والشهور. الواهيات في ثلاث مجلد. الوجوه والنظائر في اللغة. الوفا في فضائل المصطفى. هادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. ياقوتة المواعظ. يواقيت في الخطب. طب. اللؤلؤة في المواعظ. ما يلحن فيه العامة. مثير الغرام الساكن إلى اشرف المساكن. مثير الغرام لساكني الشام. المجتبي في أنواع من العلوم. المجد العسدي. المحتسب في النسب. مختار المنافع مختصر المتافع في

الطب. المختار من أخبار الأخيار. المدهش في المحاضرات. مذهب في المذهب أي فروع الحنابلة. مسوك الذهب في المذهب. ممالك العقل. مشكل الصحاح أربع مجلدات. المصباح المضيء لدعوة الإمام المستنير. المصفي بالكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ. المطرب لمذهب. مغاني المعاني. مقنى في تفسير القرآن. المقامات الجوزية في المعاني الوعظية وشرح الكلمات اللغوية. المفترح الشامل. المقتضب في الخطب. ملئط الحكايات. ملح المواعظ. مناقب الإمام أحمد بن حنبل. مناقب الثوري. مناقب الحسين. مناقب الشافعي. مناقب الصديق. مناقب علي بن أبي طالب. مناقب معروف الكرخي. متحل المنتخب. منتخب الزير من روس القوارير في الوعظ والتذكير. المنتخب في النوب. المنتظم في تاريخ الأمم. مشور العقود في تجريد الحدود. المنشور في المواعظ. منتقد المعتقد. منظومة في الحديث. المنعش مختصر المدهش. المنفعة في المذاهب الأربعة. منهاج أهل الإصابة في صحة الصحابة. منهاج القاصدين على أسلوب أحياء علوم الدين. منهاج الوصول إلى علم الأصول. منهاج النظر وجنة الفطر. الفطر. موافق المرافق. في مجلد. المورد العذب في المواعظ والخطب. الموضوعات في الأحاديث المرفوعة. نخب المنتخب. نرجس القلوب والبدال على طريق المحبوب. نزهة الأريب. نزهة الأعين التواظر في علم الوجوه والنظائر. نسيم الرياض في الموعظة. نسيم السحر. التلطي المفهوم. نظم الجمان. نفع الطيب في مجلد. نفس النفل في الحديث. نكت المجالس البهية. النور في فضائل الأيام والشهور. الواهيات في ثلاث مجلد. الوجوه والنظائر في اللغة. الوفا في فضائل المصطفى. هادي الأرواح إلى بلاد الأفرح. ياقوتة المواعظ. يواقيت في الخطب.

٨- صفاته وأخبار أسرته:

كان ابن الجوزي أتيقاً في مظهره تزقاً نظيفاً، متنعماً في معيشته، كما كان -رحمه الله- متحدثاً بارعاً، إن أراد أن يضحك أضحك الكل بما يسرد من أخبار البخلاء والحمقى والمغفلين والمتماعنين والظراف. وإذا أراد أن يبكي أبكى الصخر الأصم بما يقص من وصف الآخرة وأحوال يوم القيامة

وسير الصالحين الزاهدين، وخوفهم من الله تعالى، فكان يمزج بين هذا وذاك ليجذب القلوب، ويروح عن النفوس لتستعد لسماع مواعظه، فهو خبير بما يصلح النفوس ويتألفها.

كما تميز ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- إضافة إلى فصاحته وغزارة محفوظه بسرعة البديهة والجواب الحاضر، وقد ذكروا عنه قصصاً طريفة، منها: أن رجلاً سأل من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الأجواء بين الشيعة والسنة مشحونة، فقال على البديهة: أفضل الناس من كانت بنته تحت، فقال أهل السنة: يقصد أبا بكر؛ لأن ابنته عائشة كانت تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت الشيعة: بل يقصد علياً؛ لأن بهتة فاطمة رضي الله عنها كانت تحت.

تزوج -رحمه الله- مرتين فأنجب من زوجته الأولى عشرة أولاد، خمسة ذكور وخمس إناث، مات من الذكور أربعة، منهم ابنه عبد العزيز الذي مات مسموماً بالموصل سنة "٥٥٤هـ"، وبني علي أبو القاسم، وقد كتب له رسالة لفنة الكبد إلى نصيحة الولد إلا أنه لم ينتفع بنصيحة الوالد، وكان عاقفاً سيئ الطباع، فاستغل محبة أبيه، فأخذ كتبه، وباعها بأبخس الأثمان، توفي علي هذا سنة "٦٣٠هـ".

وأما الإناث فهن:

١- رابعة: تزوجت من ابن رشيد الطبري سنة "٥٧١هـ"، فاشتغل هذا بكتب الفلاسفة، فسأت عقيدته، فهجره ابن الجوزي، فلما مات، زوجها من مملوك تركي للوزير ابن هبيرة اسمه قرظلي فأنجب يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان وغيرها من المصنفات.

٢- زينب، و ٣- شرف النساء، و ٤- ست النساء الصغرى، و ٥- جوهرة.

وأنجب من زوجته الثانية ابنه يوسف، وهو أصغر أولاده وأنجبهم، ولد سنة "٥٨٠هـ"، وعظ بعد أبيه، وكتب وأتقن حتى ساد أقرانه، وتولى التدريس بالمدرسة المستنظرية، وبنى المدرسة الجوزية بدمشق، وأوقف عليها، ثم صار

أستاذ دار الخليفة المستعصم سنة ٦٤٠ هـ، حتى قتل مع الخليفة هو وأولاده تاج الدين، وجمال الدين، وشرف الدين على يد التتار سنة ٦٥٦ هـ.

٩- محنته:

تعرض ابن الجوزي في شيخوخته لمحنة قاسية كان سببها الرافضة، وقد لخصها الشيخ علي الطنطاوي في مقدمة طبعته لصيد الخاطر فقال رحمه الله:

كان الوزير ابن يونس الحنبلي قد عقد مجلساً للركن عيد السلام ابن عيد القادر الجبيلي، وأحرقته كتبه، وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل شيء كثير، وذلك بمحض من ابن الجوزي وغيره من العلماء، وانتزع الوزير مدرسة جده وسلمها إلى ابن الجوزي، فلما ولي الوزارة ابن القصاب - وكان رافضياً خبيثاً - سعى في القبض على ابن يونس، وتبع أصحابه، فقال له الركن: أين أنت من ابن الجوزي؟ فإنه ناصبي، ومن أولاد أبي بكر الصديق، فهو من أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرقته كتبه بمشورته. فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر، وكان الناصر له ميل إلى الشيعة، ولم يكن له ميل آخر أيامه إلى الشيخ أبي الفرج، فأمر بتسليمه إلى الركن عيد السلام، فجاء هذا إلى دار الشيخ، وشمته وأغلظ عليه، وختم على كتبه وداره، وشتت عياله.

فلما كان في أول الليل، حمل في سفينته، وليس معه إلا عدوه الركن، وعلى الشيخ خلالة بلا سراويل، وعلى رأسه تخفيقة، فأحدر إلى واسط، وكان ناظرها شيعياً، فقال له الركن: تنكّني من عدوي لأرميه في المظمورة، فزروه، فقال: يا زنديق! أرميه بقولك؟ هات حط الخليفة، والله لو كان من أهل مذهبي لبدلت روعي ومالي في خدمته.

قال ابن القادسي: لما حضر إلى واسط جمع الناس، وادعى ابن عيد القادر على الشيخ أنه تصرف في وقف المدرسة، وأنه اقتطع من مالها كذا وكذا، وكذب فيما ادّعاء، وأنكر الشيخ وصدق وير، وأقرت للشيخ دار يدرج الديوان، وعلى بابها بواب، وأقرت له من يخدمه، وكان بعض الناس يدخلون عليه، ويستمعون منه، ويملي عليهم، وكان يرسل أشعاراً كثيرة إلى بغداد.

وأقام بواسط خمس سنين يخدم نفسه بنفسه، ويغسل ثوبه، ويطبخ، ويستقي الماء من البئر، ولا يتمكن من خروج إلى حمام ولا غيره. وقد قارب الثمانين. وبقي على ذلك من سنة تسعين إلى سنة خمس وتسعين، فأفرج عنه، وقدم إلى بغداد، وخرج خلق كثير يوم دخوله لتلقيه، وفرح به أهل بغداد فرحاً زائداً، ونودي له بالجلوس يوم السبت، فصلى الناس الجمعة، وعبروا يأخذون مكائات موضع المجلس عند تربة أم الخليفة، فوقع تلك الليلة مطر كثير ملأ الطرقات، فأحضر في الليل فراشون وروزجارية^(١)، فتلقفوا موضع الجلوس، وفرشوا فيه دفاق الحصص واليوازي، ومضى الناس وقت المطر إلى قبر معروف الكرخي تحت الساباط^(٢) حتى سكن المطر، ثم جلس الشيخ بكرة السبت، وعبر الخلق، وحضر أبواب المدارس والصوفية ومشايخ الربط، وامتلات البيرة حتى ما كان يصل صوت الشيخ إلى آخرهم. وأعاد الخليفة الشيخ إلى بغداد وخلع عليه، وجلس عند تربة أم الخليفة للوعظ، وأنشد:

شقينا بالنوى زمناً فلما تلاقينا كأننا ما شقينا
سخطنا عندما جنت الليالي فما زالت بنا حتى وهينا
سعدنا بالوصول وكف شقينا بكاسات الصدود وكف فنينا
فمن لم يحي بعد الموت يوماً فإننا بعد ما متنا حيننا
ولم يزل الشيخ على عادته الأولى في الوعظ ونشر العلم وكتابه إلى أن مات.

١٠- وفاته:

توفي ابن الجوزي بعد مرض دام خمسة أيام، ليلة الجمعة بين المغرب

(١) قال النووي: الروزجار هو براء مضمومة، ثم واو ساكنة، ثم زاي، ثم جيم، ثم ألف، ثم راء: وهو الذي يعمل الطين بالمعرفة ونحوها.

(٢) الساباط: ممر مسفل.

والعشاء في الثالث عشر من رمضان المبارك سنة "٥٩٧هـ" في دار له قرية من قهر معروف الكرخي بمحافظة قطفتا، في الجانب الغربي من مدينة السلام بغداد.

أجمعت المصادر على أن يوم وفاته كان يومًا مشهودًا ببغداد، إذ ارتجت قلوب الناس لتباً وفاته، وغلقت الأسواق، ونودي للصلاة عليه في جانيي بغداد، وحملت جنازته على رؤوس الناس، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور للصلاة عليه، فصلى عليه ابنه أبو القاسم علي، وضاق الجامع على سعته بالناس، فصلى عليه مرتان، ثم حمل إلى مقبرة باب حرب، فدفن هناك بالقرب من الإمام أحمد -رحمهم الله.

قال سيّده أبو المظفر: أوصى جدي أن يكتب على قبره:

يا كثير المعصية عُنْ	كثير الذنب ليدو
جاءك المذنب يرجو الـ	صفح عن جرم يديو
أنا ضيف وجزاء الـ	ضيف إحسان إليو

وصف المخطوط

اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب على نسخة محفوظة في المكتبة الأزهرية برقم (١٤٠٧ عروسي ١٢٧٤٠) في قسم التفسير.

ويقع المخطوط في (١٩٢) لوحة، وفي الصفحة حوالي (١٩) سطرا، وقد كتب المخطوط بخط واضح وكتبت العناوين باللون الأحمر.

والمخطوط كامل فقد بدأ بالطرة وعليها اسم الكتاب والمؤلف: (كِتَابُ الْمُتَنَحِّبِ فِي الثُّوبِ. تَضْيِيفُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ نَاصِرِ السُّنَّةِ جَمَالِ الدِّينِ أَبِي الْفَرَجِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحَزْزِيِّ قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ وَتَوَرَّعَ خُصْرِيحَهُ).

وجاء في خاتمة المخطوط: (آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ووافق الفراغ منه على يد الفقير إلى الله تعالى محمد بن منصور بن... بن أحمد، الواعظ الموصلي، في يوم الأربعاء سادس عشري رجب، ليلة المعراج من سنة أربع وثلاثين وست مائة بالمدرسة البدرية، حامداً لله، ومصلياً على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين).

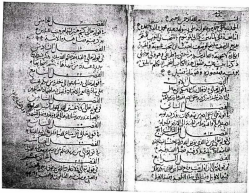
منهج العمل في الكتاب

- ١- نسخت المخطوط نسخاً دقيقاً وقابلته عدة مرات.
 - ٢- ضبطت الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة، والشواهد الشعرية والنثرية، والكلمات التي تحتاج إلى ضبط.
 - ٣- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها، ذاتراً رقم الآية.
 - ٤- خرّجت الأحاديث الشريفة والآثار من كتب السنة المعتمدة.
 - ٥- عمل مقدمة تتضمن ترجمة وافية للمؤلف.
- هذا وقد بذلت جهدي وطاقتي الضعيفة القاصرة، ولم أَلْ جهداً، وأرجو أن أكون قد وفقت للصواب. ألا وإنّ الله متفرد سبحانه بالكمال، وحكم على البشر بالعجز والقصور وذلك سارٍ على كل إنسان، فلا يسلم أحد من الخطأ إلا من عصمه الرحمن. وحسبي أنني اجتهدت في تحري الحق ولم أتعمد الخطأ.
- فما كان فيه من صواب فمن الله وله الحمد، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان واستغفر الله.

نماذج من صور المخطوط



طرفة المخطوط



اللوحة الثانية



اللوحة الأخيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْكَمَرِ

مقدمة المؤلف

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى حَنِّهِ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَغَنِيهِ، مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَخَلْدِهِ،
أَمَّا بَعْدُ:

فَأَنِّي لَمَّا رَسَمْتُ كِتَابِي الْمَوْسُومَ بِـ " الْمُتَخَيَّرِ فِي التَّوْبِ "، ثُمَّ تَدَبَّعَ
الرَّضَبُ، مَلِخَ الْوَضْعَ، أَخْبَيْتُ أَنَّ أُنْتِخِبَ عُيُونُهُ، وَأَتَخَيَّرَ أَبْكَارُهُ لَا عِيُونُهُ^(١)،
وَاللَّهُ مُزِيدِي فِي عَرْفِي، وَمَعُو وَلِي تَوْفِيقي.

وَذِكْرُ مَا يَنْتُجُ عَلَيْهِ لُصُولُ هَذَا الْكِتَابِ، يَتَخَيَّرُ الْمُتَخَيَّرُ مَا يَلِيْقُ بِوَقْتِهِ
وَمَقْصُودِهِ، وَمَعُو مائة فصل:

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَائِلٌ فِي
الْأَرْضِ خَبِيرَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يُذَكِّرُ فِيهِ خَلْقُ آدَمَ، وَبَعْثُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ.

الْفَصْلُ الثَّانِي: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا نَادِمٌ مِنْ رَبِّهِ كَذَبٌ﴾ [البقرة: ٢٧]
يُذَكِّرُ فِيهِ تَوْبَةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْهَبُوطُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ، وَقَبُولُهُ.

الْفَصْلُ الثَّلَاثُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَثَمًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] يُذَكِّرُ فِيهِ فَضْلُ الصَّدَقَةِ.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ دِينٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَيْنَكَ﴾
[آل عمران: ٩٦] يُذَكِّرُ فِيهِ الْأَوَائِلَ، وَيُنَادِرُ إِلَى بِنَاءِ الْكَلْبَةِ، وَبَعْثُ الْفِيلِ.

(١) العيون: جميع عوان وهي التي بين الكبيرة والصغيرة، قال الله تعالى ذكره في صفة بقرة
بني إسرائيل ﴿إِنَّ بَقَرَةَ لَا عَرِيشَ وَلَا يَكْفُرُ عَوَانُ﴾ [البقرة: ٦٨]، ويقال: حرب عوان إذا
لم تكن مبتدأة.

الْفَضْلُ الْخَامِسُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١١٠] يُذَكَّرُ فِيهِ فَضْلُ قَوْلِهِ الْأَمُّ.

الْفَضْلُ السَّادِسُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣] يُذَكَّرُ فِيهِ غَزْوَةُ بَدْرٍ، وَوَعْدُهُ مِنْ شَهِيدَتِهِ، وَاسْمُ أَصْحَابَتِهَا.

الْفَضْلُ السَّابِعُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى تَحِيَّةِ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] يُحْتَفَظُ فِيهِ عَلَى مُبَادَرَةِ الْعُمَرِ بِالْأَجْتِهَادِ، وَتُصَفِّتُ فِيهِ أَجْتِهَادُ الضَّالِّينَ.

الْفَضْلُ الثَّامِنُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يُلَاقُونَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ أُتُوا بِالْغَيْبَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩] يُشَارُ فِيهِ إِلَى غَزْوَةِ أُخُدٍ، وَفَضْلِ الشُّهَدَاءِ.

الْفَضْلُ التَّاسِعُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَتَى آتَايَايَ قِيلَ﴾ [النساء: ٧٧] يُذَمُّ فِيهِ الدُّنْيَا.

الْفَضْلُ الْعَاشِرُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ يَنْكُرْ عَنْ يَدِهِ﴾ [المائدة: ٥٤] يُوصَفُ فِيهِ الْمُتَحَوِّلُ.

الْفَضْلُ الْحَادِي عَشَرَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ بِتَعْوَنٍ رُبَّمَا وَتَقْرَأُوا وَالْقُرْآنَ﴾ [الأنعام: ٥٢] يُوصَفُ فِيهِ الضَّالِّحُونَ وَالْقُرَّاءُ.

الْفَضْلُ الثَّانِي عَشَرَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] يُشَارُ فِيهِ إِلَى الْخَطَرِ وَالْخَائِضِ مِنْهُ.

الْفَضْلُ الثَّلَاثَ عَشَرَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَابَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٠] يُحْتَفَظُ فِيهِ عَلَى فِعْلِ الْحَسَنِ وَالْعَشْدَقَةِ.

الْفَضْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْرَبَ عَلَيْهِمْ تَابُ الَّذِينَ عَادَتِهِمْ مَا بَيْنَ مَا بَيْنَ بَيْنِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٤] يُذَكَّرُ فِيهِ قِسْمَةُ بِلْغَامٍ.

الْفَضْلُ الْخَامِسَ عَشَرَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَرُكِبَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢] يُذَكَّرُ فِيهِ الْخَائِبُونَ.

الْفَضْلُ السَّادِسَ عَشَرَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُهُمْ فِي سَفَرِهِمْ بِحَسْبِ وَتَهُ وَيَسْتَوُونَ﴾ [التوبة: ٢١] يُشَارُ فِيهِ إِلَى بِشَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ.

الْفَضْلُ السَّابِعُ عَشَرَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَكُونُونَ الْاَعْتَابَ وَالْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يُحْمَلُ عَلَيْهَا فِي كُرْسِيِّ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٣٥] بِذِمِّ فِيهِ نَفْعُ الْقُوَّةِ.

الْفَضْلُ الثَّامِنُ عَشَرَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَصُوبُوهُ فَقَدْ كَسَرَتْهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] يُشَارُ فِيهِ إِلَى قِسْطِ الْغَارِ وَالصُّدُوقِ.

الْفَضْلُ الثَّامِنُ عَشَرَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ كُنْ عَنْهُمْ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧٥] يُذَكَّرُ فِيهِ تَقْلِيدُهُ، وَيَذَمُّ الْبُخْلُ.

الْفَضْلُ الْعِشْرُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى بِكَ التَّوْبَةَ لِنَفْسِهِ وَأَتَوْكُم بِهَا لَهْوَ الْجَنَّةِ﴾ [التوبة: ١١١] يُذَكَّرُ فِيهِ جِهَادُ النَّفْسِ.

الْفَضْلُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَرَّوْا إِلَيَّ سَعَلَ الْفَتَنِ جَنَّةً وَالْقَمَرُ نَوَّارٌ﴾ [يونس: ٥] يُشَارُ فِيهِ إِلَى عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَنَحْتِ عَلَى بَدَارِ الْقَمَرِ.

الْفَضْلُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَقَلَّ الْحَيَوُ الْأَنِيَا كُلُّوْا أَرْزَاقَهُ﴾ [يونس: ٢٤] بِذِمِّ فِيهِ الدُّنْيَا.

الْفَضْلُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [يونس: ٢٥] يُوصَفُ فِيهِ الْجَنَّةُ وَنَمِيْنُهَا.

الْفَضْلُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّكَ لَوِثَّةُ اللَّهِ لَوْ لَا حَوَّكٌ عَلَيْهِنَّ وَلَا مُمْ يَحْمِلُهُنَّ﴾ [يونس: ٦٢] يُوصَفُونَ فِيهِ.

الْفَضْلُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَادَاهُ لَقَدْ كَانَتْكَ اللَّهُ عَيْنًا﴾ [يوسف: ٩١] يُذَكَّرُ فِيهِ قِسْطُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفَضْلُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَرَّوْا إِلَيَّ رُبِيْعَكُمْ الْفَتَنَ حَوَّكًا وَطَلَمَكًا﴾ [الرعد: ١٢] يُذَكَّرُ فِيهِ الرَّغْدُ وَالْبَرْقُ وَالْبَاطِلُ.

الْفَضْلُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَفِيفًا عَنَّا يَسْتَلِ الْأَعْيُنُ عَنْهُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] يُذَكَّرُ فِيهِ تَرْكُ الظُّلَمِ.

الْفَضْلُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عِوَضَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] يُذَكَّرُ فِيهِ أَحْوَالُ الْبَيِّنَاتِ.

الْفَضْلُ التاسع والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جَهَنَّمَ لَكُمْ مِنْكُمْ لَشَرٌّ﴾ [الحجر: ٤٣] يُذَكِّرُ فِيهِ جَهَنَّمَ.

الْفَضْلُ الثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَشَقِيقٌ فِي جَنَّتِكَ وَقَتِيدٌ﴾ [الحجر: ٤٥] يُشَارُ فِيهِ إِلَى صِفَةِ الْجَنَّةِ، وَذِكْرِ مَنْ يُعْرِفُ بِأَمْرِ مِنَ الشَّحَابَةِ، وَالْبَيْنِ أَخَا بَيْنَتِهِمْ.

الْفَضْلُ الحادي والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسُحُفٌ يَذَرُ الْأَزْوَاجَ طَائِفَةً فِي عُشُوبِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

الْفَضْلُ الثاني والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقْنَى رَبُّكَ إِلَّا مَنَافَاً يَأْتِيهِمُ الْوَالِدَيْنِ فَنِسَاءً﴾ [الإسراء: ٢٣] يُذَكِّرُ فِيهِ بِرُؤُوسِ الْوَالِدَيْنِ، وَيُنْفِى فِيهِ عَنْ عُقُوبَتِهِمَا.

الْفَضْلُ الثالث والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبِّى أَلَمْسْ بِهَا طَلَمْتُ لِرَبِّى عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْآيِينَ﴾ [الكهف: ١٧] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةَ أَهْلِ الْكَهْفِ.

الْفَضْلُ الرابع والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ كَأَمْرًا وَسَمِعُوا وَأَصْبَحُوا أَصْتَبَحُوا﴾ [الكهف: ٣٠] يُذَكِّرُ فِيهِ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ وَمَسَابِلَهَا، وَيُوصِفُ فِيهِ ثَوَابَ مَنْ تَابَ.

الْفَضْلُ الخامس والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْتِ مُوسَى فَنَشْتَهُ﴾ [الكهف: ٦٠] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةَ الْخَطْبِ.

الْفَضْلُ السادس والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقْنَى رَبُّكَ عَنْ ذَى الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةَ الْإِسْكَانْدَرِ.

الْفَضْلُ السابع والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلْبَتِمْ﴾ [مريم: ١٩] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةَ نَحْثَى وَزَكْرِيَّا.

الْفَضْلُ الثامن والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ فِي الْكِتَابِ مَرَّتَ﴾ [مريم: ١٦] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةَهَا، وَقِصَّةَ عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

الْفَضْلُ التاسع والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ [مريم: ٣٩] يُذَكِّرُ فِيهِ جَنَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الْفَضْلُ الأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا إِبْرَاهِيمَ رُفْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفُضْلُ الحادي والأربعون: في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُرْآنُ يُقْرَأُ فَاسْمِعُوا بَنِيكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الرَّسُولِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] يُذَكِّرُ فِيهِ قِسْمَهُ، وَتَهْلِيلَاتِ الْقُرْآنِ.

الْفُضْلُ الثاني والأربعون: في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُقَدِّمُونَ وَالْمَوْتُ أَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ٩٨] يُذَكِّرُ فِيهِ ثَمَرَاتِ الْجَنَّةِ.

الْفُضْلُ الثالث والأربعون: في قولهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا جَنَّةَ الَّتِي يُوَدِّعُ الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا أَزْوَاجًا مُنَافِقِينَ﴾ [الحج: ١] يُذَكِّرُ فِيهِ وَجْهَ الْخَطَابِ، وَتَبَعُضِ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الْفُضْلُ الرابع والأربعون: في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَالِفِينَ﴾ [الحج: ٢٧] يُذَكِّرُ فِيهِ الْحُجَّ وَفَضْلَهُ.

الْفُضْلُ الخامس والأربعون: في قولهِ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] يُذَكِّرُ فِيهِ آثَابِ الطَّلَاقِ، وَمَنْ وَالْفَقْرَ اسْمُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ.

الْفُضْلُ السادس والأربعون: في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يُذَكِّرُ فِيهِ خَلْقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفُضْلُ السابع والأربعون: في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ فَكُلُوا مِنْهُ حَالًا وَبَاطِنًا﴾ [المؤمنون: ٢٩] يُذَكِّرُ فِيهِ التَّخْرِيطِ عَلَى الْبِرَارِ.

الْفُضْلُ الثامن والأربعون: في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [النور: ٢٣] يُذَكِّرُ فِيهِ عَذْدُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَخَبِيرِ الْإِنْفِ.

الْفُضْلُ التاسع والأربعون: في قولهِ تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [النور: ٣٥] يُذَكِّرُ فِيهِ صِفَةَ الْمُؤْمِنِينَ.

الْفُضْلُ الخمسون: في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى قُلُوبِ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الفرقان: ٤٠] يُذَكِّرُ فِيهِ قِسْمَ قَوْمِ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفُضْلُ الحادي والخمسون: في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي هَذِهِ أَسْمَاءً ذَاتَ نَبَاٍ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ [النمل: ١٥] يُذَكِّرُ فِيهِ قِسْمَ الْهَدْمِ وَبَلْقِيسَ.

الْفُضْلُ الثاني والخمسون: في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي هَذِهِ أَسْمَاءً ذَاتَ نَبَاٍ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ [النمل: ١٥] يُذَكِّرُ فِيهِ قِسْمَ الْهَدْمِ وَبَلْقِيسَ.

الْفُضْلُ الثالث والخمسون: في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي هَذِهِ أَسْمَاءً ذَاتَ نَبَاٍ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ [النمل: ١٥] يُذَكِّرُ فِيهِ قِسْمَ الْهَدْمِ وَبَلْقِيسَ.

الْفُضْلُ الرابع والخمسون: في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي هَذِهِ أَسْمَاءً ذَاتَ نَبَاٍ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ [النمل: ١٥] يُذَكِّرُ فِيهِ قِسْمَ الْهَدْمِ وَبَلْقِيسَ.

الْقَضْلُ الرَّابِعُ وَالْخَمْسُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ مِنَّا مِثْلَكَ اللَّهُ الْأَوَّلَ﴾ [القصص: ٧٧] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةُ قَارُونَ.

الْقَضْلُ الْخَامِسُ وَالْخَمْسُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَافِرًا﴾ [الروم: ٤٨] يُذَكِّرُ فِيهِ الْمَطَرُ.

الْقَضْلُ السَّادِسُ وَالْخَمْسُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَلْتَنفِثُوا مِنَّمَا لَا يَنفِثُ مِنْهُ إِلَّا مِنْ وَجْهِهِ وَلَا مَوْلَاؤُهُ هُوَ عَلَى عَنٍّ وَالْيَوْمِ﴾ [لقمان: ٣٣].

الْقَضْلُ السَّابِعُ وَالْخَمْسُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتَخَفُّ جُنُودُهُمْ عَنِ النَّكَاحِ﴾ [السجدة: ١٦] يُذَكِّرُ فِيهِ لُضْلُ قِيَامِ اللَّيْلِ.

الْقَضْلُ الثَّامِنُ وَالْخَمْسُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَاءَكُمْ جُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩] يُذَكِّرُ فِيهِ غُرُوبُ الْأَحْزَابِ.

الْقَضْلُ التَّاسِعُ وَالْخَمْسُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ النَّبِيِّينَ يَجَاءُ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] يُذَكِّرُ فِيهِ أَهْلُ الْعِزَابِ.

الْقَضْلُ السَّنُونُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي مَسْجِدِهِمْ آيَةٌ﴾ [سبا: ١٥] يُذَكِّرُ فِيهِ بَعْثُهُمْ.

الْقَضْلُ الْحَادِي وَالسَّنُونُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا نَذِيرًا﴾ [سبا: ٣٧] يُذَكِّرُ فِيهِ نَذْحُ الْقُرْآنِ، وَمَوَالِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْقَضْلُ الثَّانِي وَالسَّنُونُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فُتِحُوا قُلُوبُهُمْ﴾ [سبا: ٥١] يُذَكِّرُ فِيهِ التَّدَمُّ عَلَى الْقُرْبِ.

الْقَضْلُ الثَّالِثُ وَالسَّنُونُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] يُذَكِّرُ فِيهِ الشُّبُه.

الْقَضْلُ الرَّابِعُ وَالسَّنُونُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُخَوِّجُ فِي الْخُشُوعِ﴾ [يس: ٥١] يُذَكِّرُ فِيهِ الْبُعْثُ.

الْقَضْلُ الْخَامِسُ وَالسَّنُونُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحْمَةً﴾ [الصافات: ٤١] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةُ الْأَخَوَيْنِ.

الْقَضْلُ السَّادِسُ وَالسَّنُونُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّي نَارُكَ إِنَّكَ تَرَى﴾ [الصافات: ٩٩] يُذَكِّرُ فِيهِ الذَّبْحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفَضْلُ السَّابِعُ وَالسُّتُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ أَنتَكَ نَبِيُّ الْخَصَمِ﴾ [ص: ٢٩] يُذَكِّرُ فِيهِ بَعْضُ خَاوِدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفَضْلُ الثَّامِنُ وَالسُّتُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَعَدْنَا إِدْرِيْسَ نَبِيَّكَ﴾ [ص: ٣٠] يُذَكِّرُ فِيهِ بَعْضُ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفَضْلُ الثَّاسِعُ وَالسُّتُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْخِرْ عَنْهَا نُفُوسَ﴾ [ص: ٤١] يُذَكِّرُ فِيهِ بَعْضُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفَضْلُ السَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتَرَبَّصُّ الْكُتُبُ بِكَ أَهْلُ﴾ [الزمر: ١] يُذَكِّرُ فِيهِ الْإِخْلَاصُ.

الْفَضْلُ الْحَادِي وَالسَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ هَمَمْتُ أَنَاذِرُ نَارَةَ الْبَلِيَّةِ﴾ [الزمر: ٩] يُذَكِّرُ فِيهِ الْجَلْمُ، وَإِلَى مَنِ انْقَهَى جَلْمُ الشَّخَايَةِ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ.

الْفَضْلُ الثَّانِي وَالسَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَرَجْنَا بِكَ فِي هَذَا الْقَرْيَةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [الزمر: ٢٧] يُذَكِّرُ فِيهِ غُلُومُ الْقُرْآنِ.

الْفَضْلُ الثَّلَاثُ وَالسَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ تَبِيتَ وَابْنُكُمْ تَبِيتَ﴾ [الزمر: ٣٠] يُذَكِّرُ فِيهِ وَفَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْفَضْلُ الرَّابِعُ وَالسَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيُبَيِّنَ لَكَ رَبِّكَ﴾ [الزمر: ٥٤] يُذَكِّرُ فِيهِ عَذَابُ النَّفْسِ وَالزُّجُرِ.

الْفَضْلُ الْخَامِسُ وَالسَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُوحٍ فِي الْبُحُورِ﴾ [الزمر: ٦٨] يُذَكِّرُ فِيهِ الضُّعْفُ، وَالتَّكْلِيْفَاتُ الْمُتَقَلِّبَةُ.

الْفَضْلُ السَّادِسُ وَالسَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [خاف: ٢٨] يُذَكِّرُ فِيهِ عَذَابُ الْقَرَارَةِ، وَبَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ.

الْفَضْلُ السَّابِعُ وَالسَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَسْتَخِرُونَ مَا قَوْلُ لَكُمْ﴾ [خاف: ٤٤] يُذَكِّرُ فِيهِ مِنَ الْأَسْفِ وَفَتْ الْقَوَاتِ.

الْفَضْلُ الثَّامِنُ وَالسَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاجِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ [الشورى: ١١] يُذَكِّرُ فِيهِ التَّوَجُّيدُ.

الْفَضْلُ الثَّاسِعُ وَالسَّبْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يُذَكِّرُ فِيهِ جُمْلَةُ (قَوْلَا) فِي الْقُرْآنِ، وَالشَّرْحَةُ مِنَ الْقَطَائِرِ، وَبِدَايَةُ أَمْرِ نَبِيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْفَضْلُ الثَّامِنُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَبِإِذْنِ الْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨] يُذَكِّرُ فِيهِ الْهَيْكَلُ، وَمَا كَانَ فِي بَيْتِ الْهَيْخَرَةِ.

الْفَضْلُ الْحَادِي وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَّا حَضَرَ مُرْسِلَ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الفتح: ٢٩] يُذَكِّرُ فِيهِ أَسْمَاءُ، وَفَضَائِلُ أَصْحَابِهِ وَضَوَائِلُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ.

الْفَضْلُ الثَّانِي وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانُوا قِيَالًا بَيْنَ أَكْبَلٍ مَا يَجْعَلُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] يُذَكِّرُ فِيهِ قَضْلُ قِيَامِ الْكَلْبِ.

الْفَضْلُ الثَّالث وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْخَمِيرُ فِيهَا مَكِينٌ﴾ [النجم: ١] يُذَكِّرُ فِيهِ حَبِيبُ الْبَغْرَاجِ.

الْفَضْلُ الرَّابِع وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَوَافٍ﴾ [القمر: ٢٣] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةُ ضَالِحٍ، وَبَابُ الْمُبْدَلَاتِ، وَالْمُقَدَّمُ وَالْمُؤَخَّرُ.

الْفَضْلُ الْخَامِس وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِي﴾ [الحديد: ١٦] يُذَكِّرُ فِيهِ بَابُ الْحَرْزِ، وَالْخَرْبِضُ عَلَى الثَّوْبَةِ.

الْفَضْلُ السَّادِس وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ أَكْثَرًا لَوْثٌ وَقَوْلُ﴾ [الحديد: ٢٠] يُذَكِّرُ فِيهِ دُمُهَا، وَالْمَغْرُوقُونَ بِالْأَلْقَابِ.

الْفَضْلُ السَّابِع وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَوْبًا إِلَى ثَوْبٍ﴾ [التحریم: ٧] يُذَكِّرُ فِيهِ طَرَفٌ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُفْرَدَةِ، وَجُمْلَةٌ مَا رُوِيَ لِأَصْحَابِهِ، وَمَنْ وَالْمَنْ أَسْمَانِيَهُمُ.

الْفَضْلُ الثَّامِن وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بِكُمْ كَمَا بَعَثْنَا نَحْنُ﴾ [القلم: ١٧] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةُ نَحْنُ.

الْفَضْلُ الثَّاسِع وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تِلْكَ آيَاتُ﴾ [الحاقة: ١-٢] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةُ عَادٍ.

الْفَضْلُ الثَّاسِعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَّا خَاطِبَتُهُمْ أَتَرْتَابًا فَاتَّبَعُوا لَهَا﴾ [نوح: ٢٥] يُذَكِّرُ فِيهِ قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفَضْلُ الْحَادِي وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ بِالْكَافِرِ﴾ [الإنسان: ١٧] يُذَكِّرُ فِيهِ تَرْبِيعٌ فَاطِمَةٌ يُعَلِّي عَلَيْهَا السَّلَامُ.

الْفَضْلُ الثَّانِي وَالثَّمانُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَتَيْكَ مَوْجٌ مَوْجٌ﴾

﴿١﴾ [طه: ٩] يُذَكِّرُ فِيهِ بِآبِ الرَّزَائِدِ وَالتَّوَائِصِ وَالتَّكْشَافِ، وَيُذَكِّرُ فِيهِ إِسْرَافَ مُوسَى، وَفِضَّةَ الْفَرَقِ.

الْفَضْلُ الثَّالِثُ وَالتَّسْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَاءَنَّاكَ أَكْثَرُ الْكُتُبِ﴾ [التَّارِغَات: ٣٤] يُذَكِّرُ فِيهِ مَنْ تَأَخَّرَ مَوْتُهُ مِنَ الصُّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ، وَمُخَالَفَةَ الْهَوَى.

الْفَضْلُ الرَّابِعُ وَالتَّسْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَرَى الَّذِينَ لَا يُحِبُّونَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [عيس: ٣٤ - ٣٥] يُذَكِّرُ فِيهِ الْيَقِينَةَ وَأَهْوَالَهَا.

الْفَضْلُ الْخَامِسُ وَالتَّسْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١] يُذَكِّرُ فِيهِ صَنَائِعَ الْأَسْوَاقِ، وَفِضَّةَ شُعَيْبٍ.

الْفَضْلُ السَّادِسُ وَالتَّسْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْقَمَرُ﴾ [الْقَمَر: ١ - ٢] يُذَكِّرُ فِيهِ فِضَّةَ آدَمَ.

الْفَضْلُ السَّابِعُ وَالتَّسْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَقْرَأْ لَكَ مِثْلَهُ﴾ [الشرح: ١] يُذَكِّرُ فِيهِ رِشَاقَ خَلِيفَةِ، وَشَرَفَ نَبِيٍّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْفَضْلُ الثَّامِنُ وَالتَّسْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] يُذَكِّرُ فِيهِ فَضْلَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

الْفَضْلُ التَّاسِعُ وَالتَّسْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا زَلَّلْنَا الْأَرْضَ وَإِلَاقَهَا﴾ [الزلزلة: ١] يُذَكِّرُ فِيهِ الرَّجْرَجِ.

الْفَضْلُ الْعَاشِرُ وَالتَّسْعُونَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَاءَكَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] يُذَكِّرُ فِيهِ فَتْحَ مَكَّةَ.

الفصل الأول

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ
فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]

اعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ الْمَخْلُوقَاتِ الْقَلَمُ^(١)، لِيَكْتُبَ عِلْمُ آدَمَ قَبْلَ الْهَبْطِ،

(١) اختلف العلماء في أول المخلوقات على أقوال:

الأول: أن العرش هو أولها، ويدل عليه حديث عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - :
" كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال:
وكان عرشه على الماء"، وهو قول الجمهور فيما نقله عنهم أبو العلاء الهمداني كما في
"العقيدة الطحاوية" (٢٩٥)، و"البداءة والنهاية" (٩/١) واختاره شيخ الإسلام ابن
تيمية، وانصرف له بالأدلة والحجج في "مجموع الفتاوى" (١٨/٢١٣ - ٢١٦)، وابن
القيم في "اجتماع الجيوش الإسلامية" (٩٩).

الثاني: أن أول المخلوقات القلم، ودليل هذا القول حديث عباد بن الصامت - رضي
الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إن أول ما خلق
الله - تعالى - القلم، فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل
شيء حتى تقوم الساعة" + رواه أبو داود والترمذي، والفظه: "اكتب القدر، ما كان وما
هو كائناً إلى الأبد"، ورجح هذا القول الطبري في تاريخه (٢٨/١ - ٢٩)، وهو ظاهر
كلام ابن الجوزي في "المتنظم" (١٢١/١)، ورجحه الألباني في السلسلة الصحيحة
(٢٠٧/١ - ٢٠٨) في تعليقه على الحديث رقم: (١٣٣).

قال الطبري - رحمه الله تعالى - في تاريخه (٣٠/١): "وقول رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - الذي رواه عنه أولى قول في ذلك بالصواب، لأنه كان أعلم قائل في
ذلك قولاً بحقيقته وصحته، وقد رواه عنه - عليه السلام - أنه قال: "أول شيء خلقه
الله - عز وجل - القلم" من غير استثناء منه شيئاً من الأشياء أنه تقدم خلق الله إياه =

"خلق القلم، بل هم بقوله صلى الله عليه وسلم: "إن أول شيء خلقه الله القلم" كل شيء، وأن القلم مخلوق قبله من غير استثناء من ذلك حرفًا ولا ماء ولا شيء غير ذلك". اهـ

وقال الألباني مؤيدًا لما قرره الطبري، وراثًا على من قال بخلق العرش قبل القلم: "وفيه رد على من يقول بأن العرش هو أول مخلوق، ولا نص في ذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنما يقول به من قال - كابن تيمية وغيره - استباحًا واجتهادًا، فالأخذ بهذا الحديث - وفي معناه أحاديث أخرى - أولى؛ لأنه نص في المسألة، ولا اجتihad في مورد النص كما هو معلوم، وتأويله بأن القلم مخلوق بعد العرش باطل؛ لأنه يصح مثل هذا التأويل لو كان هناك نص قاطع على أن العرش أول المخلوقات كلها ومنها القلم، أما ومثل هذا النص مفقود، فلا يجوز هذا التأويل". اهـ من السلسلة الصحيحة (٢٠٨/١).

الثالث: أنَّ أول شيء خلقه الله - تعالى - النور والظلمة، وهذا القول منسوب لابن إسحاق كما ذكر ذلك الطبري في تاريخه (٢٩/١)، وابن الجوزي في "المنتظم" (١/ ١٢٦)، وقد رُوِيَ الطبري بقوله: "وأما ابن إسحاق فإنه لم يستد قوله الذي قاله في ذلك إلى شيء، وفذلك من الأمور التي لا يُدرَكُ جُلُّها إلا يختبر من الله - عز وجل - أو غير من رسول الله صلى الله عليه وسلم". اهـ

وقال ابن الجوزي: "ولا يقبل هذا مع الحديث المرفوع".

والذي يُفهرِّجُ رجحانه بجميع الأدلة، وتأمل الفاظها القول الأول، القاضي بأن العرش خلق قبل القلم؛ الظاهر حديث عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - مع ظاهر حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - ففي حديث عبدالله بن عمرو بين أن التقدير كان قبل خلق السموات والأرض، وذكر فيه "وكان عرشه على الماء"، وفي حديث عبادة ما يدل على أن التقدير كان فور خلق القلم؛ لأنه خلق للكتابة، فكان العرش بهذا الاعتبار سابقًا في الخلق على القلم، ويدل على ذلك أيضًا ظاهر حديث عمران بن حصين: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء" فلا ذكر للقلم في ذلك. قال ابن القيم معلقًا عليه: "ولا يناقض هذا الحديث "أول ما خلق الله القلم"، لوجهين:

أحدهما: لأن الأولية راجعة إلى كتابته لا إلى خلقه، فإن الحديث: "أول ما خلق الله

وَإِنَّمَا جَعَلَ أَقَدَمَ أَوَّلَ الْخَلْقِ، لِأَنَّهُ مَهْدُ الدَّارِ قَبْلَ السَّائِرِ، وَتَبَيَّنَ الْمَلَايِكَةُ عَلَى تَعْظِيمِهِ قَبْلَ وَجُودِهِ يَقُولُونَ: ﴿إِذَا جَاعِلٌ﴾، فَهُوَ مِنْ جِنْسٍ: (عُضُوا أَبْصَارَكُمْ، لِنَعْمُوْر قَابِلَةٍ)^(١)، وَوَضَعَهُ بِالْخِلَافَةِ، وَتِلْكَ وَلايَةٌ لَمْ تُوجَدْ بَعْدُ، فَهُوَ نَظِيرٌ: ﴿مَتَى يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْرِ يُجَاهِدُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَأَقَامَ عِلْدَةً قَبْلَ الْهَيُّوْطِ حِينَ قَالَ: ﴿فِى الْآرْضِ﴾، وَالْمُحِبُّ يُحِبُّ عِلْدَ الْمُحِبُّوْبِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ، فَطَلَبَ الْمَلَايِكَةُ أَنْ تُفْصِلَ أَقَدَمَ بِنَفْسِهِ، فَضَلَّتْ بِالْفَضْلِ عَلَيْهِ، فَتَنَطَلَّتْ أَلْسِنَةُ تَسْبِيحِهِمْ بِحُجَّةٍ تَقْدِيسُهُمْ ﴿الْجَمَلُ﴾، فَأَخْرَسَ أَلْسِنَةُ الْاَعْتِرَاضِ بِرَدِّ: ﴿إِذَا عَلِمَ﴾.

وَاعْتَبَرْنَا لَهُمْ ! فَطَعَمُوا عَلَى الْعَمْرِ بِلَفْظٍ ﴿مَنْ يُهْلِكُ﴾، وَأَمِنُوا التَّغْيِيرَ عَلَى النَّفْسِ بِدَعْوَى ﴿وَمَنْ تَسْبِيحُ﴾، فَلَمَّا حُضِرَ أَقْدَامُ عَلَى بَابِ الْحَقِّ أَرْبَعِينَ سَنَةً، لِأَنَّ ذَابَ الْمُحِبُّ الْوُفُوقَ عَلَى بَابِ الْحَبِيبِ، وَنَادَى فِى طَرِيقِ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، لِئَلَّا يُعْجَبَ بِزَمٍ ﴿اتَّجَلُّوْا﴾ [البقرة: ٣٤].

- القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

والثاني: أن المراد أول ما خلقه الله من هذا العالم بعد خلق العرش، وبدل على سبق خلق العرش قوله في الحديث الثابت: "قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء". وقد أخبر أنه حين خلق القلم قدر به المقادير كما في اللفظ الآخر قال: "اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر". فهذا التقدير الموقت قبل خلق العالم بخمسين ألف سنة، ثبت أن العرش سابق على القلم، والعرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض. اهـ من "اجتماع الجيوش الإسلامية" (٩٩، ١٠٠).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣٥)، رقم (٢٣٨٦)، والحاكم (٣/ ١٧٥)، رقم (٤٧٥٧) وقال: صحيح الإسناد، وأخرجه أيضاً: أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٧٦٣)، رقم (١٣٤٤)، والطبراني (١/ ١٠٨)، رقم (١٨٠)، وأبو نعيم في المعرفة (١/ ٩٣)، رقم (٣٥٦)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٦٣)، رقم (٤٢٢).

وقال الإمام الذهبي هذا الحديث موضوع، كما في تلخيص الذهبي لمستدرک الحاكم (٣/ ١٥٣).

يَا مَنْ أَذَلَّ؛ ذَاكَ مَا لَا يَفْهَمُ يَا مَنْ أَعْمَرَ؛ هَذَا مَا لَا يَفْهَمُ
كَاتِبِ الْمَلَائِكَةِ تَعْمُرُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى جَسَدِهِ، وَإِبْلِيسُ مُزْمِعٌ مِنْ بَيْنِهِمْ عَلَى
جَسَدِهِ، وَلَا يَذَرِي أَنْ هَلَاكُهُ عَلَى يَدِهِ.

رَأَى إِبْلِيسُ جِلْبَاً مَجْمُوعاً مَجْمُوعاً، فَاسْتَفَزَّهُ، فَلَمَّا ضَيَّرَ الظُّلُمَ صُورَةً، بَاتَ
الْعَدُوُّ فِي صُورَةٍ^(١)، فَلَمَّا نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، بَاتَ الْخَابِئُ، فَلَمَّا بَسَطَهُ بَسَاطَ
الْعُزِّ، عَرِضَتْ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقَاتُ، فَاسْتَحْضِرَ مُذْهِبِي ﴿وَعَمَّ السَّيِّئُ﴾ إِلَى عَاجِمِ

(١) العدا بين الإنسان والشیطان عداً بعيد الجذور، يعود تاريخه إلى اليوم الذي صور الله فيه آدم، قبل أن ينفخ فيه الروح، فأخذ الشيطان يطعن به، ففي صحيح مسلم عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْكَوْكَبَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَزَكَّى فَيَجْعَلَ إِبْلِيسَ يُطِيعُ بِهِ يَنْظُرُ مَا عَمُو فَلَمَّا رَأَى الْجُودَ عَرِضَتْ لَهُ خَلْقُ خَلْقٍ لَا يَنْتَظِلُّكَ» (مسلم: ٢٠١٦/٤، رقم: ٢٦١١).

فلما نفخ الله في آدم الروح، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وكان إبليس يعبد الله مع ملائكة السماء، فشمه الأمر، ولكنه تعاطف في نفسه واستكبر، وأبى السجود لآدم: ﴿قَالَ لَمَّا خَلَّيْتَهُ خَلْقِي بَيْنَ كَرَمٍ وَخَلْقَهُ بَيْنَ طَيْرٍ﴾ (الأعراف: ١٢).

لقد فتح أبواباً آدم عينه، فلما به يجد أعظم تكريم، يجد الملائكة ساجدين له، ولكنه يجد عدواً رهيباً يتهده وذريته بالهلاك والإضلال.

وطرد الله الشيطان من جنة الخلد بسبب استكباره، وحصل على وعد من الله بإيقاظه حياً إلى يوم القيامة: ﴿قَالَ أُولَئِكَ إِذْ يُبْعَثُونَ﴾ (١٣) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (الأعراف: ١٤-١٥)، وقد قطع اللعين على نفسه عهداً بإضلال بني آدم: (قال فيما أغروني لأعبدن لهم صراطك المستقيم - ثُمَّ لَا يُلَاقِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَمِنْ أَيْمَانِهِمْ وَمِنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (الأعراف: ١٦-١٧).

وقوله هذا يصور مدى الجهد الذي يبذره لإضلال بني آدم، فهو يأتيه من كل طريق، من اليمن ومن الشمال، ومن الأمام ومن الخلف؛ أي من جميع الجهات، قال الرمنشري في تفسير هذه الآية (الكتشاف: ٧١/٢): «ثُمَّ لَا يُلَاقِيهِمْ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي يَأْتِي مِنْهَا الْعَدُوُّ فِي الْعَالَمِ، وَهَذَا مِثْلُ لَوْسُوسَةِ إِلَهُهِمْ، وَتَسْوِيلِهِ لَهُمْ مَا أَمْكَنَهُ وَقَدَّرَ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتَظِرُكَ مِنْ أَسْفَلٍ بِتُحْمٍ يُسُوقُهُ وَأَغْبَى عَلَيْهِمْ وَنَجِيفُكَ﴾ (الإسراء: ٦٤).

﴿الْيَتٰىمَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وَقَدْ اَخْلٰى الْوَيْلُ عَنْهُمْ يَتٰىمٌ وَعِلْمٌ، فَتَكٰثَرُوا رُؤُوسًا الدَّعَاوٰى عَلَى صُدُوْرِ الْاِثْرَانِ، فَقَامَ مُنَادِي الْفُقَيْلِ فِي نَادِي الْاُمْلَاكِ يُنَادِي: ﴿اَسْتَعِذُّوْا﴾، فَتَقَطَّرُوْا مِنْ وَسَخِ دَعْوٰى ﴿وَلَعَنَ نَسِيۡحٌ﴾ بِنَاءِ الْعَدْرِ فِي صَحَابِ ﴿لَا يَلَمُّ لَنَا﴾ [البقرة: ١٣٢]، فَسَجَدُوا عَلَى عَهْدَةِ التَّسْلِيْمِ، فَقَامَ اِبْلِيسُ جَانِيًا، لِجَنَآئِهِ الْاَغْيَاصِ، وَمَا كَانَتْ لِحَاسَتِهِ نَجَاسَةٌ تَتَلَاغٰى بِالتَّظْهِيرِ؛ لِأَنَّهُا عَيْيَةٌ، فَلَمَّا تَمَّ كَمَالُ اَدَمَ، قِيلَ: لَا بُدَّ مِنْ خَالٍ جِنَالٍ عَلَى خَدِّ ﴿اَسْتَعِذُّوْا﴾، فَجَرٰى الْعَدْرُ بِالدُّنْبِ؛ لِيَسِيَنَ اَثَرَ الْعُتُوْبَةِ فِي الدُّنْبِ.

يَا اَدَمُ؛ ضَجَّكَتْ فِي الْحَجَّةِ لَكَ، فَانْزِلْ اِلَى قَارِ التَّكْلِيفِ، فَإِنَّكَ لَنَا يَا اَدَمُ، مَا خَرَّ مِنْ خَشْرَةِ عَزٰى اِذْ جَبَزْتَهُ، اَنَا عِنْدَ الْمُتَخَيِّرَةِ قُلُوْبُهُمْ مِنْ اُجْلِي.

يَا قُلُوبَ لَا تَطْرَحْ بِرَاحَتِكَ مُلَّةً جَزَعًا وَإِنْ بَانَ الْعَقِيصُ وَتَنَافَتْ لَا عَرُوْا اَنْ تُجَنِّيَ عَلَيْكَ فُضَابِلِي سَبَبَ اَخِيْرَاقِ الْمُتَنَذِلِي دُعَانَهُ مَا زَالَتْ رَلَّةُ الْاَهْلَةِ تُعَادِيكَ حَتّٰى اسْتَوَلٰى دَاوُدُ عَلَى اَوَّلَادِهِ، فَلَمَّتْ هَيْئَتُهُ السَّلَاحِيَّةُ بِبَيَارَةِ نَظَرِ الْعَايَةِ، فَتَشَرُّوا مُطَوٰى ﴿الْجَمَلُ﴾، كَدَعَوْا بِعِصِي الدَّعَاوِي فِي طُهُورِ الْعَصَاةِ، فَقِيلَ: لَوْ كُنْتُمْ بَيْنَ اَلْهَامِي الْهَوٰى، وَعِشَابِ اللَّذَاتِ لَاظْهَرُ اَبَانِكُمْ بِلَاءِ لَكُمْ فَجَرُوا بِبَدِ الْجَزَعِ، وَرَآى هَوْدَجُ الْعِصْمَةِ الدَّعَاوِي، وَعَدُوْا اَنْفُسَهُمْ بِالنَّفٰى بِالتَّقَاوِي، فَقِيلَ: نَقَّبُوا عَنْ بَحَارِ تَقْبَاطِكُمْ، فَانْتَقَرُوا مِلْكَ الْمَلَكُوتِ، فَمَا رَاُوْا فِيمَا رَاُوْا لِمِثْلِهَا مِثْلَ هَارُوْتٍ وَمَارُوْتٍ، فَابَا مِنْ سَفَرِ الْبِلَآءِ بِالنَّبِيَّةِ، فَمَا نَزَلَا حَتّٰى نَزَلَا مِنْ جِصْفِ الْعِصْمَةِ، فَتَزَلَا مُنْزِلَ الدَّعْوَةِ، فَزَيَّنَا مَرْحَبَ النَّسْرَةِ، فَصَرَّتْ عَلَى الْمَرَاثِي اِمْرَاةٌ يُقَالُ لَهَا: الرَّهْمَةُ، يَبْدُوْهَا مُزْهَرُ زَهْرَةِ الشَّهْوَةِ، فَغَنَّتِ الْعَايَةُ بِعُدُوْ اَعْرَ، فَزَلَّتْ قِيَانُ الْهَوٰى، فَهَوٰى الصُّوْتِ كَالصُّوْبِ اِلَى قُلُوبِ قَلْبَيْنِهِمَا عَنْ نَفْوٰى التَّقْوِيْمِ، فَانْتَهَرَ بِنَاءُ عَزَمِ هَارُوْتٍ، وَمَارُوْتٍ حَزَمَ مَارُوْتٍ، فَأَرَادَاهَا عَلَى الرَّدٰى فَرَاوَدَاهَا، وَمَا قَتَلَ الْهَوٰى نَفْسًا فَوَدَاهَا.

فَسَبَطَتْ نَظْمَ التَّنْطِيعِ عَلَى تَحْتِ الشَّخْبِ، إِثْمًا اَنْ تُشْرِفَا، وَإِثْمًا اَنْ تُثْقَلَا، وَإِثْمًا اَنْ تُشْرِبَا، فَقَلَّتَا سَهْوَةً الْاَمْرِ فِي الْحَمْرِ، وَمَا قُطِبْنَا، فَلَمَّا امْتَدَّ سَاجِدُ الْاَجْلَافِ فَسَى سَقَا، فَتَخَلَّلَ بِحَلْكِ الشُّكْرِ فِي رُؤُوسِهِمَا، فَتَزَلَا فِي مَنَاقِلِ

الرُّبَا، فَرَأَيْنَا مَعَ الشَّخْصَةِ شَخْصًا، فَشَجَعْنَا إِلَيْهِ، فَفَشَنَّا بِقَتْلِهِمَا فِي بَنَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَاتَّخَذُوا لَيْلَتِكَ الْوَارِدَةَ وَرَدًّا مِنْ تَضَرُّعٍ، وَتَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ.

سُبْحَانَ مَنْ خَصَّنَا بِكَرَامَاتٍ لَا تُحْصِيهَا، رَفَعَ السَّمَاءَ مِنْ أَجْلِهَا بَانِيهَا، وَسَطَّحَ الْأَرْضَ مِنْهَا قَانًا لَنَا فَاجِيهَا، وَسَحَّرَ الْأَنْهَارَ لِقَوَانَا مُجْرِيهَا، وَجَادَلَ الْمَلَائِكَةَ عَنَّا، وَتَخَفَى فِي قُضِيَّتِنَا تَلْبِيهَا، قَالُوا: ﴿الْجَهْلُ فِيهَا مَنْ يُسَيِّدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ عَنَّا: لَا يَخْلُقُ خَيْرًا مِنَّا، فَأَمِنُوا تَغْيِيرَ الْأَحْوََالِ، وَمَا أَيْتْنَا، فَسَالُوا عَلَى دَعْوَى ﴿وَنَحْنُ نَسِيخُ﴾، وَنَحْنُ بِلَنَا عَلَى ذَلِكَ ﴿وَلَا تُحْكِمُكَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لَقَدْ أَظْهَرَتِ الْمَلَائِكَةُ حَالَةَ فِي خَائِبِيهَا، يَا نَفْسُ خَائِبِيهَا أَتَجْعَلُ فِيهَا، وَلَقَدْ أَظْهَرَ فِيهَا مِرَّ جَلْبُو، وَأَنْقَضَى فِي السُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ بِسُوءِ حُكْمِهِ، وَالْخَرِيصُ يَنْعَمُ وَلَا يَخْضَعُ بِغَيْرِ رِجْمٍ، عَلُّوا بِنَا عَلًّا، فَأَخْطَأَ الْعَرُّ فِي رَجِيمٍ، قَالُوا مَقَالَةً، قَالَتِ الْأَفْعَادُ مَا يُنَافِيهَا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا.

أَمِي الْمَلَائِكَةُ حَيْبٌ، أَوْ خَلِيلٌ، أَوْ كَلِيمٌ؟ أَنَا أَفْعَلُهُمْ يَوْمَ ﴿كُلُّي يَوْمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] صَبَرَ إِبْرَاهِيمَ، أَنَا ضَحُوا يَوْمَ اضْطَجَعَ اللَّيْلُ وَقَالُوا: هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ، مَا لَهُمْ لَوْ اتَّخَلَّوْا كَائِلَاتِنَا، لَمْ يَتَّقَ مِنْهُمْ سَلِيمٌ، أَلَيْسَ كَانَ مِنْهُمْ مَارُوتٌ وَمَارُوتٌ، وَلَكِنَّ الْحَسَدَ قَبِيحٌ، أَلَهُمْ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ، أَتَفْظَنُونَ عَلَيْنَا بِالنَّسَادِ فِي الْعَبِيَّةِ، وَفِي الْعَبِيَّةِ مَا فِيهَا، أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا.

أَلَا فَوَاجِهَهُمْ كَحُلُوفٍ فَمِ الْعَضَائِمِ أَمْ لَنَا؟ أَيُّهُمْ يُبَاهِي فِي السُّجُودِ أَمْ بِنَا؟ مَنْ بِنَا يُدَاخِرُ بِهِ فِي أَرْضِي مِنَّا؟ أَتَرَى مَنْ يَلْفِظُ ﴿يُحْيِيهِمْ وَيُحْيِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٤] عَنَى؟ مَنِ الْقَائِلُ: لَوْ قَتَلْتُ أَنْفَلَةً لَا خَرَقَتْ؟ وَعَنْ مَنْ قِيلَ: ﴿قَوْمٌ مَكَا﴾ [النجم: ٨]؟ أَتُعِينُنَا الْمَلَائِكَةُ وَلَمْ تَرَنَا بِالْهَادِلَةِ يَضْعُبُ ثَلَاثِيهَا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا.

مَنْ بِنَا يُبَاهِي بِهِ وَقَدْ رَفَدَ مِنَ الرَّايحِ فِي بَجَارَتِهِ قَبَاضَةً إِذَا انْتَفَذَ، لَقَدْ سَبَقْنَاهُمْ بِالْحَيَاةِ الْمَعَالِي لَقَدْ لَقَدْ، مَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ عَنْ مِثْلِ قُضِيَّتِنَا لَقَدْ لَقَدْ، أَلَهُمْ تَقُولُ الثَّارُ: جُرَّ يَا مُلْكٌ لَقَدْ، أَمْ نَحْنُ نُكَلِّمُهَا، أَتَجْعَلُ فِيهَا.

هُمْ فِي أَرْزَاقِنَا يَعْمَلُونَ، أَمَا يَضْلُونَ عَنَّا بَعْدَ مَوْتِنَا وَيَعْبُدُونَ؟ أَمَا يَسْتَأْذِنُونَ عَلَيْنَا فِي الْجَنَّةِ وَيَسْأَلُونَ؟ أَلَهُمْ فَصِيلَةٌ يُؤْتِرُونَ؟ أَلَهُمْ مَرْتَبَةٌ مَا يَحْكُمُونَ، أَلَهُمْ مَرْتَبَةٌ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ، أَمَا شَافَهُمْ... فَلَمَّا يَسْتَغْفِرُونَ، وَلَكِنْ إِذَا نَارَتْ نَارُ الْحَسْبِ مِنْ يُلْفِيهَا، أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا.

دَعَايَ السَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ آفَةٍ، وَالسَّعِيدُ مَنْ إِذَا رَأَى ذَلِكَ الْغَيْرَ خَافَهُ، وَلَوْ عَلِمَ أَدَمُ قَلْبَ الْمَشْرَبِ عَافَهُ، وَمَا ضَرَّةُ بَعْدَ وَعْصَى، وَقَدْ حَكَمَ بِنَسَبِ ﴿لَمْ تَجِبْهُ رَبُّهُمْ﴾ [طه: ١٢٢]، فَأَنَّهُ أَتَسَطَّ الْمَلَائِكَةُ مُعْجِنَةً عَلَيْنَا، فَأَيْنَ الرَّأْفَةُ، أَمَا عَلِمُوا أَنَّ طَرِيقَ الْعُبُودِيَّةِ مَسْبُغَةٌ فِي مَخَافَةٍ، ثُمَّ بَيْنَ خَوَابِ عَمْرِ يَوْمٍ مَنْ يَشْتَرِي وَمَنْ يَجْلَافَةُ بِمَا فِيهَا، وَبَيْنَ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا.

الفصل الثاني

في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾

[البقرة: ٣٥]

تلقى؟ بمعنى: أخذ، وقيل: كان الله عز وجل أوصى إليه أن يستغفر له بكلام من عنده، فقيل، قُتِبَ عليه.

إخواني؛ هذا المقبول أخذَ فعملَ قُتِبَ، وَذَلِكَ الْمَطْرُودُ غَايَضَ وَأَعْرَضَ وَأَعْرَضَ فَمَا قُتِبَ.

إخواني؛ تأملوا هذه الإشارة، سَلِمَ أَصْلُ الْوَضْعِ فَلَمْ يَشْذِفْ فِيهِ الذَّنْبُ، فَكُلَّمَا مَجَنِّي عَلَيْهِ الْجَانِي كَيْفِيَّةَ الْعُذْرِ، لَمَّا امْتَنَعَ إِبْلِيسُ مِنَ السُّجُودِ تَأَذَاهُ الْقَدَرُ ابْعَدَ وَحْسٍ مَا خَلَقَتْ؛ أَرَدَتْ لَوْلَا تَقْدِيرُ الذَّنْبِ هَلَكَ آدَمُ مِنَ الْعَجَبِ، فَتَرَنُّكَ لَهُ الْخَطَا بِالْخَطَايَا أَهْلَادُ نَارٍ فِي عَوْدِهِ، فَيَتَضَوَّعُ بِقَاعِ الدَّلِّ، فَيُبَيِّنُ مَعْنَى اسْمِ الْعَيْدِ، أَوْ مَا سَمِعَتْ مَا أَوْ مَا إِلَيْهِ دَفِينُ الْقَدَرِ؛ لَوْ لَمْ تَذُنُّوا لِحَاجَةِ اللَّهِ يَقُومُ يَذُنُّوا.

ثم قيل: يا آدم؛ خذ أهبة التحرز فلا يخرجكهما، فاحتالَ إِبْلِيسُ بِحِيلَةٍ حَيَّةٍ، حَتَّى اقْتَحَمَ بِحِجَّةِ حَيَّةٍ، وَحَمَلَ مَعَهُ مِنْ مَخْدُجِ خَلْقِهِ هَدِيَّةَ الطَّبِيخِ فِي صَحْفَةٍ ﴿قُلْ أَتُؤْكِلُونَ﴾ [طه: ١٢٠]، وَغَشَاها بِغِشَاءِ الْغُشَى فِي سِتْرِ ﴿مَا تَكُنْكَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وَأَمَلَهَا عَلَى مِيزَانِ الْيَمِينِ فِي رَاحَةِ ﴿وَأَسْتَهْزَأُ﴾ [الأعراف: ٢١] حَتَّى أَلْقَاهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمَا عَلَى بَسَاطَةِ الْكَلْبِ فِي دَعْوَى ﴿إِنْ تَكْفُرْ لِيَنَّ أَفْهِيكَ﴾ [الأعراف: ٢١]، فَسَارَا مَعَهُ تَحْتَ عِلْمِ ﴿قُلْ أَتُؤْكِلُونَ﴾ [طه: ١٢٠]، فَبَازَا هُمَا فِي نَبْوِ ﴿تَكْفُرْ لِيَنَّ أَفْهِيكَ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فَلَمَّا تَنَاقَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ قَبَضَ جَبْرِيلُ عَلَى نَاصِيَتِهِ، وَأَخَذَ بِلُومِهِ فِي مَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: (يَا جَبْرِيلُ! أَرْقُ بِِي. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَرْقُ بِِمَنْ عَصَى اللَّهَ).

إخواني؛ هذه سياط أذنب لا مقامع تحسب، يا آدم طلبت الخلوة من الشجرة، وعقوبة من اشتغل بالأسباب عن السبب المغاذه، ولو طلبت الخلوة مني ما خرجت، قلنا بهبط جاءه جبريل، فلما رآه تذاكر المعاهد قبكي ويكفي جبريل ليكاتبه: [الطويل]

أَلَا يَا صَبَا تَجِدُ مَنِي هَجَبٍ مِنْ تَجِدِ لَقَدْ رَأَيْتَنِي مَسْرَاكِ وَجَدًا عَلَى وَجْهِ
فَقَالَ لَهُ جبريل: ما هذا البكاء؟ قال: يا جبريل؛ كيف لا أبكي وقد
حوّلني ربّي من دار السّعيم إلى دار البؤس؟! [الطويل]

وَلَمْ أَشْكُ مَا فِي الْقَلْبِ مِمَّا أَرَى بِهِ مِنْ الشُّوْقَى حَتَّى قَادَ يَخْرُجُ مِنْ صَدْرِي
إِذَا زُفْرَةٌ غَضَّتْ فُؤَادِي بِخُسْرَةٍ بَعَثَتْ بِهَا مِنْ قُلُوبِي غَيْرَةَ تُجْهِدِي
وَقَلَّ يَقْدِرُ الْمَحْرُورُونَ إِلَّا عَلَى الْبُخَا وَحَسْبُ اشْتِيَائِي أَنْ هَتَمْتُ لَهُ بِشْرِي
جاءه الوحي بعد هبوطه، يا آدم؟ ما هذا الذي بك؟ وما هذه البيلة؟ قال:
إلهي؛ صرّت في دار الهوان بعد الكرامة، والشفاء بعد السعادة، والنّضب بعد
الراحة، كيف لا أبكي؟! [الرملي]

مَا دَخَلَنُ الْعَيْسُ مِنْ بَعْدِكُمْ قَرَأْتُ عَيْنَيَّ فِيهَا حَسَنًا
عَلَّ لَنَا مِنْ عَوْدَةٍ لَعُونَكُمْ وَمِنْ الشَّغْلِيلِ قَوْلِي هَلْ لَنَا
قَدْ ضَيَعْنَا الْيَأْسُ مِنْ بَعْدِكُمْ قَلْبُونَا بِأَعْيَابِ الْمُنَى
يَا نَدِيمِي هَذَا عَنْ ذِكْرِهِمْ فَحَدِيثُ الشُّوْقَى لَمْ أَشْغَرْنَا
وَلَعَنِي لَوْ وَجَدْنَا رَاغَةً مِنْ هَوَانِهِمْ لَقَلْبُنَا ضَجْنَا
ما زال يقول الندم يخفى رغبة الحزن حتى أتته من ماء الأنف، ولم يزل
القلب يتقلب على جمرات الفصل حتى أقيم في مهبط نعيم الرضا، فلم تعرف
علاء الخطيئة كيفية العذر، حتى أتمنى عليها قربى الوضلي، فتلقته في في
﴿فَقُلْنَا﴾ [البقرة: ٣٧] فنسخ به وسخ راسخ حكم ﴿وَصَوَّبَ﴾ [طه: ١٢١]،
فستقر في سطر نسخة القول ﴿فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَكَذَا﴾ [طه: ١٢٢].

يا آدم، لا تجزع من كأسٍ زُلِّيَ كان سببَ عَجَبِكَ، فقد اسْتَخْرَجَ مِنْكَ ذَاةَ العَجَبِ، وَالَّتِيكَ رِذَاءَ الشُّكِّ، وَخَلَّلَ أَرْزَاقَ خَلْقِ الْكَيْبَرِيَّاءِ بِأَنَامِلِ ﴿عَلَقْنَا أَلْفُكَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

[اليسيط]

لَعَلَّ عَجَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ لَرُبَّمَا صَحَبَ الْأَجْسَامَ بِالْعِلَلِ لا تحزن بقولي لك: اعبط، فَلَمَّا خَلَقْتُهَا، وَلَكِنْ الْخُرُجُ إِلَى مَزْرَعَةِ الْمُجَاهِدَةِ، وَسُقِيَ مِنْ دُمُوكَ سَائِيَةً سَائِيَةً لِشَجَرَةٍ نَدْبِكَ، فَإِذَا غَاذَ الْعُرْدُ أَحْضَرَ لَعُدُّهُ. [الخفيف]

إِنْ عَمِيَ بِمِثْلِنَا وَبِمِثْلِكَ عَجَبٌ وَنِسَاءَتُ بِنَا وَبِمِثْلِكَ الدُّبَارُ فَالْعَلِيلُ الَّذِي عَمِدَتْ مُلِيمٌ وَالْمُفْرَغُ الَّذِي شَهِدَتْ عِزَارُ اسْتَحْ أَهْلُهَا الْحَبِيبُ دَمْعَ الْأَسْفِ الَّذِي نَسَفَ " لَوْ لَمْ تُذَيِّبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِكُمْ يُذَيِّبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ فَيُغْفِرُ لَهُمْ " (١).

لا تَقُلُّنَ أَنَّكَ إِذَا تَزَلَّتْ تَزَلَّتْ، إِنَّمَا هَبَلْتَ بِمَشُورِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْمَرْزُوقَةِ لَتَبْدَرَ حَبَّ الْحَبِّ فَتَسْقِيهِ مِنْ عَيْنِ الْعَيْنِ، فَإِذَا وَقَعَ الْحَصَادُ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]، حُدَّتْ إِلَى دَارِ الْإِقَامَةِ ﴿هِيَ أَسْلَفَتْمْ فِي الْأَلْبَابِ تَلَايَةُ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وَلَوْ غَفِي لَكَ عَنْ تِلْكَ التَّلَفُّتِ لَقَالَ الْحَاسِدُونَ: كَيْفَ لَفَضَّلَ ذُو شَرِّهِ لَمْ يَصْبِرْ عَنْ شَجَرَةٍ، انْزِلْ إِلَى شَجَرَاتِ الْهَوَى مُضَابِرًا لَطُولِ الظُّمَأِ فِي الْهَوَاجِرِ، مُهَاجِرًا لَذَّةَ الْمُشْتَهَى، لَتَفْرَحَ رَوَائِحُ " وَلَخُلُوفُ قِمِ الْقَضَائِمِ ... " (٢)، وَيَبِينُ أَنَّ ذَلِكَ الشَّائِلَ لَمْ يَكُنْ عَنْ شَهْوَةٍ، إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَغْرِيرِ

(١) أخرجه مسلم (٢١٠٦/٤)، رقم (٢٧٤٩)، وأخرجه أيضاً: عبد الرزاق عن معمر بن الجامع (١٨١/١١)، رقم (٢٠٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤١٠/٥)، رقم (٧١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤٤٦/١)، رقم (٤٢٥٦)، والخطيب (٢١٣/٧)، وأخرجه أيضاً: البزار كما في كشف الاستار (٤٥٨/١) رقم (٩٦٤)، قال الهيثمي (١٧٩/٣): رواه أحمد، والبزار باختصار، والطبراني في الكبير وله أمثاله عند الطبراني وبعض طرقه رجالها رجال الصحيح، وفي إسناده أحمد عمرو بن مجمع وهو ضعيف.

الفرار ومكر الحاسد، قال ابن عباس رضي الله عنه: (ما عَلِمَ آدَمُ عليه السلام أَنْ أَحَدًا يَخْلِفُ بِأَلْسِنِهِ وَيُكْذِبُ ﴿وَكَلَّمَهُمَا إِبْرَاهِيمَ إِذْ لَمَّا كُنَا فِي السَّمَاءِ﴾) [الأعراف: ٢٦].

يا آدم؛ لولا نزولك ما تضاخدت شعباء الأنفاس، ولا نزلت وسائيلُ "هَلْ مِنْ سَائِلٍ..."^(١)، لولا افتقار الطالب ما نشأ قلُّ بِحَقَرِ مَعْلَمٍ "كُنْتُ كَثْرًا..."^(٢).

[الكامل]

لَوْلا الضُّعْفُ خَفِيَتْ عَلَامَاتُ الْهَزَى بِالسَّمْعِ بِعَرَفٍ عَكْسُ نَفْسِي الْكَاسِمِ
أَتَلَقُّ لَمَّا عَضَى وَقُوعُ النَّايَاتِ، فَلَا تُشَانُ عَنْ حَالِهِ كَيْفَ بَعْدَ النَّايَاتِ،
مَا زَالَ يَبْكِي لَمَّا جَنَى لَمَّا جَنَى مِنْ جَنَى الثُّغَرَاتِ، وَيَنَادِي بِلِسَانٍ اغْتِدَارِهِ: مَا

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٢٩٥، رقم ٢٢٣٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٢، رقم ٢٩٥٥٦)، وأحمد (٣/ ٣٤، رقم ١١٣١٣) وعبد بن حديد (ص ٢٧٢، رقم ٨٦١)، ومسلم (١/ ٥٢٣، رقم ٧٥٨)، وأبو يعلى (٢/ ٤٠٠، رقم ١١٨٠)، وابن عزيمة (٢/ ١٨٢، رقم ١١٤٦).

(٢) حديث "كنت كثيرا مخفيا فأحييت أن أهرق فخلقت الخلق في عرفوني" قال شيخ الإسلام ابن تيمية: موضوع ليس من كلام النبي ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي، والحافظ ابن حجر في اللآلئ والسيوطي وغيرهم وقال الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني "وهو واقع كثيرا في كلام الصوفية ونوا عليه أصولا لهم" كشف الخفاء / ١٣٢ قلت: هذا الحديث وحديث "من عرف نفسه عرف ربه" وهو حديث موضوع كذلك ذكره السيوطي في ذيل الموضوعات وقال فيه الإمام النووي ليس بثابت وشيخ الإسلام ابن تيمية قال موضوع، وذكره شيخنا محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم ٦٦ وقال: لا أصل له، أقول هذان الحديثان هما عمدة المتصوفة من أهل وحدة الوجود القائلين بأنه لا يوجد في الكون إلا الله وما المخلوقات إلا مظاهره، فالإنسان مظهر ومجلد لله على حد تعبيرهم، ومعنى "من عرف نفسه عرف ربه" عندهم أي يعنون من عَلاَف نفسه عرف أنه الله أي صورة من صورة لأنه في عقيدتهم الباطلة يتجلى في هذه الموجودات المتعددة ولذلك قال قائلهم "سبحاني" "وما في الجبة إلا الله"، [سلسلة الأحاديث الواهية ١/ ٢٧٠]

أَعْوَدُ، وَيُقَالُ: فَات، إِلَى أَنْ قَدِمَ بِشِيرِ الْوَصْلِ بِإِشَارَاتِ الْبِشَارَاتِ، وَقَعِيَتْ بِهِ رِيحُ النَّصْرِ، وَالْحَرْبُ تَارَات، فَعَاشَ قَلْبُ بَحْرٍ حَرْقٍ الْوَجْدِ فَات، ﴿فَلَقَدْ دَامَتْ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾ [البقرة: ٣٧].

أَجْدَبَتْ أَرْضٌ نَارَ الْقَلْبِ لِنَارِ الْحُرَقَاتِ، وَهَاجَ زَرْعُ الظَّرَبِ مِنْ شِدَّةِ الرُّقَدَاتِ، فَخَرَجَتْ تَمْسَقِي غَيْثًا أَقْدَامَ الْحَسَرَاتِ، وَتَضَرَّعَتْ لَطَلِبِ النَّذَى أَفْوَاهُ النَّدَامَاتِ، فَسَالَتْ عَيْنُ الْعَيْنِ فَسَالَتْ فِي الصَّفَوَاتِ، فَهَيْثُ رِيحُ الْعَفْوِ قَبْلَ الْغَيْثِ مُبَشِّرَات، وَتَوَاصَلَ سَحَابُ الرِّضَا عَنْ زَلَّةٍ جَرَتْ فَجَرَتْ مِنْهُ فَطَرَات ﴿فَلَقَدْ دَامَتْ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾ [البقرة: ٣٧].

فَانْتَبِهَ كَمَا انْتَبِهَ أَبُوكَ مِنَ الرُّقَدَاتِ، وَأَتَذَبَّ زَمَانًا مَضَى فِي الْهَفَوَاتِ، وَالْحَسْلُ بِالذَّمْعِ عَيْنًا دَرَسَتْ بِالْمَحْرَمَاتِ، لَعَلَّ عَطْفَ اللَّطْفِ يَعُودُ فَيَعُودُ الْعُودُ مِنَ الشُّمَرَاتِ، فَبَقِيَّةُ غَمْرِ الْمَرَاءِ لَا قِيَمَةَ لَهُ يَسْتَدْرِكُ فِيهِ مَا فَاتَ، وَلَا تَأْسِي فَإِنْ "لِيَرْبِكُمْ فِي أَيَّامٍ دَعَرْتُمْ نَفْعَاتٍ فَتَعَرَّضُوا...^(١) كَمَا تَعَرَّضَ أَبُوكُمْ أَدَمُ يَعْمَلُ الْخَيْرَاتِ ﴿فَلَقَدْ دَامَتْ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾ [البقرة: ٣٧].

(١) قال المعطوني (٢٦٩/١): ذكره الغزالي في الإحياء، وقال العراقي في تخريج أحاديثه:

رواه الترمذي الحكيم في النوافذ.

وللحديث أطراف أخرى منها: "إن لربكم في أيام دعركم نفعات".

الفصل الثالث

في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ الله قرضًا حسنًا﴾ [البقرة، 280].

إنما سُمي الصدقة قرضًا لثلاثة أوجه:
أحدها: أن القرضَ يُدُلُّ للجزاء فتطعن نفس البخيل إلى العوضي .
الثاني: أنه يتأخر قضاؤه فيعلم الضير .
الثالث: لبيان استحقات العوضي به.

وروى البخاري في " صحيحه " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَنْ تَصَدَّقَ يَغْدِلْ ثَمَرَةً مِنْ كَسْبِ طَيْبٍ، وَلَا يَضَعُدْ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَقَبَّلُهَا بِبَيْتِهِ، ثُمَّ يُرَتِّبُهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَتِّي أَخَذَكُمْ فَلَوْهٗ، حَتَّى تَكُونَ بِمِثْلِ الْخَيْلِ ^(١) .

وروى مسلم في " صحيحه " من حديث أبي مسعود الأنصاري، قال: " جَاءَ رَجُلٌ بِثَاقَةٍ مَحْظُومَةٍ، فَقَالَ: قَدْ بَدَأَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ [سِتْرٌ] ^(٢) وَآلَةٌ نَافِلَةٌ [مَحْلُهَا] ^(٣) مَحْظُومَةٌ ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري (٥١١/٢)، رقم ١٣٤٤، ومسلم (٧٠٢/٢)، رقم ١٠١٤، وأخرجه أيضًا: مالك (٩٩٥/٢)، رقم ١٨٠٦، والنسائي في الكبرى (٤١٣/٤)، رقم ٧٧٣٥، وابن حبان (١١٣/٨)، رقم ٣٣١٩، والبيهقي (١٧٦/٤)، رقم ٧٥٣٥.

(٢) ما بين المعكوفين ساقط من الأصل.

(٣) ما بين المعكوفين ساقط من الأصل.

(٤) أخرجه مسلم (١٥٠٥/٣)، رقم ١٨٩٦، والنسائي (٤٩/٦)، رقم ٣١٨٧.

اعلم أن للقرض الحسنين صفات منها أن يكون حلالاً، روى مسلم في "صحيحه" من حديث ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يَقْبَلُ اللَّهُ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ"^(١).

وكان الحسن يقول: أَيُّهَا الْمُتَصَدِّقُ عَلَى الْمُسْكِينِ بِرَحْمَةٍ، ارْحَمْ مَنْ ظَلَمْتَ.

الصفة الثانية: أن يكون من محبوب المال، قرأ ابن عمر: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا الْبِرَّ حَتَّى تُؤْتُوا بِهَا سُبُوحًا﴾ [آل عمران: ٩٢]، فقال: لا أجد شيئاً أحب إلي من جاريته رُمِيَّةً، فهي حُرَّةٌ لوجه الله تعالى. (ومرض، فاشتبه شيئاً، فلما صنع له جاء سائلٌ فتأولهُ إِيَّاهُ، وقال: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ يُحِبُّهُ).

الصفة الثالثة: أن يكون في صحة المُتَصَدِّقِ، فقد قال عليه السلام: "مَثَلُ الَّذِي يَتَعَيَّنُ عِنْدَ الْمَوْتِ، كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدَى إِذَا شَبِعَ"^(٢)، وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة: "أَنَّهُ سُئِلَ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: أَنْ تَتَصَدَّقَ وَأَنْتَ شَجِيحٌ صَحِيحٌ، تَأْمَلُ الْيَقَافَ، وَتَخْشَى الْفَقْرَ، وَلَا تُثْمَلُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْخُلُقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ"^(٣).

الصفة الرابعة: أن يقصد المتصدق وجه الله عز وجل، وفي "الصحيحين" عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "يُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَيَقَالُ: مَا عَمِلْتَ؟ فَيَقُولُ: مَا تَزَكَّيْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤/١)، رقم ٢٢٤٤، وأخرجه أيضاً: ابن الجارود (ص ٢٨، رقم ٦٥)، وابن خزيمة (٨/١)، رقم ٨، وأبو عروبة (١/١٩٨)، رقم ٦٣٥، والبيهقي (٢/٢٥٥)، رقم ٣١٩٦.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠/٤)، رقم ٣٩٦٨.

(٣) أخرجه أحمد (١/٤٦٣)، رقم ٤٤١٥، قال البيهقي (٣/١٣٣): رواه أحمد، وأبو يعلى، والبخاري، والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح. وأخرجه أيضاً: البزار (٤/٣٤٤)، رقم ١٥٤٠، وأبو يعلى (٩/٥٦)، رقم ٥١٢١، والطبراني (١٠/٨٤)، رقم ١٠٠٢٩، وفي الأوسط (٨/١٧٧)، رقم ٨٣٢٢.

فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، يُقَالُ: كَذَبْتُ، وَلَكِنْ قُلْتُ لِقَالٍ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، يُسْتَحَبُّ عَلَى وَجْهِهِ، قِيلَ فِي الثَّانِي^(١).

الصفة الخامسة: إخفاء الصدقة، فإنه يقرب المُتَصَدِّق من الإخلاص، ويبعد من الرياء والفقراء من الذل، فبما عجباً إذا كان المعمول من أجله يعلم ويرى، فما للخلق في البين.

الصفة السادسة: أن يكون بغير مَن ولا أذى، والمَنُّ بَأَن يَمُنَّ عَلَيْهِ بِمَا يُعْطِيهِ، وَيَحْكُ لِمَ تَمُنَّ وَهُوَ بِأَعْذِ مِنْكَ لَكَ فِي حَالِ عَنَّاكَ، قَبَحُيْ لَكَ فِي وَقْتِ حَاجَتِكَ، وَأَعْذِ مِنْكَ بِسِرٍّ يَتَنَّى، وَيُعْطِيكَ كَثِيرًا يَتَنَّى، فَهُوَ أَمَنٌ عَلَيْكَ.

والأذى من وجهين:

أحدهما: مواجهة الفقير بما يؤذيه من الكلام.

الثاني: أن يُخَيِّرَ النَّاسَ بِمَا فَعَلَ مَعَ الْفَقِيرِ.

ولقد كان حَسَّانُ بْنُ أَبِي سَنَانٍ يَشْتَرِي أَهْلَ الْبَيْتِ، فَيُعْتَقُهُمْ، وَلَا يُعْلِمُهُمْ مِنْ هُوَ، قَالَ بِشَرٌّ: (الصدقة أفضل من الحج والعمرة والجهاد؛ لأن ذلك يركب ويرجع فبراء الناس، وهذا يعطي سرّاً فلا يراء إلا الله تعالى).

ودوي عن الحسن بن علي عليهما السلام: (أنه خرج من ماله، وقاسم ربه بماله ثلاث مرات).

(وَبُعِثَ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِقَرِيبٍ مِائَتِي أَلْفٍ، فَفَسَمَتْهَا، ثُمَّ أَفْطَرَتْ عَلَى خَبِيرٍ وَزَيْتٍ، فَقَالَتْ لَهَا جَارِيَتُهَا: لَوْ اشْتَرَيْتَ لَنَا لَحْمًا بِدَرَاهِمٍ، فَقَالَتْ: لَوْ دَفَّرْتَنِي لَفَعَلْتُ).

أَيُّهَا الْبَخِيلُ عَنْ نَفْسِهِ: أَنْتَ حَازِنُ الْوَرَقَةِ، أَتُ لِيَابِ الْأَحْرَارِ عَلَى عِبْدِ الْأَنْفُسِ، تَالُوْا إِنْ نِعْمَةَ الْجَاهِلِ تَرَوْهُ فِي مُزْنَلَةٍ.

[الطويل]

جَبَانٌ عَنِ الْإِسْقَاقِ وَالسَّالِ وَالْمَرْ وَزَيْتٍ مِلَاحٍ عِنْدَ مَنْ لَا يُقَابِلُ

(١) أخرجه أحمد (٣٢١/٢)، رقم (٨٢٦٠)، ومسلم (١٥١٣/٣)، رقم (١٩٠٥)، والنسائي

(٢٣/٦)، رقم (٣١٣٧).

يا مَنْ لا يُؤْذِي ما يجب عليه، كيف تطمع في مرتبة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ [الحشر: ٩]؟

استشهد بالرمز عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فأبى عكرمة بما به رَمَرٌ، فرأى سهيلاً ينظر إليه، فقال: ابدؤا به، ورأى سهيلاً الحارث بن هشام ينظر إليه، فقال: ابدؤوا به، فماتوا قبل أن يشرىوا، فَمَرَّ بهم خالد بن الوليد، فقال: بأبي أُنْتُكُم. كان إبراهيم بن أدهم إذا غزى لا يأخذ من الغنيمة شيئاً، فيقال له: أُنْتُكُم فيه؟ فيقول: إنما الرَّمَرُ في الخلال.

[الكامل]

فَلَا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ نَائِكَ إِذْ تُحَلِّبُ بِجَاهِلَةٍ بِمَا لَا تُعْلَمُ بِى
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغْشَى الزُّعَى وَأَجِفْتُ عِنْدَ الْمَغْتَمِ
يا جامع المال من الخطام، وما يدري ما جئى، كُلَّمَا نَقَضَ الْوَعْدَ أَصْلًا
من حُصُونٍ جَرَّصُو بَنَى، إلى متى يُبْعَثُ الْأَمَلُ وَالْأَجَلُ قَدْ دَنَا، يحتاج إخراج
المال إلى عِزَامٍ لَيْسَ لَنَا، إِنْ كُنْتَ تُطِيقُ أَنْ تُلْقِيَ السِّيفَ وَالْقَنَا، فَأَلْقِنَا: ﴿عَنْ ذَا
الْأَيْدِي يَقُولُ إِنَّهُ لَرَمَرٌ حَسَكًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

يا هذا الفقر يطلب مائلاً، فإذا نمت الخير أنفستنا غير أن البخل داء قد
قَتَلَنَا، نالله لو عَرَفْنَا الْمُخَاطِبَ وَمَنْ عَنَى لَمَنْعَنَا مَنَعَنَا: ﴿عَنْ ذَا الْأَيْدِي يَقُولُ إِنَّهُ
لَرَمَرٌ حَسَكًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

يا مَنْ ضَيَّعَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا حُمْرَهُ، كُلَّمَا خَجَّ فِي قَضِيحَةٍ أَرْدَفَهَا حُمْرَهُ.
يا مَنْ سَفَّاهُ الْهَوَى حُمْرَهُ فَلَمْ يَتَّقِلْ أَمْرَهُ، كُلُّ حَبِيَّةٍ فِي يَدِكَ لَوْ فَهِمْتَ
حُمْرَهُ، فاتقِ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ ثَمَرَةٍ، إِنَّمَا تَقْلُبُ شَيْئًا هَبَّتَا.
أسباب حرصك في الدنيا قوية، والشهوة غسيمة وليست غليظة، قد ضاع
ما مضى فاستدرك البقية، قَدْ دَمَ مَالُكَ فَقَدْ اسْتَقْرَضَ مِنْكَ رَبُّ الْبَرِيَّةِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ
لَكَ عَمَلٌ فَلْيَكُنْ لَكَ نِيَّةٌ، فَعَدَدْنَا بِأَحَادِيثِ الْمُنَى: ﴿عَنْ ذَا الْأَيْدِي يَقُولُ إِنَّهُ لَرَمَرٌ
حَسَكًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

تَعَلَّلْ بِصَلاَحِكَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، أَتَأْمَنُ مَا أَتَى مِنْ قَبْلِهِ الرَّجَاءِ وَكَيْفَ،

أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الدُّنْيَا مِثْلَ ضَيْفٍ، يَا نَبِيَّ الْفَقِيرِ فَتَعَلَّجْ: لَا تَفْعَلِ الْوَقْتَ
سَيْفًا، الْمَالُ حَاضِرٌ وَالْوَعْدُ تَقْدُ زَيْفٌ، وَفِرَاقُ الْغُيُوثِ يَتَبَيَّنُ بَيْنَ يَدَيِ أَشَدِّ
الْمَوْتِ الَّذِي قَدْ دَنَى ﴿ثُمَّ ذَا الَّذِي يَدْعُنَا رَبَّنَا بِمَا كُنَّا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ثُمَّ تَدِيمُ جَامِعِ الْمَالِ يَوْمَ الْفِرَاقِ، وَقَدْ تَلَقَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، سَبَقَةُ
الضَّالِّحُونَ وَمَا تَرَكَهُ مَا تَرَكَهُ يُطِيقُ الْحَقَاقُ، وَلَقَدْ نَمَنَى عَوْضُ مَا جَمَعَ وَاقْتَنَى
وَقَتْنَا ﴿ثُمَّ ذَا الَّذِي يَدْعُنَا رَبَّنَا بِمَا كُنَّا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

يَا تَجَارَ الدُّنْيَا؛ هَذِهِ الْأَرْيَاحُ، وَيَا طُلَّابَ الْاِكْتِسَابِ عِنْدَ الرِّيحِ، وَيَا
أَرْيَابَ الْأَسْفَارِ يَلْقَوْنَ الْخَرَّ وَالرِّيحَ، مَا لَنَا نَطْلُبُ مَا لَنَا فَنَمْنَعُونَا يَا وَفَّاحَ،
عَامِلُونَا بِشَرِّ الضَّعْفِ لِمَا فِي الرِّبَا مَعَنَا مِنْ جَنَاحٍ، وَلَكِنْ بِشَرِّ أَنْ لَا يَكُونَ
الرِّبَا بَيْنَنَا ﴿ثُمَّ ذَا الَّذِي يَدْعُنَا رَبَّنَا بِمَا كُنَّا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

مَا لَكَ مِنْ مَالِكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَقِيرُ، غَيْرَ أَنَّكَ بَزَوِي إِذْرُكَ عَقِيرٌ، لَقَدْ بَعَثَ
أَتَقَسَّ الْأَشْيَاءِ بِأَحْقَرِ حَقِيرٍ، كَيْفَ تَعْلَلُ بِالتَّوْفِيقِ هَذَا الْعَالِ وَهَذَا الْفَقِيرِ، هَذِهِ
الْخَيْفُ وَهَاتِيكَ وَمَا ﴿ثُمَّ ذَا الَّذِي يَدْعُنَا رَبَّنَا بِمَا كُنَّا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

الفصل الرابع

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران، ٩٦]

قال أبو هريرة: كانت الكعبة حشفة على الماء، عليها ملكان يُسَبِّحَانِ
الله الليل والنهار قبل خلق الأرض بالقي سنة، وهذه الآية تُنْبِئُ على فضل
السابق، وللأوائل أثرية تزيد على ما بعدها من الخير والشر؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّا
لَأَوَّلُ الْمُزَيِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ﴾
[البقرة: ٤١]، وقال صلى الله عليه وسلم: " لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ حُلُمًا إِلَّا حَتَّى
عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كَقُلِّ مِنْهَا لَأَنَّهُ أَوَّلٌ مَنْ سَئِئَ الْقَتْلِ "^(١)، وقال صلى الله
عليه وسلم: " أول ما يقضي [فيه]^(٢) الدعاء بين الناس "^(٣)، فإذن قد
بان أثر الأوائل، فانتخب منها طَرَفًا من فنون شتى من المخلوقات، والأفعال
بعده.

(١) أخرجه البخاري (١٢١٣/٣)، رقم (٣١٥٧)، ومسلم (١٣٠٢/٣)، رقم (١٦٧٧)،
والترمذي (٤٢/٥)، رقم (٢٦٧٣) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٨١/٧)، رقم
(٣٩٨٥)، وابن ماجه (٨٧٣/٢)، رقم (٢٦١٦)، وابن أبي عاصم في الليالي (٥/١)،
وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (١١٠/٩)، رقم (٥١٧٩)، وابن حبان (٣٢١/١٣)، رقم
(٥٩٨٣)، والبيهقي (١٥/٨)، رقم (١٥٦٠٢).

(٢) ما بين المعكوفين في الأصل (في).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٥٧/٥)، رقم (٢٧٩٤٨)، وأحمد (٣٨٨/١)، رقم (٣٦٧٤)،
والبخاري (٦٥١٧/٦)، رقم (٦٤٧١)، والنسائي في الكبرى (٢٨٥/٢)، رقم (٣٤٥٥)،
وابن ماجه (٨٧٣/٢)، رقم (٢٦١٥)، (٢٦١٧).

أول ما خلق الله سبحانه وتعالى القلم، أول جبل وضع في الأرض أبو قبيس، أول مسجد وضع المسجد الحرام، أول ما ولد آدم قابيل، أول من خط بالقلم وشاهد الشياطين إدريس، أول من عمل القراطيس يوسف، أول من سرد الدروع داود، أول من دخل الحمام وعمل الصابون سليمان.

فصل

أول من خيّر الرقاق النمرود، أول من خطب بالسؤا فرعون، أول من طيخ الأجر هاتان، أول من سبب السؤا عمرو بن لحي، أول من سنّ الدّنة مائة من الإبل عبد المطلب، أول من قطع في الشّرق وقضى بالقسامة في الجاهلية وخلع ثغليّ عند دخول الكعبة الوليد بن المغيرة، أول من قضى في الخش بالبيزات عامر بن الظرب، أول قرين قسّم للذّخر مثل حظّ الاثنين عامر ابن جشم.

فصل

أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الوحي بالرؤيا، أول ما نزل عليه من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، أول آية نزلت في القتال: ﴿لَنْ يَغْلِبَهُ يُنتَفِلُونَ﴾ [الحج: ٣٩]، أول ما علمه جبريل الوضوء، أول من أسلم من الرجال أبو بكر رضي الله عنه، ومن النساء خديجة، ومن الصّيبان عليّ، ومن الموالى زيد، ومن الأنصار جابر بن عبد الله ابن رباب، أول من هاجر إلى الحبشة حاطب بن عمرو، وإلى المدينة مصعب ابن عمير، ومن النساء أم كلثوم بنت عتبة، أول من أحدث المصافحة أهل اليمن، أول من أدّن بلال، أول من بائع ليلة العقبه أسعد بن زرارة، أول من بايع بيعة الرضوان أبو سنان الأسديّ، أول من بنى مسجداً في الإسلام عمار، أول من سلّ سيفاً في الإسلام الزبير، أول من عذّي به قرشة في سبيل الله الوقفاد، أول من رمى بهم في سبيل الله سعد بن أبي وقاص، أول شهيد في الإسلام سمّة أمّ عمار، أول راية حققت في الإسلام راية عبد الله بن جحش وهو أول من ذهب بأسير المؤمنين.

فصل

أول ظهور كان في الإسلام ظهور أوس بن الصامت من المجادلة، أول خلع كان في الإسلام خلع حبيبة بنت سهل بن ثابت بن قيس، أول لعان كان في الإسلام لعان هلال بن أمية مع زوجته، أول مرجوم كان في الإسلام ماعز، أول من سنَّ الصلاة عند القتل غيبتي، أول من ارتد عن الإسلام الأسود الغنسي، أول من أوصى بثلاث ماله البراء بن عازب، أول من دفن بالقيع عثمان ابن مظعون.

فصل

أول من جمع القرآن أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أول من قُتل نعيم النخعي، أول من وضع التحزب أبو الأسود الدؤلي، أول من نُقِط المصاحف يحيى بن يقطين.

فصل

أول ما يرفع الخشوع أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، أول الآيات طلوع الشمس من مغربها، أول من تنشق الأرض عنه نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو أول من يقرع باب الجنة، وهو أول شافع، وأول مشفع، أول من يكسى إبراهيم، أول ما يحاسب به العبد صلاته، أول أمة تدخل الجنة أمة نبينا صلى الله عليه وسلم.

إخواني؛ لقد علا كعب الكعبة على سائر البقاع بقاع العلم أبرزتها كف الإيجاد كالكتاب قبل وجود الأرض، وكان آدم أول من ساس الأساس، ثم بت للبيت بنات الطوفان، فحل ما حل بحلية أضرار خلته، فبقى على حال الحال، وقد حال إلى أن ولّد الخليل إسماعيل بن هاجر، فمنها حرم منهاج الحرم، وهاجر بهما حتى وضعهما قريباً من زمزم، وتولى راضيًا بالوكيل الذي تولى يوم ﴿حَرْقُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فتيقنه هاجر، تقول: أكله أمرك بهذا؟ فقال: نعم. فرجعت متوكأة على بئسأة التوكلي على من لا يتسنى، فجعلت تشرب ما معها، وترضع لبنها ابنها، فلما نفذ جعل إسماعيل يتلوى على رقبتي

رمضان الصوم، فانطلقت لتبذل المجهود في مأمور: ﴿فَأَمْسُوا فِي مَكَانِكُمْ﴾ [الملك: ١٥]، فصعدت بأقدام الضَّفَّ الضَّفَّ، فلما أظله الظلة على الطلل، توكفت ظل ظل روح ينفع الضلالة، ثم جذب فجلدت الجرد بالجد هابطاً، فَلَمَّا طَرَفَ طَرَفٌ سَبِيحاً طرف الوادي رَقَعَتْ طرف ذراعها، ثم وَسَعَتْ حُطَّافاً، وَسَعَتْ للمجد بجهدا في ذراعها، ثم أتت المرأة المروءة، وعادت إلى الضفا كذلك سَبِيحاً، فلذلك أَمَرَ المكلف أن يسعى سَبِيحاً؛ لأنه أثر مقدم لتصيب الأقدام نصيباً من مواطن ﴿فَيُهْدِيهِمْ أَفْئِدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠]، فَسَبِيحَتْ صوتاً من صوب، فنزل الملك ليزيل النازلة، فهياً نزل النزول التزيي في مكان تزيي، فَرَمَ ماء زمزم، وَنَزَى يَنْزَى أَنْ تَزَلَّ تَزَلَّ لَا تَزَلَّ، فَحَضَّحَضَّ الماء في حَضَّحَضَّ الحَضَّ الحَضَّ، حتى سمعت حَضَّحَضَّ كَالْمَضَّحَضَّ، فامتدت كف حرصها، فألفت له كالحوض، فجاز حاكم الجزاء في مجاز المجازاة، فلامها على الجمع، وعابها على الشَّرِّ، ليقندي بالخليل في إثار الكرم، يا هاجر؛ ظهور الماء ليس من كيس كسبك، فما هذا الحوض من حوض فعلك، فقد وكلنا الأمر إذا إلى رأيك، ولو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً.

إخواني؛ حاكم الجزاء لا يحابي إما حكم في قضية: ﴿أَتَصْطَرِّحُ بِحَدِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] بحكم: ﴿قُلْتُ﴾ [يوسف: ٤٢]، ﴿وَيَوْمَ حُكِّمْتُ﴾ [التوبة: ٢٥] بقضية: ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ [التوبة: ٢٥].

فمرت رفقة من جرحهم، جرحهم بريذ: ﴿فَاتَّجَلَّ أَفْئِدَةً بَيْنَ أَثْنَيْنِ تَبَوَّءَ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فأقاموا، فاشتاق الخليل إلى إسماعيل، فاشتراط لسان غيره سارة أن لا تنزل، فلم ينزل عن مكانه، لئلا ينزل عن مكانه: ﴿وَأَرْبَعَةً أَلْفِي وَكَأَنَّ﴾ [النجم: ٣٧]، فقدمت إليه زوجة إسماعيل المقام فقام فَقَدَّم فيه قدمه، وغابت رجل الرجل فحولته إلى يساره، فسرت فيه اليسرى، فهب دليل الإرشاد للطالين: ﴿وَاتَّجَدُّوا مِنْ تَقَالِيهِمْ بِرُفْقَةٍ مَقْلٍ﴾ [البقرة: ١٢٥]، فلما أمر ببناء البيت، جاز من لم يعلم مراد الأمر، فوذا سحابة تسحب ذيل الدليل، فلما تبع مكان البيت وقفت وقفت، ونادت: يا إبراهيم؛ علم على ظلي، فلما عَلِمَ كما عَلِمَ حَيَّتْ فذهبت، فَسَّرَ بما فَسَّرَ له من مشكل الشكل، فلذلك

مِرْءٌ: ﴿وَلَا يَزَالُ لِزَيْنَبَ مَكَاتُ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، فقاما يبذلان القوى في القوى لرفع القواعد، وجعلنا مكان استراحة البناء المعنى: ﴿رَبَّنَا قَبِّلْ بِنَاءً﴾ [البقرة: ١٢٧].

فلما فَرَعَا فَرَعَا قَمَ السُّؤَالِ، يُرَشِّقَانِ ضَرْعَ الضَّرَاعَةِ: ﴿وَأَرْبَا مَنَابِكَا﴾ [البقرة: ١٢٨]، فظهر جبريل من قبلة التقبل، فعَلَّمَ النَّاسُكَ الْمَنَامُكَ، وأقامه على مَنَارٍ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ [الحج: ٢٧]، فَلَمَّا شَرَّفَ الْبَيْتَ بِإِضَافَةٍ: ﴿وَلَهَزَ بَيْنِي﴾ [الحج: ٢٦]، قصدَه قَوْجُ الْفِيلِ، فَقَبِّلَ مُرَادُهُمْ لَمَّا بَاتُوا عَلَى مَا يَتَوَقَّعُ الطَّيْرُ الَّذِي رَمَى كَالْغَمَامِ، فَكَانَتْ قَطْرَاتُهُ لِلْحَصَادِ لَا لِلْبَلَدِ، فَاصْبَحَ لَزُجِ الْأَجْسَادِ كَالْمَنْجَلِ الْهَاشِمِ مَعْجَزًا لظهور نبي هاشم، فَأَمْسَى فِي بَيْتِهِ الرِّقَاسَةَ ﴿كَتَمَ تَأْكُولُ﴾ [الفيل: ٥].

تَالِدُ لَوْ مَارَ فِي قُلُوبِ الْقَوْمِ الْحَجِي مَا رُمُوا بِالْحِجَارَةِ، وَلَقَدْ نَادَتْ قِصَّتَهُمْ قَرِيبًا بِعِبَارَةِ التَّنَادَةِ، أَمَا يَكْفِي أَمْرَهُمْ عَلَى إِمَارَةِ أَمَارَةٍ تَدْبِرُوا أَمْرَ الْخِلَافِ فِي الْهَلَاكِ، فَإِنَّكَ أَغْنِي وَأَسْمَعِي يَا نَجَارَةَ.

فَسَبْحَانِ مَنْ دَافَعَ بِإِهْلَاكِهِ عَنِ الْعَرَبِ بِحِفْظِ عُسْرٍ وَعِيشِي، فَقَدْ قُسِّرَ ذَلِكَ قَبِيرَةً فِي مِرْءٍ: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١].

وَكَمْ اشْتَرَى بِهَا مِنْ رُوحِ قَلْبٍ غَافِلٍ مَيِّتٍ، وَجَعَلَ ثَمَنَهَا: ﴿وَقَلِّبُوا رُبَّ هَكَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣].

الفصل الخامس

في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

[آل عمران: ١١٠]

كنتم بمعنى: أنتم؛ قال ابن تيمية: قد يأتي الفعل على نية الماضي وهو مستقبل، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا قَالَ اللَّهُ بُكُوبِي لَمَرَّتْ مَرَّتٌ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [النحل: ١]، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُ مَنْ كَانَتْ فِي الْآلِهَةِ صِبْيَانًا﴾ [مريم: ٢٩]، ﴿فَلَقْنَاهُ﴾ [فاطر: ٩].

واعلم أن (كان) في القرآن على ستة أوجوه:

أحدها: بمعنى الماضي؛ كقوله تعالى: ﴿كَانَ جَلًّا﴾ [آل عمران: ٩٣]، ﴿وَكَانَ وَرَثَتُهُمْ نَبِيًّا﴾ [الكهف: ٧٩].

الثاني: صلة؛ كقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

الثالث: بمعنى ينبغي: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٧٩]، ﴿وَمَا كُنَّا لِنُؤْمِنَ﴾ [النساء: ٩٢].

الرابع: بمعنى صار: ﴿فَكَانَتْ قَبْلَهُ نَبِيًّا﴾ [الأنعام: ٦].

الخامس: بمعنى هو: ﴿مَنْ كَانَتْ فِي الْآلِهَةِ صِبْيَانًا﴾ [مريم: ٢٩].

السادس: بمعنى وجد؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كُنَّا لَكُلِّ قَوْمٍ لَدُنَّا مَصْرُورٌ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: "أَلَا إِنَّكُمْ تُولَدُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى" (١).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥)، رقم (٢٠٠٣٧).

لَقَدْ عَلِمْنَا لَفُظَ مَنْ قَدْ سَلَفَ يَنْتَبِرُ فِي تَغْيِيرِ الْإِعْتِبَارِ، فَتَنَبَّهُوا مِنْ طُوفَانٍ هَالِكٍ، وَتَقْتَدِي بِنَجَاةِ سَالِمٍ، إِذِ السَّيْءُ مَنْ وَجِئَ بِغَيْرِهِ، طَالَتْ أَعْيَارُ الْأَوَائِلِ وَقَصُرَتْ أَعْيَارُنَا، فَاسْتَغْنَتْ أَلْسِنَةُ أَحْوَالِنَا: كَيْفَ تُذَوِّكُ فِي جَيْبِي قَصِيرٍ مَا تَالُوهُ فِي زَمَنٍ كَثِيرٍ؟

فاختصرت لنا طرف السلوك في تضاعف الثواب بأرباح: ﴿فَلَقَدْ عَنُتُوا أَنبِيَآئَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وَجَعَلْتَ لَيْلَةً مِنْ لَيَالِي سِنَتِنَا غُرَّةً فِي شَهْرٍ مِنْ شَهْرُونَا، فزادت على شهرة ألف شهر.

نودي على عصاة قوم موسى: ﴿وَلَكُنْتُمْ أَفْسَقْتُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فلما فتحوا أَبْصَارَ الْبَصَائِرِ يَوْمَ ﴿يُوقَفُ فِي آيَاتِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، قاموا في مقام ذل ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَتَّعِزَّنَا﴾ [الأعراف: ١٤٩]، فوصل توبيخ التلافي بتلف: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فلما بلغت إلينا في الدلل التوبة، قيل لنا: الندم توبة، عرضت لهم غزاة، فكان أخذ صلاحهم ﴿لَنْ تَذَلَّهُنَّ﴾ [المائدة: ٢٤]، وساموا ببيع الفضولي: ﴿فَأَذَقْتُكَ وَرَيْكَ فَتَقَبَّلْتَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فقال في بعض مغازينا المقداد: " لَوْ ضَرَبْتُ بَطُونَهَا إِلَى بَرَكِ الْغَنَاءِ ^(١) ".

انفَرَقَ الْبَحْرُ فَجَارَوْا، فآلَعَجِبَ كَيْفَ اسْتَجَارُوا قَوْلَ: ﴿أَتَمَكَّنَّا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ١٣٨].

صاغ السامري عجلا فلولا جوازهم في مجاز التشبيه لما التبس عليهم من لا تعرف منه سوى الاسم بجسم، وأصغر هذه الأمة قدراً ومقداراً يردد يمين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

اختار منهم سبعين، فلما حلوا على ذروة الجبل ثارت أخلاط التشبيه، فقويت أمراض القلوب، فَضَحَّتِ الْأَلْسُنُ، فَضَحَّتْ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٥٥]، وتزلزل الجبل لِقُبْحِ الضمير، وكيّلوا بصاع صاعقة، فلما موسى في قائم قوتهم يتدب بلقط: ﴿لَوْ شِئْتَ أَفْلَحْتَهُمْ مِنْ

(١) أخرجه ابن أبي شبة (٧/ ٤٧٠)، رقم (٣٧٣١٥).

قُلُّ ﴿[الأعراف: ١٥٥]، فلما ضَعِفَ نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم على الجبل
تزلزل لضعفه عن حمل بعض كواهلها النبوة، وبعضها الصديقية، وبعضها
الشهادة، فكان موازياً بزلزلته لالزواء جهنم يوم: " جَزَىٰ نَا مُؤْمِرٌ... (١١) ،
فَجَارُ الرَسُولِ صلى الله عليه وسلم، وقد سمع بقصة القوم وجود الشبه، فبقي
الشبه بقوله: " فَمَا عَلِمْتَ إِلَّا نَبِيٌّ... (١٢) ، كانت نار الفرايين تميز الخالص
من الشيو، فوقع عنا لئلا يفتضح المردود.

(١) ذكره الحكيم (١/١٢٨)، وأخرجه الطبراني (٣٥٨/٢٢)، رقم (٦٦٨)، قال الهيثمي (١٠/٣٦٠): فيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف، وأبو نعيم في الحلية (٩/٣٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٣٤٠)، رقم (٣٧٤) وقال: تفرد به سليم بن منصور وهو متكر، والمخطوب (٩/٢٣٢)، وأخرجه أيضاً: ابن عدى (٦/٣٩٤)، ترجمة ١٨٨١ منصور بن عمار أبو السري) وقال: متكر الحديث.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٦٢٥)، رقم (٣٦٩٩)، والنسائي (٦/٢٣٦)، رقم (٣٦٠٩)، وابن خزيمة (٤/١٢١)، رقم (٢٤٩١)، وابن حبان (١٥/٣٤٨)، رقم (٦٩١٦)، والدارقطني (٤/١٩٩)، والبيهقي (٦/١٦٧)، رقم (١١٧١٣)، والحاكم (١/٥٨٠)، رقم (١٥٢٩)، والضياء (١/٤٨٢)، رقم (٣٥٨).

الفصل السادس

في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾

[آل عمران: ١٢٢]

لَمَّا خَرَجَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى غَزَاةٍ بَلَدٍ وَأَيُّ فِي الصَّحَابَةِ قِلَّةٌ الشَّائِبِ، فَأَرْثَى قِلَّةَ: ﴿وَقَاتِلْهُمْ فِي الْآخِرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فقام المقداد عن قومه قومةً، فتأدى حفظاً لمناجاة الميابة: " لو هَرَيْتُ بِقُلُوبِنَا إِلَى بَرْكِ الْيَمَامِ... "، فَكَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَوْرِ لِيَسْمَعَ جَوَابَ الْأَنْصَارِ، فَنَطَنَ لِسَانَهُ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ، فَقَالَ: " لو خَطَبْتَ الْبَحْرَ خَطْبَنَا مَعَكَ... "، فَكَرَبَ الْقَوْمُ بِضَمَائِرِ الْعِزَاتِمِ وَشِعَارِهِمْ يَوْمئِذٍ، قَالَ: قَالَ: " يَا مَنصُورُ أَمْتُ ^(١)، وَغَلِبَهُ الْمَشْرُكُونَ عَلَى الْمَاءِ، فَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ رِمَاةٌ، فَأَوْجِبَ الْمَاءَ، فَضَمَّ ضَعْفَ نَظَامٍ إِلَى صِلَاةٍ مُحَدَّثٍ، فَأَلْقَى مُحَدَّثَ الْأَسْرَارِ بِالْوَسَاوِسِ اسْتِغْثَاذَ الْظُنُونِ، فَأَقْبَلَتِ السَّمَاءُ تَبْكِي فِي الْحَالِ بِعَيْنِ الْقَطْرِ، فَنَسَخَ عَطَشَ الْبَرِّ بِالرِّيِّ، وَأَمَكْنَ الرَّمْلُ عَلَى مَزْمُولِ الزَّمَلِ قَبَانَ سِرٍّ: ﴿وَقَدْ هَبَبَ فَكَّرُ بِحَرْزِ الْكَيْتَيْنِ﴾ [الأنفال: ١١]، فَرَأَى الْمُصْطَفَى فِي الْأَعْدَاءِ الْعَدَدَ، وَانْتَفَتَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدَ إِذَا مَا وَجَدَ، فَاسْتَقْبَلَ قِبْلَةَ الدَّهَاءِ، وَمَدِيدَ الطَّلَبِ يَطْلُبُ غَرِيماً مَا مَاطِلُ، وَصَاحَ لِسَانُ إِطْلَاعِهِ عَلَى الْغَيْبِ عَنْ مَضْمُونِ، فَأَوْرَثَنِي بِعِبَارَةِ انْبِسَاطِ أَنْ تَهْلِكَ، فَامْتَدَّتْ حِينَئِذٍ مَدَدُ الْعِيُونِ وَلَا عَرُونَ، فَأَقْبَلَتِ سَحَابَةٌ تَسْحَبُ ذَيْلَ النَّصْرِ فَخَمَّتْ جَمْعَهُمْ، فَسَمِعُوا مِنْهَا خَشْمَةً الْخَيْلِ فَمَجْمَعُجُوا، وَتَقَبَّلَتْ قُلُوبُهُمْ فِي بِحَمُومِهَا تَحْمُومًا، فَتَزَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ مَعَ

(١) أخرج الطبراني في الأوسط (٦/ ١٢٤)، رقم (٦٠١٥).

الألفين: جبريل في ألفين، وميكائيل في ألفين، وإسرافيل في ألف مراد مردفين، فعدلوا كالقناتيم، قد سدلو العنائب، فلما نزلت الأملاك لم يؤمن وجوب الإعجاب ممن جرب من يوم دعوى: ﴿وَلَقَدْ نَعَرْنَا﴾ [البقرة: ٣٠]، فجاء برید الوحي يعزل آتية السبب في توقيع ﴿إِنْ مَنَّكَ﴾ [الأنفال: ١٢]، فأرسلت قريشاً زانداً، فعاد بتأثير: ﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الْكُفَرِ كَفَرُوا الزُّفَرِ﴾ [الأنفال: ١٢]، فجعلد القوم العزم بسهام العزائم، فأثر ما عتبه في عتبه، وكاد يشيب خوفاً شيبه، وأحكم حزام الحزم حكيم بن حزام، ورأى الجهل أبو جهل، فلما اشتد ساعد التناوش، أجمع المسلمون في القتال قتلاً، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يكفه من الحصى كفاً تحف أكتفهم تحفاً، واجه به وجوهاً ما يجعل لقلوبهم أحصاء، فكَأَنَّهُ عَيْنُ كُلِّ عَيْنِ حِصَاةٍ، وأشرف القبل في الإشراف من مشاركة المشرفية، فَمَجَزَزَ الموت سبعين مجزوراً في تحري العدو لا في عيد النصر.

[الوافر]

قَلَرُفُمُ الْقِتَالِ إِلَى قِتَالٍ أَخَذُوا بِأَجْزِهِمْ فِيهِ الْقِرَارُ
مَضُوا مُتَّصِلِينَ فِيهِ الْأَغْصَاءِ فِيهِ لَأَزْوَاجِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عَنَارُ
فَلَمَّا قَلِبَ الرُّسَاءَ إِلَى الْقَلِيبِ، قام الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس الرُّسْ الذي رسوا فيه، يُتَادِي بِلِسَانٍ ﴿فَاتَّقَنَا﴾ [الروم: ٤٧] عن ضمير ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَا﴾ [الأنفال: ١٩] لتصديق ﴿وَيَعْرِفُ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٣] في مضمون: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَرِ يَضَعُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، يا فلان بن فلان؛ يا فلان؛ هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً.

وَعَلَيْهِ تَسْبِيحَةٌ مَن شَهِدَ بَدْرًا:

حرف الألف:

أبي بكر الصديق، أبي بن كعب، أبي بن ثابت، الأرقم، أسعد بن زيد، أسيرة، أنس بن قنادة، أنس بن معاذ، أنسة، أوس بن ثابت، أوس بن خولي، أوس بن الصامت، إياس بن البكير.

حرف الباء:

يُحِير، بجادة، يُسَيِّس، بشر بن البراء، بشر بن سعد، بلال بن رباح.

حرف القاء:

تعيم بن يعار، تعيم مولى خراش، تعيم مولى بني غنم.

حرف التاء:

ثابت بن أقوم، ثابت بن ثعلبة، ثابت بن خالد، ثابت بن عمرو، ثابت بن هزال، ثعلبة بن حاطب، ثعلبة بن عمرو، ثعلبة بن غنمة، ثقيف بن عمرو.

حرف الجيم:

جابر بن خالد، جابر بن عبد الله، جابر بن...، جابر بن صخر، جبر ابن عتيك، جبر بن إلياس.

حرف الحاء:

الحارث بن أنس، الحارث بن خزيمه، الحارث بن ظالم، الحارث بن النعمان، الحارث بن أمية، الحارث بن قيس، حارثة بن نفيح، حارثة بن سراقه، حاطب بن أبي بلتعة، حاطب بن عمرو، الحباب بن المنذر، حبيب بن الأسود، حزام بن ملحان، حريث بن يزيد، حصين بن الحارث، حمزة بن عید المطلب، حارثة بن حمزة.

حرف الخاء:

خالد بن البكير، خالد أبو أيوب الأنصاري، خالد بن قيس، خارجة بن زيد، غباب بن الأرت، غباب مولى عتبة بن عتبة، غبيب بن يساف، خراش ابن الصمة، خلاد بن رافع، خلاد بن سويد، خلاد بن عمرو، خلد بن قيس بن النعمان، خليفة بن عدي، خنيس بن حذافة، خليف بن... .

حرف الذال:

ذكوان بن عبد قيس، ذو الشمالين.

حرف الراء:

رافع بن الحارث، رافع بن عجل، رافع بن المعلی، الربيع بن إياس، ربيعة بن أکثم، ربيعي بن رافع، رحيلة بن ثعلبة، رفاعه بن رافع، رفاعه بن عبد المنذر، رفاعه بن رفاعه.

حرف الزاي:

الزبير بن العوام، زيد بن أسلم بن ثعلبة، زيد بن حارثة، زيد بن الخطاب، زيد بن سهيل أبو طلحة، زيد بن ودیعة، زياد بن كعب، زياد بن أسد.

حرف السين:

سالم بن عمير، سالم مولى أبي حذيفة، السائب بن عثمان بن مظعون، سبيع بن قيس، سراقه بن عمرو، سراقه بن كعب، سعد بن خيثمة، سعد بن خولة، سعد بن الربيع، سعد بن سهيل، سعد بن عثمان الزرقی، سعد بن عثمان أبو زيد، سعد بن عمير أبو زيد، سعد بن أبي وقاص، سعد بن معاذ، سعد بن قيس، سفيان بن بشير، سلمة بن أسلم، سلمة بن ثابت، سلمة بن سلامة، سلمة بن الحارث، سليمان بن عمرو، سليمان بن قيس، سليمان بن ملحان، سليمان بن أبي كبشة، سليط بن قيس، سماك أبو دجانة، سماك بن سعد، ستان بن صيفي، ستان بن أبي ستان، سواد بن أبي رزين، سواد بن غزوة، سويط، سهل بن حنيف، سهل بن عتيك، سهل بن عدي، سهل بن قيس، سهل بن رافع، سهل بن بیضاء.

حرف الشين:

شجاع بن وهب، شماس بن عثمان.

حرف الصاد:

صالح وهو شقران، صفوان بن بیضاء.

حرف الضاد:

الضحاك بن عبد عمرو، ضمرة بن عمرو.

حرف الطاء:

الطفيل بن الحارث، الطفيل بن النعمان، الطفيل بن مالك.

حرف العين:

عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب، عاصم بن ثابت، عاصم بن
 البكير، عاصم بن قيس، عاقل بن البكير، عامر بن أمية، عامر بن ربيعة، عامر
 ابن سلمة، عامر بن عبيدة، عامر بن فهيرة، عامر بن مخلد، عائد بن ماض،
 عباد بن بشر، عباد بن الخشخاش، عباد بن قيس بن عتبة، عتبة بن عبي،
 عبد الله بن أنيس، عبد الله بن ثعلبة، عبد الله بن جبير، عبد الله بن جحش،
 عبد الله بن الجعد، عبد الله بن الربيع، عبد الله بن رباح، عبد الله بن زيد،
 عبد الله بن سراقه، عبد الله بن سلمة، عبد الله بن سهل، عبد الله بن سهيل،
 عبد الله بن عبد الله، عبد الله بن أبي عبد الله أبو سلمة، عبد الله بن
 عبد مناف، عبد الله بن عيسى، عبد الله بن عرفة، عبد الله بن عمر، عبد الله
 ابن عمير، عبد الله بن قيس، عبد الله بن مخزومة، عبد الله بن مسعود، عبد
 الله بن حزام بن مظعون، عبد الله بن النعمان، عبد الرحمن بن جبير، عبد الله
 ابن عبد الرحمن، عبد ربه الأنصاري، عبيد بن أوس، عبيد بن زيد، عبيد بن
 أبي عبيد، عبيد بن الحارث، عيسى بن عامر، عتبة بن ربيعة، عتبة بن زيد، عتبة
 ابن غزوان، عتبة بن عبد الله، عتيك بن التيهان، عثمان بن مظعون، عدي بن
 أبي الزغباء، عصيمة، . . .، عصمة حليف لهم من بني أشجع، عقبة بن عامر،
 عقبة بن وهب بن كلفة، عقبة بن وهب بن ربيعة، عكاشة بن محصن، عمار بن
 حزم، عمار بن ياسر، عمرو بن أباس، عمرو بن ثعلبة، عمرو بن سراقه،
 عمرو بن طلق، عمرو بن معاذ، عمرو بن أبي سرح، ويقال: معمر، عمير بن
 الحارث، عمير بن الحمام، عمير بن عامر، عمرو بن سراقه، عتبة بن
 عمرو، عمر بن عوف، ويقال: عمرو، عمير بن أبي وقاص، عمير بن معبد،
 عوف بن أثانة وهو مسطح، عوف بن عفراء، عويم بن ساعدة، عياض بن
 زهير.

حرف الغين:

غنام بن أوس.

حرف الفاء:

فروة بن عمرو، الفاكة بن بشر.

حرف القاف:

قنادة بن النعمان، قدامة بن مطعم، قطبة بن عامر، قيس بن عمرو، قيس بن صعصعة، قيس بن محصن، قيس بن مخلد.

حرف الكاف:

كعب بن جهمار، كعب بن زيد، كعب أبو اليسر، كنان بن الحصين.

حرف الميم:

مالك بن نبهان، مالك بن تميلة، مالك بن الدخشم، مالك بن ربيعة أبو أسيد، مالك أبو ثليف، مالك أبو حية، مالك بن أبي خولي، مالك بن قدامة، مالك بن مسعود، مبشر بن عبيد، منذر بن المخلد، محمد بن فضيلة، محمد بن مسلمة، مدلاج، مرند، مسعود بن أوس، مسعود بن خالد، مسعود بن الربيع، مسعود بن سعد، مسعود بن سويد، مصعب بن عمير، معاذ بن جبل، معاذ بن عفراء، معاذ بن عمر، معاذ بن ماعض، معبد بن ماعض، معبد بن عبادة، معبد ابن قيس، معتب بن عبيدة، معتب بن حمراء، معتب بن بشر، معقل بن المنذر، معمر بن الحارث، معن بن عدي، مسعود بن عفراء، معوذ بن عمرو، المقداد ابن الأسود، مليل بن وبرة، المنذر بن عمرو، المنذر بن قدامة، المنذر بن محمد، مهجع.

حرف النون:

نصر بن الحارث، النعمان بن ثابت، النعمان بن سنان، النعمان بن عمرو، النعمان بن هضر، النعمان بن مالك، النعمان بن أبي خزعة نوفل بن عبد الله.

حرف الواو:

واقد بن عبيد الله، ودبعة بن عمرو، ودقة، وهب بن سعد، وهب بن محسن.

حرف الهاء:

هاني بن تيار، هشام بن عتبة، هلال بن المعلى.

حرف الياء:

يزيد بن الحارث، يزيد بن قيس، يزيد بن عامر، يزيد بن المزين، يزيد ابن المنذر.

ومن يعرف بكنيته ممن شهدها:

أبو الحمراء، أبو خزيمة، أبو سيرة، أبو مليك، أبو وائل.
وامتنع ممن شهدها ثمانية لأعذار، فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهامهم وأجورهم، فكانوا كمن شهدها:
عثمان، وطلحة، وسعيد، والحارث بن حاطب بن الحارث، والحارث ابن الصمة، خوات، عاصم بن عدي رضي الله عنهم، وأبو ثبابة حاطب، فهؤلاء البديون بجميلتهم، نفعنا الله بمحبتهم، وحشرنا في صحبتهم، وأنالنا من شفاعتهم، ولا حرمتنا من بركة بركتهم، وغفر لنا بمعفرتهم.

الفصل السابع

في قوله تعالى: ﴿وَكَايَئُوهَا إِلَيْكَ مَعْفُورٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

[آل عمران: ١٣٣]

حقيق بمن عمره قصير أن يُبادر لئلا ينتهب كم يلبث قنديل الحياة على
عراف الآفات، يا هذا؛ مشكاة بدنك في مهاب عواصف الهلاك، وزجاجة
نفسك في معرض الانكسار، فاغتنم زمان الضوء فأيام الوصل قصار، أنفاس
الحي خطأ إلى أجله، درجات الفضائل كثيرة المراقي، وفي الأقدام ضعف،
وفي الزمان قصر، فمتى تنال الغاية، البَذَارُ البَذَارُ لَمَّا دَارَتْكُمْ بَذَارُ، تزوج
التواني الكسل فاشتغلتم بالمرس مهلاً قد تولد بينهما الحُسران، لما سمع
الصدق: ﴿وَكَايَئُوهَا إِلَيْكَ مَعْفُورٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، أخذ جواد
عزمه في جواد الحد حتى خرج غريباً عن الرحل؛ لأن يوم السباق لا يحتمل
الأنقال، رمى ماله وَتَخَفَّفَ، وأذاب لَحْمَهُ وَتَخَفَّفَ، وأطاع وما تَكَلَّفَ، وبَادَرَ
وما تَأَلَّفَ، ولاح له الهدى فما تَوَقَّفَ، وَتَزَوَّجَ قَمِيصَهُ فَتَنَحَّلَ، حتى ضَجَّ مضمار
ما سيفكم أبو بكر، أحرم بذات عرق الصدق، ونزع مخيط الهوى، وكذلك
علي، لَمَّا خَافَ إغارة الفوق على جُند العزيمة رمى في الصلاة بالخاتم، كان
عُمر وعائشة رضي الله عنهما يُسردان الصوم، وسرد أبو طلحة أربعين سنة،
وكان ابن عمر لا يطر في الحضر، وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يصفر
ويخضر، وحج ثمانين حجة، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً، وصام متصور
ابن المعتز أربعين سنة وأقام ليلها، وما فانت سعيد بن المسيب صلاة في
جماعة أربعين سنة، سعيد بن المسيب ثلاثة:

أحدهم: هذا، وهو أحد الفقهاء السبعة .

والثاني: سعيد بن المسيب البَلَوِيُّ رضي الله عنه، روى عنه يحيى بن عبد الله بن بكير .

الثالث: الشيرازي، روى عنه ابن أبي روق.

ختم أبو بكر بن عياش في زاوية بيته ثمانية عشر ألف ختمة، وكان كثر يختم كل يوم وليلة ثلاث ختمات، وكان لكهس في الشهر تسعون ختمة، وكان عمير بن هانئ يسح في كل يوم مائة ألف تسبحة، قال الثوري: بئْتُ عند الحجاج بن فرافصة اثني عشر ليلة، فما أكل، ولا شرب، ولا نام.

ودخلوا على أبي بكر النهشلي وهو في السَّيَاق وهو يومئذ إلى الصلاة، فقبل له: على هذه الحال، فقال: أبادر طي صحفتي.
هؤلاء والله الأبطال، لا أنت يا بَقَّال.

شعر: [الرملي]

صَافَحُوا الشُّجْمَ عَلَى بُعْدِ الْمَنَالِ وَاسْتَظَلُّوا الْحَرَّ مِنْ بَرْدِ الزُّلَالِ
وَاسْتَدَلُّوا النُّوْغَ مِنْ أَحْطَارِهَا إِنَّمَا الْأَحْطَارُ أَشَدُّ الْمَنَالِ
رَغَبُوا الطَّيْرَ إِلَيْهَا وَرُبَّمَا صَحَبَ الْأَجْسَامُ يَوْمًا بِالْهَزَالِ
وَجَرَوْا سَبْقًا إِلَى غَايَتِهَا بِالْظُلُومِ السُّرِّ وَالْقُبُ الْعَوَالِ
كانت مُعَاذَةُ العدوية إذا جاء النهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه،
فما تنام حتى تمسي، وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها، فما
تنام حتى تصبح.

لاحت لهم راية الغاية فَجَدُّوا، وعلِمُوا بُعْدَ الطريق فاستَعَدُّوا، فَلَا مَهْمَ
على الْبَحَارِ مَنْ لَا يَغْلَمُ، وعَاتِبَهُم على الجهاد من لا يفهم.
قيل للأسود بن يزيد: الرُّقَى بِطَيْفِكَ، فقال: الرُّقَى أَظْلَبُ.
قيل لميسرة القيسي: لو رَفَقْتُ بِطُفِكَ، فقال: مِنَ الرُّقَى أَتَيْتُ. فقالت
امرأة مسروقة: كان يهلي حتى تنفخ قدامه، وتقعده خلفه تكيي رحمة له.

[الرملي]

وَبَغَى الْعَاذِلُ لِي مِنْ رَحْمَةٍ فَبُحْبَابِي بُِحْبَابِ الْغَاذِلِ

دخلوا على زوجة العابدة، فكلموها في الرفق بنسها، فقالت: إنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه فداً، والله يا إخواني لأضليكم لله عز وجل ما أفلتني فداي، ولأضومن له أيام حياتي، ولا يكتن ما حيلت الماء عياني.

[الكامل]

غَدَلُ الْعَوَالِ حَوْلَ فَلْيِ الثَّابِي	وَمَوَى الْأَجْبِيَّةُ مِنْهُ فِي مَوْدَائِي
الْقَلْبُ أَغْلَمَ بَا عَدُولِ بِذَائِي	وَأَحَقُّ بِكَ بِجَفْنِي وَبِغَائِي
وَأَجْبِي وَأَجِبْ بِي وَبِلَامَةِ	إِنْ السَّلَامَةُ بِي مِنْ إِغْرَائِي
لَا تَعْنِ الْمُسْتَأَقَ فِي أَشْوَابِي	عَنِّي تَكُونُ عَنَّا فِي أَهْلَائِي
إِنْ الْمُجِبْ مُضَرَّجٌ بِمُتَوَعِي	بِثَلِّ الْفَتِيلِ مُضَرَّجًا بِبِغَائِي

يا هذا اعلم أن الراحة لا تنال بالراحة، فمن زرع خضد، ومن جد وجد.

[الطويل]

وَكَيْفَ يُنَالُ الْمَجْدُ وَالْجِسْمُ وَادِعٌ وَكَيْفَ يُحَادُّ الْحَمْدُ وَالْمَالُ وَافِرٌ
أَيُّ مَطْلُوبٍ يِلَّ مِنْ غَيْرِ مَشْقُوقٍ؟ وَأَيُّ مَرْغُوبٍ لَمْ يُبْعَدْ عَلَى مُؤْتِرِهِ
الشَّقَاقُ؟

المال لا يُحْضَلُ إلا بالتعب، والعلم لا يُدْرَكُ إلا بالطلب والتضيق،
واسم الجود لا يناله بخيل، ولقب الشجاع بعد تعب طويل.

[البيط]

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدُ إِلَّا سَيْدٌ قَطِرٌ	لِمَا يَشُقُّ عَلَى الشَّاقَاتِ قَتَالٌ
أَمْضَى الْغَرِيبَيْنِ فِي أَقْرَابِهِ عُلْبَةٌ	وَالْبَيْهَضُ هَادِيَةٌ وَالشَّمْرُ قَتَالٌ
يُرِيكَ مَخْبَرَةُ أَضْعَافِ مُنْظَرِهِ	بَيْنَ الرُّجَالِ وَفِيهَا الْمَاءُ وَالْأَلٌ
لَوْ لَا الْمَشَقَّةُ نَادَى النَّاسَ مَحْلُهُمْ	الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالٌ
وَأَنَا بُلُغُ الْإِنْسَانِ عَاقِبَةُ	مَا تَحِلُّ مَا شِئَتْ بِالرُّعْلِ شِمْلَانٌ

إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرْكٍ الْقَبِيحِ بِوَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانُ وَإِحْسَانُ
يا هذا: أعز الأشياء قلبك وولتك، فإذا أهملت قلبك وَضَعْتَ وقتك فقد
ذهبت منك الفوائد وَقَاتَكَ المقصود.

يا هذا: حلبة السبقي لا تصلح إلا لمضمار ما لبعطين الخطايا خطي.

[مجزوءه الكامل]

جَدُّ الرِّمَانِ وَأَنْتَ تَلْعَبُ وَالْعُمُرُ فِي لَا شَيْءٍ يَلْعَبُ
عَمَّ عَمَّ تَقُولُ لَمَّا أَتَوْ بَ لَمَّا لَمَّا وَالْمَوْتُ أَقْرَبُ

الفصل الثامن

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الْيَمِينَ قُدْرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَالُكُمْ بَلْ أَحْيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٦٩]

هذه الآية نزلت في شهداء أُخِذَ، وذلك أنه لَمَّا أَقْلَتِ تَجُومُ الشُّرُكِ وَلَاخِ
بَدْرُ التَّوْحِيدِ بَدَرَ أَقْلَتِ مِنْهُمْ قُلٌّ وَفِي قُلٍّ سَيْفٌ قُلٌّ، فَكَارَ بِمُخَّةٍ ظِلَالِ النَّارِ إِلَى
لِبْسٍ مَا فَعَلُوا، وَلِبْسٍ مَا صَنَعُوا، وَرَمَوْا أَمْوَالَ الْإِنْفَاقِ عَلَى نَاقِدٍ: ﴿يَصُدُّوهُ
عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فَخَرَجَتْ مِنْ قَاصِعَاءٍ: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦]، فطعنوا بالسيفين لينقطع علق القلب المتقلب،
فلما عثت في الحربِ يَدُ التَّائُوْشِي، وَامْتَدَّ نَاحُ النَّصْرِ بِسَيْفِ الظُّفْرِ نَحْوَ تِلْكَ
الْمَهْرَاجِزِ، فَهَزُّ فَهَزِّمْ، فَخَرَّتُمْ لِسَانُ الْعَلَبَةِ: ﴿إِذْ تَحْشَوْنَهُمْ وَيَظُنُّوهُ﴾ [آل
عمران: ١٥٢]، فَزَعَجَ الطَّمَعُ فِي الْغَنَائِمِ أَقْدَامَ الْعَزَائِمِ، فَانْهَزَمُوا فِي فُضَاءٍ: ﴿إِذْ
تُصِيبُكُمُ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، فَتَادَاهُمُ لَانَمٌ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَتَوَنَّاهُمْ مِنَ
قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ [آل عمران: ١٤٣]، فَانْقَضَتْ صُفُوفُ الْمُؤْمِنِينَ بِدٍ: ﴿إِنَّكَ لَنَافِكٌ
لَا يَتَّبِعُ مَا يَدْعُوهُ﴾ [الرعد: ١١]، وَتَعَدَّى الْأَمْرُ إِلَى مَا تَعَدَّى فَأَثَرُ فِي الرِّبَاجِيَةِ
وَالْحَبِينِ، وَالظُّفْرُ يَتَادِيهِ إِنَّمَا تَأَلَّكَ مَا تَأَلَّكَ كَلْسِجٍ نَحْلَةٍ لِنَحْلَةٍ، أَوْ كَحُطْنٍ نَمْلَةٍ
فَمِ لَدِ.

يا منيسطًا يوم بدر في إدلال أن تهلك، اسمع يوم أخذ تحكم: ﴿يَسِّرْ لَكَ
مِنْ الْأَثَرِ حَرْقًا﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم بِمُخَّةٍ عَمَّوْ إِلَى عَمَّوْ، فلما غابن تلك
المثلة وما فقد قط مثله، شهد غضب الغضب من قُرَابٍ، لِأَقْلَنِ بِقَتْلِكَ، فَقَدِمَ
مُؤَدَّبُ الْحَكَمِ صَفْحَةَ الصَّفْحِ إِلَى ثَعْبَانِ الْإِنْتِقَامِ: ﴿وَيَوْمَ عَاثِرَتْ قَعَابُؤُنَا﴾

[التحل: ١٢٦]، وجعل أرواح الشهداء في "أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا في الجنة نُرزق، ثلثا يزهّدوا في الجهاد، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم"^(١)، فانتدب المُرسِلُ مُرسلاً فتلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الْقِيَمَةَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

إخواني؛ الشهادة منزلةٌ عليّ، يحتاج طالبها إلى مجاهدةٍ قويّة، لئلا غلبه عمرٌ رضي الله عنه فضّلها ثمنًا، فسُلطَ على تلك اللؤلؤة أهر لؤلؤة، فسلك خلفه خليفته طريقه من بعده، فتهدى ناصريه عن القتال حتّى قيل ضائعًا.

[الكامل]

فَقِيلُوا سَلُّوْهُمَا لَدَىٰ بِخَرَابِهِ مِنْ غَيْرِ مَا ذَلَّ بِمَوَى الْأَخْيَارِ
ثُمَّ اسْتَحْلَوْا مِنْ عَقِيلَةٍ مَالِهِ وَنُسُوا جَوِيلًا كَمَ لُهُ وَأَيَادِيهِ
فَلَمَّا كَانَ سَفَرُ الْحَيَاةِ عَلَىٰ عِلَىٰ رَضَىٰ اللَّهِ عَنْهُ كَانَ يَسْتَبْطِئُ قَدُومَ الْقَاتِلِ،
فَيَقُولُ: (مَتَىٰ يَتَعَثُّ أَثْقَاهَا؟).

فلما تأقت نفسُ الحسين إلى منازل أبيه، نادى لسان الفهم إنما نالها بالصبر على الصبر، إنما علا عليّ بالكرِّ ومحمّدٌ بالبلاء، فالتقط خرزات فضلهما من عقد كربلاء، فهممت جنةً هامئةً في فضاء الفضائل، فركب هودج المشاهدة يحدو به حادي العزم، فلما بلغ منزل الصبر بات منه في بيت^(٢).

"نحن معاصر الأنبياء أشدّ بلاء، ثم الأمتل فالأمتل"، لئلا جادى على

(١) أخرجه الطبراني (١٩/٦٤ رقم ١٢٢) قال الهيثمي (٣٦٩/٢) فيه ابن إسحاق وهو مدلس وثقة رجاله رجال الصحيح.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٦/١٢٩.

بيت النبوة في مسيره إلى صُغَيْنِ بَشط الفرات، فقال: اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله، فقبل له: ماذا تقول؟ قال: " دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وعيناه تفيضان بالدموع، فقلت: ما شأن عينيكَ؟ فقال: قام من عندي جبريل، قال: فحدثني أن الحسين يُكْتَلُ بِسَهْطِ الفرات، فقال لي: هل لك أن أشمك من تربته؟ قلت: نعم، فمد يده، فأعطى لي قبضةً من تراب، فأعطانيها، فلم أملك عيناى أن فاضتا^(١) .

[المتقارب]

عَلَيْلِيْ إِنْ جُرْتُمَا ضَارِجًا فَكُرًّا الْمَطِيَّ وَزُودًا الْمَشَانِي
وَعَوَجًا عَلَيَّ أَحْسَى الدُّبَارَ فَبِإِنَّ الدُّبَارَ لِمَنْ تُعْلَمَانِ

أخذ الحسين طفلًا فوضعه في حجره، فكان سهمه سهم، فقبل: نحن نرضعه لك، خَلَوَ يلحقُ خَالِ أبيه، إن له مرضعًا يَتَمَّ إرضاعه في الجنة.

تقدَّم إلى الماء ليشرب، فقال القدرُ: مهلاً شمسَ يوم الصيام في الطفل إياك ومشروع الدنيا، فإنها ملوثة بألواء الكلاب، ضُرِبَ بِسَهْمِ فَالِ الدَّمُ مِنْ شَفَتِهِ، فَلَقَّاهُ يده لَا يَشْفَتِيهِ.

[المديد]

غَاغَرَتْهُ الْحَرْبُ يَوْمَ نَوَاسٍ مَيِّتٌ نَاصِرٌ عِشِّ الْقَعَالِ
ضَائِعَ الْأَرْضِ بِخَدِّ أَبِيهِلٍ طَالَمَا أَشْرَقَ عِنْدَ السُّؤَالِ
مُسْتَهْجِيتَ شَرَّ الْمَاءِ يُفْزِي قَلْبُهُ ظُلُمَةُ السُّيُفِ وَقَعَ السَّهَالِ

وقع الشُّبَّةُ بينه وبين جدِّه لَمَّا جَدَّ بِجَدِّهِ الموت، شاهدت أثرَ الحَرْبِ قاطمة، فقالت: وَالحَرْبُ أَبَاهُ، فقال: " لَا تَحْزَنْ عَلَيَّ أَبِيكَ بَعْدَ الْيَوْمِ^(٢) ،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٧٨/٧)، وأحمد (٨٥/١)، وأبو يعلى (٢٩٨/١)، والضماء (٣٧٥/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي يعلى (١٦١/٦)، وشم (٣٤٤).

فانتقش فص ليكربك في طابع الولد، فصار كربلاء، فهو في الظاهر مكروب وراحة ﴿تَوَلَّوْهُمْ النَّارُ﴾ [التحل: ٣٢]، نقول: يا ضيف كربلاء، لا كَرَبَ لا، فلما ألقي ضريحاً، جاء مستحيت إلا عَال شوق الأبرار إلى لقائي بتجيب النجاة من جنات القدس، فتلَى رسالة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ النَّظِيمَةُ ﴿٢٧﴾ تَبِيعِي إِلَيَّ رَاحَةً مُهَيَّاةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، عن مُرَكَّبٍ مُرَكَّبٍ الجسم إلى مُرَكَّبٍ القدس: ﴿وَأَدْخُلِي فِي عَنَاقِي ﴿٢٩﴾ وَأَكْثَلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٩ - ٣٠].

الفصل التاسع

في قوله تعالى: ﴿فَرَأَى النَّاسَ قَلِيلًا﴾

[النساء: ٧٧]

روى المستورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: * مَا مَثَلُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَثَلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ يُصْبِغُهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا تُرْجَعُ^(١)، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ.

ليس في الصحابة من اسمه المستورد غير هذا، وجملة ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم سبعة أحاديث؛ أربعة منها يرويها أهل مصر، وحديثان لأهل الكوفة، وحديث لأهل الشام، ولم يخرج له البخاري شيئاً، وكل ما اخرج له مسلم حديثان، أحدهما ما ذكرناه، وروى سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: * لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعُولُ جُنْدَ اللَّوْجِ نَاحٍ يَغْرُسُهُ مَا سَقَى تَخَافِرًا مِنْهَا شَرِيَةً مَاءٍ^(٢).

إخواني؛ إنما الدنيا حَلْبَةٌ لِقَرْصِي الْقَرْصِ، إِذَا ضَفَا ضَفَاؤُهَا ضَفَاةٌ لِحَصِّ بَالْتَحْصِ، إِنْ أَضْحَكْتُ شَهْرًا أَبْكْتُ ذَهْرًا، فهلا بالحصص، كم نصبت شركاً للأذى، فإذا الراجع في الققص.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٠١/٢٠)، رقم (٧١٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٧٦/٢)، رقم (٤١١٠)، قال البوصيري (٢١٣/٤): إسناده ضعيف، والدارقطني في الأفراد كما في أطراف ابن طاهر (٩٥/٣)، رقم (٢١٣٤)، والطبراني (١٥٧/٦)، رقم (٥٨٤٠)، والحاكم (٣٤١/٤)، رقم (٧٨٤٧)، وقال: صحيح الإسناد، قال الذهبي: ذكره ابن منظور ضعيفه، وأخرجه أيضاً: البيهقي في شعب الإيمان (٧/٣٢٥) رقم (١٠٤٦٥).

[المقارب]

فَلَمَّا أَتَى الدَّارَ أَخَذَهُ مِنْ مُمُوسٍ وَأَخْلَقَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
 ثَمَّاسِي الرَّجَالِ عَلَى حَبِيبِهَا وَمَا يَخْضَعُونَ عَلَى عِلَاقِ
 تَدَبَّرْ أَمْرَهَا بِعَقْلِكَ وَجِسْكَ، أَبَيْتَ الْمَاءَ فِي فَيْضَةِ مُنْيِكَ، فَلَا تَحْدَعَنَّكَ
 عَنْ تَمْهِيدِ رَمْيِكَ، فَكَمْ قَرَّتْ أَقْوَامًا مِنْ جَنِيَّتِكَ، تَدَبَّرْ عِنْدَ بَسْطِ كَفِّهَا كَفَّ
 عَمْسِكَ، حَيَاتُكَ كَيَوْمٍ فَيَادِرُ قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِكَ، أَتَسَاوَى هَذِهِ الدُّنْيَا بِإِثْلَابِ
 نَفْسِكَ.

[الخفيف]

وَمَرَادُ الثُّمُوسِ أَضْعَفُ مِنْ أَنْ ثَمَّاسِي قَبِيضِي قَبِيضِي وَأَنْ ثَمَّاسِي
 وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تُبْقِي لِحْيِي لَعَذُّنَا أَهْلُنَا الشُّجْعَانَا
 وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ قَبْلَ الْعَجْرِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانَا
 اسمع قَدْ الدُّنْيَا مِنْ خَيْرِ لُحْظِهَا وَاللَّهُ كَبِيرٌ، بَيْنَا هِيَ فِي ضُجْبَةِ الْغَشِيرِ إِذَا
 بِهِ إِلَى أَهْلِهَا يَشِيرُ، بَيْنَا هِيَ تَدْعُو وَتَشِيرُ إِذَا أَظْهَرَتْ النُّوْحَ وَأَخْفَتْ الزُّنُوحَ، بَيْنَا
 حَبِيبُهَا مَعَهَا يَسِيرُ قَلْبُكَ وَقَالَتْ: يَقْتُلُ الْأَسِيرُ، بَيْنَا أَمْلُهَا يُعْطَى الْخَوَرِيقُ وَالسِّدِيرُ
 إِذَا مَزَمَلَهَا بِالْإِفْلَاسِ جَدِيرٌ، بَيْنَا دُرُّهَا لَا دُرُّ دَرُّهَا ذَرِيرٌ عَادَتْ فَعَادَتْ عَجْفَاءَ لَا
 تَقِي وَلَا زَيْدَ عَمْرِهَا وَاللَّهُ عَمَرُ قَصِيرٍ، لَوْ رَأَيْتَ غَيْرَكَ وَالْعَاقِلُ بَصِيرٌ، لَا
 يَعْجَبُكَ لَيْثُهَا فَجَلْدُ الْخَيَّةِ كَالْحَرِيرِ، لَا يَظْمَعُكَ صَيْدُهَا فَسَقَطَ الصَّائِدُ وَتَطِيرُ،
 لَا يَفْرَحُكَ عَزُّهَا فَسَقَطَ الْمَلِكُ وَتَكْسِرُ السَّرِيرَ، لَا يُدْهِشُكَ غِنَاهَا فَأَغْنَى غَنِيَّ
 فِيهَا فَقِيرٌ، لَا تُلْهِيتُكَ عَوَارِيقُهَا طَالِعُهَا فِي الْمَغَارِ لَا فِي الْمَعِيرِ، إِنَّكَ وَرَائَهَا
 الْقَبْلُ نَصَحَ الشُّبِيرُ.

أَتَرَى يَضَعُ هَذَا الْعَتَابُ، أَتَرَى يُسَمِّعُ لِهَذَا الْعَذْلِ جَوَابُ، لَا بِالثَّيْبِ تَنْتَبِهْ
 وَلَا فِي الشَّيْبِ، أَلَيْ الْحَاضِرِينَ تَعْدُ أَمْ لَيْتَ غَابَ؟

يَا مَنْ أَهْمَالَهُ لِلْخَلْقِ رِيَاءَ وَسُمُوعًا، يَا مَنْ قَدْ أَهْمَى الْهَوَى بِصَرِّهِ وَأَضْمَ
 سَمْعَهُ، يَا مَنْ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ لَا يُخْلِصُ فِي وَلَا رُكْعَةً، يَا نَائِمًا فِي آتِيَاهِهِ
 إِلَى مَتَى هَذِهِ الْهَجْعَةُ، يَا غَافِلًا عَنِ الْمَوْتِ كَمْ قُلْعَ الْمَوْتِ قُلْعَةً، كَمْ دَخَلَ دَارَكَ

فَأَخَذَ الْهَيْزَلُ وَإِنَّ لَهُ إِلَيْكَ لَرَجْعَةً، كَمِ اشْتَرَى شَخْصًا بِتَقْدِ مَرْضَى وَلَهُ الْيَاقُونُ
بِالشَّفْعَةِ، لَقَدْ فُرِّقَ سَرَائِيَا وَجُنْدُهُ فِي كُلِّ بَقْعَةٍ، كَمِ طَرَقَ جَبَّارًا فَأُشْتُ سَمْلُهُ
وَأُخْرِبَ رَنْعَهُ، أَفَلَا يَتَحَفَّظُ الْبَيْتُ بِسَلْبِ شَأْنِ الْوَقْعَةِ، يَا عَامِرُ الدُّنْيَا إِنَّمَا هِيَ دَارُ
قَلْعَةٍ، إِنَّهَا لِشَرِيكَ خَوَانٍ بِأَخَذِ دَرَّةٍ وَيَدْعُ وَدْعَةً، كَمِ مَزَقَتْ قَلْبًا صَحِيحًا فَرَجَعَ
أَلْفَ قِطْعَةٍ، إِنْ خَطَبْتَ بِطَبِيبِ الْمَدَاقِ أَغْضَبْتَ قِسْطَ الْجَرَعَةِ، تُخَالِجُ لَتَقْتُلُ فَمَا
تَحْفَظُ إِلَّا الْحَرْبُ خَدْعَةً، شَغَلَهَا أَنْ تُغَرَّ ثُمَّ تُضَرَّ ثُمَّ تَمُرَّ، فَمَا تَعْرِفُ إِلَّا هَذَا
صَنْعَةً، يَوْمَ تَرَجَّحَا سَنَةً، وَسَنَةً فَرَجَّحَها جُمُعَةً، إِنَّهَا لِمُطْلِمَةٌ وَلَوْ أَوْقَدَتْ
لَتَحْدُوْعَهَا أَلْفَ شَمْعَةٍ، وَإِنَّمَا لَخَائِنَةٌ وَلَوْ حَلَفَتْ بِأَلْفِ رُبْعَةٍ، وَالْمَطْبُوعُ عَلَى
طَلْبِعِهِ، لَمَنْ يَغَيِّرْ طَلْبِعَهُ.

الفصل العاشر

في هوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ

عَن وَيَدْرِ﴾ (المائدة: ٥٤)

(يا): حرف نداء، وحروف النداء خمسة: (يا، وأيا، وفيا، وأي، وألف)
الاستفهام؟ تقول: يا زيد، وأيا زيد، وهيا زيد، وأي زيد، وأزيد، وأنشدوا
في أيا: [الطويل]

أَيَا بَارِعَ الْخَوَزَاءِ عَمَّرُو أَلَا تَرَى هَيَّاكَ فَمَا أَمَسُوا مَرَامِيْلَ جَوْعَا
وأنشدوا في أي: [الطويل]

أَلَمْ تَسْمِعِ أَيَّ عَيْدٍ فِي رَوْثِي الطَّحَى عَيَّاءَ حَمَامَاتٍ لَهْرٌ سَجِيْعٌ
وقال ذو الرمة في فَيَّا: [الطويل]

هَيَّا ظَلِيْمَةَ الْوَعَسَاءِ بَيْتَ جُلَاجِلٍ وَتَيْنَ الثَّلَا أَلْتَبِ أَمْ أَمْ سَالِمٍ
وأنشد سيويه في ألف الاستفهام: [الطويل]

أَزِيدُ أَحْمَدَ وَزَعَاءَ إِذْ تَمَلَّكَ قَائِرًا فَلَقَدْ عَزَمْتُ أَحْمَدَ حَقَّ فَكَايِمٍ
وقال ابن عباس: (ليس في القرآن آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا في التوراة
والإنجيل يا أيها المساكين، ليعرف الفرق بين المتكلمين).

قال الحسن: (علم الله أن قوما يرجعون عن الإسلام بعد موت رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم أنه سيأتي بقوم يُجِبُّونَهُ وَيُجِبُّونَهُ، وهم أبو
بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة).

قال أبو سليمان الدمشقي: هُمُ الشَّهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ.

إخواني! ليس العجب من يُجِبُّونَهُ، وإنما العجب من يُجِبُّونَهُ، وليس
العجب من فقير يُجِبُّ مُحِبًّا إليه، إنما العجب من مُحِبِّين يُجِبُّ الْفَقِيرُ، إن

كَانَ لَكَ اتِّبَاعٌ عَرَفْتَهُمْ بِبَيْنَانِهِمْ، بِبَانِهِمْ مَا سَرَّ، وَأَكْلُهُمْ مَا خَفَرَ، ذَلُّوا لَهُ لِيَرْضَى، فَإِذَا رَأَيْتَهُمْ قُلْتَ مَرْضَى.

مَرْضَى بِقَلْبٍ لَا يُفَادُ وَقَوْلٍ حُبٍّ لَا يُفَادُ
يَا أَجْمَرَ الْعُشَّاقِ مَا أَبْصُرْتَ أَوْلَاهُمْ يُفَادُ
يُغِيثِي الْمُسْتَيْئِمَ مِنْهُمْ نَحْبَا وَلَوْ رَفُّوا لَعَادُوا
مَلَّحُوا الشُّغْرَ مَنْ لَهْلَ لَنَا مِنْ بَعِيدٍ مَا يُسْتَفَادُ
لَمَّا خَلَّتْ قُلُوبُ الْعَارِفِينَ مِنْ سِوَى الْحَبِيبِ تَمَكَّنَ مِنْهَا الْحُبُّ، فَالْتَهَيْتَ نَارَ الشُّوقِ.

كَانَتْ رَابِعَةٌ تَقُولُ: لَقَدْ طَالَتْ عَلَيَّ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي بِالشُّوقِ إِلَى لِقَاءِ اللِّوِ هُوَ وَجِلٌّ.

[البسيط]

يَا نَاطِرَ الْعَيْنِ قُلْ هَلْ نَاطَرَ عَيْنِي إِلَيْكَ بَوْمًا وَهَلْ تَذَنُّوْا لِحَقِي الْعَيْنِ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَ مُرْتَبِحِكُمْ عَقَائِرِي سَلَحُوءٌ مِنْ جَنَاحَيْنِ
وَلَوْ قَدِرْتُ رَغَبْتُ الشُّوقَ نَحْوَكُمْ لَكِنْ يُغْدِي عَشْكَكُمْ قَدْ عَنَى جِينِي
دَخَلُوا إِلَى رَابِعَةٍ مَرَّةً أُخْرَى، فَقَالُوا: أَتَشْتَاقِينَ إِلَى اللِّوِ، فَقَالَتْ: هُوَ خَاضِرٌ مَعِي. يَا رَابِعَةُ: أَيْنَ شَكْوَى لِبَنَانِ الشُّوقِ، أَخَالَتِ الْخَالُ؟ فَقَالَتْ: فَكُنَّا يَكُونُ الْمُجِيبُ.

[الطويل]

وَمِنْ عَجَبِي أَنِّي أَجْمَلُ إِلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَى وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِقَا وَتَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي
كَانَ أَبُو بَزِيدَ الْبَسْطَامِيُّ يَقُولُ: إِلَى مَنْ تَحْبِسُ أَعْضَاءَ مُجِيبِيكَ تَحْتَ الثَّرَابِ، احْشُرْهُمْ وَاخْغَلْنِي جَسْرًا يَبْعِرُونَ عَلَيَّ إِلَيْكَ.

[الطويل]

هَلِ الطَّرْفُ يُعْطِي نَظْرَةً مِنْ خَبِيبِهِ أَمْ الْقَلْبُ يُلْقِي رَوْحَةً مِنْ وَجِيبِهِ

وَقُلْ لِلْيَاكِلِي عَقْدَةُ نَفْرَةٍ نَعُوذُ قُلُوبِي نَاطِرًا عَنْ هَرُوبِهِ
 أَجْرًا إِلَى ثَوْرِ الْمَوْتِ فِي بَقَاجِهِ وَأَقْبَمًا إِلَى رَبِّ الْجَنَّةِ فِي هَبُوبِهِ
 وَذَلِكَ الْجَنَّةُ يَلْعَنُوهَا عَذِيبًا نَسِيبُهُ وَيُسَبِّحُ صَاحِبَهَا مَآوُهُ فِي قَلْبِهِ
 مَوْ السَّقْوَى مَذَلُّوْا عَلَى مَثَلِ الْفَتَى إِذَا لَمْ يَجِدْ قَلْبًا يُلْقِيَا عَيْبِهِ

كان أبو عبيدة الخواص يقول: وَأَشْفَقَا إِلَى مَنْ يَرَاهِي وَلَا أَرَاهُ.

وبقي الفتح بن شخرف ثلاثين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء، فزُفِعَ رَأْسُهُ
 مرة، فقال: لَقَدْ ظَالَ شَوْقِي إِلَيْكَ، فَعَجَّلْ قُدُومِي عَلَيَّ.

كانوا إذا أفلقهم الخوف نَاحُوا، وإذا أزعجهم الوجد ضَاحُوا، وإذا
 أَفْقَشَهُمُ الْحُبُّ نَاحُوا، وإذا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ نَاحُوا.

قال الشبلي: لَقِيتُ جَارِيَةً حَبِيبِيَّةً، فقلت: من أين أتيت؟ فقالت: من
 عند الحبيب، فقلت: وإلى أين؟ فقالت: إلى الحبيب، قلت: فما تُرِيدِينَ مِنْ
 الْحَبِيبِ؟ قالت: الحبيب، قلت: كم ذكر الحبيب؟ قالت: ما يسكن لساني عن
 ذِكْرِهِ حَتَّى أَلْقَاهُ.

[البيط]

وَحَرَمَةُ الْمَوْتِ مَا لِي عَنْكُمْ جَوْضٌ وَلَيْسَ لِي فِي سِوَانِكُمْ بَعْدُكُمْ عَرَضٌ
 وَمِنْ حَبِيبِي بِكُمْ قَالُوا بِوَ مَرَضٌ فَقُلْتُ لَا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ الْمَرَضُ
 رُبِّي مَعْرُوفٌ فِي الشَّامِ كَأَنَّهُ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَلَائِكَتِي،
 مَنْ هَذَا؟ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: أَنْتَ أَعْلَمُ، هَذَا مَعْرُوفُ الْكُرْجِيِّ، قَدْ سَكِرَ فِي
 حُبِّكَ، فَلَا يَقِي إِلَّا بِقَائِكَ.

قَاوِي بِقَائِمًا بِجِسْمِ أَنْتَ مُثَلِّفُهُ وَأَهْمَرُهُ غَرَامًا بِقَلْبِ أَنْتَ مُضْهِمُهُ
 وَلَا تَكِلْنِي فِي بُعْدِ الْمَرَايِ إِلَى ضَبْرِي الضَّعِيفِ لَضَبْرِي أَنْتَ تَعْلَمُهُ

تَلَقَّى قُلُوبِي فَقَدْ أَرْسَلْتُهُ قَرْمًا إِلَى إِفْيَاكِ وَالْأَشْرَافِ تَعْدُمُهُ
 ودخلوا على معروف يومًا وهو يدور حول سارية المسجد، ويقول: يا
 حبيبي، يا حبيبي، فقال له رجل: عَلَّمَنِي الْمَحَبَّةَ، فقال: هذا لا يَجِيءُ بِالْعَلِيمِ.

[الخفيف]

رُمْتُ بِحُشْمَانٍ مَا بَقِيَ لِنَفْسِي لَمَسْتُ زَلَزَلْتُ نَفْسِي خَرَبْتُ الْهَوَاءَ
وَقَمَرُوعُ نَقُولُ فِي الْحَدِّ يَا مَنْ يَتِيَانِي كَذَا يَكُونُ الْبُحَاءُ
لَيْسَ لِلنَّاسِ مَوْضِعٌ فِي فُؤَادِي زَادَ فِيهِ هَوَاكَ جَفَنِي امْتَلَأَ
صَدَقَ الْقَوْمُ فِي الْقَلْبِ فَجَاءَتِ الْمَعُونَةُ، وَفَهَرُوا أَنْفُسَهُمْ فَيَأْتِ الْمُسْتَجُونَةُ،
وَعَرَسُوا بِذَرِ الثَّقَى وَقَامُوا يَنْقُوتُهُ، فَلَاحَ لَهُمْ وَجْهَ الْكَمَالِ فَمَا طَلَبُوا ذُوْنَهُ، نَالَهُ
مَا أَشْقَلَكَ عَنْ طَرِيقِهِمْ إِلَّا الدُّنْيَا الْمَلْعُونَةُ، إِنَّكُمْ لَتَشْتَهُونَ تَشْتَهُونَ بِهِمْ، وَلَكِنْ
بَقِيَتْ نُوْنُهُ يَجِبُهُمْ وَيُجِبُونَهُ.

الفصل الحادي عشر

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

بِالْعَذْوَةِ وَالْوَهْنِ﴾ [الأنعام: ٥٢]

روى مسلم في " صحيحه " من حديث سعد بن أبي وقاص، قال: (نزلت هذه الآية في سَيِّئَةٍ، وهي ابن مسعود، وَصُهَيْب، وَغُمَار، وَالْجَفْدَاء، وَبِلَالٍ، قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّا لَا نَرْضَى أَنْ نَكُونَ أَتْبَاعًا لِهَؤُلَاءِ، فَأَعْرَضَهُمْ عَنْكَ، فَنَزَلَتْ هذه الآية).

لَمَّا سَعَدَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَمَى بِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَابْنُ مَسْعُودٍ كَانَ صَاحِبَ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصُهَيْبٌ كَانَ يُعَذِّبُ فِي اللَّهِ، وَكَذَلِكَ غُمَارٌ كَانَ يُعَذِّبُ بِالنَّارِ، فَكَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُرُّ بِهِ، فَيَقُولُ: " يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى غُمَارٍ، كَمَا كُنْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ " (١)، فَدَفَعَ عَنْ نَفْسِهِ بَعْضَ الْبَلَاءِ بِتَحْرِيكِ لِسَانٍ مَا اعْتَقَدَهُ قَلْبُهُ، فَنَزَلَ لِبَيَانِ عِلْمِهِ فِي لَفْظٍ: ﴿إِنَّمَا مَنْ أَسْكَنَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وَأَمَّا بِلَالٌ فَكَانَ عَذَابٌ وَلَمْ يُرْضِهِمْ بِشَيْءٍ، فَاشْتَرَاهُ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسَبْعِ أَوَاقٍ فَأَعْتَقَهُ، فَقَالُوا لَهُ: غَيِّبْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَأَجَابَ لِسَانُ الْحَالِ: إِنَّمَا الْمُعْتَبُونَ مَنْ أَكَلَ ثَمَرُ بِلَالٍ، عَذَابُهُ لِيَسْمَعُوا لَفْظَ الشَّرِّ، فَمَا يَسْمَعُوا إِلَّا تَرْتُمَ أَحَدٌ أَحَدًا، مَنَعُوهُ مِنَ الْقُلُوبِ بَيْتِ الْحَبِيبِ، فَكَامَتْ حَبَّةُ الْمَحَبَّةِ عَلَى قَدَمِ الشُّوقِ تَطُوفُ بَيْتَ وَيَسْعِي قَلْبَ عَبْدِ-

(١) أخرجه ابن عساکر (٤٣/ ٣٧٢). وأخرجه أيضًا: ابن سعد (٣/ ٢٤٨).

[البيط]

إِنْ يَسْتَعْبُوْنِي سُرُوْرَ بَابٍ دَارِهِمْ لَسْتُكَ أَنْظُرُ مِنْ بُغْدٍ إِلَى الدَّارِ
لَا يَلْبُدُوْنَ عَلَى سَبْعِي وَإِنْ يَجْهَلُوا إِذَا سَرَرْتُ وَتَسْلَبِي سِي بِإِخْتَارِي
مِمَّا الْهُوَى شَهَرْتُ عَلَى غِرْفَتِ بِهَا إِنِّي مُجِبٌّ وَمَا فِي الْخُبِّ مِنْ غَارِ
نظر كبراء قريش إلى هؤلاء الضعفاء بعين المكر، فوقفوا مع الصور وما
عبروا إلى المعاني، كما شاهد إبليس صورة آدم من طين لما سجد، فلما وقعت
الملائكة على المعنى وقعت، رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا يَزِيءُ، كما
فاه لوه بكلمة فصحت، وكم عطش لحمدك وما شمت.

[الكامل]

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الثُّبْرَ فِي جَرْيِ الثَّرَى خَافٍ إِلَى أَنْ يُسْتَبَانَ يَنْبِيهِ
وَفَضِيلَةُ الدُّبَارِ يَطْلُهُ مِرْعَا مِنْ عَجْوٍ لَا مِنْ خِلَافٍ نَقِيهِ
وَمِنْ الْغَيَاةِ أَنْ تُعْظَمَ جَاهِلَا لِيَصْلَحَ مَلَبَسُهُ وَزَوْجِي نَقِيهِ
أَوْ أَنْ تُهَيِّئَ مَهْلِكَا فِي نَقِيهِ يَلْزُمُ سِي بِزَيْتِهِ وَزَيْتُهُ قَرْيَتِهِ
مَا إِنْ يَنْصُرُ الشَّيْءُ غَمَزُ قَرْيَتِهِ خَلَقْنَا وَلَا الْبَازِي خِلَافُهُ غَمَزُهُ
كان أويس يلتقط الرقاق من المزابل فيغسلها في القرات، ويضع بعضها
على بعض.

[البيط]

أَعْلَمَارُهُ زَيْتُهُ فَكَيْفَ ضَاعَ لَا ضَاعَ وَخَافَ الثُّمِينُ فِي بَلَدِهِ
لَيْسَ لَهُ تَابِعَةٌ قِيَمُهُ وَأَقْلَبُ الثُّبْرِ ضَعْفٌ مُتَعَبُهُ
لولا عري أويس ما لبس حلة يشفع في ربيعته ومضر، لَمَّا عَلِمَ الْقَوْمُ أَنَّهُ
لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِهِمْ عَابَتُوا مَعَانِيَهُمْ، تَرَكُوا مَحَبَّاتَهُمْ لِمَحَبُّوْنَا، وَرَفَضُوا
شَهَوَاتِهِمْ مُدَّ لَاذُوا بِنَاءِ، سَلِمُوا النَّفُوسَ إِلَى رَائِضِ الشَّرْعِ فَعَلِمَهَا، وَفَاقْنَا فِي
مُخَالَفَةِ الطَّبْعِ، فَهَمَّ مَعَ الطَّاعَةِ كَيْفَ دَارَتْ دَارُوا، وَإِنْ وَقَفْتَ وَقَفُوا، وَإِنْ
سَارَتْ سَارُوا.

الفصل الثاني عشر

في قوله تعالى: ﴿وَلَدَدَّ حَسْبُوكُمْ لَكُمُ الْمَالُ وَالْبَنُونَ وَالْأَنْعَامُ﴾ [٩٤]

لَمَّا قويت معارف العلماء بالآخرة اشتدت مخافتهم حتى تَمَنَّوْا عدم الوجود، جَازَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه على طائر، فقال: (طوبى لك يا طائر، تقع على الشجر، وتأكل من الشمر، ولا حساب عليك، ليتني كنت مثلك).

وقال عمر: (ليتني كنت تبة، ليت أُمي لم تلدني).

وقال ابن مسعود: (وددت أني إذا مِتُّ لَا أُبْعَثُ).

وقال عمران بن حصين: (ليتني كنت رَمَادًا).

وقال أبو ذر: (ليتني كنت شجرة تُعَصَّد).

وقالت عائشة: (ليتني كنت نَسِيًّا).

وقال يزيد الرقاشي: ليتني كنت لم أخلُق، وإذا خلقت لم أخاصب. هاتيه ولده في كثرة بكائه فجعل يصرخ ويبكي حتى غشي عليه، فقالت له أمه: هذا أردت من أهلك، فقال: إنما أردت أن أهون عليه لا أن أزيده.

[الخفيف]

صَحَّةُ الشَّوْقِ أَخَذَتْ عِلَّةَ الضَّبِّ مِ وَبَعْدَ الْمَرَارِ أَذْنَى السُّهَادِ
عَمَّ عَذُولُ عِلْمِيكُمْ رَامَ إِثْلَا جِي لَكَانَ الْخَلَامُ لِي إِنْشَادِ
عَلَّمَا زَادَ عَذْلُهُ زَادَ وَغِي لِكِلَانَا فِي أَمْرِهِ بِشَمَادِ
مَنْ لِقَلْبِ أَضْلَيْتُمُوهُ لَقَلَى الْجَبِّ مِ وَجَسِبَ أَلْرُشْتُمُوهُ الْقَشَادِ
إِخْوَانِي أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ عَظِيمَةٌ، وَلِمَثَلِ مَا تَقْدِمُ عَلَيْهِ فُلَيْكِي، كَانَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ قَدْ أَلْقَى عَلَيْهِ حُزْنَ الْخَلَائِقِ.

قال عبد الصمد بن حسان: كنتُ إذا رأيتُ سفيانَ الثوريَّ يتخيل إلى كأنَّ على رأسه شياطيناً يريدُ أن يضربَ عنقه، وسمعتُه يوماً يقول بينه وبين نفسه: يا سفيانُ! أين تكون يوم القيامة إذا قيل: أين القراء الفسقة؟ ثم يبكي، ووقف قوم على عابدة وهي تبكي، فقالوا: ما يبكيك؟ فقالت: رَوْغَةُ النَّدَاءِ بِالْعَرَضِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وكان الشبلي يُزعجه الخوفُ، اللَّهُمَّ احْشُرْنِي أَعْمَى مَا لِي عَيْنٌ تَرَكَ.

الفصل الثالث عشر

في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَرَاتٍ﴾ [الأنعام، ١٦٠]

اعلم أن جزاء الحسنة عند الله أمر عظيم، فهو يضاعفه لفاعل الحسنة إلى عشر أمثالها.

وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إِذَا حَسَنٌ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكَتَبُ بِعَشْرَةٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا بِمِثْلِهَا، إِلَى أَنْ يُلْقَى اللَّهُ تَعَالَى ^(١) ".

جملة ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف وثلاث مائة وأربعة وسبعون حديثاً، أخرج له منها في " الصحيحين " ست مائة وتسعة وتسعون، المفق منها ثلاث مائة وستة وعشرون، وانفرد البخاري بثلاث مائة وسبعون، ومسلم بمائة وتسعين.

قال أبو هريرة: (يُكَتَبُ لِلْمُؤْمِنِ بِالْحَسَنَةِ أَلْفِي أَلْفٍ حَسَنَةٍ).

وفي " الصحيحين " من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل:

" مَنْ هَمَّ بِالْحَسَنَةِ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَسَنَةً وَاجِدَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَشْرَةَ حَسَنَةٍ، فَإِنْ هَمَّ بِهَا

(١) أخرجه أبو حنيفة في مسنده (١/ ٨١)، رقم ٦٤.

فَعَمَلُهَا، فَكَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى سِتْرَةً وَاجِدَةً أَوْ تَحَاوَاهَا، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا هَالِكٌ^(١).

جملة ما روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف وست مائة وستون حديثاً، أخرج له منها في " الصحيحين " مائتا حديث وأربعة وثلاثون، المتفق عليها منها خمسة وسبعون، وانفرد البخاري بمائة وعشرة، وسلم تسعة وأربعين.

يا عجباً للمؤمن بالأخرة كيف يغفر، وأعجب منه العالم بقصر العمر وهو يغفل.

قال صلى الله عليه وسلم: " من قال سبحان الله العظيم وبحمده غُفِرَتْ له بها نخله في الجنة "^(٢).

فلو ذقت بفهم اليقين طعم الدخل لاستكثرت من غرس النخل، أين أصحاب الجدة؟ أين أهل العزائم؟ أنهبوا هذا التأمم، فقد بقي القليل ونفسي المواسم.

يا هذا؟ لو كانت في كمك بضاعة فطلبتها فلم تجدها انزعجت انزعاجاً لا يُوصف، فقد ذهب سنون من العمر فأَي ربح حصلت، وقف قوم على راهب، فقالوا: إنا سائلوك أقمجينا أنت؟ فقال: سلوا ولا تكثرُوا، فإن النهار لن يرجع، والعمر لن يعود، والطالب حثيث في طلبه ذو اجتهد، فقالوا: على ما الخلق غداً عند مليكهم؟ قال: على نيتهم، قالوا: فإلام المومل؟ قال: إلى المقدم، قالوا: فأوصنا، قال: تَزَوَّدُوا على قدر سفركم، فإن خير الزاد ما بلغ اليَقِيَّةُ. إخواني! لنأ علم الصالحون بقصر العمر ومضاعفة الأجر غيَّبُوا الحَدَّ في الجِدَّةِ.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠٦/٢)، رقم ٢٣٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي (٥١١/٥)، رقم ٣٤٦٤ وقال: حسن صحيح غريب، وأبو يعلى (٤/

١٦٥، رقم ٢٢٢٣)، وابن حبان (١٠٩/٣)، رقم ٨٢٦، والحاكم (١/٦٨٠)، رقم

١٨٨٧ وقال: صحيح على شرط مسلم.

قال أبو مسلم الخولاني: لو قيل لي: إن جهنم تُعمر، ما استطعت أن أزيد في عملي. ولما احتضر ثابت البناني ذهب ابنه يُلَقِّعُهُ، قال: غُلِّ عَنِّي، فإني في وردي السادس، كان حبيب بن الربيع يصلي حتى ما يأتي فراشه إلا زحفاً، وكان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة، حَسْبُكَ أن قومًا أمواتًا تحيا بذكرهم القلوب، وأن أقوامًا أحياء تسخن برؤيتهم العيون.

[الكامل]

يَفْتِ بِالذِّبَارِ فَهَذِهِ آثَارُهُمْ وَأَيْكَ الْأَجِبَةُ خَشِرَةٌ وَتَشْوِقًا
عَمَّ قَدْ وَفَّقْتُ بِهَا أَشَابِلَ مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِهَا أَوْ صَادِقًا أَوْ مُطِيفًا
فَأُجَابِنِي قَاصِي الْهَوَى فِي وَشِيهَا فَارَلْتُ مَنْ تَهْوَى فَعَرَّ الْمُلْتَقَى
سَارَ الْأَحْيَاءِ وَتَوَلَّفْتُ، سَارَ لَهَا وَسَوَّلْتُ، سَبَّحُوا وَاللَّهِ وَتَبَّخْتُ، وَإِنْ لَمْ
تُذَكِّرْ شَغَبْتُ.

يا هذا: بَادِرٌ قَبْلَ الْمَوْتِ، وَسَابِقٌ قَبْلَ الْقَوْتِ، طَلُو عَايَتَ الْمَلِكِ وَقَدْ
قِيلَ: فَلَا تَأْكُلْ، لَمْ تَقْدِرْ بَعْدَ الثَّلَاثِ تَرُدُّ مَا قَدْ سَلَفَ.

[الوافر]

يَسْأَلُ تَطْلُبُ الْحَاجَاتِ مَا لَمْ تَقُشْكَ قَبْلَهُ قَوِيٌّ لَا تَسْأَلُ
وَمَاذَا يَنْقُصُ الدُّرَيْقُ يُؤْمَا إِذَا وَالَى وَقَدْ مَاتَ اللَّيْلُ
أَنَا عَشْرُكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ يُنْتَهَبُ، أَنَا الطَّعْمُ مَتَى قَدْ ذَهَبَ، وَأَنْتَ مَهْمُومٌ فِي
جَنَمِ الذَّهَبِ.

يَا مَنْ إِذَا خَلَا تَفَكَّرَ وَحَسِبَ، وَأَمَّا تُرْوِلُ الْمَوْتَ فَمَا حَسِبَ، اتَّبِعْ لِنُوبَةٍ لَا
تُشِبُّ التُّوبَ، بَيْنَ يَدَيْكَ كُرْبَةٌ لَا كَالْكَرْبِ.

يَا طَالِبَ الْحُطَامِ؛ بَشْ مَا طَلَبَ، كَمْ نَصَبَ لَهُ شَرَفًا وَعَلَى دِينِهِ نَصَبَ،
كَمْ رَبٌّ قَالِ لَهُ الْمَالُ قَدْ حَرَبَ، لَقَدْ تَشَبَّ بِقَلْبِكَ حُبُّ النَّسَبِ، نَبْخُلُ بِالْمَالِ
وَالْعَمْرِ تَهَبِ، تَطْلُبُ النِّجَاةَ وَلَكِنْ لَا مِنْ بَابِ الطَّلَبِ، تَقِفُ فِي الصَّلَاةِ إِنَّ
صَلَاتِكَ لَتَعْجَبُ، الْقَلْبُ وَالسُّرُّ فِي شُعْبِ، الْجَسَدُ فِي الْعِرَاقِ، وَالْقَلْبُ فِي
عَلَبِ، الْقَلْبُ أَحْجَسِي وَاللِّقْطُ لَقَطُ الْعَرَبِ، أَنَا أَعْلَمُ بِحَالِكَ حُبُّ الْهَوَى قَدْ

غُلِبَ، ومتى أَسَرَ الهوى قلباً فما يُفْلح وكتب، أو لنفس مغرورة بأشغالها، نُكِّلَ ما استقامت مَالَتْ بِأَمَالِهَا، إِنَّ أَتَفَقْتُ فَالرَّيَاءُ وَيَجِلُّ مَالِهَا، إنما يُعْجِبُنَا إِتْفَاقُ بِمِثْلِهَا بِلا جِلْمٍ شِمَالِهَا، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا، جزاء الحسنوة الجنة، لا على قدر وزن مثقالها، وَمَنْ قَدَّمَ حَبَّةً رَأْفًا فَأَحَدٍ لا على خَالِهَا، ولكنَّ شرطَ القَبُولِ أَنْ تُكُونَ مِنْ خَالِهَا.

أين قطنة النفوس للأرباح باحتيالها، كما قطنت نفس الصديق ببذل أموالها، لو لم يكن في صدقته غير بلالها، ولقد تسج ﴿وَيَقُولُونَ الْقَلَامُ﴾ [الإنسان: ٨] على منوالها ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

الفصل الرابع عشر

في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلُ عَلَيْهِمْ نَارَ الْآلَيْنِ ۖ أَلَيْسَ لَنَا بُرْهَانٌ

فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]

واعجبنا بمن يأمن، وقد أخذ هذا في المأمن، ثم من مُنْزِي بزوره عن الزور في زاوية تعبده دَخَلَ دَخَلَ الفتن داخل مسجده، تالله ليس العجب من جريح في صف الهوى أمسى كلياً، ولكن سَلْ هَلْ تَرَكَ الهوى أحداً سليماً، إنه ليتناول زفام النفس ليسوقها على سوق السوقي إلى بني نحو سوق المتأنا، فمن كان خَبْلُهُ قَفْزُولاً يهداية ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ يَكَا الْخَشْي﴾ [الأنبياء: ١٠١] جذبته يد جذبته من جذبات الحق، ومن أهمله القدر فجعل شقاقه في شَيْءٍ ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا مَقُورَتَنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، أرعى خَبْلُهُ ضَعُفَ عَزْمِهِ فَجَذَبَتْهُ الهوى، فَهَوَى فُرَادَةً من فُرَادِهِ.

إخواني؛ ما نجا من غُطَامِيهِ بَشَرِ الفتن الأعظم حافظ الاسم الأعظم بل عام بلعام، رافلا في سُحُلِ النعم كالنعم، غافلا يتعاصى عَمَّا نِهَا المنعم، كانت بنية تعب تعبده على رمل الهوى والرياء، فجرت تحته أنهار التجربة، فلما انهار بناتها انهارت.

كان على دينار دينه ورقة رقه، فأعجب نظره نواظر الناطرين، فلما حَتَّه المُتَنَفِّد على حجر الحجر اقتضح بين أهل الحجى.

كان على صفوان صفاته الرديّة تراب تعبده، لا يُرى تحته النوى، فأصابه وابل الابتلاء فتركه صلياً، كان ظاهر أمره ظاهراً لنقاء التقى، وباطنه باطلياً خَمَرِ الهوى، لقد جنى الخبائث في ظني الطيبات، فَلَمَّا أَرَادَ المقدر تنبيه جاره على جُورِهِ تَقَدَّمَ إلى القدر بهتك ستره، فأنا وهو في غُفْرِ غُفَارِ الهوى يعاقر

عقر الرياء، وقد رفعت له عقيرتها عاقر الفهم إلى أن عقر الغفر قلبه فعاد عقيراً، فذُفِعَ إلى صَفِّ صفصف الدموى، فأرسل عليه لإخراجه صرصر العُجْبِ فَمَرَّتْ جلياب الثُعْبِ، فصير في عصفها كصفاً، فإن كشف عوار عورته فعري، فإذا به كلبٌ عُفُورٌ، وقصة إقصائه أن القدر ساقى الكليم إلى مُحَاذَرَةِ قَسَافٍ بلده، فقالوا له: اسجد موسى الدعاء على موسى، فَمَجَّ فَمَجَّ فَوْهٌ بِمَحْمَةٍ تَحْتَ عَشِيَةٍ، فأزعجه خشية الخلق، فخرج حتى أتى على أتان له، فلما قفا وقفت ليفف سير عزمه، فضرى بضرها حتى أضربها، فقامت في النَحْجَةِ تنطق بالحجة، فقالت: تضربني، وهذه نار تمنع الماشية المشي، فرجع إلى ملكهم، فأخبره خبره، وما مَقَّلَ المقيثُ المقصود ولا خيره، فأنجا الملك صُلْبَ عَزِيمِهِ إلى أمر صلب، إما الدعاء عليهم وإما الصلب، ولو جاءته اليقظة من الملك لدعا على الملك، فخرج فأنبجه الشيطان، فما كان إلا أن بلغ المكان ﴿فَكَانَ مِنَ الْقَائِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] نالوا ما عدا عليه العدو إلا بعد أن تولى عنه الولي، فلا تظن أن الشيطان غلب، لكن العاصم أضر، فإن شككت فاسمع هاتف القدر مخبراً عن عزة القادر: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، خاصته الآيات وليته لم يحسنها، وانقطعت أعداده ومن لم ينها على الصدق لم ينها، أطلق نفسه من قيد التقوى إلى رياح الهوى، ولو لم ينها أمنها، وإن لم تحذرها ففروها لا تأمنها، وبلا له لقد لعب بالجمر، وباع تلاوة التوراة بالزُّنْزِرِ، فقدم على خوف أخوف زيد وعمرو، ثم أقبل يفتح خاية الخمر ولسانُ التُّضْحِ يصبح له طنفاً فانسليخ منها، احذر نفسك والذي جرى عليك منها، وحاسبها على الخطرات قبل يوم الحساب وزنها، وخفف شين شأنها، إن شئت عزها فهنها، واحفر لها ركية الغزالة، وإن أبت فادفنها، وأحضرها على الرغم في رُغَامِ مسكنها وسكنها، دفنها بماء الندب ولا تهدنها، والله ما أَكْرَمَهَا مَنْ لم يُهِنَّهَا، هذه قصص النُّجَاة قد أمليتها بعيونها، هذه جوار شتات فأعجبنيها ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

الفصل الخامس عشر

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع الآية فيعود إلى بيته مريضاً، وقال لفرقد السبخي: دخل بيت المقدس خمس مائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح، فتذاكرن ثواب الله تعالى وعقابه، فَمُنَّتْن جميعاً في مقام واحد.

قال ابن حكيم أُمُّ بِنَا زُزَارَةُ ابْن أَوْفَى فَقَرَأَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ جَمِيعًا طَرَفًا لِّتَسْمَعُوا مِمَّا قَلِيَ مِنْ لَدُنْهِ يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْكُلُ الْكُلُ﴾ [المائدة: ٨]، فَمَحَرَّ مِثْلًا.

وقرأ صالح المزني على أبي جهمير آية فَمَحَرَّ مِثْلًا.
وَمَحَرَّ عَابِدٌ بِحَدَادٍ قَرَأَ النَّارَ فَتَنَقَّطَ، فَإِذَا بِهِ مَيِّتٌ.

وقال أبو طارق: شهدت ثلاثين رجلاً أتوا مجالس الذكر يمشون بأرجلهم صحاحاً إلى المجلس، فرجعوا وأجوافهم فرجة، كانوا والله إذا سمعوا الذكر تصدعت قلوبهم.

[الكامل]

قُتِلُوا عَلَيَّ حَبِيبٌ مِّن قَتْلِ الْهَزْزَى إِنَّ الشَّاسِي زَوْجُ كُلِّ حَزِينٍ
كان أبو عمر الخولاني إذا سمع الأذان تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَقَاضَتْ غِيَّتَاهُ، وَسَمِعَ
الْفُضْلُ الْأَذَانَ يَبْكِي حَتَّى يَلَّ الْخَصْيَ، وَقَالَ: مَا أَشْبَهَهُ بِالنَّهَامِ.

وكان علي بن الحسين رضي الله عنهما إذا تروضاً اصْفَرَّ لَوْنُهُ، فَيَقَالُ: مَا
لَكَ؟ فيقول: أَتَدْرُونَ بَيْن يَدَيَّ مَن أُرِيدُ أَنْ أَتَوَمَّ؟

يا هذا علامة المُجِيبِ الانزعاج عند ذكرِ الحبيب، فهذا ذكر الحبيب

يُتلى عليك فأين انتزعها منك، أما علمت أن مخلوقاً أحبّ مخلوقاً، فلما ذُكر
المحبوب انزعج الشجب.

[الطويل]

وَقَالِ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَفِيفِ مِنْ بَنِي لَهَيْجِ أَحْزَانِ الْغُزَادِ وَلَمْ يَذْوَ
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَ مَا نَحْنَأْنَا أَتَارَ يَلَيْلَى عَابِرًا حَذَانِ فِي ضَرْوِ
جلس أبو يزيد البسطامي في يوم جمعة تحت المنبر، فقرأ الخطيب:
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، فطار الدُّمُّ مِنْ عَيْنِي أَبِي يَزِيدَ،
فَضْرَبَ الْمَنْبِرَ.

[الرجز]

وَأَنْتَ إِذْ كُنْتَ زَلِيقًا لَمَّا عُدَّ وَتَرَّ الْجَمْسُ أَطْلَبَ مَا غَلَبَنَا
أَعِدَّ لَيْلَى آتِيَةً سَكَّانِ الْجَمْسِ وَذَمَّرِهِمْ أَنْ تُظْهِرَ الْحَرِيمَنَا
شَجَرًا تَشْجُوهُ بِأَحْمَامِ الْأَشْعِدِي إِنَّ الْحَرِيمَ يُشْعِدُ الْحَرِيمَنَا
كَمْ مِنْ دُمُوعٍ زَفَعَا صُوبَ دَمٍ تَلَجَّلَجُ الْجُزْيُ عَلَى بَرِينَا
إذا تلى وصف الحبيب للمحب في حليات الهيبة أَرْجَحَ، وإذا برز في
خَلْوَةِ الْحُبِّ أَذْقَسَ، وإذا لَاحَ فِي تَفْلُغِ اللَّطْفِ أَظْرَبَ.

[الرجز]

أَلَا فَنَى يَسْأَلُ قُلَيْبِي مَا لَهُ يَنْزُرُ إِذَا بَرَقَ الْجَمْسُ بَدَى لَهُ
فَهَبْ يَرْجُو خَيْرًا مِنَ الْقَطَا يُشِيدُهُ عَشَّةً فَمَا رَوَى لَهُ
أَرَادَ نَجْدًا فَمَا بِبَابِلَ إِزَادَةَ هَابِجَتْ لَهُ يَلْبَابُهُ
وَأَنْشَمَ الرِّيحُ الطَّيْبَا وَمَنْ لَهُ يَنْفَعُو مِنَ الطَّيْبَا طَلُوبَى لَهُ
أناهم من الله وعيد قدرهم، فَبَاتُوا عَلَى حَوْفٍ وَأَكَلُوا عَلَى تَنْغِيصٍ،
فَتَوَلَّوْهُمْ نَوْمُ الْعَرَفَى، وَأَكَلَهُمْ أَكْلُ الْمَرَضَى.

كان عطاء السلمي يواصل البكاء، فبكى يوماً في غرفة، فسالت الدموع
مِنَ الْجِيزَابِ فَتَطَرَتْ عَلَى بَعْضِ الْمَارِّينَ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الدَّارِ! مَاؤُكُمْ هَذَا

ظاهراً، فعملوا أنها دموع عطاء، فقالوا: نعم، فصاح عطاء: يا هذا الخمل، فإنها دموع من عطى الله تعالى. ودخلوا عليه يوماً وخولته بئلاً، فظنوه قد توهأ، فقالت صجور في ذاروه: هذه دموعه.

[السرير]

ثُمَّ سَحَابٍ أَنْظَرَتْ أَرْحَامُكُمْ عَامِلَةً لِبَنَاءٍ مِنْ أَذُنِي
وَكُلُّ رِيحٍ دَعَرَتْ ثَرِيحُكُمْ فَبِئْسَ الْفِرْقَةُ مِنَ الْأُضْلَى
ولقد حوت عطاء على كثرة بكاؤي، فقال: إني إذا ذكرت أهل النار مثلت
نفسى بينهم، فكيف بنسب ثعل يذفا إلى عطفها وتُسحب لا يصيح وتبكي.

[مجزوءه الرجز]

فَأَيْنَ سَمَوِي وَهَمُ	فَتَرَفِيكَ الْوُؤُ
لَكَ مَسْجِدٌ وَمُنْشَاهُمُ	قَلْبِي وَالْوُؤُ عَلَيَّ
لَا سَهْرٌ وَمَسْقَمُ	قَهْلُ بِنَاتِ الْحُبِّ إِلَ
وَلَا زُقَادِي لَأَهْمُ	وَمَا عَلَيَّهِمْ سَهْرِي
نُ الشَّاهِرَاتُ نُؤُ	قَالُوا سَهْرَتْ وَالْعُمُيُ
قَلْبٌ وَغُلٌّ عَنْهُمْ	عُدَّ أَلَتْ فِي شَأِيكَ مَا

الفصل السادس عشر

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّرُهُمْ وَأُخْرَىٰ يُرَخِّمُوهُنَّ﴾
[التوبة: ٢٩]

إخواني! لما أفلق الخوف المؤمن في حياته تداركته البشارة عند مماته ليطلب له سفر الآخرة.

قال ابن مسعود: (إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن، قال له: ربك يقرئك السلام).

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إِنْ الْمَيِّتَ يُحْضَرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالَ: الْحَرَجِيُّ أَيْثُنَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، الْحَرَجِيُّ خَبِيثَةً، وَالشَّيْثِيُّ بِرُوحٍ وَزَيْحَانٍ، وَزَبَّ غَيْرَ غَضَبَانٍ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ " (١).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ، قَالَ لَهُ الْمَقْبَرُ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، أَمَا إِنْ كُنْتُ لَأَجِبُ أَنْ تَنْشِي عَلَيَّ ظَهْرِي، فَإِذَا وَلَيْتَكَ الْيَوْمَ، فَتَسْتَرِي صَنِيعِي بِكَ، فَيُشْفَعُ فَدْ يُضْرَبَ، وَيُنْفَخَ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ " (٢).

وفي " الصحيحين " من حديث ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنْ الْمُؤْمِنُ إِذَا مَاتَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ بِالْقِدَاةِ وَالْعُيُي " (٣).

(١) أخرجه النسائي في سنة الكبرى (٦/ ٤٤٣)، رقم (١١٤٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٣٩)، رقم (٢٤٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١١٨٤)، رقم (٣٠٦٨).

وقال مجاهد: إِنَّ الْمُسْلِمَ لَيَسِيرُ بِضِلَاحٍ وَلَيَوَدُّ مِنْ تَعْلِيهِ لِيَقْرَعَ عَلَيْهِ، وقال كعب: (إِذَا وَصِيعَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ اخْتَوَلَتْهُ أَعْمَالُهُ الصَّالِحَةُ، فَتَجِبَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ مِنْ قِبَلِ رَجُلَيْهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: إِنِّي كُنْتُ عَنْهُ، فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَطَاعَ فِي الْيَوْمِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَأْتُوهُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ الصِّيَامُ: إِنِّي كُنْتُ عَنْهُ، لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَقَدْ طَاعَ طَمَأَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَارِ الدُّنْيَا، فَيَأْتُوهُ مِنْ قِبَلِ جَسَدِهِ، فَيَقُولُ الْحَجُّ وَالْجِهَادُ: إِنِّي كُنْتُ عَنْهُ، فَقَدْ طَاعَ مَا أَنْصَبَ نَفْسُهُ، وَأَتَعَبَ بَذَنَّهُ، وَحَجَّ وَجَاهَدَ لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَيَأْتُوهُ مِنْ قِبَلِ يَدَيْهِ، فَتَقُولُ السَّدَقَةُ: تَكْفُلُوا عَنْ صَاحِبِي، فَكُنْتُ صَدَقَةً خَرَجْتُ مِنْ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ حَتَّى وَقَعْتُ فِي يَدِ اللَّهِ تَعَالَى ائْتِغَاءً وَجْهَهُ، فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، قَالَ: قِيلَ لَهُ: هَيِّئَا وَطِيتَ حَيًّا وَطِيتَ مَيِّتًا).

إخواني! هذه من بشارات المؤمن في الدنيا، فإذا قامت القيامة تلقته الملائكة ببشارة: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فإذا وصل إلى الجنة، تلقته ولدان بالبشارة، فإذا استقر في منزله أتت الملائكة ببشارة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَّحْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، ثم يبشره الله تعالى بالرضا عنه، وليس في البشارات مثلهما.

إخواني! كان الضالُّونَ على طريق المخافة، فتلقتهم البشارة براحة الراحة.

عَوَيْتَ الْحَسَنَ عَلَى طُولِ حُزْنِهِ، فقال: (وما يؤمنني أن يكونَ أطلعَ في بعض ذنوبي، فقال: اذهب لا تخفرتَ لك). [الطويل]

لَعَلَّكَ غَضَبَانُ وَقُلَيْسِي غَابِلُ سَلَامٌ عَلَى الدَّارَيْنِ إِنْ كُنْتَ رَاضِيًا قال عبد الواحد بن زيد: لو رأيت الحسنَ كأن قد ضُربَ عليه حُزْنُ الخلاق، ولو رأيت يزيدَ الرقاشي لقلت مُثْكَلٌ.

قال رجل لبشر: أراك مهموماً، فقال: إني مطلوب. وكان لا ينام الليل، فيقول: أخاف أن يأتي أمرُ الله وأنا نائمٌ.

[المنازل]

وَقَدْ انْشَارَ السَّيْفُ قَائِلُهُ اُسْتُفِيتُ اِلَى بَيْنِ يَمِينِ يَمِينِهِ
 فَيُجَاهُ السَّيْفِ وَرَقُّ لَه وَمَا يَرْعَاهُ وَيَرْحُمُهُ
 وَقَدْ اَيْتَنِي اَوْ بَعْدَ عَمِي عَلَيَّ مِنْ نَظَرِ يَمِينِ يَمِينِهِ
 يَهْوِي الْمُنْتَاقُ لِقَاءَهُمْ وَحُرُوفُ الدُّغْرِ ثَمَرُهُ
 يَا اَقْلَ السُّرْقِ لَه غَرَقُ بِالدُّنْعِ يَفِيضُ سَوْدُهُ
 مَا اَحْلَى الْوَضَلِ وَاعْذَبُهُ لَوْلَا الْهَجْرَانُ يُنْجِيهِ
 يَا وَاجِدَ نَوْمِ الْفَيْدَةِ هُنْتُكَ بِأَيْلِ تَرْفِدُهُ
 بِالْبَيْنِ وَبِالْهَجْرَانِ قَبَا لِقَاؤِي عَمِيثَ ثَمَلِهِ

لَمَّا جَاءَ يَشْرُ قَدَرَ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ، مَرَّ مَضْمَرُهُ فِي حَلْبَةِ السَّاقِ، فَلَمَّا
 نَزَلَتْ بِرَوْضَةٍ ﴿عِنْدَ كَيْلِي مُقَلِّبِي﴾ [القمرة: ٥٥]، هَبَّتْ بِالنَّازِلِ الْمَنَازِلَ، كُنَّ يَا
 مَنْ لَمْ يَأْكُلْ.

[مخلع البيط]

أَطْلَعَ أَيْلِي وَجَيْشِي وَجَدِي مِنْ عَمِي يَمِينِي وَعَمِي يَمِينِي
 تَالِيهِ لَوْ عَادَنِي وَكُولُ لَعَادَ عَنْ مُلْقِيهِ عَمِي
 مَا جِيلَنِي فِيكَ غَمِيرُ أَيْلِي أَشْرَقَ مِنْ دُفْرَتِي أَيْمِينِي

مَالَتْ بِالْقَوْمِ رِيحُ السَّحَرِ مِثْلَ الشَّجَرِ بِالْأَغْصَانِ، هَزَّ الْخَوْفُ أَقْنَانَ
 الْقُلُوبِ، فَانْتَشَرَتْ الْأَفْئَانُ، فَالْلسَانُ يَضْرَعُ، وَالْعَيْنُ تَدْفَعُ، وَالْوَقْتُ يُسْتَنَدُ،
 خَلَوْنَهُم بِالْحَبِيبِ تَشْغَلُهُمْ عَنْ نَعَمٍ وَنَعَمَانٍ، سَوَّرَهُمْ أَسَاوِرَهُمْ، وَالْخَشَوْعُ
 تَيْجَانٌ، خُضُوعُهُمْ خُلَاةُ مَا دُرَّ وَمَرْجَانٌ، أَخَذُوا قَدْرَ الْبِلَاغَةِ وَقَالُوا: نَحْنُ
 ضَيْفَانُ، بَاعُوا الْحَرَصَ بِالْقَنَاعَةِ فَمَا مَلَكَ أَنْوَ شُرُونِ، رَفَضُوا زِمَامَ الْمَيْعِ، وَمَا
 بَاعُوا بَشِيَانِ، طَالَتْ عَلَيْهِمْ أَيَّامُ الْحَيَاةِ وَالْحَبِ ظِمَانٌ، فَإِذَا وَرَدُوا الْقِيَامَةَ تَلَقَّاهُمْ
 يَشْرُ لَوْلَا مَا طَابَتْ الْجَنَانُ، ﴿يُنَبِّئُهُمْ دِينُهُمْ يَحْسَبُو دِينَهُ وَيُضَوِّنُ﴾ [التوبة: ٢٦].
 أَطْلَعَ مِنْ حَوْجَةِ الْبَيْطِ بِعَيْنِ التَّأَمُّلِ تَرَى الْبُرْهَانَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْهُمْ؟ مَا نَائِمٌ

كيفظان، كم بينك وبينهم؟ أين الشجاع من الجبان؟ ما للمواظف فيك موضع القلب بالهوى ملآن.

يا هذا! قف على باب النجاة، ولكن وقوف ليهفان، واركب سفين النجاة فهذا الموت طوفان، أكون بعد هذا إيضاح؟ أومثل هذا تبيان؟ يا لها من موعظة مسحيت ذبل الفصاحة فحار منها سحبان يقدانية أمانيّة مقتنوية لا تعرف ضرب غراسان، ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ دَأْبُهمْ يَوْمَئِذٍ وَرِشْوَةٌ﴾ [التوبة: ٢١].

الفصل السابع عشر

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾

[التوبة: ٢٥]

الإشارة إلى الأموال، وَلَمَّا حُصِيَ الْجَنَّةُ وَالْجَنُوبُ وَالظُّهُورُ لَوَجْهَيْنِ :
أحدهما: أن هذه المواضع مُجَوَّلَةٌ، ليصل الحرُّ إلى أَجْزَائِهَا، وكان أبو
ذُرٍّ يقول: (بَسْمُ الْكَائِزِينَ بِكَيْ فِي الْجَنَّةِ، وَكَيْ فِي الْجَنُوبِ، وَكَيْ فِي الظُّهُورِ،
حَتَّى يُلْقَى فِي أَجْزَائِهِمْ).

الثاني: أَنَّ الْعَنِي إِذَا رَأَى الْفَقِيرَ انْقَضَى، وَإِذَا ضَمُّهُ وَإِثَاءَ مُخْلِسٍ وَاحِدٍ
أَزُورُ عَنْهُ وَزَلَاةَ ظَهْرِهِ، فَمَوْقِبَ بِكَيْ تِلْكَ الْأَعْضَاءِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ:

روى أبو ذُرٍّ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ،
فَقَالَ: " هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ " ^(١)، قَالَ:
فَأَخَذَنِي غَمٌّ، وَجَعَلْتُ أَتَنَفَّسُ، فَقُلْتُ: هَذَا شَرٌّ حَدَثَ مِنِّي، فَقُلْتُ: مَنْ هُمُ بِذَاكَ
أَيُّ وَأَمِّي؟ قَالَ: " الْأَخْسَرُونَ إِلَّا مَنْ قَانَ فِي بَيْتِ اللَّهِ: هَكَذَا وَهَكَذَا، وَقَلِيلٌ مِمَّا
هُمُ، مِمَّا مِنْ رَجُلٍ يَمُوتُ، وَيَتْرَكَ إِبِلًا، أَوْ بَقَرًا، أَوْ هَنَمًا، لَمْ يُوَدِّ رَحْمَتَهَا إِلَّا
جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْظَمُ مِمَّا يَخُونُ وَأَسَمَنُ، حَتَّى تَقَطَّاعَ بِأَعْقَابِهَا، وَتَقَطَّعَ بِفُرُوجِهَا
حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ النَّاسِ، كُلَّمَا نَقِدَتْ عَلَيْهِ أَخْرَاجُهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا "، أَخْرَجَاهُ
فِي " الصَّحِيحِينَ "، وَجُمْلَةً مَا رَوَى أَبُو ذُرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِائَةَ
حَدِيثٍ وَثَمَانُونَ حَدِيثًا، أَخْرَجَاهُ لَهُ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ، الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ مِنْهَا اثْنَا عَشَرَ،
وَاتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ بِحَدِيثَيْنِ، وَمُسْلِمٌ بِتِسْعَةِ عَشَرَ، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي " صَحِيحِهِ "

(١) أخرجه مسلم (٦٨٦/٢)، رقم ٩٩٠.

من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَا لَا قَلَمٌ يُوَدُّ زِكَاةَهُ، إِلَّا نُقِلَ لَهُ مَالُهُ شَجَاعًا أَوْ رُغْ لَهْ زَبِيحَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهَيْئَتَيْهِ، بِعَظْمَيْهِ: شِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كُتْرُكٌ ^(١) .

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي " صَحِيحِهِ " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " مَا مِنْ صَاحِبِ ذَقَبٍ وَلَا فَضٍّ لَا يُؤْذِي مِنْهَا حَتَّى إِلَّا ضُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، وَأُحْمِي عُلْيُهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ، قُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ فِي يَوْمٍ ثَانٍ فَلَمَّا دَارَتْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا تَعْلَمُونَ، حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ^(٢) .

وقال ابن مسعود: (والله، ما مِنْ رَجُلٍ يُكْوَى بِكَتَرٍ، فَيُوضَعُ دِينَارٌ عَلَى دِينَارٍ، وَلَا وَرْهَمٌ عَلَى وَرْهَمٍ، وَلَكِنْ يُوضَعُ جِلْدُهُ، فَيُوضَعُ كُلُّ دِينَارٍ وَوَرْهَمٍ عَلَى جِلْدِهِ).

وقال ابن عباس: (هي حَيَّةٌ تنطوي على جبينه ووجهه، فنقول: أَنَا مَالِكُ الذي بُجِّلَتْ به).

وقال محمد بن يوسف الفريابي: سمعت أبا سنان، وكان رجلاً هاشماً يدور في جبال بيت المقدس، قال: نزلت على رَجُلٍ، فقال: امضِ بنا تُعْزِي جَارًا لَنَا مَاتَ أَخُوهُ، فذعبت معه، فإذا رَجُلٌ جَزَعٌ، لَا يَقْبَلُ الْغَزَاةَ، فقلنا له: يا هذا اتقِ اللَّهَ تَعَالَى، واعلم أَنَّ الْمَوْتَ سَبِيلًا لَا بُدَّ مِنْهُ، فقال: قد علمتُ، ولكن أبكي على ما أَضَيَّحَ وَأَنْسَى فِيهِ أَحْي، فقلنا: سبحانَ اللّٰه تَعَالَى، هل أَظْلَمَكَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعُشْبِ؟ فقال: إِنِّي لَمَّا دَفَنْتُهُ وَرَمَيْتُ عَلَيْهِ التُّرَابَ إِذَا صَوْتُ مِنَ الْقَبْرِ يَقُولُ: أَوْه، فقلْتُ: أَحْي، واللّٰه أَحْي، فكشفتُ التُّرَابَ، فقبل لي: يا عبدَ اللّٰه، لَا تَتَيْسَّرْ، فَرَدَدْتُ التُّرَابَ، قُلَّمَا ذَعِبْتُ أَقْوَمُ، قال: أَوْه، فقلْتُ: أَحْي، واللّٰه أَحْي، ثم كَشَفْتُ التُّرَابَ، فقبل لي: لَا تَفْعَلْ، فَرَدَدْتُ

(١) أخرجه البخاري (٥٠٨/٢) رقم (١٣٣٨)، والنسائي في الكبرى (٢/٢٠) رقم (٢٢٦١).

وأخرجه أيضاً: أحمد (٢/٣٥٥) رقم (٨٦٤٦)، والبيهقي (٤/٨١) رقم (٧٠١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢/٦٨٠) رقم (٩٨٧)، وأبو داود (٢/١٢٤) رقم (١٦٥٨)، والنسائي

(٥/١٢) رقم (٢٤٤٢).

التراب، فلما ذهب أقوم، إذا هو يقول: آو، فقلت: واللّٰو لا تركت نَفْسَهُ، فَتَبَشَّثَهُ، فإذا هو مُطْلَوْقٌ بطوقٍ من نارٍ، قَدْ التَّمَحَّ عليه القبرُ نارًا، فطبعَتْ أقطعُ الخُلُقِ، فَصَرِيئَةُ يَبْدِي لَأَقْطَعُهُ فَذَعِبَتْ أَصَابِعِي، قال: وَأَخْرَجَ إِلَيْنَا أَصَابِعَهُ الْأَرْبَعِ قَدْ ذَعِبَتْ، قال: فَأَتَيْنَا الْأَوْزَاعِي، فَخَدَلْتُهُ، فقلت: يَمُوتُ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ فَلَا يُرَى هَذَا، فقال: أولئك لا شَكَّ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ، وَلَكِنْ يُرِيكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ لِيُخَيِّرُوا.

وَصَحِبَ يَوْسُفَ بَيْنَ أَسْبَاطِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْجَزَعِ، فَقَالَ لَهُ يَوْسُفُ: مَا كَانَ عَمَلُكَ، طَائِي أَرَأَيْكَ لَا تَهْدَأُ مِنَ الْبُكَاءِ، فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ نَبَأًا، وَكُنْتُ أَرَى أَكْثَرَ التَّوَجُّهِ قَدْ حُوِّلَتْ عَنْ الْقَبِيلَةِ.

وقيل لِنَبَأِي قَدْ تَابَ: مَا أَعْجَبَ مَا رَأَيْتُ؟ قال: تَبَشَّثْتُ إِنْسَانًا، فَإِذَا هُوَ مُسْتَقَرٌّ بِالسَّمَامِ فِي سَائِرِ جَسَدِهِ، وَبِمَسَازٍ كَبِيرٍ فِي رَأْسِهِ، وَأَخْرَجَ فِي رِجْلَيْهِ. وقيل لآخر: مَا أَعْجَبَ مَا رَأَيْتُ؟ قال: رَأَيْتُ جُمُوعَةَ إِنْسَانٍ قَدْ ضَبَّ فِيهَا الرُّضَاصُ.

قل للذين شغلهم في الدنيا غُرُورُهُمْ إِنَّمَا حَزَنُهُمْ فِي غَدٍ مُرُورُهُمْ، مَا نَعْمُهُمْ مَا جَمَعُوا إِذَا جَاءَ مُخْلَدُورُهُمْ، تَخَضُّعُوا بِسُورِ الْمَالِ، فَقِيلَ: مَا سُورُهُمْ، فَمَا سُورُهُمْ، فَتَنَكَّوْا بِهَا جِبَاهَهُمْ وَجُنُوبَهُمْ وَظُهُورَهُمْ، ظَلَمُوا الْفَقِيرَ بِحَسَنِ الْحَقِيقِ، فَعَصَوْا الْخَالِقَ وَأَغْضَبُوا الْمَخْلُوقَ، فَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ مَكْرٍ لَا مِنْ فَوْقِ فَوْقٍ، فَمَا انْتَبَهَوْا حَتَّى رُمْتُ لِلرَّحِيلِ التُّوقَ، فَلَمَّا فَعَرَّتْ أَفْوَاهُهَا فَرَعَّتْ قُضُورُهُمْ، إِذَا لَقِيَهُمُ الْفَقِيرُ لَقِيَ الْأَذَى، فَإِذَا طَلَبَ مِنْهُمْ نَارَ الْغِيظِ كَالْجَلْدِ، وَإِنْ لَطَفُوا بِهِ قَالُوا: أَعْنَتْ، فَالْجَوَابُ ذَا يَا عَجِيبًا، كَمْ يَلْقَوْنَ مِنْ هَوْلٍ إِذَا ضَعَبَتْهُمْ قُبُورُهُمْ.

أما أعطاهم مولاهم من كل خير، أما أغناهم وأفقر الغير، أفي إيجاب ربع العشر حيف أو ضير، فما لهم إذا أخرجوا حبة ضاقت صدورهم، دنياهم أثر من دينهم، وفردهمهم أحلى من يقينهم، ومسكنهم معمور بمال مساكينهم، بئروهم بدورهم بدورهم.

أخذ المال إلى دار ضرب العقاب، فجعل في بوثقة يحسب ليهنقوا

العذاب، فُصِّحَ صفائح لكي تغمُ النُّكْيُ الإغاب، ثم جيء بمن عن الهدى قد غاب، يسمي إلى ما كان فيه يسمي، لا مع قوم يسمي نورهم.

لو رأيتهم في طبقات النَّارِ يَتَقَلَّبُونَ على جَمَرَاتِ الدِّينَارِ، وقد غلبت اليمينُ النَّسَارَ، لَمَّا بَجَلُوا مَعَ النَّسَارِ، لو سمعتهم وقد صبح صبورهم، سياخذها الوارث من غير تعب، وميسأل عنها المخلف كيف كسب الشوك لهذا ولهذا الرطب، أين حرص الجامعين لها؟ أين بكورهم؟ كم حُثُوا على الزكاة وما فيهم من يسمع، وكم خُرضوا على الزهادة وكلهم يجمع، كأنهم بالمال وقد انقلب شجاع أفرع، ولكن ما هي عصا موسى ولا طورهم ﴿يَوْمَ يُخَيَّرُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَنُكْوِفُ بِهَا جَانِبَهُمْ وَجُوهُهُمْ وَلَهُوَهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]

الفصل الثامن عشر

في قوله تعالى: ﴿ثَابِتِ الثَّنِينَ إِذْ هُمَا فِي

الْفَكَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]

لَمَّا بَايَعَ الرسول أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعلمت قريش فأغاروا حيل الحيل بأيدي: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فدارت على دائرة دار ويمكرون دوائر ويمكر الله، فجاء روح القدس بالخير، وأمره أن يفارق موضع المضجع، فَعَلَا غَلَاةً عَلَى الْعَلَا، إِذْ بَاتَ مَتَكَّانَةً، وَتَصَدَّى الصَّدْيُ لِيُصْحِيَّتِهِ، وناميك بها ويكفي مكانه، فدخلوا حَارًا لو دخله غيرهما لكان حُرُورًا، وغريت قريش بالطلب، فنبئت شجرة لم تكن قَبْلَ قَبْلِ الْبَابِ، فَلَمَّا ظَلَلَتْ أَظْلَلَتْ المَطْلُوبَ وَأَضَلَّتِ الطَّالِبَ، وجاءت عتكبوت فَحَاكَّتْ وَجْهَ الْغَارِ، فحَاكَّتْ ثَوْبَ نَسِجِهَا عَلَى بَنَوَالِ الشَّرِّ، فأحكمت الحكم ببيان، فالحكم الأمر، وأقبلت إلى الحمى حمامات، فما كان إلا أن سكنتا من الغار قَمًا، فما بان المستتر، فاتخذتا عُمُشًا، فغشى ما غشى من عشى العشاء على أبصار المفتقدين فصاروا كالأعشى، يا محمد بت ليلة الغار في حمى حمامية، ودفعت العدو عتك بعتكبوت، هذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود، فراغ الأعداء إلى تلك الناحية، فرأوا دليل فراغ الغار، فَعَاثُوا عَمَلًا عَاثُوا عَوْدًا، فقال الصَّدْيُ عَنْ جِدَّةِ الْوَجْدِ: لَوْ أَنَّ أَحَدًا نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " مَا خَلَّكَ بَانْتَيْنِ اللَّهُ ثَابِتُهُمَا " (١)، فَأَقَامَا ثَلَاثًا ثُمَّ رَحَلَا، فَلَا هَمَّ لَهُمَا إِلَّا قَطْعُ الْغَلَا، ومع أنس

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٧/٣)، رقم ٣٤٥٣، ومسلم (١٨٥٤/٤) رقم ٢٢٨١، والترمذي

(٢٧٨/٥)، رقم ٣٠٩٦ وقال: حسن صحيح غريب، وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (٦/

٣٤٨، رقم ٢١٩٢٩)، وعبد بن حميد (ص ٣٠، رقم ٢)، وأبو يعلى (٦٨/١)، رقم ٦٦.

وجودهما فلا فلا، فمن ذلك فلا لا دلهما فلا لا، فلحقهما سراقَةُ بن جعشم فسرق الأرض فوائم فرسه، فلما رأى أرضاً صليداً قد فرست الفرس قسرت إلى بطنها، أسرت نفسه علم اليقين بظننها، فأخذ يعرض المال على من قد رَدَّ مفاتيح الكنوز، ويقدم الزاد إلى شعبان أبيت عند ربي، كانت تُحفة ثاني اثنين مُذْخِرَةً للصديق دون الكل، فهو الثاني في الإسلام ما نسي بالرسول سواء في بدل النفس، وفي الزهد، وفي الضحية، وفي الخلافة، وفي العمر، وفي سبب الموت؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم مات عن أثر السَّم في الذراع، وأبا بكر سَمَ فمات، ولقد سُتِرَت فضائله بتقاب " وَلَكِنْ يَشَى " وَفَرَّ فِي ضَلْوَةٍ^(١)، كما سُتِرَت لفضائل الرسول بستر ﴿فَوَجَّهْ لَكَ حَبِيبُ مَا لَوْحٌ ۝﴾ [النجم: ١٠]، لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ المخلوقات اختار ذوات الأرواح، ثم منها بني آدم، ثم منهم العقلاء، ثم منهم المؤمنين، ثم منهم العلماء، ثم منهم الأنبياء، ثم منهم المرسلين، ثم منهم أولي العزم، ثم منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، واختار من الأمم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم منهم المهاجرين والأنصار، ثم منهم أهل بدر، ثم منهم الأربعين، ثم منهم العشرة، ثم منهم الأربعة، ثم منهم أبا بكر رضي الله عنه، فَرْتَبَةُ أَبِي بَكْرٍ فِي الْأَمَةِ كَرْتَبَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَنْبِيَاءِ لِيُبَيِّنَ سِرُّ: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ يَذُمُّهَا فِي الْقُبْرِ﴾ [التوبة: ٤٠].

كان الصديق أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ، وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ، ولم يزل مُتَافِعاً عن صاحبه وما ضاح به، ولقد أَسْلَمَ على يده مِنَ الْعَشْرَةِ عَشَمَةُ: عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد، لِيُبَيِّنَ سِرُّ: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ يَذُمُّهَا فِي الْقُبْرِ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان عنده يومَ أَسْلَمَ أربعين ألف درهم، لما زال يتفحها في مَهَرِ الضَّحِيَّةِ حتى خَلَّلَهُ الْحُبُّ بِالْعَبَا.

[المقارب]

وَكَمْ يَضِيءُ فُضُّهَا فِي الْهَوَى وَكَمْ تَقْبِ عِلْدَةُ قَدْ تَقْبِ

(١) لا أصل له مرفوعاً (٩٦٢) بل رواه الترمذي الحكيم في (النوار) من قول بكر بن عبد الله المزني.

وَيَسْخَرُونَ بِمَا قَدْ خَلَّوْا فِيهِ مِنَ الْغَيْبِ وَلَا يُشْعِرُ الْمَوْتَ مَا قَدْ وَقَعَ وَأَغْيَبَ مَا كَانَ مِنْهُ الرُّطْبَا وَأَزْعَمَ مَا كَانَ مِنْهُ الْغَضَبُ عَابِرٌ طَائِرٌ الْفَاقَةُ يَحُومُ حَوْلَ حَبِّ الْإِبْرَارِ، وَيُنَادِي فِي تَادِي (وَيُلَوِّزُونَ)؛ ﴿ثُمَّ ذَا الَّذِي يَرْفَعُ كَفَّهُ﴾ [الحديد: ١٦]، فَأَلْقَى إِلَيْهِ الْفَاءَ الْكَرِيمَ الدَّرَاهِمَ عَلَى رِيَاضِ الرُّطْبَى، وَاسْتَلْقَى فِي قَفْرِ الْفَقْرِ، فَقَلَّهَا إِلَى حَوْضَةِ الْمُسَاعَفَةِ، ثُمَّ غَرَّدَ عَلَى أَفْئَانِ أَشْجَارِ الصَّدِيقِ يَفْنُونَ صَدَحَ الْمَدْحُ، فَلِمَ يَفْهَمُ تَعْرِيدَهُ إِلَّا سَلِيمَانُ الْخُشُوعُ، فَأَغْرَبَ عَنْ غَرَابِيبِ ذَلِكَ اللَّحْنِ بِإِفْضَاحِ (أَنَا رَاضِي عَنْكَ، قَهْلُ أَمْتُ عَنِّي رَاضِي)، بَيِّنًا هُوَ يَمْشِي بِمَكَّةَ رَأَى بِلَالًا يُعَذِّبُ فِي الرُّمَضَاءِ وَلَا يُسْقِي بِلَالًا قَبْلَ ذَلِكَ فِي تَحْلِيلِهِ لَفْظَ نَعَمْ بِلَالًا.

[الوافر]

أَبُو بَكْرٍ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَا فَأَعْتَقَ خَيْرَ أَغْبُوهُ بِلَالًا وَقَدْ وَاسَى الشَّيْءَ بِغُلِّ خَيْرٍ وَأَتْبَعَ بِهِ لَفْظَ نَعَمْ بِلَالًا لَوْ أَنَّ الْبَحْرَ عَائِدَةً بِشُورٍ لَمَّا أَبْقَى الْإِلَهَ لَهُ بِلَالًا إِخْوَانِي؛ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى قُبُولَ نَفَقَةٍ مُنْفِي قَدَّرَ لَهَا حَاجَةً مُحْتَاجًا، وَأَحْوَجَ مَا كَانَ الْإِسْلَامُ فِي زَمَنِ إِنْفَاقِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، فَلَهَا جَلِيَّةٌ خَلِي " مَا نَقَعْنِي مَا لَمْ تَمَالِ أَبِي بَكْرٍ " (١)، أَتَقَفْتُ خَدِيجَةً وَهِيَ نَفَقَتُهَا شَائِبَةٌ قَوَاهَا، وَأَنْقَلَبَ عَسْمَانُ وَالْأَمْرُ قَدْ تَنَاقَسَ، وَنَفَقَةُ الصَّدِيقِ كَانَتْ لِقَاجِدَةٍ بَنَاهَا.

لَقَدْ نَهَضَ وَخِدَةً عَلَى قَدَمِ الْوَحْدَةِ إِلَى خُمُوعِ الشَّرِّكَ قَرَّةَ يَوْمِ الرَّدَّةِ، فَهُوَ أَفْضَلُ الْإِسْلَامِ فِي الْعَوْنِ مِنْ مُؤْمِنٍ آلٍ فِرْعَوْنٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَحَقُّ إِيْمَانُهُ وَخَافَتْ، وَنَفَسُ الصَّدِيقِ مَا خَلَّوَتْ وَلَا خَافَتْ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنْ صَاحِبِ يَاسِينَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ جَاهِدَ سَاعَةً وَهَذَا بَيْنِينَ، تَقَلَّبَتْ بِقَضَائِهِ الْآيَاتُ وَالْأَخْبَارُ، وَاجْتَمَعَ عَلَى يَتَعَبَوُ

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٣)، رقم (٧٤٣٩)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٧)، رقم (٨١١٠).

وابن ماجه (١/٣٦)، رقم ٩٤. وأخرجه أيضا: ابن حبان (١٥/٢٧٣)، رقم (٦٨٥٨).

والطحاوي (٤/١٥٨)، وابن أبي عاصم (٢/٥٧٧)، رقم (١٢٢٩)، والرافعي (٣/٣٤٩).

والخطيب (١٠/٣٦٣).

المهاجرين والأنصار، فبا مَنَافِعِهِ في قلوبكم مِن دَعْوِهِ نَارَ، كَلَّمَا ثَلِثَ فَضَائِلُهُ عَلَيْهِمَ عَلَا عَلَيْهِمُ الطُّغَارُ، أَتَرَى مَا سَبَّحَ الرَّوَافِضُ الْكُثَارُ: ﴿فَلْيَكُنْ لِلَّهِ قِسْمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، دُعِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَمَا تَلَقَّعْمْ وَلَا أَيْسَ، وَسَارَ عَلَى الْمَحْجَةِ فَمَا زَلَّ وَلَا كَبَا، وَصَبِرَ فِي مُذْتَبِهِ عَلَى مُذَى الْعَذَى وَعَلَى وَفَعِ الثُّبَا، فَأَكْثَرَ فِي الْإِنْفَاقِ بِمَا مَلَكَ كَفَّهُ، فَمَا قَلِلَ حَتَّى تَخْلُلَ بِالْعِبَا، وَاللَّوْ لَقَدْ زَادَ الشُّبْكَ فِي كُلِّ دِينَارٍ: ﴿فَلْيَكُنْ لِلَّهِ قِسْمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، مَنْ ذَا الَّذِي سَبَّحَ مِنْ أَصْحَابِهِ، مَنْ كَانَ قَرِينَ النَّبِيِّ فِي شَبَابِهِ، مَنْ ذَا الَّذِي سَبَّحَ بِالْإِيمَانِ مِنْ أَصْحَابِهِ، مَنْ ذَا الَّذِي أَفْتَى لَدِيهِ سَرِيعًا فِي جَوَابِهِ، مَنْ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى بِهِ فِي مِحْرَابِهِ، مَنْ ذَا الَّذِي صَاحَبَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي تَرَابِهِ، فَأَعْرِفُوا حَقَّ الْجَنَابِ: ﴿فَلْيَكُنْ لِلَّهِ قِسْمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

نَهَضَ يَوْمَ الرُّؤْيَا بَيْنَهُمْ وَاسْتِيفَاطَ، وَأَبَانَ مِنْ نَصِّ الْكِتَابِ مَعْنَى حَلِيدِ الْأَلْحَاطِ، فَمَجَّهَ يَفْرَحُ بِفَضَائِلِهِ، وَمَنَافِعُهُ يَفْتَاظُ، خَسِرَةُ التَّبَقُّصِ أَنْ يَتَوَمَّ وَلَكِنْ أَيْنَ الْقَرَارِ.

كَمْ أَفْنَى النَّبِيِّ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ، وَيَكْفِي فِي فَضْلِهِ صَحْبَتُهُ فِي الرَّئِيسِ، فَضَائِلُهُ جَلِيلَةٌ عَنِ النَّبِيِّ، وَاعْجَبًا فِيمَنْ يُعْطَى عَيْنَ الشَّمْسِ فِي نَضَبِ النَّهَارِ. دَخَلَا عَمَارًا لَا يَسْكُنُهُ لَابِثٌ، فَاسْتَوْحَشَ الضُّبُثِيُّ مِنْ حَوَافِ الْحَوَافِثِ، فَقَالَ الرَّسُولُ: " مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللَّهُ لُهُمَا ثَالِثٌ ^(١)، فَتَزَلَّتِ السَّكِينَةُ لِحَادِثِ الْحَادِثِ، وَارْتَفَعَ الطُّيُوسُ وَظَابَّ غَيْشُ الْمَاجِثِ، وَقَامَ مُؤَذِّنُ النُّصْرِ يَتَادِي تَابَ الدَّارِ، حُبُّهُ وَاللَّوْ رَأْسُ الْحَنْفِيَّةِ، وَبَغْضُهُ يَدُّ عَلَى خُبَّتِ الطُّلُوبَةِ، وَهُوَ خَيْرُ الصَّحَابَةِ وَالْفَرَابَةِ حَجَى قَوِيَّةٍ، لَوْلَا صَحَّةُ إِمَامَتِهِ مَا قِيلَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ، فَهَلَا فَهَلَا دَمُ الرَّوَافِضِ قَدْ فَارَ.

وَاللَّوْ مَا أَحْيَيْتَهُ لِهَوَانَا، وَلَا تَعْتَقِدْ فِي غَيْرِهِ هَوَانَا، وَلَكِنْ أَخَذْنَا بِقَوْلِي عَلِيٍّ

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٧/٣)، رقم (٣٤٥٣)، ومسلم (١٨٥٤/٤) رقم (٢٣٨١)، والترمذي (٢٧٨/٥)، رقم (٣٠٩٦) وقال: حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (٦/٣٤٨)، رقم (٣١٩٦)، وعبد بن حميد (ص ٣٠، رقم ٢)، وأبو يعلى (١/٦٨)، رقم (٦٦).

وَعَفْوَنا: (رَضِيكَ الشَّيْءُ رَسُوْلُ اللّٰهِ لِيَدِيْنَا، أَفَلَا تَرْضَاكَ لِذُنُوبَانَا (١))، أَخَذْتُ يَا قَوْمُ مِنَ الْقَوْمِ بِالنَّارِ-

لقد أوجب الشرع حق الصديق علينا، فنحن نلغي بمذابحنا، فمن كان رافضياً فلا يعد إلينا، وليقل لي أعذار.

يا مُبِغِضًا لَهُ مُهْلًا مُهْلًا، مَنْ مِنْهُمْ سَبَقَهُ كَلَامًا، أَمَا نَزَلَ فِيهِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، فكم قطعت أصلاً أصلاً، ﴿لَا يَسْتَوِي سَوَاءٌ﴾ [الحديد: ١٠] فَيَمُنُ ثَلَاثًا؟، ومثلها: ﴿إِلَّا آيَةً وَبِهِ زَيُّ الْآفَاقِ (٢٠)﴾ [الليل: ٢٠]، فضائله لا تمل ولا تُنل، ومناقبه يبعثها الصحف تملأ شفرة منها وهي من أن تخفى أجلاً، هذا قدر ما يحتمله هذا الوقت على الاختصار، ﴿كُلُّ الشَّيْءِ إِذَا هُمَا فِي الْكَافِرِ﴾ [النوبة: ٤٠].

الفصل التاسع عشر

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾

[التوبة: ٧٥]

الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب، إذ مال إلى جمع المال ميل خاطب، فها من قد علمه البطل لحن الفعل فلم ينقمه إعراب اللطيف، لقد جعل بناء كلفك بالجمع ضمًا، وصير إعراب فهمك بالمنع فتحًا، وستسكن هذه الحركات إذا جاز بك الموت الجازم، أتى ثعلبة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (سَلِ اللَّهَ أَنْ يَزِدَّنِي مَالًا، فَقِيلَ: قَبِيلُ خَيْرٍ تَشْكُرُهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرٍ تَكْفُرُهُ)، فَأَلَحَّ فِي الظُّلُبِ، وَضَمَّنَ حَسَنَ الْعَهْدِ فِدْعًا لَهُ، فَأَعَادَتِ الدَّعْوَةُ الدَّعْوَى عَلَيْهِ، اتَّخَذَ غَنَمًا فَنَمَى غَنَمَ غَنَمِهِ، فَظَنَّ الْغَنَى بِالْغَنِيمَةِ غَنِيمَةً، فَضَاقَ قِضَاءَ الْمَدِينَةِ بِهَا، فَتَنَحَّى بِهَا لِرِوَادِهَا إِلَى وَادٍ فَشَغَلَهُ عَنْ قِرَاءَةِ الْجُمُعَةِ وَالْجُمَاعَةِ جَمْعُ الْقِرَاءِ وَالْحَمَى، وَنَصَبَ نَصَبِيهِ فِي أَصْحَابِ النَّصَبِ اخْتِيَارَ النَّصَبَاءِ، وَأَقْضَاءَ عَنْ أَرْيَابِ الْهَدْيِ اشْتِغَالَهُ بِالْفَقْصَى، وَعَصَمَهُ عَنْ قَبُولِ الْحَفَائِقِ إِقْبَالُهُ عَلَى الْعَصَاءِ، لِإِثَارِهِ مَكَانَ الْقَعَصَاءِ، وَشَرَقَ الْهَوَى فَلَمْ يَسْمَعْ إِلَّا بِالْشَرْقَاءِ، تَالَهُ لَقَدْ سَاءَ عَمَلُهُ بِعِيَةِ الشَّاةِ اللَّيْنَةِ، فَأَسَاءَ سُوءَ فَعْلِهِ أَنْ يَذْكُرَ يَوْمَ اللَّيْنَةِ، فَلَمَّا لَاحَ لِلْمُبْتَلَى مَرَاةَ الْإِعْتِبَارِ فِي كُفٍّ: ﴿خَذْ مِنْ أَوْلِيَّتِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، فَأَمَرَ سَاعِي الزُّكَاةِ أَنْ يَنْوِبَ عَنِ الْفُقَرَاءِ فِي السَّعْيِ، فَرَدَّ ثَعْلَبَةُ بَابَ الْعَطَاءِ بِيَدِ الْمُطْلِ، فَقَامَ زَاجِرُ الْحَالِ مِنْ وَرَاءِ رَايَةِ يَصِيحُ بِفَصِيحِ لِسَانِ الْيَوْمِ: يَا ذَا الْيَوْمِ احْذَرِ أَنْ تَرُدِّي بِالرِّكَادِ، فَمَا أَرْجِعُ التَّخْوِيفَ مِنْهُ بِالَا، وَلَا بِالْإِبْلِ زَادَهُ وَهَالَا، فَاتَّعَدِبَ وَجُوبَ الْأَدَاءِ يَشْكُو إِلَى الْمُوجِبِ، فَوَصَلَ تَوْقِيعَ الْقَدَمِ مُشْتَمِلًا عَلَى عَيْبِ سَابِقِ الدَّعْوَى وَمَتَأَخَّرَ الْمَنْعَ: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥]، فَلْيَحْلُرْ

شرُّ هذا المال كلُّ مَنْ قَالَ إليه، فإنه في الحياة له وفي السموات عليه، هل المال إذا نظره ذو الحجب يحجر الحجر إلا حجر على البال، فما باله على البال البلبال قد حجر، وصل من كَفَّ كَفَّتْ لما كَفَّتْ بالكِفَّاتِ إلى كَفَّ خَالِيفٍ، ثم ينقل عن الفتي كما أتى متى نوم التالف، فالعجب لعوارِ ذات عوارِ عورت من غارِ غورتها، عين الفهم أومضت فأومضت فما مضت حتى أمضت في ذي السهم منها، أمضى سهم، لا يتفع منها نوم القدوم إلا ما قدم على قدم الإخلاص، فإن اقتد لعل متفقا محل المحل، فلم يخلص فقد فقد الإخلاص.

الفصل العشرون

في قوله عز وجل: ﴿إِذَا لَمْ تُشْرِكْ بِهِ﴾
التَّوْبَةُ: (١١١)

إخواني؛ قيمة السلعة تعرف بقدر مُشْتَرِبِها ودلالها وثمنها، فإذا كان المشتري جليلاً والدلال نبيلًا والتمن جزيلًا كانت السلعة نفيسةً، وهذه صفة نفس المؤمن الله مُشْتَرِبِها ومحمّد دلالها والجنة ثمنها.

إخواني؛ المجاهدة تغطي عيوب النفس؛ لأنّ فيها كثير إبليس، وحسد قابيل، وعُشْوُ هاد، وتَمَرَّةُ ثمود، واستطالة قريعون، وبُغْيُ قارون، ووَفاخة هامان، وقوى بلعام.

فيها من أخلاق البهائم جِزْءُ الغُرَابِ، وَشَرُّ الكَلْبِ، وَرُغْوَةُ الطَّائِسِ، وَدَنَاءَةُ العَجَلِ، وَغَفْوَةُ الضَّبِّ، وَجِلْدُ الجَمَلِ، وَتَوْبُ القَهْدِ، وَصَوْلَةُ الأَسَدِ، وَخُبْثُ الخَيْلِ، وَمَكْرُ الفَأْرَةِ، وَعَيْبُ الفِرْدِ، حَتَّى أَنَّ الرِّبَاةَ تخمد نيرانها ولا تأمن غَمَلُ النار في الباطن.

إخواني؛ من اشترى سلعةً وقد رأى عيبها لم يكن له الرّد بالعيب والحق علم العيب من نفسك فاشترها، فلك الأمان من الرّد.

يا هذا؛ سلم المبيع فانه حيوان قبل أن يتلف في يدك، اليس درج خربك، وانض سيف عزمك، واذهب حنجره طمّعك بسكين بأبيك. لقد انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم، فإذا ظفروا بها فقد وصلوا، أوّل وصل العيد هجره لنفسه.

قال بعض المريدين: رأيتُ حوراء في منامي، فقلت: رُوِّجيني نفسك، فقالت: احطّطيني من سيدي، فقلت: ما مهزّرك؟ قالت: حبس نفسك عن مألوفاتها.

[أخذ الكامل]

يَسْمُ النُّجُومُ يُبَاعُ وَهَلَهُمْ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْتَأَمُ بِالشُّعْرِ
اعطف نفسك بزمام الإنابة، وردّها بلجام اليقظة عن هوى الهوى، سلمها
إلى راض الأمر، وألقها إلى طيب الشرع، فالطبيب يحبسها في حمى الحمية،
ويعمزج لمزاجها المُتَحَرِّفَ برودة الرجاء بحرارة الخوف، فإذا خالفت هواها
وحالفت دواها ارتفعت صمامة الصمم عن سمع النيقط، وَخَرَّ رُكَّامُ الزُّكَّامِ عن
بُخْرِ الهدى، فاستنشقت ربح يوسفها من قميص أسفها على مُستلفها، فرمت
أعراض إعراضها بهم العزائم على هجرانها، فرأت عيب الدنيا فأنطلقت في
طلاقها، فكلما دبت مياة العوالي في الحصان سرها، انتشرت أوراق الصدف في
بر بدوها، وانتشرت وَرَقُ طربها بوجدان أربها، تصدح على أفنانها بفنون
الحنانها، فكان مضمون فنائها استوى عندي حجيرها ومدرها، فحينئذ تبني
صومعة التعبد على ساحل التزهّد، وتضع أسامن العزائم، وتحكمها بِشَدِّ
التَّفَكُّرِ، وتغرس حولها أشجار التَّذَكُّرِ، وتشرع لها مشرعة من الحزن فيحوم
حولها طائر الأنس، فتسمعها نغمات القدس، فتصير في جنة رياضها بالرياضة
بأخسة، فتظهر ينباع الحكمة من القلب، وينطق اللسان بالغيب، كما أظهر مير
ظهازة الشر^(١) (يا سارية الجبل).

فيا أيها الأعزل احذر إصابة نيل المعنى، فإنه يرى عودة عمليتك من وراء
جلباب بشرتك، " اَتْلُوا قِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ "^(٢).

سُئِلَ أَبُو يَزِيدَ الْبُسْطَامِيُّ: بِمَاذَا يَلْتُ مَا يَلْتُ؟ فَقَالَ: اسْتَلَحْتُ مِنْ نَفْسِي
كَمَا تَسْلُحُ الْحَيَّةُ مِنْ جَلْدِهَا، وَمَا زِلْتُ أُسَوِّقُ نَفْسِي إِلَى اللّهِ تَعَالَى وَهِيَ تَجِي
حَتَّى سَقَتْنَهَا وَهِيَ تَضْحَكُ.

(١) أخرجه ابن عساکر (٢٠/ ٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٢٥٤)، والترمذي (٥/ ٢٩٨، رقم ٣١٢٧،

وقال: حديث غريب. وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٨١). وأخرجه أيضًا: الطبري (١٤/

٤٦).

[البسط]

مَا زِلْتُ أَهْجِكَ إِلَيَّ ثَمَلْنَا نَظَرَتْ إِلَى مَنْ احْتَضَبَتْ أَحْقَانُهَا بِدَمٍ
مَنْ التَّطَسَّى بِسَوَى الْهَيْئَةِ حَاجَتُهُ أَحَابَ ثَمَلُ سُؤَالٍ عَنْ قَلْبٍ يَلْمِ
مُتَحَادٍ خَالِقٍ نَفْسِي تَحِيفَ لَدَّتْهَا فِيمَا التَّطَوُّسُ تَرَاهُ غَابَةَ الْأَلَمِ
وقال أبو يزيد البسطامي: كنت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي، وخمس
سنين مرة قلبي، ثم بقيت سنة أنظر ما بينهما، فرأيت على ظاهري زُنَارًا،
فعملت في قطعه اثنتي عشرة سنة، ثم رأيت على باطني زُنَارًا آخر، فعملت في
قطعه خمس سنين، ولقد أبغضت الدنيا حتى أحببت طاعته، وأحببت الله عزَّ
وَجَلَّ حتى أحببت نفسي.

[الرجز]

تَوَوَّعَا تَائِبَةً هَقَالَهَا قَدْ مَلَأَتْ مِنْ بُذْبُذِهَا جَلَالَهَا
قَلَمَ تَزَلْ أَضْوَأُهُ تَشَوَّلَهَا حَتَّى رَمَتْ مِنَ الزَّوْجِ رَحَالَهَا
أَرَادَ أَنْ تَشْرَبَ مَاءَ حَاجِرٍ أَرِيَهَا بِظُلُوبِ أُمِّ مَحَالَهَا
إِنْ لَهَا عَلَى التُّلُوبِ وَثَّةٌ لَأَنَّهَا قَدْ عَزَمَتْ بَلْبَالَهَا
مَادَا عَلَى التَّافَةِ مِنْ غَرَامٍ لَوْ أَنَّهُ انْصَفَ أَوْ رُئِيَ لَهَا
إِنْ لَهَا عَلَى الطَّبَا تَجِيَّةٌ أَعَجَلَهَا السَّابِقُ أَنْ تَنَالَهَا
وَأَشَدَّتْ الْفَلَاةُ قُوَّةَ عَطْوِهَا ثَائِلَهَا قَدْ عَزَمَتْ رُؤَالَهَا
قَمَلُوهَا بِحَدِيثِ حَاجِرٍ وَلَقَطَعَ الْفَلَاةُ مَا بَدَا لَهَا

الفضل الحادي والعشرون

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَلْزَىٰ جَعلَ الشَّمْسُ ضِيَاءَ

وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ [يونس: ٥]

معنى الكلام: جَعَلَ الشَّمْسُ ذَاتَ ضِيَاءٍ وَالْقَمَرُ ذَا نُورٍ.

قال ابن قتيبة: إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَمَرُ قَمَرًا لِإِبْيَاضِهِ، وَالْأَقْمَرُ: الْأَبْيَضُ، وَلِهَذَا قَمَرًا: مُبَيَّضًا.

تَبَرُّدُ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ فِي حُلَّةِ الشَّعَاعِ لَا تَنْتَافِعُ الشُّبُحُ، فَإِذَا ذَهَبَ النَّهَارُ تَشَرَّتْ وَذَاعَتْ الْمُعْطَفَةُ، وَنَزَلَتْ مِنَ الْأَشْهَبِ لِرُكِبَتِ الْأَصْفَرِ، لِكُحُلِ اللَّيْلِ عِيُونَ الْبِدَاءِ بِإِثْبَادِ الظُّلُمَاتِ، وَالشَّمْسُ تُشَرُّ بِاللَّيْلِ لِسُكُونِ الْخَلْقِ، وَتُظْهِرُ بِالنَّهَارِ لِمَعَاشِهِمْ، وَتَارَةً تُبْعَدُ لِيَتَرَقَّبَ الْجَوُّ، وَيَنْقُدَ الْعَيْمُ، وَيَبْرُدَ الْهَوَاءُ لِيَتَرَبَّى النَّبَاتُ، وَتَارَةً تَقْرُبُ لِيَجِفَّ الْحَبُّ، وَيَنْضَجَ الثَّمَرُ، وَإِنَّمَا قُلَّ ضَوْءُ الْقَمَرِ لِقِلَّةِ الْاِحْتِيَاجِ إِلَى النُّورِ وَقَدْ تَنَوَّمَ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]، الْهَاءُ عَالِدَةٌ إِلَى الْقَمَرِ، وَالْمَعْنَى: قَدَّرَ لَهُ، فَحَلَفَ بِاللَّامِ الْجَارَةِ.

قال ابن قتيبة: مَنَازِلُ الْقَمَرِ ثَمَانِيَةٌ وَعَشْرُونَ مَنَازِلًا مِنْ أَوَّلِ الشَّهْرِ إِلَى ثَمَانِيَةِ وَعَشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَسْتَقِرُّ، وَهَذِهِ مَنَازِلُ النُّجُومِ الَّتِي كَانَتْ تُسَبِّبُ إِلَيْهَا الْعَرَبُ الْأَنْوَاءَ، وَأَسْمَاؤُهَا عَنْدهُمْ:

السَّرْحَاءُ، وَالْبُطَيْنُ، وَالْثَوْبَانُ، وَالْذَّبْرَانُ، وَالْهَقْعَةُ، وَالْهَقْعَةُ، وَالْذَّرَاعُ، وَالشَّرْقُ، وَالْقَرْفُ، وَالْجَهَةُ، وَالزَّيْبَةُ، وَالصَّرْفَةُ، وَالْعَوَاءُ، وَالسَّكَّ، وَالْقَفْرُ، وَالرَّيْبَانِي، وَالْإِخْلِيلُ، وَالْقَلْبُ، وَالشُّوْلَةُ، وَالشَّاعِبُ، وَالْبَلْدَةُ، وَسَعْدُ النَّابِخِ، وَسَعْدُ بُلْعٍ، وَسَعْدُ السَّعُودِ، وَسَعْدُ الْأَحْيَةِ، وَقَرْعُ الدَّلْوِ الْمُقَدَّمِ، وَقَرْعُ الدَّلْوِ الْمُؤَخَّرِ، وَالرَّشَاءُ وَهُوَ يَطْلُقُ الْحَوْبَ.

قال: والهلاك: أول ليلة والثانية والثالثة، ثم هو قمر بعد ذلك إلى آخر الشهر، وليلة الهمد أربعة عشر، وتسمى بدرًا لمبادرته الشمس بالطلوع، فتأته يُعجلها المغيب، ويُقال: سمي بدرًا لتمامه وامتلاءه، وكل شيء ثم فهو بدر، ومنه قيل للعشرة آلاف بدر؛ لأنها تمام العدد ومنتهاه، والعرب تسمي ليالي الشهر لكل ثلاث منها باسم؛ فتقول: ثلاث غرر، وغرة كل شيء أوله، وثلاث نفل؛ لأنها زيادة على الغرر، وثلاث تسع؛ لأن آخر أيامها التاسع، وثلاث عشر؛ لأن أول أيامها العاشر، وثلاث بيض؛ لأنها تبيض بطلوع القمر من أولها إلى آخرها، وثلاث دُرغ؛ لاسوداد أولها وايضا من سائرها، وثلاث ظلم؛ لظلامها جميعها، وثلاث خنابس لسوادها، وثلاث ذوقي؛ لأنها بفايا، وثلاث سُخافي؛ لاختلاف القمر آخر الشهر.

سبحان من جعل قدرته أن تُعَدَّ كما عُرِّث نعمته أن تُعَدَّ.

ذلّ البصائر بمصنوعاته عليه، وأزهد الألباب بإنعامه إليه، * كُنْتُ كَمَثَرٍ لَا أَعْرِفُ^(١)، لَمَّا أَرَادَ خَلْقَكَ مَهْدَ الْأَرْضِ بِسَاكِنَا لَكَ، فَلَمَّا مَهَّدَهَا عَلَى الْمَاءِ نَادَتْ، فَاتَّقَصَّتْ عِقَانُ الْجِبَالِ عَلَى طَيْرِ التَّرْلُزْلِ فَرَسَتْ فَرَسَتْ.

وقال فتادة: الأرض عشرون ألف فرسخ، اثنا عشر ألفًا غمرًا والياقي خراب، وقال أبو الجليل: الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخًا: اثنا عشر ألفًا للسودان، وثلاثة لغارس، وثمانية للروم، وألف للعرب.

وسط الأرض لأجلك، وأخرج النبات لقوتك، وأجرى الأنهار لرئك، وقسم المخلوقات في الأرض إلى ما تنتفع به وإلى ما تعتبر برؤيته، وبني السماء فنثر آلي الأنوار، فسوى أشكال عليكم تخطيط خطها فأنجم تخطيطها، وانظر إلى الأرض؛ طالشجر أعلامها، والأنهار مبدأها، والرياض زلم نقيشها، فإن استعجم كتاب التفكير في المخلوقات لضعف هجاءك فافرا مسطور كونك ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ اللَّهُ تَبَرُّهُ﴾ [الفاريات: ٢١].

يا هذا تأمل نهاية هذا السفر، وترقب سكون دولا ب هذا الفلك،

(١) قال ابن تيمية ليس من الحديث ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي.

فجريان الشمس والقمر يعلمان في فيك وأنت لا تدري ما المراد، وأنت المراد، والكائنات مرة لعين فهمك، فمنى غطى وجه المرأة نقاب غبار الهوى أو قنار ظلام الجهل لم تر الحقائق، فأجل مرة السر عند ضيق العمل ليعين لك معنى الصور المشاهدة، ومقصود الكائنات المعانية، فيسبح لسان الذهن ﴿وَمَا خَلَقْتُ هَذَا بَطَلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، يا هذا؛ ألي يلز التفكير في أرض الخلوة، وأور حول دار الغزلة خندق الحذر، وتحط من العدو بحسن الإخلاص، ويسر في قناني البين خابلا زاد التوكل، والحق برفقة القائين في زمرة ﴿وَالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧].

وأيض بيناء الفناء عن شهوات النفس، وتأمل هلال الهوى في ضحو اليقظة، وطير يحتاج التقى إلى قضاء الفصائل، لعلك تقع يقع السلامة، أو بحضرة حضرة القدس والكرامة.

[الطويل]

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
يا من يفتي بقاءه، ويضم سلامته، ويؤلف في منايه يثقف.
قال الحسن: الميادنة عباد الله، فأنما هي الأنعام لو قد حبست عنكم
انقطع أعمالكم التي تفرعون بها إلى الله تعالى.

ثم فرح بشهر وإبلاله متهلل لرؤية جلاله الختلفة الموت في جلاله، ثم ماثل إلى جمع ماله تركه تركه ونفس بالقبالي، هل رحمه الموت لضعف أوصالي، هل ترك قابلا لأجلي أطفاله، هل أمهل ذا عيال من جري عياله، كم راع فصرا وما راع عن إبطاله، كم أشرف على شريف فلم ينظر في جلاله، كم خرق درعا نبلا بوقع بيالي، كم أهتم طفلا صغيرا ولم يباله، كم سد نفسي في سعة إخراجة ووصاله، كم بغت عليا بالبلى بعد التراقي في إبلاله، قرقي روحه إلى التراقي ولم ينظر في حاله.

إخواني! سر الزمان وحفظ أولي الألباب، ويكفي في الإنذار موت الأصحاب، وفي الليل والنهار جيرة للقلاب، الشمس تجري والقمر في القلاب، ﴿يَعْلَمُوا عَذَابَ اللَّهِ﴾ [يونس: ٥]، كم ترى في التراب

من أتراب تلك السيوف في شر قراب تناولتهم يد البلى من كف استلاب، وقد بَانَ أَحْيَابٌ وَعَرُ لِيَاب.

كيف تلهو وقد فطدت الشباب، صاخ فجر الشيب بليل الشباب فانتحاب،
[الطويل]

أَذْكَرُ نَضَابٍ وَالْمَشِيبُ بِقَابٍ وَغَيْرُ الْغَوَايِي لِلْمَشِيبِ صِعَابٍ
وبحث ضياء الدنيا ضباب، وشراب الهوى سراب، أَتَزَاجُمُ اللَّيْلُ فِي
الْعَابِ هَذَا عَقْلٌ قَدْ غَابَ، أَبْتِغِ مَا يَنْقُصُ بِمَا يَبْقَى صَوَابٌ، إنما الدنيا ضحية
الرِّقَاقِ، حُلُوها مُرُّ الْمَذَاقِ، وَوَضَلُّهَا مَبِيتٌ عَلَى الْفِرَاقِ، أَمَا تَسْمَعُ الظُّلُمُ تَبْكِي
بانتحاب.

إنما الليلُ والنتهارُ مراحِلُ، ومركبُ العمرِ قد قاربَ السَّاحِلُ، فانتبه
لنفسك وانزعج يا غافلُ، فللموتِ وحيٌ ليس فيه كَيْدَاب.

الليلُ راكبٌ مجدُّ، والنهارُ يحثُّ بالجدِّ، وكلاهما يقول لك استعد، غير
أن الأملَ للصبحِ عيد، كأنَّ الذي بعدَ المشيبِ شباب.

كل يوم بعد الأربعين تنزل، أبقي لك بعد المشيب منزل، أَمَا يَكْفِي مِنْ
الوعظِ مَا أَنْزَلَ، كلما دخلنا معك من باب خرجت من باب.

أَتُرَى تَرْضَى مَا مَرَّ مِنْ أَعْمَالِكَ، أَلْخَفَارُ تُؤْخِذُ وَأَنْتَ عَلَى خَالِكَ، أَغَرَمْتَ
أَنْ يَبْقَى وَجْهُ النَّيَّةِ الْخَالِكِ، أَمَا لِهَذَا عِنْدَكَ جَوَاب.

قد قلتُ لو أَنَّ قَوْلًا يَكْفِي، ووعظتُ لو أَنَّ وَعْظًا يَشْفِي، حتى لقد عجبت
العضولُ مِنْ وَضْعِي، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٦١].

الفصل الثاني والعشرون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَزْلَكُهُ
مِنَ السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٢٤]

قال ابن قتيبة: المَثَلُ الشَّيْءُ، يُقَالُ: هَذَا مِثْلُ هَذَا وَمِثْلُهُ، يُقَالُ: شَيْئُهُ وَشِبْهُهُ، ومقصود المَثَلِ أَنَّ الله تعالى هَضَمَهُ لِلدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، فشبَّهها بمطر نزل من السماء فاختلط به نبات الأرض، أي: الثَّغَرُ النبات بالمطر وَتَغَطَّى مما يَأْكُلُ النَّاسُ مِنَ الْخُبُوبِ وغيرها والأنعام مِنَ الْمَرْعَى، حتى إذا تَمَّتْ زِينَةُ الْأَرْضِ أَتَاهَا الْقَضَاءُ بِالْهَلَاكِ، وصارت محصورة لا شيء فيها كَأَنَّ لَمْ تَغَطَّرْ، ومقصود المَثَلِ أَنَّ سَاكِنِ الدُّنْيَا إِذَا جَمَعَ مَالَهُ وَتَمَّ مُرَادُهُ سَلَبَ أَخَذَ الرِّبَيعَيْنِ، إِنَّمَا الْمَالُ عَنِ الْمَالِكِ، أَوِ الْمَالِكُ عَنِ الْمَالِ، وفي وجه الحكمة هي تشبيه الدُّنْيَا بِالمَاءِ عَشْرَةُ أَهْوَالٍ:

أحدها: أَنَّ الْمَاءَ يَجْرِي بِالطَّبْعِ، وَلَا يَسْتَقِرُّ، وكذلك الدنيا لا تستقر.

الثاني: لِأَنَّ الْمَاءَ قَلِيلُهُ يَكْفِي وَكَثِيرُهُ يَهْلِكُ، وكذلك الدنيا قليلها يكفي وكثيرها يلهي.

الثالث: لِأَنَّ الْمَاءَ إِذَا طَالَ خَبُثَ تَغَيَّرَ وَفَسَدَ وَاسْتَحَالَ فِي حَقِّ مُتَنَاقِلِهِ سَقَمًا، وكذلك الدنيا يُلْمِسُ بِهَا بَلَاءٌ وَأَذَى.

الرابع: أَنَّ الْمَاءَ إِذَا أَشْفَى الشَّجَرَ أَبَانَ عَنْ جَوَاهِرِهَا بِإِظْهَارِ قَمَرِهَا، وكذلك الدنيا إذا أمت تبرز جواهر الرجال من كرمهم يَشْهُو ومن كرمهم يَتَحَلَّى.

الخامس: أَنَّ الْمَاءَ سَرَّ عَيْبِ الْأَرْضِ، وَالْمَالُ سَرَّ عَيْبِ الشَّخْصِ.

السادس: أَنَّ الْمَطَرَ لَا يَأْتِي بِخَوَلٍ مُخْتَالٍ، كذلك الدنيا لا تُجْتَلَبُ بِغَيْرِ الْأَلْبَابِ.

السابع: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الْمَطَرِ، وكذلك لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ مَا قَسَمَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا.

الثامن: أَنَّ الرُّزْقَ يَقْسَدُ بِالمَاءِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ، وكذلك القلب يَقْسَدُ بِالمَالِ إِذَا تَكَاثَرَ عَلَيْهِ.

التاسع: أَنَّ المَاءَ يُظْهِرُ الْأَجْسَانَ، كذلك المَالُ يُزِيلُ الْأَوْسَاحَ.

العاشر: أَنَّ المَاءَ إِذَا اجْتَمَعَ سَالَ، وكذلك كَمَالُ الدُّنْيَا إِذَا تَمَّ ذَالَ.

واعلم أَنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ مَفْرَقٌ، وَالنَّاسُ فِيهِ عَلَى طَبَقَاتٍ: قَوْمٌ فِي السُّفْنِ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ، وَقَوْمٌ يَسْبَحُونَ وَهُمْ الْعُقَاةُ، فَتَأْجِ وَهَابُكَ، وَقَوْمٌ خَرَفُوا وَهُمْ الْكُفَّارُ، وَقَوْمٌ عَلَى الشُّطِّ وَهُمْ الرُّقَادُ.

إِخْوَانِي: مَا هَذَا السُّكُونُ إِلَى قَارِ الدَّوَابِّ، وَمَا هَذَا الانْحِرَافُ إِلَى خَرَفِ جُرْفِ هَائِرٍ، أَمَا تَلَمَحْتَ أَبْصَارَ الْبَصَائِرِ مَا إِلَيْهِ الْمَرَّةُ ضَائِرٌ، كَيْفَ أَثَرْتُمْ الرِّذَائِلَ عَلَى التَّفَاجِرِ؟! إِنَّ عَيْنَ اللَّيِّبِ تَنْظُرُ إِلَى الْآخِرِ.

يَا حَرِيصًا عَلَى الدُّنْيَا مَضَى عَمْرُكَ فِي غَيْرِ شَيْءٍ، انْقَضَى غَيْمُ الزَّمَانِ، وَلَكِنَّ لَا عَنَ هَلَالِ الْهَدْيِ، سُمُّ عُقَابِ الْعَذَابِ مُتَفَرِّجٌ فِي لَقَمِ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ يَطِيبُ؟

الدُّنْيَا خَرَابٌ، وَأَخْرَبَ مِنْهَا قَلْبٌ مِنْ يَعْمَرُهَا، يَا هَذَا أَنْتَ مَقِيمٌ فِي مَنَاحِ الرَّاحِلِينَ، وَيَحْكُ قَاغِثُكُمْ أَيَّامَ الْقُدْرَةِ قَبْلَ صَبْحَةِ الْإِتْرَعِاجِ، فَمَا أَقْرَبَ مَا يَنْتَظِرُ، وَأَقْلَى الْمَكْتَبِ فِيمَا يَزُولُ وَيَتَغَيَّرُ.

تَسَاجَرُ قَوْمٌ فِي وَادٍ نَزَلُوهُ، فَإِذَا هَاتِفٌ يَقُولُ: عَلَى رَسْلِكُمْ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ تَلَكَّنِي سَبْعُونَ أَغْوَرَّ كُلُّهُمْ أَسْمَةً غَمْرًا.

كَمْ حَالَفَتِ الدُّنْيَا وَحَلَفْتَ، وَكَمْ وَعَدْتَ أَنْ تَفِي وَمَا وَفَتْ، وَكَمْ تَلَاَفَتْ حَتَّى إِذَا اسْتَمَكَّتْ أَتَلَفْتَ.

[مخلع الرجز]

وَاضْلَلْتُهَا إِذْ وَصَلْتُ ثُمَّ تَجَبُّتُ وَجِئْتُ
ذُكِّرْتُهَا أَهْمَانَا لَأَنْجُرْتُ مَا عَرَلْتُ
لَهُ يَبِي عَلَى تَوَدُّ تَحْدَرْتُ جِبْنِ ضَفْتُ

وَأَخْشِرْتَنِي وَأَتَنَبَّيْتُ عَلَى الْيَالِي سَلَفَتْ
لقد سقت الدنيا أربابها سُخًا، وأبدلتهم من أفراحها قُحًا، وأنايتهم من
مَدَجِهِمْ دُخًا، وقطعت أكيادهم فماتوا عليها غُخًا، فيا مُسْعُولًا بها تواقع غُظًا
مُيْلًا، وإيهاك والأمل، فإن الأمل إمَّا وإثًا، يَبُتًا هي للمالك مثل الأمل، طمست
بصيرته فأَذَاهُ الحُكْمُ، فبقي في حَيْرَةٍ قد غَمَّه الحُكْمُ، فَبَاتَ وأسباب هلاكه
مُحْكَمَةً، أغشاه البُؤَى، فما يقرأ من غير ترجمة، قل لنفسك التي أسست بها
مُعَرَّمَةً، كم ناديت نادِمًا أَلَهْتَ بالمُتَادِمَةِ، حَتَّى سَفَكَتَ بالَمُنَى دَمَهُ، وهبها ملأت
بِالْمُنَى عينه وقمه فمه، إِنَّكَ وَإِنَّمَا ملحمة، إِنَّ العبد الغافل عَنْ دَارِ النُّكْرِ
مُكْرَمَةٌ.

[الوافر]

نَعِدُ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَنَقُشُ لَنَا الْمُنُونُ بِلا قِيَالِ
وَنَحْشِيحُ السَّوَابِقَ مُشْرَنَاتِ وَمَا يُشْجِيحُ مِنْ حَبَابِ اللَّيَالِي
وَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِي الدُّنْيَا قَبِيلَنَا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَسَالِي
تَصِيْبُكَ مِنْ عِيَالِكَ مِنْ حَبِيبِ تَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ عِيَالِ
وَنَحْمُ عَيْنِ مُقْبِلَةِ السَّوَابِقِ عَجِيبُ بِالسَّجَالِ وَالرَّسَالِ
يَذِلُّنْ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمُشِي أَوَاعِرُنَا عَلَى فَنَامِ الْأَوَالِ
يا ثَقِيلَ النُّومِ، يا بعيدَ اليَقَظَةِ، يا سكرانَ الفَهْمِ، أَمَا يَبْتَلِيكَ الْأَذَانُ؟ أَمَا
تُرْهِجُكَ الْحَدَاةُ؟ أَتَرَى تُخَاطَبُ عَجَمًا؟ أَمْ تُكَلِّمُ سُخًّا؟ كم تُرَتِّبُ عِبَ الدُّنْيَا؟
وَلَكِنْ عَيْنُ الْعِيْزَةِ خَوَالِدَ، كم تُحْشِفُ لَكَ عَنْ قِصْرِ الْعُمُرِ؟ وَلَكِنْ عَيْنُ الْأَمَلِ
غَوَالِدَ.

ليس في سرور الدنيا سرور، إنما الدنيا غرور، وماتم إذا فُكِّرْتَ فيها
وقبور، أَمَا تَهْزُجُ التَّوَابِعُ أَهْهَا التَّهْزُورُ؟ أَمَا يوقظك الصُّرِيحُ وَلَا التَّزْمُورُ؟ أَمَا
تُحُلُّ وَقَبِ عود الهلاك مغمور؟ أَمَا كل ساعة عود الحياة مقطوع ومجزور؟ أَمَا
تراهم بين مدفوع وموَكَّور؟ أَمَا الزمان نزع حافرًا فقل للمحفور؟ أَمَا يأنف من
دم الدنيا الملمور؟ أفعالك إذا تأملت ما لا يجوز؟ أين أرباب القصور؟ أين

أصحاب الخروز والكنوز؟ هلك القوم كلهم وضاع المكنوز، وحيز في حضرة البلى مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا يَحْزُونُ، بينما نفرهم الأناة وقعت النواة في الكوز، أين قيصر؟ أين كسرى؟ أين فيروز؟ عربوا عن الأكفان وما كانوا يرضون الخروز، أبرز الموت أوجها ما كانت تختار البيروز، وماوى بين العرب والعجم والنبط والخوز، ونسخ بخسران يوم الرحيل لذات النيروز، وكشف لهم نقاب الدنيا فإذا المعشوقة عجوز، ما رُضِيَتْ إِلَّا قَتْلَهُمْ فدللت النشوز، بينما قد أذاقتهم يرد كانون إذا هم في حر تموز، إنما قصدت غرورهم لتقتلهم في كالوز.

الفصل الثالث والعشرون

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَىٰ ذِكْرِ الْمَلَكِ﴾ [يونس، ٢٥]

روى أسامة بن زيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يومًا وذكر الجنة: ^(١) «أَلَا مُشْمَرٌ» لها، هي وَرَبُّ الْكَعْبَةِ وَبَحَانَةُ تَهْفَرُ، وَتُورُ بِتَلَالَا، وَتَهْفَرُ مُظَرَّةً، وَزَوْجَةٌ لَا تُشَوِّثُ، فِي خُبُورٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٌ أَبَدًا. فَقَالُوا: نَحْنُ الْمُسْمَرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ^(٢).

جملة من في الصحابة اسمه أسامة أربعة: أسامة بن زيد، وأسامة بن أخطري، وأسامة بن شريك، وأسامة بن حنظل. وجملة ما روى ابنُ زيد مائة وثمانية وعشرون حديثًا، أخرج له منها في "الصحيحين" تسعة عشر، المتفق عليه منها خمسة عشر، وانفرد البخاري بحديثين ومسلمٌ بحديثين.

وجملة من يأتي في الحديث يقال له أسامة بن زيد ستة: أحدهم: هذا الصحابي، وكان يقال له: الحُبُّ ابْنُ الحُبِّ، لِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم له ولأبيه.

الثاني: الشَّوْخِيُّ، وروى عنه زيد بن أسلم.

الثالث: اللَّيْثِيُّ، روى عن الزُّهْرِيِّ.

الرابع: الْكَلْبِيُّ، روى عن زُهَيْرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ.

الخامس: الشَّيْزَانِيُّ، روى عن الفضل بن الحُبَابِ.

السادس: أسامة بن زيد بن أسلم، روى عن أبيه.

(١) مشمر للجنة: ساع لها غاية السعي، طالب لها عن صدق وروعة.

(٢) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (١/ ٣١)، رقم (٢٥).

رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنَا عَنْ الْجَنَّةِ، مَا يَنْتَازِعُهَا؟ قَالَ: " لَبَنَةٌ مِنْ دُغَبٍ، وَلَبَنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاحُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحُضْبَاوُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتَرَابُهَا الزُّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَتَعَمَّ لَا يَبْؤُسُ، وَتَحْلُلُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ ^(١) .

رَوَى أَبُو مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَّ فِي الْجَنَّةِ الْغَيْمَةَ مِنْ ذَرَّةٍ مُخَوَّفَةٍ غَرَضُهَا سِتْرُونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ لَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمَلَأِينُ ^(٢) .

رَوَى أَبُو مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " جَنَّاتٌ الْقِرْقَرُوسِي أَرْبَعٌ، بَيْتَانِ مِنْ دُغَبٍ جَلِيَّتُهُمَا وَأَنْبِثُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَبَيْتَانِ مِنْ فِضَّةٍ جَلِيَّتُهُمَا وَأَنْبِثُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ غَرْ وَجَلٌّ إِلَّا وَدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ غَرْ وَجَلٌّ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ ^(٣) .

أَخْرَجَاهُ فِي " الصَّحِيحَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى، جُمْلَةً مَا رَوَى أَبُو مُوسَى ثَلَاثَ مِائَةِ وَسِتُونَ حَدِيثًا، أَخْرَجَ لَهُ مِنْهَا فِي " الصَّحِيحَيْنِ " ثَمَانِيَةَ وَسِتُونَ، الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ مِنْهَا تِسْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ، وَاتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ بِأَرْبَعَةٍ، وَمُسْلِمٌ بِخَمْسَةِ عَشَرَ.

وَوَلَّى أَبُو مُوسَى لَخْمَةَ أَمَةٍ: لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِأَبِي بَكْرٍ، وَلِعِمْرٍ، وَلِعُثْمَانَ، وَخُجَّعَةَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ رَوْحُ بْنُ خَاتِمٍ غِبِلٌ لِلشُّفَّاحِ، وَالْمَنْصُورِ، وَالنَّهَّادِي، وَالْمَهْدِيِّ، وَالرُّشَيْدِي، وَلَا نَعْرِفُ مَنْ غِبِلٌ لِيَحْسِبَ أَنْتَهُ بِوَأَمَّتَا.

وَرَوَى ابْنُ عُثْمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ أَذْنَى أَهْلِي

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢/ ٤٤٥)، رَقْمُ ٩٧٤٦.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَسَاكِرَ (٦٣/ ٣٠٦).

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤/ ٤١٦)، رَقْمُ ١٩٧٤٦، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ (١٠/ ٣٩٨): وَجَّاهَ رِجَالُ الصَّحِيحِ، وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: الدَّارِمِيُّ (٢/ ٤٢٩)، رَقْمُ ٢٨٢٦، وَالْعِطَّائِيُّ (ص ٧٢)، رَقْمُ ٥٢٩، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٧/ ٤٦)، رَقْمُ ٣٤١٠٩، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ (ص ١٩٢)، رَقْمُ ٥٤٥، وَابْنُ حُرَاثَةَ (١/ ١٣٧)، رَقْمُ ٤٤١٢.

الْحَجَّةَ مَثَرَةَ مَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفَيْ سَنَةٍ، يَرَى الْقَضَاءَ حَتَّى يَرَى أَقْبَاءَهُ^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنه^(٢): «الْحَجَّتَانِ سَبْعُ: قَارُ الْجَلَالِ، وَقَارُ السَّلَامِ، وَجَبَّةُ عَذْنٍ، وَجَبَّةُ الْمَأْوَى، وَجَبَّةُ الْخُلْدِ، وَجَبَّةُ الْفِرْقَانِ، وَجَبَّةُ النَّعِيمِ».

أين الزاهدون في هذه الدار، الراغبون في جوار الجبار، وقد بُنيت للمتقين دار ولا كدار، لو رأيتها وقد أُنعت ثمار الأشجار، وتجاوبت على الأفنان فنون الأطياف، وَغُثِّبَ الْعَبِيدَانُ قُرْبَتِ الْقِيَابِ عَلَى سَوَاطِنِ الْأَنْهَارِ، أَتَيْتُهَا بِلَذَّةِ سَاعَةٍ؟ الْمَسْخُ عَقْدُ الْهَوَىٰ مَا دَامَ الْخِيَارُ.

كان آدم عليه السلام يقول لولده: «كُنَّا نَسْلًا مِنْ نَسْلِ الْحَجَّةِ لَسْنَا بِأَنْ يُلَاحَظَ بِالْخَطِيئَةِ، فَلَيْسَ لَنَا فَرْجٌ إِلَّا الْهَمُّ وَالنُّصْبُ حَتَّى نُرَدَّ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أَخْرَجْنَا مِنْهَا، يَا بُنَيَّ ظَالِمٌ وَالْوَحْشِيُّ عَلَى بَلَدِ الدَّارِ، لَوْ رَأَيْتَهَا لَرَفَعْتَ نَفْسَكَ».

[الوافر]

وَأَشْفَقْتُ الْبَارِ وَتَأَمَّلْتُهَا
عَمَّا يَشْفَقُ حَقَّةُ الْعَلِيلِ
وَقَلْبُ بَلَدٍ قَدْ قَامَ ذَلِيلٌ
عَلِيلٌ مَا يُبَلُّ لَهُ عَمِيلٌ
بَكَيْتُ لِهَجْرِهِمْ جَيْتًا وَجَيْتًا
لِبُعْدِهِمْ وَقَدْ أَوَّكَ الرَّجِيلُ
وَلَمْ يَذَرِ الْهَوَىٰ وَالْهَجْرُ دَفْعًا
تَجَادِبُهُ الْمَعَالِمُ وَالظُّلُومُ
وَمِنَّا شَفِيٌّ وَجَدَّ غَزِيرٌ
يُخَاوِلُ قَهْرَهُ ضَبْرٌ كَمِيلٌ
يَجْزِي الرِّيحَ التَّيَّوَرُ اللَّذِي خَيْرًا
قَلْبِي مِنْهَا إِذَا هُبَّتْ رُسُولُ
أَحْمَلَهَا إِلَى جَنِّي سَلَاةً
نُرْدُ بِجَوَابَةِ الرِّيحِ الْقَبُولُ
إِذَا تَحَقَّقَتِ الْمَحَبَّةُ لَمْ يُوَثِّرْ فِيهَا الْهَجْرُ وَلَا يَفْدَحُ فِيهَا اللَّذْبُ، ظَهَرَ أَمْرُ
(يُجِئُهُمْ) يَوْمَ (اسْتَجِدُّوا لَادَمَ)، لَمْ يَفْدَحْ فِي الْوَضَلِ زُلْ (وَعَضَى)، فَإِنْ كَانَ قَدْ
جَرَى أَبْعَادُ (أَهْبَطُوا) مَرَّةً، فَكُنْ بِمَنْزِلِ كُلِّ يَوْمٍ (وَاللَّهُ يَدْعُو).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/ ٥٥٣)، رقم ٣٨٨٠.

(٢) التذكرة ١/ ٥٧٨.

لَمَّا تَمَثَّلُوا خُبٌ عَائِثَةٌ مِنْ قَلْبِ الْمُضْطَلَّى لَمْ يُوَازِرْ فِيهِ قَوْلُ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَلَمَّا ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ أَبَوَيْهَا كَانَ إِذَا مَرَّ بِعَتِّ الْحُبِّ رَسَالَةً * كَيْفَ يَسْتَحْكِمُ؟ *

[البيضا]

وَرُبَّ قَارٍ أَوْلَيْهَا مُجَانِنَةً وَلِي إِلَى الدَّارِ أَظْرَابٌ وَأَشْجَانٌ
إِخْوَانِي، هَذِهِ صِفَةُ الْجَنَّةِ فَأَيْنَ طَلَابُهَا؟ وَسَهْلٌ مَفْرَقًا فَأَيْنَ حُطَّائِهَا؟ إِنَّ
عَزِيزُكُمْ فَالْعَزَمُ بَائِهَا، وَإِبَاعُ الدُّنْيَا هُوَ الْجِبَالُهَا، وَمُجَانِنَةُ النَّفْسِ أَشْبَابُهَا.
إِخْوَانِي، مَنْ أَرَادَهَا فَلْيَعِظْ مِنَ الْهَوَى، فَإِنَّ حَيَاةَ الْقَلْبِ إِثْمَانَةُ النَّفْسِ.

[الطويل]

فَرُونِي أَهْبَ لِلْمُجِدِّ فَرَحٌ فَيَبِينِي فَإِنَّ لَمْ أَبَاوَرَهَا اسْتَبَدَّ بِهَا الْعُسْرُ
قَلَمُ أَوْ هَذَا الْعُسْرُ إِلَّا مَسَاقَةٌ إِذَا مَرَّ يَوْمٌ مَرٍّ مِنْ فَرَجِهَا شَبْرُ
تَنَبَّهُوا يَا بَنِيَّامَ، كَمْ ضَيَّعْتُمْ مِنْ عَامٍ، الدُّنْيَا كُلُّهَا مَنَامٌ، وَأَحْلَى مَا فِيهَا
أَحْلَامٌ، غَيْرَ أَنَّ عَقْلَ الشَّيْخِ بِالْهَوَى عِلَامٌ، عِلَامٌ قَتَلَ النَّفْسَ عِلَامٌ؟ هَلْ هُوَ إِلَّا
ثَوْبٌ وَطَعَامٌ؟ ثُمَّ يَسَاوِي خِزْ وَخَامٌ، وَلِذَلِكَ طَبِيبَاتٌ وَوِخَامٌ، إِنَّمَا يَعْرِفُ الْعُقَلَاءُ
هَذَا لَا الطُّغَامَ، أَوْ لِلْغَاغِلِ كَمْ يُلَامٌ، أَمَّا تَوَقُّظُهُ ضُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ؟ أَيْنَ
سُكَّانُ الْقُصُورِ وَالْخِيَامِ؟ دَارَتْ عَلَى الْكُلِّ كَأْسُ الْجِنَامِ، التَّطَعْنَتُمْ تَطَاعُ الْحَبِّ
الْحَتَامِ، إِلَى مَنْ مَرَّاحَتُهُ الْأَنْعَامُ؟ مَا لِمَخْلُوقٍ فِيهَا دَوَامٌ، سَجَلٌ ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ،
(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)^(١) [الرحمن: ٢٧]، رَدُّوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ
بِزَمَامٍ، أَزْجَرُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ عَنِ الْأَثَامِ، تَذَكَّرُوا مَا حَوَتْ بِهِ الْأَفْئَامَ، اقْرَءُوا
صَحَائِفَ الْعِزِّ بِالسَّنَةِ الْأَفْهَامِ، مَوْتَ الْحَيَرَانِ شَخْلٌ وَأَخِذَ الْأَقْرَانِ إِغْتِمَامٌ، يَا
مَنْ أَجَلُهُ عَقْلُهُ وَأَمَلُهُ قَدَامٌ، رَبُّ يَوْمٍ لَهُ مِفْتَاحُ مَا لَهُ خَتَامٌ، يَا مِفْتَاحَنَا عَلَى

(١) قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحْدَهُ: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ) بِالْوَاوِ وَكَذَلِكَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالشَّامِ .

وَكُلُّهُمْ قَرَأَ: (ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) بِالْيَاءِ، وَكَذَلِكَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ .
مَنْ قَالَ: (ذِي) فَجَزَّ جَعَلَهُ صِفَةً لِرَبِّكَ، وَزَعَمُوا أَنَّ فِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَيَبْقَى وَجْهُ
رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ) بِالْيَاءِ فِي كِلْتُمَا، (انظر: الحجة للقراء السبعة ١٦٦/٦) .

الحرام أي الاحتكام، ستعلم مَنْ يَكِي في العَفَى عَفَى الإجماع، ويشارك الثَّنَامِي على الثَّنَامِي والثَّدَام، يا طويل المرض متى يبرئ السقام، يا من إذا قعد في هم الدنيا وكذا إن قام، أول الدنيا هم وآخرها موت زُؤَام، أحل لها الفِرَاقَ وَحَرَّمَ عليها الدَّوَام، تُعَاهِد ولا تُفِي ما لها مِنْ دَمَام، نورها مستعار والأصلُ فيها ظلام، سَخَابُهَا لا يُمَطِّر وَسَمَادُهَا قُتَام، كلها عيبٌ في عيبٍ وَقَامٌ في قَام، أَتَعَيَّبُهَا عند نُحَيْبِهَا، متى يسمع العدلُ مُسْتَهَام، خَلَّهَا وأخرج عنها بسلام إلى دار السلام، فالجنة رخيصة ثم ما تغلوا على مُسْتَهَام، فخلها إليك نصيحة من طيب يدوي الأسقام، يضع مواضع الثُّقُب ويعرف أضلّ الآلام، يركب المراهم عن خَيْرٍ ويُدير كيف ما شاء الكلام، ما بُعِدَ هذا نصيحةً، يُكْفِي هذا والسلام.

الفصل الرابع والعشرون

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِكَ أُوتِيَتْهُ أَلَّهُ لَا يَخُوفُ عَلَيْهِمْ

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٢) [يونس: ٦٢]

رَوَى ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله! مَنْ أولياء الله؟ قال: «الَّذِينَ إِذَا دُعُوا ذَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى» (١).

قال وَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: (لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ، قَالَ: لَا يُحْسِنُ تَكَلُّمًا وَبَيِّنَةً، وَلَا مَا سُتِعَ بِهِ، فَاتَّهَا زَهْرَةُ الْحَيَاءِ الدُّنْيَا وَزِينَةُ الْمُتَرَفِّينَ، وَإِنِّي لَوْ شِئْتُ أَنْ أُزَيِّنَ لَكُمَا بَرِيَّةً يَعْلَمُ فِرْعَوْنُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَنَّ مُقْبِلَةً تَعْجِزُ عَنْ مِثْلِ مَا أُوتِيَتْمَا فَعَلَتْ، وَلَكِنِّي أَرْغَبُ بِكُمَا عَنْ ذَلِكَ وَأَرْوِيهِ عَنْكُمَا، وَكَذَلِكَ أَفْعَلُ بِأَوْلِيَائِي، وَقَدِيمًا مَا جَرَتْ لَهُمْ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، لِأَنِّي أَفُودُهُمْ عَنْ نَعِيمِهَا كَمَا يَذُودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ عَنْ مَرَاتِعِ الْهَلَكَةِ، وَإِنِّي لَا أُجَبِّئُهُمْ سُكُونَهَا كَمَا يُجَبِّبُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبِلَهُ عَنْ مَبَارِكِ الْعَرَةِ، وَمَا ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيَّ، وَلَكِنْ لِيَسْتَكْمِلُوا نَصِيحًا مِنْ كَرَامَتِي سَالِمًا مَوْفِرًا، لَمْ يَكَلِّمْهُمْ الطَّمَعُ، وَلَمْ تَعْظُمِ الدُّنْيَا بِغُرُورِهَا، إِنَّمَا يَتَزَيَّنُ لِي أَوْلِيَائِي بِالذَّلِّ، وَالْخُشُوعِ، وَالْخَوْفِ، وَالتَّقْوَى، فَإِذَا لَقِيْتَهُمْ فَاخْفَضَ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَذَلَّلَ لَهُمْ قَلْبَكَ وَلِسَانَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا أَوْ أَخَافَهُ فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمَحَارَبَةِ، وَأَنَا أَسْرِعُ شَيْءً إِلَى نَصْرَةِ أَوْلِيَائِي).

وقال وَهَبُ: (قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: يَا عِيسَى! مَنْ أَوْلِيَاءُ الدُّوَا؟ قَالَ: الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرُوا النَّاسَ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَالَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى أَجَلِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرُوا النَّاسَ إِلَى عَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا مَا خَشُوا أَنْ يَمِيتَهُمْ، وَتَرَكُوا مَا

(١) ذكره الحكيم (١/ ٨٠)، وأخرجه أيضًا: ابن المبارك (١/ ٧٢)، رقم (٢٦٨).

علموا أن سيتركهم، فصار استنثارهم منها استقلالاً، وفرحهم بما أصابوا منها حزناً، خَلَقَتِ الدُّنْيَا عَنْدهم فليسوا يُجَدِّدُونَهَا، وخربت بلبهم فليسوا يعمرونها، فهدموها فيبتون بها آخرتهم، ويبيعونها ويشترون بها ما يبقى لهم، رفضوها فكانوا يرفضها فرحين، وباعوها فكانوا يبيعها رابحين، ونظروا إلى أهلها ضارعي، قد خَلَّتْ لَهُمُ الْمَثَلَاتُ فَأَخْبَرُوا ذَكَرَ المَوْتِ وَأَمَاتُوا ذَكَرَ الْحَيَاةِ.

أوحى الله عَزَّ وَجَلَّ إلى داود عليه السلام في صفة أوليائه: (يا داود؛ بَطِئِي ضُحُوا، وَبَطِئِي فَاخُوا، وَبَوَّجِدِي بَاخُوا، وَعَلَى قُرْبَى نَاخُوا، وَمِنْ أَجْلِي صَاخُوا، وَإِلَى غَدَا وَزَاخُوا).

إخواني؛ يقول الله عز وجل: (وَعِزَّتِي وَجَلَالِي؛ لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلَا أَمْنَيْنِ، مَنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَثَقَّتْهُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفَّتْهُ فِي الْآخِرَةِ).

لَمَّا مَرَّتْ أَعْمَارُ الْأَوْلِيَاءِ مُتَنَهِنَةً بِأَثْقَتِ الْخَوْفِ وَالْحَزَنِ تَلْقَاهُمْ فِي الْقِيَامَةِ بَشِيرٌ: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]

كان الربيع بن خيثم طويل النكاه والشهر، فقالت له أمه: يا بُنَيَّ؛ أَلَا تَنَامُ؟ فقال: يا أُمِّاهُ؛ مَنْ جُرَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَهُوَ يَخَافُ النَّبَاتِ حَتَّى لَهْ أَنْ لَا يَنَامَ. فقالت: يا بُنَيَّ؛ لَعَلَّكَ قَتَلْتَ قَتِيلًا. فقال: نعم؛ قَتَلْتُ نَفْسِي.

وكان أُمَيَّةُ الشَّامِيُّ يَتَجَوَّبُ فِي الْمَسْجِدِ، فَيَقْلُو حُضُوَّتَهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْأَمِيرُ؛ إِنَّكَ تَقْسِدُ عَلَى الْمُضَلِّينَ ضَلَاتَهُمْ بِكَثْرَةِ نِكَاحِكَ، فَنَكَحْنِي، وقال: إِنَّ حُزْنَ الْقِيَامَةِ أَوْزَعَنِي دُمُوعًا غِزَارًا، فَأَنَا أَسْتَفْرِخُ إِلَى ذُرْفِهَا أَخِيَانًا.

وقيل ليزيد بن مرثد: ما لِعَيْنِكَ لَا تَحْجُفُ؟ فقال: والده؛ لو تَوَاعَدَنِي أَنْ يَحْبِسَنِي فِي الْحِمَامِ لَكُنْتُ حَرِيًّا أَنْ لَا تَحْجُفَ لِي عَجْرَةً، فكيف وقد تَوَاعَدَنِي بِالثَّوَرِ.

وكان عُثْمَانُ بْنُ الشُّكَيْدِ كَثِيرَ النِّكَاهِ، وَلَا يَنَامُ اللَّيْلَ، لَقَوِيَّتِ فِي ذَلِكَ، فقال: آيَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَبْكَتُنِي: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنكُمْ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُوا جُنُودًا﴾ [الزمر: ٤٧].

[الرمل]

رَجَعَ الْعَادِلُ عَلَى آيَسَا مِنْ مُلَاوِي فَبَحَثُوا أَنْ يُقْلِبُوا

لَوْ دَرَى لَا حَمَلَتْ نَاقِئَةً وَخَلَقَهُ فِيمَنْ لَحَائِبٍ مَا لَحَا
قَدْ شَرِبْنَا الضَّبْرَ فِيمَنْ مَشْرَحًا وَشَرِبْتُ الشَّقْمَ فِيمَنْ مُشِيحًا
فَأَيْفُتُ الْهَمِّ مِنْ بَغْدِجْكُمْ لَحَائِبِي مَا غَرَنْتُ الْفَرْخَا
امتطى القومُ مطايا الرجاء على مركب الشهر، فَمَاحَلُوا وَلَا خَلُوا عَنْ
زَحْلِهِمْ حَتَّى الشَّخَرِ، دَرَسُوا الْقُرْآنَ فَعَرَسُوا بِأَيْدِي الْفَكْرِ أَزْكَى الشَّجَرِ، وَمَالُوا
عَلَى النُّفُوسِ بِاللُّومِ فَلَا تَسْأَلُ عَمَّا شَجَرَ، رَجِعُوا إِلَى سَفَرِ الْقَبُولِ مِنْ ذَلِكَ
الشَّخَرِ، وَوَقَعُوا عَلَى كَثَرِ النِّجَاحِ وَمَا بِهَذَا خَيْرٌ، فَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ قَدَّمُوا طَعَامَ
الْجُوعِ وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي قَدْ خَضِرَ.

[الطويل]

وَزَكَبَ سَرَوْا وَاللَّيْلُ مُلْقِي رَوَاقَةٍ عَلَى قُلِّ مُعْبِرِ الْمُتَقَالِعِ قَائِمِ
حَدُّوا عَزَمَاتٍ ضَاعَبِ الْأَرْضِ بَيْنَهَا فَضَارَ سَرَاهُمْ فِي ظُهُورِ الْعَرَائِمِ
ثَرِيهِمْ نُجُومُ اللَّيْلِ مَا يَبْتَسُّونَهُ عَلَى غَائِبِي الشُّغْرِى وَغَامِ الثُّغَائِمِ

الفصل الخامس والعشرون

في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّوْا لَقَدْ مَاتَ كَرِيمٌ تَأَلَّوْا تَعَالَى﴾

عَلَيْكَ [يوسف: 91]

إخواني الدنيا دار مُرْقَرَّةٌ، في جزع لذاتها شرقية، العيش فيها في غيـ
حرقة، والمساقر عنها مُتَزَوِّدَةٌ بِخُرْقَةٍ، كم ألمت بالفراق، وكم عذبت مشتاق، لا
يطيب فيها عيشٌ، ولا يُنصر فيها على الهموم جيشٌ، سكون ألفتها عينُ
الطُّيْشِيِّ، عاش فيها آدمُ بآكِيَا، وأقام نوحُ نَائِيحًا، وصار داودُ نَادِيًا، وَبَاتَ
يعقوبُ للحبيبِ مُفَارِقًا.

[الخفيف]

لَوْ لَمْ يَلِدْ بِالْفَقْدِ نُؤَادٌ لَمْ يَلِدْ عَلَمٌ مُرْقَرَّةُ الْأَحْسَابِ
لَنَا حَقًّا تَقِيُّ ضَفَادِ الْخَدِيدِ فِي تَقِي أَسْرَارِ إِخْوَةِ يَوْسُفَ، أُعْرِبَ الْأَلْسَةُ
عن مضمرات القلوب بعبارة: ﴿إِنَّ أَتَانَا لَمِنْ حَكْلٍ﴾ [يوسف: 8]، فَأُورِي
المظلومُ مَالِ الطَّالِبِينَ فِي مِرَاةٍ: ﴿إِنِّي نَأَيْتُ أَمَدَ عَشْرِ كَوَاكِبٍ﴾ [يوسف: 4]،
فخلأ به يعقوبُ في بيتِ الْحَلْدِ، يثلو عليه سورة: ﴿لَا تَقْصُصْ رُتَبَهُ عَلَى
إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: 5]، فَخَامَ إِخْوَتُهُ حَوْلَ حَلْوِ الْحِلَّةِ، وَشَجَعَهُمْ شَجَاعُ الْخَدِيدِ
بِضْمَانٍ: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ يَدِي﴾ [يوسف: 9]، فانعكس مقصودهم وهوى
هواهم؛ لأنهم أبعدوا أخاهم ليقبلوا أباهم فأباهم، فأقبلوا بحالون على يعقوب
بما تَنَشَّى بِحُكْتٍ: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ﴾ [يوسف: 11]، وَشَوُّقُوا يَوْسُفَ إِلَى رِيَاضِ
(ترتج)، فتلقى متلقى حوى جواب يعقوب (إني أخاف)، فتلقت عذراء الخطيئة
هذا العذر، فلما أضجروا أظهروا التفتُّ لَهُ، وَزَمُوا بِهِمُ الْعُدْوَانَ مُقْتَلَةً،
فَعَادَتْ فِيهِمُ الْمَقْتَلَةُ، فَتَسَخَّ نَهَارٌ وَفَلَيْهِمْ بِهِ لَيْلٌ انْتَهَارَهُمْ لَهُ، فَصَاحَ يَهُودًا مِنْ
وَرَاءِ شَفِيِّ الشُّفْقَةِ وَأَغْبَاشِ غَايَةِ الْحُبِّ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يَوْسُفَ وَأَقْتُلُوا فِي غَيْبَتِ الْحُبِّ﴾

[يوسف: ١٠]، فَلَمَّا رَمَوْهُ، وَقَالُوا: هَٰذَا هَٰذَا، جَاءَ مِنْ عِنْدِ مَنْ مَلَكَ مَلَكَ يَقُولُ: سَتَجِدُنِي أَمْلِكُ، فَعَادُوا عِثْرًا عَادُوا، يَمْشُونَ فِي ظِلَامِ الظُّلَمِ كَالْأَعْمَى فِي حَاطَبٍ حَبِيطٍ عَشْوَاءَ (عِشَاءٌ يَبْكُونَ)، وَلَطَفُوا قَبِيضَةَ الصَّحِيحِ (بَدَمٍ كَذِيبٍ)، فَلَاخَتْ بِسَلَامَةِ الثَّوبِ كَيْ يَظْهَرَ كَيْدُهُمْ، فَقَالَ حَكِيمُ الْفِرَاسَةِ: (بَلِّ سَوَّلْتُ).

[الكامل]

رَاحُوا فَرَاحَتْ رَاحَتِي مِنْ رَاحَتِي جَفَرًا وَأَمْسَى ذَقَرُهُمْ لِي رَاحَا فَتَحُوا عَلَى قُلُوبِي الْهَيْسُومَ وَأَعْلَفُوا بَابَ الشُّرُورِ وَضَيَعُوا الْوَيْفَاحَا فَلَمَّا وَرَدَ الشَّيَارَةُ فَرَقَا تِلْكَ الدَّرَّةَ، صَدَفَ بِهَا الْإِخْوَةُ مِنْ يَدِهِ إِلَى صَدَفٍ: ﴿وَأَمْسَى يَهْنَدُ﴾ [يوسف: ١٩]، فَاشْتَرَاهُ الشَّيَارَةُ مِنْهُمْ بِأَقْلٍ ثَمَنٍ، (وَقَاتَلُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)، وَلَا يَعْرِفُونَ الْبَيْعَ لِمَنْ، فَتَقَرَّرَ فِيهِ عَزِيزٌ بِضَرٍّ فَأَجْلَسَتْهُ عَلَى كُرْسِيٍّ ﴿أَحْضَرِي مَثْوًى﴾ [يوسف: ٢١]، لَمَرَاتِ أَزْلِيخَا رَوَاةً، فَشَغَفَهَا وَفَرَّ (فَرَاوَدَتْهُ)، فَأَرَادَتْ هَوَاها نِيرَانِ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُ﴾ [يوسف: ٢٤]، فَحَمِي حَمِي، ﴿وَقَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، فَرَامَ ثُمَّ قَعَدَ بَعْدَ أَنْ قَامَ، ثُمَّ أَخَذَ مَا طَلَبَ حِلَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَجِدُ لَهُ، فَحَلَّ بِضَامِ الْعِصْمَةِ، فَهَضَمَتْ يَدَ الْعَنَاءِ الرَّبَائِيَّةَ، فَحَكَّتْ مَا جَرَى، فَهَضَمَتْ نِيرَانُ الْهَوَى، وَقَوِي وَهَجَهَا، فَضَبَّ عَلَى ضَبَابِئِهَا ضَبَابَةً ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ لَرَاكُ﴾ [يوسف: ٢٥]، ﴿لَوْلَا أَنْ رَمَا بُعِثَ رَوْيُ﴾ [يوسف: ٢٤]، فَجَدَّ جَوَادَهُ فِي جَوَادٍ ﴿وَأَسْتَبَقَا الْكَلْبَ﴾ [يوسف: ٢٥]، فَانْبَسَطَتْ يَدُ الْعُذْرَانِ وَامْتَدَّتْ (فَقَدَّتْ)، فَلَمَّا بَانَتِ حُجَّتُهُ فِي إِيَّانٍ ﴿وَوَشَّهَدَ كَاهِدُ﴾ [يوسف: ٢٦]، أَخَذَتْ تُرْبَتِي مُضْرَاةَ الْإِصْرَارِ عَلَى حَرَامٍ مَا رَامَتْ بِمِمينَ بِمِمينَ ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَقْعَلْ﴾ [يوسف: ٣٢]، فَاخْتَارَتْ دَرَّةَ فَهَمِهِ صَدَفَ الْحَبْسِ لِحَبْلِي النَّاغِدِ، ﴿رَبِّ أَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، وَكَانَ يَوَاسِي الْمَسْجُونِينَ لِيُفَسِّرَ أَفَاوِيلَهُمْ، فَيَعْبُرُ تَأْوِيلَهُمْ، وَيُعْزِي خَزِينَتَهُمْ، فَيَمُودُ التَّرَضَى بِالْمَرْضَاءِ حِينَ يَمُودُفُهُمْ، فَلَمَّا ضَاقَ قَلْبُ السُّجْنِ عَلَى بَلْبِلِ الطَّبْعِ، تَرْتَمَ بِصَوْبِ ﴿أَنْصَحْرِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، فَمُوقِبَ بِإِيثَاقِي بِأَبِي عَلَيْهِ، ﴿فَلَيْتَ لِي أَلَيْخِي وَنَحْ سِيخِي﴾ [يوسف: ٤٢]، فَلَمَّا جَارَ عَقَبَةَ الْعُقُورِ فَرَأَى الْمَلِكُ فِي

صحيفة متايه ﴿إِنَّ أَوَّلَ سَبْعٍ يَفْرَيْنَ﴾ [يوسف: ٤٣]، فَبَنَى جَوَابَ جَوَابٍ قِتَاءَ قِتَاءَ فِي تَحْيَرٍ ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُمْ﴾ [يوسف: ٤٥] بَطْلِيَّةِ الْمَلِكِ، فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ سِجْنِ التَّهْمَةِ حَتَّى سَطَرَتْ بِرَأْمِهِ فِي مَشْهُورٍ: ﴿لَقَدْ خَصَصَ الْخَلْقُ﴾ [يوسف: ٥١]، فَخَرَجَ مِنْ هَيْبِ الْحَبْسِ إِلَى سَعَةِ: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِينَ﴾ [يوسف: ٥٥].

هذا ويعقوب مقيم في بيت الحزن، يتقلب على فراش الأمل ووسادة الفلق، لا يستلذ نومًا ولا سينة ثمانين سنة، حتى تُجِلَّ الْبِدَنُ وَتَذَهَبَ الْبُخْرُ. [البيط]

لَمْ يَمُتْ يَغْدُكُمُ زَمَنٌ وَلَا ظِلٌّ إِلَّا وَلَيْلُكُمُ فِي أَرْجَائِهِ عَمَلٌ
بِئْسَ مَا أَوْحَشْتُمُ الدُّنْيَا بِغَدُكُمُ فَالْيَوْمَ لَا عَوْنُ عَشْكَمُ وَلَا يَدٌ
عَمَلْتُكُمْ عَلَى ضَعْفِي بِفَرْقِكُمْ مَا لَيْسَ بِحِمْلَةٍ سَهْلٍ وَلَا جَبَلٍ
إِذَا شِئْتُمْ تَسِيْمًا مِنْ بِلَادِكُمْ فَقَدْ كَفَّ عَقْلِي عَمَّا نِيَّ شَارِبٌ تَمِلُ
فَلَمَّا عَمَرَ عَمُ الْقَطِطُ أَرْضَ كَنْعَانَ خَرَجَ إِخْوَتُهُ لَطْلُبِ الْمِيرَةِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ
فِي غَلَامٍ ظَلَمَهُمْ، فَأَرَامَ الْمَقْلُومَ بِمِرٍ بِصِيرَتِهِ (لَقَبْتُهُمْ)، وَخَفِيَ عَلَيْهِمْ نَمَتُهُ،
فَأَقْبَلُوا عَلَى يَوْسُفَ ﴿فَرَفَعَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُكْرَمُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]، فَأَقْبَلُ عَلَيْهِمْ
سَائِلًا، وَأَقْبَلُ الدَّمْعُ سَائِلًا، وَتَقَلَّلُ تَقَلَّلُ الْوَاجِدِ لِيَسْمَعَ خَيْرَ الْوَالِدِ.

[البيط]

إِذَا أَحَابِيكَ نَعْمَانٍ وَسَائِحَتِهِ إِذَا الْحَدِيثُ عَنِ الْأَخْيَابِ أَسْمَارُ
أَسْتَفِيقُ الرِّيحِ عَشْكَمُ قُلْمًا نَقِصَتْ مِنْ نَحْمِ أَرْضِكُمْ نَحْبَاءُ بِفِطَارُ
لَقَالَ الْقَوْمُ: جِئْنَا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَلَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ يُقَالُ لَهُ: يَعْقُوبُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَهُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ التَّامَ، فَلَمَّا سَمِعَ رِسَالَةَ أَبِيهِ انْقَضَ طَائِرُ الْوَجْدِ
لِذِكْرِ الْمَحْبُوبِ.

[الطويل]

وَقَاعٌ دَعَى إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى فَهَبَّجَ أَحْزَانُ الْقُلُودِ وَلَمْ يَذْرِ

فَعَا بِأَسْمِ لَيْلَى حَبْرَهَا لِحَاكُمَا أَهَارَ بِلَيْلَى ظَاهِرًا كَانًا فِي ضَرْبِ قَرَّةِ السَّلَامِ قُبْلَةَ قَيْلٍ لَسَانِي، وَشَعْلَةً وَكُفَّ شَأْيِي عَنْ شَأْيِي، وَقَالَ مَقُولُ بِإِذَانِهِ بِعَادَةِ صَفَاتِهِ.

[424]

تُخَيِّدُ نَفْسِي يَا رَيْحَ مِنْ جَانِبِ الْحَيَى
 قَدْ بَدَاكَ الْحَيَّ إِلَهاً عَهْدُهُ
 وَلَوْلَا نَدَاؤُ الْقَلْبِ مِنْ أَلَمِ الْجَوَى
 وَبَا ضَاحِكِي الْيَوْمِ عَوَّجًا لِنَسْأَلَا
 عَنِ الْحَيِّ بِالْجَرَّعَاءِ جَرَّعَاءِ مَا لَكَ
 شَمْسَتْ بِتَجْدِيدِ شَيْخَةِ خَاجِرَتِهِ
 وَكُنُزَتْ بِهَا رَمَا الْخَبِيبِ عَلَى النَّوَى
 وَأَنْتَ لِمَجْلُوبٍ لِي الشُّوقُ قُلُومًا
 فَغَرَضُ رُؤْسِ الشُّوقِ وَالرَّغَبِ هَاجِدُ

ثم إن يوسف طلب منهم أحاسنهم، فامتنع بحجة ﴿يَتَّبِعْ مَا الْكَلْبُ﴾ [يوسف: ٦٣]، فأصبحت سفينة العناب بهم تُخْرِجُ بِهِمْ لِتُخْرِجَهُمْ فِي بَحْرِ ﴿قُلْ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ﴾ [يوسف: ٦٤]، فَلَمَّا حَمَلُوهُ إِلَيْهِ حَالٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِحِيلَةٍ ﴿حَتَّىٰ﴾ ﴿اَلْكَافَّةَ﴾ [يوسف: ٧٠]، فَلَمَّا دَخَلَ وَقَفْتُ عَلَى الْمَدِينَةِ ﴿أَلَا مَوْدِدٌ﴾ [يوسف: ٧٠]، فَأَبْرَزَ غُرُوسَ أَحْيَالِهِ بِدَمْعِهَا وَصَافٍ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعَيْنَيْهَا﴾ [يوسف: ٧٦]، وهي تعقب أعقابهم في كنف ﴿ثُمَّ لَنَسْخُجَنَّ﴾ [يوسف: ٧٦]، فَلَمَّا عَاثُوا إِلَى أَبِيهِمْ يَشْجُوا عَلَى شَجَى، وَخَرَجَ عَلَى خَرَجٍ، وَغَطَّى عَلَى غَطًى، كابدت أبدي الأسى إذ عسى بلفظ ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمْعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، ثم بَعَثَ لُفُفٌ ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، فبعثهم برسالة ﴿فَتَكُونُوا﴾ [يوسف: ٨٧]، فَلَمَّا وَجِعُوا دَخَلُوا مِنْ قُبْرِ الْفَقْرِ، فَاسْتَلْقَوْا فِي سَاحَةِ الظُّرِّ كَادُونَ مِنْ قَلِيلٍ حَالِلِ الظُّرِّ فَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا، ثَالِثُ لَقْدَ جَوِزَتْ أَيْدِ مَدْعَا تَعْشُرُ

بِعِزِّ يَوْمٍ ذُو عِلَّةٍ إِنْ مَدَّتْ فِي طَرِيقِ ذُلٍّ ﴿وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]، فَكُنْثَ
 سِيفِ الشَّرِّ بِيَدٍ ﴿قُلْ عَلَيْنُمْ﴾ [يوسف: ٨٩]، فَأَنْقَضَ عَيْنُ كِبَرِهِمْ بِشِتَالِ ذُلِّهِمْ
 فَلَاحَ جِلَالِ يُوسُفَهِمْ، فَقَامُوا إِلَى عُرُفَاتِ عِرْقَابِهِمْ بِمَادُون: ﴿لَوْلَاكَ لَأَنْتَ
 يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]، فَأَجَابَ عَنْ ضَمِيمٍ شَاكِرٍ بِعِبَارَةِ مُؤَلَّبٍ: ﴿أَنَا يُوسُفُ
 وَهَكَذَا أَجِبُ﴾ [يوسف: ٩٠]، فَاعْتَرَفُوا بِمَا اقْتَرَفُوا، وَغَرَفُوا مَا أَسْرَفُوا، وَلَمَّا
 انْصَفُوا انْصَفُوا، فَكَانَتْ جَمَلَةٌ مَا وَصَفُوا ﴿نَاثِقُونَ لَقَدْ كَذَبْتَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾
 [يوسف: ٩١]، فَلَمَّا طَلَعَتْ شَمْسُ الْعَفْوِ فِي لَيْلِكَ ﴿لَا تَلْوِي عَلَى كُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]،
 خَفِيَتْ كَوَاكِبُ عَنَابِ ﴿قُلْ عَلَيْنُمْ﴾ [يوسف: ٨٩]، فَرَفَعَ
 يَوْسُفُ مِنْ مَوَادِدِ تِلْكَ الْفَوَائِدِ تَصِيبَ الْوَالِدِ ﴿الَّذِينَ بَوَّاهُم بِبَيْنٍ﴾ [يوسف: ٩٣]،
 فَهَبَّتْ نَسَائِمُ الْفَرَجِ، فَتَوَقَّلَتْ فِي غِيَابِهِمْ مَرِيضُ كَالْفَرَسِ مِنْ قَرَجِ الْفَرَجِ،
 فَخَرَّ رِقَامُ الرِّقَامِ عَنْ بَشَرِ الطَّرِيقِ، فَتَنَادَى عَلِيلُ السُّوقِ عَنْ غَلِيلِ الْوَجْدِ ﴿إِنِّي
 لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤]،

تَلَذَّذْتُكَ إِلَهًا يَا نَسِيمُ مَا قَمَلْتُ بِغَدَا الرُّسُومِ
 قُلْ اسْتَهْلَتْ بِهَا الْعَوَاذِي وَتَمَلَّتْ زَوْجَهَا الْغُيُومِ
 غَلَّلَ بِزَوْجِ الْوَضَائِي صَبَا أَنْفَاسُهُ بِالْجَوَى سُومِ
 وَهَلْ بِهَا مَنْ عَهْدَتْ فِيهَا بَعْدَ عَلَى غَهْدِ مُقِيمِ
 أَحْبَابُنَا تَقْطِيعِي اللَّيَالِي وَلَيْسَ بِمَقْطِيعِ لَنَا غَرِيمِ
 فَانِكَ اللَّيْبَعُ الَّذِي عَهْدْتُمْ بَعْدَ عَلَى خَالِهِ مُقِيمِ
 لَمْ تَجْرِ ذِكْرُ الْفِرَاقِ إِلَّا حَزَنٌ عَمَّا خَلَّتِ الرُّؤُومِ
 فَلَمَّا كَشَفَ بِمَقْبُوبِ قَدَامِ الْوَجْدِ بِخَفِّ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ [يوسف: ٩٤]،

أَحْدَقْتُ بِهِ حَوَازِلَ (نَفَثًا)، فَحَارَزْتُهُمْ مُحَارَبَتُهُمْ فَحَارَزَ بِهِمْ سِلَاحَ ﴿وَأَلْقَى مِنْ يَدِهِ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، بِاللُّوْلُو وَجَدُوا مَا وَجَدَ مَا أَنْكَرُوا مَا عَرَفُوا.

[مجزوء الرجز]

قُلْ لَكُنَّا مِنْ عِلْمٍ بِالْطَّلَاقِ الْمُسْلِمِ
 نَرَى عَلَى الدُّنْيَا جِي نَرَى أَجْيِدَ النُّجُومِ

يَسْأَلُنِي نَجْدًا غَرَضًا مِنْ شَجَرٍ وَبَشَرٍ هُمْ
فَلَمَّا نَفَسَا نَهْلًا وَلَمَّا سَمِعَ مِنْ لَيْلِي النَّمْلَ
خُذْ يَا نَبِيَّيْنِ غَنًى نَجِيَّتِي وَغَنَّتِي
وَهَاتِهِمْ بِرُوحِيهِمْ مِنَ الْغَرَى وَغَدِي
قَالُوا غَرَضَتْ أَرْضُنَا أَفْجَرُهَا بِرُغْبِي
قَدْ وَضَعْتَ إِلَى الْخَيْسِ رُسُلَهُمْ بِسُفْهِى
فَلَمَّا نَدَغَ وَأَيْقَطَهُ بَيْنَ دُبِي وَالْخَبِي
سَأَى النُّحُولُ بَيْنَنَا تَغْرُلَنَا بِالنَّوْمِ
جِيظَ هِلَالُ لَيْلِنَا قَارِهِمْ وَجَسَّي
عُجَّ ثَرْنَا رُسُومُنَا ثَلَاثَةً فِي رَشْمِ
فَلَمَّا هَبَّ سَيْمٌ شَمَالِ جَمْعِ الشَّمْلِ، لَزِقَ فَرَقَ شُحْبُ الْفِرَاقِ، فَأُلْشِعَ لَحْمُ
الْعَنَى فَارْتَدَّ بَصِيرًا، فَعَاثَهُمْ بِأَنَّهُمْ ﴿إِنَّمَا اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ [يوسف: ٩٦]، فَلَجَأُوا
مِنْ ضَرِيعِ نُوْبِيهِمْ إِلَى ضَرِيعِ ﴿يَقَالُوا اسْتَفْتَوْا لَنَا نُونًا﴾ [يوسف: ٩٧]،
فَأَخْرَجَهُمْ إِلَى سَيْفٍ سَوِّفَ لِيَعْمَلَ سَيْفُ الْأَسْبِ فِي سَوَالِهِمْ، فَلَمَّا مَرُّوا إِلَى
يُوسُفَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، قَبَانِ وَغَدُ ﴿وَكَذَلِكَ يَجْعَلُكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٩٨]، فِي
نَهْلٍ ﴿هَذَا تَأْوِيلُ نَبِيِّنِ مِنْ قَبْلٍ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فَلَمَّا رَأَى يُوسُفَ بَدَأَ الثَّغَامَ
قَدْ تَمَّ مُشْرِقًا مَشْرِقًا عَلَى ذَارِ الْغُرُورِ خَلِدًا عَلَى تَمِيمَةِ تَيْمَتِهِ مِنْ كَلَفِ الْمَحَاقِ،
فَالْحَنَنُ الْإِذْلَاجُ فِي لَيْلِي الْبَيْضِ، وَسَأَلَ الْفُوزَ مِنْ مَقَارِزَاتِ الْأَهَابِ يَقُولُ مَقُولِ
إِنْدَاهِ ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَارْتَضِ بِرَحْمَتِهِ﴾ [يوسف: ١٠١].

الفصل السادس والعشرون

في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَلْهَىٰ يُرِيكُمْ أَلْفُكُمْ حَوْكًا
وَلَطَمًا﴾ (الرعد: ١٣)

البوق: أَمْرُ ضَرْبِ الْمَلِكِ لِلشَّحَابِ، وَالرَّعْدُ صَوْتُ الْمَلِكِ إِذَا رَجَرَ
الشَّحَابُ خَوْفًا لِلْمَسَافِرِ لِأَنَّهُ يَحْدِلُ أَذَاءً، وَلَطَمًا لِلزَّارِعِ لِأَنَّهُ يَرْجُو نَفْعَهُ، وَكَانَ
الرَّيْبُ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ لَهَىٰ عَنْ حُدُوثِهِ، وَقَالَ: وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ.

سَبَّاحًا مَنْ ذَلَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَىٰ عِزِّيهِ، وَتَضَبَّ عَلَّمَ الْهَذَىٰ عَلَىٰ بَابِ حُجِّيهِ،
فَالْأَكْوَانُ كُلُّهَا تَنْطَلِقُ بِلسَانِ الدَّلِيلِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَكُلُّ مُوَافِقٍ وَمُخَالَفٍ يَعْنِي
تَحْتَ قَهْرِ مَيْبُوتِيهِ، إِنَّ وَلَعْتَ بَصَرَ الْفِكْرِ رَأَيْتَ دَائِرَةَ الْفَلَكَ فِي قَبْضَتِيهِ، وَتُبْصِرُ
شَمْسَ الشَّهَارِ وَبَدْرَ الدُّجَىٰ يَجْرِيَانِ فِي تَحْرِ قُدْرَتِيهِ، وَالْكَوَاكِبُ قَدْ احْتَضَلَتْ
كَالْمَوَاكِبِ عَلَىٰ مَنَاقِبِ تَسْخِيرِ سَطَوَتِي قَبْلَهَا رُجُومَ لِلشَّيَاطِينِ تَرْمِيهِمْ وَتَرْمِيهِمْ عَنْ
جَمَىٰ جَمَائِيهِ، وَمِنْهَا سَطَوْتُ فِي الْمَهَامِ بِقُرُونِهَا الْمَسَافِرُ فِي سَفَرِ سَفَرَتِيهِ، وَإِنْ
خَفَضْتَ الْبَصَرَ رَأَيْتَ الْأَرْضَ مُنْهَكَةً بِجُحْمَةِ جُحْمَتِيهِ، كُلُّ قَطْرِ مِنْهَا مُحْرَسٌ
بِأَطْوَادِهِ عَنْ حَرَكَتِهِ، فَإِذَا ضَحَّتْ عَقَاشُهَا نَارَ الشَّحَابِ مِنْ بَرَقَةِ بَرَقَتِيهِ، وَتَفِخُ فِي
صُورِ الرُّغْدِ لِأَحْيَاءِ صُورِ الثُّبْتِ مِنْ أَجْدَادِ حُفَرَتِيهِ، قَبِّلُوا نُورَ النُّورِ يَهْتَرُ طَرَبًا
بِحُزَامِي رَحْمَتِيهِ، فَإِذَا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِي، زَادَتْ فِي سَوَاقِي نَعَامِي نِعْمَتِيهِ، وَتَفَتَّقَ
بَدُّ الْإِبْهَامِ بِقَاسَمِ الْقُدْرَةِ أَكْثَامَ النَّبَاتِ عَنْ صِبْغَةِ صِبْغَتِيهِ، وَتَرْتَلُّ فِي حُلَىٰ
خَلَّةِ الْحَالِ إِلَىٰ مَغِيرِ غَيْرَتِهِ، وَتَضْدَحُ الْوُزْقُ عَلَىٰ الْوُزْقِ، كُلُّ بَتْلِيغٍ لُغْتِيهِ،
وَالْأَشْجَارُ مُتَنَبِّهَةٌ وَمُتَنَبِّهَةٌ عَلَىٰ بَقْدَارِ إِزَافَتِيهِ، ﴿صَوْرًا وَنَوْرًا صَوْرًا﴾ (الرعد: ١٤)،
هَذَا بَعْضُ صُنْعَتِيهِ، ﴿وَيَسْمِعُ الرُّعْدُ بِصَوْتِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ جَهَنَّمَ﴾ (الرعد: ١٥).

[١٣]

نظر بعين الاختيار إلى آدمَ فَخَطَّهُ يسجود ملائكته، وإلى ابنه شِيثَ فَأَقَامَهُ في منزله، وإلى إدريسَ فَأَخْتَلَا بِإِلَهَائِهِ على جَنَّتِهِ، وإلى نوحَ فَتَجَاءَ مِنَ الْغَرَقِ سَيْفِيَّيْهِ، وإلى هودَ فَعَادَ على غَاوِ شَوْمُ مُكَالَفَتِهِ، وإلى صالحَ فَتَخَضَّضَتْ صَخْرَةٌ بِنَاقَتِهِ، وإلى إبراهيمَ فَتَخَتَّرَ في حُلَّةِ حُلَّتَيْهِ، وإلى إسماعيلَ فَأَعَادَ الْخَيْلَ في بَنَاءِ كَعْبَتَيْهِ، وإلى إسحاقَ فَأَقْنَعَهُ بِالْفِدَاءِ مِنْ ضَجَعَتِهِ، وإلى لوطَ فَتَجَاءَ زَأْفَلُهُ مِنْ عَشِيرَتِهِ، وإلى شعيبَ فَأَعْطَاهُ الْفَضَاخَةَ في غُطَّتَيْهِ، وإلى يعقوبَ فَرَدَّ حَبِيبَتَهُ مَعَ خَبِيبَتَيْهِ، وإلى يوسُفَ فَأَرَاهُ الْبُرْهَانَ في هِمَّتِهِ، وإلى موسى فَخَطَّرَ في ثَوْبِ مُكَالَفَتِهِ، وإلى إلياسَ فَأَتْبَلَسَ النَّاسُ مِنْ خَالَتِهِ، لقد أهلك الخلاق في مَنَزَلَتِهِ، وإلى داودَ فَلَانَ لَهُ الْحَدِيدُ على جَدَّتِهِ، وإلى سليمانَ فَرَأَتْ الرِّيحُ في قَمَلَتَيْهِ، وإلى أيوبَ فبَا طَوَيْ لِرُكُضَتَيْهِ، وإلى يونسَ فَاسْتَجَابَ بِذَاءِ في ظُلُمَتَيْهِ، وإلى زكريَّاَ فَطَرَنَ سُؤَالَ بِشَارَتِهِ، وإلى يحيى فَتَلَمَّحَ حَصِيرَ الْخُصُوفِ على سِدَّةِ مَبَادَتِهِ، وإلى عيسى فَكُنَّ أَقَامَ مَيَّانَ مِنْ حُفْرَتِهِ، وإلى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَطَّهُ بِرُؤُوسِهِ، وإلى أبي بَكْرٍ الصَّدِيقَ فَجَعَلَهُ ثَانِي اثْنَيْنِ في إِسْلَامِهِ، وإِبْرَاهِيمَ، وَغُفْرِهِ، وَغَارِهِ، وَجِلَافَتِهِ، وَهُوَ صَدِيقُهُ، وَصَدِيقُهُ، وَزَافِقُهُ في خِيَاتِهِ، وَضَجِيعُهُ، وَأَبْيُتُهُ في ثُرَيْيَتِهِ، وإلى عُثْمَرَ الْغَارَوِيَّ فَتَشَرَّ عَذْلُهُ في الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَغَمَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ بِتَذْلِهِ وَغُطَّتَيْهِ، وَلَقَّحَ الْبِلَادَ، وَأَرْشَدَ الْعِبَادَ، وَهَذَا فَتَحَ الْعِرَاقَ مِنْ بَعْضِ جَنُودِهِ وَمَسْرِيَّتِهِ، وَهُوَ مِرَاجُ الْأَنْبِيَاءِ في جَنَّتِهِ، وإلى عثمانَ الذي أسبل على ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم بِشَرَّ بَنَاتِهِ وَوَلَاتِيَّتِهِ، وحَفَرُ بَنِي رُومَةٍ، وَجَهْزُ جَيْشِ عُسْرَتِهِ، وكَفَتْ عَنِ الْقِتَالِ لِمَا بَشَّرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفُطْرِهِ وَشَهَادَتِهِ، فهو السعيد في حياته والشهيد في ميتته، وإلى علي بن أبي طالب الذي فاز بِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ، وَإِخْبَاتِهِ، وَصِبْرَتَيْهِ، فَالَسْتُ أَخْتِ مِنْ الرَّاغِبِينَ بِوَلَايَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وإلى الحسنَ الذي احتسبَ نَفْسَهُ في اللَّهِ، وَزَفِي بِحُكْمِهِ وَقَضِيَّتِهِ، وإلى الْحُسَيْنِ الذي اختارَ اللَّهُ لَهُ الشَّهَادَةَ لَمَّا أَمَرَ الشُّعْرَ الْخَنْجَرَ على حَنَجْرَتِهِ، وإلى مريمَ التي خَطَّهَا اللَّهُ بِرُوحِهِ وَكَلِمَتِهِ، وإلى عذِيجَةَ التي بَشَّرَهَا اللَّهُ بِبَيْتٍ مِنْ قَبْضٍ، لَا ضَحْبَ فِيهِ وَلَا نَضْبٍ، بِمَيَّتِهِ وَكِرَامَتِهِ، وإلى فاطمةَ الزهراءَ حَبِيبَةَ النَّبِيِّ وَبَضْعَتِهِ، وإلى عائشةَ التي نَزَّهَهَا اللَّهُ مِنْ قَوْلِ الْمَنَافِقِ وَفَرِيَّتِهِ، وَأَنْزَلَ فِي

نَبِيَّانَهَا سَبْعَ آيَاتٍ تَبْلُغُنَّ، فالويل لقاذفها، لقد حظي بسخط الرب وعصيته، وأعرض عن إلهي فخزي بغيري، وعن قابيل فقلَّب قلبه إلى شيعتي، وعن نمرود فقال: أنا أخبي وأميث ببلادي، وعن فرعون فاذعى الرُّبوبيَّة على جرائي، وعن هامان فأين رأته يوم اليمِّ في وزاري، وعن قارون فخرج على قومه في زينته، وعن بلعام فهلك بل عام في بحر شلوتي، وعن برصيصا فلم يتفعه سابق عبادته، وعن أبي جهل فشقي مع سعادة ابنه وابنته، هكذا جرى تَقْدِيرُ من يوم لا أبالي في قسمتي، ﴿وَلَسْتُ بِرَّكَدٍ بِكُمْ، وَالْمَلَكُ مِنْ يَمِينِي﴾ [الرعد: ١٣].

الفصل السابع والعشرون

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ كَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]

قال ابن عباس: (غلبه الآية وعيد للظالم وتغريته للظالمين).
قال الشيخ: الظلم التصرف فيما لا تملك، وقيل: وضع الشيء في غير
موضعه، والظلم في القرآن على ستة أوجه:
أحدها: نفس الظلم: ﴿تَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].
والثاني: الإضرار بالنفس: ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١].
الثالث: الغش: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ سِتْرًا﴾ [الكهف: ٢٣].
الرابع: السرقة، ومنه: ﴿فَنَافٍ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ﴾ [المائدة: ٣٩].
الخامس: الشرك: ﴿وَأَنَّهُمْ يَتَشَكَّلُونَ فِي الظُّلُمِ﴾ [الأنعام: ٨٢].
السادس: الجحود: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

وفي "الصحيحين" من حديث ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه
وسلم، أنه قال: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُظْلَمُهُ" (١)، ويقول:
"وَالَّذِي نَفْسِي مَخْبُوتٌ بِهَيْبِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِشَيْءٍ يُحِبُّهُ أَحَدُهُمَا"،
وَعَادَ يَقُولُ: "يَلْمَزُهُ الْمُسْلِمُ عَلَى آجِبِهِ شَيْءٌ يُحِبُّهُ إِذَا عَظَسَ، وَيَعْرِضُهُ إِذَا

(١) أخرجه البخاري (٨٦٢/٢)، رقم (٢٣١٠)، ومسلم (١٩٩٦/٤)، رقم (٢٥٨٠)، وأبو
داود (٢٧٣/٤)، رقم (٤٨٩٣)، والترمذي (٣٤/٤)، رقم (١٤٢٦) وقال: حسن صحيح
غريب. والسنائي في الكبرى (٣٠٩/٤)، رقم (٧٢٩١)، وابن حبان (٢٩١/٢)، رقم
(٥٣٣). وأخرجه أيضا: الفصاحي (١٣٢/١)، رقم (١٦٩)، والبيهقي (٢٠١/٦)، رقم
(١١٩٠٨).

مَرْضَى، وَيُنْصَحُهُ إِذَا حَبَابٌ أَوْ شَهْدَةٌ، وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ، وَنَجِيَّهُ إِذَا ذَعَا، وَيَتَّبِعُهُ إِذَا مَاتَ^(١).

جملة ما روى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ألفي حديث وست مائة حديث، أخرج له منها في " الصحيحين " مائتان وثلاثون حديثاً، المتفق عليه منها مائة وثمانية وستون حديثاً، وانفرد البخاري بأحد وثمانين، ومسلم بأحد وثلاثين، وفي " الصحيحين " عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمَلِّي لِلظَّالِمِ قِيْلًا أَخَذَهُ لَمْ يُقِلَّهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَرْنَا مِنْهُ الْفُتُورَ وَهُوَ ظَالِمٌ﴾ [هود: ١٠٢] ^(٢).

وَدَوَّى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالدَّعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْعَلَمَاءِ وَتُنْتَفَعُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: لَا نُصْرَتُكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ ^(٣).

وقال عبد الله بن سلام: (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلَائِكَةَ رَفَعَتْ رُؤُسَهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَتْ: رَبَّنَا مَعَ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: مَعَ الْمَظْلُومِ حَتَّى يُلَاقِيَ إِلَيْكَ حَقُّهُ). وكان شريح يقول: (سَيَفْلَحُ الظَّالِمُونَ حَقًّا مَنْ تَقَضَّرَ إِنَّ الظَّالِمَ يَنْتَظِرُ الْعِقَابَ، وَالْمَظْلُومُ يَنْتَظِرُ النُّصْرَ).

وقال بعض العلماء: (لَا يَخْبِرُنَّ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنْ ظُلْمِكَ، فَإِنَّمَا سَعَى فِي نَصْرِكَ وَتَقْوِكَ).

وقال سليمان بن يزيد النميري: (مَكْتُوبٌ فِي الْقُرْآنِ: إِنَّا بِي مِنْ وَدَّاءِ الْجَبْرِ، يَا مَعَايِشَ الْجَبَابِرَةِ وَالظُّلَمَاءِ، وَإِنَّا مَقْشَرُ الْمُسْرِفِينَ الْأَحْيَاءِ، يَا مَقْشَرِ

(١) أخرجه أحمد (٦٨/٢)، رقم ٥٣٥٧، قال الهيثمي (١٨٤/٨): إسناده حسن.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٩٧/٤)، رقم ٢٥٨٣.

(٣) أخرجه أحمد (٢/٤٤٥)، رقم ٩٧٤١، والترمذي (٥٧٨/٥)، رقم ٣٥٩٨، وقال: هذا حديث حسن. وابن حبان (٣/١٥٨)، رقم ٨٧٤، وابن ماجه (١/٥٥٧)، رقم ١٧٥٢، والبيهقي (٣/٣٤٥)، رقم ٦١٨٦، وأخرجه أيضاً: ابن خزيمة (٣/١٩٩)، رقم ١٩٠١، وإسحاق بن راهويه (١/٣١٧)، رقم ٣٠٠.

الْمُتَّقِينَ الْأَخْيَارَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَخْلُقُ بِمِثْرِهِ أَنْ لَا يُجَاوِزَ هَذَا الْجِسْرَ الْيَوْمَ ظِلًّا).

وقال عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه لأبي ذرٍّ: حَدَّثَنِي بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: * يُجَاءُ بِالْوَلِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَبْلَهُ بِوَاعِلِي جَهَنَّمَ، فَيُرْتَجُّ بِهِ الْجِسْرُ أَوْ تَجَافَى لَا يَبْقَى مِنْهُ وَفَضْلٌ إِلَّا رَأَى عَنْ مَكَانِهِ، فَإِنْ كَانَ مُطِيعًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عَمَلِهِ قَضَى بِهِ، وَإِنْ كَانَ غَاصِيًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عَمَلِهِ انْخَرَقَ بِهِ الْجِسْرُ، فَيَهْوِي بِهِ فِي جَهَنَّمَ بِقَدَارِ خَمْسِينَ عَامًا *، فقال عمرُ رضي الله عنه: مَنْ يَطْلُبُ الْعَمَلَ بِهَذَا يَا أَبَا ذَرٍّ؟ قال: مَنْ سَلَّتْ اللَّهُ أُنْفَهُ وَالضُّقَّ خَدُّهُ بِالْتَّوَّابِ.

وقال عمرُ بنُ المهاجرِ: قال لي عمرُ بنُ عبد العزيز: (إِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ بَلَغْتَ عَنِ الْحَقِّ قِطْعَ بَدَنِي فِي بِلْيَاسِي وَهَرَبِي إِلَيْكَ، ثُمَّ قُلْ: يَا عُمَرُ، مَا تَصْنَعُ؟). ودخل طاوس على هشام بن عبد الملك، فقال له: اتقِ الله يوم الأذان، فقال: وما الأذان؟ قال: قوله: ﴿قُلْهُ مُؤَدَّ يَسْتَمُّ أَنْ لَمَّةً لَوْ عَنْ الْكَلْبِيِّينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، فَصَيَّقَ هِشَامُ، فقال طاوس: هَذَا ذُلُّ الصَّفَةِ، فَكَيْفَ ذُلُّ الْمُعَانَةِ.

يا راضياً باسم الظالم كم عليك من مظالم، السجن جهنم، والحق حاكم، ولا حجة لك فيم تخاصم، الغير مهول فتدأثر حينك، والحساب طويل فخلص نفسك، والكسب حبيب وتفرح بمالك، والطلب حثيث وتلهو بآمالك، إن الظلم لا يترك منه قدر أنملة، فإذا رأيت ظالماً قد سطا فتم له، فزئنا بات فاعذت جنبه من الليل نملة.

[أحد الكامل]

الْخَيْرُ مُطْلُوعٌ لِضَائِعِهِ فَإِذَا ضَلَّعْتَ الْخَيْرَ أَغْطَيْتَهَا
وَالشَّرُّ مُتَمُورٌ بِفَاعِلِهِ فَمَنْ فَعَلَتِ الشَّرَّ أَغْطَيْتَهَا
لَا تُخَسِّرُ اللَّهَ مُظْهِرًا مَنْ أَنْتَ تَضْحَكُ مِنْهُ جِبْنَ بَحَى
لَا يُظْلِمُكَ فِيهِ رَأْسُهُ إِنَّ الْمَطَامِيعَ تُغِيِبُ الشَّرْعَا
أَيُّهَا الظَّالِمُ كَمْ أَهْلِكَ مِثْلَكَ مِمَّنْ فَعَلَ وَفَعَلَكَ، أَيْنَ مِنْ أَمْسَ جَوْرُهُ مُشَا،

ضَارَ خَدِيثًا وَانْقَضَى، الصَّالِحُ يَعْمَلُ بِالْحَقِّ وَالْعَاجِزُ مُغْرَضًا.

[الكامل]

عَلِمْتُ عَلَى أَلْبَابِهِمْ شَهَوَاتِهِمْ فَأَرَزْتُهُمْ مَا لَا يَرِيْنَ تَزِيْنَ
لَا يُضِلُّوْنَ إِلَيْكَ قَدْرُ غَوِيَّةٍ إِنَّ الْمُحَاسِبَ حَبِيبُ سَجِيْنٍ
أَلْبَابُ الظَّالِمِ إِلَى كَم تَلْبِسُ وَالشَّرَّ لِبَاسِ إِبْلِيسَ، وَتَجَرُّ جَسَدَكَ فِي عَقَابِيلِ
قَابِلِ، وَتَزَاحِمُ فِي الْكِبَرِ قَوْلُ قَارُونَ، وَتَدْخُلُ بِالْجَهْلِ بَيْتَ أَبِي جَهْلٍ، تَقَاتِلُ فِي
الْهَوَى بِسَيْفَيْنِ، وَتَحْمِلُ الصَّعْبَ فِي الْمَشْنَعِ عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ، كَم قَادَكَ
الْهَوَى فَمَا قُلْتَ إِلَى أَيْنَ؟ كَم مَدَدْتَ إِلَى ظُلْمِ الْإِخْوَانِ الرَّاحَتَيْنِ؟ كَم تَتَصَدَّقُ
بِالْحَرَامِ يَقْضِي دِينَ دِيْنَا بَدِينٍ؟ كَم ظَلَمْتَ لَا يَرْحَمُهُ أَحَدٌ مِنَ الْوَالِدَيْنِ، يَتَادِيكَ
ظُلْمَانُ بِالْكَرْبِ وَأَنْتَ بِالرَّيِّ فَرِيرٌ غَيْنٍ، يَا مُشْمَرًا فِي الظُّلْمِ ذِرَاعٌ شِمَرٌ كَمْ تَقُلْتُ
بَيْنَ خُسَيْنٍ؟

[السريع]

يَا قَا الْجَنَى وَالسُّقُوءَ الْفَاجِرَ وَالذُّوْلَةَ الْبَاجِيَةَ الْإِمْرَ
وَيَا ضَبَابِيْنِ بَيْتِي أَقَمْ وَيَا غَيْبُ الشَّهْوَةِ الْفَاجِرَ
الْغِيْبُورَا الْبُشْيَا قَلْبُ أَكْرَمَتْ وَعَيْنُ قَلِيلِ تِلْدُ الْإِمْرَ
مَرَّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَقْبَرَةِ فِتْنَادَى وَجَلَا مِنْهُمْ فَأَحْيَا اللَّهَ تَعَالَى لَهُ،
فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ حَقًّا، فَحَمَلْتُ لِلْإِنْسَانِ حَقْبًا، فَكُتِرَتْ مِنْهُ جَلَالًا
فَتَخَلَّلْتُ بِهِ، فَأَنَا أَطَالِبُ بِهِ مُنْذُ مَثْ.

وَبَقِيَ حَسَابٌ بَرُّ أَبِي سَنَانٍ سِتْنِ سَنَةً لَا يَأْكُلُ سَمِيْنًا، وَلَا يَشْرَبُ بَارِدًا،
وَلَا يَنَامُ مُضْطَجِعًا، فَلَمَّا مَاتَ رُفِيَ فِي الْقَتَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟
فَقَالَ: خَيْرًا؛ إِلَّا أَنِّي مُحْبُوسٌ بِإِلْتِزَامِ اسْتَعْرَظْتُهَا وَلَمْ أَرُدُّهَا.

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي "صَحِيحِهِ" مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "أَتُنْزَرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟" قَالُوا: الْمُفْلِسُ بَيْنَا مَنْ لَا يَرْزَمُ
لَهُ وَلَا مَنَاعَ، قَالَ: فَإِنَّ الْمُفْلِسَ بَيْنَ أَكْثَرِ مَنْ يَأْتِي بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِضَلَاوٍ وَجِيَامٍ،
وَصَدَقُوْهُ، وَزَكَوْهُ، وَيَأْتِي قَدْ شَقِمَ هَذَا، وَأَكَلَ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، فَيُعْطَى

هَذَا مِنْ خَسَائِهِ، وَهَذَا مِنْ خَسَائِهِ، فَإِذَا فِينَا خَسَائُهُ قِيلَ أَنْ يَقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ
أَجِدُ مِنْ خَطَايَانَا ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ^(١).
وقال: " لَتَوَدَّ الْخُلُقُ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُقْتَصَلَ بِالْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ
الْقَرْنَاءِ".

وَرَوَى جَابِرٌ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ سَمِعَ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنَا
الَّذِي لَا عِلْمَ جَنَدِي، وَجَزَائِي وَجَلَالِي لَا يُجَاوِزُنِي الْيَوْمَ عِلْمُ عَالِمٍ وَلَوْ لَقِمْتُ
بِكَلْبِي، وَلَوْ ضَرَبْتُ يَدِي عَلَى يَدِي، وَلَا قَتَصْتُ بِالْجَنَاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، وَلَا سَأَلْتُ الْحَجَرَ لِمَ
تَحِبُّ الْحَجَرَ، وَلَا سَأَلْتُ الْعُودَ لِمَ تَحْدَثُ صَاحِبَهُ"^(٢).

وقال أبو هريرة: (مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْتُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلْفَ قَتْلٍ بِضُرُوبٍ مَا
قَتَلَ).

وقال ابن عباس: (مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْتُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَقْطَعُ، وَيُقْتَصُّ بِئًا،
وقال قتادة: (لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الْإِنْسَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَنْ يَرَىٰ مَنْ
يَعْرِفُهُ تَحَالَةً أَنْ يَقَالِيَةَ بِتَطْلَمَةٍ).

[الرجز]

فَحَبَّ الْقِيَاصَ عَذَا إِذَا وَافَيْتَ مَا كَسَيْتَ يَذَاكَ الْيَوْمَ بِالْهَيْسَاسِ
فِي تَوَلَّى مَا يَبِيهِ إِلَّا شَاجِصًا أَوْ مُهْطِعًا أَوْ مُتَقَبِّحًا لِلرَّاسِ
أَعْضَاؤُهُمْ فِيهِ الشُّهُودُ وَبِجَنَّتُهُمْ نَارٌ وَهَابُكُمْ شَيْءُ الْيَاسِ
إِنْ تَسْطَلَّ الْيَوْمَ النَّيُّونَ مَعَ الْغَنَى قَدْ تَوَلَّىهَا مَعَ الْإِنْلَاسِ
بِأَسْفَا لِلْقَلَمَةِ الْفُجَارُ، يُحْطِثُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَيْلِ وَالنَّهَارِ، الشَّهَوَاتِ
تَفْنِي وَيَقَى الْأَوَارِ، لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ، تَالَلُو لَوْ قَتَعُوا بِالْحَلَالِ كَفَى،

(١) أخرجه مسلم (١٩٩٧/٤)، رقم (٢٥٨١)، والنسائي (٦١٣/٤)، رقم (٢٤١٨)، وقال:
حسن صحيح. وأخرجه أيضا: الطبراني في الأوسط (١٥٦/٣)، رقم (٢٧٧٨)، والديلمي
(٦٠/٢)، رقم (٢٣٣٨).

(٢) أخرجه الروياني في مسنده (٢١٩/٤)، رقم (١٤٨٧).

بَلْ لَوْ رَضُوا بِالْمُبَاحِ شَيْئًا، لَمِنْ أَنْ الْهَوَىٰ قَوَىٰ بِهِمْ وَهَنًا، قَبِلُوا أَعْرَاضَهُمْ (على شَيْءًا جُرْفٍ قَبَارٍ)، كَمْ يَسْتَفِيدُ مَظْلُومٌ عَلَى الْبَابِ، وَقَدْ أَخَذَ فَلَانِيَّةٌ فِي الطَّلَعِ وَالشَّرَابِ، جَارَ الْمَظْلُومِ مِنْ جَارٍ، كَمْ ضَحَكُوا وَالْمَظْلُومُ قَدْ بَكَى، كَمْ نَامُوا وَمَا نَامَ لِقَلْبٍ مَا اسْتَكْبَرَ، أَنْزَلَهُمْ مَا عَلِمُوا إِلَىٰ مَنْ شَكَى، لَا يُدُّ لِلْوَالِي مِنْ أَخِيذِ النَّارِ، كَمْ قَضَىٰ مَغْمُورٍ مَغْمُورٍ بِالنَّعِيمِ، تَأَنَّ ضَاجِبَةً فِي الْخُلْدِ مَقِيمٌ، دَعَا عَلَيْهِ مَظْلُومٌ فَلَدَّ مِنَ الْحَرِيمِ، فَالزَّوْجَةُ أَرْمَلَةٌ، وَالْوَلَدُ يَتِيمٌ، لَا تُخْفِرُوا دُعَاءَ الْأَشْحَارِ، إِنَّ الظُّلُمَةَ غَدَا فِي الظُّلُمَاتِ يَتَغَيَّرُونَ بِحَسَبِ الْحَسَرَاتِ، وَقَدْ حَالَتْ دَعَاءُ بِلَاءِ تِلْكَ الْعِزَّاتِ، يَقُولُونَ: (هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)، وَهَيْهَاتَ ضَاعَبَ الْأَعْمَارُ الْقِصَارَ.

يُنَادِي أَيْنَ مَنْ بَرَىٰ لَهُمْ قُلُوبًا؟ أَيْنَ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي الْعَذَابِ وَمَا؟ أَيْنَ مَنْ كَانَ رَقِيقَهُمْ فِي هَيْكَلِ الْحَرِيمِ وَالْجَنَى؟ فَطُشِبَتْ هَذِهِ الْحَبَّةُ فِي هَذَا الدِّينَارِ، كَمْ خَدَّنُوا بِالْعَبْرِ فَلَمْ يَسْمَعُوا، وَكَمْ وَعَفُوا بِالْعَبْرِ وَلَمْ يَقْنَعُوا، وَكَمْ جَمَعُوا مِنَ الْحَرَامِ وَلَمْ يَسْبَعُوا، ﴿قَدْ تَنَكَّرُوا فَإِنَّ مَوْبِقَكُمْ إِلَىٰ النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٣٠].

الفصل الثامن والعشرون

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عِوَجَ الْأَرْضِ﴾

[إبراهيم: ٤٨]

تبدلها أن تدعب جبالها وأوديتها وبحورها،، وتُمدد مدّ الأديم، وتبدل السموات بتكوير شمسها وقمرها، وتتناثر نجومها، واختلاف أحوالها، فتارة كالمُهَلِّ، وتارة كالدَّعَابِ.

قالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أَيَّنْ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عِوَجَ الْأَرْضِ؟ قَالَ: " عَلَى الصُّرَاطِ ".

ومعنى " وَتَبْرَزُوا ": خَرَجُوا إِلَى التَّبَرَّازِ، وهو ما ظَهَرَ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَوَى، وفي " الصحيحين " من حديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ: " ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ رِيتَ الْكَبِيبِ﴾ [المطففين: ٦]، يقوم أحدهم في رُشْجِهِ إِلَى أَنْصَابِ سَاقِيهِ ^(١)، وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قَالَ: " يَغْرُقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ فَرَسًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ أَفَانُهُمْ ^(٢) ".

قوله تعالى: ﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٤٩] وهم الكفار، (مُفْرَّيْنِ) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: يقرنون مع الشياطين، قاله ابن عباس .

(١) أخرجه البخاري (٢٣٩٣/٥)، رقم ٦١٦٦، والترمذي (٤٣٤/٥)، رقم ٢٣٣٦ وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٤٣٠/٢)، رقم ٤٢٧٨، وأخرجه أيضًا: أحمد (١٢٥/٢)، رقم ٦٠٧٥.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٩٣/٥)، رقم ٦١٦٧.

الثاني: قُرِئَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ إِلَى رِقَابِهِمْ، قاله ابن زيد .

الثالث: قُرِنَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قاله ابن قتية.

والأصناف: الأغلل، والسرايل، القمطن، والفطران: الثُّعَاسُ المَذَابُ، وَقُرَأَ بِعَقُوبٍ: (مَنْ يَظُنُّ أَنَّ) وَهُوَ الثُّعَاسُ^(١)، وَهُوَ الَّذِي قَدْ انْتَهَى حُرُوءُ.

يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ الْغَنَمُ: مَنِ تَغَنَّمُ، تُعَاوِي التَّصَبُّحُ، وَتُوَالِي الْأَرْقَمُ، تُؤَاوِي عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَسَبَ وَزَعَمَ، وَتَفْرَحُ بِذَنْبِ غُلُوبَتِهِ جَهَنَّمُ، سَتَعْلَمُ خَالِكَ فِي غَدٍ، سَتَدْرِي مَنْ يَكُونُ مِنْ يَدَمٍ، إِذَا جَنَى الْخَلِيلُ، وَتَرْتَلُونَ ابْنَ مَرْيَمَ، يَا عَاشِقَ الدُّنْيَا كَمْ قَتَلْتَ نَفْسًا، يَا مَنْ إِذَا خَطَرَتْ مَعْصِيَةُ حَسَنٍ، مَا تَفْعَلُ فَعْلًا مَنْ يَرِيدُ أَنْ يَسْلَمَ، مَا لِلْفَلَاحِ وَحْدَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنْ كَانَ ثُمَّ عُدُّوا قُلُوبَهُمْ وَتَكَلَّمُوا، أَجَلُ تَصَرُّ الثَّقَلَيْنِ فِي رَسْمِ الْعِصْيَانِ، وَاسْمُ عَقَاتِ الْعِثَّةِ وَأَهْلِ الطُّغْيَانِ، بِسْمِ الْمَنْزِلِ دَارِهِمْ، وَبِسْمِ السُّكَّانِ، (سَرَابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ).

يتقلبون من العذاب في الهوان، ويكون الدعاء، وأين الدعوى والأجفان، فرحت عيونهم، فلا تسأل عن شأنٍ شأن، كل أعمالهم سُرِّيَ ليس فيها إحسان، طُوبُوا بِالْإِسْرَارِ، وَأَعْدُوا بِالْإِعْلَانِ، يَا أَسْفَاَ لِمَحْشَرٍ بِالنَّارِ وَهُوَ عِطْشَانٌ، أَفَرِدُوا بِالْعَذَابِ قُبُوعَ فَلَانٍ عَنْ فَلَانٍ، يَبْعُوا بِلا شَمِيٍّ فِي سَوَاقِ الْهَوَانِ وَالْعِشَاقِ وَالْخَبِيمِ وَالْآنِ، أَلَا قَلْبُكَ إِلَيْهَا الْعَاصِي مَالِكٌ، أَلَا مَالِكٌ لَا يَرَحْمُهُمْ وَلَا جَمِيعُ الْأَعْوَانِ، وَكَيْفَ وَالْمَالِكُ الْكَبِيرُ عَلَيْهِمْ غَضَبَانٌ، يَتَمَتَّعُونَ وَأَيْنَ الْمَتَى؟ لَيْتَ مَا كَانَ مَا كَانَ، يَا سَابِحًا طَرِيقَهُمْ أَنَاذِمُ أَنْتَ أَمْ يَقْظَانُ؟ سَتَرَى مَا تَسْمَعُهُ لَيْسَ الْخَبَرُ قَالِيَانِ، هَوْنٌ خِلَافَ الْهَوَى، فَكُلْ مَا هُوَ كَانَ.

[مخلع البسيط]

بَايِرْ لَقَدْ أَمَكَنَّ الْمَكَّانُ وَاجْبِرْ عَلَى الْوَضَلِ يَا جَبَانُ
عَجَلْ فَإِنَّ الزَّمَانَ عَر مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْطِنَ الزَّمَانُ

(١) قرأ مجاهد، رحمه الله، فطران (عليه) نحاس، ومثله عن ابن عباس، وعن ابن عباس، وعكرمة، (رحمة الله عليهما)، (إنهما قرأ: (من) يظن أن: أي: من نحاس قد انتهى حروء في الشدة، وقد قالوا فطران في الواحد، ولو جمع فطران، قليل: فطارين كضربان وضربان.

الفصل التاسع والعشرون

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَهَنَّمَ لَمُوعِدْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[الحجر: ٤٢]

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: * أُوْقِدَ عَلَى جَهَنَّمَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءٌ مُظْلِمَةٌ مُدْلِهِيَةٌ^(١).

وفي * الصحيحين * من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: * نَارُهُمْ هَلْوَ مَا يُوقَدُ بِئْسَ أَدَمُ جُزْءًا وَاجِدًا مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكُنَافِيَّةً، قَالَ: فَإِنَّهَا فَضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَبِشْتَيْنِ جُزْءًا كُلُّهُنَّ بِقُلِّ حَرًّا^(٢).

وفي * الصحيحين * من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: * اسْتَنْقَبَ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا عَرًّا وَجَلًّا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكُلَّ بَغْيِي بَغْضًا، فَأَقِذْنِيهَا فِي كُلِّ غَامٍ يَنْقَسِبُنِ، فَأَشِدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْبَرِّءِ مِنَ زَمْعَرِيرِ جَهَنَّمَ، وَأَشِدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ مِنْ عَرِّ جَهَنَّمَ^(٣).

قال قتب: لَوْ فُتِحَ مِنْ جَهَنَّمَ قُدْرٌ مِنْخَرٌ تَوَّرَ بِالشَّرْقِ وَوَاجِدٌ بِالشَّرِبِ

(١) فوائد تمام (٢/ ٣٩١، رقم ٨٩١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣١٣، رقم ٨١١١).

(٣) أخرجه مالك (١/ ١٦، رقم ٢٨)، والشافعي (١/ ٢٧)، وابن حبان (١٦/ ٥٠٦، رقم ٧٤٦٦).

والبخاري (٣/ ١١٩٠، رقم ٣٠٨٧)، ومسلم (١/ ٤٣١، رقم ٦١٧)، وابن

ماجة (٢/ ١٤٤٤، رقم ٤٣١٩)، وأخرجه أيضاً: أحمد (٢/ ٥٠٣، رقم ١٠٥٤٥).

لَعَلِّي يَمْلَأُهَا حَتَّى يَسِيلَ مِنْ خَرَفِهَا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَنُؤْتِيَنَّهُ زُفْرَةً لَا يُتَّقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُصْطَفًى إِلَّا خَرَّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَيَقُولُ: يَا رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي.

قال: والغساقُ عَيْنٌ فِي جَهَنَّمَ يَسِيلُ إِلَيْهَا حُمَةً كُلُّ ذَاكِ حُمَةٍ فَتُشْفَقُ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْأَذْيَمِ فَيُفْسَسُ فِيهَا غَسَقُهُ، فَيُسْقَطُ جِلْدُهُ وَلَحْمُهُ عَنِ الْعِظَامِ، فَيَجْرُ شَحْمَتُهُ فِي تَحْفَتِهِ كَمَا يَجْرُ الرَّجُلُ نُؤْبَةً.

وَأَنَّ الْفَلَاقَ بَيْتٌ فِي النَّارِ، إِذَا لَفِخَ صَاحُ أَهْلِ النَّارِ مِنْ خَرَفِهِ.

وفي إفراؤ مسلم من حديث أبي هريرة، قال: "كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَآ، فَسَمِعْنَا وَجِيئَةً عَظِيمَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَقْدِرُونَ مَا هَؤُلَاءِ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا خَجَرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، وَالْآنَ انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا" (١).

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُؤُوهَا" (٢).

قال وَهَبٌ: إِذَا سُيِّرَتِ الْجِبَالُ سَمِعَتْ حَسِيصَ النَّارِ وَتَغَطَّتْهَا وَزَفِيرُهَا وَشَهيقُهَا ضَرَحَتِ الْجِبَالُ كَمَا تُضْرَحُ النِّسَاءُ، ثُمَّ تُرْجَعُ أَوَائِلُهَا عَلَى أَوَائِجِهَا يَدْفِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وفي حديث ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "كُلُّ أُنْ قَطْرَةٍ مِنَ الرُّقُومِ قَطْرَتٌ فِي الْأَرْضِ لَا تَمُوتُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا تَعِيشَتُهُمْ، فَكَلِمَتٌ مِنْهُ هُوَ طَعَامُهُ لَيْسَ لَهُ طَعَامًا غَيْرُهُ" (٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًا يُدْعَى لَمْلَمُ، إِنَّ أَوْدِيَةَ جَهَنَّمَ تَسْقِيهِدُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَرَفِهِ" (٤).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧١/٢)، رقم ٨٨٢٦.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٤/٤)، رقم ٢٨٤٢، والترمذي (٧٠١/٤)، رقم ٢٥٧٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٤٤٦/٢)، رقم ٤٣٢٥.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٦٩/١.

وقال قُتَيْبُ بْنُ مَالِكٍ: إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَابِيًا يُدْعَى أَنَامًا، فِيهِ حَيَاتٌ وَغَفَارَتٌ، فِي فَقَارٍ كُلِّ أَحَدِهِمْ بِفَقَارٍ سَبْعِينَ قَلْبًا مِنْ شَمِّ، وَالْعَفْرَتُ وَنَهْنُ وَمِثْلُ الْبِلْدَةِ الْمُتَوَكَّفَةِ.

قال أبو موسى: إِنْ أَهْلُ النَّارِ يَكُونُ حَتَّى تَنْقُطَ الدَّمْعُ، ثُمَّ يَكُونُ الدَّمْعُ حَتَّى لَوْ أُرْسِلَتْ السُّقُوتُ فِيهَا لَخَرَّتْ.

وقال أبو الحسن الأملوكي: إِنَّ فِي النَّارِ أَقْوَامًا يَرْتَبِلُونَ بِنَوَاجِيرٍ مِنْ نَارٍ، تَدُورُ بِهِمْ تِلْكَ النَوَاجِيرُ، مَا لَهُمْ فِيهَا رَاحَةٌ وَلَا قَرَّةٌ.

لقد أزعج ذكرُ جَهَنَّمَ قُلُوبَ الْخَائِضِينَ، وَأَطَارَ نَوْمَ الْعَمِيِّ عَنْ أَجْفَانِ الْعَابِدِينَ، كَانَ شِدَادُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ يَتَقَلَّبُ كَالْحَيَّةِ عَلَى الْبَطْنِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّ جَهَنَّمَ لَا تَدْعُنِي أَنَامُ.

وكان طائوس إذا اضطجع يَتَقَلَّبُ، ثُمَّ يَبْ وَيُدْرِجُ الْفِرَاشَ، ويقول: عَظِيمُ ذِكْرُ جَهَنَّمَ نَوْمَ الْعَابِدِينَ.

[السرير]

وَقُلْنَا لَهُمْ يَذُوقُوا الْعَذَابَ قَالُوا لَهُ الْهَجَرَانُ قُمْ لَا نَسْمُ

قال عبد الله بن أبي الهذيل: لقد شغلت النارُ مَنْ يغفل عن ذكر الجنة.

وقال أبو سليمان الدَّارَاني: ربما تمثلت نفسي بين جبلين من نَارٍ، وربما رأيتُ أموتَ بينهما، كيف نهأ الدنيا مَنْ هذه صفته!!

قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: 41]، هي طبقاتها بعضها على بعض.

قال وهب: أَوَّلُ أَبْوَابِهَا جَهَنَّمَ، الثَّانِي: لَقَى، الثَّالِثُ: الْخَطْمَةُ، الرَّابِعُ: السَّيْرُ، الْخَامِسُ: سَفَرُ، السَّادِسُ: الْجَبِيمُ، السَّابِعُ: الْهَاطِيَةُ.

بين كل باب ما بين مسيرة سبعين سنة، كل بابٍ أَشَدَّ حَرًّا مِنَ الَّذِي فَوْقَهُ سَبْعِينَ ضِعْفًا.

وقال الضَّحَّاكُ: فِي الدَّرَكِ الْأَعْلَى الْمُوَحَّدُونَ، وَفِي الثَّانِيَةِ: النَّصَارَى، وَفِي الثَّلَاثَةِ: الْيَهُودُ، وَفِي الرَّابِعَةِ: الصَّابِئُونَ، وَفِي الْخَامِسَةِ: الْمَجُوسُ، وَفِي السَّادَةِ: مُشْرِكُو الْعَرَبِ، وَفِي السَّابِعَةِ: الْمُتَابِعُونَ.

يا مَنْ أَعْمَالُهُ أَعْمَالُ أَهْلِ النَّارِ، أَمَّا تَعْقِلُ الْوَعِيدَ، أَمَّا تَفْهَمُ الْإِنذَارَ،
 ذُنُوبُكَ كَثِيرَةٌ جَمْعُهُ بِمَا تَرُدُّ بِهَا سُوءَهُ، وَإِنَّكَ فِي الْمَعَاصِي إِمَامٌ وَأُمَّةٌ، يَا مَنْ حُبُّ
 الْهَوَى قَدْ أَهْمَاكَ وَأَعْصَمَهُ، يَا مَنْ بَاعَ قَرَّةَ نَفْسِهِ بِمَا اشْتَرَى غَمَّهُ، يَا خَرَابًا يَحْتَاجُ إِلَى
 مَرْقَّةٍ، نَزَلَ الْمَشِيبُ فِي وَجْهِكَ، وَطَلَعَ الْفَجْرُ، وَانْكَشَفَ الْحِجَابُ، وَتَجَمَّعَ
 الضَّعْفُ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ فِي إِفْهَابٍ، وَخَلَّتِ الْأَغَاثُ وَدَخَلَتْ بِالْيَدِ فِي كُلِّ
 بَابٍ، وَقُرِئَتْ نُوفَى التَّخْوِيلِ وَرِجْلُ الرَّحِيلِ فِي الرُّكَّابِ، وَكَيْفَ يَفِي رَامٌ بِرَمِي
 نَحْتِ الثِّيَابِ، أَمَّا تَزْجُلُ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، هَذَا ذَهَبٌ قَدْ غَابَ، أَيْنَ الْبُكَاءُ عَلَى
 الذُّنُوبِ وَالْإِسْتِحَابِ، أَمَّا تَرْضَى أَنْ يُنَادِيَ عَلَيْكَ: هَذَا الْكُذَّابُ، يَا دَائِمًا عَلَى
 الْمَعَاصِي لَا يَرْجِعُ وَلَا يَنْهَابُ، تَذَكَّرِ النَّارَ وَقَدْ الْإِسْتِهَابُ يَكْسِبُ مَنْ غَفَلَ عَنْهَا
 وَلَيْسَ، وَلَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، نَصِيحَةٌ صَحِيحَةٌ، أَفِيكُمْ ذَاغٌ يُجَابُ، أَفِي الْعَيْنِ كَمَةٌ،
 أَمْ عَلَى الْقَلْبِ حِجَابٌ؟! لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ.

الفصل الثلاثون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْءَ فِي حَشَى

وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]

الجنات: اليساتين، والعيون: عيون الماء، والخمر، والسلسيل، وغير ذلك.

قال ابن عباس: (نخل الجنة جذوعها زمرؤ أخضر، ونحوها ذهب أخضر، وورقها وسعفها كشوة أهل الجنة).

وفي "الصحيحين" من حديث سهل بن سعد، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُسَمَّى الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا بَانَةٌ غَامٌ لَا يَقْطَعُهَا"^(١).

وَرَوَى جَرِيرٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَّهُ أَخَذَ عُودًا بِتَبَدُّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جَرِيرُ، لَوْ عَلَّيْتُ فِي الْجَنَّةِ بِشَلِّ هَذَا الْعُودِ لَمْ تَجِدْهُ، قَالَ: قُلْتُ: أَهِنَّ الثُّحُلُ وَالشَّجَرُ، فَقَالَ: أَحْصَوْهَا اللَّؤْلُؤُ وَالذَّهَبُ، وَأَغْلَاغُهَا الثَّمَرُ"^(٢).

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ خَلَقْتَهُمْ﴾ [الحجر: ٤٦]؛ المعنى: يُقَالُ لَهُمْ: ادخلوها بسلام، أي: بِسَلَامَةٍ مِنْ كُلِّ آلَةٍ، آمِنِينَ مِنَ الْخُرُوجِ وَالْمَوْتِ، وَالْغِلِّ الْجَلْدِ.

قال ابن عباس: (أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ثَمَرُ عَيْنَانِ، يَسْرَبُونَ مِنْ إِحْدَى الْعَيْنَيْنِ، فَيَذِيبُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ غِلٍّ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣١٤)، رقم (٣٦٣٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٣٣٣)، رقم (٣٥٨٠٨).

الْعَيْنِ الْآخَرَىٰ فَيَقْبَلُونَ فِيهَا النَّارَ لِقَاءَهُمْ، وَتَقَطُّوهُمُ وَجُوهَهُمْ، وَيَخْرِجُهُمْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ النَّعِيمِ).

وقال علي رضي الله عنه: (نزلت هذه الآية فينا أهل بدر، وإنني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن ذَلِيلٍ﴾ [الحجر: ٤٧]).

وروى البخاري في إفراده من حديث محمد بن الحنفية، قال: (قُلْتُ لَأبي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، فَخَشِيتُ أَنْ أَقُولَ: ثُمَّ مَنْ؟ فَيَقُولَ: عُثْمَانُ، فَقُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

ابْنُ الْحَكَمِ يُعْرِفُ بِأَمِّهِ، وَفِي الصَّحَابَةِ جَمَاعَةٌ يُعْرَفُونَ بِأَسْمَائِهِمْ:

بِلَالُ بْنُ خَدَّاجَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ مَالِكٌ.

عُقَابُ بْنُ ثَعْلَبَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ عُمَيْرٌ.

زُبَيْرُ بْنُ الْعُصَايْبَةِ، وَاسْمُ أَبِيهِ مَعْبُدٌ.

مُعَاذُ بْنُ جَعْفَرٍ، ابْنَا عَفْرَاءَ، وَاسْمُ أَبِيهِمَا الْخَارِثُ.

مَالِكُ بْنُ نُمَيْلَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ شُرَحْبِيلٌ.

ابْنُ حَسَنَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ.

ابْنُ بُحَيْنَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ مَالِكٌ.

شُعَيْبُ بْنُ كَعْبَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ بُحَيٍّ.

يَعْلَى بْنُ سَيَّابَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ مَرْءَةُ.

فَكَلُّ هَؤُلَاءِ صَحَابَةٌ، وَمِنْ يَتْلُوهُمْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُلَيْتَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمُ.

مَنْصُورُ بْنُ صَفِيَّةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ.

مُحَمَّدُ بْنُ عَائِشَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ حَفْصُ.

إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَرَّاسَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ سَلَمَةُ.

مُحَمَّدُ بْنُ عَثْنَةَ، وَاسْمُ أَبِيهِ خَالِدٌ.

كَانَتْ أَخُوَّةُ الْإِسْلَامِ مُتَّفِقَةً بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَهِيَ الْأَخُوَّةُ الْعَامَّةُ، ثُمَّ أَخَا

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمُ الْأَخُوَّةُ الْخَاصَّةُ، أَخَا بَيْنَ أَبِي خَلِيفَةَ وَبَيْنَ ابْنِي

الْبَكَّيْرُ، أَخَا بَيْنَ الْحَارِثِ وَالْحَارِثِ بْنِ خُرْمَةَ، وَبَيْنَ الْأَرْثَمِ وَأَبِي طَلْحَةَ، أَخَا بَيْنَ يَشْرَ بْنِ التَّزَاءِ وَوَأَقِيدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَبَيْنَ بِلَالٍ وَغُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ، أَخَا بَيْنَ تَيْمِيمِ مَوْلَى بَجْرَاشٍ وَغُبَابِ مَوْلَى غُبَيْةَ، أَخَا بَيْنَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ وَغَامِرِ بْنِ الْكَيْمِ، وَبَيْنَ ثَعْلَبَةَ بْنِ حَابِلٍ وَمُعْتَبَرِ بْنِ الْحَمْرَاءِ، أَخَا بَيْنَ جَعْفَرٍ وَمُعَاذٍ، وَبَيْنَ جُبَيْرِ بْنِ عَتِيكٍ، وَبَيْنَ خَيْثَابِ بْنِ الْأَرْثَمِ، أَخَا بَيْنَ حَابِلٍ وَغُوَيْمٍ، وَبَيْنَ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ وَالسَّالِبِ بْنِ عُثْمَانَ، وَبَيْنَ الْخَضِصِيِّ بْنِ الْحَارِثِ وَزَافِعِ بْنِ عُثْجَةَ، أَخَا بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْكَيْمِ وَزَيْدِ بْنِ الدُّثْنَةِ، أَخَا بَيْنَ خَالِدِ بْنِ حُدَافَةَ وَأَبِي غُبَيْسٍ، أَخَا بَيْنَ ذَكْوَانَ بْنِ عَبْدِ الْقَيْسِ وَمُضْعَبِ بْنِ عُثَيْرٍ، أَخَا بَيْنَ ذِي الشَّامَلَيْنِ وَبَزِيدِ بْنِ الْحَارِثِ، أَخَا بَيْنَ زَافِعِ بْنِ مَالِكٍ وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، أَخَا بَيْنَ الرَّبِيعِ وَابْنِ سَعْدٍ، وَبَيْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَحَمْرَةَ، وَبَيْنَ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ وَمَعْنِ بْنِ عَدِيٍّ، أَخَا بَيْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ وَمُضْعَبِ بْنِ عُثَيْرٍ، وَبَيْنَ سَالِمِ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ وَمُعَاذٍ بْنِ مَاعِصٍ، وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ وَابْنِ عَوْفٍ، وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ خُرَيْمَةَ وَأَبِي سَلَمَةَ، وَبَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدُّرْدَاءِ، وَبَيْنَ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ وَبَيْنَ سَبْرَةَ، وَبَيْنَ سُورَيْطَ وَغَالِيَةَ بْنِ مَاعِصٍ.

أَخَا بَيْنَ شُجَاعِ بْنِ وَهَبٍ، وَأَوْسَى بْنِ خَوْلِيٍّ، وَبَيْنَ شِمَاسِ بْنِ عُثْمَانَ، وَحَنْظَلَةَ بْنِ الرَّاهِبِ، أَخَا بَيْنَ صُهَيْبٍ وَالْحَارِثِ، وَبَيْنَ ابْنِ الصُّمَّةِ وَابْنِ صَفْوَانَ ابْنِ بَيْضَاءِ وَزَافِعِ بْنِ الْمُغَلِّ، أَخَا بَيْنَ طَلْحَةَ وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، وَبَيْنَ الطُّفَيْلِيِّ بْنِ الْحَارِثِ وَالْمَنْدَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَبَيْنَ طَلِيبِ بْنِ عَمِيرٍ وَالْمَنْدَرِ بْنِ عَمْرٍو، أَخَا بَيْنَ خُمْزٍ وَأَبِي بَكْرٍ، وَبَيْنَ عُثْمَانَ وَبَيْنَ عَوْفٍ، وَعَلِيٍّ وَنُفَيْسٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْعَبَّاسِ وَنُوفَلِ بْنِ الْحَارِثِ، وَبَيْنَ أَبِي غُبَيْدَةَ وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ، وَبَيْنَ ابْنِ مَسْعُودٍ وَمُعَاذٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَطْعُونٍ وَسَهْلِ بْنِ غُبَيْثٍ، وَبَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وَعَامِصِ بْنِ ثَابِتٍ، وَبَيْنَ عَمِيرِ ابْنِ أَبِي وَقَاصٍ وَعَمْرٍو بْنِ مُعَاذٍ، وَبَيْنَ عِمَارٍ وَحَذِيفَةَ، وَبَيْنَ عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ وَأَبِي الْهَيْثَمِ، وَبَيْنَ عَتِيةَ بْنِ عُزْرَانَ وَأَبِي دُجَانَةَ، وَبَيْنَ عُكَّاشَةَ وَالْمُحَدَّرِ، وَبَيْنَ عَاقِلٍ وَبَيْنَ عَامِرِ بْنِ مُهَيَّرَةَ، وَالْحَارِثِ بْنِ أَوْسَى وَبَيْنَ عُثْمَانَ بْنِ سُرَاقَةَ.

وعدد الذين أخا بينهم يُقُولُ إِلَّا أَنْ مِنْ مَشَاهِيرِ الْقَوْمِ، بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍو

وعثمان وابن عوف، وبين سعيد بن زيد ومصعب وأبي أيوب، وبين أبي مسعود وأبي عبيدة وسالم مولى أبي حنيفة، وبين بلال وحذيفة بن الحارث، وبين عمار وحذيفة، وبين المقداد وخباب بن الارت، وبين أبي طلحة، وبين سلمان وأبي الدرداء، وبين أبي ذر والمُنذر بن عمرو، وبين الأرقم وأبي طلحة، وبين صهيب والحارث بن الصَّخَّاء، وبين العباس ونوفل بن الحارث، وبين عثمان بن مظعون وأبي الهيثم، وبين عبادة بن الصَّامت وكثارة.

وروى معاذٌ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى تَنَائِيٍّ مِنْ تَوَرُّ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلُّ إِلَّا ظِلُّهُ " (١).

معاذٌ لم يَفْتَهُ مَشْهُدٌ، وجملة ما روى مائة وسبعة وخمسين حديثاً، أخرج له منها في "الصحاحين" ستة، المُتَّفَقُ عليه منها حديثان، وانفرد البخاريُّ بثلاثة، وسلمٌ بحديث واحد.

كان الأخ من السَّلفِ يَخْلُقُ أخاءً بعدَ موْتِهِ في عِيَالِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً. إِذَا كَانَ مُسْرُوقٌ دَيْنًا لِقَبِيلَةٍ، فَكَانَ عَلَى خِيَمَتِهِ دَيْنٌ، فَدَعَبَ مُسْرُوقٌ قَفْضِي دَيْنٍ خِيَمَتَهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَدَعَبَ خِيَمَتَهُ قَفْضِي دَيْنٍ مُسْرُوقٍ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ. كان إبراهيم بنُ أَدْعَمَ في سَفَرٍ، وكان معه ثلاثُ نَفَرٍ فَدَخَلُوا مَسْجِدًا فِي مَفَازَةٍ، وَالْبَرْدُ شَدِيدٌ، وَلَيْسَ لِلْمَسْجِدِ بَابٌ، فَقامَ إبراهيمُ، فوَقَفَ عَلَى الْبَابِ إِلَى الصَّبَاحِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ لَمْ تَنْتَمْ؟ فَقَالَ: خَشِيتُ أَنْ يُصِيبَكُمْ الْبَرْدُ، فَقُلْتُ مَقَامَ الْبَابِ.

كان القومُ إخوانًا، فصاروا اليومَ حُجْرَانًا، النَّاسُ مُتَعَارِفُونَ لَا يَجْلَانُ، فَأَتَيْنِي دُنْيَاهُمْ وَإِلَّا فَجَرُوا الْعِرْفَانَ، لَا تَقْلُبُ دَعَبَ الْإِخْوَانِ دَعَبَ الْإِخْوَانِ.

(١) ذكره الحكيم (٢/٢٨٨)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الإعران (ص ٥٢، رقم ١٠) وفي المتحابين في الله (ص ٣٨، رقم ٢٧)، وابن عساکر (٥١/١٠٧)، وأخرجه أيضًا ابن عدي (٢/٢٧٢، ترجمة ٤٣٦ حميد بن علي الأخرج الكوفي).

الفصل الحادي والثلاثون

فِي هَوْلِهِ عَرْزٌ وَحَلٌّ: ﴿وَعَسَلٌ لِإِنكِ الزَّمَنَةُ طَلْهَرَةٌ

فِي عُنُقَيْهِ﴾ [الإسراء: ١٣]

قال ابن عباس: (سَعَادَتُهُ وَشَقَاوَتُهُ).

وقال مجاهد: ما مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَفِي عُنُقِهِ وَرَقَّةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا شَفِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ.

قال الزُّهْرِيُّ: الْأَصْلُ فِي هَذَا أَنَّ اللَّهَ عَرْزٌ وَحَلٌّ كَتَبَ مَا عَلِمَ مِنَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فَضَارَ كُلُّ نَفْسٍ مَا هُوَ ضَائِرٌ إِلَيْهِ عِنْدَ خَلْقِهِ وَإِنْشَائِهِ.

[الخفيف]

لَيْتَ يَغْرِي وَلَيْتَنِي تُحْسِنُ أَقْرَى أَشَقِي خَلَقْتَنِي أَمْ سَعِيدٌ
وقال الزجاج: الْعُنُقُ عِبَارَةٌ عَنِ الزُّرُومِ، تَحْمِلُ زُومَ الْفَلَاحِ لِلْعُنُقِ.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَرْزٌ وَحَلٌّ يَسْتَحْلِلُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُثَمَّرُ عَلَيْهِ سَعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكِحُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَطْلَمْتَ عُنُقِي الْحَافِلُونَ؟

فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَمْ تَحْسَنَ؟ فَيَبْهَتُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا طُلُمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرِجَ لَهُ بِطَاقَةً فِيهَا:

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟

فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَطْلُمُ، فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي عُنُقِهِ، وَالْبِطَاقَةُ فِي

عَجُونُهُ، فَنَظَّاهُ السَّجَلَاتِ، وَتَقَلَّبَ الْإِطَافَةُ^(١).

قال الحسن: * بَيْنَا عَابِثُهُ عِنْدَ الشَّيْءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَحَثَ، فَقَالَ: مَا يُبْجِكُوكَ؟ فَقَالَتْ: هَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْفَيْصَانَةِ؟ قَالَ: أَمَا فِي ثَلَاثِ مَوَاطِنَ، فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ جِئْتُ نَوْصَحَ، حَتَّى يَعْلَمَ أَتَشْفُلُ مَوَازِينَهُ أَمْ تَجِفُّ، وَعِنْدَ الْحِسَابِ جِئْتُ يَقُولُ: هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَفْعُ؛ أَيْ يَجِئُوهُ، أَوْ فِي شِمَالِيهِ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي، وَعِنْدَ الصَّرَاطِ جِئْتُ يَوْصَحُ بَيْنَ ظَهْرِي وَجَهْتُمْ، حَتَّى يَعْلَمَ أَيْتَجُو أَمْ لَمْ يَنْجُ^(٢).

قال الحسن: ويقرأ الإنسان كِتَابَهُ، إِنْ كَانَ أَمِيًّا أَوْ غَيْرَ أَمِيٍّ.

يا مَنْ يَبِينُ يَدِيهِ الْمَوْتُ وَالْحِسَابُ وَالنَّوْبِخُ الشَّدِيدُ وَالْعِثَابُ، وَعَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ كِتَابٌ، وَكَمْ أَغْطَأَ وَلَا نَدِيمَ وَلَا نَابَ، أَحَاطِرُ قَلْبِكَ أَمْ قَدْ غَابَ [الطويل]

أَيَقْظَانُ أَتَيْتَ الْيَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمٌ وَخَفِيفٌ يُطِيقُ الشُّؤْمَ حَيْرَانُ هَائِمٌ
قَلْبُكَ كُنْتَ يَقْظَانُ الْفُؤَادَ لَحْرَأْتُ مَذَابِغَ عَيْشِيكَ التُّمُورُ الشَّوْاجِمُ
بَلْ أَصْبَحْتُ بِالْيَوْمِ الطَّوِيلِ وَقَدْ كُنْتَ إِلَيْكَ أُمُورٌ مُقْطَعَاتُ عَظَائِمُ
يَعْرُوكُ مَا يَفْتَنِي وَتُشْفَلُ بِالْمُنَى كَمَا غَرَّ بِاللَّدَائِي فِي الشُّؤْمِ خَالِمُ
نَهَارُكَ يَا مَعْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّذَى لَكَ لَاؤِمُ
وَتُشْفَلُ بِمَا سَوَتْ ثَخَرَةٌ عَيْبَةٌ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ النَّبْهَائِمُ
ثَالِثُ لَوْ نَوَيْتُ وَأَخْلَصْتُ تَكَلُّمْتُ، وَلَوْ سَمِعْتُ التُّشْحَ وَقَبِلْتُ وَأَقْبَلْتُ
قَبِلْتُ، وَلَوْ غَرَّقْتُ رُفِعْتُ.

كَانَ قُرَيْشُهُ بَنِي الْعَصْمَةِ يُحَامِبُ نَفْسَهُ، فَحَسَبَ عُمْرَهُ، فَإِذَا هُوَ اثْنَيْنِ وَمِائَتَيْنِ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣)، رقم ٦٩٩٤، والترمذي (٥/ ٢٤)، رقم ٢٦٣٩، والحاكم (١/ ٤٦، رقم ٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٦٤)، رقم ٢٥٨٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤٠)، رقم ٤٧٥٥، والحاكم (٢/ ٦٢٢)، رقم ٨٧٢٢، وأخرجه أيضًا: البيهقي في الاعتقاد (١/ ٢١٠).

سنة، فحسب أيامها، فإذا هي أخذ وعشرون ألف يومًا، فصرخ، وقال: وأولئك،
ألقى إليك بإحدى وعشرين ألف ذنب، فكيف ولي في كل يوم عشرة ألف ذنب،
ثم صرخ فصر ميثًا، فسمع قائلًا يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى،
يا غافلا عما بين يديه، يا من زمانه قد مرَّ كله عليه، تفكر في صحيفة قد
استودعت، وفي نفس كلما نصيحت صدمت، وفي أكلت المنيعة فإنها قد امتدت،
وفي ذنوب لا تحصى لو أنها عدت.
كم فازت حلاوة الهوى فما تجس، وكم نال بالك بتزيق الهوى ثم
الهوى.

[المنرح]

ثم شهوات سلبن ضاجبها ثوب الذبائات والمروءات
وكم جهول ثراه فشتريا شروخ زلت يعلم أوقات
ثم شهوة مشتبهة قرعها قد انجالت عن غموم آفات
يا مؤثر الغاني على الباقي، ما الذي أصابك حتى ربيت شئك واخترت
مغايك، من لك إذا شئت فعدمت جوانك، قليل لك: اقرأ كتابك، كأنك بالمرض
وقد نقص شبائك، والالهم وقد أوجب الخيباتك، فأنرك عتابك فقد غابك، ومزق
كلما ذكرت من ذهاب إهابك، اقرأ كتابك، باعك الموت قيرًا ثم اشترى قبائك،
ونقص فصرك وعمر قرائك، وأعطاك الوحدة وأخذ أترائك، ورحلت عن القوم
فسلوا بك، ونفروا بالمالي وما أصابك إلا ما تركت من بضائك، اقرأ كتابك.
نازلك مكيو بالمتكر، وجاءك نكيو فقرعت للبريعه بك، يا دائم الخطي
في الخطايا ارتقب عقابك، يا طائر اللهو انتظر عقابك، قوا أسفا لك كم ضيعت
شبابك، اقرأ كتابك.

تقوم في الحشر ذليلا، وتبكي على الذنوب طويلا، ولا تجد للخلاص
سبيلا، ويقول المناقش إذا حضر: أخضر جسائك، ششاق غدا في الفساق،
وششقي بعد الخمر الفساق، ثنته، فالخادي بالعمر قد ساق، وشمر إن كنت تانيا
عن ساق لبائك، يا مغرصا عن ضلجوه، يا ملقفا عن ضاجوه، يا عاصيا في مساوي
وضاجوه، يا غافلا، يا جاهلا، يا عاصيا، يا مذنيا، استمع القائك، اقرأ كتابك.

الفصل الثاني والثلاثون

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْ رُكْبَكَ إِلَّا قَبْدًا إِلَّا يَوْمًا﴾
وَالْوَلَدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٢]

القضاء في القرآن على وجوه، وَكُلُّهَا ترجع إلى معنى انقطاع الشيء وتناوبه، وهي في القرآن على عشرة أوجه^(١):

أحدها: الفراغ؛ ومنها في (البقرة): ﴿قُلْ إِنَّمَا قَضَيْتُم مَّتَابَعَاتِي﴾ [البقرة: ٢٠٠].

الثاني: التمام؛ ومنه في (الأنعام): ﴿قَضَىٰ آجَلَ وَأَبْلً تَقَرُّ﴾ [الأنعام: ٢].

الثالث: الفضل؛ ومنه في (يونس): ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٥٤].

الرابع: وجوب العذاب؛ ومنه (هود): ﴿وَقَضَىٰ الْأَمْرَ﴾ [هود: ٤٤].

(١) قال ابن تيمية: أحل القضاء: الحكم. وقال الزجاج: القضاء في اللغة على ضربين فكلها ترجع إلى معنى انقطاع الشيء وتناوبه؛ فمنه الحكم بقوله: ﴿قَضَىٰ آجَلَ وَأَبْلً تَقَرُّ﴾ [الأنعام: ٢]؛ أي: بضم ذلك وأنته.

ومنه الأمر وهو قوله: ﴿وَقَفَّيْ رُكْبَكَ إِلَّا قَبْدًا إِلَّا يَوْمًا﴾ [الإسراء: ٢٢]؛ أي: أمر أمرًا قاطعًا وحتمًا، ومنه الإغلام ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤]؛ أَعْلَمْنَاهُمْ إِغْلَامًا قاطعًا.

ومنه الفضل في الحكم؛ وبمنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم﴾ [يونس: ٥٤]؛ وبمنه قولهم: قضى القاضي بين الخصوم؛ أي: قطع بينهم في الحكم.

الخامس: الختم؛ ومنه قوله تعالى في (يوسف): ﴿فَتَقَبَّلَ الْعَمْرُؤُ الْقُلُوبَ فِيهِ تَتَقَبَّلِينَ﴾ [يوسف: ٤١] .

السادس: الأمر؛ ومنه في (بني إسرائيل): ﴿وَقَفَّيْ رُكَّكَ أَلَا مَبْدُؤًا إِلَّا بِهَا﴾ [الإسراء: ٢٣] .

السابع: الخير؛ ومنه: ﴿وَقَفَّيْنَا إِلَىٰ بَيْتِ إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤] .

الثامن: الفعل؛ ومنه في (طه): ﴿فَلَقِينِ مَا أَنتَ قَائِلٌ﴾ [طه: ٧٢] .
التاسع: السلق؛ ومنه في (حم السجدة): ﴿تَقَفَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَنَاقِلٍ﴾ [فصلت: ١٢] .

العاشر: الموت؛ ومنه في (الزخرف): ﴿يَقِفْنَ تَحْتَ رُكَّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] .

قوله تعالى: ﴿وَأَقُولُ فِي إِحْسَانٍ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ أي: وَأَمَرْنَا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وهو البر والإكرام وحفظُ الجَنَاحِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ لَّهُمَا قُلُوبٌ﴾ [الإسراء: ٢٣]، قرأ أبو عمرو بالكسر من غير تنوين، وقرأ ابن كثير بالفتح من غير تنوين، وقرأ نافع: (أَفْ) بالكسر والتنوين، وقرأ ابن يعمر: (أَفْ) بالرفع والتنوين وتشديد الفاء، وقرأ أبو عمران الجوني: (أَفْ) من غير تنوين مع تشديد الفاء.

وقرأ الجحدري: (أَلْفًا) مثل (قُلُوبًا)، وقرأ عكرمة: (أَفْ) بإسكان الفاء وتخفيفها، وقرأ أبو العالية: (أَفِي) بتشديد الفاء وبياء.
قال ابن الأثيري: وَقُرِئَتْ: (إِفْ) بكسر الهمزة.

ومعنى الكلام: لَا تَقُلْ لَّهُمَا كَلَامَ تَتَبَرَّمُ فِيهِ مِنْهُمَا إِذَا كَبُرَا وَأَسْنَا، وَيَنْبَغِي أَنْ تَتَوَلَّى مِنْ خِدْمَتِهِمَا مِثْلَ مَا تَوَلَّيْنَا مِنْ خِدْمَتِكَ، عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ لِلْمُسْتَقْدَمِ، وَكَيْفَ يَطْعُ النَّسَاوِي وَقَدْ كَانَا يَحْمِلَانِ أَذْلَكَ رَاجِعِينَ خِيَانَتِكَ، وَأَنْتَ إِذْ حَمَلْتَ أَذَاهُنَا رَجَوْتَ مَوْتَهُمَا.

روى عبد الله بن عمر، قال: * جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَحِبِّي وَإِلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَيُجِيبُهَا

فَجَاهِدُ^(١)، أخرجه في "الصحيحين" من حديث عبد الله بن عمرو، وكان أكثر الصحابة رواية، غير أن جملة ما ضبط عنه سبع مائة حديث، أخرج له منها في "الصحيحين" خمسة وأربعون، المتفق عليه منها سبعة عشر حديثاً، انفرد البخاري بشمانية، ومسلم بعشرين.

وفي أفراد مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " لا يَجْزِي وَلَدٌ عَنْ وَالِدِهِ إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَثْلُوكًا، فَيَشْرِيهِ، فَيَغْتَبَهُ "^(٢).

وفي "الصحيحين" من حديث أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه ذكر في الكباير عقوق الوالدين، قالت عائشة رضي الله عنها: (مَا يَرُّ وَالِدٌ مَنْ شَدَّ النُّكْرَ إِلَيْهِ).

واعلم أن الأمَّ مُقَدَّمَةٌ في البرِّ لموضع الشفقة، وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة قال: " جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ النَّاسِ أَحَقُّ بِنِّي بِحَسَنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ "^(٣).

وقال ابن عباس: (لَمْ أَعْلَمْ غَنَلاً أَلْزَبَ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ).

قالت عائشة رضي الله عنها: (رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَا أَبْرَ مِنْ كَانِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَمْرِهِمَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَحَارِثَةُ بْنُ الْغُثَّانِ، فَأَمَّا عُثْمَانُ فَإِنَّهُ قَالَ: مَا قُدِرْتُ أَنْ أَتَأْتِلَ أُمِّي مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَأَمَّا حَارِثَةُ فَإِنَّهُ كَانَ يُطْعِمُهَا يَدَهُ، وَلَا يَسْتَقْبِلُهَا كَلَامًا فَقَدْ حَتَّى يَسْأَلَ مَنْ جَدَّهَا بَعْدَ أَنْ يَخْرُجَ مَاذَا قَالَتْ أُمِّي).

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) أخرجه مسلم (٤/١٩٧٥، رقم ٢٥٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢/١١٤٨، رقم ١٥١٠)، وأبو داود (٤/٣٣٥، رقم ٥١٣٧)، والترمذي (٤/٣١٥، رقم ١٩٠٦) وقال: حسن. وابن ماجه (٢/١٢٠٧، رقم ٣٦٥٩)، وابن حبان (٢/١٦٧، رقم ٤٤٤)، وأخرجه أيضاً: أحمد (٢/٦٣٠، رقم ٧١٤٣)، وابن أبي شبة (٥/٢١٨، رقم ٢٥٣٩٨).

(٣) أخرجه مسلم (٤/١٩٧٤، رقم ٢٥٤٨).

"بِئْسَ فَرَأَيْتِي فِي الْجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ نَارِي يقرأ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بِنْتُ الثُّغَمَانِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَذَلِكَ الْبِرُّ، كَذَلِكَ الْبِرُّ"^(١)، وكان أَيْزُ النَّاسِي بِأُمِّهِ، أما أُمُّ عِثْمَانَ فاسمُهَا أَرْوَى بِنْتُ كَرِيزٍ، أَسْلَمَتْ وَبَايَعَتْ، وَجَمَلَةٌ مِنْ فِي الصَّحَابَةِ اسْمُهَا أَرْوَى عَمْسَةٌ:

أَرْوَى بِنْتُ رِبِيعَةَ، أَرْوَى بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَرْوَى بِنْتُ كَرِيزٍ، أَرْوَى بِنْتُ مَالِكٍ، وَيُقَالُ: أُمُّ أَرْوَى.

ثَلَاثٌ مِنْهُنَّ بَايَعْنَ: بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَبِنْتُ كَرِيزٍ، وَبِنْتُ مَالِكٍ، وَوَاحِدَةٌ مِنَ الْخَمْسِ رَوَتْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ الَّتِي تُنْسَبُ.

وَأَمَّا أُمُّ حَارِثَةَ، فَاسْمُهَا جَعْدَةُ بِنْتُ عُثَيْبٍ، أَسْلَمَتْ وَبَايَعَتْ، وَلَيْسَ فِي الصَّحَابِيَّاتِ، وَلَا فِي التَّابِعِيَّاتِ مِنْ بَشَارِكِهَا فِي اسْمِهَا غَيْرُ أَنَّهَا لَمْ تَرَوْ شَيْئًا.

وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ إِذَا دَخَلَ إِلَى أُمِّهِ يَكَلِّمُهَا بِضَعْفٍ، فَرَأَاهُ رَجُلٌ يَوْمًا، فَقَالَ: مَا لَه، أَشَتَكِي شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، وَلَكِنَّهُ هَكَذَا يَكُونُ عِنْدَ أُمِّهِ.

وَنَادَتْ يَوْمًا ابْنَ هَوَيبِ أُمُّهُ، فَأَجَابَهَا، فَارْتَفَعَ صَوْتُه عَلَى صَوْنِهَا، فَأَعْتَقَ رَقَبَتَيْنِ.

وَكَانَ طَيِّبَانُ بْنُ عَلِيٍّ مِنْ أَيْزِ النَّاسِي بِأُمِّهِ، فَبَاتَتْ وَفِي صَدْرِهَا عَلَيْهِ شَيْئًا، فَفَاقَ عَلَى قَدَمِهِ يَكْرَهُ أَنْ يَوْقُظَهَا، وَكَرِهَ أَنْ يَتَعَدَّ حَتَّى إِذَا ضَعُفَ جَاءَ غُلَامَانِ مِنْ غُلَامَانِهِ، فَمَا زَالَ مَعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا حَتَّى اسْتَيْقَظَتْ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهَا.

وَقَالَ سَقِيانُ بْنُ عَيْبَةَ: قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ سَفَرٍ، فَصَادَفَتْ أُمُّهُ قَائِمَةً تُصَلِّي، فَكَرِهَ أَنْ يَقْعُدَ وَهِيَ قَائِمَةٌ، فَغَلَبَتْ مَا أَرَادَ، فَظَوَّكَتْ لِيُؤْخِزَ.

وَقَالَ بَشَرٌ: الْوَلَدُ يَقْرُبُ مِنْ وَالِدِهِ حَتَّى يَسْمَعَ نَفْسَهُ، أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَضْرِبُ بِسَيْفِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِمَا أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

قَالَ عِثْمَانُ بْنُ سَوْدَةَ - وَكَانَتْ أُمُّهُ مِنَ الْعَابِدَاتِ، يُقَالُ لَهَا: رَاهِبَةٌ -:

لَمَّا احْتَضَرْتُ أُمِّي، رَفَعْتُ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَتْ: يَا دُخْرِي وَدُخْرِي لَا

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/١٦٦، رَقْمُ ٢٥٣٧٦)، وَابْنُ حِبَانَ (١٥/٢٧٩، رَقْمُ ٧٠١٥)، وَالْحَاكِمُ (٤/١٦٧، رَقْمُ ٧٢١٧) وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ.

تَحْذِئُنِي عِنْدَ الْمَوْتِ، وَلَا تُوجِئُنِي فِي قَبْرِی، قَالَ: فَمَاتَ، وَكَنْتُ أَتِي فَبَرَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، وَاسْتَغْفِرُ لَهَا، فَرَأَيْتُهَا لَيْلَةً فِي مَنَامِي، فَقُلْتُ: يَا أَشَاءَ، كَيْفَ أَنْتِ؟ قَالَتْ: يَا بَنِيَّ؛ إِنَّ لِلْمَوْتِ كَرْبَ شَدِيدَةً، وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَنِي بَرْزَخٌ مَحْمُودٌ، يُقَرِّئُنِي فِيهِ الرَّيْحَانُ، وَيُؤَسِّدُ فِيهِ السُّنْدُسُ وَالْإِسْتَبْرَقُ، فَقُلْتُ: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ؛ لَا تَدَّخِرْ زِينَتَنَا وَالدُّعَاءَ لَنَا، فَإِنِّي لَا بُشْرُ بِمَجِيئِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذَا أَقْبَلْتَ مِنْ أَهْلِكَ، يُقَالُ لِي: يَا رَاهِبَةً هَذَا ابْنُكَ، قَدْ أَقْبَلَ، فَأَسْرُ، وَبَسْرُ بِلَدِكَ مِنْ حَوْلِي مِنَ الْأَمْوَاتِ.

ومن حديث ابن أرقم، قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: " مَنْ أَصْبَحَ وَالِدًا وَاصْبِيئَ عَنَّهُ، أَصْبَحَ وَلَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَصْبَحَا سَاجِدَيْنِ عَلَيْهِ، أَصْبَحَ وَلَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ مِنَ النَّارِ، وَإِنْ كَانَ وَاحِدٌ فَوَاحِدٌ "، فَيَقِيلُ: " وَإِنْ عَلِمْنَا، فَقَالَ: " وَإِنْ عَلِمْنَا، وَإِنْ عَلِمْنَا " (١).

ومن حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ غَافٌّ، وَلَا مُدْمِنٌ خَمِرٍ " (٢).

ومن حديث أبي كاهل، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ حَقَّيْنِ وَمَيْتَتَيْنِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يُرْهِمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قُلْنَا: فَكَيْفَ يَبَرُّ وَالِدَيْهِ مَيِّتَتَيْنِ؟ قَالَ: يَرْهُمُهُمَا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَوَالِدَيْهِ، وَلَا يَسُبَّ وَالِدَيْ أَحَدٍ، فَسُبَّ وَالِدَاهُ " (٣).

وفي إفراهِ مُسلم من حديث أبي هريرة، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ أَبِي مَاتَ وَلَمْ يُوصِ، أَيَنْفَعُهُ أَنْ أَتَصَدَّقَ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ " (٤).

(١) أخرجه الديلمي (٣/٦٦١)، رقم ٥٩٤٢، وأخرجه أيضًا: البيهقي في شعب الإيمان (٦/٢٠٦)، رقم ٧٩١٦.

(٢) أخرجه أحمد (٦/٤٤١)، رقم ٢٧٥٢٤، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٧/٢٠٢) قال البيهقي: فيه سليمان بن هبة الدمشقي وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه ابن معين وغيره. وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم (١/١٤١)، رقم ٣٢١.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/٣٦١)، رقم ٩٢٨.

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢/٤٣٤)، رقم ٢٥٦٠.

ومن حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: * إِنَّ الْعَبْدَ لَتَرْفُغَ لَهُ الشَّرِيعَةُ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبٍّ أُنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْنَائِهِ وَلَدَيْكَ مِنْ بَعْدِكَ^(١).

ومرَّ عيسى ابنُ مريم عليه السلام بغيرِ يُعَذَّبُ صاحبه فيه، فجاهده عيسى ابن مريم قابلاً، فإذا هو ليس يُعَذَّبُ، فقال عيسى: اللَّهُمَّ مررتُ عامَ أولٍ بهذا القبرِ فإذا هو يُعَذَّبُ، ومررتُ الآنَ فإذا هو ليس يُعَذَّبُ، فأوحى الله تعالى إليه أَنَّهُ أَفْزَكَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ طَرِيقًا، وَأَوْرَى بَنِيَّامَ، فَفَقَرَتْ لَهُ بِمَا عَمِلَ ابْنُهُ مِنْ بَغْيِهِ. وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه يقول: (مَنْ زَارَ قَبْرَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَخِيهِمَا يَوْمَ جُمُعَةٍ، قَرَأَ بِسُورَةِ الْغَفْرِ لَهُ).

[الكامل]

رُؤُوسَ الَّذِينَ قَتَلْتَ عَلَى قَبْرَيْهِمَا	فَمَحَا نَبِيٌّ بِكَ قَدْ تُقِلَّتْ إِلَيْهِمَا
لَوْ كُنْتُ حَيْثُ هُمَا وَكُنَّا بِالْبَيْتِ	وَأَزَاكَ حُبُّوهُ لَا عَلَى قَدَمَيْهِمَا
مَا كَانَ قَلْبُهُمَا إِلَيْكَ فَطَالَ مَا	مَنْحَاكَ مَحْضُ الزُّوْرِ مِنْ نَفْسَيْهِمَا
عَانَ إِذَا مَا أَبْصَرَ بِكَ عِلَّةً	جَزَعَا لِمَا تَشْكُو وَشَقَّ عَلَيْهِمَا
عَانَ إِذَا سَمِعَا أُنْبَاءَكَ أَشْبَلَا	قَتَعَتْهُمَا أُنْفَا عَلَى حَدِيثَيْهِمَا
فَلَمَّا لَحِقَتْهُمَا عَذَابُ أَوْ بَعْدُهُ	خَشِمَا هُمَا لَحِقَا هُمَا أَبَوَيْهِمَا
وَلَتَقْدِمَنَّ عَلَى بَعَالِكَ بِشَلٍ مَا	قَدِمَا هُمَا أَيْضًا عَلَى بَغْلَيْهِمَا
بُشْرَاكَ لَوْ لَدِمْتُ بَعْلًا صَالِحًا	وَلَتَضَيَّتْ بَعْضُ الْحَقِّ مِنْ حَقِّيهِمَا
وَقَرَأْتُ مِنْ آيِ الْكِتَابِ بِقَدْرِ مَا	تَشْطِيعُهُ وَهَدَيْتُ ذَاكَ إِلَيْهِمَا
فَأَحْفَظُ حَقِيقَتَكَ وَحَقِيقَتِي وَأَعْمَلُ بِهَا	فَعَسَى تَنَالُ الْغُورُ مِنْ بَرِّهِمَا

الفصل الثالث والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَرَرَى النَّفْسَ إِذَا طَلَعَتْ فِرَاقَهُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ [الكهف: ١٧]

[إخواني، من سبقك له سابقة ﴿إِنَّ إِلَهِكَ سَبَّحْتَ لَهُمْ يَكُنَّ الْخُسْفَى﴾ [الأنبياء: ١٠١] لم يؤذِهِ ما اكتسب، ومن حقَّ عليه كلمة * هؤلاء في النار ولا أنبأني^(١) لم يتفَعَّ القُرْبُ، إنه رَضِيَ عن أقوام فلم تضرهم السيئات، وسَخِطَ على أقوام فلم تنفعهم الحسنات، فإِنَّ زَلَمَ ﴿حَكَّتْ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾ [المجادلة: ٢٢] في أعلى كهف فلوب أهل الكهف، فَلَمَّا نَصَبَ لَهُمْ مَلِكُهُمْ شَرَكُ الشَّرِكَةِ تَجَافَتْ بِضَائِرُهُمْ، فَفَرُّوا، فَنَضَّاقَ عَلَيْهِمْ فُضَاءٌ ﴿فَلَمَّا نَفَوْا كَانُوا يَسْتَخَفُّونَكُمْ أَنْفُسُ﴾ [الأنفال: ٢٦]، فسادهم لسان ﴿وَقَدْ يَتَوَلَّى الْفَلِيلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]: ﴿إِنَّ لِرَبِّهِ رَيْعَةً﴾ [العنكبوت: ٥٦]، فخرجوا إلى فضاء الفضاء، فأقبل رئيسهم تملِيخًا يملِي خائفًا عليهم سُورَةً ﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]، فَمَّا رَاغَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَّا ضَارِعُ صَادِقِهِمْ فَوَافِقُهُمْ، فَتَبِعَهُمْ كَلْبُهُ، فَأَخَذُوا بِضُرْبَتِهِ، فَضَاحَ لِسَانُ خَالِهِ: إِنَّ تَضَرُّبِي لِمُنَاقِصِي جُنْحُكُمْ، فَإِنَّ مَقْلُوبَتَكُمْ لَيْسَ مِنْ جُنْحِكُمْ، إِنْ لَمْ تَأْتُوا بِي لَقَدْ أَتَيْتُ بِكُمْ، وَلَيْسَ مِنْ شَرِطِ الشَّجَبِ أَنْ يُحِبَّ، أَنَا فِي قُبْضَةِ أَسْرُكُمْ أَسِيرٌ، أَسِيرُ إِذَا سَرْتُمْ، وَأَحْرَمُ إِذَا بَشْتُمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا قَارَ صِبَاغَةُ الْعُرْلَةِ حَلَبُوا الْفِرَى، ﴿وَرَرَى نَارًا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: ١٠]، وكان تملِيخًا يَمُرُّ خَيْلُ الْجَنَلِ إِذَا مَرَّ بِحَلَبٍ لَهُمُ الْمِيرَةُ، إِلَى أَنْ

(١) أخرجه أحمد (١٨٦/٤)، رقم (١٧٦٩٦) قال الهيثمي (١٨٦/٧): رجاله ثقات. وابن سعد (٣٠/١)، والحكيم (٢٠٢/٤)، والحاكم (٨٥/١)، رقم (٨٤) وقال: صحيح.

أَمَهُمْ يَوْمًا، وأخبرهم أن الملك قد دَخَرَهُمْ، فَتَأَخَّثَ حِمَامُهُمُ الخوف على أفنانِ
الْخَدْرِ بِقُنُونِ الْقَفَى، فوقعوا بِالْعَمِّ كَالْمُعْتَمِي عليه، فَطُشِبَتْ على الْأَذَانِ إِذْ نَ قَطَعَ
رَاسُحُ أَوْثَانِهِمْ (فطسرينا) فراسخ ثلاث مائة سنين، ثم إن الملك خَرَجَ بِجَمْعِ جَفْعَةٍ
فِي يَلَابِيهِمْ، فإذا بهم، فَسَدَّ الْيَابَ وما وَعَى على وَغَاءٍ مِثْلِكَ، فَمَا ضَاعَ حَتَّى
ضَاعَ الْمَلِكُ فِي بَيْتَادِ الْهَلَكِ، وكانت الشمسُ تَحُولُ على حُلِيِّهِمْ بحراسةٍ خلتهم
من بِلَاءِ الْبِلَى، وأعينهم مفتوحة في حالِ النومِ لئلا تَذُوبَ بِأَطْبَاقِ الْإِطْبَاقِ،
﴿وَقَسَّيَتْهُمْ الْفُسْطَاقُ وَفُتِمَ ثُبُورُهَا﴾ [الكهف: ١٨]، ويَدُ الحِرَاسَةِ تَقْلِبُ أَجْسَادَهُمْ
إِسْتَلْسَلَهُمْ من أَقْدَمِ عَفْرِ، وَخَرَّتِ الْخَالُ فِي كَلْبِهِمْ عَلَى مَا خَرَّتْ بِهِمْ، فَخَالَتْ فِي
شَرِكِ ثُبُوبِهِمْ قد وَقَعَ بِصِيدِ الْوَصِيدِ، وكان قد حل خلفهم من الخلف في البعث
ما حل عقد العقائد، وكان بَعَثَهُمْ أَجْلَى دَلِيلٍ، وَأَجَلٌ شَهِيدٍ، فانساب إلى
سببهم راعٍ كان سبب إيقاظهم، فاضتم فتَحَ بابِ الكهفِ لاحترارِ الْعَتَمِ، فزاد
نسيمَ نسيمِ الْهَوَى، فاستيقظَ الْمُرُوءُ، فَلَمَّا تَلَاقُوا عندِ الْقَوْمِ الْقُدُومِ من النومِ
تصانفت أَيْدِي الْأَلْسِنِ بِلَفْظِ السَّلامِ، فَتَرَلَّمْ أَحَدُهُمْ بِلَفْظِ ﴿حَكِّمْ لِيَنْتَرِ﴾
[الكهف: ١٩]، فَأَجَابَهُ الْآخَرُ بِلَفْظِ لِيَايَا الظَّنِّ: يَوْمًا، ثم رأى بَقِيَّةَ الشَّمْسِ
نَقِيَّةً، فَأَغْضَى بِنَقِيهِ الْوَرُوعِ وَرَطَاتِ الْكُذْبِ، فعاد يُشْعِ: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾
[الكهف: ١٩]، فَلَمَّا انْقَضَى مَا انْقَضَى عَلَيْهِمْ مِنَ السَّنَةِ، وَخَرَّ جُوعُ الْبَطْنِ بِأَيْسَرِ
الشُّكُوفِ، فأعرب اللسانُ عن الْمَضْمَرِ (فَلَا تَعْتُوا)، فخرجَ تَمْلِيحًا فِي رِيٍّ مُتَكِرٍ،
فجعل يرى ما لا يعرف فيكر، فَلَمَّا ضَلَّتْ مَعْرِفَتُهُ بِالْمَعَاهِدِ أَقْبَلَ بِتَهْمِ الْبِظَةِ فِي
الْمَعَاهِدِ، لكنه مَرَّ إلى بَائِعِ الطَّعَامِ لَمَّا بَاعَهُ، فَأَتَكَزَ دِرْهَمَهُ وَمَا بَاقَهُ، فَظَلَّهُ قد
وَجَدَ كَثْرًا، ولقد وجدَ كَثْرًا: ﴿وَيَذْكُرُهُمْ هُنَا﴾ [الكهف: ١٣]، فَحَسَلَهُ الْقَوْمُ
إِلَى الْوَالِي، فقال: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَنَائِي، فَمَا لَكُمْ وَمَا لِي، هُنَا وَاللَّهِ فَنَيْتُهُ، أَخْرَجْنَا
الْمَلِكُ عَلَى الْفَتْنَةِ، فهِرْنَا مِنْهُ عَشِيَّةَ أَمْسٍ، فَبَيْنَمَا فِي بَاطِنِ كَهْفٍ، فَلَمَّا اتَّهَبْنَا
خَرَجَتْ أَبْنَاءُ لَلْإِتْبَاعِ قُوَّةَ الْوَقْتِ، فَسَارَ الْقَوْمُ مَعَهُ فِي عَسْكَرِ التَّعَجُّبِ، فسمع
إِخْوَانَهُ جَلْبَةَ الْخَيْلِ فِي جَلْبَةِ الْطَلَبِ، فتجاوبوا بِأَصْوَاتِ التَّوْدِيْعِ، وقاموا إلى
صَلَاةٍ مُؤَدَّعٍ، فدخلَ تَمْلِيحًا بِبِكِي، فأوقفوه يَنْتَلُهُمْ أَنْبَاءُهُمْ فَصَدَّقُوهُ، وَأَعْلَنَهُمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا يَنَامًا، وَإِنَّمَا نَصَبُوا لِلتَّعْبُدِ أَعْلَامًا، ثم عادوا إلى الْمُسَاجِعِ، ووافتهم

الوفاة، وفات لقاءهم، وشملت عليهم بئر الرقيب بأخف: ﴿لَوْ أَهْلَكْتُ عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف: ١٨]، فعاد عنهم عند كل سنة تدور فيه سائر الألسنة سائر تلك السنة، ففكروا فيهم يا أولي العقول والبحث، فإن القوم أخذوا أدلة البحث، تالوا ما العجب من نائم لم يعرف قَدْرَ ما مرَّ من نَوْبِهِ، إنما العَجَبُ من مُتَيْقِظٍ لم يعرف قَدْرَ ما ذهب من عُمُرِهِ، يا متيقظًا في طلب الفاني، نائمًا عن تحصيل الباقي، اعكس الحال فقد أصبحت، أبطلت الدهر فَنِيشتَ، وأرشدك الوعظ فَنِيشتَ، وَحَدَّثَكَ المَوْتُ مِمَّا فَنِيشتَ، أَلَيْسَ حُبُّ الدُّنْيَا يَلْبُكَ، وَقَلْبُ مَوَاطِنِ نَسِيمِ قَلْبِكَ، كم ترمي هدف سَمْعِكَ بِرَشَقِ كَلَامٍ، كم تُكَلِّمُ جَارِحَةً قَلْبِكَ بِجِرَاحَةِ القَبُولِ كَلَامٍ، كم يُلْدَغُ أصلُ قَلْبِكَ بِحِمَّةِ مَلَامٍ، التَّلَقُّ ضَاحٍ وَقَلْبُ المَرءِ سَكْرَانٌ.

[الوافر]

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ الْإِنَامُ	لِمَا خَلِقُوا لِمَا خَلِقُوا وَتَأَمُّوا
لَقَدْ خَلِقُوا لِمَا لَوْ أَبْصَرْتُهُ	عَيْنُونَ قُلُوبِهِمْ سَاحُوا وَفَاضُوا
مَنَاتٌ ثُمَّ قَبِيرٌ ثُمَّ حَشَرٌ	وَنُزْبِيخٌ وَأَفْوَالٌ عِطَامُ
يَبُومُ الْحَشَرُ قَدْ عَمِلُوا رِجَالُ	قَضَلُوا مِنْ مَكَاافِتِهِ وَضَامُوا
وَنَحْنُ إِذَا أَمَرْنَا أَوْ نَهَيْنَا	عَاقِلُ الْخَفِيفِ أَيْفَاطُ يَبَامُ

الفصل الرابع والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهِكُمْ مَعَكُمْ فَأَتُوا الصَّلَاةَ إِنَّكُمْ لَا تَتُوبُونَ

إِلَّا مَن أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٢٠]

في " الصحيحين " من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أَنَّ امْرَأَةً بَيْتَانَا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يَطْلِفُ بِبُيْتِهَا، قَدْ أَذْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْفَقْطِ، فَتَرَعَتْ جُرْمُوقَهَا وَأَشْفَتْ بِهِ وَشَفَّتَهُ، فَفَقِرَ لَهَا بِهِ " (١).

قوله تعالى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ ، هذا الحرف في ثلاث مواضع في القرآن، هي (الأعراف): ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَكُلُوا لِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا خَاشِعًا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وفي (يونس): ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ الْيُسْفَى﴾ [يونس: ٩]، وفي (الكهف): ﴿وَالْأَنْهَارُ﴾ [الكهف: ٣١].

قوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الكهف: ٣١]، وقوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، حرف واحد في (براءة)، وبإني القرآن ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ .

قوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الكهف: ٣١]، (من) في القرآن على سبعة أوجه:

أحدها: صلة؛ ومنه: ﴿وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْفَجِرُوا﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْفَجِرُوا﴾ [يوسف: ١٠١]، ﴿وَمَا كُنَّا بِمَعَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْفَجِرُوا﴾ [النور: ٣٠] .

الثاني: بمعنى الباء؛ ومنه: ﴿وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْفَجِرُوا﴾ [الرعد: ١١]، ﴿وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْفَجِرُوا﴾ [الباء: ١٤]، ﴿وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْفَجِرُوا﴾ [القدر: ٤] .

(١) أخرجه مسلم (١/١٧٦١)، رقم (٢٢٤٥).

الثالث: بمعنى في: ﴿مَا كُنَّا خَلْقًا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

الرابع: بمعنى على: ﴿وَنَصْرَتُهُ مِنَ الْغَوْرِ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

الخامس: بمعنى التبعيض: ﴿أَتَدْعُونَنَا مِنْ حَتِّكَ مَا حَتَّكَتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

السادس: بمعنى عن: ﴿فَتَعَسَّكَوا مِنْ يَؤُسَافٍ﴾ [يوسف: ٨٧].

السابع: لبيان الجنس: ﴿مِنْ تَقَاتُكُمَا﴾ [البقرة: ٦١]، ﴿مِنْ الْقُرْآنِ﴾

[الإسراء: ٨٢]، ﴿مِنْ لَكَاوِيٍّ﴾ [الكهف: ٣١]، ﴿مِنْ الْأَوْتَنِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال الفراء: وفي واحد الأساور ثلاث لغات: سَوَارٌ، وَسَوَارٌ، وَأَسْوَارٌ. قال المفسرون: لَمَّا كَانَتْ الْمُلُوكُ تَلْبَسُ فِي الدُّنْيَا الْأَسْوَارَ وَالسَّيَّحَانَ، جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ لِثِيَابِهِمْ حَضْرًا؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ النَّظَرِ إِلَى الْأَسْوَدِ يُورِثُ الْبَصَرَ، وَإِلَى الْأَبْيَضِ يُفَرِّقُ الشَّعَاعَ وَيُزِيلُهُ، وَالْأَخْضَرُ لَوْنٌ بَيْنَ الْبَيْضِ وَالسَّوَادِ يَضَعُ الشَّعَاعَ، وَالسَّنْدُ مِنْ رَقِيقِ الدِّيبَاجِ، وَالْإِسْتَبْرَقُ ثِيَابُ، وَالْأَرَاكُ السُّرُرُ فِي الْجَنَّةِ.

إخواني؛ ما نال القوم ما نالوا إلا بترك ما نطلبه وما نالوا، هل نيلت فضيلةً إلا بتعبٍ؟! هل حصلت منقبةً إلا بتعبٍ؟! [الكامل]

وَالْعَمْرُ فِي ثَلَاثِ الرُّجَالِ وَلَمْ يُنَلَّ عَمْرٌ إِلَّا تَعَبٌ وَلَا تَكْلِيفٌ
وَالْجَدُّ مَعْنَى لِإِذَا عَمْرٌ قَارَةٌ وَالَّذُؤُ بَيِّنَةٌ فِي مَحَانِ الرِّفَافِ
نَحْمٌ صَبْرٌ يَشْرُ عَنْ شَهْوَةِ حُلُوهٍ، حَتَّى سَمِعَ كَلِمَةَ حُلُوهٍ، (كُلُّ يَأْ مِنْ لَمْ يَأْكُلْ)، مَا مُدَّ سَجَافٌ ﴿يَعْنِي الْعَيْدَ﴾ [ص: ٤٤] عَلَى ثَبَةٍ ﴿وَوَقَّتْ لَهَا اللَّهُ﴾ [ص: ٤٣] حَتَّى جُرِّبَتْ فِي أَمَانَةٍ ﴿يَا وَجَدْتَهُ كَيِّدًا﴾ [ص: ٤٤]، مَنْ لَمْ تَبْلُكِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ، لَمْ تَضْحَكِ الْآخِرَى إِلَيْهِ.

كان بعض التجارين يبيع الخشب، وكان عنده قطعة أبنوس شقيقة تحت الخشب، فأشترى منه، فدخل دار الملك بعد مدّة، فإذا بها قد جعلت سريراً للملك، فقال: سبحان الله تعالى! لقد كنتُ لا أعياً بهذه، فكيف وصلت إلى

هذا المقام؟ فتهتف به لسان الحال ناثياً عنها: لا تنظر إلى الثمرة ونسى ضير الأصل، كم صبرت على ضرب الفلأسي، ونشر المناشير حتى وصلت إلى هذا.

[الخفيف]

جئت أشكو قاستوقفتني إلى أن عُلّ شئني من قبل أن عُلّ شئني
وقدّنتني من السُّقام وَلَكِنْ أَنفَذْتَنِي قُلّاً إلى أن قدّنتني
طال ما تَضَيُّوا الأقدام في خدمة الملك، وناقشوا أنفسهم مناقشة
مراحك، إن أنعم شكروا، وإن ابتلوا صبروا، ولا التبر عند الشاك، يؤثرون
على الفقراء بالزاد، فقد زادوا على البرامك، إذا دخلوا دار الثواب دخلت من
كل باب على الملاء العلاتك، كلّ ما من لم يأكل هذا بذلك، الصدق
صديقهم، والرفق رفيقهم، وهذه طريقهم، فأين السالك، صابروا ما آذى، وما
قالوا ماذا، فاقتد يا هذا من نايك بتأييك، رفضوا الدنيا جزماً، وتركوا الأمل
جزماً، وأنت تنوب لفظاً لا عزمًا، وللحج مناسك، تتعبّد لا تُرائي، وتزقّد لا
زهّد مُرائي، هذه نصيحتي برأيي، فاعمل أنت برأيك.

الفصل الخامس والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَيْدَ قَالَ مُوسَى لَنَجْذِهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ
مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: ٦٠]

فتاه يوشع، وإنما قيل: فتاه؛ لملازمته إياه، ومعنى (لا أبرح): لا أزال
أسير، (مجمع البحرين): ملتقاهما، و (الحقب): الدهر، فكان السبب في هذه
السفرة أنه لما علا شرف التكليم بالتكليم والتوراة على كل شرف، قال قومه:
أي الناس أعلم؟ قال: أنا، ولم يقل: فيما أعلم، فُعْتِبَ عليه، إذ لم يزد العلم
إليه، وجاءه وجاءه وحى وحى: * ^١ إنا لي عبدنا أعلم منك ^(١)، فقال: وكيف
لي به، قال: تزود في سفرك حوثًا مالحًا، فحيث تفتقد الحوت تجد العبد،
سافر موسى سبعة أمصار:

سفر التلّف: ﴿فَاتَّبَعْنَاهُ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، وسفر الهرَب:
﴿فَنَزَلْنَاهُ مِنْكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وسفر الطلب: ﴿فَقَالَ لَأَتَقَبِّلَكَ أَتَكُفِّرُنَّ﴾ [طه:
١٠]، وسفر السبب: ﴿فَأَنزِلْ يَمْكُرُ لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣]، وسفر الثقب: ﴿لَقَدْ
لَبِيتْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، وسفر الطرب: ﴿وَلَمَّا سَأَلَ مُوسَى
لِيُفَتِّنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وسفر السجيب: ﴿يَتَفَتَّهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾
[المائدة: ٢٦].

فوجد في كل سفر فائدة، ففي سفر التلّف وجد الأم، وفي سفر الهرَب
وجد الغضا والشهز، وفي سفر الطلب وجد النبوّة والتكليم، وفي سفر السبب
وجد الراحة من العدو يفرق فرعون، وفي سفر الثقب وجد الحضر، وفي سفر

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٥)، رقم (٢١١٥٧).

القرب وجد الثؤازة، وفي سفر العجيب أكرم بالغمام والمن والسلوى، فلَمَّا لَقِيَ الْخَضِرَ قام لديه في ذل: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ [الكهف: ٦٦]، فتلقاه برد: ﴿لَنْ﴾ [الكهف: ٦٧]، فبأعجبا لموسى، كم لقي من لَنْ، أَمَرَ قَوْمَهُ بالإيمان، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقعوا في التيه فتادوا: ﴿لَنْ نُصْبِرَ﴾ [البقرة: ٦١]، ندبوا إلى الجهاد فصاحوا: ﴿لَنْ نُدْخِلَكُمَا﴾ [المائدة: ٢٢].

طرق باب (أروني)، فردّه حاجِبُ (لَنْ)، وزاده (تُراني)، أقبل إلى الْخَضِرِ للتعليم، فقابله بلفظ (لَنْ)، ثم زاده من زاد الرد بكفّ كَفَفَ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ [الكهف: ٦٨]، فأعاد السؤال بعبارة (تَسْجِدُنِي)، فَسَرَطَ عليه شرطاً (فَلَا تَسْأَلُنِي)، فركبوا سفينة، فَلَوى منها لَوْحاً قَفْلَعَهُ، فَعَجَّلَ موسى بإنكار (أَخْرَجْتَهَا) فَذَكَرَهُ لفظ (وكيف تصبر) بعبارة (أَلَمْ أَقُلْ)، فمحا ما جنى باعتذار (لَا تَزَاجِدُنِي)، فلما ألقتهما السفينة لَقِيَا غلاماً فقتله، فَجَاشَ جَاشٌ موسى بتوبيخ (لَقَدْ جِئْتَ)، فأعاد الخضر عتاب (أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ)، فَسَرَطَ موسى عندها ﴿إِنْ سَأَلْتَهُ مَنْ هُوَ مَقَا﴾ [الكهف: ٧٦]، فَأَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لَا يَغْرُسُونَ إِلَّا نخل البُخْلِ (فَأَتَيَا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا)، فصادف الخضر صدقاً قد صدف فأقامه، وجوى الجوع، فدافعه موسى وأقامه، فنطق لسان الفاقة بلفظ (لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ)، فَأَرَأَيْتَ الْخَضِرُ ماء الشُّحْبَةِ بيد (هَذَا فِرَاقِي بَيْنِي وَبَيْنِكَ).

إخواني؛ لما عالف موسى الخضر في طريق الصحبة ثلاث مرات، حل عقدة الوصال، فبأمر لم يَب لنا قط، ما تخاف أن يقال لك في بعض زلاتك: هَذَا فِرَاقِي بَيْنِي وَبَيْنِكَ، ثم إن الْخَضِرَ وعد موسى بحلّ المُشْكِـل في ضمان (سَأَتُبِّـئُكَ بِتَأْوِيلِ)، ثم وَدَّعَهُ حين وَدَّعَهُ حتى يَبِّـئ له علم ما جرى، وأطلعه، فأخذ يداوي أخذ عيني وهو لديه كالأخيد المستأخذ، فجعل يشرحها فصلا فصلا بلسان إنسان يقول فصلا، وكلما ذكر له أصلا أصلا، لم يَبِّ لموسى عين تراء أصلا، وكلما سَلَّ من خَرَّ العتاب نصلا ضاح لسان حاله: كم نصلي، فألقى تفسير الحوادث إلى الكلام وأملى، والقدَرُ يقول: أهو أعلم أم لا؟ فعلم موسى ويوشع أيّ عبيد أمّا منذ ابتداء في الشرح بـ (أَمَّا)، ثم انتدب بلسان

العتب: يا موسى؛ أَتُنَكِّرُ إخراجي السفينة، الظاهر إفساد، وَرُبَّ صلاح يُضْمَرُ ضمته ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حِكْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وتذكر إنلاف شخص دين لإبقاء دين شخصين، أو كُفِّرَتْ إقامة الجدار لَشَحْ أهل القرية بالقرى، فأودعت من الأصفياء ما عامله البخلاء بالبخل؟ أَمَا تَلَمَّحْتَ سِرَّ * حِيلَ مَنْ قَطَعَكَ^(١).
يا موسى؛ كان الجدار لينيمين ومن عمل من جرى ينيم فما أجرى إلا إلى اجر (كَانَ أَبَوْنَاهُ ضَالِحًا)، فلذهب وقد أودع كنز الذهب حاكم القدر، فبعث لتسليمه الخضر، ولو أودع من لم يصف ضيقًا لبخله ما ودع ودبعته تسلم لمستلم التسليم.

يا موسى؛ لقد أنكرت ما جرى بما جرى لك مثله، خَبِرْتُ يومَ السفينة من الغرق فَصِيحْتُ بالنكار: (أَخْرَقْتَهَا؟)، ونسيت يومَ (فَأَلْقِيُوهُ فِي الْبَحْرِ)، أنكرت قتل نفس بغير نفس، أنسيت يومَ (فَوَقَرُهُ؟)، أنكرت عملاً بلا اجر، أنسيت يومَ (فَسَقَى لَهُمَا؟)، قَلَّمَا يَأْنُ لَهُ الْبَيَّانُ، خَرَجَ الْخَضِرُ عن دار الدعوة، وأخرج يده من ملك التصرف، وَأَحَالَ الْحَالَ على الغير بلفظ (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)، وهذه اللفظة قد حُرِّضَتْ على حَرْفِي الجهل على جمع رحل الرحيل في طلب العلم، وعُلِّمَتْ كيفية الأدب في كُفْتُ كُفْتِ الاعتراضي على العالم، وَصَاحَ نصيحها بصاحي اللُّغْنِ: يا صَاحِ؛ دَعِ دَعْوَاكَ، فَعَلَى دعوى الكلیم لِيَمَّ، وَقَوِّ كُلُّ ذِي عِلْمٍ عِلْمُهُ.

(١) عزاء المعجلوني (٢/ ٤١، رقم ١٦٢٧) لابن الجبار قال المحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ٥٢) رويته في جزء من حديث أبي علي بن شاذان عن أبي عمرو بن السماك من حديث علي بن الحسين بن علي عن جده علي بن أبي طالب قال ضمنت إلى صلاح النبي - صلى الله عليه وسلم - فوجدت في قائم سيفه رقعة فيها: .. الحديث. قال ابن الرفعة في المطلب: ليس فيه إلا الانقطاع إلا أنه يقوى بالأية ولعلها قال نظره، لأن في إسناده الحسين بن زيد بن علي وقد ضعفه ابن المديني وغيره.

الفصل السادس والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَنُفِثَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾

[الكهف: ٨٢]

مُدُّ لذي القرنين في العمر والأجل، وكان كلما قال له القدرُ أجلك ملك قطع الأرض فقطعها بإمكان: ﴿إِنَّا تَرَكْنَاكُمْ﴾ [الكهف: ٨٤]، وقطع قضاء الليل قضاء له، وكان كلما ظهر على قوم أقام منهم جيشًا ليغير بهم على الغير غيرة لئلا أن يعيدوا غيره، فَمَرَّ سَائِلًا سَلَا، لما فُت سببه فُتِي (فَاتَّبَعَ سَبًّا)، فَشَمَّرَ مُشَمَّرًا ما يلتفت حتى لَفَتْ شَمْلُهُ بالشمس في حمى (تَغَرَّبَ فِي عَيْنِ حَيْثُ)، فَنُصِبَ له تخت التخير في السالكين بقاع تلك البقاع ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَا لَكَ أَنْ تَلْبِثَ فِيهِمْ حَتَّى﴾ [الكهف: ٨٦]، فلما أفرغ غَرَبَ الْغَرْبِ على غارب الغربية، مشى نحو المشرق، فلم يزل يحير الكتور، ويحوِّز إلى قتل من يحوز، إلى أن طلعت طلائعه الطالعة إلى مطلع الشمس، فأبرز نير عدله المشرق في المشرق، ثم رأى باقي عرضه في ذمة مقدرة كالدِين، فسلك ما بين السدين، فوجد أمة يصعب النسبي إلى ذرى أفهامهم على فلك: ﴿لَا يَكُونُ بَقِيَّةٌ وَلَا﴾ [الكهف: ٩٣]، فَعَدَّلُوا إلى العادل بجارون من جور الجار الجائر في شكوى: ﴿إِنَّا نَأْتِيهِمْ بَنَاجٍ﴾ [الكهف: ٩٤]، وعرضوا له جزاء: ﴿فَهَلْ يَحْمِلُ لَكَ حَتْمًا مَوْلَاكَ﴾ [الكهف: ٩٤]، فرده بأيد يد عز ﴿مَنْ تَكُنْ﴾ [الكهف: ٩٥]، فلما حشا حشا الجليلين بالزبر، ولج المفسدين قسر فسرههم على مضض، ﴿فَمَا أَتَمَّنَّا﴾ [الكهف: ٩٧] عجبًا له، كم اقننى من أصقع وأقنص، وكم أسعف نافعًا وأسيف، وكم لطفى له من لطيم وأخيف، وكم سعى به من أكسع، وففر به من التففر، وكم مشى به في محجة المشرق محجل، وطرق به في طريق المغرب

مُغْرَبٌ، وَكَمْ صَحْبُهُ مِنْ سَائِقٍ، وَنَابِلٍ، وَسَالِحٍ، وَكَمْ تَبِعَهُ مِنْ مَدْمِجٍ، وَرَامٍ، وَرَامِجٍ، وَكَمْ تَقَدَّمَ فِي مَقْدَمَتِهِ مِنْ مَقْنَعٍ مَقْنَعٍ، وَشَاكٍ فِي السَّلَاحِ كَافِرٍ غَيْرِ شَاكٍ فِي الصَّلَاحِ وَلَا كَافِرٍ، وَلَا ذُرًّا عَنْهُ الْأَذَى الْمُؤْذِي بِهِ مَوَادِعَ، وَلَا ذُرًّا عَنْ دَارِهِ الدَّوَاتِرِ دَارِعَ، وَلَا رَدَّ عَنْهُ وَرَدٌ وَلَا كَمِيتٌ، إِذْ وَرَدَ عَلَيْهِ مَا رَدَّهُ كَمِيتٌ، وَلَا قَرِيبُهُ مِنْ مَنِيَّتِهِ سَابِقٌ وَلَا سَكِيتٌ، وَكَأَنَّهُ إِذْ مَاتَ مَا تَحَرَّكَ عَلَى حَارِكٍ قَرَسٍ، وَلَا شَاكٍ شَاكَلْتَهُ بِشَوْكٍ غَفَرٍ بَلْ مَرَّ كَأَنَّهُ قَطٌّ لَمْ يَكُنْ وَذَلَّ لِلْمَوْتِ وَقِيلَهَا لَمْ يَهْنِ، لَمَّا اشْتَدَّ مَرَضُهُ وَأَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ كَتَبَ إِلَى أُمِّهِ يَعِزُّ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَقَالَ فِي آخِرِ كِتَابِهِ: اصْنَعِي طَعَامًا، وَاجْمَعِي مِنْ قُدْرَتِ عَلَيْهِ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ، وَلَا يَأْكُلُ مِنْ طَعَامِكَ مَنْ أَصِيبَ بِمَصِيبَةِ نَفْسٍ، فَلَمْ تَأْكُلْ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ، فَطَعِمْتُ مَا أَرَادَ، فَلَمَّا حَمَلُوا ثَابُوتَهُ، ثَلَّثَتْهُ أُمُّهُ بِعَظْمَاءِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: يَا ذَا الَّذِي بَلَغْتَ السَّمَاءَ حِكْمَتَهُ، وَجَازَ أَهْلَ الْأَرْضِ مَمْلَكَتَهُ، وَدَانَتْ الْمُلُوكَ عُنُوقًا لَهُ، مَا لَكَ الْيَوْمَ نَائِمًا لَا تَنْتَفِيزَ، سَاكِنًا لَا تَتَكَلَّمَ، مَنْ يَبْلُغُكَ عَنِي أَنْكَ وَهَظُنِّي فَاتَعَطَّطْتُ، وَعَزَيْتَنِي فَتَعَزَيْتُ، فَعَلَيْكَ السَّلَامُ حَيًّا وَمَيِّتًا، تَالِلُو لَقَدْ عَاشَ أَفْعَا وَمَسَتْ مِائَةُ سَنَةٍ، وَلَقَدْ كَانَتْ كَالثُّومِ أَوْ كَالسَّنَةِ، إِذْ صَاحَتْ بِهِ مِنَ الْمَوْتِ السَّنَةُ، فَتَلَمَحَ آخِرُ الدُّنْيَا إِنْ كُنْتَ تَدْرِي، وَانْظُرْ فِي أَيِّ بَحْرِ مِنَ الْهَلَاكِ تَجْرِي، وَاصْصَحْ إِلَى مَسْمُوعِ الْخَطْبِ، وَافْهَمْ مَا يَجْرِي، وَكُنْ عَلَى صِيحَةٍ، فَهَلْهُ الرِّكَابُ تَسْرِي.

[الكامل]

أَوْ مَا رَأَيْتَ وَقَائِعَ الدُّغْرِ	أَفَلَا تُبْهِمُ: الظَّنُّ بِالْمُغْرِ
بَيْنَا الْفَنَى وَالْقُلُودَ تُشْنَعُهُ	قَضَائِيَّةُ وَالْعَطْفُ فِي الْأَمْرِ
يَأْتِي الدُّنْيَا فِي عَيْشِيَرَتِهِ	وَيُجَادِبُ الْإِيْدِي عَلَى الْفُخْرِ
وَلِذَا أَتَارَ إِلَى قَبَائِلِهِ	حَشَدَتْ غَلَبُو بِأَوْجُو غُرِّ
زَلَّ الزُّرْعَانُ بِوَقْدِهِ أَحْمَصِهِ	وَمَوَاطِنُ الْأَقْدَامِ بِالْمَغْرِ
نَزَعَ الْإِنَاءَ وَهَمَّ شَمْلَتُهُ	وَأَفْرَ إِفْرَارًا عَلَى ضَمْرِ
ضَدَّعَ الرُّؤْيَا أَغْمَا سَلَاغَمَهُ	مَنْ الْحَمَّ الضَّذَلَيْنِ بِالْقَطْرِ
جَرَّ الْجِيَادَ عَلَى التَّوَجَى وَتَضَى	أَمَّا يَنْقُ السُّهْلُ بِالْوَجْرِ

خَلَّى الشَّقَى بِالشَّمْسِ مَقْعَدَهُ	فِي غَمْرِ مُشَقِّطٍ مِنَ الْبَحْرِ
ثُمَّ انْتَبَتْ مَحْكُ الْمُنُونِ بِهِ	فَالضُّغْتُ بَيْنَ الثَّابِ وَالطُّفْرِ
لَمْ تَشَجِرْ عَنْهُ الرَّمَاحُ وَلَا	رَدَّ الْقَضَاءُ بِتَالِهِ الْكُثْرِ
جَمَعَ الْخُلُودَ وَزَادَهُ فُجَاءَتَا	أَمْسَى بِمَضْطَبَعِهِ وَلَا يَذْرِي
وَبَرَى الْمَعَابِلَ لِلْجَعْدَى وَكَلَّامَا	لِجَمَامِهِ كَانَ الْبَلْبَى يُبْرِي
أَوْدَى وَمَا أَوْقَتْ مَبَاقِبُهُ	وَمِنَ الرُّجَالِ مُعْطَرُ الذُّغْرِ
إِنَّ التَّوْقِيَّ قَطْلُ مُعْجَرَةٍ	فَدَحِ الْقَضَاءُ يَفْقُدُ أَوْ يَفْرِي
يَحْمِي الْمَطَابِعَ لِلْبَقَاءِ ذَوِي	الْأَجَالِ بَلَاءُ فُرُوجِهَا تَجْرِي
لَوْ كَانَ جَفَظَ الشُّطْبَى يَنْفَعَهَا	عَانَ الطَّبِيبُ أَحَقَّ بِالْغَمْرِ
الْمَلَاءُ فَإِنَّ لَا قُوَّةَ لَكُمْ	بَيْنَ مَا يُرْبِي وَمَا يُثْرِي

الفصل السابع والثلاثون

في قوله عز وجل: ﴿كَهَيَّمَهُ ۝١﴾ [مريم: ١]

ذهب جماعة من العلماء أن هذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وقال آخرون: هي حروف من أسماء الله تعالى، وقال ابن عباس: (الكاف من الكبير، والهاء من الهادي، الياء من الرحيم، والعين من عليم، والصاد من صادق).

قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ وَحْيَ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٢]؛ أي: هذا الذي نتلوا عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا، وفيه ثلاث لغات: المد، والقصر، وأهل نجد يقولون: زكري، فيقولون الألف، وكان السبب في ندائه، أنه لما قام بإقام الإقامة لمريم، وكان كالمها، كان يحمل من الكافي لها كفل على كفل الكفاية، وكان وكيل الغيب يأتيها بقدر ما يُغنيها، على يد القدرة في كنْ (كُنْ فَيَكُونُ)، فيطرق عليها باب التوكل، وكان إذا خرج ثم جاء فاجأ ثم الثمار قد نمت ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا وَنَقَّ﴾ [مريم: ٣٧]، وكان إذا دخل ألفى الفاف الفاكهة الفائقة لا في حينها، فتلمعها بعين زرقاء الفهم، وهي تقطع فيافي الأنجاد على قدم الوجود في حبل السلامة بين ماخبي العادات، فلما رأى نفقة الحارية جارية، وكسير الأسباب على ختمه، صاح لسان الدعش: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ [مريم: ٣٧]، فأحالت الحال على بر المسبب، ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاصِبِ﴾ [مريم: ٣٧]، فنبتت هذه الآية راقد طمعه بعد أن طال وسنه سبعين سنة، فسن على سنه، وجد ما رجي ما أسن مما لم ينس، وقام الدروج بعد أن تقفوس وشعث، وغسا على باب عسى في محراب (هَذَاكَ دَعَى)، فسرى بسر سرًّا لتلا ينسب إلى قر من أفن، وكتب قصة (لا تَلْزَمْنِي قُرْذًا)، وشكى ما شيك به مما حك من حل التركيب وشيكا في كلمات هن: ﴿وَعَنَ الظُّمُؤُى﴾ [مريم: ٤]، فلما أورد في قصته

مما يريد حملها يريد الرجاء إلى من عود العود بكشف الجوى في الجواب لله ذُرَّةُ حَذَمٍ حتى شَابَ، ثم طلب نائِثًا على الباب، ﴿فَنَدَّاهُ فَتَلَقَّاهُ وَهُوَ قَدْ هَمَّ بِمَسْئَلِي فِي الْيَحْرَابِ﴾ [قل عمران: ٣٩]، فأصبح ميت أملة ينفخ روح الإدراك يحيى: ﴿يَنْزَعُكَ إِنَّا تَوَتَرَكُ وَنَحْنُ أَشَدُّ بِحِينَ﴾ [مريم: ٧]، فمضى لمشاهدة وجه القدرة، وقد حال بينهما سفر العادات، إلى أَنَّ أَنْ يَلْقَى ﴿إِنِّي﴾ [مريم: ٤]، فهبت نسيم: ﴿هُوَ عَلَى هَيْئٍ﴾ [مريم: ٩]، فسأل علما على ما يعلم به وجود الحمل بحمل نفسه على أداء الشكر، فوعد بسجن اللسان مع سلامة الإنسان إلا عن ذكر الرحمن، ليكون حج نطقه مغفرا، فلما وُلِدَ له يحيى، لم يبلغ مبلغ يافع إلا وهو ولد نافع، كانت صبا الصبي تמיד بالصبيان فلا تهزء، فإذا قالوا: قُلُومٌ بَنَّا تَلْعَبُ، أزغجه خوف الوحيد وهزء، وقال: إنما خُلِقْنَا لِلْعِبَادِ لا للعب فقط، له القدر فقط من عصام العصمة، ما قُتِلَ قط لأحد، فما غطى إلى غطى ولا هم، ولقد رمى ذنبا الدنيا عن يد التمسك، وعلى عن فضولها على قتل التفلل، وكان عيش عيشه العشب، وبني لحوف النيا إلى نبات الأرض، واقتنع بمسوك الحيوان عن الشب والشف والمشترف، وشغله عن رقص نقش القشيب والدعفس بما لفق مما لفق، فلقد دوى في ذُو قَزَادِهِ غيم الغم، وغدا الغدق يندق إلى أن قاض قلبه قلبه، فانقلب عيناه تغلب كالعيون حتى لمرت، فحفرت في أَلْحُدُودِ الخدود مجرى، ولم يزل معول دمعته يحفر ركية حُدِّهِ حتى بدت فيه أضراسُ فيه، وكان كالمشاهدة عيون القلب خلال الرتب، يجري ميدان عين كالماء من العين، ولقد أثرت في ابنه نكاية بكائه، وقال: إنما سألت راحة القلب، فأين غاية هذا الابن، فقال: يا أباه إن جبريل أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا بكاء العين، فها عجبا من بكاء مَنْ مَا عَضَى وَلَا قَمَّ، وضحك من كُتَابِهِ [بالذنوب] قد اسْوَدَّ وَادَّهَمَ، فلما قارب الوفاة، وفات العدو وسلم من آفات التنقل في المواطن المخصوصة بوحي الوحشة، فتخلص فيها من أسد البلاء، وحوى من ذنب الذنب: ﴿يَوْمَ وَلِدَ يَوْمَ يَمُوتُ يَوْمَ يَبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

الفصل الثامن والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]

كانت حنة أم مريم قد حثت إلى ولده، وكَبُرَ عليها امتناعه، واستولى الكِبَرُ، فوأت يوماً طائراً يغلو قُرْحاً فرجاً، فرجى أهلها الساكن فرجاً فرجاً، فسألت عند هذه القصة ولديها ولد، فلما علمت بالحمل أكسبها السرور ولها، فوهبت بلسان التذر لمن وهب لها، فنادى القدر: يا مَلَكُ التصويرِ! صَبِّرِ الحَمْلَ أَتَنَّى، ليبين أثر الكرم في قبول الناقص، فلما وضعتها بأنامل الانكسار عن سرير السرور، فإن لسان التلهف لما لقي (فَنَقَلَهَا)، فساق عنان العناية إلى ساق زرعها، قَرَبَا في رُبَى: ﴿وَأَنبَتْنَاهَا نَبْأَ حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، فانطلقت بها الأم تؤم بيت المقدس، فلبس القوم لأمَتَهُمْ في حرب ﴿يَلْفُوكَ أَقْلَمَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فثبت قلم ذكرها إذ وثبت الأقلام، وكفلها بكف طال ما وكفت وكفت، فأراء المسبب غناءها عن السبب بأنه: ﴿وَجَدَ بِئْسَ نَبْأَ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فرباها من رباها، فنشأت لا تعرف إلا رباها، فانبذت من أهلها إلى مكان يلي المشرق، ﴿فَلَمَسْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧].

الروح^(١) في القرآن على ثمانية أوجه:

(١) قال ابن قتيبة: الرُّوحُ: الرَّاغَةُ وعلبُ الشَّيْبِ.

وقد تكون الرُّوحُ في القرآن: الرُّوحَنَةُ، لأنَّ الرُّوحَ تكونُ بالرُّوحَنَةِ.

قال ابن فارس: الرُّوحُ: نَسِيمُ الرِّيحِ، والرُّوْحُ: من زوال الشَّمْسِ إلى الليل.

وأرْخَانَا يَنْكَا رَفَقَانَا في ذلك الوقت. والشرَاح: حيث غاي الماشية إليه بالليل.

وقسمة رُوحَا: قربة الفجر.

وهو رِزَاحٌ للمعروف، إنا أخلَّته له أَرْجِيئُهُ.

أحدها: جبريل؛ ومنه هذه الآية .

الثاني: الأمر؛ ومنه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

الثالث: الوحي؛ ﴿يُنْفِثُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غافر: ١٥] .

الرابع: الرحمة؛ ومنه: ﴿وَأَنذَرَهُمْ نَارَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]

الخامس: مَلَكٌ عظيم؛ ومنه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ [النبا: ٣٨] .

السادس: الروح التي تكون من النَفْث؛ ومنه: ﴿فَتَقَلَّبْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]، وهي نَفْثَةُ جبريل عليه السلام .

السابع: الحياة؛ ومنه: ﴿فَرُوحٌ وَرُوحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]، على قراءة مَنْ قَرَأَ بالضم .

الثامن: القرآن؛ ومنه: ﴿وَنُفِثَكَ لَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَانٌ أَمْرَانِ﴾ [الشورى: ٥٢] .

فَلَمَّا أَقْبَلَ نَحْوَ ذَلِكَ الْبَرِي الْبَرِيءِ بَرِيدَ (فَأَرْسَلْنَا) تَحَطَّضَتِ الْخَضَانُ بِحَصْنِ: ﴿إِنَّهُ أَمُودٌ وَأَلَحُّنِي بِكَ﴾ [مريم: ١٨]، فَمَازَوِي إِلَى زَاوِيَةِ ﴿إِنَّمَا لَنَا رَشْدٌ وَرَيْبٌ﴾ [مريم: ١٩]، فَأَخْبَرَهَا بِالتَّحْفَةِ فِي لَفْظِ ﴿لَا هَبْ لِي﴾ [مريم: ١٩]، فَأَقْبَعَتْ فِي قَهَبِ رِيحِ الرُّوحِ، فَظَهَرَتْ الْكَلِمَةُ مِنْ كَمِينِ الْأَمْرِ، فَنَفَخَ جَبْرِيلُ فِي جَنْبِ جِيبِ الدَّرْعِ، فَصَرَّتِ الْمَرْأَةُ حَامِلًا فِي الْوَقْتِ، فَلَمَّا عَلِمَتْ أَلَمَتْ بِمَا حَمَلَتْ، فَأَنكَرُوا عَلَيْهَا الْحَمْلَ، فَأَخْرَجَهَا الْحَيَاءُ الْحَيِيَّ عَنْ الْحَيِّ، فَلَمَّا جَاءَهَا وَقْتُ الْوَضْعِ، ﴿فَلَمَّا دَعَا الْقَحَاشُ﴾ [مريم: ٢٣]، تَحِيرَتْ فِي وُجُودِ وَلَدٍ، وَمَا فَجَّرَتْ بِهِ، فَجَرَّتْ عَيْنُ الدُّمْعِ، فَصَاحَتْ لِبَيَانِ الْحَقَرِ بِلَفْظِ التَّدْبِ: ﴿يَلَيْتَنِي بَيْتٌ مَكَرٌ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣]، فَأَجَابَهَا الْمَلِكُ عَنْ أَمْرِ مَنْ مَلَكَ: (لَا تُحْزَنِي)، فَأَجْرَى لَهَا فِي أَوَانِي الْأَوَانِ سَرِيًّا، وَكَمَا وَهَبَ لَهَا مِنَ الْغُلَمَانِ سَرِيًّا، فَسَرَى عَنْ سِرِّهَا وَجُودَ الظُّهُورِ، وَأَنَسَ الظَّاهِرَ فَسَرَى، وَأَوْتَيْتِ آيَةَ تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ الْمُقَدَّرِ فِي مَقَامِ (وَهَرِّي) جِلْدَ جِلْدٍ مَائِلٍ مِيلَ الْحَطِطِ، فَتَسَاقَطَ عَلَيْهَا فِي الْحَالِ رَقَبٌ

^{١١} وَالْمَرْوَعَةُ: الْمَرْوِيعُ الَّذِي تُخْتَرَفُ فِيهِ الرِّيحُ، وَقِيلَ عَنْ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَكِبَ نَافِلَةً فَتَشَتَّ بِهَ تَشِيًّا جَيِّدًا فَقَالَ: [البيضا]

فَإِذَا رَكِبَهَا لَمْ يَسُفْ بِمَرْوَعَةٍ إِذَا تَقَلَّبْتَ بِهِ أَوْ شَابَتْ لِمَوْلٍ

الرُّطْبِ، فَأَخَذَهَا الْجَوَى فِي إِعْدَادِ الْجَوَابِ، فَقِيلَ: كُلِّي كُلَّ الْكُلِّ إِلَى مَنْ لَهُ الْكُلُّ، كُنْتُ بِمَعْزَلٍ مِنَ الْوَلَدِ، فَكُونِي بِمَعْزَلٍ مِنْ إِقَامَةِ الْعُنْدِ، فَالَّذِي تَوَلَّى إِيجَادَهُ، يَفْقِهَ عِلْمُ الْعِلْمَاءِ، لَا تَعْجِبِي مِنْ وَجُودِ حِمْلٍ مُسَافِرٍ عَنْ أَرْضِ الْقَدْرِ، فَلَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَنْزَلَ إِلَّا بِمَنْزِلِ أَرْكَانِهِ عَلَى عِمْدَانِ: ﴿فَأَنَّهُ تَنَزَّلَتْ لِي وَتَهَارَى﴾ [آل عمران: ٤٢]، فَلَمَّا وَضَعَتْ الْبُتُولُ الْمَسِيحَ خَرَّتِ الْأَصْنَامُ، فَمَا زَالَ إِبْلِيسُ يُشْمُ بَرَقَ الْكِبَرِ حَتَّى خَبِرَ الْكِبَرُ، فَلَمَّا أَمْعَتَ رِكَابَ بَحْثِهِ وَقَفْتُ، وَقَفْتُ بِهِ الْعَيْسَى عَلَى عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهَمَّ أَنْ يَسْتَضِيْفَهُ لِيُضِيْفَهُ إِلَى الدَّاخِلِينَ فِي أَمْرِ قَسْرِهِ، فَتَارَتْ إِلَيْهِ حَرَسُ: ﴿وَأَنَّهُ لِيُدْعَا إِلَيْكَ وَذُرِّيَّتُهَا﴾ [آل عمران: ٣٦]، فَلَمَّا سَكَنَتْ مَرْيَمَ، وَسَكَنَتْ بَعْدَ أَنْ قَعَدَتْ وَقَامَتْ، فَأَقَامَتْ أَيَّامَ النِّفَاسِ، فَلَمَّا انْقَضَتْ وَفَاتَتْ، ﴿فَلَمَّا يَوْمَ فُتِنَهَا فَجِئَهَا﴾ [مريم: ٢٧]، فَجَبَّشُوا عَلَى أَعْيَابِ الْعِتَابِ، وَزَادُوا فِي أُنْدِيَةِ التَّوْبِيخِ، وَمَا عَرَفُوا الْمَبْدَأَ وَالْمُنْتَهَى، وَمَا شَاهَدُوا قَطَّ أَعْيَابِهَا، ﴿يَتَلَفَّتْ عَنْ رُؤْيَا مَا كَانَ لِقَائِهَا﴾ [مريم: ٢٨]، فَأُخْرِجُوا مَرْيَمًا قَدْ ضَلَّتْ مِنْ أُنْبِيَايَ ﴿أَلَمْ يَكُنْ لِي وَكَلًا﴾ [آل عمران: ٤٧] عَلَى قِرَاشِي ﴿يَكْتَتِي بِكَ فَكَلَّ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣]، فَلَمَّا شَارَتْ آرَاءَ الرِّوَاءِ أَنْ أَشَارَتْ إِلَيْهِ، فَتَاءَتْ أَلْسِنَةُ التَّعْجِيبِ: ﴿كَيْفَ نَكَلُمُ﴾ [مريم: ٢٩]، فَفَاقَ عَيْسَى بِمَخْضٍ مَخْضَ أَوْطَابِ الْخُطَابِ عَلَى مَثَرِ الْخَطَائِفِ، فَأَبْرَزَ بِالْمَخْضِ مَخْضَ إِبْرِيذِ الْإِفْرَارِ: ﴿إِنِّي عَبْدٌ لِّقَوْمٍ﴾ [مريم: ٣٠]، وَأَوَّمَا إِلَى وَجُودِهِ مِنْ غَيْرِ أَيْ فِي إِشَارَةٍ: ﴿وَنَبِّئَا بِرَبِّكَ﴾ [مريم: ٣٢]، وَكَانَ وَاسِطَةً عِنْدَهُ: ﴿وَنَبِّئَا بِرَبِّكَ إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ آيَاتِهِ لَحَدًّا﴾ [الصف: ٦].

فَقِيلَ لِنَبِيَانَا: أَيُّهَا السَّاحِي عَلَى صِرَاطِ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ، جَازِي مَنْ جَازَ فِي مَجَازِ الْوُجُودِ قَبْلَكَ، فَوَقَفَ جَوَادُهُ عَلَى جَوَادِ مَدْحِكَ، فَقَدْ قِيلَ لَكَ: ﴿مَنْ جَزَاكَ الْخَيْرَ إِلَّا الْإِسْمُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فَسَمِعْتُ عُنْدَ الْبُتُولِ بِلَفْظٍ: ﴿وَأَنَّهُ لَنُصَلِّتَ فَرَحَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، كَمَا قَامَ وَلَدُهَا فِي مَقَامٍ: ﴿وَنَبِّئَا بِرَبِّكَ﴾ [الصف: ٦].

لَقَدْ بُعِثَ عَيْسَى بِشَحْذِ مُوسَى نُوْمَى، فَسَمِعْتُ عَلَى مَنْ مَنَ مَا سَمِعْتُ، لَكِنَّهُ حَكَمَ مَا حَكَمَ فِي كَلِمَاتٍ أَمْسَتْ تَحُلُّ بِشَحْطِهِمْ: ﴿وَأَنَّهُ لَنُصَلِّتَ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وَحَبَسَ عَلَى بَابِ الْعَاقِبَةِ لِلْعَاقِبَةِ، ﴿وَأَنَّهُ لَنُصَلِّتَ وَالْأَكْثَرُ﴾ [آل عمران: ٥٠].

[٤٩]، فربما ألقى على يابه خمسين ألفاً يأتيه في كل يوم، وإنما كانت مركبات مرابعه لجراحات الأمراض في كيس (ببؤني)، ولقد ترك الدنيا وظلّفها أيّ تطليق، وبغضها ولا كِبَاضِ الرافضين الضدين، فعزّاها بخُذِ الرُّقْدِ بين مُسْرَجٍ ومُلْجَمٍ، وفكّ بها كما فكّ بالثقيّ ابنُ مُلْجَمٍ، ما ألقت إليها قطّ وجّة عزيه، ولا ضافحها يوماً كفّ قلبه، ولا غارلها ساعةً لبّيانٍ يثخرو، ولم يزل بيده أعلام: ﴿وَيَذْكُرُ يَذْكُرُ فَيَنْتَوِيذُكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وأكثر العناد في العناد، لم يعرف حفيظة ما حوى سوى الخوارثون، فشمّروا عن ساقِ الغزاليّ في سوقي بُذُو الأبتانِ إلى متى المني تجلّ بلقبط: ﴿فَهَنُ أَصَاكُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وكتبوا في غفد الغفاد: ﴿عَدَاكَ وَأَقْرَبُ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وغدّلوا بها إلى غدلي: ﴿وَأَقْبَسْتُ وَلَكَا مُسْلِمَتُ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ثم إن اليهود اجتمعوا في بيت (ومكروا)، فزولوا عليهم بيدي: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فدخل عيسى غوغة وراه ودخل، فدخل رجلٌ وراه، فألقى عليه شبهة على شبهة، فحاق بالمرء مرُ مراده، وقربت إلى عيسى عيس: ﴿إِنْ مَتَّوَيْتُكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ونصّب له معراج: ﴿إِنْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾ [النساء: ١٥٨].

طرفع الرقيق القدر ليلة القدر، فإذا دنت الساعة صاح به مستجث: ﴿وَقَدْ لَعَلَّمُ الْفَتَاةُ﴾ [الزخرف: ٦٦]، فبقت الألد بباب لُد، فإذا بان أبيان الصلاة صلى مأموماً، إذ لو أمّ هذه الأمة لقاتل وسوسة السر: أين أبراء ابتدى أم تاب؟ فيكون ذلك قتراً في وجنة * لا نبيّ بعدي^(١)، ثم يتزوج؛ لأنه ضيف الأوامر في دار (تَنَاقَسُوا)، فإذا قامت القيامة أقيم في مقام: ﴿تَأْتَتْ قَلَّتْ﴾ [المائدة: ١١٦]، فيفصل يوم الفصل لخوف الفصيل مفاصله، فيتلجلج مفضله في فصل: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ [المائدة: ١١٦]، ثم يلقي زمام الأمر بيد التفويض إلى مالك الأمر: ﴿إِنْ مَتَّوَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١١٨]، ﴿وَلَنْ تَغَيِّرَ لَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٨].

(١) أخرجه مسلم (٢/٢٢١٥)، رقم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٢/٩٧)، رقم (٤٢٥٢)، والترمذي (٤/٤٧٢)، رقم (٢١٧٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/١٣٠٤)، رقم (٣٩٥٢)، وأبو حنيفة (٢/٥٠٨)، رقم (٧٥٠٩)، وابن حبان (١٦/٢٢٠)، رقم (٧٢٣٨). وأخرجه أيضاً: ابن أبي شبة (٦/٣١١)، رقم (٣١٦٩٤).

الفصل التاسع والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ يَوْمَ الْقِسْرَةِ إِذْ قُضِيَ

الْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩]

الإنذار يوم التخويف، ويوم الحسرة يتحسر المسيء إذ لم يُحسن، والمقصر في الخير إذ لم يزد، والأمر يجمع أوامر وأمور، وهو في القرآن على تسعة عشر وجهًا:

أحدها: قتل قريظة وجلاء النضير؛ ومنه في (البقرة): ﴿فَأَقِمْ وَاقِمْهَا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩].

الثاني: النصر؛ ومنه في (آل عمران): ﴿هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ غَرَضٍ فَلْ يُنْزِلْ عَلَيْنَا الْقِتَالَ نَكْنُقْ بِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الثالث: استدعاء الفعل؛ ومنه في (النساء): ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِمْ لَ تَدْرُكُوا أَكْثَرَهُمْ إِلَٰهَ أَهْلِكُمْ﴾ [النساء: ٥٨].

الرابع: الخصب؛ ومنه في (المائدة): ﴿لَوْ أَنَّهُمْ رَفَعُوا إِلَهًُا غَيْرَ اللَّهِ لَافْتَحَ اللَّهُ لَهُم سُبُلَ الْأَمْوَالِ﴾ [المائدة: ٥٢].

الخامس: الذنب؛ ومنه في (المائدة): ﴿يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُواكُم بِثَمَرٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

السادس: المشورة؛ ﴿وَتَخْلَوْنَهُمْ فِي الْوَعْدِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

السابع: فتح مكة؛ ومنه في (براءة): ﴿فَقَرَّبُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

الثامن: قتل كفار مكة؛ ومنه في (الأنفال): ﴿يَقْبِضُ اللَّهُ أَمْرَ كُفْرِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٢].

التاسع: الحذر؛ ومنه في (براءة): ﴿قَدْ أَخَذْنَا آلَافَكَا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠].

العاشر: القضاء؛ ومنه في (يونس): ﴿يَذُرُ الْأَمْرُ﴾ [يونس: ٣].
الحادي عشر: العرق؛ ومنه في (هود): ﴿لَا حَافِئَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤٣].

الثاني عشر: العذاب؛ ومنه في (هود): ﴿وَفُتِنَ الْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤].
وفي (إبراهيم): ﴿لَمَّا فُتِنَ الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].
الثالث عشر: البيان؛ ومنه في (هود): ﴿يَتَّبِعُهُمْ الْفِتْرُ عَنْ هَذَا إِلَهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ وَكِدٌ﴾ [هود: ٧٦].

الرابع عشر: الفعل؛ ومنه في (هود): ﴿وَمِمَّا أَمَرَ فِرْعَوْنَكَ بِرَيْشِيو﴾ [هود: ٩٧].

الخامس عشر: القيامة؛ ومنه في (النحل): ﴿أَنَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١].
السادس عشر: الدين؛ ومنه في (براءة): ﴿وَكَلَّهْمُ أَمْرُ لَقْوٍ﴾ [التوبة: ٤٨].

السابع عشر: الكثرة؛ ومنه في (بني إسرائيل): ﴿أَمْرًا مَقْرَبًا﴾ [الإسراء: ١٦].

الثامن عشر: الوحي؛ ومنه في (تنزيل السجدة): ﴿يَذُرُ الْأَمْرُ مِنْ أَقْسَمَةٍ إِلَى الْأَمْرِ﴾ [السجدة: ٥].

التاسع عشر: الموت؛ ومنه في (الحديد): ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ لَقْوٍ﴾ [الحديد: ١٤].

واعلم أن الحشرات يوم القيامة كثيرة، ومن موجوداتها ذبائح الموت بين الجنة والنار، ويقال: " يا أهل الجنة؛ خلود فلا موت، ويا أهل النار؛ خلود فلا موت ^(١) ".

وَرَوَى عدي بن حاتم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " يُؤْتَى

(١) أخرجه مسلم (٢/٢١٨٨)، رقم (٢٨٤٩)، والطبراني (١٢/٣٦١)، رقم (١٣٣٤٦).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنَاسِي إِلَى الْجَنَّةِ، حَتَّى إِذَا ذُتُوا بِهَا، وَاسْتَشَفُّوا بِهَا، وَنَظَرُوا إِلَى قُصْرِهَا، ثُبُّوا أَنْ أَسْرَفُوهُمْ عَنْهَا، لَا تُصِيبُ لَهُمْ فِيهَا، فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَا يَرْجِعُ الْآثِرُونَ وَالْآخِرُونَ بِمِثْلِهَا، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تَرِنَا مَا أَزِينَنَا عَادَ أَهْوَى عَلَيْنَا، قَالَ: ذَلِكَ أَزَدْتُ بِكُمْ، كُنْتُمْ إِذَا خَلَيْتُمْ بَارِزًا تُؤْمِنُونَ بِالْعَقَابِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ النَّاسَ لَيَسْتَمُوهُمْ مُخَبِّينَ، تَرَاءُونَ النَّاسَ بِخِلَافِ مَا تُعْطَوْنَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، هَيْبَتُ النَّاسِ وَلَمْ تَهَابُونِي، أَجَلَلْتُمْ النَّاسَ وَلَمْ تُجَلِّئُونِي، تَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرَكُوا لِي، فَالْيَوْمَ أَذِيقُكُمْ عَذَابِي مَعَ مَا خَرَفْتُمْ فِي الْأَجْرَةِ مِنْ تَوَابِي^(١).

قال ابن مسعود: (إذا بقي من يخلد في النار، جعلوا في توابيت من نار، والتوابيت في توابيت، فلا يظن أحدهم أن قد بقي في النار ممن يُعَذَّبُ سواء، وليس من نفس يوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة، وإلى بيت في النار، يقال لها: ولأي لو عملتم، ويقال لأهل الجنة: لولا أن من الله عليكم، وقال أبو هريرة: (كأنني بكم صاعدين عن الحوض، يلقى الرجل الرجل، فيقول: أشربت؟ فيقول: نعم، ثم يلقى الرجل الرجل، فيقول: أشربت؟ فيقول: لا وأحفظنا).

وقال أنس بن مالك: (إن ملكًا موكفًا بالميزان، فإذا ثقل ميزان الإنسان نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق: سيد فلان سعادة لا يشقى بعدّها، فإذا خف ميزانه نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يتعدّ بعدها).

وقال قتادة: لم يخز أحد فيخزي حزيه على أحد.
وقال مجاهد: ما من عبد إلا وتنادى يوم القيامة: أي فلان، هذا نورك، أي فلان: لا نور لك.

وقال الحسن: يُعرض على ابن آدم ساعات غمره، فكل ساعة لم يُخَيِّث فيها خيرًا تَقَطَّعتْ نفسه حسرات.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٨٥، رقم ١٩٩).

وكتب الأوامر إلى أخ له: أنا بعدُ، فقد أحيط بك من كل جانب،
واعلم أنه يُسارُ بك في كل يومٍ وليلةٍ، فاحذر الله والنقام بين يديهِ وأن يكونَ
آخِرَ عهدِكَ به، والسلام.
[الطويل]

لعمري لقد أيقظت من غمانٍ نائما وأسمعت من غائبٍ له أذنٍ
غائك بالمرضى وقد حضرَكَ، وبالموت وقد أشخصَ بضرَكَ، وبالتلف
يقول: كم نظرتك، فُضي الأمر.

إذا أضلت في الشراقي، وصعدت الروح إلى الشراقي، ولم تعرف
المخاطب والراقي، وقال الموت: أيها الطبيب الساقى قضي الأمر.
نقد السهم المصيب، ولم تأخذ بنصيب، فما يغني عنك القريب ولا
النسيب، فُضي الأمر.

تقول إن شغيت تصدقت، وإن سلمت أعتقت، وإن قمت معافى أنفقت،
والموت يقول: إن رقت، فُضي الأمر.

ثم نزل اللحد وتخلّى، والولد الشفيق قد تولى، والأخ والصديق الصادق
قد أعرض وولى، وتقول: ربّ أرجئوني، فيقال: كلا، ولسان اللوم والتوبيخ
قد كلا مِنّا أملا النصيح وملا، فُضي الأمر.

ثم إن مفرقك يجمعك وينادي في الصور ويسمعك، فاتبع من ينصحك،
ودع من يخدعك، فوالله ما يفعك زيدٌ ولا عمرو، فُضي الأمر.

هذا العمر قد هوى، وهذا العود قد ذوى، وهذا الجسد قد التوى، يا
سكران باللهوى لا بالخمر، فُضي الأمر.

يا هذا! أرى عمرك في التفريط يفوت، وسواء قولنا لك والسكوت،
ويقع لي يا هذا أنك على هذا تموت، فالميت ما ينفعه قليلٌ ولا زمر، فُضي
الأمر.

الفصل الأربعون

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]

لما سبقت عناية الأزل للخليل من ربه، فأوجده في زمن احتراز أعدائه من وجوده على رغم أنف اجتهداهم، وكانت الكهنة قد أدلت نمرود بوجود محارب يرقل في حُلَّة غالب، فأخذ يعزل الرجال عن النساء من الحذر، وقام يقاوم باجتهاده القدرَ لما قلَّز، فلَمَّا خاضَ فم المخاض في جِصَم أم إبراهيم خرجت من حيف الخوف إلى خَيْرِ التَّخَيَّرِ تهيماً، فوضعت في نهرٍ قد يمس، وسترته بالحلفاء ليلتبس، وكانت تختلف لرضاعه، ولقد سبقها رضاع، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١].

فلما بلغ سبع سنين خرج إلى حجاج قومه على راحلة: ﴿عَلَّا رُفِّقَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، ثم كرر تكرر توبيخ: هل يسمعونكم أو يفتعونكم؟ فقاموا على باب طلالهم يفتحونه بإقليد تقليد: ﴿قُلْ وَجَدْتُ الْقُرْآنَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، فتظهر من دنس ضحيثهم بطهور: ﴿قُلْتُمْ عَذَابِي﴾ [الشعراء: ٧٧]، وقام إلى صلاة التوحيد في محراب: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فلما أحضره نمرود أحضره في ميدان الدليل، ورفع شبهته: ﴿أَن تَأْتِيَهُ أَفْكُ الْمَلَكِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، بحجة: ﴿زَوْجَ الْكَافِ كُفِّي، وَبُيُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقمه باين أرقم الهدى في نصف شهر شهرة النصف، ونمرود يريد إسهاء السهوة في ظلام ظلم ﴿أَنَا أَنِّي﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فَلَمَّا رَأَى فسادَ قَهْوِهِ في معارضة اللفظ ونسيان المعنى، سَوَّدَ وجهه شبهته بفحمة الإفحام، فألقاه كاللقاء على عجز العجز،

بألفات فأت بها، ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ثم إنَّ القوم قاموا إلى عيدهم، وعاد عن محبتهم بحجة: ﴿إِنِّي سَتِيتُ﴾ [الصافات: ٨٩]، فرجع لسانه لما رجع وعيد الحق، ﴿وَلَقَدْ لَعْنُوا لَأَحْمَدَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، فاستنابها استلابَ البهيمة ألقت فئات، ودخل إبراهيم إلى الأصنام دار الفراغ، ﴿فَرَجَّ عَنْهُمْ﴾ [الصافات: ٩٣]، فلما رجع القوم إلى معمة معركتهم صاحت نواذب الأسى من فعل هذا، فمن خبر الخليل عامهم في زمن: ﴿سَبَّحًا قَبْلَ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، فَلَمَّا قَرَّرُوهُ بلفظ: ﴿تَلَّتْ قَلَّتْ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، عاد عليهم بحجة ﴿فَنُكَلِّفُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فنكسوا ودوسهم على أذقان، ثم نكسوا، فَلَمَّا أَسْفَهُمْ بما أسفهم سفا في وجوه آرائهم سفا سفاهتهم بكفث ﴿أَلَمْ لَكُمُ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، فحميت حميتهم فَجَرَّدُوهُ عن بَرْدِ بَرْدِ العذل بخر ﴿عَرَفُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فَبَنَوْا لِسَفْحِ ذِيهِ بُشَيَّاَنَا إلى سَفْحِ جبل، واحتطبوا الحراقة على عَجَلِ الْعَجَلِ، فلما وضعوه في ثَمَّةِ النجنيق عارضه جبريل في عرض الطريق، فناداه وهو يهوي في ذلك الفلاء: أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟

قال: أَمَا إِلَيْكَ فَلَ، فَسَتَيْقُ بريدُ الوحي إلى النار بلسان الشَّهِيمِ: ﴿كُنْ يَرْكَا وَيَلْمَا عَلَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ثم تبع ينبوع الماء إلى جنبه، وأبنع الورد والرجس من حوله، وجاء جبريل بقميص من الجنة قلبه، ووظفَسَ من الإستيرق فأجلسه، وقعد معه على سرير مجالسته، ومتكئا على أريكة مؤانسته، فخرج نمرود بعد أيام ينظر ما صنع الغلام، فتلغاه الثور والنور، فَلَمَّا أَقْبَلَ أحواله الهوى على الصواب، فلم يقبل عقوبة فتن الفتن، فلم يخلص حتى قطع مراحل الدنيا على نحائب السلامة، وقطع قطع الكرى طالبًا للفضوز والكرامة، وبقي له الذكر الجميل إلى يوم القيامة، وإنما علا له الغلا، وما هوى لخلاله الهوى، وعلى هذا قاعدة الفضل قاعدة، فمن أراد أن يسرح في فضاء فضيلٍ فَلْيُنْفِقْ في طريق قطع صبر الصبر، لعلَّه يقبض بقاع أرض الرضا، وهذه مَقَازِيَّةٌ رَافِدًا زيادةً اليقظة، ومراقبها بجانب المراقبة، وجاذبها هاتف العزم ومنازل نسيان النوازل، ومبدأها

صدق التوكل، ومنتهاها حسن التفويض، فمن سلم منها ببضاعة عمله نال بعد قطعها نهاية أملة، ومن مات في ذلك السبيل السابِل فدية قِدَيتِهِ على العاقِل، ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهْلِكًا إِلَى أَقْوَىٰ ذَرِيَّتِهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

الفصل الحادي والأربعون

في قوله تعالى: ﴿وَذَا الثَّوْنِ لَإِذْ دَهَبَ مُغْنِيًا﴾

[الأنبياء: ٨٧]

المُشَارُّ إليه يونس عليه السلام، والثون السمكة، وإنما أُضيف إليها لابتلائها إياه.

قال ابن قتيبة: والشغاضبة المُغَاغِلَةُ، وأكثر ما تكون بين الثين، كالمُناظرة والمُخاضبة، وربما تكون من واحد؛ كقولك: سافرت، وشارفت الأمر، وهي هاهنا من هذا الباب.

قال المفسرون: كان يونس قد عانى من قومه أمرًا صعبًا من التكذيب والأذى، فخرج مُغاضبًا عنهم قبل أن يُؤمر بالخروج، ﴿فَنَقَلَ أَنْ لَوْ نَقَرُوا عَلَيْكَ لَكَانَ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والظلمات^(١) في القرآن على ثلاثة أوجوه:

أحدها: الشرك؛ ومنه: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].
الثاني: الأهوال: ﴿قُلْ مَنْ يُنْهِكُ مِّنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٣].
الثالث: جهل الأنوار: ﴿فَكَانَ فِي الظُّلُمَاتِ لَوْ كُنَّا إِلَهُ إِلَّا أَنْتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وليس في القرآن (لا إله إلا أنت) إلا هذا المكان، فأما (لا إله إلا أنا) فتلاثة أحرف:

(١) الظُّلُمَاتُ: جمع ظُلُمَةٍ.

قال شيخنا علي بن حيد الله: والاصل في الظُّلُمَةِ: السَّودَادُ اللَّيْلِي. فإنه إذا خُدم نُورُ النَّهَارِ وَغِيَرُهُ مِنَ الْأَنْوَارِ السَّوَدُ الْأَفْرَقُ بِكُتَابِ الْهَوَاءِ الرَّائِدِ، ولهذا إذا اشْتَدَّ الْخُجُبُ عَلَى الْهَوَاءِ الرَّائِدِ كَانَ الظَّلَامُ أَكْثَرَ وَأَشَدَّ. وَالظُّلُمَةُ: ذَاتُ يَحْلُقُهَا اللَّهُ تَعَالَى.

في (النحل): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، والثاني: في (طه): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [طه: ١٤]، وفي (الأنبياء): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فأما (لا إله إلا الله) فحرفان:

في (الصافات): ﴿إِنَّمَا يَلْفُظُ مِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]، وفي (محمد): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فأما (لا إله إلا هو) فثلاثون حرفاً:

في (البقرة): ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفيها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي يُقِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي (آل عمران): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢]، وفيها: ﴿كَذَلِكَ يَشْهَدُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٦]، وفيها: ﴿شَهِدَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالشَّيْخَةُ وَأُولُوا قُلُوبِهِمْ بِالنَّبِيِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وفي (النساء): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَيِّدُكُمْ﴾ [النساء: ٨٧]، وفي (الأنعام): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ سَخْلًا مَرْدًا﴾ [الأنعام: ١٠٢]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وفي (الأعراف): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفي (التوبة): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ شَهِدْتُكُمْ﴾ [التوبة: ٣١]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وفي (هود): ﴿وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤]، وفي (الرعد): ﴿مَعُونًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرعد: ٣٠]، وفي (طه): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَبِيعَ﴾ [طه: ٩٨]، وفي (المؤمنين): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنين: ١١٦]، وفي (النمل): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، وفي (القصص): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِشْدُ فِي الْأَوَّلِ﴾ [القصص: ٧٠]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ عَادَ بْنَ إِدْجَةَ﴾ [القصص: ٨٨]، وفي (فاطر): ﴿يُرِثُكُمْ مِنْكُمْ أَتَمَنَّا وَالْأَرْضُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣]، وفي (الزمر): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا شُرَكَاءَ﴾ [الزمر: ٦]، وفي (حم السجدة): ﴿يُزَيِّ الْقَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْعَصِيدِ﴾ [خافز: ٣]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوَكَّلُوا﴾ [خافز: ٦٢]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوَكَّلُوا﴾ [خافز: ٦٥]، وفي (حم الدخان): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا

﴿وَمَا أَتَيْنَا بِكَ إِلَّا بَشِيرًا مِّنذِيرًا﴾ [الدخان: ٨]، وفي (الحشر): ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَزَّ وَجَلَّ الْغَنِيُّ وَالْكَافِرُ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي (التغابن): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ أَرْسِهِ يَتَّوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣]، وفي (المزمل): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَالْهَادِي وَكَافِي﴾ [المزمل: ٩].

قال شَرِيحُ الْغَايِد: رأيتُ في المنام كأنَّ قاتلاً يقول لي: انت فلاتاً، فقد أمرناه أن يعلمك اسم الله الأعظم، فلما أصبحت جاءني الرجل، فقال لي: إني رأيت البارحة في المنام، فقيل لي: انت شريكاً فعلمه اسم الله الأعظم، وهو في كل شيء في القرآن لا إله إلا هو.

لما هوى الهوى بقوم يونس في قنونه، قام لتحذيرهم من الهوى ذو النون أن يزيدهم في انحرافهم عن الهدى في اسم الهوى حرف نون، فدار معهم في دارة دار المُدَارَاة دورانَ المنجنون، فلم يؤنس يونس منهم رشداً، ولا زال الجنون، فَضُجَّ ضَجْرًا ولوا وتغد بعد أن أخبرهم أن العذاب مُصِيبُهم قَيْصُ عَلَى ثلهم بعد ثلاث، فلما حان حين الخين غامت السماء غيم سَوَاءٌ لَا لَوْنَ لَهُ سوى السواد، فرمى رمادها دهاء دهاذه دخان ينسطح على السطوح، ثم مال العذاب، فأسرع الميل، فبقي بينهم وبينه قدر ميل، فانتشر شره، واستعمر حره، فترهموا إليه، ثم تَرَسَّمُوا، وَتَنَسَّمُوا، فبدى لهم من إسرافهم منذ بدى لهم، فَتَنَّنُوا، وَلَبَّسُوا والنمسا مسوك المسوح، ورموا على رموسهم الرَّمَاذ، وأتوا بالتوبة الصادقة، قَبِضُوا وجوههم من حبات القلوب، فَتَمَرَّقَ حجاب العذاب تَمَرَّقَ الشمالي مجموغ الجنوب، وَشَاح يونس في فضاء (فَطَّرَ)، وما كان له أن يمر بلا أمر، لكنه سَبَقَ فَأَبَقَ، فركب سفينة فما جرت، فماج أهلها بلفنون سبب وقوفها، فقال يونس: إن فيها عبدٌ هرب من ربه، وإنها لا تجري من جري ذنبه، فألقوه إلقاء الأسير وسيروا، فقالوا: أَمَا أَنْتَ فَلَا نَلْقَى اللَّهَ غَرًّا وَجَلًّا بِإِلْقَائِكَ، قال: فتقرعون إن كنتم ترعون، فمروا في القرعة مراراً، فسهم وجه سهمه إذ ساهم: ﴿فَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الصافات: ١٤٦]، فألقى نفسه فلتة، فالتقمة الحوث، فأوحى ربك إلى الحوث أن لا تضر يونس ولا يكلم، وإنما

خيس ليذكر الذنب فيندم، فاجتمعت عليه ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة بطن الحوت، فأمر راقد هذه الظلمات الثلاثة بثلاثة أقمار التوحيد، بلفظ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والتنزيه بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والاعتراف بندم ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فَمَدَّ يَدَ التَّائِبِ إِلَى خَبْلِ الإِعْلَاصِي قَتَالَهُ بِأَنَامِلٍ: ﴿فَأَسْتَحَبَّكَ فَكُ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقلصت عواطف اللطف تراعي لأيق سابق الخدم، وتنادي بلسان ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَمْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿فَلَوْلَا أَلَمُوا أَن كَانُوا مِنَ الْمُنْتَصِفِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

فاعلموا إخواني أن سابقة الأفعال تؤثر في خاتمة الأعمال، فتعرفوا إلى الله في الرخاء يعرفكم في الشدة والبلاء، وانظروا إلى هذا المحبوس، لما سبق له سابقة كان فتجاء واعتبروا بذلك المنحوس في: ﴿وَلَوْ كُنْتَ مِنَ الْمُفْرِينَ﴾ [يونس: ٩١]، كيف قويته كف الحنق على خلقه بقضية: ﴿وَالْفَرَقَ وَقَدْ غَضَبْتَ قَتَلَ﴾ [يونس: ٩١]، ثم إن فيج الوحي جاء إلى الحوت: أَلَيْسَ هَذَا الْبَرُّ فِي الْبَرِّ، فما شعر حتى ألقاه كالفرخ بلا جلد ولا شعر، فوقع غريباً بالعراء، فُسِّرَ بِحِجَابٍ: ﴿وَأَلْبَسْنَا لَهُ﴾ [الصافات: ١٤٦]، فلما ضَحَّ صَبَحَ بِهِ: أُمُّ الْأُمَّةِ، فأقبل وعليه حُلَّة، ﴿فَلَمَّا زُجِرَ﴾ [الغلم: ٥٠] فتلقوه بزيئة ﴿فَلَقُوا﴾، فسلم إليهم منشور: ﴿فَتَنَنَّهُمْ إِلَى جِي﴾ [الصافات: ١٤٨].

الفصل الثاني والأربعون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]

قال ابن قتيبة: (مَا)، و (مَنْ) أصلهما واحد، فجُعِلَت (مَنْ) للناس، و (مَا) لغيب الناس.

و (ما) في القرآن على سبعة أوجه:

أحدها: صلة؛ ومنه: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَكَلًا مَّا يُنَوِّسُهُ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿وَمَا يَحْتَسِبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ دُخَانًا﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

الثاني: بمعنى النفي: ﴿وَمَا ظَنُّوْا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

الثالث: بمعنى الذي؛ ومنه: ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا﴾ [البقرة: ١٥٩].

الرابع: بمعنى الاستفهام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

الخامس: بمعنى التعجب على لفظ الاستفهام: ﴿فَمَا أَصْبَرْتُمْ عَلَى الظَّالِمِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، ﴿فَمَا الْقِرَّةُ﴾ [عبس: ١٧].

السادس: بمعنى كَيْفَا: ﴿إِشْرَارَ قَوْمًا مَا أَتَى مِلَّةَ آبَائِهِمْ﴾ [يس: ٦].

السابع: بمعنى مَنْ: ﴿وَاللَّهُ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿وَمَا عَلَى الظَّالِمِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وهو ما يُلقَى في النار مما تزكّي به، والزفير كزفير الحمام في صدره، وهو أول نهيجه، وإنما حرم على أهل النار السماع لأن فيه أنسا. وقد رَوَى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " يُوَضَّعُ فِي مَسَامِيرِهِمْ مَسَامِيرٌ مِنْ نَارٍ " (١).

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩٢٠)، رقم (١٥٦٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَكَنَ لَهُم بَنَاتُ النَّحْسِ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وهي الجنة، ﴿أُولَئِكَ هُمْ فِيهَا﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: من جهنم، والحسبي: الصوت تسمعه من الشيء الذي يمر قريباً منك، وفي (الفرع الأكبر) أربعة أقوال:

أحدها: أنه الضخمة الأخيرة .

الثاني: إطباق النار على أهلها .

الثالث: ذبح الموت .

الرابع: حين يؤمر بالعيد إلى النار.

قوله تعالى: ﴿وَنَنفُثُهُمْ فِيهَا نَفْثَةً﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، إذا قاموا من قبورهم، وقيل: على أبواب الجنة، ﴿فَلَمَّا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فيه إجماع (يقولون).

إخواني! هذا الذي تسمونه الساعي يتعب طول السنة! ليقل له يوماً: أحسنت، أما فيكم من يعمل ليوم ﴿فَلَمَّا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

مَنْ لم يُبَلِّ على الباب الوقفة لم يكن له في الصدر جلسة، من لم يُعْض في بحر ذلٍّ أَوْسَى لم يُقَدِّر على سُدَّةِ سيادة عُزْرَ.
[المقارب]

أَلَا فَاجْهِدِ النَّفْسَ فِي تَبِيلِهَا فَلَا تُرَفِّقَنَّ عَمْسَى أَوْ لَعْلَا
إِذَا السَّعْرَةُ لَمْ يَحْطَ بِغَدِّ الْعَلَابِ فَالْجَدُّ لَا لَدَمَ السَّرَّ وَلَا
رُئِي سَفِيَانٌ فِي الْمَنَامِ، قيل له: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قال: دخلت الجنة، فإذا هَاتِفٌ يَقُولُ: سَفِيَانٌ؟ فقلت: سَفِيَانُ، قال: أتذكر يوم أثرت نفسك على هواك؟ قلت: نعم، فأخذتني صواني النار.

رُئِي حِمَادٌ بَنَ سَلَمَةً فِي الْمَنَامِ، فقيل: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فقال لي: طال ما كددت نفسك في دار الدنيا، فالיום أطيل راحتك وراحة المتعولين نَحْ نَحْ مَا أَعْدَدْتُ لَهُمْ.

وَقَفَّتْ رَابِعَةٌ فِي جُبَّةِ صُوفٍ، فَرُئِيَتْ فِي الْمَنَامِ وَعَلَيْهَا حُلَّةٌ إِسْتَبْرَقَ،

فَقِيلَ: مَا فَعَلْتَ الْجَبَّيْنِ؟ فَقَالَتْ: رَفَعْتُ فِي جَلْبَيْنِ لِيَكْمَلَ لِي ثَوَابُهَا، قِيلَ لَهَا: فَمَا فَعَلْتَ ضَيْغَمَ؟ قَالَتْ: يَزُورُ اللَّيْلَةَ عَرًّا وَجَلًّا مَتَى شَاءَ، قِيلَ: فَمَا فَعَلْتَ ابْنَ مَنصُورٍ؟ قَالَتْ: أَغْطِيهِ وَاللَّهُ فَوْقَ مَا كَانَ بِأَمَلٍ.

يا هذا؛ إن أردت لقائنا في حضرة القدس، واشتاق سمعك إلى نغمات الأنس، فظم عن لذات النفس، وشهوات الحس، واصمير على قطع مقارنات الحزن، واستند بنيتك في بيت الوجد، وقضْ نهار المُنَى بمحادثة الزهد، واقطع ليل الهوى بسهر العزم، واقرع فضول الكلام بسوط الصمت، وأقم على طرف طرفك حاجب الغض، وانيد إلى كلب الشهوات كِسْرَ الطَّبْرِ، وفرغ دار عزلتك من شواغل القلب، فإذا سمعت ضجيج محبوس النفس يستغيث من ضيق سجن الزهد لمر الحبس فصيخ به: يا صاح صبراً على قبض الحضر، تخرج إلى رياض ﴿أَعْمَلِي عَلَى خَرَائِبِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

[الطويل]

فَقَدْ ضَمْتُ عَنْ لَذَاتِ دُغْرِي ثَمْلَهَا وَنَوْمَ إِفْغَانِهِمْ ذَاكَ يَنْظُرُ حَسْبَابِي

الفصل الثالث والأربعون

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّكَ رَزَقَ
الْكَافَّةَ مِنْهُ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ (الحج: ١)

الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهًا:

خطاب عام: ﴿الَّذِينَ خَلَقُوا﴾ [البقرة: ٢١]، وخطاب خاص: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وخطاب الجنس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، وخطاب النوع: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وخطاب العين: ﴿يَكْفُرُوا﴾ [البقرة: ٣٣]، وخطاب الدم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التحريم: ٧]، وخطاب المذبح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وخطاب الكرامة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ٦٤]، وخطاب الإهانة: ﴿لَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ [الحجر: ٣٤]، وخطاب الجمع بلفظ الواحد: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ﴾ [الانفطار: ٦]، وخطاب الواحد بلفظ الجمع: ﴿وَرَبُّكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُ﴾ [التعل: ١٢٦]، وخطاب الواحد بلفظ الاثنين: ﴿أَلَيْسَ فِي هَٰمِهِمْ﴾ [ق: ٢٤]، وخطاب الاثنين بلفظ الواحد: ﴿فَمَنْ رَزَقْنَاهُ يُقْسِنُ﴾ [طه: ٤٩]، وخطاب العين والمراد به الغير: ﴿فَمَنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤]، وخطاب النلون، وهو على وجوه: منها: أن يخاطب الحاضر ثم يخبر عن غائب؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَكَ فِي الْأَلْبَانِ وَتَبَرَّيْنِ بِهِمْ يَبْعُ يَبْنُونَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ دُفْعَةٍ فَتُؤَوِّدُكُمْ وَيَقُولُ قَدْ أُوْلِيَكَ هُمْ الْقَضَايُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، ومنها ما يخبر عن غائب ثم يخاطب الحاضر؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا الْإِنْسَانُ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿وَسَلَّمْتُمْ نَفْسَكُمْ شُرَكَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [إِنْ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً] [الإنسان: ٢١ - ٢٢].

وقال مقاتل: ينادي مُنادٍ من السماء: يا أيها الناس! أتى أمر الله،
فيفزعون، حتى يشيب الصغير وتضع الأقدام.

وقال وهب: إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء، وتنفطرت
العضاة دماءً يعني: الشجر، وإن الطير لتضرب بأذنانها، وترمي ما في
حواصلها من هول ما ترى وليس عندها طلبة.

يا هذا؛ بين يديك هولاً لا يذاري، كم تجري من العيون عند العيان
عيون عذاري، والوجد يميل بالناس يميناً ويساراً، لا يهتدون سبيلاً ولا يجدون
قرازاً، ﴿وَرَى الَّذِينَ شَكَّرُوا وَتَأْمَمُّوا شُكْرَهُمْ﴾ [الحج: ٢].

يا مسؤولاً عن اللفظة والنظرة، ويا من كتبه يحوي حتى الذرة، قليلُ
المواعظ يكفي النفس الخربة، وإنما يُزجرُ العاقلُ مرةً، وقد قلنا مراراً.

الفصل الرابع والأربعون

في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ

وَمَكَالًا﴾ [الحج، ٢٧]

لَمَّا تَكَامَلْ بِنَاءَ الْبَيْتِ أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى خَلِيلِهِ إِذْ ذَا رَسُولُهُ (وَأَذِّنْ)، فقال: يا رب؟ كيف يسمع صوتي جميع الخلائق؟ فقال الله عز وجل: يا إبراهيم؛ مِنْكَ الْأَذَانُ وَعَلَيْكَ الْبَلَاغُ، فَعَلَا عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ، وَنَادَى فِي جَمِيعِ الْوُجُوهِ: إِنْ رِئَاكُمْ قَدْ بَنَى لَكُمْ بَيْتًا فَحُجُّوهُ، فَأَجَابَ مَنْ جَرَى الْقَدَرُ يَحُجُّو: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، فَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَخَا الْيَوْمِ ﴿أَنْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢].

[اليسط]

لَمَّا رَأَيْتُ مُسَاهِبَهُمْ يَلُومُ بِهِمْ شَذَذْتُ بِشَرِّ إِخْرَاسِي وَلَبَّيْتُ
وَقُلْتُ لِلنَّفْسِ جَدِّي الْآنَ وَاجْتَهِدِي وَسَاعِدِينِي فَبَهَذَا مَا تَمَشَّيْتُ
لَوْ جَلَّيْتُكُمْ زَائِرًا أُنْشِئِي عَلَى بَعْضِي لَمْ أَقْصِ عَنَّا وَأَيُّ الْحَقِّ أَذْبَحْتُ
ثم أعلم الجليل الخليل أن نذاك واقع في محل نَجَح ﴿يَأْتُوكَ وَمَكَالًا﴾ [الحج: ٢٧]، وهم الرجالة، وقد حَجَّ إبراهيم وإسماعيل مائيتين، وَحَجَّ الحسين بن علي رضي الله عنهما خمسين وعشرين حجة ماشيًا من المدينة والتجائب فَنَادَى مَعَهُ، وَحَجَّ الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ماشيًا مرتين، ﴿وَقُلْ صَلِّ صَلَاتَكَ لِحَاكِيمٍ﴾ [الحج: ٢٧] قد صَرَّفَهَا طُولُ الشَّرِّ، وَذَكَرَ فِعْلَ التَّوَقُّعِ فِي لَفْظِ (يَأْتُونَ).

[اليسط]

وَعَمَّ وَقُلْتُ وَأَصْحَابِي بِمَشْرِزَلِي تَلْهِيي بِهَا وَطَرًا وَبِهَا وَأَوْطَانًا

تُبَكِّي وَتُسَيِّدُنَا كَوْمُ الْمَطِيِّ قَهْلٌ نَحْنُ الْمَشْهُوقُونَ فِيهَا أَمْ مَطَايَا
فَلَا وَمَنْ لَطَرَ الْأَشْيَاءَ مَا وَجَدَتْ كَوْنُهَا الْعَيْسَى بَلْ رَأَيْتَ لِبَلَوَانَا
سَارُوا صَابِرِينَ عَلَى مَشَاقِّ الطَّرِيقِ بَيْنَ صَعُودٍ وَهَبُوطٍ وَمَضِيٍّ وَاحْتِمَالٍ
مَنْ أَجَلْنَا خَلْفَ الرِّفِيقِ، وَسَارَتْ بِهِمُ الْأَيْتُ مِنْ كُلِّ رَجْعٍ أَيْقٍ، وَجَلَبَتْ بِهِمُ
الْمَطَايَا مِنْ كُلِّ بَلَدٍ صَحِيقٌ، وَأَقْبَلُوا مَا بَيْنَ مَاشِيٍّ عَلَى قَدَمِهِ، وَقَدْ اسْتَسْمَعَاءَ بَيْنَ
التَّصْدِيقِ، ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَنْهَارِ جَلْدٌ يَكْفِي﴾ [الحج: ٢٧].
[الرجز]

دَعِ الْمَطَايَا تَنْسُمُ الْجُنُوبَا
إِنْ لَهَا لَنْبَاءٌ عَجِيبَا
خَبِيرُهَا وَمَا اسْتَحْكَمَتْ لُغُوبَا
يَشْفَهُدُ أَنْ قَدْ قَارَزَتْ خَبِيرَا
تَرْزُمُ لَمَّا اسْتَشْرَفَتْ كَرِيمَا
عَادُ بِالرُّمْلِ لَهَا مُقْلُوبَا
مَا حَمَلَتْ إِلَّا قَتْلَى كَحَبِيرَا
يُحِيرُ بِمَا أَفْلَنْتَ نُصِيرَا
يَنْشِي إِذَا حَلَّتْ لَهَا مُجِيرَا
بِطَرَفِهَا إِذَا انْشَى ظُرُوبَا
إِنْ الْحَرِيرِينَ يَبْعَثُ الْجَبِيرَا
لَوْ غَاقَرَ الشُّوقُ لَنَا قُلُوبَا
إِذْ لَا نَرْتَا بِهَلْ أَلْبَسَا
إِنْ الْقَرِيبَ يُشِيرُ الْقَرِيبَا

فَارَقَ الْقَوْمَ دِيَارَهُمْ، وَأَثَرُوا عِبَادَهُمْ، وَتَرَكُوا أَوْلَادَهُمْ، وَأَعْرَوْا أَجْسَادَهُمْ،
وَأَظْمَأُوا أَكْبَادَهُمْ، وَخَلَّوْا مُرَادَهُمْ، وَجَعَلُوا ذِكْرَهُ زَادَهُمْ، وَأَغْنَوْا زَوَادَهُمْ،
وَأَنْضَوْا جِيَادَهُمْ، بَايَنُوا الْخَلَائِقَ، وَتَجَرَّدُوا عَنِ الْعَلَائِقِ، تَفَرَّجُوا عَنِ الْأَوْطَانِ،
وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْمَالَ وَالْجِيرَانَ، نَزَعُوا الْمَحِيطَ، وَنَزَعُوا عَنِ الشَّقْرِيطِ،
وَأَقْبَلُوا إِلَى الْمَلِكِ الْمَحِيطِ، وَمَلَأُوا بِالنَّالِيَةِ ذَاكَ الْبَسِيطِ، وَإِنَّمَا أَمَرُوا بِالنَّعْرِ

ليدخلوا بزي الفقراء على الكريم، ليبين أثر: ﴿وَمَا أَتَوَلَّكَ﴾ [سبا: ٣٧].
إعترائي، الحج حرفان: حاء وجميم، قاله: جلم المغنود، والجميم مجرم
الغبي.

مَنْ أَهْلَمَ السَّابِقُ الْغَنِيَّتَ بِهِمْ بِأَنْ رُوجِي نَسَائِي مَعَ إِسْلِهِ
وَأَنْ نَفْسِي يَرْوِي بِغَائِهِمْ لَوْلَا دَمٌ فِي أَثْنَابِ مَنْتَهِيهِ
ثَالِثٌ لَقَدْ جَمَعُوا الْخَيْرَ الْجَمُّ لَيْلَةً جَمْعٌ، وَثَالِثٌ لَقَدْ دَخَلُوا مَنًى.
[البسيط]

لَوْ فَرَّ مَنًى وَنَا جَمَعْتُ وَنَا الْأَجْبَةُ لَيْلَةُ النَّطْرِ
ثُمَّ أَهْلَمُوا فَرَقًا هُنَا وَهُنَا يَتَخَلَّطُونَ بِأَغْنِي الدُّغْمِ
حج القوم وثالوث المني، وتخلط أنت للثرداب والعناء، فما لنا ما لنا
ما لنا.

[الكامل]

نَالِ الْمَنَى مَنْ خَلَّ فِي وَادِي مَنَى غَيْرِي قَوْلِي مَا بَلَّغْتُ مُرَادِي
لَبَسُوا الْجَنَابَ بِذَاتِ عَرَقٍ وَأَخْرَجُوا وَلَبَسْتُ مِنْ حَزْنِي ثِيَابَ سَوَادٍ
رَلَعُوا أَهْلَهُمْ وَضَجُّوا بِالدُّعَا وَهَمَمْتُ مِنْ وَجْدِي بِيَدِي بِفُؤَادِي
لَمَّا حَجَّ جَعْفَرُ الضَّادِي فَأَرَادَ أَنْ يَلْبِي تَغَيَّرَ وَجْهَهُ، فَقِيلَ: مَا لَكَ يَا ابْنَ
رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: أَرِيدُ أَنْ أَتِي، فَأَعْلَفُ أَنْ أَسْتَعِيزَ بِالْجَوَابِ.

هذه حال الضاد في خوفه، وكيف خالته يا كذاب؟
ووقف بكرٌ ومطرف، فقال مطرف: اللهم لا تُرَدِّقْهُ مِنْ أَجْلِي، وقال
بكر: ما أشرقه من مقام لولا أنني فيه.
وقام الفضيل بعرفة فشغله البكاء عن الدعاء، فلما كادت الشمس تغرب،
قال: وَأَسْوَءُ نَاءٍ وَنَكَ وَإِنْ عَفُوتَ.

ووقف بعض الخائفين بالموقف على قدم الإطراق والحياء، فقيل له: لِمَ
لَا تَدْعُو؟ فقال: ثُمَّ وَحْشَةٌ، قيل: هَذَا يَوْمُ الْعَفْوِ عَنِ الذُّنُوبِ، فَسَطِّ يَدَيْكَ فَوْقَ
مَنْتَا.

أَنزَلَ الْوَادِي بِأَيْمَانِهِ إِنَّهُ بِالْمَدَامِ مَلَانُ
وَأَزِمَ بِالْمَدَامِ الْعَقِيْقَ قَلْبِي ثُمَّ بِالْمَدَامِ وَأَشْجَانُ
وَأَشْجَرَ الْقَلْبِ الْمَشْجُورِ عَنِّي يَرْجِعُ الْمَشْجُورُ نَشْدَانُ
وَأَبْكَ عَنِّي مَا اسْتَطَعْتُ إِذَا مَا يَدَا بِالْمَدَامِ نَشْدَانُ
وَأَشْرَعَ عَنِّي السَّلَامَ فَنَحْنُ قَلْبِي بِالْمَدَامِ نَشْدَانُ

قال وهيب بن الورد: بينما امرأة تطوف بالبيت، وتقول: يا رب! ذهبت اللذات وبقيت التبعات، يا رب ما لك عقوقة إلا النار، فقالت لها صاحبة لها: يا أخيه، فلا دخلت اليوم بيتك، قالت: ما أرى هاتين القدمين أهلا للظناب، فكيف أدخل بهما وقد عيلت أين مشقا.

حج الشليل، فلما رأى منة قال: [المتطارب]

أَبْطَحَاءَ مَنَّةَ هَذَا الَّذِي أَرَاهُ عِيَانًا وَعَلَدًا أَنَا
ثُمَّ عَشِي عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَتَانِي قَالَ: [مجزوء الرمل]

عَلِدُو قَارُغُمُ وَأَنْتَ مُجِبُّ مَا بَقَاءَ الدُّنُوعِ فِي الْأَنْبَاقِ
حج قوم من العباد وفيهم عابدة، فجعلت تقول: أين بيت ربي؟ فيقولون: الآن نرينه، فلما لاح البيت، قالوا: هذا بيت ربي، فخرجت تشدد، وتقول: هذا بيت ربي، حتى وضعت جبهتها على البيت، فما رفعت رأسها إلا وهي ميتة.

[الكامل]

هَاتِيكَ قَارُغُمُ وَعَلَدًا نَاوُغُمُ فَأَخْبِسْ رَدَّ وَشَرَّتْ إِنْ لَمْ تَنْقَبِي
اسْتَقْبَلْتُ بِمَا سَفُنُ الْغَلَاةِ قَبْلَنِي وَظَرَيْتُ بِأَخَايِ الْمَطْبِئِ قَبْلَنِي
قَالُوا عَسَاكَ مُرْجِمُ مُتَبَيِّنُ هَيْهَاتَ لَيْسَ بِشَاظِرِي إِنْ حُرَيْتِي
وَأَسْفَا كَيْفَ سَارُوا وَقَعْدَتْ، وَآخَرَتَا كَيْفَ قَرَبُوا وَتَبَاهَدَتْ، أين حشرات البُعْد؟ أين لَذَعَاتُ الْوَجْد؟ أين حركات الشوق؟ أين قطرات التوق؟ أين تلهف الفت؟ أين أسف الحرمان؟ أين حزن الخسران؟

[الرمل]

أَتَطَّلُّ الْمُرُوقَ فِي الْأَيْكِ تَغْنِي
إِنَّهَا تُطَوِّرُ خُرْنًا وَثُلَّ خُرْنِي
لَا أَرَاكَ اللَّهُ تَجِدًا يَغْدَقَا
أَيُّهَا الْحَادِي بِهَا إِنْ لَمْ تُجِئْنِي
فَلْ تُبَارِئْنِي إِلَى بَيْتِ الْجَوَى
فِي وَبَارِ الْحَيِّ تَشْوِي ذَاتَ غَضِي
فَبَ لَهَا الشَّبَقُ وَلَكِنْ رَافِقَا
أَنَا تَبْكِي عَلَيْهَا وَتُغْنِي
يَا دَمَانَ الْكَئِيبِ قُلْ مِنْ عَوْدَةٍ
يَسْمَحُ الدُّغْرُ بِهَا مِنْ بَعْدِ ضُرِّ
أَرْحَمِنَا مِنْ تُبَيَّاتِ اللَّوَى
بِزُرُودِهَا لَهَا صَفْقَةٌ غُبِي
سَلْ أَرَاكَ الْجَزَعَ قُلْ جَاءَتْ بِوَ
مُرْنَةٌ رَوَتْ تَرَاءَ غَيْرِ جَفْنِي
وَأَخَابِيكَ الْغَضَا قُلْ عَلِمْتُ
أَنَّهَا تَنْبِيكَ تُلْهِبِي قُبْلَ أَتْنِي
هَيْثَا لِمَنْ وَصَلَ يَا مُنْقَطِعِينَ، طوبى لِمَنْ أَعْطَى يَا مُحْرَمِينَ، طوبى لِمَنْ
صَالَحَ يَا مُهْجُورِينَ، فَوَرَّا لِمَنْ قُبِلَ يَا مَطْرُودِينَ، تَلَمَّحُوا الْمُقَرَّبِينَ يَا مُتَبَعِينَ.

[الطويل]

أَقُولُ لِرَجَبِ الرَّابِحِينَ لَعَلَّكُمْ
تُحْلُونَ مِنْ تَغْدِي الْعَقِيقِ الْيَمَانِيَا
عَلِمُوا نَظْرَةً بَنِي فَلَاقُوا بِهَا الْجَسَى
وَتَجِدَا وَتُغْنِيَانِ اللَّوَى وَالْمَقَالِيَا
وَقُولُوا لِحِجْرَانِي عَلَى الْكَئِيبِ مِنْ يَسَى
تَرَانُكُمْ مِنْ اسْتَبْدَلْتُمْ بِجَوَارِيَا
وَمَنْ وَرَدَ الْمَاءَ الَّذِي تَحْتُ وَارِدَا
تَرَحَّلْتُ عَنْكُمْ إِلَى أَسَاسِي نَظْرَةً
لَهُ وَرَعَى الْغُثْبَ الَّذِي تَحْتُ رَاجِيَا
تَرَحَّلْتُ عَنْكُمْ لِي عَلَى الْكَئِيبِ شَهَقَةً
وَعَشْرَ وَعَشْرَ بَعْدَكُمْ مِنْ وَرَاجِيَا
قَبَا أَنَا نَحْمُ لِي عَلَى الْكَئِيبِ شَهَقَةً
تَذُوبُ عَلَيْهَا قِطْمَةٌ مِنْ فَوَاجِيَا
يَا مَنْ لَمْ يَصِلْ هَذَا الْعَامَ إِلَى يَسَى، اطْلُبْ يَسَى فَيَسَى الْمُسَى، يَا مَنْ لَمْ
يَقْدِرْ عَلَى تَقْيِيلِ الْحَجَمِ، خَلَّصْ قَلْبَكَ فَقَدْ حَجَرَ عَلَيْهِ حُبُّ الْحَجَرِ.

اجعل عوض الإحرام ترك الحرام، ومكان رمي الجمرات أن تطفئ من نار الهوى الجمرات، إن لم تصل إلى الحطيم فلا تصل إلى الحُطَامِ، إن لم تكن ثم فلا تركبن الأثام، إن لم تصل إلى حرفة، فأقبل إليه بقلب قد عرفه، يا عجبًا لمن يقطع المفاوز ليرى البيت، ويشاهد آثار الأنبياء، كيف لا يقطع بادية

نفسه عن هواها، ليصل إلى كعبة، (وَيَسْتَفِي قَلْبَ عَيْدِي الْمَوْتِ)، اجلي قلبك
بإجالة دُخْرِ أَجَلِكَ، وارفع جليل همك عن جليل الهوى، وتجلجل الجهالة،
وَسَقْ بَدَنَهُ بِذَلِكَ، الحق متى نل منى، اترك المنى وسر في فيافي الجد حاملا
زاد المجاهدة، لعلك تصل إلى كعبة الجلال، فتطوف طواف الإجلال.

[اليسيط]

إِلَيْكَ قَسْدِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَالْآثِرُ	وَلَا طَوَافِي بِأَرْكَانٍ وَلَا حَصِيرُ
ضَفَاءَ ذَمِّي الضَّغَابِي جِبْنَ أَعْبَرُهُ	وَزَمْرِي ذَمْعُهُ نَجْرِي مِنَ الْبَصِيرُ
وَيْبِكَ سَفِي وَتَغْيِيرِي وَزُقْلِي	وَالْهَدْيُ حَسْبِي الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْجُزْرِ
وَمَسْجِدُ الْخَوْفِ خَوْفِي مِنْ تَبَاهِدِكُمْ	وَمُسْغَرِي وَمَقَابِي دُونَكُمْ حَظْرِي
زَادِي زَجَائِي لَكُمْ وَالشُّوقُ رَاجِلَتِي	وَالْمَاءُ مِنْ عَيْرَاتِي وَالْهَوَى سَفْرِي

فصل

يُقَالُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ

الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ عَرَفَةَ إِلَى سَمَاءِ الْمَلَايِكَةِ: قُلُوا: يَا مَلَائِكَتِي، انظُرُوا إِلَى جِبَادِي، أَتَوَيْتُمْ شَيْئًا غَيْرًا مِنْ كُلِّ فَعٍّ عَمِيْنٍ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبُّ، إِنَّ فِيهِمْ فُلَانًا وَفُلَانًا، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ أَجْمَعِينَ^(١)، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: " لَا يَبْقَى يَوْمَ عَرَفَةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا غُفِرَ لَهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لِأَهْلِ مُعَرِّفٍ أَوْ غَيْرِ مُعَرِّفٍ، فَقَالَ: لِمُعَرِّفٍ وَلِغَيْرِ مُعَرِّفٍ^(٢)."

يأمر بالتوبة قبل الفوت، إن لم تنب في هذا الوقت متى تنوب، عليك فتوب وما تنوب، وشمس الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسى قلبك من بين القلوب.

اذكروا إخوانكم في هذه الساعة، وفي هذه الليلة، وهم على الأقدام راجعين جزييل الأنعام، وقد أخذوا في التضرُّع وفي التلبية والدعاء، مثلوا

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢/٢٨ رقم ١١٢٨)، وابن عزيمة (٤/٢٦٣). بعد رقم (٢٨٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٦٠، رقم ٤٠٦٨)، وابن عساكر (٤٥/٣١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٤٣ رقم ٢٠٤٥٧) والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/٣٥٩) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه أيضًا: ابن أبي شبة (٧/٥٩، رقم ٣٤١٩٣)، وابن أبي عاصم (٢/٤٠٣، رقم ٨٣٧)، والبزار (٩/١٢٢، رقم ٣٦٧١)، والطبراني في الصغير (٦/١٤٢، رقم ٩٢٩).

لأنفسكم كأنكم بينهم، أو كأنكم معهم، فوموا على الأقدام، وسلوا مولاكم
وقد كفاكم وأعطاكم، إياك اللهم إياك، ارحم تضرعنا بين يديك، قد أتينا من
الذنوب هاربين إليك، فلا تردنا خائبين، وَجِزِّبْ مَا تُقْبِلُ إِلَيْهِ إِلَّا وَقَدْ أَقْبِلَ
عَلَيْكَ، إلهي اغثِن رَقِيَّةً قد رَقَيْتَ جُودَكَ، ارحم غريقاً في بحر الذنوب ما يسمع
استغاثته سيواك، خلّص أسيراً في يد رُوم الهوى ما يقدر على فكاحيه غيرك،
اللهم إنك أمرتنا أن نعتق أرقاناً ونحن أرقاؤك فَاغْتِثْنَا، اللهم إنك أمرتنا أن
نعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا فَاغْفُ عَنَّا، اللهم إنك أمرتنا أن لا نرُدَّ
السؤال، ونحن السؤالُ ببابك فلا تَرُدُّنَا خائبين، واغفر لنا أجمعين، يا أرحم
الراحمين.

الفصل الخامس والأربعون

في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾

[المؤمنون، ١]

روى أبو سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: * إنَّ الله عزَّ وجلَّ حافظ حافظ الجَنَّةِ لَبَنَةً مِنْ دَهَبٍ، وَلَبَنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَغَرَسَ غَرْسَهَا بِبَيِّبٍ، وَقَالَ لَهَا: تَحْلِمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ لَهَا: طَوَّبَى لَكَ بِمُزْنِ الْمُؤْمِنِ (١) .

وفي تسمية الصلاة (٢) صلاة ثلاثة أقوال:

أحدها: إنما فيها من الدعاء .

الثاني: لرفع الصلاة في الركوع والسجود، والصلاة: مَعَرُزُ الدَّخْبِ مِنَ الْفَرَسِ .

الثالث: إنما فيها مِنَ الْخُشُوعِ، يُقَالُ: صَلَّيْتُ الْعُودَ بِالنَّارِ إِذَا لَبَّيْتُهُ، وَالْمُضَلِّي يَلْبِسُ وَيَخْشَعُ.

والصلاة في القرآن على عشرة أوجه:

أحدها: الصلاة الشرعيَّة، ومنه: ﴿الَّذِينَ يُبَيِّتُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [المائدة: ٥٥] .

الثاني: صلاة العَصْرِ، ومنه: ﴿لَتَجْشُدُنَّهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ١٠٦] .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١/٩٩)، رقم ٣٧٠٦.

(٢) سميت الصلاة لما فيها من الدعاء، والصلاة على الجنابة؛ لأنها دعاء لا سجود فيه ولا ركوع، وقيل: أصلها التزوم، ومن قيل: ﴿تَتَّقُ اللَّهَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٥] أي: يلزمها.

الثالث: صلاة الجنائزة؛ ومنه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَهْلِ الْقُبْرِ﴾ [البقرة: ٨٤].

الرابع: الدعاء: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٣].

الخامس: الدين؛ ومنه: ﴿أَمْ لَكُمْ تَأْتِيكُم مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ [هود: ٨٧].

السادس: الفِرَاقَةُ: ﴿وَلَا تَقَهَّرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الاسراء: ١١٠].

السابع: مَوْضِعُ الصَّلَاةِ؛ ومنه: ﴿وَبِيعَ رَسُولُكَ وَمَسْجِدُكَ﴾ [الحج: ٤٠].

الثامن: التَّغْفِيرَةُ؛ ومنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَكَانَ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. صلاة الله تعالى المغفرة.

التاسع: الْأَسْبَغَاتُ، وهو بمعنى: صلاة الملائكة.

العاشر: صَلَاةُ الْجُمُعَةِ ﴿إِذَا تَوَسَّعَ الْمُصَلِّونَ بَيْنَ يَدَيِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].

قال علي رضي الله عنه: (الْحُسُوعُ فِي الصَّلَاةِ تَرْكُ الْأَلِفَاتِ).

وقال قتادة: هو النظر إلى موضع السجود.

وقال أهل العلم: الصلاة أفضل العبادات؛ لأن بها يدخل المشرك في الإسلام، ويتركها يخرج المسلم من الإسلام، وقد فُضِّلَ الوضوء الذي هو بابها، وقد مُدِّحَتْ الخطوات إلى موضعها.

وروى مُسْلِمٌ في إفراده من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: * إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوْ الْمُؤْمِنُ فَعَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَتْ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ، فَإِذَا عَسَلَ يَدَايِهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَها بِبَيْتِهِ، وَإِذَا عَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَحَها بِرِجْلَاهُ، فَيُنْقَلَى مِنَ الذُّنُوبِ.^(١)

(١) أخرجه مسلم (٢١٥/١)، رقم (٢٤٤)، والترمذي (٦/١)، رقم (٢) وقال: حسن صحيح.
وابن حبان (٣١٥/٣)، رقم (١٠٤٠). وأخرجه أيضاً: ابن خزيمة (٥/١)، رقم (٤)، وأبو عوانة (٢٠٧/١)، رقم (٦٦٩)، والبيهقي (٨١/١)، رقم (٣٨٦). وعزاه البيهقي في المعرفة (٣٠٧/١) رقم (٧٣٥) للشافعي.

وَرَوَى بُرَيْدَةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، * أَنَّهُ أَصْبَحَ قَدْخَا بِلَالًا، فَقَالَ: يَمْ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ، مَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ إِلَّا سَبَقْتُكَ خَشَعَتْكَ أَنْفَايَ، قَالَ: مَا أَحَدُثْتُ إِلَّا نَوَاصِثَ وَصَلَيْتُ وَكُفَعْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بِهَذَا^(١).

بُرَيْدَةُ: هُوَ ابْنُ الْخُضَيْبِ، وَلَيْسَ فِي الصَّحَابَةِ رَجُلٌ اسْمُهُ بُرَيْدَةُ سِوَاهُ، وَفِي الصَّحَابَاتِ امْرَأَةٌ اسْمُهَا بُرَيْدَةُ، وَمَا فِي الصَّحَابَاتِ امْرَأَةٌ اسْمُهَا بُرَيْدَةُ سِوَاهَا، فَهَذِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَسَاوَى فِيهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، مِثْلُ ذَلِكَ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِيْسٍ، صَحَابَتَانِ، وَتَمَّ امْرَأَةٌ أُخْرَى يُقَالُ لَهَا: أَسْمَاءُ، رَوَتْ عَنْ أَبِيهَا، عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِرْكَةُ أُمِّ أَيْمَنَ، حَاضِنَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَوَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسَ أَحَادِيثَ، لَمْ يُكْرَجْ لَهَا فِي الصَّحِيحِينَ شَيْءٌ، وَبِرْكَةُ أُمِّ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رِيَاحٍ.

وَمِنَ الرِّجَالِ: بِرْكَةُ أَبُو الْمُنْذَرِ، رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، بِرْكَةُ بْنُ نَشِيطٍ، رَوَى عَنْ عَثْمَانَ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ.

جَوَابِرَةُ بْنُ مُسْهِمٍ، رَوَى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَجَوَابِرَةُ بْنُ بَشِيرٍ، رَوَى عَنْ الْحُسَيْنِ، وَجَوَابِرَةُ ابْنُ أَسْمَاءَ، رَوَى عَنْ نَافِعٍ.

وَمِنَ النِّسَاءِ: جَوَابِرَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَجَوَابِرَةُ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ، أَسْلَمَتْ وَبَايَعَتْ.

الرِّيَابُ بِنْتُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، الرِّيَابُ بِنْتُ حَارِثَةَ بْنِ كَعْبٍ أُمُّ حَذِيفَةَ، الرِّيَابُ بِنْتُ النُّعْمَانِ عَمَةُ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ، كِلَهُنَّ صَحَابَاتُ وَمُبَايَعَاتُ.

وَفِي الرِّجَالِ تَابِعِي يُقَالُ لَهُ: الرِّيَابُ، سَمِعَ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَلِيُّ بْنُ يَزِيدَ صَخَابِيٍّ، عَلِيُّ بْنُ ثَابِتٍ الْمُهَذَّبِيٍّ، عُصَيْمَةُ حَلِيفُ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، وَعُصَيْمَةُ حَلِيفُ لَهُمْ مِنْ أَشْجَعٍ، كِلَاهُمَا شَهِدَا بَدْرًا.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٥٤/٥)، وَرَقْمُ ٢٢٠٤٦، وَالتِّرْمِذِيُّ (٦٢٠/٥)، وَرَقْمُ ٣٦٨٩ وَقَالَ:

صَحِيحٌ غَرِيبٌ، وَابْنُ خَرِيزَةَ (٢١٣/٢)، وَرَقْمُ ١٢٠٩، وَابْنُ حِبَّانَ (٥٦١/١٥)، وَرَقْمُ

٥٧٠٨٦، وَالْحَاكِمُ (١٥٧/١)، وَرَقْمُ ١١٧٩ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ.

ومن النساء: غصيمة بنت خباب، وغصيمة بنت أبي الأفلح، ثبايعات.

هند بن حارثة، هند بن أبي هالة، صحابيان.

ومن النساء: هند، وهي أم سلمة، زوجة النبي صلى الله عليه وسلم،
ومعها خمس عشرة امرأة من الصحابيات، كلهن اسمها هند.

وأبلغ من هذا أن يتساوى الرجل والمرأة واسم أبيهما، مثل: أمية بن أبي
الصلت، وأمية بنت أبي الصلت، روى حديثها ابن إسحاق.

أمية بن عبد الله حَدَّثَ عن ابن عمر، أمية بنت عبد الله تروي عن عائشة
رضي الله عنها.

عمارة بن حمزة من ولد عكرمة، عمارة بنت حمزة التي اختصم فيها علي
وجعفر وزيد، انفرد بتسميتها عمارة بنت حمزة الوافدي، وغيره يقول: بنت
أمانة.

فضالة بن الفضل حَدَّثَ عن أبي بكر بن عياش، فضالة ابنة الفضل، روى
عنها عبد الرحمن بن جَبَلَة.

هند بن المهلب روى عنه أبو الزبرقان، هند بنت المهلب، هند بنت
الحجاج حَدَّثَ عن أبيها.

هبة الله بن أحمد شيخ متأخر روى عن المخلص، هبة الله بنت أحمد
حَدَّثَ عن أحمد بن محمود القاضي.

ومن هذا الفن ما يتشابه في الخط، ويتباين في اللفظ مع تساوي
النسب:

بُسْرَة بنت صفوان صحابية، بُسْرَة بن صفوان حَدَّثَ عن إبراهيم بن سعد
الزُّهري.

حمزة بن عبد الله جماعة، وحمزة بنت عبد الرحمن أخت أبي بكر بن
عبد الرحمن المقيي.

ومما يقع فيه الإشكال، فيظن أنه قد سقط منه حرف:

إسحاق بن الأزرق، إسحاق الأزرق، فالأول مصري روى عن الليث بن
سعد، الثاني: يروي عن الثوري.

عباس بن الأزرق، عباس الأزرق، فالأول بالسین المهملة روى عنه جعفر الثريائي، الثاني بصري روى عنه عبد الصمد بن عبد الوهاب.

عُدْنَا إلى ما كُنَّا فيه، أَيُّهَا الْمُصَلِّي! ظَهَرَ قَلْبُكَ قَبْلَ الطَّهُّورِ، وحل عقدة الأضرار قبل عقد النية، وَقَفَّشَ عَلَى قَلْبِكَ الضَّاعِ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي الصَّلَاةِ.

يا هذا؛ حضور القلب قبل اللفظ أول منزل، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى، فإذا رحلت عنها أنتخت بباب المناجاة أول ضيف، وأول اليقظة كشف الحجاب لعين القلب، فإذا استغرقت حلاوة المناجاة ظفر بعدن " جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " (١)، فإيا من لم يقطع منزلاً واحداً من بادية البداية، كيف تطمع في النزول إلى نهى النهاية؟ كيف يطمع في دخول مكة منقطع بالكوفة؟ همك في الصلاة منشئت، وسرك في المناجاة مثنون، وقلبك بمساكنة الغير مُتَلَوِّثٌ، ومن كان مُتَلَوِّثًا بالأفذار لم يُعَلِّفْ، وكيف يجد طعم العسل مريز القم.

وفي حديث ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " مَا مِنْ مُصَلٍّ إِلَّا وَمَلَكَ عَنْ يَمِينِهِ، وَمَلَكَ عَنْ شِمَالِهِ، فَإِنْ أَتَمَّ صَلَاتَهُ عَزَّجَا بِهَا، وَإِنْ لَمْ يُتِمَّهَا حَزَّجَا بِهَا وَجْهَهُ " (٢).

يا هذا؛ ادخل دار الخلوة، واخْلُ بِمَنْ تَنَاجِي، وأحضر قلبك لتفهم ما تلو، ففي جلوات التلاوة تُرْفَتُ أَبْكَارُ الْمَعَالِي.

(١) أخرجه أحمد (١٢٨/٣)، رقم (١٢٣١٥)، والنسائي (٦١/٧)، رقم (٢٩٣٩)، وابن سعد (٢٩٨/١)، وأبو يعلى (٢٣٧/٦)، رقم (٣٥٣٠)، والحاكم (١٧٤/٢)، رقم (٢٦٧٦) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي (٧٨/٧)، رقم (١٣٢٣٢)، والقيس (٤٢٧/٤)، رقم (١٦٠٨)، وأخرجه أيضاً: محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/٣٣١)، رقم (٣٢٢)، والطبري (١٦٠/٢)، ترجمة ٦٦٦ سلام بن سليمان أبو المنذر).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩/٤)، رقم (٦٠٩١)، وابن الجوزي في الملل المتناحرة (١/٤٤٢)، رقم (٢٥٥) وقال قال الدارقطني: تفرد به عبد الله بن عبد العزيز عن يحيى ولم يروه عنه غير الوليد. قلت (يعني ابن الجوزي) قال علي بن الحسين بن الجعيد: أما عبد العزيز لا يساوي فلما يحدث بأحاديث كذاب.

يا هذا؛ لو قال لك أميرٌ مُقَدَّمٌ: تَقَدَّمْ أُنَاجِيكَ، لَكَانَ ذَلِكَ لَكَ فَحْرًا دائِمًا، فقد قيل لك: فَاسْجُدْ وَاقْرَأْ.

يا هذا؛ التكبير ثمانية أحرف، وأبواب الجنة ثمانية، فكان المكبر يستفتح الأبواب كلها بحروفه، لما لامس العبد الصلاة عند شروعه في التكبير حُرِّمَتْ عليه غيره المناجاة محادثة الغير، فإذا خرج منها حَلَّ له ما حُرِّم، فذلك معنى قوله: ^(١) «تَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ».

وإنما شرع التسليم في آخر الصلاة؛ لأن المصلي المحق خارج من الأكوان مشتغلا بالمناجى، فإذا انتهت صلاته، فكانه قدم من غيبة، والسلام مستون للغائب إذا قدم.

يا هذا؛ لو سافرت سفرًا بلا ربح أَيْفُتْ على تعبك، وأنت تَتَقَرَّضُ بقرعة العين كل يوم خمس مرات، فأين أثر ربحك، إنما يجعل الدخول في الصلاة بتكبيره واحدة والخروج بتسليمتين؛ لمكان قدرك عند المناجى، ولوضع حبه لك؛ لأنَّ المحبوب يؤذن له بالدخول في أول مرة، فإذا أراد الخروج توقف الإذن له، حُبًّا لمقامه، فلا يؤذن له بالخروج من أول مرة.

يا هذا؛ تعبُدُ الملائكة يختلف، فمنهم قيام، ومنهم ركوع، ومنهم سجود، فجمعت لك عبادتهم في ركعتين، المخلوقات الأرضية منها قائم كالأشجار والجمال، وراكع كالبهائم، وساجد كالخنافس، وقاعد كالحجارة، وكلها تُسَبِّحُ، فَجُمِعَتْ صلاتك كهية الكل، لتعطى الثواب بعدد الكل.

يا هذا؛ لو اجتنبت المحارم، وأحببت المخدم لأحببت الخدمة، ولو أنست بالمناجى لغبت عن وجودك، كان الزبير إذا قام إلى الصلاة، فكانه عَوْدٌ من الخشوع، وكانت العصافير تسقط على ظهره، وتحسبه جِذْمَ حائط، ولقد

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد وإسحاق وابن شيبة والزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً، وأخرجه الحاكم وابن ماجه عن أبي سعيد الغدري مرفوعاً، انظر: بذل المجهود ١/١٥٣، عارضة الأحوذى ١/١٥١، سنن ابن ماجه ١/١٠١، المستدرک ١/١٣٢، الدرابة في تخریج أحداث الهداية ١/١٢٦، شرح السنة للبيهقي ١٧/٣ مسند الإمام أحمد ١/١٢٣، ١٢٩.

جاء حجر فذاعة فذهب بقطعة من ثوبه وهو يصلي فما التفت، ووقع حريق في بيت علي بن الحسين رضي الله عنهما وهو ساجد، فجعلوا يقولون: يا ابن بنت رسول الله، النارُ النارُ، فما رفع رأسه حتى أطفئت، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟ فقال: ألهتني عنها النار الكبرى.

[الكامل]

أَجِدُ الْهَوَىٰ عَنِّي وَيَقْلِبِي عَنِّي عَجَبًا لِمَسْفُورٍ حَوَىٰ مُوجِبًا
انهدمت ناحية من المسجد، فانزعج أهل السوق ومسلم بن يسار يصلي في المسجد، فما التفت، وكان يقول لأهله: تحدثوا إذا دخلت في الصلاة، فإني لا أسمع حديثكم.

مسلم بن يسار سنة أفض:

أحدهم: هذا، لقي جماعة من الصحابة .

الثاني: مديني، روى عن أبي هريرة .

الثالث: مكّي، روى عن ابن عمر .

الرابع: يقال له: الطرقي، روى عن أبي هريرة وابن عمر .

الخامس: جُهني، حدث عن نعيم بن ربيعة .

السادس: كوفي، روى عن الشعبي.

وصلى أبو زرة الرازي في مسجد عشرين سنة، وفي محرابه كتابة، فبطل عنها، فقال: ما رأيتها، أيدخل الرجل على الله ويدري ما بين يديه.

وقيل لحاتم الأصم: كيف تصلي؟ فقال: أقوم بالأمر، وأمشي بالسكينة، وأكبر بالتعظيم، وأقرأ بالترتيل، وأمثل الجنة عن يميني والنار عن شمالي، وملك الموت خلفي، وأركع بالتواضع، وأسجد بالتضرع، وأعلم أني بين يدي ربي، وأظن أن هذه الصلاة آخر صلاتي.

يا هذا! إنما حرس أهدان القوم عن الالتفات بقطعة القلوب إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم ﴿لَقَرَجَ عَيْنُونَ﴾ [يوسف: ٣١] استغفرت إحساس الناظرين، فراححت ريح الحب، بلغت بمراكب القلوب في محج الدهش

(لَقَدْ قَلَعْنَا أَيْدِيَهُمْ)، وكيف بالباب عقلت، فعقلت على الباب، لقد شغلها لذيذ الخطاب عن جميع الأسباب.

[البيضا]

لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ مُنْقِصٌ بِوَ
وَمِنْ تَوَالِكَ فِي أَحْقَابِهَا حَادِي
لَهَا أَحَادِيثٌ مِنْ دُمُورِكَ تُشغِلُهَا
عَنِ الْخُرَابِ وَتُلْهِيُهَا عَنِ الرِّادِ

الفصل السادس والأربعون

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُُلُكٍ

مِنْ طِينٍ ۝﴾ [المؤمنون: ١٢]

الإنسان^(١) في القرآن على خمسة وعشرين وجهًا:

أحدها: آدم؛ ومنه هذه الآية.

الثاني: أولاد آدم عليه السلام، ومنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طِلْقَۃِ﴾ [الإنسان: ٢].

الثالث: أبو بكر الصديق؛ ومنه في (الأحقاف): ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١٥].

الرابع: سعد بن أبي وقاص؛ ومنه في (القمان): ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتَهُ امْرَأَةٌ﴾ [القمان: ١٤].

(١) الإنسان: واحد النّاس، والجمع: ناس وأُناس، ولا يُضْرَف.

وقيل: شئ إنسان، لأنه بأَنس بجذبه. وقال ابن قتيبة: شئ الإنسان إنشاء، فلهذا هم وإبراهيم البصر (بأنهم، وهو من قولك: أنشئت كذا؛ أي: أنشأته. قال الله عز وجل: ﴿إِنِّي مَخْلُوقٌ كَذَٰلِكَ﴾ [آية: ١٠]؛ أي: أنشأته.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: إِنَّا شئ الإنسان إنساناً لأنه عهد إليه قسري.

ودُعيت إلى هذا قوم من المُفسرين من أهل اللغة واحتجوا في ذلك بتصغير إنسان، وذلك أن العرب تُصَغِّرُ على (أَنبِيَّان) بزيادة ياء، كأن مُكْتَبَرَةَ أَنبِيَّانٍ (إِنْبِلَانٍ من الشبان، ثم تُحْدَثُ الياء من مُكْتَبَرِهِ استيفادًا لكثرة ما يُجْهَرِي على اللسان، فإذا ضُمَّرَ رُجِعَت الياء ورُدَّ ذلك إلى أصله؛ لأنه لا يُخَفَّرُ مُصَغَّرًا كما يُخَفَّرُ مُكْتَبَرًا.

والبصريون يُجْعِلُونَهُ (فِلَان) على القسَمِ الأوَّلِ وقالوا: يُهْدَتُ الياء في تَضْيِيقِهِ كما زيدت في تَضْيِيقِ لَيْلَةٍ فقالوا: لَيْلَةٌ. كذا لفظ به العرب بزيادة.

الخامس: عياش ابن أبي ربيعة؛ ومنه في (العنكبوت): ﴿وَوَعَيْنَا الْإِنْسَانَ بِرْوَاقِهِ﴾ [العنكبوت: ٨].

السادس: الوليد بن المغيرة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [الإنسان: ٤].

السابع: قُتَيْبَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ؛ ومنه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُوفٌ﴾ [العنكبوت: ٦].

الثامن: أبو جهل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ﴾ [العلق: ٦].

التاسع: النضر بن الحارث: ﴿وَوَعِنَا الْإِنْسَانَ بِأَلْسِنَةٍ مُضْمَرٍ﴾ [الإسراء: ١١].

العاشر: يَزِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ: ﴿إِنَّ قَالَ الْإِنْسَانُ أَصْغَرُ﴾ [الحشر: ١٦].

الحادي عشر: بُذَيْلُ بْنُ وَرْقَانَ؛ ومنه في (الحج): ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُوفٌ﴾ [الحج: ٦٦].

الثاني عشر: الأحنس بن شريق: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

الثالث عشر: الأسود بن عبد الأسد: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦].

الرابع عشر: كلدة بن أسيد: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَكَ رَبُّكَ عَلِيمٌ﴾ [الانشقاق: ٦].

الخامس عشر: عتبة بن أبي معيط: ﴿وَصَلَاتُكَ الْغَائِبَةُ لِيَأْتِيَنَّكَ عَذَابًا﴾ [الفرقان: ٢٩].

السادس عشر: أبو طالب: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ آبَاءَنَا﴾ [الطارق: ٥].

السابع عشر: عتبة ابن أبي لهب: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ آبَاءَنَا﴾ [عبس: ٢٤].

الثامن عشر: عدي ابن أبي ربيعة: ﴿إِنَّمَا الْإِنْسَانُ لَشَكْرٌ مُبْتَلًى﴾ [القيامة: ٣].

التاسع عشر: عتبة بن ربيعة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا الْإِنْسَانَ مَاءً غَدَقَةً﴾ [هود: ١٩].

العشرون: أمية بن خلف: ﴿فَلَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر: ١٥]،
﴿يَوْمَئِذٍ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ [الفجر: ١٧].

الحادي والعشرون: أنس بن خلف: ﴿أَوَلَمْ يَذَّكَّرْ الْإِنْسَانُ﴾ [مريم: ٦٧]،
﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ﴾ [يس: ٧٧].

الثاني والعشرون: الحارث بن عمرو: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

الثالث والعشرون: أبو حذيفة بن عتبة: ﴿وَقَدْ مَنَّ الْإِنْسَانُ﴾ [يونس: ١٢].

الرابع والعشرون: أبو لهب: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقِيْ خَسِرٍ﴾ [العصر: ٢].
الخامس والعشرون: الكافر: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ٣].

السلالة: القليل مما ينسل، وذلك أن آدم عليه السلام أنسل من كل الأرض، والعلقة: دم عيط جامد، وسُميت علقة لوطونها، وتعلقها بها مرت به، والمضغة: لحمه صغيرة، سُميت بذلك لأنها بقدر ما يُضغ، ﴿ثُمَّ أَنْشَأَتْهُ خَلْقًا مَّخْرُجًا﴾ [المؤمنون: ١٤] ينفخ الروح فيه، وقيل: نجعله ذكراً وأنثى.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَزَّلَ اللَّهُ رَبُّكَ﴾ حرفان في القرآن: هاهنا، وفي (حم المؤمن): ﴿فَتَنَزَّلَ اللَّهُ رَبُّكَ الْعَلِيِّ﴾ [غافر: ٦٤]، فأما (وتبارك) بالواو فحرف واحد في (الزخرف): ﴿وَتَنَزَّلَ الْوَيْ لَمْ تَلْهُكَ كَشَفَتُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، فأما (تبارك) فسته أحرف:

في (الأعراف): ﴿تَنَزَّلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَلِيِّ﴾ [الأعراف: ٥٤].
وفي (الفرقان): ﴿تَنَزَّلَ الْوَيْ رَبُّ الْقُرْآنِ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَنَزَّلَ الْوَيْ
إِنْ كُنْتَ جَمَلٌ لَّكَ خَيْرٌ مِنْ ذِكْرِهِ﴾ [الفرقان: ١٠]، ﴿تَنَزَّلَ الْوَيْ جَمَلٌ فِي كَشَفَتُونَ
بُرُوكًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وفي (الرحمن): ﴿تَنَزَّلَ أَمُّ رَبِّهِ﴾ [الرحمن: ٧٨].
وفي (الملك): ﴿تَنَزَّلَ الْوَيْ يَدُوكَ أَلْكَ﴾ [الملك: ١].
قال الحسن: معنى تبارك: تجيء البركة من قبله.

وفي "الصحيحين" من حديث أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال: ^١ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَفَّلَ بِالرَّجْمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ تُظَنُّ، أَيُّ رَبِّ عُلِقَتْ، أَيُّ رَبِّ مُضَعَّتْ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْفِصِي خَلْقَهَا يَقُولُ: أَيُّ رَبِّ دُكِّرَ أَوْ أُنْثَى؟ شَعْبِي أَوْ سَعِيدِي؟ فَمَا الرُّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيَكْتَسِبُ كُلُّ ذَلِكَ فِي بَطْنِي أُمِّي. ^(١)

فلما سبق في العلم القديم اختيار آدم، خلُق من طين ضعيف، وجعلت ذريته من ماء مهين، ليبين أثر النعمة في جبر المنكسر، كما أبان أثر النعمة في جبر: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦].

لمسبحان من أنشأ من طينة إذا تفرقت صارت نفس نفيسة أذهنت فوصلت، أول مرحلة قطعها آدم مرحلة الطين، ثم صار صلصالا كالفضار، فلا وجه للكبر بالفخار، وأعجبنا كيف يتختر المتعجب بين ضعف ﴿قُلْ لَّيْسَ الْإِنْسَانُ بِدَمِينٍ﴾ [الطارق: ٥]، وبين دُلَّ ﴿قُلْ لَّيْسَ الْإِنْسَانُ بِدَمِينٍ﴾ [عبس: ٢٤]، حلا قرأ صفة وجوده في منشور: ﴿وَمَا خَلَقْتُمْ فِيهَا تُبَدِّلُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

أولا يتفكر في نطف نطفتك، وتعلق علفتك، وتركيب ببتك، كيف نسج بنا العروق على منوال العظام، ثم صير العظام لحمة للحم، ثم ركب جلدة الجلد، وعظم العظم، وصلب الصلب، وأعطى الأيدي الأيد، وشق البصر بظفر الظفرة للمبصرات، وفتح السمع بأنامل الدوك للمسموعات، وألقى في فيك فقلق الأقدار على الكلمات، واستخرج من حرارتك غضباً ونُفُوراً وَجِدَةً، ومن برودتك رَحْمًا وَشُكُورًا وَهَمَائِيَّةً، وجعل لباطنك آلة معرفة الإله مِنْ غُلِّ وبصيرة وفهم، فإذا اجتمع الماء التَّخَلُّقُ منه الولد، فأوَّلُ الحالات أَنْ يُزِيدَ، فيظهر عن الزيد النضج، فيندفع النضج كله إلى وسط الرطوبة إعداداً لمكان القلب، فالقلب أول عضو متكون، ثم الدماغ، ثم الكبد، ثم يومن إيماء إلى الماء، فيستحيل علفاً، ثم مُضَعَّةً، وفي تلك الحال تظهر الأعضاء الرئيسية كالقلب والدماغ قدر تَجَسُّسٍ، ثم ينحى بعضها عن بعض، وتتخلط الأطراف ثم

(١) أخرجه البخاري (١/١٦٦)، رقم (٣١٢)، ومسلم (٢/٢٠٣٨)، رقم (١٦٤٦)، وأبو حنيفة كما في إتحاف المهرة للحافظ (٢/١٣٣)، رقم (١٣٨٦).

تصير لحمًا، وينقسم دم الطمط إلى ثلاثة أقسام: قسم يتصرف إلى الجنين كاللبن السائغ، وقسم يصعد إلى الثدي، وقسم لا يصلح لذيتك فيحبس إلى التنفاس، والجنين يكون في البطن معتمدًا بوجهه إلى رجله، وبراحته على ركبته، وأنفه بين الركبتين، والعينان على الركبتين، وظهره إلى وجه الأم، وعظام البدن مائتان وأربعون سوى السمسمانية، فمنها ما هو أساس للبدن مثل فقار الضلْب يُبنى عليه الجسد كما تُبنى السفينة على الخشبة الأولى، ومنها كالسجن، مثل عظم اليافوخ، واليحف جُنة للدماغ، وهو مخلوق من عظام متخلخلة، وله ثلاث أدونة لتنفذ الأبخرة منه لا فيه، فينقي الدماغ بالتحلل، وتجعلت العين في الرأس لتكون مشرفة على جميع الأعضاء في الجهات كلها، فهي كالطلعة للعسكر، وأصلح المواضع للمُظاليع المكان المشرف، وجعلنا في كهفين حراسة لها وتوفيرًا لضوءها باجتماع شعاعها، وألقت العين من طبقات أربع كالقشور المراكبة، فلو تقشرت واحدة لم تعم الآفة، وخلق لها الهدب لدفع ما يطير إليها، وليعتدل الضوء بسواده، وخلق الأنف ليتحصر فيه الهواء المُستَنشَق لترويح الرئة والدماغ، والقم وعاء لجمع الكلام، واللسان عضو للنطق، وآلة لتقليب الطعام الممضوغ، والمضغ يقع في جانبي القم حراسة لأداء النطق، واللسان حاكم إليه تمييز الدوق وتقطيع الصوت في إخراج الحروف، والشفتان غطاء للقم والأسنان، ومحبس اللُغاب، ومُعِين على الكلام وجمال في الصورة، والنَّهْأة باب مؤصد على مخرج الصوت بقدره، ويُدرَج الهواء ثلثا يفرغ ببرده الرئة فجأة، والأسنان اثنان وثلاثون، ثنيتان ورباعيتان من فوق، ومثلها من أسفل، ونايان من فوق، ونايان من تحت، فالأنياب تكسر والأضراس تطحن، وإنما حددت مقدمات الأسنان لتقطع، وعُرِضَتْ مؤخرات الأضراس لتطحن، وَحُصِّنَ الْفَكُّ الْأَسْفَلُ بالتحريك، لأن تحريك الأُخْفِ أحسن؛ ولأن الأعلى يشتمل على الأعضاء الشريفة، فلم يخطر بها في الحركة.

وجعل الأذن صدقًا مُعَرِّجًا لتحسس الصوت وتجميعه، وجعل ماء الأذن مرًا ليجيب الحشرات، ولو دخل إلى الأذن دابة لم يكن لها هم إلا الخروج،

كما جعل ماء العين مالحة؛ لأنهما شحمتان، ولولا ذلك لَذَابَتْما، وجعل ماء اللُّحْم غَذِيًّا يُقَلِّبُ ظِلْمَ الْمُظْلَمِ، وُخِلِقَتْ الأصابعُ أَلَّةً لتعمل الأشياء اللطيفة كالكتابة، والصياغة، والخياطة، ويُجعل الكفُّ مُلْعَقًا ليحفظ ما يُجعل فيه، والأصابعُ عظامٌ شَتَّى لتحتوي على قعر الكفِّ بالقبض كالقُلْفَلِ للأخْزَانِ، ولم تُخلق الأصابعُ خاليةً من العظام لتكوُن أفعالها قوَّةً، ولم تكن من عظم واحد لكيلا تعمس أفعالها، وعظام قواعدها أعرض، والروؤوس أدق لتحس بالمنااسبة بين الحامل والمحمول، وأعدمت السخ والتجويف لتكون أقوى على القبض والحركات، وجعل الإبهام كالصمامة على ما يقبض، والقلب قوي الذات ليكون أبعد عن الآفات، وهو في وسط الصدر؛ لأنه أعدل الأماكن، وقد أميل يسيرًا إلى اليسار ليعبد عن الكبد، وله زائدتان كالخزانتين يصل إليهما الدم والنسيم فيؤديانه إليه بقدر، والرئة وقاء للقلب بلبنها، ووقاية له، وهي بيت النَّفْس ومنزل الفَرْج، ومنبت جميع العروق الساكنة من الكبد، وأول ما ينبت منها عرقان: أحدهما: يسمى الباب، يجذب الغذاء إلى الكبد، فيطعمه الكبد، وتوجهه إلى البدن في العروق الآخر المسمى بالأجوف، ثم يرسل الماء به إلى الكلبتين والرغوة الصفراوية إلى المرارة، والرسوب السوداءي إلى الطحال، وُخِلِقَتْ الأمعاء كثيرة التلافيف، ليطول سير الغذاء فيها، فلا يحتاج الإنسان إلى الغذاء كل وقت، وُخِلِقَ القدمُ أَحْمَصَ لِيُمْسِكَ ماشية الدرج كما يُمْسِك الكف المقبوض عليه، ثم قوام هذا البدن كله لمعنى كل الخلقات في عرفانه مُعْتًا، وما يحصلون على حاصل وهو النفس، فلما تمت الخلقة جاء مخاطب: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَشْرَفُ﴾ [التوبة: ١١١].

المخلوقات كثيرة ولا أشرف منك.

قال يحيى بن أبي كثير: خَلَقَ اللَّهُ أَلْفَ أُمَّةٍ، ست مائة في البحر، وأربع مائة في البر أنت أشرفها.

فيا خلاصة الوجود فيك شبه من كل موجود، إن مددت يديك فاستدارة وجودك كاستدارة الفلك، ضحكك كالرعد، وتبسمك كالبرق، ودمعك كالقطر، وعقلك في القلب كالشمس، ورجلاك في رسوخهما كالجبال،

وبطنك كالقُرَى واليَلْدَانِ، والقلبُ قلبك جالس على عرش سرير الصدر، وبين يديه الأعرافُ والخَدَمُ وهي جنود الجوارح، فالعينان راصدٌ، والسمع صاحبٌ تحيّر، واللسان ثَرْجُمان، واليدان حارسٌ يَمُرُّ ما يَمُرُّ على البدن من أذى، والقدمان مطيئةٌ وَمَرْكَبٌ، والفكرُ يبعثُ جاسوسَ الفكرِ إلى ما فوق العرش، ويرسل جنود الاستعلام إلى ما تحت العرش، وظهرك يضاهي جانب الدنيا الخراب، ووجهك يضاهي جانبها العمران، فاعتبر بك ويكفي، وانظر في أمرك ويشفي، خلقت الشمس لتستضيء بها، والنجوم لتستدل بها، وبسطت الأرض لتستقر عليها، وخلقك الجبال عن أن تميز بأهلها، فانت قِوَامُ قِوَامِ الوجود؛ لأن الوجود لك أوجد، والكون من أجلك كُنَّ، وما أجد فيه لك، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

فالخيوب لِقُوتك، واللحوم لِقُوتك، والفواكه لِفُتَاختك، واختلاف صنائع الأصباغ والألوان لتزانتك، والمياه لِرَبِّك، والأشجار لظلك، والنباتات لِخَنَكِ، والنهار لمعاشك، والليل لقراشك، والثياب لِرَبَاتِكِ، ونسيم الهوى لراحتك، وضياء الجو والقضاء لتصرفاتك، فإذا رحلت عن الكون قلعت أطناب حيم الكائنات لرحيلك: ﴿إِذَا أَشْمَسَ كُوزَتُكَ﴾ (التكوير: ١)، إذا ذهب من يعتبر بـ ﴿أَشْمَسَ كُوزَتُكَ﴾، وإذا لم يبق من يتفكر بـ ﴿الْجُودُ لَنَكُوزَتُكَ﴾ (التكوير: ٢)، وإذا سار من تبت الجبال لأجله سُيرَتُ، وإذا رَحَلَ من يستظل بالسماء تُشِيطَتُ وَطُويَتُ، وإذا مضى من يستقر على الأرض رُزِلَتُ.

يا خلاصة الوجود، يا رُبَّةَ الوجود، يا صاحب خَلْعِ الوجود، جهلت أقدار نعمه المُفَاضة عليك، وغفلت عن شكر أباديه المتوالي إليك، أين شكر نعمة الإيجاد، ودوام الإمداد والإرفاد، وفاتحة المبدأ وخاتمة المعاد، لولا جليلة عناية جلّيت بأيدي أيدعها عنانك عن شَرِّكَ الشُّرُكِ إلى دائرة دار التوحيد، وأحكمت حكمتك عن شرورك في قُوَّةِ الهوى، وربت الطاف رُبِّك في حجر الجبّير بين ربائب الهدى، فلم يفتح الحُلُمَ عَنِ الأحلام إلا وادي المعرفة شجير بشجر الفضل عليك، والقنا شاجر في مجلب المناضلة عنك، فلما استويت على كرسي البلوغ متكئا على آرائك البلاغة، متمطفا نطاق النطق،

متمسكًا بعقال العقل، مرسلًا يريد النظر إلى كمين العير، مُصغيًا بسمع النذير إلى حديث العير، تبعث جنود الفئكة إلى ما حول العرش، وترسل عسكر الاستعلام إلى ما تحت الفرس، تتغذى بطعام الإنعام بالعلم، وتشرب ماء العرفان في آية الفهم، فحينئذ تُولت رسالة خالك مسطورة في سُحُف النجى، يُخبرك فيها بتصحيح ما يدل عليه العقل، وفساد ما يدعو إليه الجهل، وتُعلمك أني قد بنيت لك دارًا غيرًا من دارك، وأنا لك فيها جار أولى من جارك، لأنفذ مراسمي، وأعمل في هذه المزرعة الفانية، أكرمك في الدار الباقية، واستشعر جنة النقي نقي لعلك إن نلت نلتني، واعبر في معبر عينك إلى ساحل يقظتك، وانظر لماذا خُلِّيت؟ وبماذا غُلِّيت؟ ولو كُهِيتْ هُيتْ.

الفصل السابع والأربعون

في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ [المؤمنون: ٩٩]

معنى (ارجعون): أرجعني، ولكن كذلك يُخَاطَبُ العظيم الشأن ويُخبر عن نفسه؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ [ق: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَحْمَةً فِيكُم بِمَا زَكَّيْتُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، قال ابن عباس: (فيما مضى من عمري).

وقال الأخفش: معنى (كلا) الردع والزجر.

وقال السجستاني: تكون بمعنى: أي لا يكون ذلك.

كما قال الحجاج: [الرجز]

لَقَدْ ظَلَمْتُ لِغَيْرِي وَمِنْ عَذَابِي لَكُمْ كَلًا وَلَمَّا يَضْطَفِقُ تَابُكُمْ

وكلا في القرآن على وجهين:

أحدهما: بمعنى لا؛ ومنه في (مريم): ﴿أَوَلَمْ نَقْعِدْ بَيْنَ رِجْتَيْهِمَا كَهْلًا﴾ [مريم: ٧٨ - ٧٩]، وفيها: ﴿يَكْفُرُوا لَكُمْ رَبًّا كَلًّا﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]، وفي (المؤمنون): ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَحْمَةً فِيكُم بِمَا زَكَّيْتُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وفي (الشعراء): ﴿فَلَمَّا كَانُ بُشُورًا﴾ [الشعراء: ١٤ - ١٥]، ﴿إِنَّا لَنَذْكُرُهُمْ كَلًّا﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٢]، وفي (مبا): ﴿شَرِيعَةً كَلًّا﴾ [مبا: ٢٧]، وفي (سائل): ﴿فَمِنْ بَيْنِهِ﴾ [سائل: ٣٨ - ٣٩]، وفي (المدثر): ﴿فَمِنْ بَيْنِهِ أَن يُبَدِّلَ كَلًّا﴾ [المدثر: ١٥ - ١٦]، وفيها: ﴿أَن يُؤْتِي سُلُوكًا مِّنْهُمْ كَلًّا﴾ [المدثر: ٥٢ - ٥٣]، وفي (القيامة):

﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [القيامة: ١٠ - ١١]، وفي (المطففين): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٣٢]، وفي (المطففين: ١٣ - ١٤)، وفي (الفجر): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٣٣]، وفي (الفجر: ١٦ - ١٧)، وفي (الهمزة): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٣٤]، وفي (الهمزة: ٣ - ٤).

فهذه أربعة عشر موضعاً يُخَسَّنُ الوَقْتُ عليها .

الثاني: بمعنى حقاً؛ ومنه في (المدثر): ﴿لَا وَالْقُرْآنِ﴾ [٣٥]، (المدثر: ٣٢)، وفيها: ﴿حَقّاً يَوْمَ تَكُونُ﴾ [٣٦]، (المدثر: ٥٤)، وفي (القيامة): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٣٧]، (القيامة: ٢٠)، وفيها: ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٣٨]، (القيامة: ٢٦)، وفي (النبا): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٣٩]، (النبا: ٤ - ٥)، وفي (عبس): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤٠]، (عبس: ١١)، وفيها: ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤١]، (عبس: ٢٣)، وفي (الانفطار): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤٢]، (الانفطار: ٩)، وفي (المطففين): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤٣]، (المطففين: ٧)، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤٤]، (المطففين: ١٥)، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤٥]، (الفجر: ٢١)، وفي (العلق): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤٦]، (العلق: ٦)، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤٧]، (العلق: ١٥)، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤٨]، (العلق: ١٩).

في (الشكاشر): ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٤٩]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥٠]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥١]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥٢]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥٣]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥٤]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥٥]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥٦]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥٧]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥٨]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٥٩]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦٠]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦١]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦٢]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦٣]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦٤]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦٥]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦٦]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦٧]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦٨]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٦٩]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧٠]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧١]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧٢]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧٣]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧٤]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧٥]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧٦]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧٧]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧٨]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٧٩]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨٠]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨١]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨٢]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨٣]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨٤]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨٥]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨٦]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨٧]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨٨]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٨٩]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩٠]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩١]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩٢]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩٣]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩٤]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩٥]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩٦]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩٧]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩٨]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [٩٩]، ﴿لَا يَأْتِيكُمْ فِيهَا﴾ [١٠٠].

فهذه تسعة عشر موضعاً كلها لا يُخَسَّنُ الوقوف عليها، وجملة ما في القرآن ثلاثة وثلاثين حرفاً، وليس في النصف الأول منها شيء، وقد حكى ابن الأنباري عن ثعلب أن (لَا) لا يُوقَفُ عليها في جميع القرآن، إخواني! مثلوا ساعة الموت الساعة، واحضروا على باب الفكر ساعة، فليس كل معتدل عند الموت يقبل منه.

قال مالك بن دينار: دخلت على رجل مريض، فقلت: عاهد الله تعالى أن تُثوب عسى أن يُشفيك، فقال: هيهاث ذهبت أعاهد كما كنت أعاهد، لمعت لثاماً يقول: عاهدناك مرة فوعدناك غداً.

[الطويل]

وَمَنْثُ إِذَا مَا جِئْتُ جِئْتُ بِجِلْدِي لَأَلْتَمِثَ بِعِلَابِي لَتَكُونَنَّ
فَمَا تَعْلُ يَوْمَ لِي بِأَوْحِيكَ حَاجَةً وَمَا تَعْلُ يَوْمَ لِي إِلَيْكَ رُسُولَ
أَيْهَا الرَّافِدُ تَبْقُظُ، أَبْهَا الْعَافِلُ تَحْفَظُ، كَمْ عِبْرَةٌ أُرِيَتْ، خَذَ حَلَكُوكَ
فَقَدْ أَتَيْتَ، ضَرَبَ بوقُ الرَحِيلِ بِسِيرِكَ، وَفَرَّتْ نُوقُ التَّحْوِيلِ لَا لغيرِكَ بِلِ
لَسِيرِكَ، وَطَوَى الْجَدِيدَانِ بِسَاطِ عَمْرِكَ، وَضَرَبَاكَ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ فَانْظُرْ فِي
أَمْرِكَ.

[الوافر]

تَنَامُ وَلَمْ تَعْلَمْ عَنْكَ الْمَنَامَا تَنَبُّهُ إِلَهِ الْمَنَامَا مَا تَعْلُومُ
سَلِ الْأَيَّامَ عَنْ أَنْتُمْ تَقْطُطُ سَحَابُكَ الْمَنَامَا وَالرُّسُولُ
تَرُومُ الْحُلْدُ فِي قَارِ الْمَنَامَا وَكَمْ قَدْ زَامَ عَمْرُوكَ مَا تَرُومُ
لَأَمْرٍ مَا تَضَرَّعْتَ إِلَيَّ لَأَمْرٍ مَا تَقْلَبَتِ السُّجُومُ

لقد تيمم المحيئون عند الموت على التقصير، فكيف المشيئة المذبذبة؟
لما احتضر معاذ بكى، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: لأن الله عز وجل
قبض قبضتين، فجعل واحدة في الجنة، وواحدة في النار، فلا أدري في أي
القبضتين أنا.

بكى حذيفة عند الموت، فقيل: ما يُبكيك؟ فقال: لا أدري على ما
أقدم؛ على رضا أو على سُخْط؟

وبكى أبو هريرة عند الموت، فقيل: ما يُبكيك؟ فقال: (لِيُغْلِبَ الْمَسَافِقَةُ،
وَيَقْلِبَ الرَّاوِدُ، وَغَلَبَتِ كَلُودِي، لَا أدري الهبوط منها إلى حَيَاتٍ أَوْ إِلَى نَارٍ، وَلَا أدري
إلى أين يُؤْخَذُ بي؟).

وكان محمد بن واسع عند الموت يقول: يا إخوتائي! أتلدنون أم ينذغب
بي؟ والله الذي لا إله إلا هو ما أدري إلى النار أَوْ يَغْفُو عني.

وقيل للشافعي في مرض موته: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدنيا
رَاجِلًا، وللإخوان مُفَارِقًا، وبكاسي المَيِّتَةِ شَارِبًا، ولسوء عملي مُلَاقِيًا، فلا

أدري، أنفسي تصير إلى الجنة فأغنيها، أم إلى النار فأغريها، وجعل يقول:
[الطويل]

وَلَمَّا قَسَى قَلْبِي وَضَافَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِكَ سَلَمًا
تَغَاظَمَنِي ذُنُوبِي لَمَّا لَزَنَتْهُ بِعَفْوِكَ زَيْتِي إِذَا عَفْوُكَ أَغْلَمَا
وقال عبد الله بن مسروق يؤصِّبُو عند الموت: لي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تحملني، فتتركني على تلك المذيلة، لعلي أموت عليها، فيرى مكائي، فيرحمني.

وَجَزَعَ بعضُ السُّلَفِ عندَ الموتِ جَزَعًا شَدِيدًا، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ:
وكيف لا وإنَّما هي ساعة، ثم لا أدري أين يسلك بي.

قال بكر بن عبد الله المزني: جمَعَ رجلٌ سبيَّةً من بني إسرائيل مالا، فقال يومًا لبيد: أروني أصناف مالي، فأبى به، فقَبِلَ هو ينظرُ إليه، طلعَ تلكَ الموت، فقال له: والذي حوَّلَكَ ما ترى ما أنا خارجٌ من مثلكَ عَنِّي أَفَرَّقَ بَيْنَ رُوحِكَ وَبَنِيكَ، قال: فأُمهلني حتى أَفَرِّقَهُ، قال: هيَّهَاتَ، انْقَطَعَتْ عَنْكَ الْمُهْلَةُ، فَهَلَا كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِكَ، فَقَبَضَ نَفْسَهُ.

وقال بكر بن الحسين: رَأَى رجلٌ مَلَكَ الموتِ، فقال لأهله: انشؤني بصحيفة، فقالَ مَلَكَ الموتِ: الأمرُ أَعْجَلُ من ذلك، فقَبَضَ رُوحَهُ من قِيلِ أَنْ يُؤْتَى بِالصَّحِيفَةِ.

لقد رَضِدَكَ الموتُ على قُوَّةِ طَرِيقِكَ، وكانَكَ به وقد غَضِبَكَ بِرِيقِكَ،
والهي الموت عن الصبي، وأزعج قلب الغافل شاء أم أبى.

[الخفيف]

قُلْ نَوْمٌ يَأْتِي بِفَاطِمَةَ الْـ قَالَ غَضَبَانٌ قَدْ تَأَيَّظَ ثَمْرًا
مُذَيَّبًا ثَمًّا شَكَى شَاكَ عَيْنًا وَإِذَا قِيلَ قَدْ أَتَابَ أَضْرًا
ضَيِّغُمْ يَحْبِطُ الشُّرُوبُ حُرُوقًا وَإِذَا مَرَّ بِالتَّعْطِيشَةِ ثَمْرًا
وَإِذَا غَمٌّ يَفْعَلُ الْخَيْرَ

قَدْ أُنِيخَتْ لَنَا الرِّقَابُ فَالْحَا زُمْ عُبَى إِذَا وَوَعَلَا غَلْهَرَا

يا من عمره قد رحل وولى، كأنك بك تندم وتثقل، والسمع والبصر للموت قد كُلا، ونقول: رَبِّ ارْجِعُونِي، قِيلَ: كُلا.
يا مَنْ نام عن صلاته وَمَا صَلَّى، انظرُ أَنَّكَ تتركُ سُدىً وتُخلى، عن قليل يميلُ العودُ ولا تسمع إلا كُلا، إلا كَانَ ذَا قَبْلَ ذَا إلا.
أو لمواعظ لا تجد قابلا، ولصيدها لا تجد إلا حائلا، لقد شاك العود فأجيب بلا، وأبكي وأبلى عين تكي وإيلا وكُلا، رَبِّ ارْجِعُونِي، فيقال: كُلا.
يا من إذا جد الوعظ لعب، كم يدد إثناء التذكير وما شرب، كم سمع الغناء وما طرب، ما يائس الرائض من صلاحك وإن تعب، ليس عجبا أن يتقلب الخمرُ خلا.

الفصل الثامن والأربعون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَتَاعًا

مَتَاعًا مَتَاعًا﴾ [النور: ٢٣]

الرمي^(١) في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: الإلقاء، ومنه: ﴿تَرَىٰ يَمْشُونَ مَلَمَمًا﴾ [المرسلات: ٣٢].

الثاني: الإصابة؛ ومنه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧].

الثالث: القذف؛ ومنه: ﴿يُؤْتُونَ مَتَاعًا﴾ [النور: ٢٣]. والمحصات

اسم مأخوذ من الإحصان وهو المنع، ومنه سميت الحصون، والحصان: المرأة المتحفة، والحصان: الفرس العتيق، سُمِّيَ حصاناً لأنه ضَمُّ بِمَاءٍ فَلَمْ يَنْزِلْ إِلَّا عَلَى كَرِيمَةٍ، ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى سَمُّوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الْخَيْلِ حِصَانًا.

قال ثعلب: كل امرأة عفيفة فهي مُحَصَّنَةٌ، وكل مفزوجة فهي مُحَصَّنَةٌ لَا

غير.

والمحصات على أربعة أوجه:

أحدها: العفاف؛ ومنه في (النساء): ﴿مُحَصَّنَاتٍ غَيْرِ مُكْلِغَاتٍ﴾

[النساء: ٢٥]، وفي (المائدة): ﴿مُحَصَّنَاتٍ غَيْرِ مُكْلِغَاتٍ﴾ [المائدة: ٥]، وفي

(الأنبياء): ﴿أَمْحَصَّكَ فَزَجَّهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وفي موضعين في (النور):

﴿يُؤْتُونَ مَتَاعًا﴾ [النور: ٤، ٢٣].

(١) الأصل في الرمي إلقاء الحجر عن اليد. والرمي بالشهام قلَّبها من قيد الفرس، والرمي: الضربة، يرمى. قال ابن السكيت: خرجت أترمي؛ إذا خرجت فرسي في الأتراسي.

الثاني: الحرائر؛ ومنه في (النساء): ﴿لَنْ يَحْكُمَ الْمُحْسِنُ﴾ [النساء: ٢٥]، وفي (المائدة): ﴿وَالْمُحْسِنُ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُحْسِنُ مِنَ الْإِيمَانِ أَوْلَىٰ مِنَ الْكَافِرِ مِنَ الْإِيمَانِ﴾ [المائدة: ٥] .

الثالث: ذوات الأزواج؛ ومنه: ﴿وَالْمُحْسِنُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [النساء: ٢٤]؛ أي: من السبايا في الحروب .

الرابع: المسلمات؛ ومنه^(١): ﴿لَإِذَا أَحْضَرُ﴾ [النساء: ٢٥] يفتح الألف والصاد على قراءة حمزة والكسائي، والمعنى: فإذا أَسْلَمْتُ، والغايات؛ أي: عن الفواحش، ﴿فَلْيُؤْمَرُوا فِي كَلْبَتَا وَالْأَكْبَرَةِ﴾ [النور: ٢٣] لُجِنُوا في الدنيا؛ أي: خُذِبُوا بِالْجَلْبِ، وفي الآخر: بالثَّابِ.

وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه ذكر الكبائر، فقال: وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، الْغَايِلَاتِ، الْمُؤْمِنَاتِ^(٢) .

وهذه الآيات نزلت في براءة عائشة رضي الله عنها.

واعلموا أن الله اصطفى للمصطفى مصطفى الأزواج، فَبُيِّنَ معه من المال حيث قال يوم تَحْيِيَّتِهِ: ﴿إِنَّ كُنْتُ شَرِيكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، فَلَمَّا هَرَبَ من لباس الهوى ثَمِين حُلِّيَ ﴿لَتَشْفَىٰ كَلْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ونصفهين راضٍ الوحي من نهي: ﴿وَلَا تَخْضَعْنَ، وَلَا تَبْرُجْنَ﴾، وتعليم: ﴿وَقُرْآنَ، وَقُلْنَ، وَأَتَيْنَ، وَأُطْعِمْنَ، وَادْكُرْنَ﴾.

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج خديجة، ثم سودة، ثم عائشة، ثم حفصة، ثم أم سلمة، ثم أم حبيبة، ثم زينب بنت جحش، ثم زينب بنت خزيمة، ثم جويرية، ثم صفية، ثم ميمونة.

فلما كان في واجب القسمة يحتاج إلى مراعاة الوقت، وخاطره الكريم لا

(١) قرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي يفتح الهمزة والصاد، وقرأ الباقون بضم الهمزة وكسر الصاد.

(٢) أخرجه البخاري (١٠١٧/٣)، رقم (٢٦١٥)، ومسلم (٩٢/١)، رقم (٨٩)، وأبو داود (٣/

١١٥، رقم (٢٨٧٣)، والنسائي (٦/٢٥٧)، رقم (٣٦٧١). وأخرجه أيضاً: ابن حبان (١٢/

٣٧١، رقم (٥٥٦١)، والبيهقي (٦/٢٨٩) رقم (٢٤٤٧).

يحتمل أقل تخفيف: ﴿تَرَىٰ مِنْ فَتْنَةٍ يَبْتَلِي﴾ [الأحزاب: ٥١]، ولم يكن فيها أثر من عائشة رضي الله عنها، فتزوجها وهي بنت ست سنين، وابنتى بها بنت تسع، وانفردت بمناقبة ست وتسع، جاء جبريل بصورتها قبل تزويجها، ولم يتزوج بكثرًا غيرها، ولم ينكح امرأة أبوها مهاجران سواها، وكانت أحب الناس إليه، وكان أبوها أعز الرجال عليه، ولم ينزل الوحي في لحاف أحدٍ غيرها، ونزل من السماء علرها، وكانت تغضب وترضاها، ووهبت لها سودة يومها، وكان لها يومان وليتان دون غيرها، وقبض بين شعرها وشعرها، واتفق ذلك في ليلتها، وخالط في آخر أنفاسه ريقه وريقها، ودفن في منزلها، ولم ترو عنه امرأة أكثر من حديثها، ولا بلغت علوم النساء علمها، فإنها روت ألفي حديث ومائتي حديث، أخرج لها في "الصحيحين" مائتا حديث وسبعة وتسعون حديثًا، المتفق عليه منها مائة أربعة وسبعون، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين حديثًا، ومسلم بسبعة وستين.

قال أبو موسى: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط فسلنا عائشة، إلا وجدنا عندها منه علمًا، ولقد كانت الفصاحة طبعها من غير تكلف، أما سمعتم حطبتها يوم (أبي وما أبيه)، وكانت عزيزة الكرم قُسمت سبعين ألفًا ودرعها مرفوع.

ولقد شاع حب الرسول لها حتى كان الناس ينحرون بهداياهم يومها، وما كان الرسول يحب إلا طيبًا، أفنظن الرافضة أن فراسة النبوة تُحطون كلاً الله المعطي، ولقد قدمها على النساء بفضيلة (كفضل الشريد)، وكشف عن بصرها فرأت جبريل، فقال للرسول: تَسَلَّمَ عليها عَنِّي، فقال: " يَا عَائِشَةُ! هَذَا جِبْرِيلُ يقرأ عَلَيْكَ السَّلام " (١).

عجبا لجبريل واجة مريم بالخطاب، واحترم ذلك الجَنَاب، ما ذاك إلا أن مريم كانت عن الأزواج خالية، وهذه بنسبة الرسول حالية، فمن احترامها لصيانتها جبريل، كيف يصح عليها الزور والباطيل، لما جرى القدر بكون أمية

(١) أخرجه البخاري (١١٧٧/٣)، رقم ١٣٠٤٥.

زوجة نبينا في الجنة، كُنْتُ كَفْتُ الغيرة كُنْتُ فرعونَ عنها هذا وأنكحة الكفار صحيحة، وكيف لا تُضَانُ الخَصَانُ عما قيل من الأباطيل والفجور، كلا بل هو بهتان وزور.

خَرَجْتُ مع الرسول في غزوة، فانقطع عقدُنا، فَعَقِدْتُ لها الخِرَازِمَ التَّوْبَةَ، أَقامت تلتئم من ضاع، فساروا، فلما وافت فاتوا، فقامت وأقامت في حيز الحيرة، فإذا صفوان قد جاز فأناخ الجميل ولم ينطق، ولو تكلم جاز، فألحقها الجيشُ فَبَاحِشُ بَاحِشُ الْجُهَالِ، فقدموا وهم يفيضون لا من عرفات، وَسَلَّ لسائته ابن سلول، ولم يبين لها لا بلا تغير الرسول ما علمت الحال إلا في حال تعس مسطح، فاستأذنت في بيت أبيها، فأثمت أمها، فقالت: ما يقول الناس؟ فقالت: يا بَيْتَهُ لا بأس، حسد الضرائر لا يضر.

[الكامل]

وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ نَشْرَ قَضِيْلَةٍ طَوَيْتُ أَتَاخَ لَهَا إِيْسَانَ خُسُودَ لَوْلَا اشْتِغَالُ الشَّارِ فِيمَا جَاوَزْتُ مَا كَانَ يُعْرِثُ طَيْبَ غَرْبِ النُّعُودِ فلما زالت ترفع قصص القصص مسطورة بمداد الدمع إلى أن دخل الرسول بعد شهر، فجلس في مقام حاكم إِنْ كُنْتُ هَمَمْتُ، فقالت لأبيها: أجب، فلم، وقالت لأمي: قولي، فلما فصاحت فصاحتها فَضِيْرٌ جَبِيْلٌ، فلما بلغ سيل البلاء الرَّأْيَ، وجاوز حزام الأسى الطبيبين قابلت قبلة ﴿أَلَمْ يَجِبْ أَتَنظَرِ﴾ [النمل: ٦٢]، فبشرها الرسول عن المرسل بالبراءة، فقالت أمها: قومي فَقَبْلِي رَأْسَ رَسُولِ اللّهِ، فقالت بلسان الإذلال: لا، باعتقاد الخلاف بحمد الله ولا بحمدك لو صدر هذا من غيرها لكان سوء أدب، ولكن إذلال المحب محمود، فهو نظير * إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْوَعْدَةُ ^(١)، ثم انقشع غَيْمُ الْعَمِّ بشمال: ﴿لَا تَحْشَوْهُمْ فَرًّا لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، ووبخ متناكبو الطنون بحرف: ﴿لَوْلَا إِذْ تَخْشَوْنَ كُنُوزَ النَّهْشِ﴾ [النور: ١٢].

ونادى مُنَادٍ الوعيد: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء: ٨٣]،

وعظم باتكار: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيَاتًا﴾ [النور: ١٥]، فكان الصديق رضي الله عنه قد منع بطلانها نفقته، فتلطف الوحي في الشفاعة إليه بقايا: ﴿أَلَا لَيْسَ لَكَ بِتَبَرٍ أَلَلَّهَ لَكُمُ﴾ [النور: ٢٢].

[الوافر]

وَلَوْ كَانَ الشَّيْءُ كَمَنْ ذَكَرْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَمَا الثَّانِيَّ فِي اسْمِ الشَّيْءِ غَيْبٌ وَلَا التَّذْكِيرُ قُحْرٌ فِي الْهِلَالِ
فَيَا أَيُّهَا الشَّيْءُ لَا تَغْفُلْ عَنْ حُبِّ حَبِيبَةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا تَسَاهَا وَتَعْلَمُ
فضائلها، فما أعظمها، وما أوفاهها.

سَعَدَ مَنْ أَمَّ أُمَّ الْأُمَمِ بِالْمَحَبَّةِ وَوَالَاهَا، وَبَعَدَ مَنْ تَنَقَّبَهَا جَهْلًا مِنْهُ
وعاداهها، فما أوفى مناقبها وأسنى مراتبها وأعلاها، حازت فنون العلم قَمَرُ
قَارَتَهَا وَمَنْ ذَانَاهَا، لو لم يكن من فضائلها غير علمها حَقَاقَهَا، ما شَانَهَا شَأْنُ
الْإِلَهِ إِذْ جَرَى وَلَا وَهَانَهَا، أنزل براءتها من الغيوب سَيِّدَهَا ومولاهَا، آيات
تنلى نزلت من الملأ الأعلى من جَرَاهَا، ما أحلى تغني الشَّيْءِ بها إذا تلاها،
لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يَقْرَأُهَا مِنْ يَغْضَاهَا وَيَشْتَانَاهَا، لو استطاع الرَّامِضِيُّ مَحْوَهَا مِنْ
الْقُرْآنِ فَخَانَهَا، ما كان تَبِيحُكُمْ يُقَدِّمُ عَلَيْهَا بِنَوَاهَا، قيل له: مَنْ أَحَبَّ النَّاسِ
إِلَيْكَ؟ فَسَلَّاهَا، ما نزل الوحي في لِحَافِ حَبْرَتِهَا، سُبْحَانَ مَنْ أَعْطَاهَا، تزوجها
صغيرةً فَعَلَّمَهَا آدَابَ الثُّبُورِ وَرَبَّانِيَّتَهَا، ذكر محمد بن الزبير في أحاديث رواها،
أَوَّلَ حُبِّ فِي الْإِسْلَامِ حُبُّ أَبَاهَا، وروى البخاري في " صحيحه " بإسناد
برضاها أَنَّ جَبْرِيلَ جَاءَ بِهَا فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ فَخَلَّاهَا، يَا عَجَبًا لِقُلُوبِ
الْمُبَغِّضِينَ لَهَا مَا أَعْفَاهَا، إِنَّمَا أَنْ تُشَبِّهَ زَوْجَهَا، وَإِنَّمَا أَنْ تُشَبِّهَ أَبَاهَا.

الفصل التاسع والأربعون

في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

النور^(١) في القرآن على ثمانية أوجه:
 أحدها: الإيمان: ﴿يُكَلِّمُهُمُ رَبُّكَ أَتْلُوكَ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].
 الثاني: النبوة: ومنه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

الثالث: البيان: ﴿فِيهَا نُورٌ وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].
 الرابع: الضوء: ﴿تَجَلَّى الطُّلُوعُ وَالنُّورُ﴾ [الأنعام: ١].
 الخامس: القرآن: ﴿وَاللَّيْلُ نَارٌ أُولَى مَعَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].
 السادس: الإسلام: ﴿يُيَسِّرُكَ اللَّهُ يُخْرِجُكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [التوبة: ٣٢].
 السابع: العدل: ﴿وَلَنُزِقَنَّكَ مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِكَ﴾ [الزمر: ٦٩].
 الثامن: الهدى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] أي: هدى
 نرى في السموات والأرض، ﴿مَنْ نُورٌ نُورٌ﴾ [النور: ٣٥] أي: هداية،
 ﴿يُفَكِّكُونَ﴾ [النور: ٣٥]، وهو الكوة التي ليست بناقدية، والبطيخ السراج.
 قال الكسائي: (النُّورُ): يُشَبَّه النُّورُ، و (النُّورُ): جاري، و (النُّورُ):

(١) قال شيخنا علي بن عبيد الله: النُّورُ: هو الشيء المُتَقَشِّعُ الذي تَنَلُّهُ أَقْوَارُ الْأَنْصَارِ
 فَتَصِلُ بِهِ إِلَى نَظْمِ الْمُبْتَضَّرَاتِ وَهُوَ بِمِثَالِهِ بِمِثَالِهِ أَشْيَاءُ، ويقال: نَارُ الشَّيْءِ وَأَنَارَ وَاشْتَارَ
 إِذَا أَضَاءَ.

وَالنُّورُ خَاصَّةٌ مِنَ النَّارِ، يُقَالُ: تَنَوَّرْتُ النَّارَ، إِذَا فَضَلْتُ نَعْمَتَهَا، ثُمَّ يُسْتَعْمَلُ فِي مُوَاضِعَ
 تَنَلُّ عَلَيْهَا الْقَرِينَةُ، يُقَالُ: أَنَارَ فَلَانٌ فَلَانَةً، إِذَا أَوْضَعَهُ.
 وَنَارَ الْأَرْضِ: أَفْلَاحُهَا وَخَلْقُهَا، وَالنَّارُ: تَنَلُّهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ.

يلتصق، (تَوَلَّدَ) [التور: ٣٥]، يعني: المصباح من شجرة، واحد الشجر، وهو كل نبات له ساق، وَوَادٍ شَجِيرٌ أي: كثير الشجر، وأَرْضٌ شَجَرَاءُ وَشَجَرَةٌ.

وَالشَّجَرُ^(١) في القرآن على عشرة أوجه:

أحدها: الشَّيْثَةُ، ومنه: ﴿وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الْقُرْآنَ﴾ [البقرة: ٣٥].

الثاني: الشَّخْلَةُ: ﴿كَتَشَكَّرَ طَبِيبٌ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

الثالث: الشَّخْلَةُ: ﴿كَتَشَكَّرَ حَبِيبٌ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

الرابع: الرُّقُومُ: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَوْتَىٰ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الاسراء: ٦٠].

الخامس: الزيتون: ﴿مِنْ شَجَرٍ يَنْبُتُ﴾ [التور: ٣٥].

السادس: شجرة الغُرْسَج: ﴿فِي الْقَفَاةِ الْهَرَسَجُ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصاص:

٣٠].

السابع: شَجَرُ الْمَرْخِ وَالْعُقَارِ: ﴿مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ كَرًا﴾ [يس: ٨٠].

الثامن: شجرة الدُّبَابِ: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ شَجَرَةً مِنْ ثَمَرٍ طَيِّبٍ﴾ [الصافات:

١٤٦].

التاسع: شجرة الطَّلْح: ﴿إِذْ يَمْشِيُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

العاشر: الشجر الذي له ساق: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [

[الرحمن: ٦].

وإنما حُطِّتْ شجرة الزيتون بالبركة؛ لأنها الأدم، والدهن، والوقود،

فيؤخذ حطب الزيتون، ويُغسل برماده الإبريسم، ويسهل استخراج دهنه، ويصم

الورق عُصْنَه، وإنما حُطِّتْ الزيتون بالدُّبَابِ؛ لأن دُفْعَتَهُ أَصْفَى وَأَضْوَى، ﴿لَا

شَرِيفٌ وَلَا هَرِيفٌ﴾ [التور: ٣٥]، قال: أي: هي بين الشجر خضراء ناعمة.

وقال مجاهد: هي في الصحراء، لا يظللها شيء، وذلك أجود لزيبتها،

(١) الشَّجَرُ: جمع شَجَرَةٍ وهي كلُّ نبات له ساق، يقال: شَجَرًا، وشَجَرَاتٍ، وأشْجَارٌ.

وَوَادٍ شَجِيرٌ: كثير الشجر. وهذه الأرض أشجرٌ من هذه: أي: أكثر شَجَرًا.

وَأَرْضٌ شَجَرَاءُ وَشَجَرَةٌ: إذا كانت كثيرة الشجر.

وشَجَرٌ بَيْنَ الْقَوْمِ: إذا عطلت الأمر بينهم.

(يَكَادُ) يَقَارِبُ وهي كلمة إذا أُلْبِثَتْ انتضى الفعل، وإذا نَفَتْ تَبَّثَ الفعل، وشهد للإثبات عند النفي: ﴿لَا يَكَادُ يَلْقَاهُ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿لَوْ يَكَادُ بَيْنَهُمَا﴾ [النور: ٤٠]، ﴿وَلَا يَكَادُ بَيْنُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

ويشهد للنفي عند الإثبات: ﴿يَكَادُ الْيَوْمُ يَقَطُّ أَبْصَرَعَتُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿يَكَادُ سَنَاءُ يَرْفَعُ﴾ [النور: ٤٣]، ﴿يَكَادُ زَيْنًا يُجَيِّدُ﴾ [النور: ٣٥]؛ أي: من صفاته.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، قال مجاهد: النَّارُ عَلَى الزَّيْتِ.

والمفسرين في وجه هذا التمثيل ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه شَبَّهَ نُورَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بالمصباح، والمشكاة جوف رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمصباح النُّورُ الذي في قلبه، والرُّجَاجَةُ قلبه، وهو من شجرة مُبَارَكَةٍ، وهي إبراهيم الخليل عليه السلام، وإنما سَمَّاهُ شجرة؛ لأن أكثر الأنبياء من ضلَّوه، ﴿لَا تَرْفِقُوهُ وَلَا تُهِنُّوهُ﴾ [النور: ٣٥]: لا يهودي ولا نصراني، يكادُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم يتبين للناس أنه نبي ولو لم يتكلم، فلما نطق بالدلائل والبراهين كان: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

الثاني: أنه شَبَّهَ نُورَ القرآن في قلب المؤمن كالمصباح، والمشكاة صدره، والمصباح نور الإيمان فيه، والرُّجَاجَةُ قلبه، فكانه لما فيه من الإيمان والقرآن كوكبٌ مُضِيءٌ تَوَلَّدَ من شجرة وهي الإخلاص، لا يميلُ عن الطاعة، فَلَمَّا يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى، فكان: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، فالمؤمن كلامه نُورٌ، وعَمَلُهُ نُورٌ، وأَخْوَالُهُ نُورٌ.

الثالث: شَبَّهَ القرآن بالمصباح، والرُّجَاجَةُ قلب المؤمن، والمشكاة لِسَانُهُ وَلَمَنَّهُ، والشجرة الزُّخْرَى، تَكَادُ حججُ الله تعالى تفصح ولو لم ينزل القرآن، فَلَمَّا نَزَلَ كان: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].

لِلنُّورِ قَلْبٌ بالصدق مغمور، وروائح من قُدْرٍ قُدْرِهِ تفور، عليه سيماء الإخلاص وما يخفى الزور، كم أدار خندق حفر من وراء سور، شغلته ذكرُ النَّارِ عن الحُورِ، فلو رأيت قلبه وقت السحور، بات يرمى الأنس فأصبحت

نظرة القدس على الناظور، يجمول في صلاح قلبه ويدور، فهو يطلب السلامة بتجوّ ويجوز، أين تجده في المساجد وبين القبور، يأنس بوحش القلا، فلا يريد الجنس، ولا يفرح إلا إذا فخرَ اللهو والهوى، ولم يقل ما فعلا فعلا موسى الصديق على الطور، صدّق القول بالعمل، وَهَسَمَ التَّكْحُلَ إِلَى التَّكْحُلِ، فخلّى القلبُ في خلّاله من حُلّلي، ففطرطس سهم قِرَاصه بلا زلل، فجائس (يا سارية الجبل)؛ لأنه ينظر بالثور، لما سار رجعت، ولما وصل انقطعت، فإنك لما ضيعت ما استطعت يا مهجور.

إلى كم مع الذنوب، إلى متى مع العيوب، إن الجماد بهذا يذوب، يا عجا ما ذي القلوب إلا صخور.

الفصل الخمسون

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْلَلْتَ مَكْرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]

القرية^(١) في القرآن على تسعة أوجه:
 الأول: أريحا: ﴿اتَّخَذُوا عَلَيْهِمُ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨].
 الثاني: دير هزقل: ﴿وَكَانَ لِكُلِّي مَكْرٌ عَلَى قَرْيَتِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٩].
 الثالث: أيلة: ﴿وَنَزَّلْنَاهُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].
 الرابع: بضر: ﴿وَنَزَّلْنَا الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢].
 الخامس: مكة: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ مَأْكَنَةً﴾ [التحل: ١١٢].
 السادس: سايرُ القرى: ﴿وَلَا يَنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: ٥٨].

(١) القرية: اسمٌ لنا يجمعُ جماعةً كثيراً من الناس، وهو اسمٌ مأخوذٌ من الجمع، تقول: قرئتُ البناء في الخوض، إذا جمعتَه فيه.
 ويقال للخوض الذي فيه البناء: بقرأة.
 قال الزجاج: والقرية في اللغة الجمع، وسُمي القرآن قرأتاً، لأنه ملامٌ لجميع.
 وقال ابن قتيبة: سُمي القرآن قرأتاً، لأنه جمعُ السور وسُميها.
 وهو من قولك: ما قرأتُ إلا ما سألني الله، أي: ما سألني في ربيها ذلك. وأشدُّ البر غيبته: [الفرقان]
 مجازاً القول لم يقرأ بجيبها
 وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ غَنَمٌ نَّتَمَتُّ وَتَمَتُّ﴾ [القيامة آية: ١٧]، أي: تأليفه.

السابع: قرية قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَوْمِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

الثامن: أنطاكية: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٧٣].

التاسع: مَثَلُ وَالْقَافِيَّاتِ: ﴿وَرَبُّهُ يَوْمَ تَفْقَهُنَّ هَوَاجَهُنَّ﴾ [الزخرف: ٣١]،
والإشارة بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ [الفرقان: ٤٠]؛ لأنهم كانوا يسافرون
فيرون عليها، ومعنى (أُتِفِظَتْ): رُميت بالحجارة.

لما سُرَّ قوم لوط بسرورهم، ونهاووا في هوة أهواتهم، أقبل عليهم نبيهم
بتوبيخ: ﴿مَا سَكَنَ لَكُمْ﴾ [العنكبوت: ٢٨]، فنادوا في جهر جهار جهلهم:
﴿فَقِهِمُوا مَا لَكُمْ لَوْ﴾ [النمل: ٥٦]، فبعث الأملاك لانتزاع أملاك الحياة من
أيديهم، فنزلوا من منزل لوط بنزيل التنزيل، فهم في أفسح بيت من الكرم، غير
أن حارس حلوهم ينادي: ﴿وَمَكَائِي بِهِمْ ذُرُكَا﴾ [العنكبوت: ٢٣]، فاستحضرت
بما لُتَّتْ لمنمة الأمر امرأته، فأحضروا في براح: ﴿يَهْرَعُونَ لِابْنِهِ﴾ [هود:
٧٨]، فدخلوا عليه بعد كسر الباب، فقام يخاطب غير ذري الأبواب، فتارة
يدافع بمشورة: ﴿هَكَذَا بَيَّأْنَا﴾ [هود: ٧٨]، وتارة بقاء: ﴿وَاللَّغْوُ اللَّهُ﴾ [هود:
٧٨]، وتارة بضال: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [هود: ٧٨]، وتارة بتوبيخ: ﴿أَلَيْسَ بَيْنَكُمْ﴾
[هود: ٧٨]، فقابلوا تعريض قوله بتصريح: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا مَا يُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]،
فلما قُلَّ كُلُّ مِلاجو، وأعيته جهات جهاده أن ير من: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾
[هود: ٨٠]، فحجبههم جبريل بحجاب: ﴿نَلَسْنَا﴾ [القمر: ٢٧]، وانناشه
بأنامل: ﴿فَأَسْرِ وَأَقْبِلْ﴾ [هود: ٨١]، فلما علم أن الملائكة تشوق إلى
تعميل التعذيب، فنادت عواطف الحلم: ﴿أَلَيْسَ الْفُسُحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]،
فسار بأمله على أعجاز نجائب النجاة إلا عجوز العجز عن عرفان إعجاز
المعرفة، فإنها أَلِجَتْ بِالْعَجْزَةِ، فَلَمَّا لَاحَ مِصْبَاحُ الطُّبَاحِ احتمل جبريل قُرَى
مَنْ جَنَى عَلَى قَرَى جَنَاجِدٍ، فلم ينكسر وقت رفعهم إناء، ولم يرق في صعود
صعودهم ماء، فلما سمع أهل السماء نَبَاحَ كِلَابِهِمْ، أسرع كف القلى بهم في
انقلابهم، فذكروا بالقلب كيف حكم على مَنْ قَلَبَ قَانُونَ الْحِكْمَةِ بِالْقَلْبِ، ثم
بعث إليهم سبحانه: ﴿وَأَنظُرْنَا﴾ [هود: ٨٢]، واستقل سُدَّ سُدَّ جُرْمِهِ الْأَفْقِ
على وَفَى جُرْمِهِمْ قَشْعًا بِالشَّعَائِصِ واحزأل ثم مال إليهم، فَأَنظَرَتْ بِالْغَضَبِ

أرجأه، وأحموت بالسخط أرجأه، وَأَبْدَعَتْ فَرَعَتْ فوارقه، وارتفعت في جزأ الجزأ جزأه، واستقلت على قُلَلٍ قَلَالٍ الردى أرفاقه، وارتجز بأرجوزه الزجر قبل أن يهني فيهمهم، ثم دَوَّى بالادواء دو دَوَّر دورانهم فأظلم، وركد كيده فلم تكد قلوبه تفلح حتى قلعههم حينهم حين اقتحم، فما رَكَ وَلَا دَكَّ وَلَا بَعَثَ، بل قَطَطَ فَأَفْرَطَ وَعَمَّ غَمَمُهُ حِينَ أَغْمَطَ، فَنَقَطَ عَلَى قَطْرِهِمْ مِنْ قَطْرَةٍ قَطَرِ الحجارة، وَنَعْتَهُمْ فِي غَرَّةٍ غَرَّتَهُمْ بِالْعُرُورِ فَشَأْنُ الْعَارَةِ.

تاليد لقد حَكَمْتَ العذابَ فَضَعَضَهُمْ فَتَضَعَضُوا، وانقضَّ بِقَضِيهِ وَقَضِيضِهِ، فَتَضَعَضَ عِظَامَ عِظَمَائِهِمْ فَتَقَطَّعُوا، وسار في طَرَفَانِ عِقَابِ الْعِقَابِ إِلَى عَزَلٍ الْعِزْلِ فَأَفْرَطُوا، وكانوا في بَحْرٍ ضَالِي الضَّالِّاتِ، فَمَرُّوا إِلَى مَرِّ الرِّيقِ فَأَفْرَقُوا، وَهَمَسَ هَمْسُهُمْ، وَهَلَّ بِهَلْلِهِمْ إِلَّا الْوَهْلُ وَالْوَهْ، ﴿وَلَقَدْ جِئْتَنِي﴾ [ص: ٢٣]، واندنقوا وبرقط المخرنق بعد أن نهس وابلس وبلطح، وَخَرَنَ الْمُرْتَجِقُ بعد أن زَفَرَقَ، فَبَلَسَمَ وَقَلَحَ فَأَجِيلَ عَلَى ذَاكَ الْجِيلِ سَجِلُ السَّجِيلِ، فما بَرَحَ حَتَّى بَرَحَ وَدَارَ هَائِكُ الْعَبْرِ عَلَى دَارِهِمْ تَنَادِي: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مَتَّحَةً﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فليحلل العازمون على طُرُوقِ طريقهم من وعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، قِيلَ غَضَضَ الْخَرَضِ، وَقَبِلَ حُلُولِ الْمَرَضِ حِينَ يَعْتَلِ اللِّسَانُ وَيَتَحَيَّرُ الْإِنْسَانُ، وَتَبَيَّلَ الْأَجْفَانُ، وَتَزَوَّلَ الْعِرْقَانُ، وَتَنَشَّرَ الْأَجْفَانُ، قِيَا عَجَبًا كَيْفَ أَلْمَى الْعَيْشَ الْفَانِ الْفَانِ، وَلَقَدْ تَطَلَّقَ نَحْسُ الْقُرْآنِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فَقَدْ مَرَّ فَأَمَرَ كُلُّ مَا كَانَ.

الفصل الحادي والخمسون

فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]

وَوَيْتَ يَوْمًا سُلَيْمَانُ عَلَى مَنَاجِبِ مَرَاجِبِ مَوَاجِبٍ: ﴿وَوَيْتَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٧]، وضابط جيشه قد كُفَّ بِكَفِّ: ﴿فَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ١٧]، وراحت الريح يَوْمَ يَوْمٍ وادي النمل، فَتَلَّتْ نَمْلَةً، فَنَادَتْ أَخَوَاتَهَا بِنَدِيَةٍ: ﴿لَا يَحْمِلَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، ثُمَّ قَامَتْ فَأَقَامَتْ لِعَدَلَةِ عَدْرٍ: ﴿وَعَزَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فَحَمَلَتْهُ أُرَيْحِيَّةُ شَجَرِ الشَّجَرِ عَلَى ظَرْبٍ: ﴿فَتَبَسَّ حَاجِبَا﴾ [النمل: ١٩]، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا أَنْصَحَتْ عَنْ فَصَاحَةٍ تَلَقَّتْ بِهَا مَرَّةً بَلِيعَ، بِلَفْظِ (يَا) نَادَتْ، (أَيُّهَا) تَبَهَّتِ النَّمْلُ، عَيْثُ (ادْخُلُوا)، أَمَرَتْ (مَسَاجِدَكُمْ)، نَصَحَتْ: ﴿لَا يَحْمِلَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، حَذَرَتْ (سُلَيْمَانُ) خَشِيَ (وَجُودَهُ) عَيْثُ، (وَعَمَّ لَا يَشْعُرُونَ) عَدَرَتْ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمِزُونَكَ بِمَا أَوْكَ﴾ [النمل: ١٩]: (في) في القرآن على عشرة أوجه^(١):

أحدها: وقوعها على أصلها ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

الثاني: بمعنى الياء: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

(١) (في): حرف مُؤْخَرٌ فِي الْأَصْلِ لِلظُّرُوفَةِ، تقول: زَيْدٌ فِي الدَّارِ.

وقد يُسْتَعَارُ فِي مَوَاضِعَ تُدَلُّ عَلَيْهَا الظُّرُوفَةُ.

قال أبو ذكريا: وقولهم: زَيْدٌ فِي الْبَيْتِ، وعمرُو فِي الشُّقْلِ، مُسْتَعَارٌ غَيْرُ حَقِيقَةٍ، وقد يَنْسَجُ فِيهَا حَتَّى يُقَالُ: فِي يَدِ فُلَانٍ عَيْقَةٌ نَيْسَةٌ، وَمِنْ مَخَالِي أَنْ تَكُونَ يَدُهُ وَخَاءٌ لِّمَا هُوَ أَفْخَرُ بِهَا، وَلَكِنْ هَذَا أَشَاعَ كَأَنَّهُ بِشَيْءٍ تَنْسَجُهُ مِنَ الطَّيْفَةِ وَفَرَّغَ نَفْسُهُ فِيهَا بِمَثَرَةِ الشَّيْءِ الَّذِي فِي يَدِهِ، وَهَذَا كَلَّمَ أَشَاعَ فِي الْكَلَامِ، وقد كثر فيه وأنس به.

الثالث: بمعنى نحو: ﴿تَقَلَّبْتَ وَتَهَيَّكَ فِي التَّسَلَّى﴾ [البقرة: ١٤٤].
 الرابع: بمعنى إلى: ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَيْتًا﴾ [النساء: ٩٧].
 الخامس: بمعنى مع: ﴿وَأَنزَلُوا فِي أَسْرَقَةٍ لَّكُتَّةٍ﴾ [الأعراف: ٣٨].
 السادس: بمعنى عن: ﴿وَأَنزَلُوا فِي أَسْرَقَةٍ لَّكُتَّةٍ﴾ [الأعراف: ٧١].

السابع: بمعنى على: ﴿وَأَنزَلُوا فِي أَسْرَقَةٍ لَّكُتَّةٍ﴾ [طه: ٧١].
 الثامن: بمعنى اللام: ﴿وَتَكْنَهُدُوا فِي أَسْرَقَةٍ لَّكُتَّةٍ﴾ [الحج: ٧٨].
 التاسع: بمعنى عند: ﴿وَتَكْنَهُدُوا فِي أَسْرَقَةٍ لَّكُتَّةٍ﴾ [هود: ٩١].
 العاشر: بمعنى من: ﴿وَتَكْنَهُدُوا فِي أَسْرَقَةٍ لَّكُتَّةٍ﴾ [النمل: ٢٥].

فلما فصل طالوت ملك سليمان بالجنود عن وادي النمل، ووقع في مَنَازِلَ لا يرى فيها علماً على الماء، فجاش جاشُ الجيش لفقدهم في القفر إلى الماء ألباً، وكان إذا سافر يصحبه الإنس، ويتبعه الجن، ويظله الطير، ويهدي به الهدفُ إلى ما تحت الأرض من ماء، لأنَّ الهدفَ يرى الماء تحت الأرض كما تراه في الزجاج، غير أنَّ القدرَ إذا نَصَبَ فُلُجٌ حَبِيبٌ يَدُلُّ عَذْبَ نَظَرِهِ بِالْأَجَاجِ، فلما رآه الهدفُ قد نَزَلَ ظن ارتفاع الحاجة إليه فارتفع، ليخرج من خوخة الاستعباد إلى قرْجَةِ القُرْجَةِ، فَمَدَّ سليمانُ بَصَرَ المُرَاعَاةِ لِلرَّجِيَّةِ، فوقع على مَنَازِلِ، فتفقد الطيرَ قَدَارَ لسانِ الاقتدار بسطوة: ﴿مَلِكٌ لَا لَرَى الْهَدَفُ أَمْ حَكَاةٌ﴾ [النمل: ٢٠].

(أَمْ) في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: بمعنى ألف الاستفهام: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤].
 الثاني: بمعنى بل: ﴿أَمْ حَكَاةٌ مِنَ الْمَكَايِدِ﴾ [النمل: ٢٠].
 الثالث: بمعنى إذ: ﴿أَمْ أَيْتُمُ نِي فِي الْكُتْلَةِ﴾ [المالك: ١٧].
 ثم بسط باع الوعيد بتهديد: ﴿لَأَعْلَبَنَّ﴾ [النمل: ٢١]، غاب الهدفُ عن خدمة سليمان ساعةً، فتواعده بلفظ لَأَعْلَبَنَّ، فإِذَا غَائِبًا عَنْ حِفْظِنَا طَوَّلَ صَمْرَهُ أَمَا تَحْذَرُ مِنْ عِقَابٍ جَهَنَّمَ، وكان قد اتفق للهدف هدمه من ملك بلقيس، فسار به في سفر، ﴿فَلَمَّكَتْ عَجْرُ بَيْبُولٍ﴾ [النمل: ٢٢]، فإِذَا عَجِبًا لِمَوْثَرِ

ضنك العيش والهوى وضيق العيش في الدنيا على رياض المراعي الفسيحة في بَدْوٍ: ﴿فَوَيْتَ لَكَ كَثُورًا﴾ [الذاريات: ٥٠]، ألم تسمع باعتناء هداية الهدهد كيف خاطر بشغل خاطر مالهكة، ولم يقنع بالنظر في ممالكه حتى سافر على عيس التجسس سافراً وجة التَّحُصِّي على عسكر بلقيس، ليري ما لم يره، فيينا مركب نزهته في بحر راحته بجري بريح ارتياحه فَبَيَّت عليه عواصف (لَاغْلَبِيَّتُهُ أَوْ لَاذْبَحِيَّتُهُ)، ولسان حاله يقول: [البسيط]

وَمَا خَلَّتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمْ يَسْفِكُ دُمِي

فلما رَجَعَ رَجَعَ لسان الحال عطاء مضمونه: يا سليمان! لا تعجب من صغر جرمي، وانظر إلى بُغْدِي هُمِّي وثمرة جنائبي في سفري، ﴿أَعَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَدَّكَ أَمْرًا﴾ [النمل: ٢٣]، المرأة^(١) في القرآن على اثني عشر وجهًا:

أحدها: حنة: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُكَ يَهُودِيٌّ﴾ [آل عمران: ٣٥] .

الثاني: حولة: ﴿وَإِنَّ أَمْرًا خَفِيَ مِنْ بَيْنِهَا شُورًا أَوْ إِفْرَاكًا﴾ [النساء: ١٢٨] .

الثالث: سارة: ﴿وَأَمْرًا قَاهِمَةً فَفَجَّكَتْ﴾ [هود: ٧١] .

الرابع: أزيلكا امرأة العزيز.

الخامس والسادس: صافورا وعابورا ابنتا شعيب: ﴿وَوَيْكَتُ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣] .

السابع: بلقيس: ﴿وَوَدَّكَ أَمْرًا فَلْيَكُنْهُنَّ﴾ [النمل: ٢٣] .

الثامن: أم شريك: ﴿وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً﴾ [الأحزاب: ٥٠] .

التاسع: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرٌ شُجٌّ﴾ [التحريم: ١٠] .

العاشر: والقة امرأة لوط .

الحادي عشر: آسية: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا أَمْرٌ وَرَعُونَ﴾ [التحريم: ١١] .

(١) المرأة: اسمٌ للأنثى البالغة من أولاد آدم، والرجل: الذكر.

الثاني عشر: أم جميل أخت أبي سفيان: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ

﴾ [المسد: ٤].

فلما سمع سليمان غُلَزَّ الْهُدُودُ رَدَّ عِذار باهرة بمبادرته بالوعيد إلى رأي: ﴿سَقَطْرُ﴾ [النمل: ٢٧]، فقال: انتدب رسولاً مني، واحمل كتاباً عني، فإذا شارفت عليهم فألقه إليهم، فمضى حتى أرمى على رؤوسهم، فكتبته الجماعة ساعة تحريك الجناحين، وحلّوهم بسماع المعنى من خلاف أن جرى جَنَى الخنثى، ثم ألقى الكتاب من قارّة مقاره، فلما رأت اليفطى بنقضان لهما كتاباً محتوفاً، وأمرأاً محتوفاً، وكلاهما عجيباً، وحاملاً طريباً، صاذاها العقل والفهم فصادافاها في لَحْ العسر كظبية كريم، فصاح فصيح فهُوبها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا كُفُّوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ رَأْسِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهَ بِسُلَيْمَانٍ وَسُلَيْمَةَ ابْنَيْ أَدَمَ عَلَى قُرَيْشٍ إِنَّهُمْ فِي بَعْثِهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ كَفَرُوا فَتَوَلَّى الْمَعْرُوفَ بِالْغَيْرِ الْمَعْرُوفِ﴾ [النمل: ٢٩]، فلما تلمحت شارات الكتاب إشارات (إنه)، فاستشارت آباء قومها في سؤال: ﴿الَّذِينَ فِي أَعْيُنِنَا﴾ [النمل: ٣٢]، وكان في ملكها ألف ملك، قد ألقى كُلُّ ملك في ملكه الفداء، فأومئوا إلى الحرب برمز: ﴿فَعَزَّزُوا قُوَّةَ﴾ [النمل: ٣٣]، فعلمت أَنَّ مَنْ ضاعَبَ غَبْرَةَ الطير لا يُحَارِبُ، فبعثت رائد التفهم، لتفرق بالدليل بين صحة دعوى سليمان وفساد دعوى غيره، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا إِلَهُكُمْ بِهِيَئَةِ﴾ [النمل: ٣٥]، وعلمت بيقظة الفهم وحسان الدّعي أنه إن كان نبياً حقاً رَدَّهَا، وإن كان غير نبي شكر عندها، فبها عجبا للذهب إذا دُعِبَ سهمه لا يُخْطئ، وللرّشا إذا رَشَّتْ مزالقُ أقدام العقول لا يُطْئ، تخير الغلاة في الفهم والهِلْجَة بالباحث، فيعقل هذا عقلاً عَقْلِيًّا، وَيَجْرُ ذَاكَ وَهُوَ أَحْمَقُ مِنْ رَجُلٍ لَا يَرْجِيهِ.

[مجزوء الرمل]

لَا يُفْهَرُكَ مِنْ الْمَرِّ وَرِدَاةٌ رُقْمَةٌ
وَقَبِيضٌ قَوْفٌ كَغَيْبِ الْمَرِّ سَاقِي وَثْقَةٍ رُقْمَةٌ
وَجَبِيضٌ لَاحٌ فِيهِ أَتَمَرٌ قَدْ غَلِمَتْ
أَوْهَ الْمُرْمَةِ تَمَرٌ لَحْمٌ أَوْ وَرْمَةٌ

فلما بدت هوادي هديتها لسليمان كشفت صباح حُجَّتِهِ عن صباح وجوه الزهد، فانفثع ليل الطمع عن فجر: ﴿لَا أَتَقَلِّبُكُمْ عَلَيْهِ أَعْيُنًا﴾ [الأنعام:

[٩٠]، وصاح لسانُ العيرِ: ﴿أَتَيْدُونِي بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦]، وَجَرَّةٌ صَارِمٌ الصريمة والوعيد ﴿فَلْيَأْتِيَنَّهُمْ بَحْرُومٌ﴾ [النمل: ٣٧]، وكان فيما اختبرت به سليمان جُزَارَ وِغْلَمَان، وَخَلَّتِ الذكورُ منهم جَلِيَّةَ السَّوَانِ، والبست النساءُ منهم حُلَّيَ الْفَتَيَانِ، فأذاودا منه بعينِ الحسِ اثنان، قال: رأى كل ذي رأي أمرُدان، فقال لسانُ فهمِ سليمان: الأمرُ قان، فَمَيَّرَ بالذهنِ بينهم فيان البيان، فَلَمَّا صَحَّ عندها ما يدعُرُ إليه وَكَيْتٌ وَكَيْتٌ على أقدامِ الطلبِ، واستسلمت لعزيمة الإسلام وَفَيَّاتُ مَرَايِبِ الْقُضْدِ، فَرَوَّدَتْ سُفْرَ الشَّفْرِ، ورحلت في هجير شمس الهدى على نحي نجائبِ الهجرة لا غرض لها بَيِّدٌ أن تقطع بيداءِ الحجر بَيْدَ الوُضَلِ، فلما سمع برحيلها أراد تقويةً دليلها، فتأدى في نادي عفاريتة، مُسْتَعْرِضًا جُنْدَ بَطْنِيهَا: ﴿إِنِّكُمْ يَأْتِيَنِي بِرَبِّيهَا﴾ [النمل: ٣٨]، وما دُفِبَ يقصدُ الدُفِبَ، ولكن أراد أن يملك ثم يهب، إذ لو أسلمت حُرْمٌ عليه نالها، فأراد تحصيله لها قبل أن تدري ما لها، فلما جيء به سَقَرَةٌ بِقِرَامٍ: ﴿تَذَكَّرُوا لَهَا﴾ [النمل: ٤١]، ثم ابتلاها ليرى ذكاءها: ﴿أَفَتَكُنَّ كَرِيحًا﴾ [النمل: ٤٢]، فَحَارَزَتْ وَسَطَ جَبَرَةِ الْخَيْرَةِ حَتَّى تَوْسَطَ حَاكِمٌ ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]، ثم اختبأ لاختبارها قُضْرًا مُفْرَقًا، فرأتها المرأةُ يمردانها، وجعل تحت ما بنى منه، وسمك ماء ألقى فيه السمك، وكان القُضْرُ على الماء كالشُفْنِ الجَوَارِي، فأراد اختبارها كاختباره بالسفن الجوارِي، فَضَرَعَ بلفظ: ﴿أَتَعْلَمُ الْفَرْخَ﴾ [النمل: ٤٤]، فشبه لضعفها عن إطفاء كأس ساقِها، فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا، فَقَدْ شَقَّةُ الْغَلِيَّةِ الْفَعْل، وكشفت يده حجة شَفَتْ ﴿إِنَّهُ صَنِيعُ مُرْدَةٍ﴾ [النمل: ٤٤]، فلما وَصَلَتْ وَسَلَّمَتْ أَسْلَمَتْ فَتَلَمَّتْ، وَخَلَّتْ قَبْلَ أَنْ خَلَّتْ بِظِلَاقِ الْفُلُوقِ، فَتَفَرَّتْ حَرَزَاتٍ يُقَامِرُو عَلَى تُلْغَمِ الْغُدْرِ: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ نَفْسِي وَاسْتَكْبَرْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ يَوْمَ رَبِّهِ الْغَفِيِّ﴾ [النمل: ٤٤].

الفصل الثاني والخمسون

في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلَنَا

أَرْسُلْنَا﴾ [القصص: ٢٧]

قال الأصمعي: قلت لأعرابي: ما الضحك؟ قالت: وتغذ هذه الآية لصاحبه، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلَنَا﴾ جمع فيها بين أمرين وتفهيتين، وأخوفتين وبشارتين.

قال ابن قتيبة: (الوحي كل شيء دللت به من كتاب أو إشارة أو رسالة).

والوحي^(١) في القرآن على سبعة أوجه:

أحدها: الإرسال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣].

الثاني: الإلهام: ﴿وَرَأَى نُوحٌ الْآلِهَةَ﴾ [الأنبياء: ٦١].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلَنَا﴾ [القصص: ٧].

الثالث: إغلام بالووسوسة: ﴿يُوحُونَ إِلَيْكَ أَنكِهِي﴾ [الأنعام: ١٢٨].

الرابع: الإشارة: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [مريم: ١٧].

الخامس: إغلام في المنام: ﴿أَن يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَاهًا﴾ [النمل: ٢٦].

[الشورى: ٥١].

(١) قال ابن قتيبة: الوحي: كل شيء دللت به من كتاب أو إشارة أو رسالة.

وقال ابن فارس: كل ما أُلِّقَ إلى عَمَلِكَ عَلَى بَعْلَةٍ لَهُوَ وَحْيٌ كَيْتَ كَانِ. وأوحى الله عزَّ

وَجَلَّ وأوحى، وأندوا: (الرجز)

وَحْيٌ لَهَا الْفَرْزُ فَاسْتَشْفَزَتْ

وَالْوَحْيُ: الشَّرْعُ. وَالْوَحْيُ: الشُّوْطُ. ويقال: اسْتَوْحَيْتَاهُمْ أَي: اسْتَغْرَضْتَاهُمْ.

وقَدْ خَذَ بِحُشْمِهِمُ الْوَحْيُ فَقَالَ: إِضَالُ الْمُرَادِ إِلَى الشَّوْحِ إِلَيْهِ عَلَى أَسْرَعَ وَغَوِ وَالْظُّلُومِ.

السادس: القول بلا واسطة: ﴿قَالَ إِنَّ عَلَيْهِ مَا تُؤَمُّ ۝٤١﴾ [النجم:

١٠].

السابع: الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَتَىٰ لَهَا ۝٤٢﴾ [الزلزلة: ٥].

وكان السبب في إلهام أم موسى أنهم فتحوا بصرَ جليهم فوجدوا رَقْمَ وجود موسى في غايهم، فأخبروا فرعون، فجدَّ في حرب: ﴿يَرْبُحْ إِنَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، فلما انتهت أم موسى بالوضع أَوْضَعَ الخرس في طريق الخطب، فأَذْرَقَهَا جِنْدَ الْعُلَمِ الدَّهْنُ، فَأَلْفَقَتْ فِي الثُّورِ إِيَّاءَ الْخَطْبِ، فلما عاودت لِرَأَاةٍ قد سلِمَ شأدهت في ضمن ما ضنعت أثر: ﴿وَأَنصَحْتَنِي لِقَايَ ۝٤٣﴾ [طه: ٤١]، فكانت سلامته نقدًا لأجله احتملت وعد: ﴿كَأَلَيْهِ فِي ۝٤٤﴾ [القصص: ٧]، فقال لسان الحال: يا أم موسى: ما يتعلق بالأسباب فاليك، وما يخرج عن المعهود فليس عليك، فقولنا: (أرضيعيه)، أخذ أهبة السبب، (فألقيه) دخول حصن التوكل، فَوَازَنَ أَرْضِيعِيهِ وَأَلْقِيهِ أَغْلِقْهَا وَتَوَقَّلْ، فَكُلُّ مُبْشَرٍ لَنَا مُخْلِقٌ لَهُ.

العجب من إلفاته بين الأضداد نَارُ تُحْرَقُ سُلُّ مِنْهَا إِلَى سُلْمِ النجاة، ثم نم بعرق ذاق منه سلسل السلامة، فلما سعت بتأبوت إلى اليم ارتعش أيد أبي التسليم، فصاح شجاع الشجاعة عن عز العزم: أَفَلْقِيهِ فِي اليم، فصدرت بعد إلفاتها بصدر قد لوى به لواعج الاشتياق، لا يعلم قدر ما به إلا من قد رمى به، فَنَبَّيْنِ قَرْقُ الْوَرَاقي، فَتَلَقَّاهَا بِالْيَشْرِ بِشِيرٍ: ﴿يَا رَأُوْا إِلَهُي﴾ [القصص: ٧]، فلم تزل أمواج اليم تيسم به مسالك القدر إلى أن جيت جُيْبُ النِيل، فشرفت في تناوله مشرعة دار فرعون، فألفته في برية (فَالنَّقْطَةُ)، فلما فتحوا القابوت سَفَرُ عن مسافرٍ على نجيب النجاة، قد جعل زَاةً فِي بِرْود: ﴿وَأَنصَحْتَنِي ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩]، ووضح فلاة الحب منظومة بذر: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبْنَةً وَنَىٰ﴾ [طه: ٣٩]، فقام فرعون على أقدام الإقدام على قتله، كما قتل من قبله، فخرجت آسية من كمين إيمانها تنطق على لسان: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكَ سَبَّحْتَ لَهُمْ وَنَا الْمُسَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وتنادي في مخدع تحديعة الحرب: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّي لَا﴾ [القصص: ٩]، وتجمع في خطابها ما هو فرد في لغة القدر: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَفْعَلَنَّا﴾

[القصص: ٩]، فلم يزل فرعون في أغياش غروب شمس ﴿يَذْخَبُونَ آبَاءَهُمْ﴾، حتى طلع غرير صبح: ﴿وَرَبُّهُ لَذُو فَهْمٍ عَلَى الرَّحْمَةِ لَنَشْكُرَهُمْ فِي الْآخِرِينَ﴾ [القصص: ٥]، فلما قص شوق أمه جناح صبرها، قالت لاخته: (فطيه)، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ في حريم: ﴿وَعَزَّيْنَا عَنْهُ﴾ [القصص: ١٢]، فذنت فندنت حول حلة الحيلة بحول: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ [القصص: ١٢]، فلما أقامت على باب المكر حارس الإضافة إليهم بمقبرة: ﴿بَنَكْلُونَهُ لَكُمْ﴾ [القصص: ١٢]، دخل طفلي الوجد من باب: ﴿وَقَدْ كُنَّا نَعْلَمُ﴾ [القصص: ١٢]، فجاءت بأمرها يؤمها دليل الطرب، فكادت حين حضرت تُحضر في ميدان: ﴿لَنُؤْتِيَنَّكُمْ﴾ [القصص: ١٠]، فكبحها لجام: ﴿لَوْ لَا أَن رَّبَّكَ﴾ [القصص: ١٠]، فخافت لسان جهرها لما خافت، فسل من أيديهم إلى سلم تسليمها، ففر في حجر: ﴿كَانَ قَرْنًا عَيْنًا﴾ [القصص: ١٣]، وترثمت بلابل الوصال على أغصان التلاقي، فأخرست بلابل الفراق، وقام خطيب الأمانة على أمور السلامة بخطبة: ﴿وَرَبَّنَا إِلَهُ الْوَيْدِ﴾ [القصص: ١٣]، قرئ موسى في ربي فرعون، ونسى بين نمارقه إلى أن أوان مهاجرته إلى دائرة دار الهجرة، فجرى القدر بقتل القبطي ليكون سببا في سر سيره، فلما توجه يسعى على أرجاء رجاء: ﴿مَنْ رَبِّهِ أَن يَهْدِيَنِي﴾ [القصص: ٢٢]، فريد مؤرد ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ [القصص: ٢٣]، فتجمع شمل الظهر بواسطة ﴿إِن يَدْعُوكَ﴾ [القصص: ٢٥]، بقي عثمان الوفاء إلى أمائه، ﴿لَمَّا كَانَ مَوْسَى الْأَجَلِ﴾ [القصص: ٢٩]، قتلح معنى ﴿قَالَ لِأَخِيهِ أَنْكَلُوا﴾ [القصص: ٢٩]، فبدو في بادية الطلب أنيس ﴿إِن يَأْتِيَنَّكَ﴾ [القصص: ٢٩]، فيترامى كف الطمع إلى مزاج ﴿لَمَّا كَانَ يَكُونُ﴾ [القصص: ٢٩]، فبطل على طلال الطلب ظل ﴿لَمَّا أَتَاهَا﴾ [القصص: ٣٠]، فتلطظ نمار التكليم من غير تملق وتزوي وتساقت من جن جناب التجلي: ﴿وَلَمَّا أَتَاهَا﴾ [القصص: ٣٠]، وعلى هذا تجري أحوال المؤمنين، العدو يزوم قلاعة من يوم ﴿وَلَمَّا أَتَاهَا﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقد هت في طلب حقيقه جنود ﴿لَا حَتَمَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، والقدر قد ألفاء في ثور الهوى، ثم سلمه بكتف كتف الثقى من شر شر الطمع، ثم رمى به في يَمِّ الابتلاء، يموج به موج الاختيار كلما غيبه

في غالية ذنوب ذنوب لفظه إلى نَجْوِ النَّجَاةِ لفظ استغفار، فيظن العدو أنه تحت راية زأبو وَلَقَدْ ﴿لَقَدْ يَنْبَغُ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، يجذبه من ورائه، فإذا حَانَ حينَ الحَيْنِ عرضت عليه مريضات الشرك أخلاف الخلاف، فَيَضْرِبُ على فيه فَنَامَ ﴿وَنَعْمَتَنَا﴾ [القصص: ١٢]، فيرجع سليماً يَلُومُ أُمَّ التوحيد التي سافر عنها يَوْمَ ﴿الْأَسَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فيستلغاه بشير ﴿لَتَجِيبَنَّ إِلَى رَبِّكَ أَجِبَةً مُبِينَةً﴾ [الفجر: ٢٨].

الفصل الثالث والخمسون

في قوله تعالى: ﴿قَلَّمَا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩]

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قال: «أَوْفَاهَا وَأَطْيَبُهَا».

قال مجاهد: نكث بعد أن قضى الأجل عندهم عشرَ سنين.

لَمَّا خَرَجَ مُوسَى بِأَهْلِهِ مِنْ مَدِينَةِ مَدْيَنَ يَوْمَ أُتِيَ، انْطَلَقَ فَانْطَلَقَ ظَلَمَ الظُّلُمِ لَمَّا فَتَتْ بِالْإِشْرَاقِ نُودِيَ النَّبِيُّ بِلِسَانِ الْغَيْرَةِ مِنَ الْمَشَارِكَةِ فَهَضُوا أَهْضَارَكُمْ، فَمَقَامٌ عَلَى أَقْدَامِ الشَّعْبِ، وَقَدْ سُدَّتْ فِي وَجْهِهِ أَبْوَابُ الْمَطَالِبِ، فَهَبَتْ بِهِ أَيْسَى قَائِسَ. [السريع]

يَا خَارِ إِنَّ الرُّكْبَ قَدْ خَارُوا فَأَذَقْتُ نَحْسًا لِمَنِ الشَّارُ
تَبَدُّو وَتَلَبُّو إِنَّ غَيْثَ وَقَفُّو وَإِنْ أَضَاءَتْ لَكُمُ شَارُوا
فَسَمَّرَ مُوسَى عَنْ سَاقِ الْقَضِيَّةِ، وَسَاقَ يَسْمَى عَلَى أَرْجَاءِ رَجَاءِ ﴿تَلَبُّو كَاتِبَكُمْ
يَتَلَبُّو بِعَمْرٍ﴾ [القصص: ٢٩]، قَلَّمَا وَصَلَ النَّادِي نُودِيَ، قَلَّمَا ذَاقَ لَذَّةَ التَّكَلِيمِ
خَرَجَ قَلْبُهُ تَطْلُ الشُّوقِ، فَلَمْ يُدَاوِهِ إِلَّا طَيِّبٌ ﴿وَوَعْدَةٌ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. [الوافر]

لَمَّا لَبِسْنَا بِلِي الْأَثَلَاتِ عُودِي لِيُورِقَ فِي رُؤْسِ الْأَثَلَاتِ عُودِي
لَمَّا نَسِمْ ذَاكَ الشَّيْخِ أَذْعَى لَدَيْ مِنْ أَيْسَاسِي نَشْرَ عُودِي
وَإِنْ حَبِيبَتُكُمْ فِي الْقَلْبِ أَهْلَى وَأَتَلَبَّتْ نَفْسِي مِنْ صَوْتِ عُودِي
فَبِعَثَ فِي حَرْبِ عَدُو: ﴿يَلَلَهُ طَلَقٌ﴾ [طه: ٢٤]، فَمَا زَالَ مَشْغُولًا إِلَى أَنْ
فَبَرِ الْقَتِيلِ فِي لَحْدِ الْهَيْمِ، فَطَلَبَ قَوْمَهُ كَتَابًا يَضْبِطُ شَارِدَهُمْ أَوَامِرَهُ وَيُرِدُّ نَادَهُمْ

نواحيه، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين ليلة نهاره وليله، فأمسك على فسلك الإساءة بكف الكف في الوضال، فذام فذام فيو فيو عن مطعم المطعم، فقيد قوت الوقت في ذكر الوعد، فلما انقضت الليالي انقضت ظهر نظامي الشوق، فقام لثرائي هلال الوفاء بالأمر في مطلع فلاح القصد، فبادر يسعى على أقدام الحب إلى زيارة ربيع الحب، فهو يلقفه قلقة الوجع، فوجع الهوى متغير الريح في عرصة الفم، فصاح فصيح لسان الحزم من وراء رأي العزم: يا موسى؛ غير أثر الأزم، فتنازل مضعة من النبات فنضقتها، فليل: أيها الطائيم عن أمرنا لم أنظرت برأيك، قال: وجدت ليفي خلوقا، وما أردت بفعلتي جلافا، فليل: أما علمت أن قلز قوزة الخلوف من قدر الإنسان أكثب عندنا من قازة قازة الوشك، إننا لننظر إلى قصد الفاعلي، لا إلى صورة الفعلي، الدم نجس ينجس لكثرة في حق الشهيد شهي " زملوهم بخلوهم^(١)، التوم مكروة بين الجلاسي، غير أنه في محل التهجد يتأهي بالتأيم في سجود الملايكة، فكذلك خلوف قم الطائيم مكروة في طبع الخلقي، مغيوب في شرع الحق.

يا موسى! عذ إلى صومعة صومك، لينبت ريش فرخ التهجد في عش عرشي، لينتقم تمام يندوب بذك في ليلة المنام، فتشبه أباك في تكميل تخمين طيبته أربعين صباحا، فرجع عاكفا على تعتكف كف كفو، ﴿لَتَمَّ يَمَلُّ رَوْي﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فلما أتمها ألفى همة بمن خلف خلفه على خلف: ﴿أفلقني﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وأخضر حتى خضر حظيرة القدس، فنسي الأيس لما أين من الإسي.

[اليسط]

فحل شيء زاة علة قذحا وحل شخص زاة علة السابقي
لما دارت في دائرة دار القرب كؤوس الحب، وسمع النداء وسط النادي

(١) انظر: صحيح البخاري ١٩/٣ المطبعة العثمانية، من النسا ٦٤/٤، تحلة الأحمدي ١٢٦/٤، مستد أحمد ٤٣١/٥، المستدر ٣٦٦/١، بدائع المعن ٢١٠/١، فيض القدير ٦٥/٤، نيل الأوطار ٣٢/٤.

بلا واسطة وسيط، وسيط له في أفداح النسي في المناجاة بلا وسيط، فطاب له شراب الوصال من أوطاب الخطاب في أواني سماع الكلام، ناداه تَوَلَّى تَوَلَّى: ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ﴾ [الفصص: ٣٠].

[الوافر]

أَوَانٍ أُنْتُ فِي قَلْبِ الْأَوَانِ عَنْ الرِّاحِ السَّوَوِي فِي الْأَوَانِي
فلما حاجت بشئ العزم في غابة الطلب، فَمَتَّعَ سَخَابَ الشَّوْقِ فِي مَتْنِهِ
الرَّجَاءَ لَهْتِي، لَصَّاحَ لِسَانِ التَّوَجُّدِ: ﴿أَرْنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لَمَزَّةَ شَارِدِ
شَحْدَانِ التَّوَقُّعِ عَلَى الْغَلْوِي بِطُوفٍ: ﴿لَنْ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، غَيْرَ أَنَّهُ سَكَنَ
جَزَعِ قَطَامِهِ بِشِعْلَةٍ: ﴿وَلَكِنْ نَظَرُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قَلَمًا تَجَلَّى جَلَّ جَلَالُهُ
لِلجَلِيلِ سَاحٍ بِقَسْرِ: ﴿جَعَلَكُمُ دَكَّاءَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَأَصَابَ سَهْمُ سَهْمِ
مُوسَى جَلْجَالَ قَلْبِهِ، فَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ فَقَلْبُهُ فَحِينَ ذَاكَ الْجَبَلُ وَرَمَزَ خُرُّهُ فِي بَحْرِ
الضَّعْفِ قَرَفًا قَرَفًا فَرَفَى فَرَفَةً: ﴿شَكَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يَا مُوسَى: لَا تَتَعَدَّى
طُورَكَ، فَتَطْلُبَ مَالَ غَيْرِكَ، أَلَمْ نَسْمَعْ فِي كَلَامِي الْقَدِيمِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ
الْكَافِرِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فَلَوْ شَاهَدْتَ جَرِيحَ الشَّوْقِ بِخَدِّ حَدِيدَةِ الْخَدِّ،
لَعَايَنْتَ قَتِيلًا عَلَى سَيْفِ الرَّدِّ بِسَيْفِ (سوف)، وَلَوْ أَصْغَيْتَ إِلَى أُنَيْنٍ صَرِيحِ
الْحُبِّ مِنْ وَرَاءِ سُرَادِي الْأَمَلِ، لَفَهَمْتَ مِنْ لَفْلَقَةٍ لَقَلْبِي قَلْقَهُ الْمُقْلَقِلِ بَيْتَ الْبَلِّ،
فَكَانَ بَعْدُ بِطُوفٍ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: مَنْ يَحْتَلِنِي وَسَائَةً إِلَى رَبِّي، مَا كَانَ سُرَادَةً
إِلَّا أَنْ يَقُولَ الْحَدِيثُ مَعَ الْخَبِيرِ.

[العلويل]

قُلْتُ لَمْ تَرُ الْحَبِيثَ الَّذِي انْقَضَى فَيُشْرَاكَ مِنْ ذَاكَ الْحَبِيثِ أَرِيذُ
يُجْعَدُ يَدْعَاكَ الْحَبِيثَ سَوْدَوِي فَيُشْرَاكَ مِنْ ذَاكَ الْحَبِيثِ بِجَوِيدُ
أَتَانِيَهُ إِلَّا أَعَادَ خَبِيرَهُ ثَانِي يَطِيءُ الْقَهْمَ جَمِيعُ مُعِيدُ
مَاتَ مُوسَى يَوْمَ مَاتَ قَتِيلَ شَوْقٍ (أَرْنِي) لَا يَسْتَطِيعُ غُصَّةَ (لَنْ)، فَلَمَّا
كَانَتْ لَيْلَةُ الْمَعْرَاجِ، جَازَ عَلَيْهِ نَبِيُّنَا، فَأَجَازَ عَلَيْهِ نَصْلَ ذِكْرِ الْوَصْلِ فَأَلْقَاهُ كَالْقَاءِ
عَلَى حَرْنِ الْخُرْنِ مُسَيَّلًا دَمَوَعِ الْأَسَى عَلَى خَدِّ الْأَسَفِ، فَقِيلَ: مَا لَكَ يَا
مُوسَى؟ فَأَجَابَ لِسَانُ غَيْرِهِ شَابُّ بُوعَ بَعْدِي، قَلَمًا رَجَعَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ مِنْ سَفَرٍ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ [النجم: ٩] جَعَلَ يَرْقُةً فِي السَّلَوَاتِ لِيَسْعَدَ بِرُؤْيَا مَنْ قَدْ رَأَى.

[المنسرح]

إِنْ تَشَقَّ عَيْنِي بِحُجْمٍ فَقَدْ سَعِدْتُ عَيْنُ رَسُولِي وَفُرَّتْ بِالسُّطْرِ
وَكُلَّمَا جَاءَنِي الرَّسُولُ بِهِمْ وَفُتَّتْ شَوْقًا فِي ظَرْفِي بِضَرْي
تُظْهِرُ فِي ظَرْفِي مَخَابِلَهُمْ قَدْ أَثَرَتْ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَثَرِ
عُذَّ مُلْكِي بِمَا رَسُولُ عَارِيَةٍ فَاُنْظُرْ بِهَا وَاحْتَكِمْ عَلَى بَضْرِي
فَإِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ قَامَ فَتَعْلُقُ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ مُلَازِمًا بِأَبِ الطَّيِّبِ، يَرُومُ
دَوَاءَ دَاءِ (لَنْ)، وَكَيْفَ لَا يَسَابِقُ إِلَى الطَّيِّبِ مَنْ أَلَمَ أَلَمَ الشَّعْبِ بِقَلْبِهِ، وَأَثَرُ جَرَحِ
نَضْلِ (لَنْ) فِي عَيْنِهِ.

الفصل الرابع والخمسون

في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْنِي فِيمَا مَأْتَلَكَ اللَّهُ
الَّذَارُ الْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٧٧]

هذه الآية موعظة للمؤمنين من قوم قارون، ولقد كان غاية في فقه فهمه، وكان في التشبُّب إلى موسى ابن عمِّه، فلما فاضت الدنيا عليه فاضت نفسُ جليوه، وكانت مقاليدُ خزائن بقاءه وقرَّ ستينَ بَغْلًا، غير أنَّ الذي فاتَه بما ناله أغلى وأغلى، فخبِرَ المذلَّال ذيلَ البُغي، فقام نحوه قومه قومةً يزجر: ﴿لَا تَخْرُجْ﴾ [القصص: ٧٦]، وألقوا نصائح: ﴿وَاتَّبَعْنِي﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿وَلَا تُفَكِّ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ [القصص: ٧٧]، فوقر الوقر في سم سمعه، فطلق لسان جهله بلفظ: ﴿لَمَّا أُوتِيتُمْ﴾ [القصص: ٧٨]، فجادله مَنْ جَادَ لَهُ بِاحتجاج ﴿أَلَمْ يَكُنْ﴾ [القصص: ٧٨]، فركب يومًا في وقت اقتداره في أربعة ألف مُقاتل، وَسُمُّ الهَوَى يعملُ معه في المُقاتِل، وَرَكِبَ معه في مَعْشَرِهِ ثَلَاثُ مَائَةٍ جارية، وقد أنساه سَفَهُ الأمل أن سقينة الأجل جارية، فنهاقت الجُهَّالُ مُدَّ نَضَبِ فُحٍّ: ﴿لَخَرَجَ﴾ [القصص: ٧٩]، وجعلوا يلتقطون بأنامل حُبِّ الدنيا حَبَّ: ﴿يَتَلَقَّتْ لَنَا﴾ [القصص: ٧٩]، والسالمون من شرك الهوى يَهْتَفُونَ بِدَلَا من نوى: ﴿وَلَيْسَ كُنْزُكُمْ فِئَةً مَوْجِدَةً﴾ [القصص: ٨٠]، فلما طُلَّ في نَفْسِهِ العُلُوُّ حَطَّةً حَطَّةً إلى حفيض: ﴿فَهَنَّاكَ يَهْمُ﴾ [القصص: ٨١]، فقال الجُهَّالُ: إنما نادى موسى تَابِرَتْهُ لِأَخِي بِذُرَّةٍ بِدَارِهِ، فقال حاكم الغيب لإزالة الرُّيْبِ ﴿وَيَكْفُرُوا﴾ [القصص: ٨١].

قال موسى: يا أرضُ حُفِيٍّ، فاستجبت لأمره، فَسَرَتْ بِسِرِّهِ، فَتَأَسَّدَتْ قَارُونُ بِالرَّجْمِ فَمَا رَجِمَ، ثُمَّ عَادَ يَمُودُ فِي إِعَادَةِ حُفِيٍّ، فَأَخَذَتْهُ لَتَقْدِيرُهُ حَتَّى

غَيَّبَتْ قَدَمَيْهِ، لما زال يُرَدِّدُ القول على الغيبي حتى غَابَ، وإنه ليخسف به كلَّ يوم مقدارَ قامةٍ، فلا يظُنُّ دَمَ الجِزَاءِ قَدْ رَفَى مِنْهُ، فَيَتَرَقَّى فَرِيقَ فَرَقِهِ ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ يَمِينٍ﴾ [الفصص: ٨١]، فَأَفَاقَ ظَالِمُو الدُّنْيَا مِنْ خُصَمَائِ الْهَوَى إِذْ هَوَى بِالرُّسْمِ وَرَيْسِهِمْ، قَتَلْتَهُمْ عَلَى الْاِغْتِرَارِ بِزِينَةِ، فَنَادَوْا فِي أُنْدِيَةِ النَّدَمِ: ﴿قَوْلًا لَّنْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [الفصص: ٨٢]، فَحَكَّمَتْ حُكْمُ الْحَكِيمَةِ يَتَلَوُ فَضْلَ الْحُكْمِ: ﴿يَلَهُ الْأَذْرُ الْآخِرَةُ بِحُكْمَانَا﴾ [الفصص: ٨٣]، فَمَا مِنْ كَلِمَةٍ جَدِبَتْ عَنْ لَهْوِهِ وَرَسَبَ، هَذَا بَرِيدُ الْمَوْتِ لَكَ فِي الطَّلَبِ، يَادِرُ قَبْلَ الْمَوْتِ، فَإِنَّ الزَّمَانَ قَدْ ذَعَبَ، وَهُوَ مُوَهَّبٌ مُعَيَّرٌ وَيُسْتَرْجَعُ غَوَارِيهِ وَمَا وَهَبَ.

أَمِنْ الْجَامِعِ السَّامِعِ لِلذَّعْبِ ذَعَبَ، أَيِ تَقَاوَى الْأَفْعَالُ قُلْ لِي مِنْ حُلْبِ، أَمَا اسْتَلْبِ بِحَقِّ السَّلْبِ وَأَخْذِ السَّلْبِ، أَمَا كَسَرَةُ الْمَوْتِ كَالْجَسَرَةِ وَغَيْبُ فِي الثَّرَابِ، يَا مُعْرِضًا غَنًا عَنْكَ الثَّعْبُ، يَا حَاجِرًا طَاعَتَنَا إِلَى كَمِ ذَا الْعُصْبِ، يَا مُضْعِفَةً، يَا عَافِيَةً، خُذْ مِنَّا هَذَا النَّسْبِ، يَا مُؤَيِّرًا غَيْرِنَا بِعَثِ الدُّرِّ بِالنَّحْسِ، إِنَّمَا الدُّنْيَا حُلْمٌ نَائِمٌ، وَقَائِلَةٌ زَائِدٌ، وَمُعَيِّرٌ مُغْتَبِرٌ، وَحُجْرَتٌ مُسْتَعْبِرٌ، نَالِلُو مَا أَهْجَبَ بِسَائِلِهَا مِنْ نَظَرٍ فِي مَائِلِهَا، وَلَا بَنَى تَصَوُّرَهَا مِنْ عَرَفَ غُرُورَهَا، وَلَا مَدَّ بَنَاحَ الْأَمَلِ وَشَرَى بِهَا مِنْ تَذَكُّرٍ مَرَّ شَرَابِهَا، إِنَّمَا إِذَا طَلَعَتْ عَلَى الطَّغَامِ تَطْعَنُ، وَإِذَا بَنَى بِتَحَاسُهَا عَلَى الْعَفَافِ تَبْغِي، وَإِنَّمَا لِنَقْصِدُ هَلَاكَ مُجِيبَهَا وَتَبْغِي، وَكَمْ عَدَلْتُ فِي فَتْكِهَا الْغَنَى الْغَنَى وَتَلْغِي، فَلَمَّا دَرَّ دَرُّهَا فَعَرَّتْ، وَلَمَّا فَرَعَتْ فَعَرَّتْ قَائِلًا فَرَعَتْ، أَمَا سَحَبَتْ قُرُونٌ قَارُونٌ مَعَ الْفَرَائِيهِ إِلَى الْفَرَائِيهِ فِي قُرُونٍ، أَمَا عَفَفَتْ بِحَقِّهَا كَفَتْ مَخْطُوبِ حُبِّهَا، فَأَرْنُوكَ فَرٌّ مَا يَكُونُ بِكَ فِي كَفْنٍ، نَالِلُو لَقْدَ لَقِينِ الْغَيْبِيِّ الْبَغْيِي عِبَّ لِبَاوِيهِ، فَلَمَّا انْجَلَى غَيْبُ غَيْبٍ وَرَأَى الْغَيْبِ وَالْغَيْبِ، يَا أَلْبَاهَا الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ الْمَتَّحِ مِنْ زَفَادِ الْغَفْلَةِ غَيْبَتِكَ، وَلَا تَنْظُرْ مَالِكَ وَالنَّظَرُ مَالِكَ، وَضَعَ عَلَى الْأَرْضِ حُلْبَتِكَ، وَانْظُرْ بِإِخْرَاجِ مَا فِي بَيْتِكَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ، وَقُمْ إِلَى عَطَاءِ الْفَقِيرِ بِقَدَمَيْكَ، قَبْلَ أَنْ تَلْحَقَ فِي طَرِيقِ الْقَدَمِ بِأَبْوَيْكَ، ﴿وَأَتَيْنَ صَكًّا أَمَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [الفصص: ٧٧]، كَمْ عَدَلْتُ مَرِيضًا بِحَقِّكَ، وَرَأَيْتَ مَيِّتًا بِعَيْنَيْكَ، وَبِكَ اخْتَلَفَ مَا لَدَيْكَ، يَا مَنْ جَاءَ لِلتَّضَعِ إِلَيْنَا قَدْ أَذَيْنَا مِنْ تَضَجِّحِ دُنْيَا، هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي عَلَيْنَا، يَكْفِي الْفِعْلُ عَلَيْكَ.

الفصل الخامس والخمسون

في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ [الروم: ٤٨]

قال ابن عباس: (الرِّيحُ ثَمَانِيَةٌ: أَرْبَعٌ رَحْمَةٌ، وَأَرْبَعٌ عَذَابٌ: فَالرَّحْمَةُ: الْمُنْفِرَاتُ، وَالْمُنْفِرَاتُ، وَالْمُرْسِلَاتُ، وَالرَّحَاءُ، وَالْعَذَابُ: الْغَاصِقُ، وَالْغَاصِقُ وَهُمَا فِي الْبَحْرِ، وَالْعَقِيمُ وَالضَّرَضُ وَهُمَا فِي الْبَرِّ).

وقال عبيد بن عمير: يبعث الله تعالى ريحا فتقع الأرض، ثم يبعث الثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللوايح فتلقح الشجر. وقال ابن مسعود: (يبعث الله عز وجل الرياح لتلقيح السحاب، فتخيل الماء، فتسجد في السحاب، ثم تثرى به، فيدبر كما تدبر اللقحة).

قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]؛ أي: تزعجه، (لتبسطة) الله عز وجل في السماء ﴿كَفَّ بَنَاءَهُ﴾ [الروم: ٤٨]، إن شاء بسطة مسيرة يوم أو يومين، أو أقل أو أكثر، ﴿وَيَعْمَلُهُ كَيْفًا﴾ [الروم: ٤٨]؛ أي: يقطعها متفرقا، ﴿فَتَرَى الْوَدَّاعَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَابِهِ﴾ [الروم: ٤٨]، وهو المظهر، والخلال: جمع خلل، مثل: جنال وجبلي.

وقال كعب: (السحاب غربال المظهر، لولا السحاب لالتد ما على الأرض).

وقال جرير: ينزل الله عز وجل الماء من السماء السابعة، فتقع القطرة منه على السحاب مثل البعير.

وقال ابن عباس: (المظهر مزاجه من الجنة، فإذا كثرت المزاج عظمت البرقة وإن قل المظهر، وإن قل المزاج قلت البرقة وإن كثرت المظهر، وإذا جاء المظهر من السماء فتلحت له الأضداد فكان لأولو، فسيحان من يرسل الرياح بالفساد والصلاح، تارة تهب هيبا، وتارة تهب خيرا عيبا، أما سيعتها تغني

لسان الخفيف بين الثَّقِيلِ والخَفِيفِ، فَتَضَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَعْضَانِ الْأَشْجَارِ، وَتَرْفُصُ الشُّعْرُ عَلَى لِقَاعِ الْأَمْوَاجِ فِي الْبَحَارِ، فَإِذَا بُعِكَ بِهَا الْغَمَامُ سَدَلَتْ دَكْنُ الْغَمَامِ، فَإِذَا الْبَرَقُ قَدْ جَاءَ فَطَبَّقَ الْأَرْجَاءَ، فَكُلَّمَا تَرْتَمَّ بِغَمَامَةٍ نَقْدَ نَظْمٍ لِسَانِ الْبَرَقِ فِي لَهَوَاتِهِ، أَمَا رَأَيْتَ كَيْفَ اتَّحَلَّ الْمَاءُ الْمُنْجَلُ: ﴿وَقَوِّزَ فِي الْتَرَوِّ﴾ [سيا: ١١]، ثُمَّ عَنِ اللَّيْزِ قَلْبَ اللَّيْزِ، فَالَسَّمَاءُ تَبْكِي بِكَلَامِ الْمَشُوقِ وَالْأَرْضُ تَضْحَكُ ضَحْكَ الْمَشُوقِ، وَالطَّيْرُ تُجَابِبُ بِغَرَابِ شِدْوَعِهَا، وَالْقُلُوبُ تَذْكُرُ عَجَائِبَ شُجُوْعِهَا، وَالْعُذْرَانُ قَدْ ضَلَّتِ الشَّمَالُ بِرَأَتْهَا وَطَرَحَتْ عَنْ غَيْبِهَا قَلَابَتَهَا، إِذَا أُنَارَتْ طَرِيقَ الْبَرَقِ صَاخَ أَمِيرُ الرَّغْدِ بِخُذِّ الظُّرَى، فَكَامَتْ صَفُوفُ صُنُوفِ النَّبَاتِ فِي ثِيَابِ الثَّبَاتِ، مَشُوجَةُ الْجِلْدِ بِوُثْيِ الْأَلْوَانِ، تُنَادِي بِلِسَانِ الْأَعْيَابِ: (سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مِنْهُ ثُبْتُ الْأَرْضِ)، وَقَامَ عَطِيبُ الْأَعْيَابِ بِخَطِيبَةٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الرِّجَالُ لَا تَمُوتُوا﴾ [الواقعة: ٦٤]، ﴿يَا صَكَاتُ كُفْرٍ أَلْ تَهْتَرُ شَجَرَةً﴾ [النمل: ٦٠].

قال الأصمعي: سئل أعرابي عن مطر، فقال: استقبلتُ سُدَّ مع انتشار الطفل، فَتَضَاعَ وَأَجْزَأَ، ثُمَّ انْخَفَرَتْ أَرْجَاؤُهُ، وَاحْتَوَمَتْ أَرْجَاؤُهُ، وَابْدَأَتْ قَوَارِفُهُ، وَتَضَاعَكَتْ بَوَارِفُهُ، وَاسْتَظْلَزَ وَادِفُهُ، وَارْتَفَعَتْ جَوْنُهُ، وَارْتَفَعَتْ هَيْبَتُهُ، وَخَشَعَتْ أَهْلَانُهُ، وَاسْتَظْلَكَ أَوْدَانُهُ، وَانْتَفَرَتْ أَهْنَانُهُ، فَالْزَّهْدُ مُرْتَجِسٌ، وَالْمَاءُ مُتَبَجِّسٌ، فَأَلْزَعَ الْعُذْرُ، وَأَثْبَتَ الْوُجْهُ، وَأَحْلَلَطَ الْأَوْعَالُ بِالْأَجَالِ، وَفَرَزَ الصَّبْرَانُ بِالرَّوَالِ، فَالْأَوْدِيَةُ خَبِيرٌ، وَالشَّرَاجُ خَبِيرٌ، وَالشَّلَاغُ زَفِيرٌ، وَحَطَّ النَّبْعُ وَالْعُثْمُ مِنَ الثَّلْثِ الشَّمُ إِلَى الْيَقِيَانِ الشَّمُ، فَلَمْ يَبْقَ فِي الْقَلْبِ إِلَّا بَعْضُ مَخْرَجَتِهِمْ، أَوْ خَضِرَ مُخْرَجَتِهِمْ، وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ.

قال الأصمعي: سألت أعرابياً عن مطر أصاب بلادهم، فقال: نَشَأَ عَارِضًا، وَطَلَعَ نَاهِضًا، ثُمَّ انْتَسَمَ وَابِضًا، فَأَعْيَنَ فِي الْأَقْطَارِ فَأَشْجَاهَا، وَامْتَدَّ فِي الْأَفَاقِ فَتَقَطَّاهَا، ثُمَّ ارْتَجَزَ فَهَمَّهَمَ، ثُمَّ ذَوَى فَأَغْلَمَ، فَأَرَكَ وَدَكَّ وَتَفَشَّ، ثُمَّ قَطَطَ فَأَقْرَطَ، ثُمَّ دِيمَ فَأَغْطَمَ، ثُمَّ رَكَدَ فَأَنْجَمَ، ثُمَّ وَبَلَ فَسَجَمَ، فَجَاءَ فَأَنْعَمَ، فَغَمَرَ الرَّبِّيَّ، وَأَقْرَطَ الرَّبِّيَّ سَبْعًا بِنَاهَا، مَا يُرِيدُ انْقِشَاعَهَا، حَتَّى إِذَا ارْتَوَتْ

الْعَزَازُونَ، وَتَضَعُ حَبَّ السُّنُونُ، وَلَكِنْ سَافَةٌ زَيْتُكَ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ، فَمَا جَلَبَهُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ.

سُبْحَانَ مَنْ لَا يُخَيِّبُ مُؤَمِّلَهُ فِي آمَالِهِ، حَتَّى الْبِلَدِ الْفَقِيرِ إِذَا اسْتَكْبَرَ بِطَقِ حَالِهِ جَعَلَ الْجَوَابَ سَحَابًا مُخْلَوْلًا عَنْ سُؤَالِهِ، ﴿قَرَأَ الْقُرْآنَ يُخْرِجُ مِنَ بَطْنِهِ﴾ [الروم: ٤٨]، بَاتَ الثَّرَى بِجَدْبِهِ يَشْكُو مِنْ إِهْمَالِهِ، وَتَكَلَّمَ بِلِسَانِ خُشُوعِهِ لَا بِمُقَالِهِ، فَيَاذَرِ السَّحَابُ بِسُحُجِ فُضَاءِ أَصَالِهِ، فَضَاحَ الْحَرِّ لِيُثَبِّتَ خَوْفًا عَلَى أَطْفَالِهِ، فَتَهَيَّضَ السَّحَابُ يَتَّقِ عَلَيْهِ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ، فَيَدِرُ الْإِتْفَاقُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ بِوَكَالَةِ جَنُوبِهِ وَشِمَالِهِ، سَافَةٌ سَافَةٌ بِالْحَادِثِينَ إِلَى دَارِ انْتِهَالِهِ، فَإِذَا انْحَلَّ بِانْعِقَادِهِ، ضَاحَ الرِّعْدُ بِانْحِلَالِهِ، وَاسْتَدْرَجَهُ نَصَبًا عَنْ حَيْثُ قُوَّةِ عِيَالِهِ، أَسْرَعَ لِلْغِيَامِ فَعَمَّى شِدَّةً عَلَى أَغْفَالِهِ، ثُمَّ قَامَ يَتَضَكَّرُ فِي حَبْرِهِ وَوِصَالِهِ، قَرَأَ فُطْرَاتٍ، ثُمَّ وَقَفَ وَقُوفَ وَآلِهِ، فَغَطَّيْتُ الرِّعْدُ غَضَبَ الْوَالِي، وَقَالَ لِلْوَالَةِ وَالِهِ، فَالرِّعْدُ يَتَنَحَلَّحُ بِهِيْبَتِهِ وَيَنْطَلِقُ بِجَلَالِهِ، وَالْبَرْقُ يَخْطُرُ بِدُمُلُوجِهِ، وَيَهْتَبِي بِخُلُغَالِهِ، وَكَلِمَا رَاقِمَا السَّحَابِ أَطْلَقَ عَنْ عِقَالِهِ، وَتَفَرَّقَ فَرَقَ الْفَوَائِدِ مُفَضَّلًا عَنْ إِجْمَالِهِ، وَأَرْهَفَ الْبَرْقُ سَيْفَهُ فِي صَفِّ عِقَالِهِ، وَهَزَّ بِالْيَمَنِ لَتَخَوِيفَ وَآلِهِ، وَفَرَّقَ الْبَيْضَ بَيْنَ رِجَالِهِ وَرِجَالِهِ، فَبَكَى مِنْ خَوْفِهِ السَّحَابُ بِدَمْعِ سَلْسَالِهِ، أَحْسَنَ الثَّبْتَ بِالْقَطْرِ فَتَنَى عَنْ إِسْمَالِهِ، وَأَحَدَ يَشْرَبُ كَأَمَّنَ الرَّيَّ مُعْرِضًا عَنْ عَذَالِهِ، ثُمَّ تَهَيَّضَ مَتَمَايِلًا مِيلَ النَّشْوَانِ عَنْ جَرِيَالِهِ، وَخَرَجَ النَّبَاتُ فِي عَيْدِ الثَّبَاتِ لَهُ خَطَرَاتٍ وَوَلِيَّاتٍ بَزِي جَمَالِهِ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُ فِي تَطْوِيئِهِ وَجَلَالَةِ جَلَالِهِ مُعْجِبًا بِأَلْوَانِهِ وَارْتِفَاعِهِ فِي بَقَاعِ قَاعِ بَقَاعِهِ وَلِبَاقَةِ حَالِهِ، بِشَكَرٍ إِلَيْهَا أَرْسَلَ سَحَابًا لَمْ يَخْطُرُ مِثْلُهُ عَلَى بَالِهِ، فَتَرَى مَاءَ السَّحَابِ مَعْلُومٌ قَدْرَ مِثْقَالِهِ، فَإِذَا أَمْرُهُ السَّحَابِ أَمْرُهُ الشَّمَالِ بِإِعْزَالِهِ، وَإِنْ لَقِيتُ مِنْ فَضْلِ لَا غَايَةَ لِاتِّصَالِهِ، فَمَا لِحَاسِدِي وَمَالِي مَاذَا مِنْ مَالِي ذَا . . .

الفصل السادس والخمسون

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَلِخَشَايَمَا لَا يَجْرِيَ
وَالِدُ عَنْ وَلِيِّهِ﴾ [القمان، ٣٣]

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: "الإسلام غلاية،
والإيمان في القلب، ثم يُجِيرُ بِبَيْتِهِ إِلَى ضَرْبِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: التَّقْوَى
هَاجَتْ، التَّقْوَى هَاجَتْ"^(١)، هذا الحديث رواه أنس بن مالك خادم رسول
الله صلى الله عليه وسلم، وجُمِلَ ما روى أَلْفِي حديث ومائتي حديث وستة
وثمانين حديثًا، أُخْرِجَ له منها في "الصحاحين" ثلاث مائة وثمانية عشر
حديثًا، المتفق عليه منها ثمانية وستون حديثًا، وانفرد البخاريُّ بثمانين، ومُسَلَّمٌ
بشعين.

في الصحابة عشرة كلهم اسمه أنس، وجُمِلَ من يجيء في الحديث اسمه
أنس بن مالك خمسة هذا أحدهم، الثاني: أنس بن مالك القشيري، الثالث:
أنس بن مالك والد مالك الفقيه، الرابع: حمصي، الخامس: كوفي.

(١) أخرجه أحمد (١٣٤/٣)، رقم (١٧٤٠٤)، وأبو يعلى (٣٠١/٥)، رقم (٢٩٢٣). وأخرجه
أيضًا: ابن أبي شيبة (١٥٩/٦) رقم (٣٠٣١٩)، والديلمي (١١٥/١)، رقم (٣٩٣)، وابن
حبان في الضعفاء (١١١/٢) ترجمة (٦٨٨). قال الهيثمي (٥٢/١): رواه أحمد،
وأبو يعلى، والبخاري، ورجال رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة، وقد وثقه ابن
حبان، وأبو داود الطيالسي، وأبو حاتم، وابن معين، وضعفه آخرون. قال المناوي (٣/)
(١٧٩): قال عبد الحق: حديث غير محفوظ لقوله به علي بن مسعدة، وفي توثيقه خلف
قال أبو حاتم: لا بأس به، وقال البخاري: فيه نظر، وقال ابن عدي: أحاديثه غير
محفوظة.

وقال صلوات الله عليه: * مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَهْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ ^(١).
وقال عمر رضي الله عنه لكعب: (خُذْنِي عَنِ التَّقْوَى، فَقَالَ: هَلْ أَخَذْتُ
طَرِيقًا ذَا شَوْكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا حَبِلَتْ فِيهِ؟ قَالَ: خَذَرْتُ وَشَقَرْتُ، قَالَ:
كَذَلِكَ التَّقْوَى).

وقال الحسن: ما زالتِ التَّقْوَى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال
مخافة الخِزَام، وَأَنَاءُ يَوْمًا فَرَّقَهُ السَّبِيحُ فَأَخَذَ الْحَسَنُ تَلْبِيَهُ، وَقَالَ: يَا ابْنَ أُمِّ
فُرَيْقِدٍ! لَيْسَ التَّقْوَى فِي هَذَا الْكِسَاءِ، وَإِنَّمَا التَّقْوَى مَا وَقَرَّ فِي الصَّدْرِ وَضَدَّقَهُ
الْعَمَلُ.

وقال وَهَبُ: الْإِيمَانُ عُرْيَانٌ، وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى، وَزِينَتُهُ الْحَيَاءُ، وَمَالُهُ الْفَقْرُ.
وقال ميمونُ بن بهزَّانَ: لَا يَكُونُ التَّقْوَى مُتَّقِيًا حَتَّى يَكُونَ أَشَدَّ مَخَافَةً مِمَّا
يَتَّقِيهِ مِنَ الشَّرِّكَ لِشَرِّكَهِ.

وقال بشرُّ: سَأَلْتُ سَعْدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ مَنْ أَفْقَهُ أَهْلُ النَّبِيَّةِ؟ فَقَالَ: أَفْقَاهُمْ.
وقال الحجاجُ بن أَرْطَاةَ لِسَوَّادٍ: أَهْلَكُنِي حُبُّ الشَّرِّفِ، فَقَالَ: إِنْ أَفْقَيْتَ
اللَّهَ شَرَّفْتَ.

وكان شيخٌ بدويٌّ في السَّجَالِسِ يَقُولُ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَدُومَ لَهُ الْعَافِيَةُ فَلْيَتَّقِ
اللَّهَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَكَّيْنَاهُ وَلَقَدْ عَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَا يُحِزُّ وَيَدُّ عَنْ يَدَيْهِ﴾ [الفصاح: ٣٣]، أي:
لا يقضي عنه شيئًا من جنابه.

قال ابن قتيبة: (حَزَى يَحْزِي: أَيُ: قَضَى يَقْضِي، وَأَحْزَى: غَضَى).

(١) أخرجه الطبراني (١٠/٣٢٠، رقم ١٠٧٨١) قال الهيثمي (٥٩/٨): فيه هشام بن زياد
أبو المقدم، وهو مشرّك. والعجلي (١/٣٤٠، ترجمة ١٩٤٦ هشام بن زياد بن سعدويه)
وقال: ليس لهذا الحديث طريق يثبت. والحاكم (٤/٣٠١، رقم ٧٧٠٧) وقال: صحيح.
قال الذهبي: هشام مشرّك ومحمد بن معاوية كذبه الدارقطني بطل الحديث. والبيهقي
(٧/٢٧٢، رقم ١٤٣٦٥) وقال: وروى ذلك أيضًا عن هشام بن زياد أبي المقدم عن
محمد بن كعب، وروى من وجه آخر منقطع عن محمد بن كعب ولم يثبت في ذلك
إسناد. وابن عساكر (٥٥/١٢٢).

قال الحسن: تتعلق الوالدَةُ بولدها، فتقول: يا بُنَيَّ! أَلَمْ يَكْ جُبَّري لَكَ وطاء؟ أَلَمْ يَكْ قُذبي لَكَ بقاء؟ أحمل عني خطيئة، فيقول: إِنَّكَ عَنِّي، فلي في نفسي شغل.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَلْهَيْتُمُ﴾ [لقمان: ٢٣].

كان مالك بن دينار يقول: اتَّقُوا الشَّارَةَ، فَإِنَّهَا تَسْحَرُ قُلُوبَ الْمُتَمَنِّينَ. وكان يحيى بن معاذ يقول: الدُّنْيَا حُمْرُ الشَّيْطَانِ، مَنْ سَكَّرَ بِهَا لَمْ يَلْقُ إِلَّا فِي عَشْكِ الْمَوْتِ نَادِمًا بَيْنَ الْخَابِرِينَ.

دخلوا على رجلٍ عند موته، فقال لهم: سَحَرْتَنِي الدُّنْيَا حَتَّى أَذْغَبْتُ أَهْمِي.

إخواني! الدنيا ظِلٌّ زَائِلٌ، وَخَلْمٌ نَامٍ، وَعَسَلٌ تَشَوَّبَ بِشَمٍّ، وَفَرْخٌ مَوْصُولٌ بِعَمٍّ، تُوَيْسٌ مِنْ تُوَيْسٍ، تَشَوَّبَ نَعِيمُهَا بِهَوَسٍ، وَتَفَرَّدَ سُعُودُهَا بِهَوَسٍ، وَتَخَلَّطَ خُلُوقُهَا بِهَمٍّ، وَتَمَزَّجَ نَفْسُهَا بِهَمٍّ، طَالِبُهَا يَذَلُّ، وَارْتَبُهَا يَزَلُّ، إِنَّهَا لَشَبَكَةٌ مَنْصُوبَةٌ فِي خَدِيعَةِ الْهَوَى، تَحْوِي مَنْ دَخَلَ فِيهَا، وَتَجُوزُ مَنْ عَدَلَ عَنْهَا، فَإِنْ قَنَلَتْ لَمْ يَخُذْ عَلَيْهَا، مَنْ خَالَجَ حُبَّهَا قَلْبًا تَأْجِجُ الْقَلْبُ كَرَمًا، إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَخْبَرَتْكُمْ بِمُحِبِّهَا وَمَا اعْتَدَتْ إِلَى شَخْصٍ مِنْ ذُنُوبِهَا، وَأَرْتَكَمَ مِنْ شَمْسِ غُرُوبِهَا بَيْنَ ظُلُومِهَا وَغُرُوبِهَا، وَأَشْهَدَتْكُمْ حَالَكُمْ بِحَالٍ مَنْ قَبْلَكُمْ فَاعْتَبَرُوا بِهَا.

إنما الدنيا رَقْدَةٌ عَيْنٍ أَرَعَجَتْ حِينَ أَعْمَضَتْ، وَلِلدُّنْيَا نَفْسٌ حِينَ قَضَيْتَهَا قَضَيْتَ، وَتَرُوقُ آمَالُ أَمْضَتْ إِذَا وَتَضَتْ، الرَّابِعُ فِيهَا مِنَ الرِّخَاءِ خَاسِرٌ، وَالْغَضُّ إِذَا أَزَكَى فِي يَدِ الْكَاسِرِ، وَصَاحِبُ الْمَالِ الْمُدَثِّرِ عَنْ قَلِيلِ دَائِرٍ، عَثَرَتْ وَمَا أَقَالَتْ وَلَا قَالَتْ لَعَا لِعَاثِرٍ.

كَمْ أُنْزِلَتْ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَى مَقَامِ الْمَمْلُوكِ، بَيْنَا تَرَى نُصْرَةَ بَدْرٍ أَظْهَرَتْ نُصْرَةَ بَيْرُكٍ، أُنْزِلَتْ وَاللَّوْ مَا آدَمَ بَادَمَ، وَمَدَّتْ شَتَنُ يَدِ الشَّتِّ إِلَى شَيْتٍ، وَقَابَلَتْ بِالْتَلَفِ قَابِيلَ وَمَا هَابَتْ هَيْبَةُ هَابِيلَ، وَنَاحَتْ نُوحُ الْبَيَاتِ فِي بَيْتِ نُوحٍ، وَهَادَتْ بِالْهَلَاكِ عَلَى عَادٍ، وَتَمَلَّتْ مِنْ دَمٍ ثَمُودَ، وَاسْتَلَيْتْ سَلْبَ النَّمْرِ نَمْرُودَ، وَمَا قَرَّ إِذَا

فَرَأَتْ فِرْعَوْنُ، وَمَا نَفَعَ مِنْ هَامِ هَامَانَ، وَلَا رَدَّتْ عَنْ وَقَارِ قَارُونَ، وَلَقَدْ عَسَرَتْ
كَأَكْثَرِةٍ بَشَرِي، وَمَا فَضَرَتْ فِي تَخْرِيبِ قُضْرٍ قُضْرًا، وَأَتَمَّتْ بِالْهَلَاكِ نَجْعًا، وَمَا
سَلِمَ مِنْهَا شَيْئَانٌ.

[مجزوءه الكامل]

أَرْضَاكَ رَبُّكَ بِالشُّقَى وَأُولَى الشُّهَى أَوْضَوْا مَعَهُ
فَاخْتَرُوا لِنَفْسِكَ طُورًا دَفَا رُبَّكَ مَسْجِدًا أَوْ مَوْمِنَةً

الفصل السابع والخمسون

في قوله تعالى: ﴿نَسْأَلُكَ جُثُوثَهُمْ عَنِ الصَّائِحِ﴾

[السجدة، ١٦]

روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم: * ﴿نَسْأَلُكَ جُثُوثَهُمْ عَنِ الصَّائِحِ﴾ [السجدة: ١٦]، قال: يَوْمَ الْقَبْرِ مِنَ اللَّيْلِ^(١).

وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: * عَجِبْتُ رَبَّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ، رَجُلٍ تَارَعَ وَطْأَيْهِ وَلِخَافِهِ مِنْ بَيْنِ جَبَلٍ وَأَقْبَلُو إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ رَبَّنَا: يَا مَلَايِكَتِي! انظُرُوا إِلَى عُنْدِي، تَارَعَ مِنْ فَرَاشِهِ وَوُطْأَيْهِ مِنْ بَيْنِ جَبَلٍ وَأَقْبَلُو إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً بِمَا عِنْدِي، وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَنْهَزُوا، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْقَرَارِ، وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أَهْرَيْتَ دَمَهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَايِكَتِهِ: انظُرُوا إِلَى عُنْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً بِمَا عِنْدِي حَتَّى أَهْرَيْتَ دَمَهُ^(٢).

وفي * الصحيحين * من حديث الآخر، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: * يَتَرَدَّدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْقُضَ ثَلَاثَ اللَّيْلِ الْأَجْبَرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَذْهَبُونِي أَسْتَجِيبُ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيهِ، مَنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٥)، رقم (٢٢٠٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤١٦/١)، رقم (٣٩٤٩)، والطبراني (١٧٩/١٠)، رقم (١٠٣٨٣)، وابن حبان (٢٩٧/٦)، رقم (٢٥٥٧)، والحاكم (١٢٣/٢)، رقم (٢٥٣١) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي (١٦٤/٩)، رقم (١٨٣٠٥). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (١٧٩/٩)، رقم (٥٢٧٢).

يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ^(١)، هذا الآخر اسمه سليمان، وليس بالآخر أبي مسلم، وكلاهما يروي عن أبي هريرة، وقد يروي رجلان أو رجال يتساوي أسماؤهم عن رجل واحد، ولا يعرف هذا الراوي من هذا إلا محكم النقد في العلم، مثاله ما روى عطاء عن أبي هريرة، قال: (في كل صلاة قراءة، فما أسمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعناكم، وما أخفى علينا أخفينا عليكم).

وروى عطاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 « إِذَا أُقِيِمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا صَلَاةَ إِلَّا الْمُكْتَبَةُ^(٢) ».

وروى عطاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 « إِذَا مَضَى ثَلَاثُ اللَّيْلِ هَبَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: أَلَا قَاعٍ يُجَابُ، أَلَا سَائِلٌ يُعْطَى، أَلَا مُذْنِبٌ يَسْتَغْفِرُ لِيَغْفِرَ لَهُ^(٣) ».

وروى عطاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 « لَا يَخْتُمِعُ حُبُّ مَوْلَايَ الْأَزْنَعَةِ إِلَّا فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ رَضَوْنِ اللَّهَ عَلَيْهِمْ^(٤) ».

عطاء الأول: هو ابن أبي رباح، الثاني: عطاء بن يمين، الثالث: ابن يسار، الرابع: مولى أم ضبيّة، الخامس: الخُرّاساني.

ومثل هذا ما رَوَتْ عُمَرَةُ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (لو أن

(١) أخرجه البخاري (١/٣٨٤، رقم ١٠٩٤)، ومسلم (١/٥٢١، رقم ٧٥٨) وأبو داود (٢/٣٤، رقم ١٣١٥)، والترمذي (٥/٥٢٦، رقم ٣٤٩٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/٤٣٥، رقم ١٣٦٦). وأخرجه أيضًا: عبد الله بن أحمد في السنة (٢/٤٨٠، رقم ١١٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (١/٤٩٣، رقم ٧١٠)، وأبو داود (٢/٢٢، رقم ١٦٦٦)، والترمذي (٢/٢٨٢، رقم ٤٢١)، والنسائي (٢/١١٦، رقم ٨٦٤)، وابن ماجه (١/٣٦٤، رقم ١١٤١).

(٣) أخرجه أحمد (١/١٢٠، رقم ٩٦٧)، والخطيب (٤/٢٥٥، ترجمة ١٩٩١). قال الهيثمي (١٠/١٥٤): رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، ورجالهما ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع.

(٤) أخرجه ابن عساکر (٣٩/١٢٨).

رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ما أحدث النساء لمتعهن المسجد كما منعه نساء بني إسرائيل).

وروت عمرة أنها دخلت مع أمها على عائشة رضي الله عنها، فسألنها: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الفرار من الطاعون، قالت: سمعته يقول: «تَأْتِيكَمُ مِنَ الرُّخْبِ»^(١).

وروت عمرة، قالت: خرجت مع عائشة رضي الله عنها سنة قُتِلَ عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فمرونا بالمدينة، ورأينا المصحف الذي قُتِلَ وهو في حجره، فكانت أول قِطْرَةٍ قَطَرَتْ منه على هذه الآية: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، قالت عمرة: فما مات منهم رجلٌ سوياً.

وروت عمرة عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى عَنِ الرِّضَالِ، وَيَأْمُرُ بِتَجْكِرِ الْإِفْطَارِ وَتَأْجِيرِ الشُّحُورِ»^(٢).

عمرة الأولى: هي بنت عبد الرحمن الأنصارية، الثانية: بنت قيس العدوية، الثالثة: بنت أوطاة، الرابعة: يقال لها الطَّاحِيَّةُ.

ومثل هذا ما روى حماد، عن ثابت، عن أنس: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ فِي النَّحْلِ صَوْتًا، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: يُؤَبِّرُونَ النَّحْلَ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ»^(٣).

وروى حماد، عن ثابت، عن أنس، قال: «رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَاؤِ صُفْرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: تَزَوَّجْتُ، فَقَالَ: أَوْلِمَ»^(٤).

(١) أخرجه ابن سعد (٤٩٠/٨)، وأخرجه أيضاً: إسحاق بن راهويه (٩٨٦/٣)، رقم (١٧٠٩)، وأحمد (٨٢/٦)، رقم (٢٤٥٧١)، وأبو يعلى (٣٧٩/٧)، رقم (٤٤٠٨).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٣١/٧)، رقم (٤٣٦٨).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٠٢/١)، رقم (٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٩٧٩/٥)، رقم (٤٨٥٨)، ومسلم (١٠٤٢/٢)، رقم (١٤٢٧)، وأبو داود (٢٣٥/٢)، رقم (٢١٠٩)، والترمذي (٤٠٢/٣)، رقم (١٠٩٤) وقال: حسن صحيح، والنسائي (١١٩/٦)، رقم (٣٣٥١)، وابن ماجه (٦١٥/١)، رقم (١٩٠٧)، وابن حبان (٣٦٦/٩)، رقم (٤٠٦٠).

وروى حماد، عن ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: * مَثَلُ أَثْمِي مَثَلُ الْقَنْطَرِ لَا يُدْرِي أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ ^(١).

أما حماد الأول: فهو ابن سلمة، الثاني: ابن زيد، الثالث: حماد الأنيح. عُدْنَا إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ، روى أبو قُرٍّ، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَيُّ اللَّيْلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: * مَا أَقْرَبِي إِلَّا أَنَّ الْقَرْمَضَ لَيْسَ مِنْ الشَّخْرِ ^(٢).

وَأَنَا رَجُلٌ طَاوُسٌ فِي الشَّخْرِ، فقال: أَنَايِمٌ هُوَ؟ قَالَ طَاوُسٌ: مَا كُنْتُ أَزَى أَنْ أَخَذَا يَتَأَمَّ فِي الشَّخْرِ.

ومن اشتهر بقيام الليل كله وصلاة الفجر بوضوء العشاء: سعيد بن المسيب وصفوان بن سليمان ومحمد بن المنكدر المدنيون، وقضيل بن عياض ووهب بن الورد المكيان، وطاوس ووهب اليمنيان، والربيع بن خثيم والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وأبو جابر السلماني الفارسيان، وسلمان التيمي ومالك بن دينار ويزيد الرقاشي وحبيب ابن أبي ثابت ويحيى اليكبي، وكهيس ورابعة العلوية البصريون.

يا هذا: علامة المَحَبَّة طلب الخلوة بالحبيب، ويبدأ الليل فلوام الخلوات.

لما سترُوا قِيَامَ اللَّيْلِ فِي ظِلَامِ الدُّجَى، ستر جزأهم غيره أَنْ يطلع الفجر عليه بستر: ﴿فَلَا تَقَلُّمُ نَفْسٌ﴾ [السجدة: ١٧]، لما صفت خلوات الدُّجَى نُودِي مَوْذَنُ الْوَصَالِ: أَوَيْمَ فَلَانًا وَأَيْمَ فَلَانًا، خرجت بالأسماء الجرائد، فاز الأحاب بالفوائد وأنت غافل رافد، قَبِذْتُ أَقْدَامَ أَقْدَامِكَ طَلِبَ الْعَوَائِدِ، وأنت تسمى للزوائد.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأمراني رابعة، وقد قامت من

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٠)، رقم ١٢٣٤٩، والترمذي (٥/ ١٥٢)، رقم ٢٨٦٩، وقال: غريب من هذا الوجه. وأبو يعلى (٦/ ٣٨٠)، رقم ٣٧١٧، والرازي (١/ ١٠٥)، رقم ٦٩.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣/ ١٠٠٧)، رقم ٥٢٧.

أول الليل: قد رأينا أبا سليمان، وتعبنا معه، ما رأينا من يقوم من أول الليل، فقالت: سبحان الله تعالى، مثلك من يقول هذا، إنما أقوم إذا نوبت.

[الطويل]

يَقُولُونَ مَا فِي السَّامِيِّ مِثْلِكَ وَأَمِنُ جِدِي مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتَهُ تَجِدِي مِثْلِي
فَرِيحِي أَتْلُ مَا لَا يُحَالُ مِنَ الْعُلَى قَضَعْتُ الْعَلَا فِي الضَّغْبِ وَالشَّهْلُ فِي الشَّهْلِ
تُرِيدِينَ إِذْ ذَاكَ الْخَمَالِي رَجِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِسْرِ الشَّهْلِ
إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ وظلامه تَارَ شَجَرُ الشَّحْبِ وسقامه، ورمى عن قوس
الوجد، فأصابت سهامه، واستطلق مزاد العين، وانجل سجامه، وطال بالحزين
قعوده وقيامه.

[مجزوء الرمل]

كَمْ بِإِلْخَرَاكِ وَلُومِي يَا جَزَى بَيْنَ حُلُومِي
فَصَحَّ الْعَاقِلُ لَكِنْ مَنْ لَعَنِي بِأَلْجُوعِ
وَمَنْ فِي شُكْلِ عِي النَّوْ مِ بِمُتَّفَعِ الدُّمُوعِ
أَتَغْنِي بِكَ فِي الْخَبِ يَ عَزُورَقَا: سَجُوعِ

قال علي بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوع الفجر.

وكان زمعة العابد يقوم الليل، فإذا جاء الشحر نادى: أيها الرثب
الشحرسون، أكل هذا الليلي شرفدون، ألا تقومون فترخلون، فيقوم الناس
بضؤيه، فيسمع من هاهنا هاهنا، ومن هاهنا ذاع، ومن هاهنا قارئا، فإذا طلغ
الفجر نادى بأعلى صؤيه: جند الصباح يحمّد القوم السرى.

[الريع]

نَبَّهَتْهُمْ مِثْلَ غَوَالِي الرَّمَاحِ إِلَى الْوَعَى قَبْلَ نُسُومِ الطَّبَاحِ
فَوَارِمٍ نَالُوا الْمُنَى بِالنَّارِ وَأَصْفَحُوا أَغْرَاضَهُمْ بِالصَّفَاحِ
يَا نَفْسُ مَنْ هَمَّ إِلَى هَمٍّ وَلَيْسَ مِنْ عَيْبِ الْأَذَى مُشْفَاحِ

صَبَّرْتُ نَفْسِي عِنْدَ أَهْوَالِهَا وَأَلَسْتُ مِنْ صَبَوَاتِهَا لَا تَرَاهُ
إِنَّمَا لَيْسَ نَأَى الْعُظَى قَائِشَتُنِي أَوْ يَطْلُ ذَاقُ الرَّقَى قَائِشَتَرَاهُ
قال أبو سليمان الداراني: بينما أنا ساجد ذهب بي النوم، فإذا أنا
بالحدواء قد ركضتني برجلها، وقالت: حبيبي! أترقد غينًاك والمليك يظفان،
وأنا أرتي لك في الحُدُور منذ كذا وكذا، قوتيت فرغًا، وقد عرفت حياة من
تويخها، وإن خلاوة تطيقها لفي سعيي وقلي.
[اليسط]

قَالُوا تَسْأَلُ عَنَّا وَاسْطَقَى بَدَلًا مِنَّا وَقَلَّكَ فَعَلُ الْخَائِبِ السَّائِي
وَعَلَيْتُ أَشْغَلُ قَلْبِي عَنْ مَحَبَّتِكُمْ بِغَيْرِ ذَمِّكُمْ يَا حُلُّ أَشْفَائِي
لَمَّا قَارَتْ كَلُوسُ الثُّومِ عَلَى أَهْوَاءِ الْعِيُونِ، فَكَرَتْ بِالشَّرَابِ الْأَلْيَابِ،
فَطَرَحَتْ الْأَجْسَادَ عَلَى فِرَاشِ: ﴿يَتَوَقَّى الْأَنْفُسُ﴾ [الزمر: ٤٢]، صاحت
فصاحة الخبث "كُلُّ مُسَكَّرٍ حَرَامٌ"^(١)، فلما نفخ في صور الإيقاظ في إيان:
﴿وَرَزِيلُ الْفَحْرَةِ﴾ [الزمر: ٤٢]، قام أموات النوم على أقدام الانتباه وقد
رحل سفر أهل القرب، فلم يروا إلا آثار الوصال في مناح الأحباب، وأنوار
المناجاة تقرأ في سطور: ﴿يَسْتَأْذِنُ فِي نُجُوبِهِمْ تَبَيَّنَ أَثَرُ الْحُورِ﴾ [الفتح: ٢٩]،
ألا لو كنت معهم، أمثًا لك لو رأيتهم، لو رأيت طلائع الصديقين في أول
السفر، أو سمعت استغاثة المحبين في وسط القوم، أو شاهدت ساقاة
المستغفرين في آخر الركب لم يُهَيِّكِ الثُّومُ.
[الرملي]

مَنْ رَأَى الْبَرْقَ يَنْجِدُ إِذْ تَرَاهُ تَلَبَّ الثُّومَ وَأَهْدَى الْبَرْخَاءَا
قَاضٍ مِنْ فَيْضِ جُفُونِي مَالَةً وَالْعُظَى وَقَفْنَا عَمَّا نَقَائِي السَّطَاءَا

(١) أخرجه البخاري (٦/٢٦٢٤، رقم ٦٧٥١)، ومسلم (٣/١٥٨٦، رقم ١٧٣٣)، وأبو
داود (٣/٣٢٨، رقم ٣٦٨٤)، والسنائي (٨/٢٩٨، رقم ٥٥٩٥)، وابن ماجه (٢/
١١٢٤، رقم ٣٣٩١).

ثَامَ شَمَارُ الدُّجَى عَنْ سَاهِي تَجَذَّ أَلْهَمٌ سَمِيرًا وَأَلْبَحَا
 أَشْعَدُّهُ أَذْمَعُ تَفْطَحُهُ قَلْبًا مَا أَحْسَنَ الدَّمْعُ أَسَاءَ
 يَا غَلِيلِي وَلَمْ أَشْعِرْكُمْ يَا يَاهُوِي حَتَّى تَبَيَّنَتْ الْإِخَاءُ
 غَلَا قَلْبِي بِإِثْرِي قَاتِلِي رَبِّ قَاوِ قَاذِ إِلْسُفِي ذَوَا
 لو رأيتهم وقد دارت كؤوس المناجاة بين مظاهر التلاوة، فأسكرت قلب
 الواحد، ورفقت في مصاحف الوجوات ﴿تَتَكَلَّمُ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].
 [المديد]

قَتَمْتُ فِي مَقَامِيهِ كَتَمْتُ الْبُرَى فِي السَّقَمِ
 يا طويلَ النومِ قَاتِلُكَ مَدْحُ: ﴿تَتَكَلَّمُ﴾ [السجدة: ١٦]، وَخَرِمَتْ مَنَاجَاةُ:
 ﴿وَالْتَفَلَفُوكَ﴾ [آل عمران: ١٧]، فهلا أملتك معاناة * كَذَّبَ مِنِّي أَذْعَى
 مَحْيِي، قَلْبًا جَرَى اللَّيْلُ ثَامَ عَنِّي^(١)، وليس في ليل الوجد منام، ولا من
 صفات المَجِبِّ أن ينام، إن لله عز وجل ريتما تسمى الضَّبِيجِيَّةُ، مخروطة تحت
 العرش، تهب عند الأسحار، فتحمل الأتنين والحنين والاستغفار إلى الملك
 الجبار.

(١) أخرجه الثبوتري في "المجالسة" (١٣٢)، وعبد الحق الأشبيلي في " التهجيد " (١٠٤٦) و(١٠٤٧).

قال الفضيل بن عياض: إن الله يقول: * كَذَّبَ مِنِّي أَذْعَى مَحْيِي، وثام عَنِّي، أليس كل
 محبٍّ يُحِبُّ مخلوقه حبيباً؟ ها أنا مَطْلَعٌ على أحبابي وقد مَلُوتني بين أعينهم، وخطبوني
 على المشاهدة، وكَلَمُونِي بحضور، غدا أَرُ أَعْيُنَهُمْ في جناني.

ولا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المفرقين يقوى حتى تملأ قلوبهم به، فلا يقوى
 في قلوبهم غيره، ولا تستطيع جوارحهم أَنْ تتبع إلا بموافقة ما في قلوبهم، ومن كان
 حاله هذا، قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد معرفته وصحته وذكره، وفي هذا
 المعنى الأثر الإسرائيلي المشهور: * يقول الله: ما وسعني سمائي ولا أرضي، ولكن
 وسعني قلب عبدي المؤمن *، وقال بعض العارفين: احفظوه، فإنه خيرٌ لا يُحِبُّ أَنْ
 يرى في قلب عبده غيره.

تَالِقًا لَوْ جَلَسَتْ فِي بَيْتِ يَعْقُوبَ الْحَزَنُ لَوَجَدَتْ رِيحَ يُونُسَ الْقَبُولِ.
[الرملة]

يَا نَيْيْمَ الرِّيحِ مِنْ كَائِفَةٍ	شَدَّ مَا جَبَّتِ الطُّيَا وَالْبُرْعَا
الطُّيَا إِذْ تَمَانٌ لَا بُدَّ الطُّيَا	إِنَّهَا تَمَانٌ يَغْلِبِي أَرْوَخَا
يَا نَذَامَيَّ بِيَلَعٍ مَلْ أَرَى	قَبْلَكَ الْمُنْبَتُّ وَالْمُخْطَبَا
أَذْكُرُونَا ذَكَّرْنَا عَنْهُمْ	رُبَّ ذَكْرَى قَرَّتْ مِنْ نَزْعَا
أَذْكُرُوا ضُبًّا إِذَا غَلَى بِحُمٍ	شَرِبَ الدُّنْعُ وَغَايَ الدُّنْعَا

الفصل الثامن والخمسون

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَكْثِرُوا بِعَمَلِكُمْ عَلَىٰ﴾
جَاءَكُمْ جُنُودٌ ﴿[الأحزاب: ٩]

الجنود هاهنا الأحزاب الذين تحزَّبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الخندق، وذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لما أخذ نظراء بني النضير، وأجلى الأجلة منهم، نَقَرَ نَقْرٌ من أشراقهم إلى أشراق مكة، قَالُوا قريشاً على قتالي مَنْ عَادُوا إِلَىٰ تَحْرِيطِ عِطْفَانِ وَسَلِيمٍ، فَتَأَلَّفَ جَمْعٌ جَمْعُ الأحزاب عشرة آلاف، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على منبر: ﴿وَكَاوَيْتُمْ فِي الْأَكْمَرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فأشار سلمانٌ بالخندق فحُتِدَقَ، فنهض النبي صلى الله عليه وسلم وعليه الْمُعْوَلُ وَيَبْدُو الْمُعْوَلُ، فوقف يحفر؛ لأنه مَنْ سَنَّ ابْتَدَأَ، فما زال يثقل ما يثقل، ويأخذ الرَّاحَةَ بأيَّامِ عِيْدِ اللُّؤْلُؤِ رَوَاحَةً: [الرجز]

وَاللُّؤْلُؤُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ هَاتَيْنِ وَلَا تَضُدُّنَا وَلَا ضَلُّنَا
فَأَنْزَلُ شَكِيَّةَ عَلَيْنَا وَتُجِبُ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقِينَا
فَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أُنِينَا
ثم إنَّ المشركين أحاطوا بحائط المدينة، وقصر الحصر من فوقهم ومن أسفل منكم، وَتَسَعَّرَتْ نيرانُ الخوفِ، فخلص القلوب كُرُّ الْخُرْبِ، فلما أن لَامَ جمع المنافقين الجيئة، كما أن لَامَ دَلْجِلِح لَوْحَ بيد الهرب إلى زمر الشجعان يرمز خَلْمُ الْبِنَا، وَتَمَلَّلَ بِتَحَلُّو: ﴿إِنَّ يَوْمَنَا مَوَدَّةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣]، فرد عليه بصريح القول ناقد السر: ﴿إِنَّ يَوْمَنَا لَا وَرَاكَ﴾ [الأحزاب: ١٣]، هذا وقلوب الصحابة لا تنقلب عن التسليم، ولا تفيض في غير حديث التفويض، وكلما

عصمت نيران الاختيار، قال مختار ﴿إِنَّ الْيَوْمَ سَيَقِفُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ١٠١]: ﴿كَوْنِي رَبًّا﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فلما رُفِعَتْ قصصُ القصص في آبان: ﴿أَتَنْتَبِهُونَ﴾ [النمل: ٦٢] وقع عليها بزوال الجوى في الجواب، فوقع الفرق في الفرق ففرق وصل الوصل، وَفُتِّحَ رِيحٌ كُفَّتْ كِفَاتٌ قدورهم، وتزعجت في قوس الشدة، فنزععت عيائهم، وأقبلت الأملاك تطفن نيرانهم، وتكبر في حجرات عسكرهم، فهزموا بجند الرعب وصالح الإزعاج يلقون قضاهم، وقام بشير الظفر ينادي في نادي البشري: ﴿وَرَبُّهُ اللَّهُ إِلَهٌ كَفَرُوا يُعَذِّبُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فوضع الرسول صلى الله عليه وسلم أداة خزيه، فجاء جبريل حين وضع اللامة فلامه، وقال: مَا وَضَعْتَ التَّلَامِيكَةَ بِرِجْلَيْهَا مُنْذُ أَرْبَعِينَ، سِرَّ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَسَارَ، فَخَاضَهُمْ، فَخَاضُوا إِلَى سُؤَالِ السَّلَاحِ، فَأَمْسَى أَنْ يَنْزِلُوا إِلَّا عَلَى جَبَلِ الْاِخْتِيَارِ، فَتَزَلُّوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأَرْسَلُوا رَسُولَ أَبِي لُبَابَةَ، فَاسْتَشَارُوهُ، فَاسْتَخْرَجُوا لِبَابَةَ لِبَابِهِ، فَعَمِلَهُ مُطْلَقَ لَفْظِ "الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَرٌ" ^(١) إِلَى أَنْ أَشَارَ إِلَى حَلْفَةِ حَلْفِهِ، يَوْمَ إِلَى أَنْ حَكَمَ سَعْدُ الذَّبْحِ، ثُمَّ نَدِمَ عَلَى مَخْضِ مَخْضِ النَّصِيحِ، فَرِيَطَ نَفْسَهُ فِي الْمَسْجِدِ سَبْعًا لَا يَدُوقُ طَعَامًا، حَتَّى أَذْبَنَ عِلْمَهُ: ﴿وَتَاخَرُونَ أَخَّرُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، فنزل القوم على حكم سعد وجاء أن يأخذ فيهم هوى أو هواة، فحكم بقتل رجالهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، وقسم أموالهم، فبان بما جرى سرٌّ: ﴿وَلَزَلَتْ آلُيْنِ فَهَرُورُهُنَّ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَّاصِهِمْ وَقَفَّتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

(١) أخرجه أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٥ رقم ١٣٩٨)، والترمذي (٢/ ١٤٤)، رقم ٣٢٢٣ وقال: حسن صحيح، والحاكم (٢/ ٣٦٤، رقم ٣٢٨٦)، وأخرجه أيضًا: النسائي (٢/ ٣٦، رقم ٦٩٧)، وأبو يعلى (٢/ ٣٠٣، رقم ١٠٢٩)، وابن حبان (٤/ ٤٨٣، رقم ١٦٠٦).

الفصل التاسع والخمسون

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]

رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: * حَاطَ عَلَيَّ أَنَسُ بْنُ النَّظَرِ عَنْ قِتَالِ بَنِي قَلْبَةَ قَدِيمٍ، قَالَ: بَغِثَ عَنْ أَوَّلِي قِتَالِ قَائِلَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُشْرِكِينَ، لَيْتَ أَشْهَدَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قِتَالًا لَيَّرَ لِي اللَّهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أَحَدِ الْكُحُفِ الثَّامِنِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ وَمَا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ - بَعْضِي: الْمُشْرِكِينَ - وَأَعْتَدِلْ إِلَيْكَ وَمَا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - بَعْضِي: الْمُسْلِمِينَ - ثُمَّ مَضَى بِسَيْفِهِ، فَلَقِيَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: أَيُّ سَعْدٍ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَأَمَّا لِرِيحِ الْجَنَّةِ، قَالَ سَعْدٌ: لَمَّا اسْتَظَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصْنَعُ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسُ: فَوَجَدْنَاهُ بَيْنَ الْقَتْلَى بِهَضْعٍ وَثَمَانُونَ جِرَاحَةً بَيْنَ ضَرْبَةِ سَيْفِهِ، وَطَعْنِ بَرْمِجٍ، وَزَمِيهِ بِسَهْمٍ، فَمَا مَثَلُوا بِهِ، فَمَا عَرَفْنَاهُ حَتَّى عَرَفْنَاهُ أَخْتَهُ بِنَاتِيهِ، قَالَ أَنَسُ: وَكُنَّا نَقُولُ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] فِيهِ ذِكْرُ أَصْحَابِهِ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي "الصَّحِيحَيْنِ" مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ^(١).

وهو أَنَسُ بْنُ النَّظَرِ، الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
"إِنَّ مِنْ جِبَاهِ اللَّهِ تَعَالَى مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا يَزِيغُ".

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي أَفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ الرَّبِيعَ بَشَّ النَّظَرِ لَقِمَتْ جَارِيَةً، فَكَسَرَتْ سِنِّيَهَا، فَعَرَّضُوا عَلَيْهَا الْأَرْضَ، فَأَبْزَأَ، فَقَالُوا الْعَفْوُ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١/١٤٨٧)، رَقْمُ ٢٣٨٢٢.

فَأَتُوا، فَأَتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَهُمْ بِالْقَضَاءِ، فَجَاءَ أَحْوَقًا أَنَسُ بْنُ الشَّعْثِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُخَسَّرُ مِنَ الرُّبَيْعِ، لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَا تُخَسَّرُ سِلَاحُهَا، قَالَ: يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ الْقَضَاءُ، فَعَقِبَا الْقَوْمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: * إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا يَزِيغُ. (١)

وهذه الرُّبَيْعُ هي المِثْلُ ذِكْرُهَا فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ الَّذِي فِيهِ (عَنْ عُرْفَةَ أَخِيهِ بَنَاتِي)، وَتُخَسَّرُ أُمُّ حَارِثَةَ، وَالرُّبَيْعُ بَنْتُ الطُّفَيْلِ، وَالرُّبَيْعُ بَنْتُ مَسْعُودٍ، وَالرُّبَيْعُ بَنْتُ الشَّعْثِ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ رَوَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بَنْتُ مَسْعُودٍ، فَإِنَّهَا رَوَتْ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا وَعَشْرِينَ حَدِيثًا، أَخْرَجَ لَهَا مِنْهَا فِي "الصَّحِيحِينَ" ثَلَاثَةً، أَحَدُهَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَالْبَاقِيَانِ لِلْبُخَارِيِّ.

لَمَّا انْصَرَفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ قَبْرِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ضَمَّتْ لَهُ مَرَكَبُ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ:

وَلَوْلَا التَّقَى ثُمَّ النَّهْيُ خَشْيَةَ الرَّدَى لَمَاضِيَتْ فِي حُبِّ الصَّبَا كُلِّ رَاجِعٍ
فَقَضَى مَا قَضَى بَيْنَمَا قَضَى لَا يُزِي لَمَاضِيَتْ أُخْرَى السَّيَالِي الْخَوَاصِرِ
ثُمَّ قَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ قَدُمُوا إِلَيَّ تَعْلِي.

أَيْنَ أَهْلُ الْعِزَائِمِ؟ ذَهَبُوا وَمَاتُوا، أَيْنَ أَرْبَابُ الْهَمَمِ؟ رَحَلُوا وَفَاتُوا،
أَتَدْرِي عَلَى أَيِّ مِهَادٍ هَمِدُوا، أَوْ فِي أَيِّ مَكَانٍ بَاتُوا؟ لَاحَ لَهُمْ أَقْلُ الْفَرَى فِي
مَشْرِعَةِ الْهَوَى فَلَمْ يَأْتُوا، عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا مَتَاعٌ يَفْنَى فَغَيَّرُوا وَتَنَا عَمَرُوقًا
لِلسُّكْنَى، وَاشْتَغَلُوا بِدَارِ كَلِمَا تَقَضَّتْ هَذِهِ ثُبْنَى، لَا كَبِيرَ عِنْدَهُمْ تَرَاهِمَ بَيْنَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤/ ١٨٧٠ رقم ٤٦٣٤)، وَمُسْلِمٌ (٤/ ٢١٩٠، رقم ٢٨٥٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ

(٤/ ٧١٧، رقم ٢٦٠٥) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَالتَّسَانِيُّ (٦/ ٤٩٧، رقم ١١٦١٥)،

وَابْنُ مَاجَةَ (٢/ ١٣٧٨، رقم ٤١١٦)، وَابْنُ حِبَانَ (١٢/ ٤٩٢، رقم ٥٦٧٩)، وَالطَّبْرَانِيُّ

(٣/ ٢٣٥، رقم ٣٣٥٥). وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ (٦/ ٢٨٥، رقم

المساكين والزُّمَنَى، أقبلوا على قدم الفقر، فلما رأهم أغنى، ذكروا الثواب فاشتاقوا ولا شوقَ نيس إلى بُئى، أين أنت منهم؟ أتعرف من هم؟ كم تنوب وتنقض؟ كم تعاهد وتغدر؟ إلى متى عند الملاهي؟ إلى كم عند الرخارف؟ أين صبر الرجال؟ أين عزائم الأبطال؟ تعجبك طرأُ الأكمام، وتفرح بكذب الألقاب، فلا تعرضت لأوصاف الصديق، واستجلبت بها ألقاب الحق التائبون العابدون.

كيف فتعت بخساسة بلعَام، وتركت عزيمة أويس، لو صدقت في القلب وقعت على ثمنِ البُئى، لو وجدوك مستغيثاً ما تركوك سقيماً، لو شاهدوك على بابهم لعدوك من أحبابهم، يا ضفدع غدير القدر، يا رضيع لذي الجهل، يا مظلم السر والقلب، يا بعيد العهد بوفاء العهد، ألا يستحي من الغدر الغدار، ألا يخرج العاصي من تلك الدار، شيب وعيب نهاية الأدبار، أو لقلوب أعادتها المعاصي كالفنار، وغلب عليها حبُ الدينار، واللؤ ما يُساوي عذاب الحطّة ألف قنطار، كم بينك وبين المتقين الأبرار، ملكتكم الدنيا وملكوها فالقوم أحرار، بانت لهم الأنفة فاحتسوا من العار، علموا قدر الجنة، فداروا حول الدار، وبادروا كما يعرف قيمة الثوب السمار، لانت قلوبهم وبانت قلوبكم كالأحجار.

[الرمز]

إِنَّ لِمَنْ جَدَّ سَبِيلًا وَجَرًا ضَيِّقًا مَشَلَّكَةً فِيهِ ضَلُودٌ
لَيْسَ ثَمَنِي بِالْأَبْطَالِ الطَّلَى وَلَا تُوعَا بِالْهَزْلِ الْخُودُ
بَلْ بِأَنْ يُنْضَبَ حُرٌّ نَفْسِي وَبِأَنْ يَنْشَهَرَ وَالْثَمَنُ رُقُودُ
عَلَيْهِ مِنْ بَغْضِ أَلَمَانِ الْعَمَلَا وَلَمَّا يُبْقَاعَ مِنْهُنَّ نُفُودُ

الفصل الستون

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسِرِّ فِي مَسْكِهِمْ آيَةٌ﴾

[سبأ: ١٥]

أيها الناس؛ استدبعوا دينَ النعم باستدامة شكر المنعم، واحذروا الوثوب في ثوب البطر، فكل منْ خَطَرَ فيه على خطر، إنْ للنعم أجنحةً تطيرُ بها في جَنَحِ الجَنَاح، فتسبق أعناقها وتصيبها، فإذا قتت لمن يقف لمن قفاها وقطعها، فمن قطعها يبقراضِ الشكرِ نَجَحَ وَجَنَحَتْ إليه، ومنْ أهملَ ريشها حتى نَبَتْ نَبَتْ من بين يديه، فإن النعم على الخليفة خليفة أن لا يزال حالهم في محالهم ومجال مجالستهم ﴿حَتَّى يَبْذُوكَآ بِالْأَيْمِ﴾ [الأنفال: ١١]، فأملوا حاله من حال حاله بترك الشكر، وانظر البطر كيف سبى قوم سبأ بعين الفكر، كان السبل يساب إلى وادهم، فيقتلون على حصصهم، وكانت بلقيس مالكة أمرهم، فلما رأت رعاياها بالخصام، وقد فَسَدَتْ قامت فَسَدَتْ ما بين الجبلين بِمُسْتَأَوْ لا يَتَسَاءَلَا الماء، وَسَوَتْ لها أبوابًا تخرج بالسبق بينهم، وكان لهم على جنبي جنيات وادهم جنتان، تشتمل على جمع شمل من جناهما عن يمين وشمال، فأحصيت أرضهم، وكثرت ثمر النمار، فزالت مفقر الفقر وغير الجنائر حتى إن المرأة كانت تمر والميكنل على رأسها بين الجنين امتلا ثمرًا إذا مشت وَمَا مَأْثُتْ شيقًا باليدين، وَنَزَعَتْ حاشية بلدهم من الحشرات، فما كانت تَقْرُبُ حَيْثُهم حَيْثُ، ولا يُقَالُ هذا غَفَرُ غَفَرِب، ولا يُرى في بعض ديارهم بغوضة، ولا لآء لهم بياب دُباب، وكانت أرضهم لطيف الهوى تقتل الهوام، فَلَمَّا نُسِبَ النعمة وَنَمَتْ قَامَ متفاضي الشكر على سوق التذكار بالنعم يقول: ﴿كَلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥]، فقابلوا الرسل معًا مقابلة معاند، فرفعت قصة

الشكوى منهم في مسطور ﴿فَلْيَرْسِلُوا﴾ [سبأ: ١٦]، فوقع على توقيع وتوقيعهم في الواقع، ﴿فَلْيَرْسِلُوا عَلَيْكُمْ سَيْلَ الْغَمِّ﴾ [سبأ: ١٦]، فبعث الله جرذاً جرذاً، فنقب سكرهم وهم على شكرهم، فأغرق ما جنى به على جناتهم، فجرت على الأشجار بعد أن فجرت، وَغَشَّتْ كُفَّ الْفَسَادِ فِي دِيَارِ عَشْتٍ، فجيء بفجيع الفجائع فجأة، فجاء على ذلك الجيل، وطلعت الشمس بفجاء بقاعهم بعد الظل الطليل، وجذبهم معار المعاضي كل ويل وألِيل، وقاموا فلور استقاموا لما قاموا في مقام ذليل ينظرون إلى مستور درعهم كليل من طرف كليل لا ينفع نفساً نسيء حينئذٍ أدمع نسيل، نالته لقد أخنى عليهم الذُّهُرُ فدهورهم في خنخنة حنونة الحنين وعواء العويل.

وَحُلِّفَ غَرَابُ الْبَيْتِ بَيْنَ جَنَاتِهِمْ خَلْفَ الْوُزْقِ عَلَى الْوُزْقِ وَبَشَ الْبَدِيلِ،
﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِمَنَاسِكِهِمْ بَئْتَيْنِ ذَوَاتَ أَصْحَالٍ عَلَوُا وَأَنَالُوا وَتَوَنَّنَا وَبَشَ الْبَدِيلِ﴾ [سبأ:
١٦].

نالوا لقد ساقهم البَطَرُ مَسَاقِي التَّلَفِ بعثوا: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِمَنَاسِكِهِمْ بَئْتَيْنِ ذَوَاتَ أَصْحَالٍ﴾ [سبأ:
١٦]، فأدركهم العقاب في عقاب: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ كُلَّ مَتَرٍ﴾ [سبأ: ١٩]، ونادى
وراءهم منادي العير: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٩].

الفصل الحادي والستون

في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا أُولَئِدُوا لِلَّهِ يُفَرِّقُونَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ﴾ [سبا: ٣٧]

لما افتخر المشركون بقولهم: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، رد عليهم فخرهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا أُولَئِدُوا لِلَّهِ﴾ [سبا: ٣٧].

روى سهل بن سعد، قال: مرَّ رجلٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجلي عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال رجلٌ من أشراط الناس: هذا والله خريٌّ إن خطبَ يُنكح، وإن شفعَ يُشفع، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مرَّ رجلٌ آخر، قال: ما رأيك؟ فقال: هذا رجلٌ فقيرٌ من فقراء المسلمين، هذا خريٌّ إن خطبَ لا يُنكح، وإن قال أن لا يُشفعَ لِقولي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا خيرٌ من بلء الأرضي مثل هذا^(١).

جملة من في الصحابة اسمه سهل ثلاثة وعشرون، ليس فيهم من يقال له ابن سعدٍ غير هذا، وجملة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم مائة ثمانية وثمانون حديثاً أخرج له منها في "الصحيحين" تسعة وثلاثون حديثاً، المتفق عليه ثمانية وعشرون، وباقيها للبخاري.

وجملة من يجيء في الحديث اسمه سهل بن سعد ثلاثة:

(١) أخرجه أحمد (١٥٧/٥)، رقم (٢١٤٣٣)، وبنو عثارة (٤١٦/٢)، رقم (٨١٥)، وابن حبان (٢/٢٥٦)، رقم (٦٨١)، وأخرجه أيضاً: ابن أبي شيبة (٧٧/٧)، رقم (٣٤٣١٦)، والبخاري (٩/٢١٤)، رقم (٤٠١٨)، قال الهيثمي (٣٦٥/١٠): رواه أحمد والبخاري والطبراني في الأوسط بأسانيد ورجال أحمد وأحد إسنادي البخاري والطبراني رجال الصحيح.

أحدهم: هذا الصحابي، الثاني: مصري روى عن القتباني، الثالث: قزويني روى عن جندب.

روى ثوبان، قال: " جاء خَبَرٌ من أخبار اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أين يكون الناس يوم تَبْدُلُ الأرض غير الأرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هُمْ فِي الظُّلُمَةِ ذُونَ الْحِشْرِ. قال: قَتَنٌ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَارَةً؟ قَالَ: قَفَرَةُ الْمُتَهَاجِرِينَ^(١).

ثَوْنَانُ خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومواليه أربعة وأربعون، أَسْلَمَ، وَيُكْنَى: أَبُو رَافِعٍ، أَحْمَرُ، وَيُكْنَى: أَبُو عَسِيبٍ، أَسَامَةُ، أَفْلَحُ، أُنْسَةُ، أَيْمَنُ، ثَوْبَانُ، ذُكْوَانُ، رَافِعُ، رِبَاحُ، زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، زَيْدُ بْنُ يُولَاءَ، سَابِقُ، سَالِمُ، سَلْمَانُ، سَلِيمُ، سَعِيدُ، شَقْرَانُ وَيُقَالُ لَهُ: أَفْلَحُ، ضَمِيرَةُ، عُجَيْدُ اللَّهِ بْنِ أَسْلَمَ، عُبَيْدُ بْنُ عَبْدِ الْغَفَارِ، كَيْسَانُ، مَهْرَانُ وَهُوَ سَفِينَةُ، مَدْهَمُ، مَأْبُورُ، نَافِعُ، نَضِيعُ وَهُوَ أَبُو بَكْرَةَ، نَبِيهٌ، وَاقِدُ، وَرَدَانُ، هِشَامُ، يَسَارُ، أَبُو أُثَيْلَةَ، أَبُو الْحَمْرَاءِ، أَبُو رَافِعٍ آخَرُ، أَبُو التَّيْمِيِّ، أَبُو ضَمِيرَةَ، أَبُو عُبَيْدٍ، أَبُو لِبَابَةَ، أَبُو لَقِيْطٍ، أَبُو مَرْيَةَ، أَبُو وَاقِدٍ، أَبُو هَنْدٍ.

ومواليته صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة:

أُمُ أَيْمَنَ، رَضْوَى، رِيحَانَةُ، أَمْنَةُ، خَصِيرَةُ، سَلْمَى، مَارِيَةُ، مَيْمُونَةُ بِنْتُ سَعْدٍ، مَيْمُونَةُ بِنْتُ أَبِي عَسِيبٍ، أُمُ ضَمِيرَةَ، أُمُ عَبَّاسٍ.
وجملة ما روى ثوبان مائة ثمانية وعشرون حديثًا انفرد بالإخراج عنه مُسْلِمٌ فأخرج له عشرة أحاديث.

قدمت لعبد الرحمن بن عوف سبع مائة راحلة، فسمعت عائشة رضي الله عنها صوتها، فقالت: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " رَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَيًّا " ^(٢)، فبلغه ذلك، فأناهاها، فحدثته،

(١) أخرجه مسلم (٢/٢٥٦)، رقم ٣١٥.

(٢) أخرجه أحمد (٦/١١٥)، رقم ٢٤٨٨٦، والطبراني (١/١٢٩)، رقم ٢٦٦، والديلمي (٢/٢٥٧)، رقم ٣١٩٦.

فقال: إني أشهدك أنها بأحمالها وأفتانها وأحلاسها في سبيل الله عز وجل.
وقال مالك بن دينار: إذا أحبَّ الله عزَّ وجلَّ عبدًا انتقصه من الدنيا،
وكف عليه غيبته، ويقول: لا تبرح من بين يدي فهو مفرغ لخدمة ربه عز
وجل، وإذا بغض عبدًا دفع في نحره شيئًا من الدنيا، ويقول: اغرب من بين
يدي، فلا أراك بين يدي، فتراد متعلق القلب بأرض كذا وتجارة كذا.

يا هؤلاء! إنما يعجبنا من دراهم لا بياض الدراهم، وإنما نجب من دني
كثرة الدنانير، رد صور الأموال لما رقلت في ذرائعها وما ردت بلفظ: ﴿وَمَا
أَتَوْكُم بِ﴾ [سأ: ٣٧]، ولم يقبل منها إلا نقد سكة الإيمان على حجر الأخلاص
بانقضاء ﴿إِلَّا مَنْ كَانَتْ وَكَيْلًا سَكِينًا﴾ [سأ: ٣٧]، فإذا المفتخرين بجمعهم وسط
ناديهم في جمعهم من أهل الكتوز وهم مغاليس، من لكم لحرب الغرور وقد جهز
الكراديس وأخذت عينه كره الكرى ديس، لا تنظروا إلى صوركم وأموالكم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ما من أهلي، ولا مالي، ولا ولي،
إلا وأنا أحبُّ أن أموت عليه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، إلا
عبد الله بن عمر، فإني أحبُّ أن يتش في الناس).

وقال أبو مسلم الخولاني: لأن يؤخذ لي ولقد يُخسِرُ الله عزَّ وجلَّ ثباته
حتى إذا استوى على شيابه، وكان أعجب ما يكون إلي قبضه مني أحبُّ إلي من
أن تكون لي الدنيا وما فيها.

واعلم أن النية في طلب الولد وفقده، وفي قصد بقائه، إذا ضحكت أُنِيبَ
الإنسان على الكل؛ لأن الأعمال بالنية.

وفي أفراد مسلم من حديث أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه
قال: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من صدَّقَ جاريته، أو علم
يُنْتَفَعُ به، أو ولي صالح يدعو له ^(١) .

وفي حديث أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " سبع تجرى

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦/ ٢٨٨، رقم ٢٨٨)، ومسلم (٣/ ١٢٥٥، رقم ١١٣١)،
وأبو داود (٣/ ١١٧، رقم ٢٨٨٠)، والترمذي (٣/ ٦٦٠، رقم ١٣٧٦) وقال: حسن
صحيح. وابن ماجه (١/ ٨٨، رقم ٢٤٢)، وأخرجه أيضًا: النسائي (٦/ ٢٥١، رقم ٣٦٥١).

أجرها للعبد بعد موته في قبره: من علم علمًا، أو نهر نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدًا، أو كتب مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته ^(١).

وقد عاش أبو قحافة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده أبا بكر، وابنه عبد الرحمن، وابنه محمدًا، ويكنى: أبا عتيق، ولا يُعرف أربعة أنقي أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى هؤلاء، وقد صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنه عبد الله، وعلي رضي الله عنه وابناه الحسن والحسين، والزبير وابنه عبد الله، والعباس وبنوه الفضل وعبد الله وعبيد الله، وجعفر بن أبي طالب وابنه عبد الله، وزيد بن حارثة وابنه أسامة، وأبو سلمة ووالده عمر وزينب، وعبد الله بن عمر وابنه جابر، وعمر بن العاص وابنه عبد الله، وسعد بن عباد وابنه قيس، وأبو سفيان وأولاده يزيد ومعاوية وأم حبيبة، وسهيل بن عمرو وابنه أبو جندل، ومخرمة وابنه المسور، وعبد الله بن سلام وابنه يوسف، وإيماء بن رخصة وابنه خفاف.

ولقد شهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع بنين من امرأة واحدة، وهي عفرات بنت عبيدة، وكانت من المبايعات، ومعاذ ومعوذ وعوف أولادها من الحارث بن رفاعه، وعافل وعامر وع خالد وإياس أولادها من بكير ابن عبد يا ليل، واستشهد معاذ ومعوذ وعافل ببدر، وع خالد يوم الرجيع، وعامر ببئر معونة، وإياس يوم اليمامة، والبقيّة منهم لعوف.

يا مشغولاً بصحيح ماله عن تصحيح أعماله، يا عذو نفسه، يا عبيد قلبه، تعانق الدينار بيد الحرص عناق اللام الألف، وتُنزل الدرهم من القلب منزل البراء من الدنف، ويحك إذا رأيتَ قطر الرزقي يسح ترش ماء الفُش حول الحانوت، وتنظر إلى الدراهم لا فيه، وتنصب بميزان البخس، ومكيال التطفيف والخدر ثالثة الأثافي، ويحك تبحث عن حثثك بظلفك، وتنتحس بسيفك مازن أنفك.

(١) أخرجه ابن ماجه (٨٨/٦)، رقم (٢٤٠) قال البيهقي (٣٤/١): هذا إسناد فيه مقال. والطبراني (١٩٨/٢٠)، رقم (٤٤٦).

الفصل الثاني والستون

في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ قُرِعُوا فَلَا فَوَازَ﴾

[سبا: ٥١]

هذا فزع أهل القبور وقت البعث، وهو المكان القريب، والهاء في (به) تعود إلى البعث، وقيل: إلى الله عز وجل، (وَأَنَّى) لفظ سؤال، فإذا وقع سؤالاً عن زمان كان بمعنى: متى؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَكُلُّ شَيْءٍ غَيْرٌ ذَا نُورٍ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وإذا أصاب سؤالاً عن مكان كان بمعنى: من أين؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْبِسْكَ غُلَامًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، والتناوش: التناول، والمعنى: أني لهم التناول لما أرادوا بلوغه، وكيف يقدرّون على إخراج ما يطلّبون من التوبة من مكان بعيد، وهو المكان الذي تقبل فيه التوبة وهي الدنيا قد ذهبت، ﴿وَيَقُولُونَ بِأَلْغَيْبٍ﴾ [سبا: ٥٣]، أي: يؤمنون بالظن من مكان بعيد وهو يُعدهم عن العلم بما يقولون، قال ابن عباس: (هو الرجوع إلى الدنيا)، وقال السدي: هو التوبة.

إخواني؛ الوحي الوحي فالطلب حثيث، إنما هو ذبيب من سلم، ثم تؤخذون بالكظم، فتزل حينئذ القدم، وتندم حيث لا يتفع الندم، كأنك بك في صرعة الموت، وقد استنشفت ريح الغربة قبل الرحيل، ورأيت أثر اليتيم في الولد قبل الفراق، وتخاليست انتهاب الأموال قبل التوديع، فينقظ إذن من رقاب الغفلة، فقد فات اختلاج المذبح.

الناسُ يَنَامُ فإذا مَاتُوا ائْتَبَهُوا فلا توبة حينئذ تُنال، ولا عشرة تُقال، ولا فداء بمال.

لما احتضر عبد الملك بن مروان قال: والله! لو ددت أني عبد رجلٍ من نُهامة، أرحى غنيماتٍ في جبالها، وأنى لم أَلِ من هذا الأمر شيئاً.

عبد الملك بن مروان ستة، أحدهم: هذا وهو الخليفة، الثاني: مدني، حدث عن سبلان، الثالث: أهوازي، روى عن سليم بن أخضر، الرابع: كوفي، روى عنه بشر بن معاذ، الخامس: بصري، روى عنه إسماعيل بن الفضل البلخي، السادس: روى عنه الأزعياني.

أين من بني وتحصن وشاد، واقتنى من دنياه ما انتهى واستفاد، ومكر واختل واختال فكداد، ونال أغراضه كلها أو كاد، واستبعد في مراداته العباد، تالله لقد تولى عما تولى، وتمنى الإقالة، فقبل له: كلا.

يا مريضاً ما يعرف أوجاعه، يا مضيع العمر بالساعة والساعة، يا شديد الغفلة وقد دنت الساعة، كأنك به وملك الموت قد راعه، وصاح بالنفس، فقالت: سمعاً وطاعة، وتهضت تعرض كأسد التوبة وقد أغلقت الباعة.

[السرير]

وَرَبَّنَا لَعَوْفِيضٌ ذُو الْعُقَلِ أَضْحَ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْقُمْ
يَا وَاضِعَ الْمَيْتِ فِي قَبْرِ غَاظِيكَ الْقَبْرِ لَمْ تَقُمْ
إخواني؛ تفكروا في أناس باتوا يلعبون، وتركوا يقين العلوم كمظنون،
وخاضوا من أمور الهوى في فنون، فزاد في اسم هواهم حرف تون، ﴿وَجِبَلُ يَتَنَّهُمْ
وَيَبْنَؤْنَ مَا يَشْكُرُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، لو رأيتهم حين الموت يبكون أسفاً على الفوت،
وينادون على ضعف الصوت: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، ندموا على ما
خلا من زمن لم ينفع ولا حصل بأيديهم سوى الصنف على بيعة مغبون، لو
شاهدتم في اليوم الموعود يقول قائلهم: لا أعود، والمسؤول يمنع والدمع
يجود، لم يبق لمن جفى جفون، يُعذبون في النار بالجوع من حشرات الرجوع،
ويشربون كؤوس الدمع والعيون كالعيون، لا نوم ولا قَرَار، ولا حَرَب ولا قَرَار،
ولا ملجأ إلا النار، قَارَ الْعَذَابُ بِالذَّارِ ﴿فَلَنْ تَعْبُورَ﴾ [التكوير: ٢٦]، يا
مشغولاً بالآمال عن العمل، يا كثير الخلل بالزلل، تيقظ قبل الأجل، فقد شرحنا
حال من غفل، أفترضى أن تكون: ﴿وَجِبَلُ يَتَنَّهُمْ وَيَبْنَؤْنَ مَا يَشْكُرُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، يا
ملوثاً قط ما ارعوى، يا مائل إذا أقيم الثوى، يا من حُب الدنيا على قلبه قد
خوى، ماذا هوى، هذا جنون، ﴿وَجِبَلُ يَتَنَّهُمْ وَيَبْنَؤْنَ مَا يَشْكُرُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

الفصل الثالث والستون

في قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ نَعَمِّرَكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ
مَنْ تَذَكَّرْ﴾ [فاطر، ٢٧]

لما استغاث أهل النار بلفظ: ﴿الْفَرَحَاءُ وَبَنَاتُهُ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] جامعهم
تويخ: ﴿أُولَئِكَ نَعَمِّرَكُم﴾ [فاطر: ٢٧]، وفي مقدار هذا التعبير أقوال:
أحدها: سبعين سنة، قال ابن عمر: هذه الآية تعبير لأبناء السبعين .
الثاني: ستون سنة، قاله ابن عباس.

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أَعَدَّ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أُخِرَ أَجَلُهُ سِتِينَ سَنَةً" .
الثالث: أربعون، قاله الحسن.

وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة، فليأخذ حذره من الله.
وقال عبادة بن الصامت: جاء جبريلُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم،
فقال له: " إن الله عز وجل أمر الحافظين، فقال لهما: أرفقا بعبدي في
حديثه، حتى إذا بلغ الأربعين فاحفظا وَحَقَّقَا " .
وقال عمر بن عبد العزيز: لقد تمت الحجة لله عز وجل على ابن
الأربعين فمات لها .

الرابع: ثمانية عشر سنة، قاله عطاء.

قال ابن وهب: قرأت في بعض الكتب أن منادياً يُنادي في السماء الرابعة
كل صباح أبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده، أبناء الخمسين ماذا قطعتم وماذا
أخترتم، أبناء الستين لا عذر لكم.
قال ابن عمر: (النذير): الشيب.

[الخفيف]

عَمَّ إِلَى عَمٍّ لَا تَرْغَبِي عَنْ قَبِيحٍ فُتِرْتُ بِالْمَشِيبِ بَلْكَ الصَّخَاخِ
 أَتَتْ فِي الْأَرَبِيِّينَ مِثْلُكَ فِي الْعِشْرِ رِبْسٌ قُلْ لِي نَفْسِي يَكُونُ الْفَلَاحِ
 يَا مَنْ شَابَ وَمَا تَابَ وَلَا أَصْلَحَ، يَا مُعْرِضًا إِلَى الْأَرْدَى عَنِ الْأَصْلَحِ،
 لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ الشَّيَابِ بِمَاذَا تَفْرَحُ، مَا أَتَيْحَ الْخَطَايَا فِي الصَّبَا وَمَيِّ فِي
 الْمَشِيبِ أَتَيْحَ، إِذَا نَزَلَ الشَّيْبُ وَلَمْ يَزَلِ الْعَبِّ لِعَبْدِ أَنْ يَبْرَحَ، يَا مَرْكَبًا يَخْطِفُ
 فِي الْمَعَاصِي لَا يَقِفُ وَلَا يَجْنَحُ.

[الكامل]

وَإِذَا تَكَاوَلَ لِلنَّفْسِ مِنْ عُثْرِه غَمَسُونَ وَهَوَّ إِلَى الثَّقَى لَا يَجْنَحُ
 عَلِقَتْ عَلَيْهِ الْمُخْرِبَاتُ فَمَا لَهُ مُتَأَخَّرُ عَنْهَا وَلَا مُتَزَعِّزُ
 وَإِذَا رَأَى الشُّبَّطَانِ عُثْرًا وَجْهَهُ خِيَا وَقَالَ قَدِيتُ مَنْ لَا يَفْلَحُ
 إِيَّاكَ لَمَّا بِكَ لِمَا بَكَ، وَانْدَبَ فِي شَيْبِكَ عَلَى شَيْبَاكَ، وَتَاهَبَ لِسَفَرِ
 الْمَتُونِ، فَقَدْ عَلِقَ الشَّيْبُ بِكَ، وَمَلَكَ الْمَوْتَ قَدْ جَدَّ فِي طَلَايِكَ.

[السريع]

سَوَّيْتُ بِالسَّوْوَةِ إِذْ لَمْ تُشِيبْ لَمَّا لَانَ قَدْ شَبَّتَ لَمَّا تَشْتَظِرُ
 أَبْعَدَ شَيْبِ الرَّأْيِ مَا تَرْغَبِي وَبَعْدَ قَوَاتِ الْعُثْرِ مَا تَشْتَزِرُ
 أَبْقَى بَعْدَ الشَّيْبِ نَذِيرَ، أَحْسَنَ بَعْدَ الْعَقْلِ تَذِيرَ، أَمَا يَكْفِي ضَعْفَ الْقَوَى
 فِي التَّحْذِيرِ، لَقَدْ نَسَخَ الْمَوْتَ بِالتَّصْرِيحِ التَّحْذِيرَ.

[الطويل]

وَعَبَّرَ الشُّصَابِي لِلْعَبِيرِ تَعْلَةً وَغَبَّرَ الْعَوَابِي لِلْمَشِيبِ صَحَابَ
 أَوَّلُ مَا لَا يَبْلُغُ الْعُثْرُ بَعْضَهُ غَاثُ الَّذِي بَعْدَ الْمَشِيبِ قَبَابَ
 وَطَعْمُ لَبَازِيِ الثَّمَرَاتِ لَا تُشْكُ مُهَجَّتِي أَسَفٌ عَلَى رَأْسِي وَطَارَ عُثْرَابُ
 أَيْنَ الشَّيَابِ كَأَنَّهُ مَا كَانَ، فَرَّغَ الْمَنْزِلَ وَرَحَلَ السَّكَانَ، لَمَّا رَأَى السَّوَادَ
 الْبِيَاضَ قَدْ بَانَ، أَعْطَاكَ قَوْسًا وَأَخَذَ خَصَنَ بَانَ

[الكامل]

إِنِّي لَأَعْلَمُ قَبْلَ نَفْسِي خَشْيَهُ مَا فِي كِتَابِي بِالْمُتَشَبِّهِ مُعْتَوِدُ
يا من شاب وانتهى وما انتهى، والعمر ينتهب انتهيا، أين قدماء الآباء،
سافر الأب والأم فما آيا، لقد دعا الموت الأب فما أبي، والجدُّ فجداً كلاهما
وأجابا، أرايته لما أخلا داراً داراً داراً أو رحابا جابا، لقد أصبح بسيفه ناسياً
في العمر لما وهى، وما قد قطع الشبا الشبابا، فيا باغي الهوى بزعمه، وكم
يُدعى فيأبى.

[المجث]

مَنْ عَاشَ سَعِيمَ غَاثَا فَقَدْ أَتَمَّ النِّصَابَا وَصَارَ بِاللَّهْوِ وَالرَّافُو وَالشُّرُورِ مُضَابَا
وَعَادَا مَا كَانَ حُلُومَا لَمْ مِنَ الْغَيْثِي ضَابَا وَمِنْ أَتَمَّ الرِّزَابَا عَلَيْهِ أَنْ يَنْضَابَا
نظر بعض السلف إلى طاقّة بيضاء في لحيته، فقال لأهله: قد وهبت لكم
شبابي، فهبوا إلي مشيبي، فدخل متعبداً له، فما زال يتعبّد حتى مات.
وكان آخر يقوم بشأن قوم، فنظر يوماً في المرآة، فرأى شعرة بيضاء في
وجهه، فقال: إنّما للو، أتى بريد الموت، طال ما أظليقت فيما يسرها، يا قوم
ارتادوا لأنفسكم غيري، أنا نائب إلى الله تعالى، فاعتزل القوم وتعبّد حتى
مات.

[الطويل]

أَرَى الْيَقَابَ قَدْ خَبِثَ عَلَى زَائِسِي بِأَقْلَامِ شَيْبٍ فِي مَفَارِقِ قِرْطَاسِي
فَلِإِنْ تَسْأَلُونَا مَنْ ذَا يَحْطُ خُرُوفُهَا فَكُفُّ اللَّيَالِي تَسْتَوِدُّ مِنَ الْغَاسِي
يا هذا! اندب على عمرٍ قد بقيت أطلاله، وعلى فضاة عيشٍ قد دنى
زواله، وعلى قليل زاجٍ قد دنى ارتحاله، وعلى مقبورٍ في القبر ما يدري ما
حاله، وعلى حثٍّ سريعٍ جعل المطايا كاليزاد استعجاله.

[مجزوء الرجز]

يَا سَائِقَ الْأَعْلَمَانِ أَوْ رَدَّ بَعْضُ مَا تَعْتَمِدُ
لِإِنْ يَنْزِلَنَّ سُورُهَا أَقْبَدَةُ كُنْ تَطْلُفُ

يَا زَيْدِي عَلَى الْفَضَا مَا أَتَيْتَ إِلَّا الْأَتَفَ
لَهَيْيَ عَالِيكَ مَاجِيَا لَوْ رَدَّكَ الشُّلُفُفُ
إِنْ كَانَ الشَّيَابُ لِقَاءَ فَالْمَشِيبِ وَدَاعٍ، وَإِنْ كَانَ السَّوَادُ سِرًّا كَانَ الْمَشِيبُ
كَشَفَ الْقَنَاعَ، هَذَا الْفَرْقُ قَدْ دَنَا فِيهَا يُغَذِّ الْأَجْتِمَاعُ، فَانْدَبَ عَلَى سَاعَاتٍ تُشْتَرَى
وَلَا تُبَاعُ.

[الكامل]

دَعُ شَأْنُ عَيْتِكَ يَا حَزِينُ وَشَأْنُهَا وَضِعَ الْيَتِيمُ عَلَى الْحَفَا وَتَمَلَّلَ
هَذَا زَمَانُ فِرَاقِهِمْ وَلَقُلْ مَا يُغْنِي وَلَوْ لَكَ سَاعَةٌ فِي الْمَنْزِلِ
يَا هَذَا، مَا مِنْ شُعْرَةٍ بِيضَاءٍ إِلَّا وَهِيَ تَنَادِي كُلَّ يَوْمٍ أَعْتَبَهَا: أَتَاكَ الْمَوْتُ
فَاسْتَعْبَدِي.

يَا هَذَا، وَدَعُ بَقِيَّةَ مَا لَا يَبْقَى، وَانْتَهَبُ قُضَايَةَ مَا قَدْ وَلِيَ، وَقَفَ فِي
عَرَضَاتِ الشَّيْبِ عَلَى أَطْلَالِ الْعُمَرِ، وَنَادَى فِي نَادِي الرَّحِيلِ بِلِسَانِ التَّوْدِيعِ قَبْلَ
انْفِصَالِ الْمَفَاقِلِ إِذَا التَّوَى التَّوَى.

[السريع]

يَا مَسْرُولا لَمْ تُبْلِ أَطْلَالُ حَافَا لَا أَطْلَالُكَ أَنْ تُبْلَى
فَالْعَيْشُ أَوْلَى مَا بَعْدَ الْفَنَى لَا بُدَّ لِلْمَسْخَرُونَ أَنْ يُسْلَى
لَمْ أَهْكَ أَطْلَالُكَ لِكَيْتِي بِعَيْتِكَ عَيْشِي فِيكَ إِذْ وَلَّى
إِعْوَانِي؟ قُرْبُ الرَّحِيلِ وَبَقِي الْقَلِيلِ، أَيْنَ جِهَادُ التَّحْوِيلِ؟ أَيْنَ الْبِكَاءُ
وَالْعَوِيلُ؟

وَلَمَّا أَرَفَ الْيَتِيمَا وَقَرَّبْنَا جَوَابِيَا
وَفَارَقْنَا غِيَبِيَا عَلَى حُرْقَةٍ قَلْبِيَا
تَبَاغَيْتَا قَرَوْنِيَا بِتَمَعِيَا وَقَابِيَا
وَتَحْنًا نَحْنُكُمْ أَلَوْجَدُ لَنْتَمِ الدُّمْعُ يَرْيَا

الفصل الرابع والستون

في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ
إِلَى رَبِّهِمْ يَكْبِتُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [يس: ٥١]

(الصُّورُ): قُرْآنٌ يُنْفَخُ فِيهِ، وقرأ الحسن: (في الصُّورِ) بفتح الواو.
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (صَاحِبُ الصُّورِ لَمْ يَطْرُقْ مِنْذُ وَجَلَّ بِهِ، يَنْظُرُ بِجَهَةِ
الْعَرْشِ، خِشَافَةٌ أَنْ يُؤَمَّرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرَفُهُ).
وفي حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنْ الْأَجْسَادُ
تَثَبَّتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَنَبَاتِ الْبَقْلِ، وَتَخْرُجُ الْأَزْوَاجُ كَأَمْثَالِ الثَّحْلِيِّ، فَتَدْخُلُ فِي
الْخَبَائِثِ، فَتَذُبُّ كَذَبِيبِ السَّمِّ فِي الدَّلِيغِ ".
و (الْأَجْسَادُ): الْقُبُورُ، وَ (يَكْبِتُونَ): يَخْرُجُونَ بِسُرْعَةٍ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ
تَعَالَى خُرُوجَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَمْثَالِ الثَّحْلِيِّ﴾ [الزمر: ٧]، وَذَلِكَ أَنَّ
الْجَرَادَ لَا جِهَةَ لَهُ يَقْصِدُهَا، فَهُوَ أَبَدًا مُخْتَلِفٌ، يَقْضِي فِي بَعْضٍ، فَهُمْ يَخْرُجُونَ
فَرِيعِينَ، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ جِهَةٌ يَقْصِدُهَا، وَقَالَ بَكْرُ الْعَابِدِ: (إِنَّ النَّاسَ يَخْرُجُونَ
مِنْ قُبُورِهِمْ يَقُولُونَ: الْمَاءُ الْمَاءُ، الْغَطْلُ الْغَطْلُ).
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَوْمُ النَّاسِ إِلَى رَبِّهِمْ الْكَافِ
الْمُطْلَقِينَ﴾ [٦]: (يَقُومُونَ بِأَلْفَةِ سَنَةٍ).
وَقَالَ كُتُبُ: (يَقُومُونَ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ).
وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ الشَّيْخِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ:
" يَقُومُونَ النَّاسُ أَلْفَ سَنَةٍ فِي الْعِلْمَةِ ".
وَقَالَ الْحَسَنُ: (لِلنَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُمُسُونَ مَوْقِفًا، كُلُّ مَوْقِفٍ أَلْفَ
سَنَةٍ).

وَقَالَ يَزِيدُ: (يَقُومُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ سَنَةً، وَتَقْضَى بَيْنَهُمْ فِي عَشْرِ أَلْفِ سَنَةٍ).

وَقَالَ مُبِيثُ بْنُ سَمَرٍ: (تَرَكُّدُ الشَّمْسِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَلْفِ سَنَةٍ، وَتُفْتَحُ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، فَتَهْبُ عَلَيْهِمْ رِيَّاحُهَا وَتَسْمُومُهَا، حَتَّى تُجْرِيَ الْأَنْهَارُ مِنْ عَرَقِهِمْ أَثْنُ مِنَ الْجَبِّ، وَالضَّائِمُونَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ).

وَقَالَ غَيْثُ اللَّهِ بْنُ الْعِزَّارِ^(١): (إِنَّ الْأَقْدَامَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلُ النَّكْلِ [فِي] الْقُرَى، وَالسَّيِّدُ الَّذِي يَجِدُ لِقْدِيمَهُ مُوضِعًا).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مِنْكُمْ شَفَاعَةُ مَنْ شَفَعَ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [يس: ٥٢]، قال المفسرون: سموا مضجعهم مرقداً؛ لأن العذاب يُرفع عنهم بين الضحيتين.
قال أبي بن كعب: (يَنَامُونَ نَوْمَةً قَبْلَ الْبُعْثِ، فَلَا تُجْلَى تِلْكَ النُّومَةُ قَالَ هَذَا الْكَلَامَ).

واعلم أن وقف التمام من مرقدنا؛ لأن قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [يس: ٥٢]، قال مجاهد: (هُوَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ)، وَالْحَسَنُ يَقُولُ: (هُوَ قَوْلُ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ)؛ فيقف على مرقدنا.

وقد اختار القراء الوقف على مواضع منها في (البقرة) لرفع الإشكال:
﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ثم يقف، ثم يبتدئ:
﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبُيُوتُ أَبْوَابًا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وفي (آل عمران): ﴿وَمَا يَسْكُنُ تِلْكَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، يقف، ثم يبتدئ:
﴿وَالَّذِينَ هُمْ فِي الْيَوْمِ﴾ [آل عمران: ٧].
وفي (براعة): ﴿وَلِلَّهِ لَا يَجِدُ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ١٩]، يقف، ثم يبتدئ:
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التوبة: ٢٠].

وفي (حم المؤمن): ﴿أَتَتَهُمْ أَنْصَابُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [طه: ٦]، يقف، ثم يبتدئ:
﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبِيَّ وَبِإِذْنِهِ﴾ [طه: ٧].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٠٩/٧)، رقم (٣٥٤٠٨).

(٢) ما بين المعكوفين ساكن من الأصل.

وفي (الحشر): ﴿إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ الْيَقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، يقف، ثم يبتدىء: ﴿يَلْقَى اللَّهَ الْمَكِينِ﴾ [الحشر: ٨].

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَبَاحَةً وَحِيدَةً﴾ [يس: ٢٩]، إن في القرآن على أربعة أوجه:

- أحدها: بمعنى الشرط: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١].
- الثاني: بمعنى (ما): ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦].
- الثالث: بمعنى (لقد): ﴿إِنْ تَقَمَّتِ الْأَرْضُ﴾ [الأعلى: ٩].
- الرابع: بمعنى (إذا): ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحْشَرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].
يَا قَوْمًا، دُرُغَ بَوْمِكْ حَضَادَ غَدِكْ، كَادَ سَمِيْطُ بَرٍّ عَجَلَانِ يَقُولُ: (يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا الدُّنْيَا عِدَاةٌ وَعَشَاءٌ، فَإِذَا أَشْرَحْتَ عَذَابَكَ لِعَشَاكَ، أَمْسَى بِهَوَاكَ فِي دِيَارِ الصَّائِبِينَ).

وَكَادَ مَرْوَانَ يَقُولُ: «لَيْسْتُمْ نِيَابَ الْفَرَاغِ قَبْلَ الْعَمَلِ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْفَاعِلِ إِذَا عَمِلَ يَلْسُ أَذَى نِيَابِهِ، فَإِذَا فَرَغَ الْعَمَلِ، وَلَيْسَ نِيَابًا نَيْبَةً، وَأَنْتُمْ لَيْسْتُمْ نِيَابَ الْفَرَاغِ قَبْلَ الْعَمَلِ».

إخواني، أين حسرة طوت أمس؟ أين الغنم وجود اليوم؟ أين خوف مخاطرة غدا؟ أمس قد مات، واليوم لمي التزع، وغدا لم يُولد !
إخواني، كان القلوب ليست منا، وكان الحديث نعتي به غيرنا.

[الطويل]

تَرْوَدُ قَرِيْبًا مِنْ بَعَالِكَ إِنَّمَا قَرِيْبُ الْفَنَى فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
أَلَا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ ضَيِّفٌ لِأَهْلِهِ يُقِيمُ قَلِيلًا عَشْدَقَهُمْ ثُمَّ يَرْحَلُ
تالله لقد سال بك السَّيْلُ، وأنت في الهوى تُسَمِّرُ الذَّيْلُ، تجري في
أَغْرَاضِكَ جري الخيل، لا يُوقِفُكَ الصَّحْبُ وَلَا يَمُوقُكَ اللَّيْلُ، تنقلب على فراش
لحمٍ عَشْوَةٌ وَبَلٍ، وتُدْعَى بالعاقِلِ والفعل فعل الطَّقِيلِ، إلى كم تُقَوِّمُ يا شديد

الميل، يا عطشان الهوى وهو في دجلة دجيل، إنما تُجزى بعملك قدر كيل بكيل، أما تنبه بهذا الزجر، أما يؤلمك طول الهجر، أما ثم نية في طلاب الأجر، إلى متى أنت في ثياب الغدر، أما تحت العقل على الصبر، ألا أراك تلعب بالجمرة، أي سكران الهوى لا بالخمر، نسخ ليل الشباب بنور الفجر، وفنى الموسم وما بال ربح التجر، يا عجيب الحال يا طريف الأمر، كيف تحصد أي مُضَيَّعًا لِلْبَدْر؟ يا قليل البضاعة، بل يا مُفلس يرجو النجاة بالمعاصي لقد وسوس، أتليس ثوب النسك ثم تُلْبَس، جاء الصباح فتسخ حكم الجنديس، وأطرق اللُيُوفَر لما حرق النرجس، يا من يقوم من المجلس كما يجلس ! كن كيف شئت لأنما تجني ما تغرس، ألك عذر؟! قلّي ! تَمَلَّا الْبَاطِلُ يَخْرُس.

الفصل الخامس والستون

في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿٤١﴾

[الصافات: ٤١]

هذا هو الرزق في الجنة، وفي معنى (معلوم) قولان:

أحدهما: حين يشتهونه، قاله مقاتل.

الثاني: أنه بمقدار الغداة والعشي، قاله ابن السائب.

قال العلماء: ليس في الجنة ليل ولا نهار، وإنما هي في نور أبداً، وإنما يعرفون مقدار الليل بِإِزْخَامِ الْحُجُبِ وإغلاق الأبواب.

والفواكه: جمع فاكهة، وهي الثمار وطبها وبابسها.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (عَلَى سُرُرٍ مُتَخَلِّلَةٍ بِالزُّبُرِجِدِ، وَالْبُرِّ وَالْيَاقُوتِ، الشَّرِيفِ
مِثْلُ مَا بَيْنَ غَدَنٍ إِلَى آيَلَةٍ، مُتَقَابِلِينَ لَا يَرَى بَعْضُهُمْ قَفَا بَعْضٍ، حَيْثُ مَا تَنَقَّصَ
يَرَى وَجْهَهَا يُجِبُّهُ بِقَابِلَةٍ).

قوله تعالى: ﴿يُتْلَا عَلَيْهِمْ بِكُلِّ﴾ [الصافات: ٤٥]

قَالَ الصَّخَاكُ: (كُلُّ نَاسٍ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ إِنَّمَا يُعْنَى بِهَا الْخَمْرُ).

قَالَ الْبَغَوِيُّ: الْكَأْسُ فِي الْقُرْآنِ: الْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ، فَإِنْ كَانَ قَارِعًا فَلَيْسَ
بِكَأْسٍ. وَالتَّائِيْدَةُ: كُلُّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأُخُوَّةِ طَعَامًا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ طَعَامٌ
فَلَيْسَ بِتَائِيْدَةٍ. وَالتَّهْدِي: التَّلْقِي الَّذِي تَهْدِي عَلَيْهِ الْهَدِيَّةَ، فَإِذَا كَانَ قَارِعًا رَجِعَ
إِلَى أَشْيَاءِ إِذْ كَانَ ظَلَمًا أَوْ جَوَانًا أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وأما المعين: الطاهر وهو مفعول من العين، وهو الخمر هاهنا.

قَالَ الْحَسَنُ: (خَمْرُ الْجَنَّةِ أَشَدُّ تَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ).

قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّمُوا الْفَاسِقِينَ﴾ [الصافات: ٤٦] أي: ذات لمة لا تُكَلِّمُوا

عَقُولُهُمْ بِشَرِّهَا، يقال للسكان: تَوَيْفٌ وَتَفَرَّتْ، وقرأ الكسائي وحمزة بكسر الراء أي: لا يَفْعِدُ شرايهم، لأنه دائم.

﴿وَعِنْدَكُمْ قَبْرُكَ الْقَرِيبِ يَوْمَ ۝٤٨﴾ [الصافات: ٤٨]؛ أي: نساء قد قصرن أطرافهن على أزواجهن، لا ينظرون إلى غيرهم.
وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: «الْمَرْأَةُ تَقُولُ لِزَوْجِهَا: وَجِزْهُ رَبِّي مَا أَرَى فِي الْجَنَّةِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْكَ».

و(العين): حسان الأعين كبارها، وفي المفراد بالبيض ثلاثة أقوال:

أحدها: اللؤلؤ، قاله ابن عباس .

الثاني: بيض النعام، قاله الحسن، والعرب تسمي المرأة البيضاء الحسنة بيضة شفرة بصفرة.

الثالث: البيض حين يُقَشَّرُ قبل أن تمسه الأيدي، قاله سعيد بن جبير.

فعلى الأول مكتون بضم الكاف، وعلى الثاني برش النعام، وعلى الثالث بقشرة.

﴿فَأَنزَلَ مِنْهُمْ مَتَاعًا قَلِيلًا مِّنْهُ يَخْتَصِمُونَ ۝٥٠﴾ [الصافات: ٥٠] عن أحوال كانت لهم في الدنيا.

﴿قَالَ قَبِلْ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِيبٌ ۝٥١﴾ يقول لملك من المَكْرُوبِينَ [الصافات: ٥١ - ٥٢]؛ أي: بالغيب، وهذان هما الأخوان المذكوران في الكهف، كان هذا المؤمن من سادات الأنبياء، وأخوه الكافر من رموس الأشقياء، فلما احتاج التَّيْبِيُّ قَفَرَهُ احتاج قَفَرُهُنَّ لِأَخِيهِ، فقال له: يعني دينك ببعض مالي، وإلا فمالك ومالي، ثم أدخله مخدع حديثه، ونصب له شرك شركه، فراغ به وقت الفراغ إلى جنا جناته، وقد ففر الثَّوْرُ فاء، ففر فأراه اعتناق اعتناق أعتابه، تميد بها الميد في ميدان منسى الميسره، وقد تبدي الحفف، (حفففناهما) وَزَوَّجَتْ زَوْجَ زُؤْمَانَةَ الزُّؤُورِ على زور الغرور لزور الهوى، وملأت الشمار أكمامها بيد أنما نملي لهم، قد آتت أكلها والماء بين الزرع وَقْدَائِبَهَا قَدْ أَثْمَهَا مِنْ فُجٍّ: ﴿وَقَمَرًا جَلَّتْهَا تَهْرًا﴾ [الكهف: ٣٣]، فمال به المال إلى الفخر بأسر عنه كمالا قال: ﴿لَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا﴾ [الكهف: ٣٤]، ولفظ الإيمان في لُفٍّ: ﴿وَمَا لَكُمْ

أَكْفَانَةً قَائِمَةً ﴿[الكهف: ٣٦]، فيز المؤمن في جدد جداله بإنكار: ﴿أَكْفَرْتُ﴾ [الكهف: ٣٧].

فأخبره بتقليب الدول في عبارة: ﴿فَقَسَنَ رَبِّي﴾ [الكهف: ٤٠]، فرست أظناب فريسة المؤمن في تراب المبارزة إلى أن فرست قرسه، فبان صدق ظنه يوم أحيط بشمره، فأصبح بعد أن راح يصفى الراح، ويصفق الأبراج بقلب كثير الأتراح، فجاءه العذاب فجأة، والفجائع فيه ولم تكن له فيه، فإذا قامت القيامة، واستوفى المؤمن وعد: ﴿إِنِّي جَزَّيْتُهُمْ الْيَوْمَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، سمعت ذوي الشكر في دو دولته، ينرم بأدلة: ﴿قَالُوا أَلَيْسَ لَنَا نَبِيُّنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الصافات: ٥٤ - ٥٥]، فلما رآه قد دين أخذ يشكر الدين: ﴿قَالَ تَقُولُوا إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ رَبِّي﴾ [الصافات: ٥٦]، فلو رأيت طربه في شكر شكر: ﴿وَلَوْلَا بِرَّتُهُ رَبِّي﴾ [الصافات: ٥٧]، فلو أن ناظرًا ناظرًا يتلمح جولان مفسر الفمير في لزيد العافية، وفرحة الفطر بعد أوصاب الصوم، ويتناول العذب بعد عذاب الضما، وسلامة الغريق بعد الإغراق في أذى الأذى، وخلص الشجر من تجارة متاجر المكس، وتلاقي الأحباب على باب الطول بعد طول الفراق، لرأى من قرة العيون ما لا يدخل تحت قياس بعد أن حلق ناس، لما يُدري بأي وقر يفرحون، ولا لأي أمر من الأمن يفرحون، أبالنجاه من النيران أم بغفران العصيان، أم بانهزام أحزاب الأحزان، أم برفض أرض الرضوان، أم بعز ما يهوى به بعدد هادٍ هوان، لا بل أجل وأعلى من هذا الشأن، كشف الحجاب لهم من عين العيان، ورؤية بصر ما تمنى من رؤية المنان، وسمع الكلام بغير واسطة ملك أو إنسان: ﴿عَلَى جَزَاءِ الْإِنْسَانِ إِلَّا الْإِنْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

الفصل السادس والستون

في قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَالِعٌ إِلَيْكَ رَبِّي﴾

[الصافات: ٩٩]

الإشارة إلى الخليل عليه السلام، لما علا علاه بحجاء في حجاج قومه من حر حر قوه، وهاجر إلى الشام في رقة: ﴿إِنِّي ذَالِعٌ إِلَيْكَ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]، والمعنى: إلى حيث أمرني ربي، فلما قدم الأرض المقدسة، سأل عوناً على دينه في صريح: ﴿قَبِّ لِي بِمَا كَفَّلْتَنِي﴾ [الصافات: ١٠٠]، فبشر إليه: ﴿فَتَشَرَّفْتَ بِعَلَمِ كَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، فلما صلح أن يسعى معه في طروق طريقه غرض الهوى فيه يَرْثِي بِرَبِّهِ، فصب على إناء: ﴿إِنِّي لَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢]، فيشترناه، صار إني أرى، فأحب أن ينظر وهو لي أشد شدة قبل أن يوثق الغلام للذبح رشده، هل بلغ الصبي قبل البلوغ أشده، كما أوتي أبوه من قبل رشده، فعرض عليه مرآة الرأي في يد: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢]، فقابلها بوجه التوجه، يسعى على أقدام: ﴿تَأْتِيهِ الْقُلُوبُ مَا نَزَرَتْ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فسكن ما جاش من جاش أبيه يتسكين: ﴿سَتَجِدُنِي﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصاح به لسان اليقظة دع دعواك، فقيد لفظه بقيد: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ثم قال: يا أبتني اشد رباطي ليمتنع ظاهري من التزلزل كما سكن قلبي يسكون السكون، واكفف ثيابك عن دمي، لئلا يصفها عندي، فتحنن لرويتها أمني، واقرأ عليها السلام مني، فأمر السكين على مريثي المرء فما مرث، غير أن أحزان الفراق للعيش أمرت، فصاح الصبي يا أبي اطعن بها طعناً، فطعن بها في الحلق فنبت، لكن حب الرضا في أرض حبة القلب قد نبت، يا إبراهيم من عادة حدة الحديد أن تقطع، ومن عادة ضعف

الصبي أن يفرغ ويجزغ، فلما نسخ الذبح نسحة الصبر ومحي سطور الجزع، قلينا عادة حدة الحديد فما مر ولا قطع، وليس المراد أن يُعذب، لكن يتلى لِيَهْدَبَ.

يا إبراهيم الذي عليك تحريك اليد للذبح بالحديد، والذي على الذبح أن لا يُيدي ولا يُعيد، ثم نحن نفعل في ملكنا ما نريد.

أين المعتبرون في قصصهما ١٩٩ تالله لقد حصص الحق في حصتهما، لما جعلنا الطاعة إلى الرضا سُلتنا، سل ما يؤدي لُسُلنا، وَكُلُّنَا كَلَّمَا حاجب كَلَّمْتُمْ، كَلَّمْنَا يذبح به قصد ما به سُدما، بيننا هما على تل وتله جاء بشير: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ﴾ [الصافات: ١٠٥]، فارتد أعمى الحزن بصيرًا بقميص: ﴿وَقَلِيلَةٌ﴾ [الصافات: ١٠٧]، تالله ليس العجب من ذبح الخليل لولده، وإنما العجب من مباشرة الذبح بيده، وأعجب من ذا موافقة الصبي لوالده، وأعجب من ذا أنه لما أمر حد حديدة الخنجره على حنجرته، فَمَرَّتْ وَتَا أَمَرَّتْ كيف صاح الصبي: يا أبه! اظعن بها طعنًا، ولولا أن عقاب العقل كل من محله الطبع، فحل محل تعظيم الشرع الحسن نفوذ هيبه، أمر إلى تذكر عظيم الأجر، وصار كغائب عن حضور الذبح، ما قدر على إجراء المذبة في مداها، غير أنه أذهله تعظيم خليه، فعمل في الأمر على دليله، فَحَقَّ فَحَقَّ الاغتراضي بالصبر، فَبُدَّتْ يَدُ الْحِزَاوِ، وَكَشَفَتْ سَرَاقَاتِ الْحُجُبِ، فَلَاحَ الْفَلَاحُ مِنْ جَلَالِ فَخْرِ الْآخِرِ بِرُؤْيَةِ عَظَمَةِ جَلَالِ وَجْهِ الْحَيِّ، فَسَكَنَ الْقَلْبُ بِرُؤْيَةِ عَيْنِ شَوْقِي يُوسُفَ الْوَعْدِ، فَعَمَزَتْ مَرَارَةُ الْبَلَاءِ بِجُلُودِ الْمَشَاهِدَةِ: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرَتْ وَقَلْعَنَ لِيَذْبَنَ﴾ [يوسف: ٣١].

كَلَّمْ تَقْضُ الْمُجْبِنِ حَبِيئَهُ وَبَذَتْ فِي الْقَدْرِ وَبِهَا الْمَاءَ وَالنَّارَ تَحْتَهَا، فَعَلَيْنِ الْمَاءَ وَهُوَ يَكَلِّمُ حَبِيئَهُ، فَمَا أَحْسَنَ، فَسَقَطَتْ أَصَابِعُ يَدِي.

إخواني! من أراد علينا العلا، فليرتقي بسلام تسليم للاملا، ملة أيكم إبراهيم، أين من قطع أوداج التماذي بيد الحد، وأراق دم الهوى الرائق بدم المجد، وأعاد عود عاداته منشورًا بقدر المستعد، وعلى وعيد عوده عن العدو بأيسر العبد.

مَنْ تَعَفَّلَ فَتُعَفَّلْ بِعَفْوَالِ غَفْلِكَ، وَتَمَرَّ عَلَى حُلُقِ حَرَمِكَ سَكِينِ
 بِتَسْكِينِ صَبْرِكَ، مَنْ تَرَمَى طَمَعُكَ عَنْ قَوْسِ بَأْسِكَ، مَنْ تَفَرَّى أَوْدَاجِ
 أَهْلِكَ، بِحَدِّ حَدِيدَةِ جِدِّكَ، كَلَّا إِنْ أَرَدْتَ الْوَصْلَ إِلَى مَنْى الْمُنَى، فَسَقْ هَدْيَ
 الْهُدَى، وَاتَّحِرْ نَجْرَةَ بَحْرَةِ حَرِيكَ، وَلَقَطْعَةَ سَيْفِ أَسْفَكَ، عَلَى سَوَاءِ مَسَاوِي
 مَسْلَفِكَ.

الفصل السابع والستون

في قوله تعالى: ﴿وَمَلَأْنَاكَ نَبَؤًا الْخَصِمِ إِذْ تَسَوَّرُوا

الْبَحْرَ﴾ ﴿١٠﴾ [ص: ٢١]

لَمَّا زَلَّتْ عُرُوسُ النُّبُوَّةِ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ خُطْبِهِ، لَقِنَ فَصْلَ الْخُطَابِ فَلَمَّا اضْطَرْبَ شَجْوُ شُكْرِهِ، سَمِعَ الْقَبُولَ مِنْ إِقْطَاعِ: ﴿يَنْجِبُكَ لَوْيَ مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠]، فَلَمَّا أَعْجَبَهُ تَصْحِيحُ الصَّحْوِ مِنْ خَمَرِ تَجَهُّزِ لِلجَّهَازِ عَلَى جَرَحِ الزَّلَلِ، فَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ لَا تَغْفِرُ، وَالْقَدَرُ قَدْ مَلَأَ لَهُ مِمَّا سَيَعِضُ عَلَيْهِ الْأَنَامِلُ مِلَى الْإِنَاءِ، فَأَبْثَلَنِي بِالذُّنْبِ، حَتَّى نَكَسَ رَأْسُهُ عَلَى عَقَبَةِ النَّدْبِ، فَدَبَّ إِلَى دَاوُدَ دَاءَ الْمَعَاصِي دَيْبِ الدِّيَابِ مِنْ حَيْثُ مَا دَبَّرَ، فَرَمَاهُ سَهْمُ الْقَدَرِ فِي فُرُوعِ الْفَتَنِ، فَمَا قَدَرَ الدَّرَاعَ عَلَى رَدِّهِ بِدَرْعِ: ﴿وَقَيِّزْ فِي الْفِتْنَةِ﴾ [سبأ: ١١]، [الرملة]

فَإِذَا سَهْمُ الْأَسْفَادِ يَرْمِي لِمُذْرُوعِ الْمَرْءِ أَخَوَانِ النُّصَالِ ادْعَى لِقْوَةَ عَصْمَتِهِ لِقَاءَ قَرْنِ الْهَوَى، فَلَاخَتْ لَهُ فِي جَمَى دَهْقَوَاهُ حِمَا جَمَّةٌ مِنْ دَقَبٍ، فَلَقَبَتْ لِيَصْدهَا، فَوَقَعَ فِي عَيْنِ شَرِكِ عَيْنِهِ، فَازْدَرَى حَرْبَ النَّظَرِ لِقْوَةَ الْأَعْتَادِ، فَصَارَتْ نَظَرُهُ سَمَا لَهَا عُنَادُ: [الرجز]

قَرْنٌ عَصَاةُ الْبَيْتِ أَنْ قَدْ سَلَّمَا لَمَّا رَمَى سَهْمَهَا وَمَا أَجْرَى دَفَا فَعَادَ يَسْتَنْقِصِي خَشَاءَ فَإِذَا فُرَادَاهُ مِنْ بَيْنِهَا قَدْ عَدِمَا لَمْ يَبْرَ مِنْ أَيْتَنَ أَصِيبَ قَلْبُهُ وَإِنَّمَا الرَّمَايِي قَرَى عَنَيْتَ رَمَى تَغْلُغَلُ سَهْمٌ تَحْتَ بِلَالَةِ التَّعْلِيلِ، فَمَا أَحْسَى بِهِ مَرَّ الْمَرْءِ الْعَرْمِي، فَطَافَ عَلَى بَابِ الْمَرِيضِ طَيِّبِ الْأَلْطَافِ، فَأَرَادَ اسْتِخْرَاجَ النُّصْلِ مِنْ بَاطِنِ الشَّرِيَانِ، لَجَشَى عَلَى عَنَبَةِ عَنَابِهِ بِأَعْنَابِهِ، ﴿لَا تَخَفْ خُصْمَانِ﴾ [ص: ٢٢]، فَقَطَعَى دَاوُدَ عَلَى

نفسه في صريح: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ [ص: ٢٤]، فبينما هو يلاحظ لفظ القضية، المعاني معاني المعاصي، فلما فطن داود: ﴿أَلَمْ أَفْتِنُكَ﴾ [ص: ٢٤] وأحس حس السهم بعد السهو، فنزل المرء عن مركب العز إلى مس مسجد الذل، واقترب فراش من أساء في بيت الأساء، وخلع جلع الفرح لجلباب الحزن، وزو زو زمامة الخوف على شعار القلق، فأسكت الحماكم بنوحه، وشغلها عن صدحها بصوته، فبالغ حريق الندم في سوائد قلبه، وأقلق القلوب بشجي شجنه، ومات خلق من الخلق بترنم شجوه، وشرب عرق العشب من عين عينه، فإذا هاج النحيب عن زفرة نفس أذنبت، هاج الثبات بعد تضارته إذ نبت، وحشى سبعة فرش وماذا، ثم فرشها فرشها بماء رمى داء الحشا، كان يقول: (إِلَهِي خَرَجْتُ أَسْأَلُ أَطِبَّاءَ عِبَادِكَ يُدَاوُوا لِي جُرْحَ خَطِيئَتِي، فَكُلُّهُمْ يَدُلُّنِي عَلَيْكَ)، وكانوا يُعَايِنُونَهُ عَلَى كَثْرَةِ بَكَائِهِ، فيقول: (دَعُونِي أَبْكِي قَبْلَ يَوْمِ الْبُكَاءِ).

[البيط]

مَا يَزْعَمُ الْمُشْفَى مِنْهُ أَلَمْ يَهْ إِلَّا لَقِيَ مُبَشَّلاً فِي مِثْلِ خَالِدِهِ
كان يقول في بكائه: (رَبِّ أَيْدِ عَيْنِي بِالدُّمُوعِ وَخُفِّضِي بِالْقُوَّةِ عَنِّي أَبْلُغَ رِضَاكَ عَنِّي)، ما فتح بدمعه لثراكم أذنان الذنب، فسأل سبل مد المدد، ليتيقن طهارة النجس، ومذهب الزورعين الاحتياط، هب لي عينين هطاليتين.

[البيط]

يَا تَارِحًا تَزَعَّتْ قَمْعِي فَطَيَعْتُهُ هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ يَهْ
عَنِّي مَتَى زَفَرَاتِي فِي ثَمَاعِدِهَا إِلَى الْمَمَاتِ وَدَمْعِي فِي تَضَوُّبِهِ
وَلِي مُزَادٌ إِذَا كَانَ الْعَذَابُ يَهْ هَامَ اسْتِيئَانًا إِلَى لُقْيَا مُعْتَبِرِهِ
ما زال يغسل العين من عين العين، ولسان العتاب يقول: يا بعد اللقاء، وكلما رفع قصة غصة جاء الجواب بزيادة الجوى، وهو بنوح، وينادي حتى أقلق الحاضر والبادي.

[مجزوء البيط]

إِنْ شَفِيتَنِي بِإِيَّتِكَ مَتَى دُمُوعُ عَيْنِي وَخُشْنُ قَلْبِي
فَبِأَلَيْ قَادِرِي دَلِيلًا إِلَيْكَ إِلَّا عَفْوَتُ عَنِّي

الفصل الثامن والستون

في قوله عز وجل: ﴿وَوَعَدْنَا إِدْرِيكَ سَكِينَةً﴾

[ص: ٣٠]

ومن أنعام الله تعالى على داود، أن أراه ولدًا يصلح أن يكون وراءه، فأفاض على الوالد حلة: ﴿وَوَعَدْنَا﴾ [ص: ٣٠]، وعلى الولد بحلة: ﴿يَقَمُ الْقَبْدُ﴾ [ص: ٣٠]، وأمر عين أبيه في إصابة هدف أخطاء الأب يوم تصال: ﴿إِذْ يَتَصَدَّقُونَ فِي الْمَزِينِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، فراغ سهم داود، وقرطس سهم سليمان في غرض: ﴿فَقَهَمْنَاهَا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

كان لداود سبعة عشر ذكرًا، ما ذكر في الذكر للذكرى سوى سليمان، وكذلك كان ليعقوب اثنا عشر ولدًا، فما خلا على شرف الشرف سوى يوسف عليه السلام، فقرن لسليمان بعد أبيه بين الملك والنبوة، وضمت إليه فضيلة العلم مع منصب الأيو، فما شغله ما ملك عن من ملك، بل قابل قبلة الشكر حتى أعجز الملك.

وَالْأَوَابُ: الرَّجَاعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالثَّوْبَةِ

وَالْعُشْرِ: مَا تَعْدُ الرُّوَالِ.

وَالضَّائِقَاتُ: الْخَيْلُ الْقَائِنَةُ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ، وَقَدْ أَقَامَتْ الْآخَرَى عَلَى ظَرْفِ الْخَالِجِ مِنْ يَدِ أَوْ رَجُلٍ، تَرَاوَحَ بَيْنَ قَوَائِمِهَا.

والخير^(١) في القرآن على اثني وعشرين وجهًا:

(١) الْخَيْرُ: اسْمٌ لِكُلِّ مَتَدَوِّجٍ وَمَرْجُوبٍ فِيهِ. وَالْخَيْرُ: الْحَرَمُ.

وَالْاِسْتِخَارَةُ أَنْ تَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى خَيْرَ الْأَمْرَيْنِ.

الأول: القرآن: ﴿يُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ فِي خَيْرِ مَنَ رَيْبِكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

الثاني: الأنفع: ﴿ثَانِ يَخْرُجُ فِيهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

الثالث: المال: ﴿إِن تَرَكَهُ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

الرابع: ضد الشر: ﴿يَمُوتُ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الخامس: الصلاح: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

السادس: الولد الصالح: ﴿وَيَحْمِلُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

السابع: العافية: ﴿وَلَدَ يَسْتَكْ يَخْرُجُ﴾ [الأنعام: ١٧].

الثامن: المنافع: ﴿لَتَنصَحُنَّكَ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

التاسع: الإيمان: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٢٣].

العاشر: رخص الأسعار: ﴿إِنِّي أُرِيدُكُمْ يَخْرُجُ﴾ [هود: ٨٤].

الحادي عشر: التوافل: ﴿وَلَوْحَسَا إِلَيْهِمْ فَعَلَّ الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

الثاني عشر: الأجر: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦].

الثالث عشر: الأفضل: ﴿وَلَا تَخْرُجُوا إِلَيْهِمْ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

الرابع عشر: العفة: ﴿فَلَنْ أَلْمُتُونَهُ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

الخامس عشر: الصلاح: ﴿إِن عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٢٣].

السادس عشر: الطعام: ﴿إِنِّي لَمَّا تَرَكْتُ إِلًا مِن خَيْرٍ لَّيْسَ﴾ [القصص: ٢٤].

السابع عشر: الظفر: ﴿لَوْ يَتْلُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

الثامن عشر: الخيل: ﴿إِنِّي لَجِيتُ حَبَّ الْقَرْيَةِ﴾ [ص: ٣٢].

التاسع عشر: القوة: ﴿أَعْلَمَ خَيْرًا أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ﴾ [الدخان: ٣٧].

العشرون: حسن الأدب: ﴿كَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

الحادي والعشرون: الإسلام: ﴿فَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ﴾ [ق: ٢٥]، نزلت في الوليد ابن المغيرة، منع بني أخيه من الإسلام.

الثاني والعشرون: الدنيا: ﴿لِحُبِّ الْغَيْرِ تَتَذَبَّدُ﴾ [العاديات: ٨].

قال المفسرون: والمراد بذكر ربه صلاة العصر: ﴿حَقُّ تَوَارَتِ بِالْجَنَابِ﴾ [ص: ٣٢]؛ يعني: الشمس.

يا عجباً لهذا المتليظ طراً عليه نسيان البشرية، فلهي عن صلاته لا أنه لهم، فثارت حمية النية الدينية لها، فصاح لسان العزم بفصيح عتاب النفس: ﴿إِنِّي أَتَيْتُكَ حُبَّ الْغَيْرِ﴾ [ص: ٣٢]، فأجابه التدم بعبارة الاستدراك: ﴿وَرَبُّوْكَ عَلَيَّ﴾ [ص: ٣٣]، فجالت يد البطش بصارم: ﴿فَطَقِيقٌ مَسْحًا﴾ [ص: ٣٣]؛ أي: أقبل يمسح مسحاً، والسوق جمع ساق.

قَالَ الْخَسَنُ: ﴿يَضْرِبُهَا بِالسَّيْفِ﴾.

قَالَ وَهْبٌ: ﴿فَتَشْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ ذَلِكَ، فَتَسْحَرُ لَهُ الرِّيحُ مَنَاجِيَهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنَّا سَلْبَةً﴾ [ص: ٣٤]، الفتنة^(١) في القرآن على خمسة عشر وجهاً:

أحدها: الشرك: ﴿عَلَى لَا تَكْفُرُ إِلَهَةً﴾ [البقرة: ١٩٣].

الثاني: الكفر: ﴿أَتَيْتَهُمُ الْبَيْتَ﴾ [آل عمران: ٧].

الثالث: القتل: ﴿أَن يَحْيِيَكُمْ الْغَيْبُ كَمْوَاتًا﴾ [النساء: ١٠١].

الرابع: الصد: ﴿وَلَمَّا دَرَأْتُمْ أَن تَقِيسُوا﴾ [المائدة: ٤٩].

الخامس: الضلالة: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ [المائدة: ٤٦].

(١) قال ابن تيمية: الفتنة: الاختيار. يقال: كُنْتُ اللَّعَبُ فِي الثَّارِ، إِذَا أَدْخَلْتُ إِلَيْهَا تَقْلَمُ جُودَتَهُ مِنْ زَكَاتِهِ.

وقال ابن فارس: يقال: قَتْنَا وَأَقْتْنَا. وانكسر الألف في أَقْتْنَا.

وَالْقَاتَانُ: الشَّيْطَانُ، وَقَلْبٌ قَاتِنٌ، أَيْ: مُتَلَوِّنٌ.

قال الشاعر: [المطارب]

زَجِجْتُ الْكَلَامَ لَطِيعَ الْقِيَامِ... لَدَى أَشْيَى مُؤَادِي بِهِ قَاتِنَا

- السادس: المعفزة: ﴿فَإِنَّكَ تَرَىٰ كُلَّ عِزٍّ يَنْتَحِبُ﴾ [الأنعام: ٢٣].
- السابع: القضاء: ﴿إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ﴾ [الأعراف: ١٥٥].
- الثامن: الإنم: ﴿أَلَا فِي الْبَيْتِ سَكَنٌ﴾ [التوبة: ٤٩].
- التاسع: المرض: ﴿يَلْقَىٰكَ فِي حَكْلِ عَاوِي﴾ [التوبة: ١٢٦].
- العاشر: العبرة: ﴿لَا تَحْكُمَ بِشَيْءٍ﴾ [يونس: ٨٥].
- الحادي عشر: العقوبة: ﴿أَلَمْ يُبَيِّنْهُمُ شَيْئًا﴾ [التور: ٦٣].
- الثاني عشر: الاختبار: ﴿فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٣].
- الثالث عشر: العذاب: ﴿جَعَلَ بَيْنَهُمُ الْخَيْبَ كَذَابٍ لِّقَوْمٍ﴾ [العنكبوت: ١٠].
- الرابع عشر: العرض: ﴿يَوْمَ قَمَّ عَلَىٰ كَثِيرٍ يُقْتَلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].
- الخامس عشر: الجنون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [القلم: ٦].
- فلما زاد ملك سليمان على ملك الأب، أب إليه الأب، طرد عليل الآفات تحت غلال الاختبار ديب المغفل، فتروى فن الفن، فصنحت ورق البلاء على ورق اللاواء، فتعق غراب البين بينها، فقام وسط مأتم ما تم: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]، فعل بعض ما لا يسامح بمثله مثله، قعد العدو عند خاتمه، فلما حالت بالذنب حلية حُلته، خرج لما عرا عن العراء عن حلته، قد عرى بما عر عن شمل مملكته، فكان إذا استطعم لا يطعم، وإن استرحم لا يرحم، وخلفه خلفه خلف، فقام في مقام: ﴿وَأَلْفَا﴾ [ص: ٣٤]، فعصعص ليل البلاء أربعين ليلة، إلى أن تنفس صبح السلامة، وبث حيله فساح يومًا في فساح الساحل، فجاء فجاء يستطعم على شدة الفجائع، وقد كان يُشبع ألف جائع وألف جائع، فمشى على شق المشقة إلى السؤال، فنول حوتًا بكف النوال، فلما شفه فرج الفرج، فراج ما رجا، فلاج الخاتم من مطلع الفلاج، فولى راجعًا مراجعًا مطلقة الملك، فسخرت له الريح نقل بساطه، عن البسيطة جزاء انبساطه في غيره، وطفق وذلت له الشياطين وهم خدام يعملون له، وولى عليهم شتعمل: ﴿وَمِنْ بَرِّجٍ﴾ [سبا: ١٢]، فلما انتهى زمن ملكه

حل خلل العزل إزار حلة الولاية بأنامل: ﴿قَلَمًا فَضَيْتَ عَلَيْكَ الْغَوَى﴾ [سبأ: ١٤].

تالله لقد بلغت أمنيته حبها، إذ ملك شرق الأرض وغربها، غير أن تصريف ربح القدر ما قدر على دفعها، وشياطين الهوى ما قوى على منعها، وما بين مشرق الدنوب ومغربه، ما دخل ملكة ملكه، فسيحان من نقص المخلوقات لكماله، وخضعت رقاب الأقدار لعز جلاله.

الفصل التاسع والستون

في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُ مِثْلًا لَّيُوسَ﴾ (ص، ٤١)

كان لأيوب عليه السلام من المال ما لا يُعد، وردفه من الإحسان ما لا يُجد، فامتلات له الأرض بالمدح والثناء، وسما اسمه إلى أهل السماء، لما شكره رفيق السراء، بعث إليه قرين الصراء، في أوائل البلاء، ليرى حاله في عصف عاصف اللاأواء، كما شوهد أمره في رُخاء الرُخاء، وكان سبب ابتلائه أن إبليس سمع مدحته من ملائكة، فأثار ذلك حسداً قد تقادم منذ آدم، فقال: إن سلطنتي عليه يا رب العالمين ألقته في الفتنة، فألقته في الفتنة العاصية، فقال: قد سلطناك على مال من ماله، فمال إلى عفاريتهم، فجمعهم لكي يُستَرَكَم الكيد معهم، فقال: أروني بسط الأيدي في بسط الأيد، فجالوا في الحال كالنار تشب، ثم ما لبثوا أن عادوا ماء بصيب، وبين إذ هم في الشرق إذا هم في الغرب، فأرسل زرافات آفات إلى من زرع زرعهم، وبعث مزائيلهم، فأهل بالبلاء إلى إبله، وسل طائفة فسلطهم فاغتنموا قتل غنمه، وأوصى الجماعة أن ينثروا عليه شر الشر الجم جُملةً، فأقبلوا بخيرونه ليفرق الباب بالشكوى لما ناب، فكان جوابه ما لي أحزن على مالي، وما لي في مالي، وكيف لا أفرح وقد ثوى في دار الثواب، وتولى إبليس قتل بنه، ثم أتى في صورة مُعلمهم بعلمه، فرأى ذلك لا يؤلمه، نصت العدو ليسمع عريضة السكر، فإذا أيوب يتلو آيات الشكر، فصاح بلسان جسده سلطني على جسده، فلم يُسلط حتى أرسل الاضطبار، فنفخ تحت قدميه نفخةً كنفخة نار، فحك الجسد إلى أن سقطت الأظفار، ثم حكه بالمسوح ثم بالأحجار، فتقطع الجسم وداد، وما تقطع رسم الوداد، فأخرجه أهل قريته لقرحة قرحه إلى قرواح كناسة، فرموه كسيرا كالكسرة، وكساء كساده عندهم، أعلى عندنا من أعلى

كسوة بحري، وتباعدها عنه جاهلين بجاء " تجذني عند المنكبة " ، وعموا عن مرتبة " أَنَا جَلِيْسٌ " ، فلم يزل ما نزل به حتى بدى حجاب بطنه، فكان يُبصر عظامه، ويُرى معاء معاً، وإن كانت الدودة لتسقط من جسده، فيردها بيده، ويقول: كلني من رزق الإله إليك، وإن أبلغت في آذاك، فالقلب صابر على ذاك، فدام هذا البلاء عليه سنين، وقدام الصمت عن الشكوى في فيه يمين، ولم يبق منه غير اللسان للذكر، والقلب للعرفان، والفكر والشكر، فلو أصغى إلى نطق حاله سمع فهم، أو سأل عن وجدانه، دق قلب لسمع من الدعاء الدعاء، يُناجي به الحق لرأي ذو الرأي، أرى ما جئنا من جئنا الصبر.

[الطويل]

مَتَا بَعْدَكُمْ بَلَاءُ الْغُيُوبِ بُكَاءُهَا وَلَمَّا بِكُمْ بَلَاءُ الْأَضَالِحِ غُيُوبُهَا
فَمِنْ نَاطِقٍ لَمْ تَبْقَ إِلَّا دُمُوعُهُ وَمِنْ مُهْجَةٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا غَلِيْلُهَا
دُعُوا إِلَى قَلْبِنَا بِالسَّعْرَامِ أَذْبُهُ عَلَيْكُمْ وَعَيْنُنَا فِي الطَّلُولِ أَجْمَلُهَا
كان إبليس كلما أوقد نار اجتتهاده في ضره، فاحت ربح الثناء، فراحث بالشقاء عن عود صبره.

[الكامل]

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ قَبِيلِهِ طَوَيْتَ أَتَاخَ لَهَا لِسَانُ حُسُودِ
لَوْلَا اشْتِغَالُ الشَّارِبِ فِيهَا بِمَازُوتٍ مَا كَانَ يُعْرِثُ طَيْبُ عَرْفِ الْعُودِ
فلما كاع إبليس لقي زوجته في صورة مُتَطَيِّبٍ، فقال: عندي دواء إن اشتراه مني باشتراط أن يقول بشفته أنت شفيتني، فجاءت تدب وقد أنساها البلاء تدبير المعنى، فأخبرت بهذا الخبر من قد خير عدو العدو، فغضب المؤدب على تلميذ ما تَقَوَّمْ بطول الصحبة، فحلف إن شقي ليجلدنها مائة، فيبئس المرء في مكايده المرأة، إذ مر به إخوان له، فقالوا: لو علم الله فيه خيراً ما بلغ به هذا الأمر، فما شد على سمعه أشد من ذلك، فخر ساجداً على عبة: ﴿فَلَا تُشْفَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فاستغاث بلفظ: ﴿سَيِّئٌ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وصاح بإدلال " لَوْ أَقْسَمَ " ، فجاء جبريل عليه السلام برسالة: ﴿لَا تُكْفَرُ﴾

[ص: ٤٤]، قاله ليس العجب أن يركض جبريل، إنما العجب أن يركض الليل، فركضت خيل النعم عند ركضته، فعدت وما غار الماء ما أغبر عليه من نعمته، وانفثع غيم اليلاء بشمال: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُمَمٍ﴾ [الأنبياء: ٨٤]. وأحيا الإله إحياء أهله، وجمعهم ومثلهم معهم، فنسى بنسيم العافية، ما أَلَمَ مِنْ أَلَمٍ، وردت يد المنة كلما مر منه، وذهب وكان نثار الرضا على روضاض أرضه، بعد أن جرى داء جرافا من ذهب، فجاءت رحمة وقد سبقتها الرحمة إلى كناسته، فَرَأَتْ شُحُطًا عَجِيْبًا من حلية جلته، فقالت: يا عبد الله، أين ذاك المُبْتَلَى، فقال: وبحك إنما هو أنا، فقالت: لا تسخر مني يا فتى، قال: لا تعجبين من فرج قد أتى، وبقيت عليه اليمين في ضربها، وما كان يحسن في مقابلة صبرها أن يضربها، فأقبل لسان الوحي يتلوا فتوى الرحمة، ويُراعي ما سبق من مراعاة رحمة: ﴿وَلَوْلَا بِرَّكَ جِبْقًا فَأَخْبِرْ بِهِ، وَلَا تَحْتَفِ﴾ [ص: ٤٤].

قاله ما ضره ما أكل من جسده الدود، لما اغتال في ثوب مودود، لقد أصبح مُصْطَبِحًا شراب السرور من جود الجود، ورنث قباب الفرج إذ غثت السنة المدح لا يعود، وفاح عتير الشتاء، فزاد نشره على كل عود: ﴿يَا وَيْلَهُ وَحَدَّثَهُ سَبْرًا يَتَمَّ الْقَبْدُ﴾ [ص: ٤٤].

الفصل السبعون

في قوله تعالى: ﴿تَزِيلُ الْكَثِبَ مِنْ أَمْرِ الْعَزِيزِ

تَفَكِّحُ ۝﴾ [الزمر: ١]

قال الخطابي: العز في كلام العرب على ثلاثة أوجه:

أحدها: بمعنى الغلبة، تقول: (من عَزَّ بَرًّا أي: من غلب سلب)، يقال منه عَزَّ يَعْزُّ بضم العين من يعز .

الثاني: بمعنى: الشدة والقوة، يقال منه: عَزَّ يَعْزُّ بفتح العين من يَعْزُ .

الثالث: أن يكون بمعنى: منافسة القدر، يقال: عَزَّ يَعْزُ، وقيل: معنى العزيز على أنه لا يُعادله شيء.

وفي الحكيم قولان:

أحدهما: أنه بمعنى الحاكم .

الثاني: بمعنى الحكم.

قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النساء: ١٠٥] كل ما في القرآن أنزلنا إليك إلا أربعة أحرف:

في النحل: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا بُحْنًا مَضًّى﴾ [النحل: ٦٤]،

وفيها: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا بُحْنًا مَضًّى﴾ [النحل: ٨٩]،

وفي العنكبوت: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا بُحْنًا مَضًّى﴾ [العنكبوت: ٥١]،

وفي الزمر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١]،

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرْ أَلَمْ تَحْمِلْهُ لَكَ الْوَيْتُ﴾ [الزمر: ٢] أي: نوحده لا

تشارك به شيئاً.

واعلم أن الإخلاص فعل القلب، يريد وجه الحق عز وجل وحده، لا يريد بالفعل محمدا مخلوق.

وفي "الضحيين" من حديث عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ"^(١).

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يَدْخُلُ هَذَا الْحَدِيثُ فِي سَبْعِينَ بَابًا مِنْ الْفِقْهِ).

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أُصُولُ الْإِسْلَامِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحَادِيثَ: "الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ"، وَ "الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنَ"^(٢)، وَ "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ"^(٣)).

قَالَ أَبُو دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيُّ: (الْفَقْهُ يَدُورُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحَادِيثَ:

"الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ"، وَ "الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنَ"، وَ "مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"^(٤)، وَ "لَا ضَرَرَ

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥١/٦)، رقم (٦٥٥٣)، ومسلم (١٥١٥/٣)، رقم (١٩٠٧)، وأبو داود (٢٦٢/٢)، رقم (٢٢٠١)، والترمذي (١٧٩/٤)، رقم (١٦٤٧)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (١٣/٧)، رقم (٣٧٩٤)، وابن ماجه (١٤١٣/٢)، رقم (٤٢٢٧)، وابن الجارود (ص ٢٧، رقم ٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٠/٤)، رقم (١٨٣٩٨)، والبخاري (٢٨/١)، رقم (٥٢)، ومسلم (٣/١٢١٩)، رقم (١٥٩٩)، وأبو داود (٢٤٣/٣)، رقم (٣٣٦٩)، رقم (٣٣٣٠)، والترمذي (٣/٥١١)، رقم (١٢٠٥)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٢٤١/٧)، رقم (٤٤٥٣)، وابن ماجه (١٣١٨/٢)، رقم (٣٩٨٤)، وأخرجه أيضا: الدارمي (٣١٩/٢)، رقم (٢٥٣١)، والبيهقي (٢٦٤/٥)، رقم (١٠١٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٦/٦)، رقم (٢٥١٧١)، ومسلم (١٣٤٣/٣)، رقم (١٧١٨)، وأخرجه أيضا: أبو عروبة (١٧١/٤)، رقم (٦٤٠٩)، والدارقطني (٢٢٧/٤).

(٤) أخرجه مسلم (٩٩/١)، رقم (١٠٦)، وأخرجه أيضا: أبو يعلى (٣٩٩/١١)، رقم (٦٥٢٠)، وابن حبان (٢٧٠/١١)، رقم (٤٩٠٥)، وابن مته (٦١٦/٢)، رقم (٥٥١)، والبيهقي (٥/٣٢٠)، رقم (١٠٥١٤).

وَلَا إِضْرَازَ^(١)، وَ" الدِّينُ النَّصِيحَةُ^(٢)).

وَقَالَ أَبُو قَاوُودَ: (كَتَبْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ مَائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ، اشْتَكَبْتُ مِنْهَا مَا ضَلَّتْهُ كِتَابُ السُّنَنِ، وَيُخْفِي الْإِنْسَانُ أَرْبَعَةَ أَحَادِيثَ: " الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ "، وَ " مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَنْفِيهِ^(٣)، وَ " لَا يَتَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَرْضَى لِأَخِيهِ مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ "، وَ " الْحَلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنٌ ").

وَهِيَ " الصَّحِيحَتَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ فِي الْعَلَنَاءِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(٤) ".

(١) أخرجه أحمد (١/٣١٣، رقم ٢٨٦٧)، وابن ماجه (٢/٧٨٤، رقم ٢٣٤١) قال البوصيري (٣/٤٤٨): هذا إسناد فيه جابر (يعنى الجملى) وقد اتهم، والطبراني (١١/٢٢٨، رقم ١١٥٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٠٢، رقم ١٦٩٨٢)، ومسلم (١/٧٤، رقم ٥٥)، وأبو داود (٤/٢٨٦، رقم ٤٤٨٤)، والنسائي (٧/١٥٦، رقم ٤١٩٧)، وأبو عوانة (١/٤٤، رقم ١٠١)، وابن خزيمة فى السياسة كما فى إتحاف المهرة للمهافظ (٣/٨، رقم ٢٤٥٦)، وابن حبان (١٠/٤٣٥، رقم ٤٥٧٤)، والبخارى فى المجموعات (١/٣٩٢، رقم ٢٦٨١) وابن قانع (١/١٠٩)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/٣٢٣، رقم ٥٢٦٥)، وأبو نعيم فى المعركة (١/٤٤٩، رقم ١٢٩١). وأخرجه أيضًا: الطبراني (٢/٥٤، رقم ١٦٦٧)، وابن عساکر (١١/٥٤).

(٣) أخرجه الترمذى (٤/٥٥٨، رقم ٢٣١٧) وقال: غريب. وابن ماجه (٢/١٣١٥، رقم ٣٩٧٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/٢٥٥، رقم ٤٩٨٧). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (١/٤٦٦، رقم ٢٢٩)، وابن عساکر (٤١/٤٢٦).

(٤) أخرجه البخارى (٦/٢٧١٤، رقم ٧٠٢٠)، ومسلم (٣/١٥١٣، رقم ١٦٠٤)، وأبو داود (٣/١٤، رقم ٢٥١٧) والترمذى (٤/١٧٩، رقم ١٦٤٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٦/٢٣، رقم ٣١٣٦)، وابن ماجه (٢/٩٣١، رقم ٢٧٨٣). وأخرجه أيضًا: الطيالسى (ص ٦٦، رقم ٤٨٦)، وعبد بن حميد (ص ١٩٥، رقم ٥٥٣)، والبخارى (٨/٣٠، رقم ٣٠١٠)، وأبو يعلى (١٣/٢٣٤، رقم ٧٢٥٣)، وأبو عوانة (٤/٤٨٧، رقم ٧٤٣٥)، وابن حبان (١٠/٤٩٣، رقم ٤٦٣٦) والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/١٦٧، رقم ١٨٣٢٥)، وفى شعب الإيمان (٤/٣٠، رقم ٤٢٦٣).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ بِعَمَلِهِ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: وَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى قُتِلْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِغُلَامٍ هُوَ جَرِيٌّ وَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَيُسْحَبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ بِعَمَلِهِ فَعَرَفَهَا. قَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِغُلَامٍ هُوَ غَالِمٌ، وَقَدْ قِيلَ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِغُلَامٍ هُوَ قَارِئٌ وَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَيُسْحَبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَشَعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهَا فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ بِعَمَلِهِ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَزَعَّتْ مِنْ سَبِيلِ نَجَبٍ أَنْ يُلْقَىٰ فِيهَا إِلَّا أَتَيْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ ذَلِكَ لِغُلَامٍ هُوَ جَوَادٌ، وَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَيُسْحَبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «أَنَا أَعْلَى الشُّرَكَاءِ فِي الشُّرُوكِ قَسْرٌ عَمِلَ لِي عَمَلًا وَأَشْرَكَ فِيهِ خَيْرِي، فَأَنَا مِنِّي خَيْرِي» وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ^(٢).

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ لَبِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنْ أَخَافَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ الشُّرُوكَ الْأَصْغَرُ، قَالُوا: وَمَا الشُّرُوكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرِّبَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ، ادْعَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنتُمْ تِرَاوِدُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَهُمْ جَزَاءً؟»^(٣).

قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ: أَفَرَفْتَهُمْ وَهُمْ مُجْتَهِدُونَ فِي الْأَعْمَالِ، قَالُوا

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥١٢، رقم ١٩٠٥)، والشافعي (٦/٢٣)، رقم ٣١٣٧.

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥)، وابن ماجه (٢/١٤٠٥، رقم ٤٢٠٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/٤٢٨)، رقم ٢٣٦٨٠. قال المنذرى (١/٣٤): إسناده جيد. وقال

البيهقي (١/١٠٢): رجاله رجال الصحيح.

تَلْفُوا أَلْفِي عَلَيْهِمُ الْخَزَنَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَذْرُونَ قُلْتُ مِنْهُمْ أَوْ رَدَّتْ عَلَيْهِمُ.

يا هذا متى يتخلص رأيك من الرياء، فتستخرج خلاصة الإخلاص، فتقابل بها قبلة المقبول، فإنه لا ينظر إلى صوركم، رب صاتم كُفُّهُ العطف حُفُّهُ التعب، ورب قائم نصيبه السهر والنصب، رفعا أَفَضَ الطلب في أكف العمل، فوقع عليها: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ خُفْيَهَا وَلَا يَمْلُكَهَا﴾ [الحج: ٢٧]، كم من أعمال يُصاب ظاهرها عند ظهورها، حتى يُخيل إلى عاملها أنها تسعى به إلى الخلاص، فإذا ألقى موسى السؤال حية المناقشة إذا هي تلف ما يأفكون، فانهزم فرعون الرياء، ﴿وَرَبَّنَا هُمْ فَسَقُوا مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

ثُمَّ الْقَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ يَقُولُ: (يَا لَيْتَنِي أَمُوتَ وَأَنَا مُخْلِصٌ، أَخَافُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا مُرَائِي، يَقَالُ لِي: خُذْ ثَوَابَ غَمَلِكَ بِمَنْ غَمَلْتَ لَهُ).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الْخَوَّارِيِّ: قُلْتُ لِأَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارِيِّ: (قَدْ نَصِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ، فَقُلْتُ: ثَلَاثَ مِائَةٍ وَأَرْبَعَ مِائَةٍ سَنَةٍ، يَخْتَصِمُ أَحَدُهُمْ، فَيُصِيرُ كَالشَّرِّ الْبَالِي وَكَالْأَوْدَامِ، فَقَالَ: فَكُنْتُ أَتُكِّدُ جَنَّتَنَا بِخِيَرَةٍ، وَاللَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُنَبِّسَ جُلُودَنَا، وَلَا يُرِيدُ مِنَّا إِلَّا الصَّدْقَ وَالْإِسْقَانَةَ، وَمَنْ صَدَّقَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي عَشْرَةِ أَيَّامٍ، قَالَ مَا كَانَ أَوْلَىكَ فِي غَمَرِهِمْ).

لما خافت نفوس الصالحين من الرياء، خافت بشأن جهرها بالطاعة، حذرنا على إحمال الأعمال من ماضى الرياء، فادلجوا في ليل الكتم بالامتنان تحت خيم الصوم والسهر، فرافقوا رفقة ﴿تَتَجَافَى﴾ [السجدة: ١٦]، والإينار تحت طي: * فَلَا تَعْلَمُ شِمَاءُهُ مَا أَتَقَلَّتْ رِيبَتُهُ^(١)، فوقع الجزاء بمثله، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ١٧].

ولقد قرئ على الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن طاولا كان يكره الأئين للمريض، فما أدَّ حتى مات.

[المقارب]

تَمُوتُ الشُّفُوفُ بِأَوْضَائِهَا وَتُخْشِمُ عُزَافُهَا بِهَا

وَمَا أَتَيْنَاكَ مِنْهَا شَرًّا كَيِّ ۖ فَوَاقَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْسَنِهَا
 كَانَ أَحَدُ السَّلَفِ يَتَزَهَّدُ عَشْرِينَ سَنَةً لَا يَعْلَمُ بِهِ جَارُهُ، وَيُصَلِّي بِاللَّيْلِ
 عَشْرِينَ سَنَةً لَا يَعْلَمُ بِهِ امْرَأَتُهُ، وَيَقِفُ فِي الصَّفِّ وَدُمُوعُهُ تَجْرِي فَلَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ
 إِلَى جَنْبِهِ.

[الرجز]

أَحْسَنُ دُمُوعِي لَيْسَ بِلُ شَارِكًا ۖ فَأَنزِلِي أَهْبِطْ غِيَا آتِنَا
 وَمِنْ مُخَافَةِ الرَّقِيبِ يَخْلُقِي ۖ يَوْمَ الرَّجُلِ فِي الْهَوَى مُتَافِقًا
 وَلَقَدْ صَامَ قَاوُذُ الظَّالِمِ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَهْلُهُ، كَانَ خَرَّازًا، وَكَانَ
 يَحْمِلُ غَدَاؤَهُ مَعَهُ، فَيَتَصَدَّقُ بِهِ فِي الطَّرِيقِ، يَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيَقْطُرُ جَنَدَهُمْ، فَلَا
 يَعْلَمُونَ صَوْمَهُ.

وَعَذْلِكَ صَامَ قَاوُذُ بْنُ أَبِي جَنْدٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً، لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَهْلُهُ.
 وَكَانَ أَبُوهُ السُّعْيَبِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِالرَّقَائِقِ قِصَّةَ الْبُكَاءِ مَسَحَ أَثْنَهُ وَقَالَ:
 مَا أَشَدُّ الزَّكَّامِ، وَكَانَ يَتَوَمُّ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا كَانَ جَنْدَ الصُّبْحِ رَفَعَ صَوْتَهُ كَأَنَّهُ قَدْ
 قَامَ بِلَا السَّاعَةِ.

[البسط]

أَكَلَفَ الْقَلْبَ أَنْ يَهْوَى وَالْوَمَةَ ۖ ضَبْرًا وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ أَهْلِهِ
 وَأَكْثَمَ الرَّكْبِ أَوْطَارِي وَأَسْأَلَهُمْ ۖ عَاجَاتٌ تُفْصِي لَقَدْ أَتَعَبَتْ رَوَايَ
 عَلِ مُذْلِجٍ بَعْدَهُ مِنْ مَبْخَرٍ غَيْرَ ۖ وَخَفِيفٌ يَعْلَمُ خَالَ الرَّابِعِ الْغَادِي
 فَإِنْ رُوِيَ أَحَابِيثُ الْقَرَامِ ۖ وَمَا تُخْبِي الثُّمُوسُ فَمَنْ عَيْنِكَ إِشَارِي
 كَانَ خَسَاةً بَيْنَ أَبِي سَيَانَ يَشْتَرِي أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُعْطِيهِمْ وَلَا يَعْلَمُهُمْ مَنْ هُوَ !
 وَلَقَدْ اشْتَهَرَ أَمْرُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْنَمَ بِبَلْوَى، فَقِيلَ هُوَ فِي بُسْتَانَ فَلَانٍ، فَدَخَلَ
 النَّاسُ يَطُوفُونَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُونَ: أَيْنَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْنَمَ؟ فَجَعَلَ يَطُوفُ مَعَهُمْ،
 وَيَقُولُ: أَيْنَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْنَمَ؟!

وَمَرَضَ، فَجَعَلَ عِنْدَهُ الْحُلُوى وَغَيْرَهَا، وَيُؤْتِيهِمُ النَّاسُ أَنَّهُ مُعَافَا، فَيَذُو
 وَاللَّهُ يَهْرَجُهُ، أَصَحَّ مِنْ تَقْدِكَ، قَالُوا مَا قُلْتُكَ إِبْرَاهِيمَ، بَلْ أَدْنَمَ.

[البيط]

ضَنًّا بِأَنْ تَعْلَمَ الثَّامِرُ الْهَوَى لِمَنْ وَهَيْبَتُ الْمُسَرِّ فِيهِ لَذَّةُ الْعَلَنِ
عَرَضٌ يَغْيِرِي وَدَغْنِي فِي طُنُونِهِمْ إِذْ قِيلَ مَنْ تَكُ يُخْطِي الْخَلْقُ فِي الطَّنَنِ
أَيْنَ الْمَخْلُصُونَ؟ ! أَيْنَ الزَّهَادُ؟ ! أَيْنَ الْمُحْزَنُونَ مَعَ الْجَهَادِ؟ ! رَحِلْ
الْقَوْمَ وَذَهَبَ السَّلَفَ، وَنَزَلَ الْخَلْقُ مَنَازِلَ التَّلَفِ.

[الوافر]

وَفِي الْأَخْبَابِ مَخْضُوصٌ بِوَجْدٍ وَأَخْرَجُ يَدْعِي مَعَهُ أَشْيَرَانَا
إِذَا اشْتَبَهَتْ دُمُوعٌ فِي عُذُوبٍ تَبَيَّنَ مَنْ يَسْغَى بِمَنْ تَبَاغَى
أَسْمِعْ أَصَوَاتًا بَلَا أَنِيْسَ، وَارَى غَشُوعًا أَصْلَهُ مِنْ إِبْلِيسَ.

[الكامل]

أَمَّا الْخِيَامُ فَمِائِنُهَا كَخِيَابِهِمْ وَأَزَى نَسَاءِ الْخَنَى غَيْرَ نِسَائِهَا
تَشَبَّهُوا بِالْعِبَادِ فِي أَثْوَابِهِمْ، وَتَخَافَعُوا لَا وَاللَّهِ مَا بِهِمْ، وَسَهَرُوا لِيَدُمَ لَهُمْ
التَّامُوسُ، وَسَمِعُوا فِي عِمَارَةِ أَبْدَانِهِمْ وَلَا جَاسُوسَ، لَهُمُ الزَّهَادُ مَا لَمْ يَنْزِلْهُمْ
الدِّينَارُ، وَدَعَاوَهُمْ لَا يَقُولُهَا ابْنُ دِينَارٍ، وَإِنَّهُمْ فِي التَّهَابِ عَلَى جَمْعِ الْأَحْجَارِ،
ذِيَابَ طَمَعٍ وَفِرَاشِ نَارٍ، يَتَشَبَّهُونَ بِالْمَاهِجِينَ وَلَيْسُوا مِنْهُمْ، وَقَدْ سَمِعُوا مِنْهُمْ فَلَمْ
يَحْفَظُوا عَنْهُمْ.

[الرجز]

تَبَيَّنَتْ حُجُورُ الطَّلَبَا بِهِمْ تَذُ سَخَنَتْ قَلْبِي وَلَا تَمُتْ سَخَنُ
أَضْيَايَكَ بِنَاطِقِي وَنَافِرٍ بِاتِيْسٍ وَذُو جِلَا بِذِي سَخَنُ
مَشَتْ تَبَيَّنَتْ أَهْمُوكَ وَإِنَّمَا مُعَايِلًا قُلْتُ لِصُخْرِي ذَا مَنْ
يُفْتُ بِأَكْبَا فِيهَا وَإِنْ قُلْتُ أَنَا مُوَابِيًا تَبَيَّنَتْ عَشْتُ وَعَنْ
لَمْ يَبْقَ لِي يَوْمَ الْفِرَاقِ قُطْلَةٌ مِنْ أَذْمَعِ أَيْكِي بِهَا عَلَى الزَّمَنِ

الفصل الحادي والسبعون

في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَبِيْثٌ أَمَّا أَلْبَنُ سَاجِدًا وَقَائِمًا
يَحْدُرُ الْآخِرَةَ﴾ [الزمر: ٩]

اختلفوا فيما نزلت هذه الآية على خمسة أقوال:

أحدها: أنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، قاله ابن عباس،

الثاني: عثمان رضي الله عنه، قاله ابن عمر،

الثالث: عمار، قاله مقاتل،

الرابع: ابن مسعود، وعمار، وصهيب، وأبو ذر، قاله ابن السائب،

الخامس: رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله ابن سلام.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وحزمة (أَمَّنْ) بالتخفيف، والباقون بالتشديد، فمن شدد، فالمعنى: أهذا المذكور في قوله: ﴿وَيَحْدُرُ الْآخِرَةَ﴾ [الزمر: ٨] خير، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَبِيْثٌ﴾ [الزمر: ٩].

وفي المخففة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها بمعنى النداء^(١): (أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ) أنبش.

(١) قال أبو جعفر النحاس: ﴿الَّذِي هُوَ قَبِيْثٌ﴾ قراءة الحسن، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وعاصم، والكسائي، وقرأ نافع، وابن كثير، ويحيى بن وثاب، والأعشى، وحزمة: "أَمَّنْ هُوَ" وحكى أبو حاتم، عن الأعشى قال: من قرأ في الزمر: "أَمَّنْ هُوَ" بالتخفيف، فقراءته ضعيفة؛ لأنه استفهام ليس معه خبر، قال أبو جعفر: هذا لا يلزم، وقد أجمعوا جميعاً على أن قروا: "أَمَّنْ شرح الله صدره للإسلام" وهو مثله، وفي القراءة بالتخفيف وجهان حسنان في العربية، وليس في القراءة الأخرى إلا وجه واحد. فأحد الوجهين: أن يكون نداء كما يقال: يا زيد أقبل، ويقال: أزيد أقبل، حكى ذلك

الثاني: (أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ) كمن ليس بقائم.

الثالث: (أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ) كم جعل لله أنداقا.

والقنوت: الطاعة.

﴿يَتَخَدَّ الْأَيْمَةَ﴾ [الزمر: ٩] أي: عذابها والرحمة والمغفرة، وقيل

الجنة.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، إنما وعد الله

حق.

إخواني طلب العلم أكبر الفضائل وأزكى المنائب.

قَالَ زُرَّ: أَتَيْتُ ضَفْوَانَ بْنِ عَسَالٍ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَقُلْتُ:

اِئْتِغَاءَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ الْمَلَائِكَةَ

= سببوه وجميع التحوين، كما قال: أبي ليلى لستم يدد... إلا هذا ليست لها عخذ

وكما يقال: فلان لا يصلي ولا يصوم، أمّن يصلي ويصوم أشر؟

والموجه الآخر: أن يكون في موضع رفع بالابتداء، والمعنى معروف: أي: أمّن هو

قانت آتاه الليل أفضل، أم من جعل لله أنداقا؟، والتقدير: الذي هو قانت.

ومن قرأ: " أمّن هو " فتدبره: أم الذي هو قانت أفضل ممن ذكره؟

بمعنى: (أبل)، فأما معنى (قانت) فيما رواه عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي

الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كل قنوت في

القرآن؛ فهو طاعة لله جل وعز "، وروى الأعمش، عن أبي سليمان، عن جابر أنه

قال: " سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الصلاة أفضل؟ قال: " طول القنوت "،

فتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام، وروى عبد الله، عن نافع، عن ابن

عمير: سئل عن القنوت قال: ما أعرف القنوت إلا طول القيام وقراءة القرآن، وقال

مجاهد: من القنوت طول الركوع وحسن البصر، وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة

غضوا أبصارهم وخضعوا، ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعيشوا، ولم يذكروا شيئا من

أمر الدنيا إلا ناسين، قال أبو جعفر: أصل هذا أن القنوت الطاعة، وكل ما قيل فيه فهو

طاعة الله جل وعز، وهذه الأشياء كلها داخلة في الطاعة، وما هو أكثر منها، كما قال

نافع، وقال لي ابن عمر: قم فصل، فقلت أصلي، وكان علي ثوب حلق، فذعاني،

فقال لي: أرايت لو وجهتك في حاجة وراء الجدار أكنت تمضي هكذا؟ فقلت: لا؛

كنت أتزين، قال: فإله أحن أن يُزين له.

لَتَضَعَنَّ أَصْحَابُهَا وَحَسْبُ لَهَا الْعِلْمُ بِمَا يَضَعُ^(١).
وفي حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَصْحَابُهَا لِيَطْلُبَ الْعِلْمَ. وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، الْجَنَّاتِ فِي الْمَاءِ. وَإِنَّ لُضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ تَحْقِظُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى الْكَوْكَبِ»^(٢).

جملة ما روى أبو الدرداء تسعة وسبعون حديثًا، أخرج له منها في "الصحيحين" ثلاث عشر حديثًا، المتفق عليه منها حديثان، وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بثمانية.

وأبو الدرداء من كبار علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن حفاظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين جمعوه حفظًا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة: عثمان، وأبي، وسعد، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وأبو زيد الأنصاري، واختلف في أبي زيد الأنصاري، وعيادة بن الصامت، وثميم الداري.

ولم يحفظ القرآن من الخلفاء إلا عثمان بن عفان والمأمون.

وكان كتاب الوحي أحد عشر رجلاً:

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبي، وزيد، ومعاوية، وحظلة بن الربيع، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان، وابن مسعود، والعلاء بن الحضرمي، رضوان الله عليهم، غير أن المداوم على الكتابة زيد ومعاوية. وكان يُفتي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر رجلاً:

(١) أخرجه أحمد (١٩٦/٥)، رقم (٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣١٧/٣)، رقم (٣٦٤١)، والترمذي (٤٨/٥)، رقم (٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجا بن حيوة وليس هو عندي بمشهور. ثم أورد له إسنادًا وقال هذا أصح. وابن ماجه (٨١/١)، رقم (٢٢٣)، وابن حبان (٢٨٩/١)، رقم (٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٦٢)، رقم (١٦٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣١٧/٣)، رقم (٣٦٤٣)، والحاكم (١/١٦٥)، رقم (٢٩٩).

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وابن مسعود، وعمار، وأبي، ومعاذ، وسلمان، وأبو موسى، وحذيفة، وأبو الدرداء، وزيد، رضوان الله عليهم.

وما أفتى أحد منهم بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: (انْتَهَى عِلْمُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَحْكَامِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَهْلِ مَشْهُودٍ، وَزَيْدٍ، وَأَبِي عُبَّاسٍ).

وأخذ عن ابن مسعود ستة: علقمة، والأسود، وعبيدة، ومسروق، والحارث بن قيس، وعمر بن شرحبيل، وانتهى علم هؤلاء إلى النخعي والشامي، ثم انتهى إلى إسحاق والأعمش، ثم انتهى إلى الثوري.

وأخذ عن زيد أحد عشر رجلاً:

قيصة، وخارجة، وعبيد الله بن عبد الله، وعروة، وأبو سلمة، وأبو بكر ابن عبد الرحمن، والقاسم، وسالم، وابن المسيب، وأبان بن عثمان، وسليمان بن يسار، ثم صار علم هؤلاء كلهم إلى الزهري، وأبي الزناد، ويكير الأشج، ثم صار علم هؤلاء كلهم إلى ابن مالك.

وصار علم ابن عباسي إلى ستة: سعيد بن جبير، وعطاء بن رباح، وعكرمة، ومجاهد، وطاوس، وجابر بن زيد، وصار علم هؤلاء إلى عمرو بن دينار.

قال العلماء: انتهت الدعوى في المدينة إلى سبعة: سعيد بن المسيب، والقاسم، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وخارجة، وعبيد الله، وعروة، وسليمان ابن يسار.

وَقَالَ عَبَّاسُ الدُّورِيِّ: (انْتَهَى عِلْمُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى سِتَّةٍ: عُمَرَ، وَعَلِيٍّ، وَأَبِي مَسْغُودٍ، وَأَبِي، وَمُعَاذٍ، وَزَيْدٍ، وَهَؤُلَاءِ حَبِيبَاتُ الْمُفَقَّهَاءِ).

وأما الرواة ستة: أبو هريرة، وأنس، وجابر، وابن عمر، وأبو سعيد، وعائشة رضي الله عنها.

وأما طبقات أصحاب الأخبار والفصص ستة:

عبد الله بن سلام، وكعب، وهيب، وطاوس، وابن إسحاق، والواقدي.
وأما طبقات أهل التفسير فستة: ابن عباس، وسعيد بن جبير، وشجاهد،
وقتادة، والضحاك، والسدي.
وأما خزان العلم فستة: الأعمش، ومالك، والأوزاعي، والشوري،
وسمر، وشعبة.

وأما طبقات الحفاظ فستة: أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ويحيى بن
معين، وعلي بن المدني، وأبو زرعة، والبخاري، ومسلم.
وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: (مُحَدِّثُو النَّاسِ ثَلَاثَةٌ: ابْنُ عَبَّاسٍ فِي زَمَانِهِ، وَالثَّعْبِيُّ فِي
زَمَانِهِ، وَالثَّوْرِيُّ فِي زَمَانِهِ).
وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ: (أَمْلَى عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ
عِشْرِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ يَحْفَظُ).

عبد الرحمن بن مهدي اثنان، أحدهما: الذي حكينا عنه، وهو يروي عن
شعبة ومالك، الثاني: روى عن الفضيل بن عياض.

ولقد كتب المحدثون عن أبي داود الطيالسي أربعين ألف حديث وليس
معه كتاب، وسأل رجل أبا زرعة، فقال: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ خَلَّفَ بِطَلَقِ إِثْرَاتِهِ
أَنَّكَ تَحْفَظُ بِأَلْفِ حَدِيثٍ، فَأَطَرَقَ مَبِيتًا، ثُمَّ قَالَ: (أَكْثَبُ، فَإِنَّكَ بَارٌّ فِي
يَمِينِكَ، وَقَالَ: أَحْفَظُ بِأَلْفِ حَدِيثٍ، ثُمَّ تَحْفَظُ الْإِنْسَانُ: ﴿قُلْ هُوَ أَفْهَمُ
أَمْرًا﴾ (الإخلاص: ١).

وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ قَارُونَ: (أَحْفَظُ لِلشَّامِيِّينَ عِشْرِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ).
وَقَوْلُ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ أَلْفَ حَدِيثٍ.
واعلم أنما يبرز هؤلاء في العلم بعلمهم بفضلهم.
وَقَدْ رَوَى الثَّقَلَانُ بْنُ تَبِيزٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ:
"يُورَثُ بِمَاءِ الْعُلَمَاءِ وَدَمِ الشُّهَدَاءِ، فَيَرْجَحُ بِمَاءِ الْعُلَمَاءِ عَلَى دَمِ الشُّهَدَاءِ" (١).

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/٨١)، رقم (٨٥) وقال: هذا لا يصح. قال
المنذوي (١/٢٦٦): قال الزين العراقي: سنده ضعيف.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: لَيْسَ بَعْدَ الْقَرَائِضِ أَفْضَلُ مِنْ ظَلَبِ الْعِلْمِ.
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ أَشْبَاطٍ: بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ سِتِّينَ عُرْوَةً.
وَقَالَ الْمُتَعَالَى بْنُ عُمَرَ: كِتَابَةُ حَبِيبٍ وَاجِدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صَلَاةٍ لَيْلَةٍ.
وَالْمَعَالَى بْنُ عَمْرَانَ رَجُلَانِ: أَحَدُهُمَا هَذَا وَهُوَ صَاحِبُ الشُّوَرِيِّ،
وَالثَّانِي: رَوَى عَنْ مَالِكٍ.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ، فَقَالَ: أَسْتَعِثُّ بِاللَّيْلِ، أَوْ أَصَلِّي؟ فَقَالَ: إِنَّ
كُنْتَ مُتَعَلِّمًا فَاسْتَعِثْ.

وَقَالَ عُثَيْلُ بْنُ زَيْدٍ أَخَذَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخْرَجَنِي إِلَى
نَاجِيَةِ الْحَيَاةِ، فَلَمَّا أَصَحَرْنَا جَلَسَ، ثُمَّ تَنَفَّسَ، ثُمَّ قَالَ: (يَا عُثَيْلُ بْنُ زَيْدٍ، إِنَّ
هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْحِيَةٌ فَخَيَّرْهَا أَوْعَاظَهَا، اخْطِطْ مَا أَقُولُ لَكَ: النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ
وَبَاطِنٌ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَغَنَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاجِيٍّ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ
رِيحٍ، ثُمَّ يَسْتَضِيئُونَ بِضَوْوِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْحَظُوا إِلَى رُغْنٍ وَتَبِيٍّ، يَا عُثَيْلُ بْنُ زَيْدٍ،
الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَخْرُسُكَ، وَأَمَّا تَخْرُسُ الْمَالُ، الْمَالُ يُقْصِصُ الثَّقَلَةَ،
وَالْعِلْمُ يَزْجُو عَلَى الْإِنْفَاقِ، الْعِلْمُ حَاجِمٌ وَالْمَالُ مَخْجُومٌ عَلَيْهِ، يَا عُثَيْلُ بْنُ زَيْدٍ،
مُحِبَّةُ الْعُلَمَاءِ مِنْ يَدَانِ يَدِي، الْعِلْمُ يُكْسِبُ الْعَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ
الْآخِرَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَثَقَّةُ الْمَالِ تَزُولُ بِزَوَالِهِ، يَا عُثَيْلُ بْنُ زَيْدٍ، مَاتَ خُرَّانُ
النَّاسِ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالْعُلَمَاءُ بِأَقْوَمِ مَا يَحْيِي الدُّعْرَ، أَعْيَانُهُمْ مُنْقَوِّدَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي
الْقُلُوبِ مُزْجَرَةٌ. هَذَا إِذَا مَا هُنَا - وَأَشَارَ يَدَيْهِ إِلَى صَدْرِهِ - لَعَلَّمَا جَسَدًا لَوْ أَصْبَحَتْ
لَهُ حَيَلَةٌ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بَلِّغْ لِقَدْ أَصْبَحْتَ لِقَاءًا^(١) خَيْرَ مَأْمُونٍ يَسْتَعْمِلُ آلَةَ الدِّينِ
لِلدُّنْيَا، وَيَسْتَظْهِرُ بِعِزِّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُخْجِجُو عَلَى كِتَابِهِ، وَمُنْقَادًا لِأَهْلِ الْحَقِّ
لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي إِخْيَانِهِ، يَتَّبِعُ الشُّكَّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبُهَاتِ، اللَّهُمَّ لَا
فَا وَلَا ذَاكَ، أَوْ مَنُوعًا بِاللَّذَاتِ، سَلِسَ الْقِيَادَ لِلشَّهَوَاتِ، أَوْ مُغْرًا بِجَمْعِ الْمَالِ
وَالْأَفْخَارِ، وَلَيْسَا مِنْ دُعَاةِ الدِّينِ، أَلْقُرْبُ شَبَهِهَا بِهِمْ الْإِنْعَامُ الشَّامِتَةُ، كَذَلِكَ
يَمُوتُ الْعِلْمُ وَحَيَاتُهُ، اللَّهُمَّ بَلِّغْ، لَا تَحْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحَقِّهِ، إِذَا ظَاهَرَ

(١) ما بين المعكوفين ساقط من الأصل.

مشهور عند الله تعالى، أو لحائب مشور، لئلا يتظلم خلقه الله تعالى ويتبائنه، أين أولئك الأفالون عتدا، الأعتشون عند الله قذرا، بهم يحفظ الله تعالى حجبهم حتى يؤدوها إلى نظراتهم، فيزورونها في قلوب أشباههم، حكم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباثروا زوج اليقين، واستلثوا ما استوعر منه المشركون، وأيسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، يا كميل بن زياد: أولئك خلفاء الله في أرضه، ودعائه إلى بيته، هاهنا شوقا إلى رؤيتهم، واستغفر الله لي ولك، إذا شئت فقلهم.

واعلم يا طالب العلم أنه: إنما فضل العلم؛ لأنه نور في الطريق يبصر به السالك مواقع الضلال، ويهتدي به إلى نقل الخطأ في مراتب الفضائل.

قال ابن سيرين: (إن قوما تركوا العلم، واشتغلوا بمحاربتنا، فوصلوا فيها حتى نيس جلد أحدهم على عظميه، ثم خالفوا السنة فهلخوا، والله ما عجل غايده بغير علم إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح).

قال أبو عبيدة الشامي: دخلنا على الحسن نحوه في مريضه، فقال: (مرحبا بكم وحياكم الله، لا تكون حطكم من هذا الخير أن تسموه بغيره الأدنى فيخرج من فيه الأدنى، فإنه من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم، فقد رأى غايته وزاياه، ثم يضع لينة على لينة، ولا قضية على قضية، ولكن رفع له جلم، فشمز إليه، الوعا الوعا، الشجا الشجا علما فترجون، أتيتهم ورب الكعبة، فأنكهم والأمر مفا).

قال جرير بن عبد الحميد: (مر بنا حمزة الزيات، فاستشفى ماء، فلما أزدت أن أتأوله، قال: أليس تحضرنا في القراء؟، قلت: بلى، قال: ردة، وأنى أن يثرته).

وقال الحسن بن الربيع: كنت عند عبد الله بن إدريس، فلما قمت، قال: (سل عن سمر الأشنان، فلما سميت رثني، فقال: لا تسأل عنه، فإنك تكذب بني الحديث، وأنا أقره أن أشأن من يسمع بني الحديث حاجة).

وجاء زحل إلى الإمام أحمد بن حنبل يدوا يرضي كان به، فرده، فقيل: (لم، ١٩)، فقال: (أنتم تسمعون بني).

وَمَرَّ الْحَسَنُ بِنَعِصِ الْقُرَاءِ عَلَىٰ أَبْوَابِ السُّلَاطِينِ، فَقَالَ: (أَفَرَحْتُمْ خَتَائِبِكُمْ، وَلَمْ تَرْضَحْتُمْ بِعَالِكُمْ، وَجِئْتُمْ بِالْعِلْمِ تَحْمِيلُونَهُ عَلَى رِقَابِكُمْ إِلَىٰ أَبْوَابِهِمْ، فَرَحُّوْا بِهِكُمْ).

قَالَ الْحَسَنُ: (وَهِيَ نَعِصِ الْكُتُبِ: يَا ابْنَ آدَمَ تَذْهَبُ إِلَيَّ وَتَقْرَأُ مِنِّي، وَتَذْهَبُ بِي وَتَسَانِي).

وَقَالَ نَائِلُكَ بْنُ بِنَارٍ: (إِنَّمَا الْعَالِمُ الَّذِي إِذَا أَتَيْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ فِي بَيْتِهِ، قُصَّ عَلَيْكَ بَيْتُهُ، رَأَيْتَ خَصِيرَةَ لِلْمُضَلَّاةِ، وَمُضْجَعَهُ، وَمُظْهَرَتَهُ، تَرَى فِي بَيْتِهِ أَتَارَ الْأَجْرَةِ).

وَمَكَانُ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: (الْخَوْفُ مَا أَخَافَ أَنْ يُقَالَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا حُزِينُ، أَغْلَبْتَ أَمْ جَهَلْتَ، فَإِنْ قُلْتَ غَلَبْتُ، لَمْ يَنْقُ أَهْلُ آمِرَةٍ أَوْ رَاجِعَةٍ وَلَا أُجِدَّتْ مِنِّي بِفَرْضَتِهَا).

وَكُتِبَ حَكِيمٌ إِلَى حَكِيمٍ: يَا أَجِي قَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا، فَلَا تُدْنِسْ عِلْمَكَ بِظُلْمَةِ الذُّنُوبِ، فَتَقِفَ فِي الظُّلْمَةِ يَوْمَ يَسْمَى أَهْلُ الْعِلْمِ بِثَوْرِ عِلْمِهِمْ.

إِخْوَانِي إِذَا جُلِيتْ جَوْهَرَةُ الْعِلْمِ حَلِيَّةُ الْعَمَلِ، كَانَتْ زِينَةً لِنَاجِ الْإِنْسَانِيَةِ، الْعِلْمُ دَلِيلُ السَّالِكِ، فَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا عَلَى قَلْبِ عِلْمٍ طَالَتْ عَلَيْهِ، عَلَيْكَ بِالْعِلْمِ فَكُفَى بِهِ عَمَلًا.

قَدِمَ طَرَفُ طَالِبِ الْعِلْمِ يَجْرِي عَلَى جَلْبَاتِ أَجْنَحَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنْ بَلَغَ الْقَايَةَ وَطَلَّتْ لَهُ مَرْبِيةٌ: ﴿وَلَا تُخْشَوْنِي فِي أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٧]، وَإِنْ كَبَا جَوَادُ الطَّلَبِ فِي جَوَادِ الْعَمْرِ أَغْرَمَ الْقَدْرُ دَيْهَهُ بِنَيْتِهِ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُتَهَيِّجًا﴾ [النساء: ١٠٠].

الْعِلْمُ وَسِيلَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْصَةٍ، لَوْ صَوَّرَ الْعِلْمَ لِأَظْلَمَتْ مَعَهُ الشَّمْسُ، وَلَوْ صَوَّرَ الْجَهْلَ لِأَضَاءَ مَعَهُ اللَّيْلُ، عِبَادَةُ الْجَاهِلِ فِي الْحَضِيضِ، وَنَوْمُ الْعَالَمِ فِي الْعَبَاقِ، إِعْرَافُهُنَّ لَا يَدِينَا مَنَادِيلَ.

رُؤْيَى الْأَوْزَاعِي فِي الْمَنَامِ وَهِيَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَغْلًا مِنْ دَرَجَةِ الْعُلَمَاءِ، ثُمَّ دَرَجَةِ الْمُخْرُوجِينَ.

مَا زَالَ مَعْقِلُ الْعِلْمِ مَعَاذَ شُعَادٍ، فَاقْتَضَاهُ دِينُ الْعِلْمِ دِينَ الْعَمَلِ،

شرب من فضله كأس * وَجِئِلَتْ لُرَّةٌ غَيْبِي فِي الصَّلَاةِ^(١)، فأسكره شراب المناجاة، فكان يذهل بما وراءه، مما رآه عين وراء يتسنى أن فلوب أتباعه سليمة من حرض وجدّه، حتى شكّا سليم القلب من سليم الحب إلى طلب الشرع، فأنكر عليه بلفظ * أَفَأَنْ أَتَى^(٢)، كيف ترد بالمبتدئين مورد المنتهين، فلما تمكن الوجد من قلبه، قام في بوادي أشواقه، وتنادى لبوادي حبه، حتى حل بوادي * تَعَالَوْا نُؤْمِنُ سَاعَةً^(٣)، وغادر الشرع يُعَلِّمه في إرسال عذاره بإقامة عُذره، دعوا مُعَاذًا وشأنه.

ثُمَّ سَفَيَانُ الثَّوْرِيُّ بِقُوَّةِ عِلْمِهِ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ، فَإِذَا سَمِعَ صُحْبَةً فِي اللَّيْلِ يَقُولُ: جَاءَ الْعَذَابُ، وَثُمَّ لَا يَحُولُهُ يَبُولُ الدَّمَّ، فَحُمِلَ مَاءُ إِلَى الطَّبِيبِ، فَقَالَ: هَذَا لَا يُشْفِي مَاءَ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا مِنَ الرُّهْبَانِ، هَذَا رَجُلٌ قَدْ قَتَلَ الْخُرُونُ كَيْدَهُ. وَحُمِلَ مَاءَ سَرِي السَّقَطِي إِلَى الطَّبِيبِ، فَلَمَّا رَأَاهُ، قَالَ: هَذَا مَاءَ عَاشِقٍ، قَالَ حَامِلُهُ: فَصَعَقْتُ وَغَشِي عَلِي، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى سَرِي، فَأَخْبَرْتَهُ، فَقَالَ: قَاتِلْهُ اللَّهُ، مَا أَبْصَرَهُ.

إخواني! كلما قوى نسيم العلم أضرَمَ شعل نار الخوف.

[الطويل]

إِنَّا وَأَضَلَّكَ الطَّبِيبَ عَاذَ بِرُفْقَا وَيَمِنْ عَرِ أَنْفَاسِي عَلَى نَهْيِ
وَقَدْ أَكْثَرْتُ فِي الْأَعْيَابِ قَوْلُهُمْ وَمَا لِي إِلَّا أَنْ أَرَاكَ عَرِيبُ
يُسَالِمُ قَلْبِي أَنَّهُمْ قَهْوُ حَلِيفُهُ وَيَسِينُ جُفُوسِي وَالرُّفْقَاءُ حُرُوبُ

(١) أخرجه أحمد (١٢٨/٣)، رقم (١٢٣١٥)، والنسائي (٦١/٧)، رقم (٣٩٣٩)، وابن سعد (٣٩٨/١)، وأبو يعلى (٢٣٧/٦)، رقم (٣٥٣٠)، والحاكم (١٧٤/٢)، رقم (٢٦٦٦) وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي (٧٨/٧)، رقم (١٣٢٣٢)، والقياد (٤٢٧/٤)، رقم (١٦٠٨)، وأخرجه أيضًا: محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (١/١)، رقم (٣٣١)، رقم (٣٢٢)، والعملي (١٦٠/٢)، ترجمة ٦٦٦ سلام بن سليمان أبو المنتظر.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤/٣)، رقم (١٢٢٦٩)، قال الهيثمي (٧١/٢): رجال أحمد رجال الصحيح، وأخرجه البزار كما في كشف الأستار (١/٢٣٥-٢٣٦)، رقم (٤٨١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/١٧٠)، رقم (٣٠٤٢٦).

الفصل الثاني والسبعون

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ

مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]

الضرب^(١) في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: الرصف: ﴿وَلَمْ يَصْرَبْ مَثَلًا مَا﴾ [البقرة: ٢٦].

الثاني: الضرب باليد: ﴿وَأَضْرِبْهُمْ﴾ [النساء: ٣٤].

الثالث: السير: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا فِي الْأَشْيَاءِ﴾ [النساء: ١٠١]، و ﴿لَا تَرْكَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٤].

وأشار عز وجل إلى القرآن بقوله: (هذا القرآن) في ثمانية مواضع:

في (يونس): ﴿وَمَا كُنَّا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يونس: ٣٧].

وفي (بني إسرائيل): ﴿لَقَدْ كُنَّا الْقُرْآنَ يَهُودِي﴾ [الإسراء: ٩]، وفيها: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا فِي كَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّبَ﴾ [الإسراء: ٤١].

وفي (الكهف): ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِنُؤْمِنَ﴾ [الكهف: ٥٤].

وفي (النمل): ﴿لَقَدْ كُنَّا الْقُرْآنَ نَقُصُّ﴾ [النمل: ٧٦].

وفي (الروم): ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ [الروم: ٥٨].

(١) الأصل في الضرب: الجلد بالسوط وما أشبهه، ثم نقل بالاستعارة إلى مواضيع؛ فقال: ضرب في الأرض، إذا سار، ولعلنا ضارب، أي: متخرف، والضرب: الرجل الخفيف الجسم، وأشدوا: (الطويل).

أما الرجل الضرب الذي تغرلونه - عفاش قراشي الحيد الشنوليد والضرب: الضرب من الأشياء، والضرب - بضم الياء -: القتل القليل، والضربة: ما يضرب على الإنسان من جزية وغيره، وأضرب فلان عن الأمر: فقه، والضرب: البطل.

فأما المثل فهو الشبه، قال ثعلب: (الأمثال جثمة العرب، يوجي بعضهم بها إلى بعضي بلا تضييع، فيلهم الرجل عن ضاحيه ما حاول بإيجاز والحيض).

وجملة ما في القرآن من الأمثال سبعة وثلاثون مثلاً:

في (البقرة): ﴿يَتْلُوهَا﴾ [البقرة: ١٧]، وفيها: ﴿أَوْ كَسَّهِنَّ﴾ [البقرة: ١٩]، وفيها: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وفيها: ﴿وَمَثَلُ الْفَرِيِّ كَيْفُوتٌ أَتَوْهُمُ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وفيها: ﴿أَيُّدُ أَمْشَقْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، وفيها: ﴿كَذَلِكَ يَقُومُ الْوَيْلُ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ﴾ [البقرة: ٢٧٥].
وفي (آل عمران): ﴿وَوَدَّعْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حُمْرُوهُ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وفيها: ﴿مَثَلُ مَا يُحْيِيهِنَّ﴾ [آل عمران: ١١٧].

(الأعراف): ﴿كَذَلِكَ الْمَكْشَلُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وفي (يونس): ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٤].

وفي (هود): ﴿مَثَلُ الْفَافِقِينَ﴾ [هود: ٢٤].

وفي (الرعد): ﴿الَّذِينَ يَكُفُّونَ مَا﴾ [الرعد: ١٧]، وفيها: ﴿مَثَلُ الْخَلْدِ﴾ [الرعد: ٣٥].

وفي (إبراهيم): ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وفيها: ﴿كَذَلِكَ خَرِقَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وفيها: ﴿وَمَثَلُ الْيَمِينِ حَيْثُوهُ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

وفي (النحل): ﴿خَرِقَ اللَّهُ مَثَلًا عَيْنًا مَثَلُوهَا﴾ [النحل: ٧٥]، وفيها: ﴿وَمَثَلُ اللَّهِ مَثَلًا وَشَلِّينَ﴾ [النحل: ٧٦]، وفيها: ﴿وَمَثَلُ اللَّهِ مَثَلًا قَرِيبًا﴾ [النحل: ١١٢].

وفي (الكهف): ﴿وَأَخْرَجَ لَهُمْ مَثَلًا تَحْتَيْنَ﴾ [الكهف: ٣٢]، وفيها: ﴿وَأَخْرَجَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥].

وفي (الحج): ﴿وَمَنْ يَتْرِكْهُ يَلْهُو فَمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣١]، وفيها: ﴿خَرِقَ مَثَلُ مَا تَسْتَكِيمُوا لَهُهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وفي (النور): ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥]، وفيها: ﴿أَتَمَّتْهُمْ كَرِيمَةً﴾ [النور: ٣٩].

وفي (العنكبوت): ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَلْوَنَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وفي (الروم): ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

وفي (يس): ﴿وَأَضْرَبَ لَكُم مَثَلًا﴾ [يس: ١٣]، و﴿وَضَرَبَ لَكُم مَثَلًا﴾ [يس: ١٧٨].

وفي (الزمر): ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

وفي سورة (محمد): ﴿مَثَلُ لَقَمَةٍ﴾ [محمد: ١٥].

وفي (الحشر): ﴿كَذَلِكِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ١٥]، ﴿كَذَلِكَ أَتَتْهُمْ﴾ [الحشر: ١٦].

وفي (الجمعة): ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبِلُوا الْكَيْدَ ثُمَّ لَمْ يَجْعَلُوا كَفْلًا الْجَنَّةِ﴾ [الجمعة: ٥].

وفي (المنحرمة): ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التحریم: ١٠]، و﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التحریم: ١١].

وكم من كلمة تدور على الألسن مثلا، جاء القرآن بالخص منها وأحسن، فمن ذلك قولهم: خير الأمور أوساطها، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَاكُمْ أَثَمًا وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقولهم: القتل أنقى للقتل، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَّةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقولهم: * لَيْسَ الْمُشْكِرُ كَالْمُتَّعِينَ ^(١)، مذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجُذُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْجَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

(١) هذا الحديث رواه أحمد وابن مبيع والطبراني والعسكري وابن حبان والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: "ليس الخير كالمعانية"، وله نسخة، ورواه أحمد وابن حبان بلفظ: "ليس المعاني كالمشكر"، ورواه البخاري والدارقطني في "الأفراد" والبيهقي في "المختارة" وابن عدي وأبو يعلى الخليلي في "الإرشاد".

* انظر: فيض القدير ٥/ ٣٥٧، كشف الخفا ٢/ ١٦٨، مستد أحمد ١/ ٢٧١، موارد الطمان من ٥١٠.

وقولهم: كما تدين ثدان، مذكور في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا فَإِمْرًا يُجْزَىٰ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقولهم: للحيطان أذان، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُ سَعَتُونَ مُؤْتًى﴾ [التوبة: ٤٧].

وقولهم: الحمية رأس الدواء، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَصَلُّوا وَانْفِرُوا وَلَا تَنْفِرُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

وقولهم: الحلال يأتي قوتاً، والحرام جزئاً، مذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَابُهُمْ يَوْمَ كُنْتُمْ سُوءًا شَرِّئًا﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وقولهم: احذر شر من أحسنت إليه، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْصُرُوا﴾ [آلَةُ الْإِنْسَانِ اللَّهُ وَتَرْكُهُ مِنْ قَضِيَّةٍ] [التوبة: ٧٤].

وقولهم: من جهل شيئاً عاداه، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَلَّفْنَا بَنِي إِدْرَيسَ﴾ [يونس: ٣٩]، ﴿وَقَدْ كَلَّمْنَا بَنِي إِدْرَيسَ﴾ [الأحاف: ١١].

وقولهم: أمه تخرج من كهف، مذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الْفِتْرَةُ فَلِيٍّ تُخْشَوْنَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقولهم: غير الأمور أوساطها، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ذِكْرًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقولهم: من أعان ظالماً سلطه الله عليه، مذكور في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمُ﴾ [الحج: ٤].

وقولهم: لما أنضح رمد، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَيْسَ بِكُمْ﴾ [النجم: ٣٤].

وقولهم: لا تلد الحية إلا حية، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْرُجُ إِلَّا﴾ [نوح: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَعْنَا آلَ فِرْعَانَ﴾ [يوسف: ٢].

قال الزجاج: ﴿عَرَبِيَّةً﴾ [يوسف: ٢] منصوب على الحال، والمعنى:

ضربنا للناس في هذا القرآن في حالٍ عربيٍّ، وذكر قرآنًا توكيدًا.

قال أبو عبيدة: ليس في القرآن سوى العربية هذه الغاية.

وقال ابن عباسي، ومجاهد، فيه من غير لسان العرب في الأصل، ثم لفظت بها العرب فعربتها، فصارت عربية بتعريبها إياها، فهي عربية في الحال عجمية الأصل.

قرأنا على شيخنا أبي منصور أن أسماء الأنبياء أعجمية كلها، إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وإسرائيل، وأيوب، وإلياس، إلا أربعة: آدم، وصالح، وشعيب، ومحمد صلى الله عليهم أجمعين.

وأزر أعجمي، والاستيرق، وإيليس، والإنجيل، والزبور، وجالوت، وجهنم، والذئبار، وداود، والريانيون، وزكريا، والزنجبيل، والسُّنْدُس، والسجيل، وسُلَيْمَان، والسلسليل، والسجل، وسقر، والسُّرَّاق، وصلوات، وهي صلوات اليهود، وهي بالعبرانية صلواتا، والطور، وطالوت، وعيسى، وعزير، والفساق: البارد المُنْتِن بلسان الترك، والفردوس، والقسطاس، روميان، والقطار أعجمي، ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُ كَهَيْئَةِ ۝﴾ [التكوير: ١]، قال سعيد ابن جبير: غورت، وهو بالفارسية كور يهود، والبسج، ولوط، وموسى، ومريم، وهاروت، وماروت، وماجوج، ومدين، وميكائيل، والمرجان، ونوح، وهارون، وهود أعجمي، ويعقوب، ويونس، ويوسف، ويوشع، واليم، ويهوذا، جملة ما ذكره شيخنا من الشعوب في القرآن.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَىٰ فِي رِجْجٍ ۝﴾ [الزمر: ٢٨]، قال أبو عبيدة: ((الريج)) يَجْرِي فِي الدِّينِ وَالْكَلَامِ وَالْعَمَلِ، وَ (الريج) يَفْتَحُهَا فِي الْخَائِطِ وَالْجُدْعِ. قال الزجاج: كسر العين فيما لا يرى له شخصًا، وفتحها فيما له شخص. قال ابن عباسي: ﴿فَتَرَىٰ فِي رِجْجٍ ۝﴾ [الزمر: ٢٨]: عَرَىٰ مَخْلُوقٍ.

سيحان من قدم كتابنا على سائر الكتب وفضله، ويسر عمله الذي الفهم وفضله، وجمع لحامله الخير الجهم له وجَمَلُهُ، كل الكتب تساوت في كونها صفةً للمتكلم، واجتمعت في دائرة القدم، وميز كتابنا بالفضيل، كما أن الرسل تساوا في الرسالة، وميزت بد الاختيار وفضلنا بعضهم على بعض.

ألم ترى أن الأبعاد تتساوى في كون جملتها ذاتاً، وتفضل بعضها على بعض، ألا ترى أن الوجه بغض الذات وهو أشرفها، ثم أشرفه العين، ثم أعزها السواد.

كلام ليس فيه أثر التصنع، ولا علامة التكلف يزيد لفظه على الطبع، بقدر ما يزيد الطبع على التصنع، جزله وجزيز اللفظ، وسهله بسيط النظر، وبلغه بعيد الغور عند السير، قليله كثير، وكثيره غزير، ومعناه أحسن من لفظه، ولفظه أملح من وزنه، ووزنه أعجب من نظمه، ونظمه أحلى من نثره، يتساوى فيه تعجب الجاهل وتحير العالم، نطقت السنة مدحه، ﴿وَلَقَدْ يَمَعَلُ لَكُمْ يَوْمَآ﴾ [الكهف: ١] وقالت عبارة فضله، ﴿وَلَقَدْ لَبِثْنَا لَكُمْ عُيُنَا﴾ [الرعد: ٣١]، وركب مراهم العاقبة من حركات الألسن به، ﴿وَيَنْزِلُ مِنَ الْفُتُورِ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فهو المسموع بدليل: ﴿عَلَى يَسْمَعُ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، والمحفوظ بإشارة: ﴿الَّذِينَ أُولُوا أُولَئِكَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والمكتوب بعبارة: ﴿فِي لُجٍّ مُخْتَلِفٍ﴾ [المروج: ٢٢].

الفصل الثالث والسبعون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ نَبِيٌّ وَكَلَّمَ رَبُّكَ نَبِيًّا﴾

[الزمر: ٣٠]

أيها الناس! كيف يُطمع في البقاء ومُحمد قد مات، وكيف تؤمن الرزايا ولم يسلم الحبيب وهيئات، وكيف نغتر بدار في بيتها البيات، قد بات أن من رأى ذات عرق الشيب فقد شارب الميفات.

لما قضى نبينا صلى الله عليه وسلم نهته من الإنذار، قيل له: ما خلقت لهذه الدار، فعزى عن نفسه برسالة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِقَوْمٍ مِنْ قَبْلِكَ الْفَلَكُ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وجعلت لأجله أمانة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [التصور: ١]، واشتملت على دافع من الآخرة ووداع من الدنيا، فلما ثقل مرغه هم بالخروج إلى المسجد، فامتنع المشمكن، وأرسل لينوب فيما ينوب، ولقد خرج يوماً من ثياب المرض، فقام في ساحة بيرة الساحة، ينادي في النادي: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، * فأبى رجل أحنث من عريضه فهذا عريضه، أو من بشرى فهذا بشرى، أو من ماله فهذا مالي، وأعلموا أن أولاهم بي رجل كان له من ذلك شيء فأخذته وحللتني، فليفت ربي وأنا مُحلل، ولا يقولن أحدكم: إني أخاف العداوة والشحناء من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهما ليسا من طبعي^(١)، ولقد علم قرب الأجل، فاشتغل عن خطبه

(١) أخرجه ابن سعد (٢/٢٥٥)، والطبراني في الكبير (١٨/٢٨٠)، رقم ٧١٨، وأخرجه أيضاً: في الأوسط (٣/١٠٤)، رقم ٢٦٢٩، قال الهيثمي (٩/٢٦٦): فيه من لم أمرهم.

بالخطاب في خطبة الرفيق الأعلى، وكان الذي أوصى به في إيصائه * الصلاة وما ملكت أيمانكم^(١).

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: اجْتَمَعْنَا جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَمِينِ عَائِشَةَ فَلَنَظَرُ إِلَيْهَا فَلَمَعَتْ عَيْنَاهُ، فَتَنَى إِلَيْهَا نَفْسَهُ، فَقَالَ: * مَرْحَبًا حَيَّاكُمُ اللَّهُ بِالسَّلَامِ، حَفِظَكُمُ اللَّهُ، رَعَاكُمُ اللَّهُ، جَمَعَكُمُ اللَّهُ، تَصَرَّكُمُ اللَّهُ، وَفَقَّكُمُ اللَّهُ، نَقَمَكُمُ اللَّهُ، رَفَعَكُمُ اللَّهُ، سَلَّمَكُمُ اللَّهُ، أَوْصِيَكُمُ بَطَوَى اللَّهِ، وَأَوْصِي اللَّهُ بِكُمْ وَأَسْتَحْلِفُكُمْ عَلَيْهِمْ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَجَلَك؟ قَالَ: قَدْ دَنَا الْأَجَلُ وَالْمُنْقَلَبُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَجَنَّةِ الْمَأْوَى، وَالْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ يُعْصَلُكَ؟ قَالَ: رَجُلٌ أَهْلُ بَيْتِي الْأَقْنَى فَلَاذَنِي، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَمِينًا نَحْنُكَ؟ قَالَ: فِي يَمِينِي هَذِهِ إِذْ شِئْتُمْ، أَوْ لَا فِي خُلُقِي^(٢) بَيْنِي، أَوْ فِي بَيَاضِي بَضَرِي قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ يُعْصَلِي عَلَيْكَ؟ وَبِحُجَّتِنَا، قَالَ: مَهْلًا وَجَنَّتُمْ اللَّهُ وَجَزَائِكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ خَيْرًا، إِذَا عَسَلْتُمُونِي وَعَقَّصْتُمُونِي فَصْصُونِي عَلَى سِرِيرِي هَذَا عَلَى شُفْرِ قُبْرِي ثُمَّ احْرُجُوا عَلَيَّ سَاعَةً، فَإِنْ أَوَّلَ مَنْ يُعْصَلِي عَلَيَّ خَلِيلِي وَخَبِيرِي جِبْرِيلُ، ثُمَّ مِيكَائِيلُ، ثُمَّ إِسْرَافِيلُ، ثُمَّ مَلَكُ الْمَوْتِ فِي مَلَائِكَةِ غَيْرِهِ، ثُمَّ ادْخُلُوا عَلَيَّ فَوْجًا فَوْجًا فَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلُُّوا تَسْلِيمًا وَلَا تُؤْذُونِي بِتَاكِتِهِ، وَلَا بِرَثْوَةٍ، وَلَا بِضَبْحَةٍ، وَلْيَبْنُوا بِالصَّلَاةِ عَلَيَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، ثُمَّ يَسْأَلُهُمْ، ثُمَّ أَنْتُمْ، وَافْرَدُوا السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ غَابَ عَلَيَّ مِنْ أَصْحَابِي، وَعَلَى كُلِّ مَنْ تَبِعَنِي عَلَيَّ دِينِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَلَا وَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ قَدْ سَلَّمْتُ عَلَى كُلِّ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ^(٣)، فَلَمَّا اسْتَعَزَّ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، ضَاحَ لَسَانُ الطَّنَجِ لَنَا أَلَمْ مِنْ أَلَمٍ وَاعْتَرَانَا، فَخَانَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي النَّاءِ فَيَسْلُجُ بِهَا وَجْهَهُ

(١) أخرجه أحمد (١١٧/٣)، رقم (١٢١٩)، وعبد بن حميد (ص ٣٦٥، رقم ١٢١٤)، والنسائي في الكبرى (٢٥٨/٤) رقم (٧٠٩٤)، وابن ماجه (٩٠٠/٢) رقم (٢٦٩٧) قال البوصيري (١٣٩/٣): هذا إسناد حسن، وابن سعد (٢/٢٥٣)، وأبو يعلى (٥/٣٠٩)، رقم (٢٩٣٣)، والفتاوى (٦/١٥٨)، رقم (٢١٥٦) وقال: إسناده صحيح.

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

(٣) أخرجه البوصيري في إتحاف المهرة (٢/٥٩٢)، رقم (٢٠٤٤).

وَيَقُولُ: " اَللّٰهُمَّ اِهْنِىْ عَلٰى سَكْرَاتِ الْمَوْتِ " (١)، وَاِنَّمَا اَخْبَر بِمَا لَقِيَ الرَّسِيْلَ الْاَكْبَرُ، لِيُوطِن نَفْسَهُ عَلَى الصَّيْرِ الدَّوْنِ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَاطِمَةُ، فَدَنَّتْ، فَدَنَّتْ، وَقَدْ دَنَّتْ وَفَاتَهُ، فَتَنَعَىٰ إِلَيْهَا نَفْسَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرًّا، فَجَرَتْ دَمْعَ اسْفُهَا جَهْرًا، فَأَضْحَكَهَا بِبَشَارَةٍ: " أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تُكُونِي سَيِّدَةً بِسَاءِ هَلِوِ الْأَيَّامِ؟ " (٢).

[اليسيط]

أَضْحَىٰ إِلَى النَّبِيِّنَ مُعْتَرًّا فَلَا جَرَمَ أَنْ النَّبِيُّ شَارِبًا فِي قَلْبِهِ لَمَمًا أَصْبَغِي بِرُفْعِهِمْ أَيَّامَ مُرَقَّتِهِمْ هَلْ كُنْتُ تُعْرِفُ بَرًّا يُورِثُ الشَّيْمَا فَلَمَّا خَرَّ عَلَيْهِ خَرَبُ الْمَوْتِ، ضَاحَتْ: وَاخْتَرَبَ أَبْنَاءَهُ، فَسَكَنَ جُرْعَهَا: " لَا خَرَبَ عَلَى أَيْكَ بَعْدَ الْيَوْمِ " (٣).

وَلَقَدْ نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَقَالَ: " يَا أَحْمَدُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ بِشَأْنِكَ عَمَّا هُوَ أَغْلَمُ بِكَ مِنْكَ، يَقُولُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ فَقَالَ: أَجِدُنِي يَا جِبْرِيلُ مُعْلَمًا، وَأَجِدُنِي يَا جِبْرِيلُ مُكْرَمًا، وَأَمَّا إِلَيَّ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَقَتَى السُّؤَالُ فَأَعَادَ ذَلِكَ الْجَوَابَ، ثُمَّ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَذَلِكَ وَهُوَ يُجِيبُ كَذَلِكَ، فَإِذَا مَلَكَ الْمَوْتُ يَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا أَحْمَدُ هَذَا مَلَكَ الْمَوْتِ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ عَلَى أَقْمِي قَبْلَكَ، وَلَا يَسْتَأْذِنْ عَلَى أَقْمِي بَعْدَكَ فَقَالَ: ائْذَنْ لَهُ فَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَوَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ وَأَمَرَنِي أَنْ أَطِيعَكَ فَإِنْ أَمَرَنِي أَنْ أَطِيعَ نَفْسَكَ فَقَبِيضْهَا، وَإِنْ أَمَرَنِي أَنْ أَرْزُقَهَا ثَرَقْتُهَا، قَالَ: وَتَفْعَلُ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: كَذَلِكَ أَمُرْتُ أَنْ أَطِيعَكَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا أَحْمَدُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَبْلَ اسْتِثْقَائِكَ، قَالَ: ائْطِيعْ بِمَا أَمُرْتُ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ " (٤).

(١) أخرجه ابن أبي شبة (١٢/٦)، رقم (٢٩٣٣٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٨٧٣).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٦٦١/٦)، رقم (٣٤٤١).

(٤) أخرجه الطبراني (١٢٨/٣)، رقم (٢٨٩٠).

[مجزوء الرجز]

إِنْ كَانَ جِيرَانُ الْقَضَا زَمُوا بِقُتْلِي قَرِيبًا
وَاللُّومُ مَا تُحْتَكُ لِمَا يَهْوَى الْحَرِيبُ مُبِيعًا
لَقَالَ جَبْرِيلُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا آخِرُ مُوْطِئِي الْأَرْضِ، إِنَّمَا
تُحْتَكُ خَاجَتِي فِي الدُّنْيَا، فَتُؤَيِّنُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَنْدًا إِلَى صَدْرِ
عَاقِبَتِهِ، فِي بَيْتِهِ مُلْتَمِدٌ وَإِذَا رُحِّلَ لِحَيْطُهُ، قَامَتْ قَاطِعَتُهُ رَحِيحُ اللَّهِ عَثَا تَتَذَبُّ أَتَارُ
الرِّجَالِ، فَجَعَلْتُ تَقُولُ فِي نَذْبِهَا: يَا أَبْنَاءَ أَجَابِ رَبِّ دُعَاءِ، يَا أَبْنَاءَ جَنَّةِ
الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبْنَاءَ إِلَى جَبْرِيلَ أُنْعَاهُ، يَا أَبْنَاءَ مِنْ رَبِّي مَا أَقْنَاهُ.

[الطويل]

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى تَقْتُلُ الْمَرْءَ نَفْسُهُ وَإِنْ تُحْتَكُ مِنْ لَيْلَى عَلَى الْحُبِّ طَاوِنَا
وَكَيْفَ لَا يَنْدُبُ مَنْ فَقَدَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَكَيْفَ يَكُنْ قَلْبًا شَاكًا شَاكُهُ مَا شَاكَ،
وَهَلْ لَا يَأْمُ الرِّصَالِ ثَمَنُ فَنَبْعِي بِذَلِكَ.

[البسيط]

قَدْ كَانَ قَلْبِي بِكُمْ مَأْوَى السُّرُورِ قَسْدًا نَأَيْتُمْ صَارَ مَأْوَى قُلُوبِ بَلْبَالٍ
فَلَوْ شِئْتُ بِنَفْسِي سَاعَةً سَلَفْتُ مِنْ عَيْشَتِي مَعَكُمْ مَا كَانَ بِالْعَالِي
مَالِي أَعْلَى قَلْبِي بِالْوُقُوفِ عَلَى مَنَازِلِ الْقُطُوفِ بِشُغْمٍ وَأَظْلَالٍ
مَنْ لِي بِكَشْفَانِ مَا أَلْقَاهُ مِنْ أَلَمٍ وَظَاهِرِي مُعْرِتٍ عَنْ بَاطِنِي الْحَالِ
فَضَحَّ الثَّامِسُ بِالْبُكَاءِ، وَارْتَحَبَتِ الْمَدِينَةُ بِالْعَزَاءِ، وَقَالَ عُمَرُ: مَا مَاتَ،
وَعَرَفَتِ الْعُمَامُ الْبِلَاءَ، فَقَالَ: بَلَى، فَجَاءَ ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾ [التوبة: ٤٠] لِحُكْمِ
بَيْنَ الْأَشْيَيْنِ، فَرَأَى غُرَابَ الْبَيْنِ بَيْنَ الْبَيْنِ، وَكَشَفَتِ الثُّوبَ عَنْ وَجْهِهِ، وَأَكْبَتْ
عَلَى تَلْبِيهِ، وَقَالَ: (يَا بِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَنَا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُنَيْتُ عَلَيْكَ فَقَدْ مَثَلَهَا،
وَمَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجْمَعَ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ)، وَكَانَ يَمِينًا وَثَاءَ الصَّدِيقِ رَحِيحُ اللَّهِ
عَفَّةً: [الكامل]

لَمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتَجِدِلًا ضَافَتْ عَلَيَّ بِعَرَضِهِنَّ السُّورُ
وَارْتَحَبَتْ رَوْعَةً مُشْتَبِهَامٍ وَالْوِوَالْعَظْمُ بِشِي وَاجِسٌ مَحْشُورُ

أَعْبَيْتُ وَنَحَكَ إِنْ جِئْتُ قَدْ نَوَى وَتَقِيْتُ مُنْكَرًا وَأَنْتَ حَبِيرٌ
يَا لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ مَهْلِكِ صَاحِبِي غَيْبَتْ فِي جَدِّثٍ عَلَيَّ ضُخْرٌ
فَلَمَّا دَخَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ: (يَا أَسَى أَطْلَبْتُ أَنْفُسَكُمْ
أَنْ تَخْلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثَّوَابَ ١٢)؛ فَمَا رَوَيْتِ ضَاحِكَةً
تَفْذُ بُعْدَهُ، حَتَّى انْقَبَضَ بِالمَوْتِ جِملَةٌ هِيَ بِضْعَةٌ مِنْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِي فَاطِمَةَ
سَعَةً لِلْقِسْمِ، لَقَدْ كَانَتْ دُمُوعُهَا عَلَى الدَّوَامِ تَجْرِي، وَرَيْبًا كَلَّتْ وَهِيَ لَا تَدْرِي،
لَا تَقْبِلُ عَزَاءً، وَلَا تَسْمَعُ لَأْتِمَ، وَالْحُزْنَ شَدِيدَ الْبِكَاءِ دَائِمَ.

[المتن: ب.]

وَنَأْسَى الطَّيَّاعَ عَلَى الثَّقَلِ
يَحْمِيكَ عَلَى عَيْنِي الزَّائِلِ
وَبُكْتُ مِنَ الْحُزَنِ فِي شَاغِلِي
يَبَاتُ شُغُفٌ عَلَى قَائِلِي

ولئن كان صلى الله عليه وسلم قد ذاق الموت، فما مات من أتباعه
﴿أَمَّاكَ هَذَا زَيْهَمٌ يَزُولُ﴾ (آل عمران: ١٦٩)، وإنه بعد موته على سدة
السيادة، يعرض على كل موجود رسالته، ﴿لَا تَزُولُ بِهِ، وَمَنْ يَلْقَ﴾ (الأنعام:
١١٤)

تعرض عليه أعمال أمته، فيستبشر، ويستغفر، فإذا صلى عليه، أو سلم حملها إليه الملك على حالها، وأثاب عليها بعشر أمثالها.

وحرم أزواجه بعد غيرة له على غيره، فمن في حرم: ﴿وَلَا أَنْ تَكُونُوا أَزْوَاجًا﴾ (الأحزاب: ٥٣).

فإذا نفخ في الصور، فهو أول من تنشق الأرض عنه، وأول شافع، وأول مشفع، صاحب اللوى، وأول فاتح أبواب جنة المأوى.

الفصل الرابع والسبعون

في قوله تعالى: ﴿وَلْيَمِيزُوا بَيْنَ رَبِّكُمُ﴾ [الزمر: ٥٤]

(أَيُّوا) بمعنى: ارجعوا بين الربِّ والذنوب، و (أشليوا): أخلصوا.
قوله: ﴿ثُمَّ لَا تُصْرَفُكَ﴾ [الزمر: ٥٤]، (ثم) ^(١) في القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: بقاءه على أصله: ﴿ثُمَّ إِنْ رَجَعْتَ مَرِيضًا﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

الثاني: بمعنى: الواو: ﴿ثُمَّ إِنَّهُ كَيْدٌ﴾ [يونس: ٤٦].

الثالث: وقوعه زائداً: ﴿ثُمَّ نَكَبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٧].

و (يتصرفون): يُمنعون.

﴿وَلْيَمِيزُوا بَيْنَ رَبِّكُمُ﴾ [الزمر: ٥٤]، العفو أحسن من القصاص، والقصاص في القرآن، والعفو في القرآن، والعفو أحسن، والصبر أحسن من الانتصار.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَقُولُوا نَحْنُ﴾ [الزمر: ٥٦]، المعنى: بادعوا قبل أن تقول نفس والحسرة والتلف على الفات.

يا هذا أحسر عن مساعد المجاهدة للنفس، قبل أن تقول: واحسرتنا، نادها بلسان التوبيخ، كأنك برجاء الرخاء قد عادت عاصفاً، فتنبهي من هذا الرقاد، فقد جاء سبل التلف.

عن ابن الجوزي عن الثبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: * ألا رب نفسي جارية غارية في الدنيا طاعة ناعية يوم القيامة، ألا يا رب مُكْرِمٍ لِنَفْسِي وَهُوَ

(١) (ثُمَّ): حرف مبني على الفتح وهو من حروف العطف ويفيد الترتيب والمهلة؛ تقول: جاني زيد ثم عمرو، فعمرو جاء بعد زيد بهلة وتراخي.

لَهَا فِيهِ، أَلَا يَا رَبُّ فَبَيْنَ لِنَفْسِهِ وَفَوَ لَهَا مُخَرَّمٌ، أَلَا رَبُّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْزَنَتْ حُرُوقًا طَوِيلًا»^(١).

ابن الجبير لا تعرف له اسم، ولا روى غير هذا الحديث، وفي الصحاح خمس مائة وستون نفسًا ما بين رجل وامرأة، لا يروى أحدهم سوى حديث واحد منهم، أبو اللحم الأذرع، الأفرع، بروع، بريرة، ثابت بن قيس، حسان، حمية، خديجة، أم ذو الزوائد، والعزم، أم الطفل.

إخواني؛ من أَرْضَى جوارحه في الشهوات، فقد غرس لنفسه شجر الندامات، حاربوا أنفسكم، فمن قوي على نفسه، فقد تنهى في القوة، ومن صبر عن شهوته، فقد بالغ في الثروة بالصبر على ما يكره ينال ما يحب، وبالصبر عما يحب ينجو مما يكره.

[اليسيط]

يَا نَفْسُ ضَبْرًا وَلَا فَاغْلَبِي جَزَعًا إِذُ الزَّمَانُ عَلَى مَا تُخَرِّهِنَّ لِنَفْسِي لَا تُحْسِنِي بَعْدًا سَرَّتْكَ صُحْبَتُهَا إِلَّا تَفَايَيْخُ أَبْزَابٍ إِلَى الْخَزُونِ يَا مَسَاكِنًا لِلنَّفْسِ الْجَهْلُولَةِ الْغَدَارَةِ، كيف تقبل منها؟ وهي بالسوء أماراة، ويحبها ما يُفْرِحُهَا رِيحٌ وَلَا يَغْمِهَا خَسَارَةٌ، ولقد بادرت بالذنوب وأنتى هذه الجسارة، قد آمنت وسط الهلاك ونأمت وسط الغارة، أما تسلب القرين بكفي من يفهم الإشارة، لقد شان شأنها القبيح وأضلها إغرامها، عدوها بالهوى واستزلها، فحلت رحلتها محله ما حل من حلها، فلمها ولبك يا هذا؟ وقل لها تترك الهوى، فالهوى قد أعلها، وتذكر التوى فالتوى قد أظلمها، وتحارب عدوًا إنما بقصد قتلها، فكم أهلك قبلها مثلها.

[الخفيف]

هِيَ نَفْسِي لِمَا لَهَا تَهْلِيهِسِي أَغْذَابِي تُرِيدُ أَمْ تَهْلِيهِسِي قَدْ نَأْمَلْتُهَا وَأَخْطَأْتُ فِيهَا إِذُ حَبَّبْتَنِي لِطَبِّهَا وَهِيَ فِيهِسِي

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ٤٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٧٠)، رقم (١٤٦١).

تَحْتَذِي بِي إِلَى هَوَايَا ثَرِينِي	أَتَهَا بِي إِلَى الْهَذَى تَحْتَذِي بِي
صَلَفَتْنِي إِذْ صَلَفْتَنِي نَصِيحًا	ثُمَّ عَادَتْ تَجُورُ بِي تَغْلِيظِي
أَتَحَلَّتْ جَنَابِي التُّحُورُ	كَتَابَتْ أَبِي بِي يَنَابِي وَأَذِي
إِنْ تَكُنْ شَرُّهَا نَعِيمٌ خَلَا بِي	فَلَقَدْ شَاءَ بِهَا تَغْلِيظِي

الفصل الخامس والسبعون

في قوله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الشُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ﴾ [الزمر: ٦٨]

هذه النفخة هي الأولى، ومعنى «صعق»: ماتوا من الفزع وشدة الصوت.

والصاعقة: أشد صوت الرعد، يسقط معه قطعة من نار، تحرق ما أصابت، ويقال: صاعقة، وصاعقة.

قال أبو التجم: [الرجز]

يَجْلُونَ بِالْمُضْطَوِّاةِ الْقَوَاطِعِ تَنَقُّتُ الْبَرْقِ عَلَى السَّمَوَاتِ
ومثله جذب وجذب، وما أطيبه وأيطبه، وريض ورضب، وانفض في
القوس وانضب، ولعمري ووعلمي، واضمحل وامضحل، وعميق ومعيق،
وسيب وسبس، وملكت الشيء ولمكته إذا خلطه، وأسير مكبل وملكب،
ومحاب مكفهر وفكرهف، وناق خمرز وخمرز إذا كانت مُسْتَه، وطريق طامس
وطاسم، وقفا الأثر وقاف الأثر، وقاع البعير الناقة وقعاها، وقوس عطل وعلط
لا وتر عليها، وجارية قتين وقيت وهي القليلة الدر، وشرخ الشباب وشجرة
أوله، ولحم عتر وعزن، وغاث يغيث، وعثا يعثي: إذا أفسد وتنع عن لقم
الطريق ولحق الطريق، ولفحته بيدي، ولحفته إذا ضربته، وهجهجت السبع
وجهجت، ويطبخ ويطبخ، وماء سلسال والسلاس وملسل إذا كان صافياً،
ودقم فاء بالحجر، ودقمته إذا ضربته، وثأأت القدر وثأأتها إذا سكنت غليانها،
وكبكت الشيء وبككته، إذا طرحت بعضه على بعض، وكلم وكلمه وجهه،
وجارية قبة وقبة:

وهي التي يظهر وجهها ثم تخفيه، وكبعرته بالسيف وبعبكرته إذا ضربته.

والصاعقة والصعق في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: الموت، ومنه: ﴿فَأَعَذَّتْكُمْ السَّمِيعَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿فَصَمِيتَ مَنْ فِي السَّمَكِاتِ﴾ [الزمر: ٦٨]،

الثاني: العذاب، ومنه: ﴿أَلَذَّذْتُمْ صَوْتَهُ﴾ [فصلت: ١٣] .

الثالث: صواعق السحاب، ومنه: ﴿وَنَزَّلْنَا الصَّوْغِيَّ﴾ [الرعد: ١٣] .

الرابع: الغشي، ومنه: ﴿وَعَزَّزْنَا مَوْثِقَ صَبَاحٍ﴾ [الأعراف: ١٤٣] .

قوله تعالى: ﴿مَنْ فِي السَّمَكِاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] أربعة أحرف:

ففي يونس: ﴿مَنْ فِي السَّمَكِاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْبَى﴾ [يونس: ٦٦] .

وفي الحج: ﴿يَتَجَدَّ لَهُ مَنْ فِي السَّمَكِاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨] .

وفي النمل: ﴿فَنُفِخَ مَنْ فِي السَّمَكِاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧] .

وفي الزمر: ﴿فَصُوتَ مَنْ فِي السَّمَكِاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] .

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَكَكَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فيهم ثلاثة أقوال:

أحدها: الشهداء، قاله ابن عباس .

الثاني: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ثم إن الله تعالى يبعثهم، قاله مقاتل .

الثالث: من في الجنة من الحور والولدان، ذكره ابن شاذان من أصحابنا،

ثم نفخ فيه أخرى وهي نفخة البعث، ﴿فَإِنَّمَا هُمْ﴾ [الزمر: ٦٨] يعني:

الخلق، و﴿وَأَنشَرَّتْ الْأَرْضُ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ يعني عروضات القيامة،

﴿وَيُؤْتَرِ زَيْتًا﴾ [الزمر: ٦٩]؛ يعني: بعدل ربها، والمراد بالكتاب: كتاب الأعمال.

يا مفرطاً في الشيب والشباب، يا مخالفاً ما ارعوى ولا أناب، من لك إذا قرعت لثماً ناب الناب، ووضع الكتاب.

تنبهوا إخواني من النوم، وعودوا على القومس باللوم، وقدرُوا أن العرض اليوم أين الجواب.

قد حدثناكم وكلمنا وما ألزمنا، ألزمنا الجسد حاضراً سلمنا، لكن القلب قد غاب.

الفصل السادس والسبعون

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنَ آلِ

إِسْرَءِيلَ﴾ [غافر: ٢٨]

الرجل في القرآن على أربعة عشر وجهًا:

الأول والثاني: يوشع، وقال يوشع بن نون، وكاتب بن يوفنا، وقال رجلان .

الثالث: نوح، وهو في الأعراف: ﴿عَلَى رَجُلٍ يَنْصُرُ﴾ [الأعراف: ٦٣] .

الرابع: هود، وهو فيها: ﴿عَلَى رَجُلٍ يَنْصُرُكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩] .

الخامس: محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ مَا بَلَغَ إِلَيَّ رَجُلٌ﴾ [يونس: ٢٤] ، ﴿عَلَى مَلَكٍ عَلَى رَجُلٍ﴾ [سبا: ٧] .

السادس: النوسي: ﴿وَمَنْزِلَ اللَّهِ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَجُلٌ مِّنْ آلِ إِمْرَأَةٍ﴾ [النحل: ٧٦] .

السابع والثامن: تملیخا وقرطس: ﴿وَأَكْثَرُ مِمَّنْ مَثَلًا لِّلَّذِينَ﴾ [الكهف: ٣٢] .

التاسع: حزبييل: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَجُلٌ مِّنْ آلِ إِمْرَأَةٍ﴾ [القصص: ٢٠] ،

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ [غافر: ٢٨] .

العاشر: جميل بن معمر: ﴿ثُمَّ جَعَلَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَجُلًا مِّنْ آلِ إِمْرَأَةٍ﴾ [الأنبياء: ٤٤] .

الحادي عشر: حبيب النجار: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَجُلٌ مِّنْ آلِ إِمْرَأَةٍ﴾ [الأنبياء: ٤٤] .

[٢٠] .

الثاني عشر: المؤمن: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَجُلٌ مِّنْ آلِ إِمْرَأَةٍ﴾ [الأنبياء: ٤٤] .

الثالث عشر: موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ كُنَّا أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

الرابع عشر: الوليد بن المغيرة، وأبو مسعود الشافعي: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

والآل^(١) في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: أهل دين الرجل: ﴿وَلَقَدْ كُنَّا نَظُنُّكَ﴾ [البقرة: ٥٠].

الثاني: صلة: ﴿وَمَا كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ مَوْلَانَا﴾ [البقرة: ٢٤٨].

الثالث: ذرية الرجل وإن ترك نسبهم: ﴿وَمَا كُنَّا بِمَعْرِفَةٍ﴾ [آل عمران: ٣٣].

الرابع: أهل بيت الرجل المكتفون بنسبه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ مَوْلَى الْفِرْعَوْنَ﴾ [الحجر: ٦١]، وهامنا: ﴿يُنْزِلُ عَلَيْنَا مَائِدَاتٍ﴾ [غافر: ٢٨]، وفرعون لقب، والقراءة ثلاثة:

أولهم: ستان الأشبل، وهو فرعون الخليل.

الثاني: الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف.

الثالث: الوليد بن مصعب، وهو فرعون موسى.

والتمارة ستة:

الأول: عمرو بن كنعان بن حام، وهو صاحب الخليل.

الثاني: عمرو بن كوش، وهو صاحب النسر.

الثالث: عمرو بن ماض.

الرابع: عمرو بن سنجار.

(١) قال شيخنا علي بن عبيد الله: الآل: اسمٌ لكلِّ من رُزِعَ إلى معتمدٍ عليه فيما رجع فيه إليه، فتارةً يُخَوَّلُ بالنسب، وتارةً يُخَوَّلُ بالتبعية.

والأصل في ذلك قولنا: آل، وهو بمعنى: رزيع، وبمعنى: ضامن.

نقول: آل الشيء، يؤول، أولًا، ومن ذلك قيل فيه لما يؤول فيه ظاهر اللفظ في حقيقته: أنه تأويل، لأن الأمر رُزِعَ فيه إلى غير ما هو ظاهره، فأما ما أبقي على لفظه وكشف لفهمه بلفظ آخر يساويه في معناه فذلك بيانٌ وتفسيرٌ وليس بتأويل.

الخامس: نمرود بن ساروع .

السادس: نمرود بن المضايف.

لما أهدم فرعون هم الكليم هم بقتله، فهمهم بوعيد ذروني، فلجأ موسى لخوف وعيده إلى حيف: ﴿وَلَقَدْ حَدَّثَ﴾ [الدخان: ٢٠]، فأبرز له القدر العون من آل فرعون، وقد كان مكتشفًا في كشم: ﴿يَكْشُرُ لِيَصْنَعَهُ﴾ [غافر: ٢٨]، فوقف في وجه ذلك البطال يُطَلِّ بِطَلِّ حَرْبٍ حدته بسلاح: ﴿يَقُولُ رَبِّ أَفْضَلُ وَكَأَنَّمَا جَاءَكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿وَلَقَدْ كَانَ صَادِقًا﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿لَقَدْ بَعَثْنَا فِيكُمْ﴾ [غافر: ٢٩]، فما رآه القلي من قل ما رآه، ورأى رأي الغي: ﴿مَا لِيُبْعَثَكُمْ إِلَّا مِثْلَ لَأْقَى﴾ [غافر: ٢٩]، فكر يكرر مواعظ: ﴿لَقَدْ لَعَنَّكُمْ﴾ [غافر: ٣٠]، وذكرهم المصير: ﴿يَوْمَ تَكُونُ الْمُدَرِّيْنَ﴾ [غافر: ٣٣].

وعاج على عيب الشعاجلة، ﴿لَقَدْ كَذَبُوا الْحَبِيرَ الَّذِي مَنَعَ﴾ [غافر: ٣٩]، فلما فلم ينتجع في دأهم دواء وماهم يسهم الوعيد عن قوس: ﴿فَنَسْتَكْرِهِنَّ مَا لَأُولُنَّ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٤]، فأوعده بوقاة ﴿تَوَقَّئْنَ﴾ [غافر: ٤٥]، فكم بينه وبين أهل العمى هو كرع ماء الفهم وشرقوا، وَغَبَرُ مع موسى بحر البحر وغرقوا، وهذا المؤمن مُرشد الكليم يوم: ﴿فَلَنُخْرِجَنَّ لَهُ مِنَ الْكَيْسِ﴾ [القصص: ٢٠].

وذلك أن موسى أخرج يومًا من قصر مصر، فحان دخوله ﴿عَلَى بَيْتِهِ﴾ [القصص: ١٥]، فرأى قبطيًا يسجر إسرائيليًا، فصاح الإسرائيلي بعون فاستماته، فثارت نيران العدل، فهاجم من ظلام الظلم عن زناد ﴿فَنَزَرَهُ﴾ [القصص: ١٥]، فظن أن تخوفه بالوكزة انقضى، ﴿فَفَقَعَ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] فأمسى يمشي بجلاء الحذار، حُلَا خوف الخوف، فلما علم القوم بفعله، أمر فرعون بقتله، فسبق هذا المؤمن النجيب على نجيب ﴿وَبَعَا وَتَلَّى﴾ [القصص: ٢٠]، فألقى عليه نصيحته ﴿فَلَنُخْرِجَنَّ﴾ [القصص: ٢٠]، وعاد إلى صوم صومعة تعيده، مشتغلًا عن غرورهم بخرير تزهده، يسرب في غمائل خموله تحت شير بير مأمولة، إلى أن رد موسى بريد القدر، فتلقاه بشير: ﴿جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ﴾ [طه: ٤٠]، فنهض المؤمن مناهلًا بقداح: ﴿أَتَقَاتِلُونَّ﴾

[خاف: ٢٨]، ولقد نبع أثره حبيب النجار، أسلم فلم إذ كفر المحار، فغضب التجار، وكان تاريخ إيمانه يوم: ﴿فَمَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ﴾ [يس: ١٩]، فلما أبعد الأبعدين عن الدين وأقصى، جاء به ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَتَنَفَّسُ﴾ [الفصص: ٢٠]، فقام صائحًا بالفصائح، ينادي بفصائح: ﴿اٰلَيْهِمْ اَلْمَرْيَسِيُّنَ﴾ [يس: ٢٠]، وأخير عن لسان وجده عما وجد: ﴿إِنِّي نَفْسٌ مَّرْكُومٌ﴾ [يس: ٢٥]، فتناولوه، فقتلوه فلم يجد عليهم فيما فعلوه، إذ نقلوه إلى حبيب وأوصلوه، فتلقاه بشير: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]، فأبالهم لا أبالهم إلا نصحاء، فترنم بلفظ: ﴿يَكُنْكَ قَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

ولقد صادا هاذين فيما دانا بشارك الهدى صدق الصديق في تصديقه، وزاد بصدقته فهو أفضل عند السلم المؤمن لو علموا من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك أخفى إيمانه إذ خافهم، وخافت نفس الصديق ما حذرت ولا خافت، وهو أقرب من العزيز الغفار؛ لأن حبيب النجار؛ لأن حبيب جهاد لدى المرسلين قبل وفاته، والصديق جهاد في حياة النبي وبعد مماته، فمن كان في شك من هذ المقول فليطلع بغير المنقول، حتى يزيل الشك بقول الرسول: " مَا قَلَعَتْ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى رَجُلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " .

الفصل السابع والسبعون

في قوله عز وجل: ﴿تَتَلَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾

[غافر: ٤٤]

إخواني؛ ما يُعرف قدر العافية إلا ساعة المرض، ولا قيمة الحياة إلا وقت الموت، أن يذكر المُحتضر ما فاتته من زمن الاستدراك، فهو أعظم عليه من شدة الموت، لو قيل لأهل القبور ماذا تتمنون، لتمنوا ساعتكم هذه وأنتم تطفونها في غير شيء.

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي أَفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " إِنْ الصُّحَّةُ وَالْفَرَاغُ يَجْتَمِعَانِ مَعُيُونٌ فِيهِمَا خَيْرٌ مِنَ النَّاسِ ^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ: (لَيْسَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا إِلَّا يَتَخَلَّمُ وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي يَوْمٌ جَدِيدٌ، وَأَنَا عَلَى مَا يُعْمَلُ فِيَّ شَهِيدٌ، وَإِنِّي لَوْ قَدْ أَبْتُ شَيْئًا لَمْ أَرْجِعْ إِلَى يَوْمِ الْفِيَاةِ).

وَقَدْ أَبُو حَازِمٍ يَقُولُ: (إِنَّ بِضَاعَةَ الْآخِرَةِ قَاسِمَتُهَا، فَاسْتَغْنَوْا مِنْهَا فِي آوَانِ كَسَادِهَا، فَإِنَّهُ لَوْ قَدْ جَاءَ يَوْمٌ يَفَاقِهَا لَمْ تَصِلُوا مِنْهَا إِلَى قَلِيلٍ وَلَا إِلَى كَثِيرٍ).

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٧/٥)، رقم (٦٠٤٩)، وأحمد (٣٤٤/١)، رقم (٣٢٠٧)، والترمذي (٥٥٠/٤)، رقم (٢٣٠٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١٣٩٦/٢)، رقم (٤١٧٠)، وأخرجه أيضاً: ابن أبي شيبة (٨٢/٧)، رقم (٣٤٣٥٧)، وعبد بن حميد (ص ٢٢٩)، رقم (٦٨٤)، والطبراني (٣٢٢/١٠)، رقم (١٠٧٨٦)، والحاكم (٣٤١/٤)، رقم (٧٨٤٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٧٠/٣)، رقم (٦٣١٥)، وفي شعب الإيمان (١٢٩/٤)، رقم (٤٥٤٣)، والقضاة (١٩٦/١)، رقم (٢٩٥).

إخواني! الْيَذَارَ الْيَذَارَ قبل يوم الندم، وَالْجَذَارَ الْجَذَارَ من زلة القدم، لا يفرنكم إلا مهال، كم سَهْلٌ هُوَ جَل، كم سَاكِنٌ أَرْحَج، كم مُطْمَئِنٌّ تَعِب، كم رَاقِدٌ سَلَب، وأسفا للغافل لا يفيق بالتعريض حتى يرى التصريح، ولا تبيّن له جَلِيَّةُ الْحَالِ إلا في الضريح، كأنه وقد وكّزه الموت وقد أفاق، وانتبه لنفسه والروح في السياق، واشتد كربه والتفت الساق بالساق، وتحير في أمره وضاق الخناق، وحار أكثر شهوته توبة من شفاق، هيهات مضى بأوزاره الثقيلة، واستوعر مهاده، واستحسن مقيله، وغُيب في الثرى، وقيل: لا حيلة، وبات الندم يلومه ويش اللاحى له.

لفكروا إخواني في ذلك الغريب، وتصوروا آسف الندم وقلق المعيب، فليمثل حاله فليحذر اللبيب، وهذا أمر يبعده الأمل وهو والله قريب.

[الطويل]

تَعْلَمُ سُكُونُ الْحَادِثَاتِ قِيَّهَا وَإِنْ سَخَّخْتُ عَمَّا قَلِيلٍ تُحَرِّكُ
وَيَذَارُ بِأَيَّامِ السَّلَامَةِ إِنَّهَا زُمُونٌ وَهَلْ لِمُرْتَفَعٍ عِنْدَ مُشْرِقِ
أَفَقٍ مِنْ سَكْرَتِكَ أَيُّهَا الْغَافِلُ فَإِنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ لَا شَكَّ وَاحِلٌ، وإنما أيام
قلال، فخذ نصيبك من ظل زائل، واقض ما أنت قاضي، وافعل ما أنت فاعل.

[الكامل]

أَتَيْتُ يَا مَعْرُوفُ أَتَكَ مَيِّتٌ أَيْقَنَ بِأَنَّكَ فِي الْقَبْرِ نَازِلٌ
تُبْنَى وَتُنْفَى وَالْخَلَائِقُ لِيُنْفَى أَبْشِرْ قَدْ أَلْعَبْتَ بِفُرْخِ عَابِلٍ؟
ويحك ذُكِرَ أَمْرُكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ قَبْرُكَ، مَا أَكْثَرَ ذُنُوبَكَ، وَمَا أَفْحَى عَيْبُوكَ،
تَغْلِبُكَ نَفْسُكَ عَلَى مَا تَغْظُنُ، وَلَا تَغْلِبُهَا عَلَى مَا تَسْتَيْقِنُ، تَحْزَنُ لِنَقْصِ مَالِكَ،
فَمَا لَكَ لَا تَحْزَنُ لِنَقْصِ عَمْرِكَ.

إخواني! كأنكم بالعوارض الغوامض، وبأسد الموت المستبسط الرابط، متى وحتى متى أتعبتم الرائض.

إخواني! عقاب الأجل قابض، وبأسط الأمل قابض، حائل الشئى حائل، وحامل الردى ماحض، ليحلن بكم من الموت يوم ذو ظلم، يُنْسِكُكُمْ معاشره اللغات والنعَم، ولا يبقى في الأفواء إلا طعم الندم.

يا أسراء الخطايا فكوا أنفسكم بالتقوى، الأيام صحائف أعماركم، فاجعلوا فيها أحسن أعمالكم.

إخواني؛ الفرض تمرر من السحاب، والقعود من إخلاف الخوالب، أيام القدرة وإن طالت قصيرة، ومن استوطأ مركب العجز عثر به.

إخواني؛ الدنيا دار ليست لكم، متى تسمعون عزلكم، اليدار اليدار، خلوا كسلكم، ما أكثر العُمر انقضى، أما خضاب الشباب نضى، ليت الزمان الذي مضى لا عليكم ولا لكم، كم قطعتم بادية اللهو، وجبتم وإلى الآن من سفر الهجر ما أيتم، وبعد هذا إن تبتم قبلتم.

الفصل الثامن والسبعون

في قوله عز وجل: ﴿قَابَلُوا الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَرْبَابَ﴾

[الشورى: ١١]

(الفاطر): الخالق، والجعل في القرآن على وجهين:

أحدهما: مضاف إلى الله تعالى، ثم هو على ثلاثة أوجه:

أحدها: بمعنى الخلق: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [الأنعام: ١].

الثاني: التصير: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

الثالث: القول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

الثاني: يُضاف إلى العباد، ثم هو على وجهين:

أحدهما: بمعنى الوصف: ﴿وَتَجَمَّلُوا فِي أَثَرِكَ شَجَرًا﴾ [النحل: ٥٧].

الثاني: بمعنى الفعل: ﴿وَتَجَمَّلُوا فِي مَنَاقِبِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَرْبَابِ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، قوله: ﴿وَيُنَافِئُكُمْ﴾ [النحل: ٧٢]؛ أي: من مثل خلقكم أزواجاً، وهو جمع زوج، والزوج ما كان له قريباً من جنسه، فهو اسم يقع على كل واحد المقتربين.

فَالْأَرْبَابُ: (أَقْبَلُ الْحُجَّاجِ يُقُولُونَ لَأَمْرَأَةِ الرَّجُلِ: زَوْجٌ، وَتَجَمَّلُونَهَا: أَرْوَاجٌ). وشبه وأهل نجد يقول زوجة، ويجمعونها زوجات.

والزوج^(١) في القرآن على ثلاثة أوجه:

(١) الزَّوْجُ: ما كان له قريبٌ من جنسه فهو اسم يقع على كل واحد من المقتربين، يقال للرجل: زَوْجٌ، وللأمرأة: زَوْجٌ، ويقال: لفلان زوجان من حمامة أي: ذكر وأنثى. قال ابن فارس: والزَّوْجُ من الثَّابِتِ اللَّوْنُ وَبِمَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي (ق): ﴿يَوْمَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [آية: ٧].

أحدها: الزوجات: ﴿وَالصُّغُرُ يُصَفُّ مَا كَرِهَ اللَّهُ لِيُنَافِقَكُمْ﴾ [النساء: ١٢].
 الثاني: الثمرين: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَالَى كَتَبَ الْكِتَابَ عَلَى غُلَامٍ عَصَاةً﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي:
 قرناءهم من الشياطين.

الثالث: الصنف: ثمانية أزواج: الأنعام، والإبل، والبقرة، والمعنى:
 جعل لكم أصنافاً من الأنعام، ذكوراً وإناثاً، ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهَا﴾ [الشورى: ١١]؛
 أي: يخلقكم فيه؛ أي: في بطون النساء.

قال: يخلقكم فيما جعل لكم من أزواجكم، ويعيشكم فيما جعل لكم
 من الأنعام.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي: ليس كهو، والمثل صلة.
 كان بعض العلماء يقول: كل موصوف بأنه واحد فذلك يجوز، والواحد
 على الحقيقة هو الله تعالى؛ لأن الخالق لا يقبل التجزيء، بخلاف المخلوق،
 أو لا يرى أن الواحد منا على الحقيقة اثنان؛ لأنه جسم وروح، ومن اثنين ذكر
 وأنثى، وبائتين الطعام والشراب، وفي اثنين الليل والنهار، ومع اثنين الحركة
 والسكون، والحق سبحانه وتعالى بخلاف ذلك.

وقال آخر: الْمُعْطَلُ لم يدخل دار التوحيد؛ لأنه نفى الخالق، والمشبه
 دخلها بالإتيان، وخرج منها بالتشبيه، والموحد دخلها بالإقرار، وتمكن منها
 بنفي المثل، وما آمن بالخالق من شبهه بالخالق.

سبحان من حارت العقول في خَيْرِ عظمته، وَتَمَلَّتْ كُلُّ الْأُنْسِ عَنْ كُنْهِ
 صفته، سارت ركائب الألباب تتابع على باب عرفاته، فتشاع بها قهر ﴿لَيْسَ
 كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. فقلت على وجه توجيهها، فصاح فصيح
 اللفظ: ﴿وَقَوَّ السَّيِّعُ أَلْيَسُ﴾ [الشورى: ١١].

أتست جنود الفكر باب الأسباب، فنادت في معسكر العقل: ﴿تَقَرَّرْ مَا يَكُنْ
 يَتَهَا يَحْتَمِي﴾ [الشخص: ٢٩]، ثم قطعت هامة مهامه الطلب بشبا
 سيف الجد، فلما تَمَلَّتْ كل ركائبها، وانقطع سير السير، لاحت لها طوى
 في طوى طور الطلب، فصاح موسى الشوق عن لسان الشوق: ﴿أَيُّ﴾ [الأعراف: ١٤٣].
 ففسريت صدر الطالب كَفْتُ كَفْتُ: ﴿أَيُّ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

١٤٣]، وقام خطيب اللوم على عتبة العتاب، يُنادي بلسان التعظيم وله المثل الأعلى.

كيف تنال مبادئ العقول من لا مبدأ لوجوده، أم كيف يتناهى متناهي الفهوم إلى من لا مُنتهى لدوامه من بيان عظمته رفيع الدرجات من أثر قسره: ﴿يَسْئَلُ اللَّهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [النور: ٤١]، توقيع أمره بأمر بالعدل، واقع زجره وينهى عن الفحشاء، ينادي على باب عزته: ﴿لَا يَسْئَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، يُصاح على محجة حجته: ﴿لَنْ أَلْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٨٤]، ينذر جاسوس علمه: ﴿مَا يَحْكُمُونَ مِنْ خَيْرٍ لَنْ نَكُنَّ﴾ [المجادلة: ٧] يقول جهيد طوله: ﴿وَلَنْ تَعْدُوا يَمَنَ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، يترسم مشهد فضله: ﴿لَا تَقْطُلُوا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٥٣]، سيحان الملك ولا وزير، القادر ولا ظهير، والمدير ولا مشير، الموصوف ولا نظير، ﴿لَنْ كُنْتُمْ شَيْءًا وَقَدْ أَتَيْتُمْ بِالْبُخَيْرِ﴾ [الشورى: ١١].

مُزين السماء بكل نجم مُثير، فهي على صفة المسارع إذا مشى التفكير، كأنها حبات ماء في ملتطم غدير، أو كدير منضد في ﴿صَرَجَ شَمْرَةً مِنْ قَوَارِيرٍ﴾ [التل: ٤٤].

شمر السماء بالمسامير، ورفع الأفلاك في جو التدوير، وصرف الجديدين بزمَام التكوين، ووسم الحادثات بوسم التسخير.

نقش السماء بالذهب فأحسن النقش، وفرش الأرض قمهدت بالفرش في ستة أيام، ثم استوى على العرش لا كاستواء المخلوق فوق السرير، بقدرته الفلك والملك، وبمشيئته النجاة والهلك، ليس في صفاته الكيف والعَمق والسَمك ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ذاته لا كالدوات، صفاته لا كالصفات، كلامه لا بأدوات، فيلحق الأول الأخير.

تقبل صفاته بانشرح الصدر، وتنقي التشبيه لعظم القدر، وتقر أنه يُرى كما يُرى القمر ليلة البدر في " الصحيحين " من حديث جرير.

إذا قام الحسن مصوراً، أو نهض الذهن مُديرًا، أو جاء العقل مُفكرًا،

صاح الثقل بصوت كصوت الأمير، ليس بجسم فيقال كيف، ولا نصفه بالرأى فيقع حيف، نقدنا صحيح وتقدم زيف، ليس بيننا وبينهم سوى السيف، من عهد إمامنا الكبير.

دليلنا القرآن والأخبار، ومذهبنا مذهب السلف الأخيار، في قلوب الأعداء منا نار، تضرمها كثير، لا مرجحاً بالمشبه ولا أهلاً، ولقد نكب السُّعْطَل وإن كان شايئاً أو شيخاً أو كهلاً، أنحسب الكلام في الصفات سهلاً مهلاً في طريقك بير.

لقد قضيت بإظهار الحق حقاً، ومحقت القوم اليوم محققاً، وسحقت قلوبهم بالدليل سحفاً، فُحِّقاً لأصحاب السعير، ﴿يَسْ كَيْتُو. شَنْ وَفُو الشَّيْخُ الْقَبِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الفصل التاسع والسبعون

في قوله تعالى، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ

الْقُرْآنِ عَظِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩]

لولا في الأصل حرف وُضع لامتناع الشيء، لوجود غيره، تقول: لولا خلافتك لأكرمتك.

قال الفراء: إذا رأيت بعدها اسمًا فهي استفهام بمعنى: فإلا، وإذا رأيت بعدها اسمًا مرفوعًا فهي التي جوابها اللام، وهي في القرآن على هذين الوجهين:

أحدهما: امتناع الشيء لوجود غيره، وهو ثلاثون موضعًا في القرآن:

وفي البقرة: ﴿وَقُلُوا قَسَدٌ لَّوْ عَلَيْنَا لَنُنْفِثَنَّهٗ مِنَّا لَمِصْرَ﴾ [البقرة: ٦٤]، و ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللّٰهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْاَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وفي النساء: ﴿وَلَوْلَا قَسَدٌ لَّوْ عَلَيْنَا لَوَسِعْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَلَا لَئِيْلَا﴾ [النساء: ٨٣]، ﴿وَلَوْلَا قَسَدٌ لَّوْ عَلَيْنَا لَوَسِعْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَلَا لَئِيْلَا﴾ [النساء: ١١٣].

وفي هود: ﴿وَلَوْلَا كَيْدُكَ سَيَكُونُ﴾ [هود: ١١٠].

وفي يوسف: ﴿وَلَوْلَا اَن رَّا بَعْثًا رَّيْبًا﴾ [يوسف: ٢٤].

وفي بني إسرائيل: ﴿وَلَوْلَا اَن نَّبْتَئِكَ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وفي طه: ﴿وَلَوْلَا كَيْدُكَ سَيَكُونُ بَيْنَ يَدَيْكَ لَكِنَّ اِيَّاكَ﴾ [طه: ١٢٩].

وفي الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللّٰهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّفُوتَ﴾ [الحج: ٤٠].

وفي النور: ﴿وَلَوْلَا قَسَدٌ لَّوْ عَلَيْنَا لَوَسِعْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَلَا لَئِيْلَا حَسْبِكُمُ﴾ [النور: ٢٨٩].

[١٠]. و ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَجْهَكَ فِي الدِّينِ وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٤]، ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَجْهَكُمْ وَاللَّهُ زَاهِقٌ لِحُجَّتِهِ﴾ [النور: ٢٠]، ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَجْهَكُمْ مَا يَكُنْ مِنْ لَحْوٍ لَهَا﴾ [النور: ٢١].

وفي (الفرقان): ﴿وَلَوْلَا أَلَمْ سَبَّحَكَ عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وفيها: ﴿وَلَوْلَا يُنَادِيكَ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وفي (الفصص): ﴿وَلَوْلَا أَنْ رَزَقْنَاكَ عَلَى قَلْبِهَا﴾ [الفصص: ١٠]، وفيها: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَهُمْ ثِيَابَهُ﴾ [الفصص: ٤٧]، وفيها: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَرَى اللَّهَ عَلَيْهَا﴾ [الفصص: ٨٢].

وفي (العنكبوت): ﴿وَلَوْلَا أَجَلَ نَسْرٍ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وفي (سبا): ﴿وَلَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٣١].

وفي (الصافات): ﴿وَلَوْلَا أَنْتُمْ كُنَّا مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

وفي سورة (المؤمن): ﴿وَلَوْلَا حِكْمَةٌ سَبَّحْتَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المؤمن: ٤٥].

وفي (عسق): ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَّحْتَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الشورى: ١٤]، وفيها: ﴿وَلَوْلَا حِكْمَةُ الْقَضَى﴾ [الشورى: ٢١].

وفي (الزخرف): ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الزخرف: ٢٣].

وفي (الفتح): ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٥].

وفي (الحشر): ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ [الحشر: ٣].

وفي (نون): ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَذَرَهُمْ بَيْنَهُ﴾ [النجم: ٤٩].

الوجه الثاني: لولا بمعنى فلا، وهو أربعون موضعاً:

في (البقرة): ﴿وَلَوْلَا يَكْفُرُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٨].

وفي (النساء): ﴿وَلَوْلَا لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٧].

وفي (المائدة): ﴿وَلَوْلَا يَهْتَمُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٦٣].

وفي (الأنعام): ﴿وَلَوْلَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ ظُلْمٌ﴾ [الأنعام: ٨]، ﴿وَلَوْلَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ ظُلْمٌ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وفي (يونس): ﴿وَلَوْلَا لَمْ يَكُنْ قَرْيَةً مَاتَتْ﴾ [يونس: ٩٨].

وفي (هود): ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كُتُبًا﴾ [هود: ١١٢]، ﴿وَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ [هود: ١١٦].

وفي (الرعد): ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ إِذَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]، ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ قُلْ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُحْيِي الْمَيِّتَ﴾ [الرعد: ٢٧].

وفي (الكهف): ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْبُحُرَ بِشَاطِلٍ مِنْهَا﴾ [الكهف: ١٥]، ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْبُحُرَ بِشَاطِلٍ مِنْهَا﴾ [الكهف: ٣٩]، وفي (طه): ﴿وَلَوْلَا إِذَا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٣]، ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٤].

وفي (النور): ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ فَخَرُّوا﴾ [النور: ١٦]، وفي (الفرقان): ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ فَخَرَّكَ وَخَدَّعَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وفي (النمل): ﴿وَلَوْلَا فَتَنَّاكَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٦]، وفي (القصص): ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٤٧]، ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٤٨].

وفي (العنكبوت): ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، وفي (سجدة المؤمن): ﴿وَلَوْلَا فَتَنَّاكَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٤].

وفي (الزخرف): ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرُونِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وفيها: ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٥٣].

وفي (الأحقاف): ﴿وَلَوْلَا فَتَنَّاكَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وفي (محمد): ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [محمد: ٢٠].

وفي (الواقعة): ﴿وَلَوْلَا فَتَنَّاكَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، ﴿وَلَوْلَا فَتَنَّاكَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، ﴿وَلَوْلَا فَتَنَّاكَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٠]، ﴿وَلَوْلَا إِذَا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

وفي (المجادلة): ﴿وَلَوْلَا إِذْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ آيَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [المجادلة: ٨]، وفي (المنافق): ﴿وَلَوْلَا فَتَنَّاكَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [المنافق: ١٠].

وفي (نون): ﴿وَلَوْلَا فَتَنَّاكَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [نون: ٢٨].

وفي معنى لولا التي معناها خلا لو ما وهي حرف واحد في (الحجر):

﴿لَوْ مَا تَأْتِيَنَا بِالْحَقِّكَ﴾ [الحجر: ٧]، والفريتان: مكة، وعظيمها: الوليد بن المغيرة، والمطائف وعظيمها أبو مسعود الثقفي.

والرحمة^(١) في القرآن على ستة عشر وجهًا:

أحدها: الإسلام: ﴿يَحْتَسِبُ الْمُتَّقِينَ مَن يُرْسِلُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

الثاني: الجنة: ﴿فَبِئْسَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

الثالث: السعة: ﴿ذَٰلِكَ نَتْنِيفُ بَيْنَ رَحْمَتِكَ وَرَحْمَةٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

الرابع: المغفرة: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

الخامس: المطر: ﴿يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْحَبَّ وَالنَّخْلَ وَالزَّيْتُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

السادس: القرآن: ﴿قُلْ يَعْزِلِي اللَّهُ وَيَرْحَمُنِي﴾ [يونس: ٥٨].

السابع: الإيمان: ﴿وَنُكَتِي رَحْمَةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ﴾ [هود: ٢٨].

الثامن: العصاة: ﴿إِلَّا مَا رَجِدَ رَحْمَةً﴾ [يوسف: ٥٣].

التاسع: الرزق: ﴿وَعَيْنَا بَيْنَ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: ١٠].

العاشر: النعمة: ﴿وَعَالِمَتُهُ رَحْمَةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ﴾ [الكهف: ٦٥].

الحادي عشر: المنة: ﴿وَلَكِنَّ رَحْمَةً بَيْنَ نَفْسِكَ﴾ [القصص: ٤٦].

الثاني عشر: النصر: ﴿أَوَّلَ لَآءٍ بِكَ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

الثالث عشر: العافية: ﴿لَوْ أَرَادَيْتُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الزمر: ٣٨].

الرابع عشر: النبوة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الخامس عشر: المودة: ﴿رَحْمَةً بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

السادس عشر: الرقة: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله: ﴿فَعَمَّ قَسَمَتَا بَيْنَهُمْ تَبَيَّنَتْهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢]، المعنى: إذا كانت

الأرواق بقدر الله لا يحول محال، وهي دون النبوة فكيف النبوة.

لقد خلقت نبينا من أرض الأرض أرضًا، وأصفي من أكمل الأوصاف وصفًا، فأبى إياؤه لِمَرَّةٍ منزله زلة الزنا، وصين لأجله الإباء إلى أن أوانه،

(١) الرَّحْمَةُ: القُدَّةُ على الشُّحْحِ.

قال ابن فارس: يُقَالُ: رَحِمَ رَحْمَةً، إِذَا رَفَى، وَالرَّحْمُ وَالْمَرْحَمَةُ وَالرَّحْمَةُ بمعنى واحد.

وأنى لم نزل نطفته الزكية تُستخرج من زكية الأصلاب الزكية، إلى تفاوت الأرحام النقية، بواسطة عقد النكاح المحروس العقيد عن الحل بالسفاح إلى أن عُرض على أبيه الزنا فأباه، فلما فصل وصل إلى أمنة، وكان المراد حراسة المحمول لا حماية الحامل، وذلك أن عيد الله من بقاطمة بنت مُرٍ، فرأت بعين علمها الآثار آثار النبوة، فأثرت علومها التي أثرت منها أن أثرت مثل هذه المآثر، غير أنها أظلت سبيل الطلب فخفى عليها باب الوصل، فحاورته بما حوت من خسر الجمال، فأبل عنها فعل الأبل، وترجم مقوله بفتح قوله: (أما الخزامُ فالنمات ذونة)، ثم أم أمنة فخلا معها فجامعها، ثم عرض له جمال العارضة فجا تجوها، فصاحت فصاحتها حين غاب عنها بذر ما بذر لها حين مرَّ بهصرها، وتلصحت بهصيرتها، يا صاح! لست صاحبة ربه، ولكن سددت سرقة ظلم الكفر حجاب الظلمة، فلاح لي الفلاح في مشكاة وجه نور النبوة، فثرت إلى ما أثرت فعثرت بثلث النبوة، وأبى الله إلا أن ينزل ذلك منزلة، وأخير زوجتك أن معها أعلى الخلق منزلة، ثم لم تلبث أن شذت وأنشدت:

[أحد الكامل]

إني رأيتُ مَخِيلَةً لَمَعَتْ فَنَلَلَاتُ بِخَنَائِمِ الْقِطْرِ
وَرَأَيْتُهُ تَرَقَّى أَبْوَةً بِوَ مَا كُنْتُ مُدِجَ زُنْدِهِ يُورِي
بِلَدِي مَا زُفَرِيَّةٌ تَلَبَّتْ ثَوْنِيكَ مَا امْتَلَبَتْ وَلَمْ تَدْرِ
فلما صدقت بذرة المصطفى صدقة أمنة، وكانت من الأذى والرحم أمنة، فأوضح الموت بأبيه وهو حمل لم يوضع، ليبين سر: ﴿لَا تَمُوتُنَّ حَتَّىٰ تَكُونَ﴾ [الضحى: ٦]، فلما انقضى المدى انقض معتمداً على يده، ليُوري أنه يدفع الدنيا بيد ترهده، ثم سما بهصره إلى السماء يشير إلى مقصده، ولم يولد كغيره منكوساً، بل أخرج مخفوناً، فانشق الإيوان الكسروي بولادته، وظهر معه نور أضاعت قصور الشام لكشرفته، وبذلك النور غرّض العباس في مدحته:

[المشرح]

مِنْ قَبْلِهَا طَلَبَتْ فِي الظُّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخَصِّفُ الزُّرْقُ

لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْكَ إِلَّا بِشَرِّ
بَلْ نُنَظِّرُكَ تَرْجَمَ السَّافِكِينَ وَقَدْ
تُنْقِلُ مِنْ ضَالِبٍ إِلَى رَجَمٍ
وَرَدَّتْ نَارُ الْكَلْبِلِ مُخْفِيَةً
عَنِّي حَوَى بِمِثْلِكَ الْمُتَهَوِّينَ مِنْ
وَأَنْتَ لَنَا وَلِذَلِكَ أَشْرَقْتَ الْ
فَتَحَرَّى فِي ذَلِكَ الْفِيَاءِ وَفِي الشُّو
رِ وَسُبُلِ الرِّشَادِ نَحْنُ

فوليت حليلة لرضاعه، ثم قضت باقي الدين، فاستقام قيام نيائه على
سوقه لتعجيل قيام شوقه، فتشأ في حجر الكمال كما تشأ، فشاى منشأ من
شاء، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحماً مضمماً، متغاسلاً، أتبع
مشرَّب بخمرة، ظاهر الوضاعة، متبلِّغ الوجنة، يتلأل القصر ليلة البدر،
رجل الشعر، أذعج العينين، واسع الجبين، أزج الحواجب، سواجع في غير
قرن، يتنهما عرق بيرة الغضب، ألقى العريين، تفت اللحية، سهل الخدين،
ضليع القم عن مثل حب الجنان، فأذ غفقه جيد ذنوبه في صفاء الفضة، رحب
الراحو، حشم الكواويس، جليل المشاشي والكثوب، بعيد ما بين المنكبين، سواء
الضنور والنظن، شئن الكففين والقندمين، طويل الزندين، مسيح القدمين، حلو
المنظن فأذ منقطة خرزات نظم يتخلرن إذا مشى كأنما ينحط من حبيب.

فلما تمت له ست سنين، ألقى الموت بالوالدة، فجد في كفائه الجد،
ثم طلب الموت عند المطلب، فما أوى الطالب ولا اشتغل بأوصابه، حتى
أوصى به أبا طالب، فخرج به وقد زانه كالنار تاجراً، فيم بالبيم منزل تيماء،
فراه بحيراء بحرته، فقرأ سمات النبوة من شمائل: ﴿يَهْدِيكُمْ رَبُّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
[الأعراف: ٤٨]، فقام برق فضله من شيمه بشامته، فقال لعمه: احفظ هذه
الشامة من شامت.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ يَوْمَآ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَمَّكَ أَبُو طَالِبٍ كَانَ يَحْمِلُكَ
وَيَنْقُلُكَ، قَالَ: " إِنَّهُ فِي حَضْرَاجٍ مِنَ الثَّارِ وَلَوْلَا أَنَا كَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ

مِنْ النَّارِ^(١)، أخرجه في " الصحيحين " من حديث العباس، وخُملَ ما روى العباس خمسة وثلاثون حديثاً، أخرج له منها في " الصحيحين " خمسة، المتفق عليه منها حديث، وهو ما ذكرناه، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بثلاثة.

قال ابن السائب: (عمومة النبي صلى الله عليه وسلم أحد عشر: الحارث، والزبير، وأبو طالب، وحزمة، وأبو لهب، والغيداق، ومقوم، وضرار، والعباس، وقثم، وحجل واسمه المغيرة).

وقال غيره: هم عشرة، ولم يذكر فيهم قثمًا، وقال اسم الغيداق حجل، ولم يسلم منهم إلا حمزة والعباس، فأما حمزة، فجميع ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثان: ولم يخرج له شيء في الصحاح، وقد ذكرنا ما روى العباس.

وعصمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة: أم حكيم وهي البيضاء، وزبدة، وعاتكة، وصفية، وأروى، فأما صفية فأسلمت بلا خلاف، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يحضر ذلك، وَاشْتَقِلَّتْ فِي إِسْلَامِ عَاتِكَةَ وَأَرَوَى.

وما زال نشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضوع ولا يضيع، إلى أن تمخضت حامل النبوة في إبان التمام، فَأَثَرُ طَلْقِ الطَّلْقِ خَلْقِ الْخَلْقِ، فَتَحَلَّلَا فِي صُورَةِ الْوَحْدَةِ وَحْدَهُ، وَكَانَ أَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ خِلَالِ الْخَلْوَةِ، فَتَحَرَّى غَارَ حِرَاءَ لِلْفَرَاغِ، فَرَاغَ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَأَغَارَ حَبْلُ الْوَصَالِ فِي ذَلِكَ الْغَارِ، فَأَقَاضَ عَلَيْهِ حُلَّةٌ: ﴿أَقْرَأُ﴾ [العلق: ١]، فَأَقَاضَ إِلَى حُلَّةٍ " رُتِّلُونِي "، فَخَلَّتْهُ خِدِجَةُ بِبِشَارَةِ " لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ "، وَسَكَنَتْ عِلَّتَهُ بِتَعْلَةٍ " إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّجْمَ وَتُطَدِّقُ الْحَدِيثَ " ^(٢)، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إِلَى وَرْقَةٍ، فَقَرَأَ وَرْقَةً مِنْ وَرَقِ سِيَمَاءَ تَقَشَّ

(١) أخرجه البخاري (٣/١٤٠٩، رقم ٣٦٧٢)، ومسلم (١/١٩٥، رقم ٢١٠)، وابن حبان (١٤/١٦٨، رقم ٦٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٦/٢٥٦١، رقم ٦٥٨١).

فضله، فتبقي لتصديقه إذ ناموا، فقال: (هَذَا الثَّامُوسُ الَّذِي أُتْرِكَ عَلَى مُوسَى)،
ولقد عرفه الأحبار في الكتائب، والرهبان في الصوامع، وأُذِر به المتبع،
وأخبر به التابع، وكانت تُسَلَّم عليه قبل النبوة الأحجار، وتُبَشِّر به أُولاء
مَوْلَاء الأشجار، وكان يحاتم النبوة بين كتفيه، وسرايا الهيبة تترك كِسْرَى
ثَالِكُ كِسْرَةٍ بين يديه، فسبحان من حاطه بحائط حرم حرمة، والحمد لله الذي
جعلنا من أمته.

الفصل الثمانون

في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ

وَذِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٢]

الهُدَى^(١) على أربعة عشر وجهًا:

أحدها: الثبات، ومنه: ﴿أَعِدْنَا الْفِرْعَوْنَ الْمَصْبِيحَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ أي: نبتنا عليه.

الثاني: البيان: ﴿عَن قُدَىٰ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

الثالث: الرسول، ومنه: ﴿فَلَمَّا تَأْتَيْتُم مَّيِّ قُدَىٰ﴾ [البقرة: ٣٨].

الرابع: أمر محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿بَيْنَ الْيَمِينِ وَالْمَشْأَمِ﴾ [البقرة: ١٥٩].

الخامس: الشئ: ﴿فَيُهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

السادس: الإصلاح: ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَاسِقِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

السابع: الدعاء: ﴿وَلْيَكُنْ قَوْلُكَ هَؤُلَاءِ﴾ [الرعد: ٧].

(١) قال ابن قتيبة: الُّهُدَى: الإِشْفَاءُ وَالِإِشْفَاءُ: الْبَيَانُ.

وقال أبو بكر بن الأثيري: أَضَلَّ الْهُدَى فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: التَّوَقُّعُ.

وَقَدْ تَقَعَّضَ أَهْلُ الْعِلْمِ: أَنَّ الْهُدَىَّ شَتَّى قَدِيحٌ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى تَقْوِيمِ الْوَقْدِ.

وَقَوْلُ: أَقْبَلْتُ قَوَادِي الْخَيْلِ إِذَا بَدَتْ أَخْدَاقُهَا.

وَيُلَادُّ: هُوَ أَزَلُّ زَمِيلِهَا لِأَنَّهُ يَنْظُرُهَا وَعِلْوَلُ: فَتَبْتُ الْغُرُوسَ إِلَى بَغْلِهَا خَدَّاءَ.

وَالْهُدَى وَالْهُدَى: مَا أَقْدَمَ مِنَ الشَّعْمِ إِلَى الْحَرَمِ.

وَجَاءَ فَلَانٌ يُهَادِي بَيْنَ أَكْتَيْنِ إِذَا مَشَى بَيْنَهُمَا تَعْلِيمًا عَلَيْهِمَا.

الثامن: القرآن: ﴿لَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَكُمْ الْهُدَىٰ﴾ [الإسراء: ٩٤] .

التاسع: الإيمان: ﴿وَرَبِّهِمْ هُنَالِكَ﴾ [الكهف: ١٣] .

العاشر: الإلهام: ﴿لَقَدْ عَلَّمْتُمْ لُغَةَ تِلْكَ حَافَتِهِمْ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، أي: ألهمهم كيف المعاش .

الحادي عشر: الموت على الإسلام: ﴿وَيَحْمِلُ صَرْفَهُ نَحْمِلُكُمْ﴾ [طه: ٨٢] .

الثاني عشر: التوحيد: ﴿إِنْ تَتَّبِعِ الْهَيْدَىٰ تَمَكَّ﴾ [القصص: ٥٧] .

الثالث عشر: دين الإسلام، ومنه: في (البقرة): ﴿إِنَّكَ هَدَىٰهُمُ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وفي (آل عمران): ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وفي (الحج): ﴿إِنَّكَ لَتَلَقَّ هُذُلًا مِّنْهُمُ الْهُدَىٰ﴾ [الحج: ٦٧] .

الرابع عشر: التوراة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا مَوَاسِي الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٥٣] .

ودين الحق الإسلام ليقهره وفي هاء الكتابة قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

الثاني: إلى الدين، وظهور الدين على وجهين:

أحدهما: بالحجة الواضحة، وذلك أمر قد حصل.

الثاني: بالقهر، وذلك عند نزول عيسى عليه السلام.

فَالْأَبْرَارُ هُزْزَةً: (لَا يَبْقَى أَهْلٌ فِيهِ إِلَّا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ أَوْ أَقْبُوا الْجَنَّةَ).

لَمَّا بَعَثَ الْمَلِكُ الْمَلِكُ إِلَى نَبِيْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِسَالَةٍ: ﴿أَقْرَأَ﴾ [العلق: ١]، فتر الوحي بعدها مدة مدت قوس الشوق، فَرَمَتْ الْكَيْدَاءُ الْكَيْدَ بكيد أعجز الْمُخَائِدَةَ، فكان بهم لما يلقى إلقاء نفسه من ذروة الجبل، فإذا بدا له بدله جبريل فبدا له، ثم رميت الشياطين عند مبعثه بسهام الشهب عن قوس ويقذفون، فمروا إلى المغارب، ومشوا إلى المشارق، ليقطعوا سبب السبب، فجرت ريح التوفيق بمركب السائرين في بحر الطلب نحو تهامة، حتى أرسى على ساحل: ﴿وَرَبِّهِمْ هُنَالِكَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فصادفته في الصلاة، فصادفته قلوب القوم، فأقامت، فقامت الألباب على باب ﴿لَهُمْ هُنَالِكَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فلما ملأوا أوعية وعيهم من ثمرة فوائده، أسرعوا في سفر ﴿وَلَوْ أَنَّ إِلَهُكَ قَوْمُهُمُ

مُنْذِرِينَ ﴿[الأحزاب: ٢٩]، فنادوا في أندية البشارة بالسنة الطلب: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا رُسُلَنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [الجن: ١]، وتودى من وادي فخر فضله: ﴿فَرَّ قَائِلُهُ﴾ [المذشر: ٢]، فقامت فقامت حجة صدقه تنادي: ﴿قَاتِلُوا يُسُورَ بْنَ مَرْثَدَةَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وتلمذ عن التهمة بظاهرة: ﴿لَا تُفْلِكُوا عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، وعلم مكارم الأخلاق: ﴿حُذِرَ الْقَعْرُ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، انشق القمر لتبين معجزة لتابعه، ونبع الماء كالعيون من بين أصابعه، وزال الشجر لحيته عن مواضعه، وَخَرَّ إِلَى الْجَدْعِ بَاتِينَ الشُّوقِ، وَكَلَّمَةُ الذَّرَاعِ بِأَنْصَحِ نَطْقٍ، فما زال يجاهد أهل الهجر بالهجر، ويصر دينة حتى أمر بالهجرة، فهاجر إلى المدينة، فلما دخل كَلِمَةً طَابَتْ بِطَيْبِ الطَّبِيبِ، وانحفل الناس ينظرون إلى وجهه، وانزعجت القلوب لهية إعظامه، وكان فيما حُفِظَ مِنْ كَلَامِهِ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْتَشُوا السَّلَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَأَطِيعُوا الْقُعَاةَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ يَنَامُ، تَذَخَّلُوا الْحَيَّةَ بِسَلَامٍ"^(١)، ثم إنه شرع في بناء مسجده، ونقل مع الناس الذين بيده، ثم أظهره الله تعالى على مُعَانَدِهِ، ولقد غزا سبعًا وعشرين غزوة، وبعث ستًا وخمسين سِرَّةً كلها نفيء بغية الغنم، وفي هذه السنة من الهجرة أمر ببناء مسجده ومساكنه، وأقام في منزل أبي أيوب حتى بنيت حجرته، ثم انتقل إليها، وفي هذه السنة هلك أسعد بن زُرارة، وأخى بين المهاجرين والأنصار، ورأى عبد الله بن زيد الأذان، فَعَلَّمَهُ بِلَالًا، وأسلم عبد الله بن سلام.

وفي السنة الثانية: حُوِّلَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي رَجَبٍ، وكانت غزاة بدر في رمضان، وماتت رقية وعثمان بن مظعون، وبنى بمعايشة، ونزوح غيلِي بِقَابِطَةَ، وولد ابن الزبير والنعمان بن بشير، ونزلت فريضة رمضان في شعبان، وأمر بركاة الفطر.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٧/٧)، رقم (٣٥٨٤٧)، وأحمد (٥٥١/٥)، رقم (٢٢٨٣٥)، وعبد بن حميد (ص ١٧٩)، رقم (٤٩٩)، والدارمي (٢٠٥/١)، رقم (١٤٦٠)، والترمذي (٦٥٢/٤)، رقم (٢٤٨٥)، وقال: صحيح، وابن ماجه (٤٢٣/١)، رقم (١٣٣٤) وابن سعد (٢٣٥/١)، والحاكم (١٤/٣)، رقم (٤٢٨٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، والضياء (٤٢٣/٩)، رقم (١٠٤).

وفي السنة الثالثة: تزوج حفصة وزينب بنت خزيمة، وتزوج عثمان أم كلثوم، وولد الحسن بن علي رضي الله عنهما، وكانت وقعة أحد وغزوة بني النضير، وحرمت الخمر.

وفي السنة الرابعة: كانت غزوة الرقاع، وقُصرت الصلاة، وولد الحسين، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة.

وفي السنة الخامسة: كانت غزوة دومة الجندل، وغزوة الخندق، وغزوة بني قريظة، وتزوج زينب بنت جحش، ونزل الحجاب، وفيها صَلَّى صَلَاةُ الْخُزْبِ.

وفي السنة السادسة: كانت غزوة الحديبية، وغزوة بني المصطلق، وفيها تكلم أهل الإفك.

وفي السنة السابعة: غزاة خيبر، ومُسم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذراع الشاة، وتزوج أم حبيبة وميمونة بنت الحارث وصفية بنت حيي، ووفد جعفر من الحبشة، وحاطب بن ربيعة بن أبي بلتعة من عند المقوقس بمارية وبغلة وحمارة يعفور، وأسلم أبو هريرة.

وفي السنة الثامنة: يَمُتُ يَمُتُ مُؤَنَّةً، وأصيب زيد وجعفر وابن رواحة، وأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وبعث عمر إلى ذات السلاسل، وافتتح مكة في رمضان، وولد إبراهيم، وثوبت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت غزاة حنين، وغزاة الطائف، وأسلم عكرمة.

وفي السنة التاسعة: غزا تبوكًا، وجرت قصة الثلاثة الذين خلفوا، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، وزوارة بن الربيع، كانوا تخلّفوا من غير عذر، ثم لم يبالغوا في الاعتذار، كما فعل أولئك الذين تصدّقوا بأموالهم، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم، وهم مهجورون حتّى نزل قوله: ﴿وَقَرَأَ الْقُرْآنَ يُفَكِّرُ بِالْأُمَّةِ وَيُؤْمِنُ بِالنَّبِيِّ﴾ [التوبة: ١١٨] الآيات. ﴿إِنَّا بَعَثْنَاهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] بعقابه جزاء لهم ﴿وَأَنَّا بِؤُثٍّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] بفضله ﴿وَأَنَّا بِؤُثٍّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] بما يؤول إليه حالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦] فيما يفعله بهم].

وَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَحَجَّ بِالنَّاسِ، وَأَمَرَ غُلِيًّا بِقِرَاءَةِ (براءة)، وَمَاتَتْ أُمُّ كَلثُومُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَمِيَ النَّبِيُّ النَّجَاشِيُّ، وَتَتَابَعَتِ الْوُفُودُ وَأَلَى أَلَا يَدْخُلُ عَلَى نِسَائِهِ شَهْرًا.

وَفِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ: حَجَّ حُجَّةُ الْوُدَاعِ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]، وَمَاتَ إِبْرَاهِيمُ، وَأَسْلَمَ جَرِيرٌ، فَلَمَّا تَوَخَّلَتْ سَرَايَا نَصْرَهُ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ فَجَاجَا، ﴿وَرَأَيْتُكَ أَتَانَسَ يَدْعُلُونَ فِي بَيْنِ أَلْفِ أَلْفٍ﴾ [النصر: 2]، انْتَهَتْ قَاتِلَتُهُ فِي خِيَمَةِ الدُّنْيَا، فَلَعِبَتْ رِيحُ التَّلَفِ بِعُمُودِ الصَّحَةِ فِي صَحِيحِ الْأَفَاتِ، فَصَاحَ لِسَانُ عَزَمَةِ الصَّاحِي: "مَالِي وَلِلدُّنْيَا وَمَا لِلدُّنْيَا وَمَالِي إِنَّمَا [أَنَا وَالِدُنِّي]" (١) تَحْرَاجِبُ قَعْدَ تَحْتِ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاخَ وَتَرَكَهَا (٢)، فَنَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، وَمَا نَزَلَ بِهِ عَلَى سُدَّةِ السِّيَادَةِ فِي حَيَاتِهِ وَمُنْقَلَبِهِ، فَلَمَّا رَحَلَ أَبْقَى بَيْنَ مَنَاحِ الرِّكَائِبِ سِرًّا يَبِينُ رَفْشَ نَقْشِهِ فِي مَرْقُومٍ "خُلِفْتُ فِي حُكْمِ الثَّقَلَيْنِ".

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن عساکر (٤٤ / ٢٩٢)

الفصل الحادي والثمانون

في قوله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح، ٢٩]

صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الله تعالى اشفق اسم نبينا صلى الله عليه وسلم من صفاته، فهو: أحمد، ومحمد، والمحي، والحاشر، والشاهد، والبشير، والنذير، والعاقب، والمطفئ، والحتوكل، والقائح، والخاتم، والأمين، والرسول، والنبي، والأمي، والمصطفى، والضحوك، والقتال، وتبي الرحمة، ونبي الملاحم، والقاسم.

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن مئوشلخ بن أختوخ هو إدريس بن سدد بن لوذ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم.

وأبو بكر الصديق في النسب عند مرة، وكذلك طلحة، وعمر عند كعب، وكذلك سعد، وعثمان عند عبد مناف، وعلي عند عبد المطلب، والزبير عند قصي، وعبد الرحمن عند كلاب بن مرة، وكذلك سعيد وأبو عبيدة عند فهر، وآخر بطون قريش عند بنو فهر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَعُوا﴾ [الفتح: ٢٩]، لما جعل تعالى نبيه محمداً خير الخلق، جعل أصحابه خير الأصحاب، فبادرت نفوسهم إلى الجسد فيما

فعلت، فَعَلْتُ لهم المنازل، كانوا بالليل رهبانًا وبالنهار فرسانًا، قطع الرسول صلى الله عليه وسلم طمع من طمع في لحاقهم بجسم * مَا يَلْعَنُ شِدَّ أَخَوَيْهِمْ وَلَا تُصِيفُهُ ^(١)، وكيف تنال مرتبة السابق بشيء وقر في صدره، أو منقبة المهييب والعدو يفرق من قلبه، أو مقام الوقور والملائكة يستحيون منه، أو فضيلة مزاحم النفس في منزلة كهارون من موسى، يأسي والله الكهول من مقاربة هذان سيدا كهول أهل الجنة، كما لم يطمع الشباب في مزاحمة سَيِّدَي شباب أهل الجنة.

متى التهييب في صحابة الأنبياء عزيمة جمرة حمزة حمزة، أو علا على الثُّلَا غلاء علي، لقد فاز بقلب الصديق طلحة الجود، كما سعد بالفضل وحواري الزبير، وسما بصلابة النبي خلفه عبد الرحمن بن عوف، كما قوت بلفظ فذاك أبي وأمي غير سعد، ونجا بالشهادة له الجنة سعيد، وكما عز ابن الجراح بقلب الأمين، ولم يُذكر في القرآن غير زيد، وأبن في الموالي مثل سالم وسلمان، ومن في الزهاد مثل مصعب وابن مظعون، وإنه لسمعود عبد الله بن مسعود، وطوبى ثم طوبى لخياب وصُهييب، وبأشرف المؤذنين بصوت بلال، ويكفي فخراً كونى برفاً لعمار، أي بيت كبيت أبي أيوب، ومن زين الثُّرى إلا أبي بن كعب، ومن في النقياء كأسمد بن زرارَة وسعد بن الربيع، وأنى للفقيهاء مثل معاذ، ومن له صبر كصبر أبي ذر، والفخر لبني هاشم بالعباس، وكفى للبُصراء قائدًا ابن أم مكتوم، وإنه لعدوة للمؤثرين أبو الدحداح، ومن قوام الليل مثل تميم، ومن صبر على القتل صبر خبيب، إن كل الصحابة لسادة، وقد شهد الله وتكفي الشهادة وصفهم بالفظ على المعاندين: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْكُفْرِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وباللبن مع أهل الدين، ﴿رَحِمَهُمُ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٩]، وبالتمعيد في كل حين، ﴿زَيَّنَهُمُ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٩]، وبالوقوف على الطالين: ﴿يَتَّقُونَ فَتْلًا يَنْ أَقُو وَيُضَوُّنَا﴾ [الفتح: ٢٩]، وعبادة

(١) أخرجه البخارى (١٣٤٣/٣)، رقم ٣٤٧٠، ومسلم (١٩٦٧/٤)، رقم ٢٥٤١، وأبو داود (٢١٤٤/٤)، رقم ٤٦٥٨، والترمذى (٦٩٥/٥)، رقم ٣٨٦١ وقال: حسن، وابن حبان (٢٣٨/١٦)، رقم ٧٢٥٣.

العايد على الوجه تبين: ﴿يَجِيئَاكُمْ فِي وَثْقِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، لقد سبقوا سبقاً عظيمًا وفاتوا، وَثَقَ هذه صفاتهم فما ماتوا، كلهم أحياء وسائرهم أبرار ولا مثل صاحب الغار، وأين نظير قاتح الأمصار، ومن يشبه قتيل الدار، ولقد افتقدوا إلى المجاهد وفي الفقار بحب هؤلاء، تُرجى الجنة وتنتفى النار. إن الله عز وجل لما خَلَّى محمدًا حُلَّةَ النبوة، وخلع عليه خلعة هي الإسلام، وأعطاه منشورًا هو القرآن، ولواء المنشور هو النصر، فأبو بكر صدق النبوة، وعمر أظهر الرسالة، وعثمان جمع المنشور، وعلي رضي الله عنه حمل السيف.

الفصل الثاني والثمانون

في قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

[الذاريات: ١٧]

الهجوع: النوم بالليل دون النهار، وفي (ما) قولان:
 أحدهما: أنها بمعنى النفي، فالمعنى: كانوا يسهرون قليلا من الليل،
 قال أنس بن مالك: (هُوَ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ) .
 الثاني: (ما) بمعنى الذي، فالمعنى: كانوا قليلا من الليل هجوعهم،
 وهو مذهب الحسن والزهري، وعلى هذا يحتمل أن يكون (ما) زائدة، وقد
 اختار قوم الوقف على قليلا، على معنى: كانوا من الناس قليلا، ثم يتدنى،
 فقال: ﴿يَمِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] على معنى نفي النوم عنهم البتة،
 وهذا مذهب الضحاك ومقاتل.
 قوله تعالى: ﴿وَوَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الذاريات: ١٨]؛ أي: عند الأسحار.
 والباء^(١) نجية في عدة معاني منها:

(١) قال أبو زكريا: (الباء) حرف غير يدخل على الاسم فيجزم، وهي نجية في عدة معاني منها: أن تكون للإضمار؛ كقولك: مَسَحَتْ يَدَيَّ بِالْمَدْيِ، ومنها: أن تكون للاستيعانة؛ كقولك: كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ، وَضَرَبْتُ بِالسَّيْفِ، وَتَضَخَّبَ الْإِنْسَانُ؛ كقولك: اشْتَرَيْتُ بِدَرْعِهِمْ، وَبَعْتُ بِدِينَانِي، وتكون للقسمة؛ كقولك: باللو، وتكون بمعنى: في؛ كقولك: زَيْدٌ بِالصُّرَا، وتكون زائدة؛ كقولك: لَيْسَ زَيْدٌ بِمُتَّقِلٍ، وقال ابن خزيمة: تكون الباء بمعنى من؛ تقول العرب: شَرِبْتُ بِمَاءِ كَذَا؛ أي: مِنْ مَاءِ كَذَا.

- أَنْ تَكُونَ لِلْإِضَافَةِ: كَقَوْلِكَ: مسح يدي بالمتدليل.
ومنها أَنْ تَكُونَ لِلِاسْتِعَانَةِ: كَقَوْلِكَ: كتبت بالقلم، وضربت بالسيف،
وَتُصَحَّبُ لِلْإِيمَانِ: كَقَوْلِكَ: اشتريت بدينهم، وبعثت بدينار.
وتَكُونُ لِلْقِسْمِ: كَقَوْلِكَ: يالله.
وتَكُونُ بِمَعْنَى (فِي): كَقَوْلِكَ: زيد بالبصرة.
وتَكُونُ زَائِلَةً: كَقَوْلِكَ: ليس زيد بمنطلي.
وتَكُونُ بِمَعْنَى (مِنْ): قال عترة: [الكامل]
شَرِيتُ بِمَاءِ الدُّخْرُسِيِّنِ فَأَصْبَحْتُ رُزْءَ ثُثَيْرٍ عَنْ جِيَاهِي الثُّبُلِمْ
وتَكُونُ بِمَعْنَى (عَنْ): قال علقمة بن عبدة: [الطويل]
لَمَّا نَشَأْتُ بِالنِّسَاءِ فَبِئْسَ عِلِيمٌ بِأَذْوَاءِ النِّسَاءِ عِلِيمُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ النِّسَاءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدْعِهِ نَصِيبُ
وقال آخر وهو ابن أحمر: [الوافر]
تَسَابِلُ بِإِثْنِي أَحْمَرَ مَنْ رَأَى أَفَارَتَ عَيْبَةٍ أَمْ لَمْ تَعَارَا
والباء في القرآن على عشرة أوجه:
أحدها: بمعنى (اللام): ﴿وَلَا رَفَقًا يَكُمُ الْيَتَرُ﴾ [البقرة: ٥٠].
الثاني: بمعنى (عند): ﴿وَالْمُتَّقِينَ إِلَى الْأَنْعَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].
الثالث: بمعنى (في): ﴿يَكُونُ الْكَلْبُ﴾ [آل عمران: ٢٦].
الرابع: بمعنى (بعد): ﴿فَأَنصَحْتُمْ عَمَّا يُحْسِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].
الخامس: بمعنى (على): ﴿لَوْ شِئْنَا بِمِيقَاتِهِمُ الْآلَاءُ﴾ [النساء: ٤٢].
السادس: صلة: ﴿فَأَنصَحُوا بِطُوبَىٰكُمْ﴾ [النساء: ٤٣].
السابع: بمعنى (مع): ﴿فَوَلَّكَ يَرْكُوبَ﴾ [الذاريات: ٣٩]؛ أي: مع جنده.
الثامن: بمعنى (من): ﴿فَمَا يَشْرِي بِهَا عَذَابُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].
التاسع: بمعنى (إليها): ﴿فَمَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحْوَجَاتِ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].
العاشر: بمعنى المصاحبة: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْقَهْرِ وَهَمَّ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: ٦٨].

روى جابر بن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إنَّ في اللَّيْلِ ساعةً لا يُؤايقُها عبْدٌ مُسلمٌ يسأل الله تعالى فيها خَيْرًا إلا آتاهُ إياهُ وَذلكَ كُلُّ لَيْلَةٍ " (١)، انفرد بإخراجه مسلم، وجملة ما روى جابر بن عبد الله ألف وخمسة مائة وأربعون حديثًا، أخرج له منها في " الصحيحين " مائتان وعشرة، المتفق عليها منها ثمانية وخمسون، وانفرد البخاري بسنة وعشرين، ومسلم بمائة وستة وعشرين .

وجملة من يأتي في الحديث اسمه جابر بن عبد الله سبعة :

[الأول]: (٢) جابر بن عبد الله بن عمرو، وهو الذي ذكرنا حديثه.

الثاني: جابر بن عبد الله بن رباب، شهد بدرًا.

الثالث: جابر بن عبد الله بن عمر السلمي، روى عن أبيه، عن كعب،

الرابع: جابر بن عبد الله بن عصفه، روى عن الأوزاعي.

الخامس: جابر بن عبد الله الغطفاني، روى عن عبد الله بن الحسن

العلوي.

السادس: جابر بن عبد الله بن جابر وكان كذابًا.

السابع: مصري، روى عنه يونس بن عبد الأعلى.

وقالت عائشة: " قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بِأَيِّ يَرُدُّهَا إِلَى

الصَّلَاةِ ﴿إِنْ تَلَّيْتُمْ وَأَنْتُمْ بِبُيُوتِكُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] .

وكان عثمان يحيي الليل بركعةٍ واحدٍ يقرأ فيها القرآن، وقام تميم ليلة

بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آلَهُنَّ كُنُوزًا﴾ [الجنابة: ٢١]، وصلى بها الربيع

ابن عبيد حتى أصبح، وقام الحسن ليلة بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَشْكُرُوا مِمَّا آتَاكُمْ﴾

﴿شُورًا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

إذا سكنت طوعاء الظلام، ورأيت اقتحام جيش حام، سارت حميا

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٥٨٨، رقم ٨٥٢)، ومالك (١/ ١٠٨، رقم ٢٤٠)، وأحمد (٢/

٢٨٠، رقم ٧٧٥٦)، والنسائي (٣/ ١١٥، رقم ١٤٣٢)، وابن ماجه (١/ ٣٦٠، رقم

١١٣٧).

(٢) ما بين المعكوفين ساقط من الأصل.

السرور في أجساد المحيين، فلم يلحق لهم يغيار، فحصلوا ما لم يراه الرءاؤون، ووصلوا إلى ما لم يصل إليه المقصرون، وشغلك عن لحاق القوم النوم، ولم يزل سعد قط يعود، كم بين الخلي والسحي (لَيْسَ بِشَيْءِكَ فَادْرُجِي).

قَالَ عَلِيٌّ بْنُ الْمُتَوَكِّلِي: (قَامَ رَجُلٌ مِنْ إِنْجَوَانِكُمْ فِي لَيْلٍ بَارِدَةٍ، فَلَمَّا نَهَى لِلضَّلَاةِ رَأَى شَيْئًا فِي يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، فَخَيَّ، فَهَفَّتْ بِهِ هَائِفَتٌ مِنَ الْيَبِّ: أَتَيْتُكَ وَأَنْتُمْ هَاهُنَا وَنَحْنُ هَاهُنَا).

قام الأحباب في الدجى يناجون الحبيب العليم، ويكون بين يديه مثل ما بكى اليتيم الفلق شديد والفرق عظيم، أما أنت فتنت وهم في مقعد مقيم.

قَالَتْ أُمُّ عَمَرَ بْنِ الْمُتَكَبِّرِ: يَا بَنِي أَشْتَهِي أَنْ أَرَاكَ نَائِمًا، فَقَالَ: (يَا أُمَاةَ وَاللَّهِ إِنْ اللَّيْلُ تَرَدُّ عَلَيَّ فَهَوَّلَنِي، لِيَنْقُضِي وَمَا لَقَضَيْتُ مِنْهُ إِلَّا بِي).

وَصَحِبَ رَجُلٌ وَرَجُلًا شَهْرَيْنِ، فَلَمْ يَرَهُ نَائِمًا بَلِيلٌ وَلَا نَهَارًا، فَقَالَ لَهُ: لَا تَنَامُ، فَقَالَ: إِنْ عَجَابَ الْقُرْآنُ أَطْرَدَ نَوْمِي، مَا أَخْرَجَ مِنْ أَعْجُوبَةٍ إِلَّا وَقَعْتُ فِي أُخْرَى. [الكامل]

لَا تَلْحَظْ إِنْ كُنْتَ مِنْ شَحْرَابِهِ	عَذْلُ السُّجْبِ يَزِيدُ فِي إِغْرَابِهِ
وَدَعَ الْهَوَى يَنْقُضِي عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ	مَا شَاءَ فَهُوَ مُسَلِّمٌ لِلضَّيَابِهِ
فَسَقَاؤُهُ فِيمَا يَرَاهُ نَوِيْمُهُ	وَنَوِيْمُهُ فِي ذَلِكَ عَيْنُ شَقَايِهِ
كُنْتُ مُقَابِلَ مَقَامِهِ يَطْلُو شَهَادِهِ	وَحَثَّتْ أَضَالَعُهُ عَلَى بُرْخَائِهِ
كُنْتُ يُقَابِلُ جِسْمَهُ وَنُورَانَهُ	بِالْحُثْبِ وَأَعْجَبًا يَطْلُو يَغَابِهِ

ناله ما نال الكرامة إلا من قال للكرى: مه، إذا انقطعت رسائل المحيين وقع النسيان، ﴿فَالَّذِينَ الْأَكْرَمُ﴾ [البقرة: ١٥٢]، كم أبعت كل ليلة من رسائلني رسول هل من سائل، نسيم الأسحار تحدث عني، وتحف الأسرار تصل مني.

[الكامل]

فَدَعَ النَّسِيمُ يُغِيدُ مِنْ أَحْبَابِهِ قَلْبَهُ عَوَاشِي لِيَسْخَبِيثَ وَفَاقِي
نصبت مطايا الأجساد في قطع بدهاء الليل، فلما بدا علم الفجر نزل أمير

الكل، فنادى مُنادي القوم: يا عطايا الأبدان! ريحي واستريحي، ثورت في
الأسفار الحداة، وحملت إجمال الأعمال، وسارت رفقة ﴿سَجَّاقٍ﴾
[السجدة: ١٦]، وترنم كل ذي صوت بشجو وأنت في الرقدة الأولى بعد،
فكيف بك إذا انقشع ليل البلاء عن صبح الجزاء، ومالك بضاعة في قافلة:
﴿وَالْتَسْتَوِيحُ بِالْأَسْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٧]؟

[البسيط]

لَمْ يَخُلْ مَرْجَانُ دَمْعٍ مِنْ عَيْنِي دَمٍ شَوْقٌ بِلَا عِزَّةٍ سَاقٍ بِلَا قَدَمٍ
وَلَا تَمُرُّ قُتُو الدَّارِ نَارِعَةً مِنْ الطَّيِّبَةِ بَعْدَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
لَعَنُكُمْ سَأَلْتُ لَحْرَى عَيْنَيْكَ زَلْفَةً وَمَا أَزَاكَ أَزَاكَ الْجُرْعِ فِي الْحَلَمِ
كم بينك وبين القوم، كما بين اليقظة والنوم، لقد بعث نفسك التي لا
قيمة لها، بأشياء لا قدر لها، أبيع ذو رُؤَاةٍ وَرَآةٍ مُجَانًا، إِنَّ تَقَعُدَ فَقَدْ سَبَقَكَ
إخوة يوسف، كيف تطيق السهر مع الشيع؟! وتزاحم أهل العزائم بمناكب
الكل!

[البسيط]

دَعِ الْهَوَى لَأَنَاسٍ يُخْشَرُفُونَ بِهِ قَدْ مَارَسُوا الْحُبَّ عَشَى لَأَنْ أَضَعُهُ
بَلَوْتُ نَفْسَكَ فِيمَا لَيْسَ تُحِبُّهُ وَالْمُسَىءُ ضَعَبَ عَلَيَّ مَنْ لَا يُحَرِّبُهُ
أَفْنَى اضْطَبَّارًا وَإِنْ لَمْ تُسْتَطِعْ جَلْدًا قَرُبْتُ مُنْذَرِكَ أَنَسِي عَزَّ مَظْلُومُهُ
أَخْنُوا الظُّلُوعَ عَلَى قَلْبٍ يُحَيِّرُنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَيُغَيِّرُنِي ثَقْلُهُ
تَنَافَحَ الرِّيحُ مِنْ تَجْدٍ بِهِيْجُهُ وَلَا مَعَ الْبَرَقِ مِنْ تُعْنَانٍ يُظْهِرُهُ

الفصل الثالث والثمانون

في قوله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا حَلَّ سَاجِدًا ۝ وَمَا هَوَىٰ ۝﴾ [النجم: ١ - ٣]

النَّجْمُ: الْكَوْكَبُ، وَسُمِّيَ نَجْمًا لِظُهُورِهِ، يُقَالُ: نَجِمَ الثَّبْتُ إِذَا ظَهَرَ، وَنَجِمَ الْقَرْنُ وَالسُّرُّ إِذَا ظَلَعَا.
والنجم^(١) في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: الكواكب: ﴿وَالنَّجْمُ هُمْ يَسْتَبِقُونَ﴾ [النحل: ١٦].

الثاني: النسب الذي لا ساق له: ﴿وَالنَّجْمُ يَتَهَوَّى ۝﴾ [الرحمن: ٦].

الثالث: ما كان ينزل من القرآن متفرقًا: ﴿فَلَا أَقْسَدُ بِتَقْوِيعِ السُّجُودِ ۝﴾ [الواقعة: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿مَا حَلَّ سَاجِدًا ۝﴾ [النجم: ٢]، والفضلال^(٢) في القرآن على عشرة أوجه:

(١) النَّجْمُ في ثَقَلِي التَّارُوفِ: الْكَوْكَبُ، وَجَنَّةُ نُجُومٍ. وقيل: سُمِّيَ نَجْمًا لِظُهُورِهِ. ويقال: النَّجْمُ: الثَّبْتُ؛ إِذَا ظَهَرَ. وَنَجِمَ الْقَرْنُ وَالسُّرُّ إِذَا ظَلَعَا.

وَالنَّجْمُ من الثَّابِتِ: مَا لَيْسَ لَهُ سَاقٌ. ويقولون: ظَلَعَ النَّجْمُ، وَيَرِيدُونَ الْقُرْبَ.

(٢) الضَّلَالُ: الْخَيْرَةُ وَالْعُدُولُ عَنِ الضَّوْءِ؛ يُقَالُ: ضَلَّ يُضِلُّ وَيُضَلُّ. لَفَتَانِ - وَكُلُّ جَانِبٍ عَنِ الْقُدَمِ ضَائِدٌ. وَالضَّلَالُ وَالضَّلَاقَةُ يَنْفَعِي، وَرُخِلَ فَيُضِلُّ وَيُضَلُّ. حَاجِبٌ ضَلَالَةٌ. وَيُقَالُ: أَضِلَّ الْمَرْءُ؛ إِذَا ذُوِيَ. وَأَضِلَّ الْقَوْمُ مَتَّبِعَهُمْ إِذَا قَبِزُوا. وَيُقَالُ: أَرَضَ عَضَلَةً وَمَضَلَةً.

قَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ: قَوْلِي: أَضَلَّتْ يُعِيرِي؛ إِذَا دَغَبَ بَنُوكَ. وَضَلَّتِ الْمَشْجَةُ وَالْمَرْءُ إِذَا لَمْ يَهْتَدِ لَهَا. وَقَدْ ذَكَرْتُ كُلَّ شَيْءٍ مُّهِمٍّ لَا يَهْتَدِي لَهُ.

أحدها: ضد الهدى، ومنه: ﴿يُضِلُّ بِهِ صَفِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] .
 الثاني: النسيان: ﴿أَنْ قِيلَ إِنَّهُمْ كَسُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢] .
 الثالث: الخطأ: ﴿يَتَّبِعُ اللَّهُ لَكُمْ لَاحِظًا أَنْ يَنْصَرِفَ﴾ [النساء: ١٧٦] .
 الرابع: الاستزلال في الحكم: ﴿فَقُتِلَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣] .

الخامس: الخسران: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا فِي سَكْنٍ مُمِينٍ﴾ [يوسف: ٨] .
 السادس: البطلان: ﴿سَلَّ سَيْفَهُمْ فِي قَهْقَرِهِمْ شَرَافٌ﴾ [الكهف: ١٠٤] .
 السابع: الجهل: ﴿وَلَا يَنْفَعُ الْخَالِقِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] .
 الثامن: الهلاك: ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحجرات: ١٠] .
 التاسع: الشقاء: ﴿فِي النَّارِ وَأَنْتَ الْغَافِلُ﴾ [سبا: ٨] .
 العاشر: الغواية: ﴿وَلَقَدْ أَسْلَمَ بِكَ عِزَّةً كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] .

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْلُفُ عَنْ الْقَوْلِ﴾ ٥١٢ [النجم: ٣]، قال أبو زكريا: معنى (عن) المجاوزة، تقول: بلغني عنك كلام، أي: ما جاوزك إلى كلام، وهي حُرُوفٌ ما لم يدخل عليها (من)، فإذا دخلت عليها كانت اسمًا، تقول: أخذته من عن يمينك، وقد تكون بمعنى: بعد، تقول: شاذك كافيًا عن كافي.

و (عن) ^(١) في القرآن على خمسة أوجه:
 أحدها: صلة: ﴿يَتَذَكَّرُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١] .
 الثاني: بمعنى (الباء): ﴿وَمَا نَحْنُ بِشَارِكٍ فِي الْإِيمَانِ عَنْ فَذْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] .

(١) قال أبو زكريا: معنى (عن) المجاوزة، تقول: بلغني عنك كلام، أي: جاوزك إلى كلام.

والضرف من زيد، أي: جاوزته إلى غيره.
 وهي حُرُوفٌ ما لم يدخل عليها (من) فإذا دخلت عليها (من) كانت اسمًا لأن حرف الجر لا يدخل على بكونه، تقول: أخذته من عن يمينك.
 وقد تكون بمعنى (بعد) كقوله: ﴿فَلَرَكَنٌ مَقَامًا عَنْ مَقَامٍ﴾ [الانشقاق آية: ١٩] .
 وشاذك كافيًا عن كافي.

الثالث: بمعنى (من): ﴿يَقْبَلُ الْوَيْلَ عَنْ يَمِينِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].

الرابع: بمعنى (على): ﴿وَلَمَّا يَهْتَلِ عَنْ لَفْيِهِ﴾ [محمد: ٢٨].

الخامس: بمعنى (بعد): ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩].

﴿وَيْدٌ مَرٌّ إِلَّا وَتَحْمُ يَوْمَ﴾ ٢ [النجم: ٤] القرآن، و ﴿ثِيَابُ الَّذِينَ﴾

[النجم: ٥] جبريل، (البصرة): القوة، ﴿فَقَسَّوْنَ﴾ [النجم: ٦] جبريل، وهو

النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ثُمَّ نَكَ﴾ [النجم: ٨]، قال الزجاج: قُرْب،

﴿فَقَدَّ﴾ [النجم: ٨] زَادَ فِي الْقُرْبِ، فمعنى اللفظتين واحد، وفي

"الصحيحين" من حديث أنس، قال: " ذَا الْجَبَارُ وَبِ الْعِزَّة " ٣.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ذَا مُحَمَّدٌ مِنْ رَبِّي﴾.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: (الْقَابُ، وَالْقَادُ: الْقَدْرُ).

قَالَ الْكِسَائِيُّ: (أَزَادَ بِالْقَوَسَيْنِ قُوَّةً وَاجِدًا أَوْ أَذْنً)، أو حرف يرد

للشك، رأيت زيدًا أو عمرا، وترد للتخيير، أخذ منه دينارًا أو قيمة ورقًا، وترد

للإيهام: اشترىته بدينار أو أكثر، وترد للإباحة جالس الحسن أو ابن سيرين،

وترد بمعنى بل، وأشد الفراء: [الطويل]

بَقِثَ بِثَلِّ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي وَتَنِي الطُّحَى وَصُورِيهَا أَوْ أَثَرُ فِي الْحَبَنِ أُنْثَلِخَ

وترد بمعنى الواو، قال جرير: [البيط]

نَالِ الْخِلَافَةِ إِذْ عَمَانَتْ لَهُ قِنْدَرَا عَمَّا أَتَى رُبَّةَ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ

و (أو) ٤ في القرآن على أربعة أوجه:

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٣٠، رقم ٧٠٧٩).

(٢) (أو): حرف ترد للشك، تقول: رأيت زيدًا أو عمرا.

وترد للتخيير، تقول: أخذ منه دينارًا أو قيمة ورقًا.

ويرد بمعنى (بل)، وقال أبو زكريا: وترد للإيهام، تقول: اشترى هذا الثوب بدينار أو

أكثر. ترد بذلك الإيهام على الشايل، وكقولها: ﴿أَلَوْ يَرَىٰ ذِيكَ﴾ [آية: ١٠].

وترد للإباحة، تقول: جالس الحسن أو ابن سيرين، أي جالس الأعيان فإن جالستها أو

أعدتها فقد أكلها.

أحدهما: بمعنى التخيير: ﴿فَذَنبُهُ بَيْنَ يَمِينٍ أَوْ شِمَالَةٍ أَوْ مَثَلِهِ﴾ [البقرة: ١٩٩]، ﴿أَوْ كَتُوبُهُمْ أَوْ تَحْرِيرٌ وَاقْتَبُوا﴾ [المائدة: ٨٩].

الثاني: بمعنى الإيهام: ﴿أَوْ كَتُوبِهِمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ١٩].

الثالث: بمعنى يل: ﴿إِنَّ يَأْتِيهِ الْآيُ أَوْ يَزِيدُكَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

الرابع: بمعنى الواو: ﴿أَوْ جَسَدٌ أَحَدًا فَمَنكُم بَيْنَ الْقَائِلَةِ﴾ [النساء: ٤٣]، ﴿أَوْ التَّوَالِيَا﴾ [الأنعام: ١٤٦].

و(أدنى) ^(١) في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: بمعنى أدون: ﴿لَتَسْتَبْدِلُوا الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ [البقرة: ٦١].

الثاني: بمعنى أجدر: ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَا تَرَىٰ يَٰأَيُّهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

الثالث: بمعنى أقرب: ﴿فَمِنكُمُ الْقَلْبُ الْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: ٢٦]، ﴿فَكَانَ قَرِينًا أَوْ تَلَوَّ﴾ [النجم: ٩].

الرابع: بمعنى أقل: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن دُونِهِ وَلَا أَكْثَرُ﴾ [المجادلة: ٧].

لما تكامل شرف نبينا صلى الله عليه وسلم في الأرض، أعطى طرق طريق السماء فسمى، جيء بطرف إذا خطى وضع قدمه في موضع الطرف، فأتى بيت المقدس المقدس، فصلى بالأنبياء وكلهم لسببه قد صلى، فلما خرج عن المسجد الأقصى قطع بالمعراج سفراً لا يُحصى، فلما طرق السماء طرق المطرق الباب ولا يعلم أن جبريل إذا صعد يستأذن، فكانه بالاستئذان أعلم بشرف القادم، فهو من جنس * غَضُوا أَبْصَارَكُمْ لَتَجُوزُوا فَاظْمِنَ ^(٢)، فنزلته

(١) قال شيخنا علي بن عبيد الله: أدنى الفعل من الشيء وهو القريب.

يقال: فلان أدنى فلاناً فهو أدنى. والسماء الدنيا: هي القرى منا.

قال ابن فارس: الأدنى من الرجال مهموز: الأدنى، والذي غير مهموز: القريب، من فلان أدنى، وشيئت الدنيا لذنوها، والتشبه إليها قنابوي، وفاتت بين الأمرين: قاربت بينهما. وفي الحديث: * إذا أنفكتم فذنوا * أي: فكلوا بشاً بليغكم.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣٥٠، رقم ٢٢٨٦)، والحاكم (٣/ ١٧٥، رقم ٤٧٥٧) وقال: صحيح الإسناد وأخرجه أيضاً: أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٧٦٣، رقم ١٣٤٤)، والطبراني (١/ ١٠٨، رقم ١٨٠)، وأبو نعيم في المعرفة (١/ ٩٣، رقم ٣٥٩)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٦٣، رقم ٤٤٢٢).

الملائكة بالبشر والترحيب، وحازت من فضله العجيب، فتلقى في السماء الأولى بأبيه آدم، فسلم عليه والعهد قد تقادم، ثم سعى إلى السماء الثانية، فإذا عيسى بن مريم، فسلم عليه ومعه الذي ما عصي ولا خُف، ورأى في الثالثة يوسف الصديق، ودخل في الرابعة وإذا إدريس في الطريق، وسلم في الخامسة على هارون، وفي السادسة على الكليم، ولقى في السابعة آياه إبراهيم، هذا وملائكة كل سماء تستبشر بقدومه، وتفر بعد أن كانت قالت: ﴿الْجَبَلُ﴾ [البقرة: ٣٠] بالعجز عن علومه، والأنبياء كلهم يتلفونه بالمدح، وما بلغوا كنه قدره وقد قالوا الصحيح، ثم أنه لما مر على موسى، فسلم ثم جاوز بهكاء وتآلم، فقبل يا موسى ما يبكيك؟ فقال: ﴿فَأَبُئِي بِكَ نَجْدًا تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أَصْبَحٍ أَخْرَجَ مِنْ أَصْبَحٍ﴾.

إخواني! هل علمتم ضجيج لسان موسى من كبر كرب فقص ﴿الأنعام: ١٤٣﴾، فطلق لسان حاله بقول: ما أنا الشهيد بسيف ﴿الأنعام: ١٤٣﴾ السائل دمه على حسام ﴿يُثَبِّتُ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، وعبرة التفضيل تحجب بالتفصيل أنت الشهيد المخلص، وهذا العالم الراسخ و " نُورٌ وَزُنْ يَبْذُؤُا الْعُلَمَاءُ، وَدَمُ الشُّهَدَاءِ لَرَجَحٍ يَبْذُؤُا الْعُلَمَاءُ عَلَى دَمِ الشُّهَدَاءِ " (١).

أنسيت صحة الخضر في طريق ذل ﴿فَلَمْ أَتَمَّكْ﴾ [الكهف: ٦٦]، وهذا على سرير عز فأورثني علم الأولين وآخرين، ثم انتهى تبينا إلى سدرة المنتهى، ونال نوال ﴿ثُمَّ ذَاكَ﴾ [النجم: ٨] وجنى ثمار: ﴿فَوَيْلٌ لِلْعَبِيدِ﴾ [النجم: ١٠]، وثبت جاشه بتأييد: ﴿مَا رَأَى الْقَوْمُ﴾ [النجم: ١٧]، فارتفع رفيقا ما، ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ونوخل أعداءه بهمام: ﴿فَتَنَزَّلُ﴾ [النجم: ١٢]، وَزُيِّنَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (رَأَى رَبَّهُ عَمَّا رَجُلٌ بِعَيْنَيْهِ زَأْبٌ مَرَّتَيْنِ)، ولا تثبت المدحة بروية جبريل لأنه كان براء دائما، ثم فرضت الصلوات، فلما أخبر موسى بمقدار التكليف، قال: (عُدَّ فَمَسَّلَ التَّخْفِيفَ)، فما زال يُرده موسى حتى أبلى خمسا، فقال: (عُدَّ فَمَسَّلَ فِيهَا

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٨٠)، رقم ٨٤.

وَعَلَّمْ، فَقَالَ: " بَلْ أَرْضَى وَأَسْلَمَ "، وَإِنَّا بِذَاءِ مَنَاءِ: " فَمَا أَتَيْتُكَ فَرِيضِي، وَخَفَلْتُ عَنْ جِبَادِي، فَهَيْئُ عَشْسُ فِي بَابِ التَّكْلِيفِ، وَهِيَ عَشْسُونَ فِي جَنَابِ التَّضْعِيفِ، وَهَذِهِ مَثَلَةٌ لِهَذِهِ الْأَمْرِ فِي كُلِّ أَحْتَالِهَا ﴿مَنْ جَاءَ بِالسَّكَّةِ فَهُوَ عَشْرُ أَكْثَرِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ^(١)، ثُمَّ عَادَ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْأَرْضِ عَلَى أَكْمَلِ حَالٍ، وَبَيْتٍ وَبَشْتٍ جَنُودٍ نَصْرِهِ، حَتَّى رَعَرَعَتِ الْجِبَالُ، وَعَدَلَ مَعَهُ شَاهِدٌ عَدْلٍ يَشْهَدُ مَا رَأَى، ﴿وَمَا يَخْلُقُ مِنْ لَقَوَّةٍ ۚ﴾ [النجم: ٢٣]، فَأَصْبَحَ يُحَدِّثُ عَنْ إِسْرَائِيهِ وَكُلِّهِمْ قَدْ بَ، وَسَعَى بَعْضُهُمْ إِلَى الصَّدِيقِ، فَقَالَ بِلْسَانِهِ اسْتِغْرَازِيهِ: صَاحِبِيكُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ مَرَّ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَتَّطَلَّقَ فَقَالَ: إِنَّ كَثَانَ قَالَ لَقَدْ خُذَ حَقِّي، فَلَمَّا تَوَلَّوْا: خِيفْتُ تُصَدِّقُهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَبْيَاقِ، قَالَ: وَقَدْ صَدَّقْتُهُ قَبْلَ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحُجُوجِ جِئْنَ قَدْ بَوَّهَ، فَحَلَّى لَهُمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَوَضَعَتْ قُوَّةٌ مَا عَزَمُوهُ، فَأَخْبِرَهُمْ بِحَلِيَةِ إِبْلِ لِهَلِهِ أَيْدٍ، فَبَانَ بِقُدُومِهَا التَّخَوُّقُ، غَيْرَ أَنَّ الْحَسَدَ صَدَّعَهُمْ عَنْ سُلُوكِ الْمَنَهِجِ إِلَى مَسَلِكِ الْمَنَهِجِ، لِهَذَا أُوبِرَتْ عَلَيْهِمْ أَبَارِيقُ الْهُدَى، وَكَلِمَةُ أَبَارِيقِ الْأَبَارِيقِ، وَمَا بَرَّ الصَّحَابَةِ سَكَنُوا جِئْنَ سَمِعُوا، وَسَابِقَ إِلَى التَّضْعِيفِ الصَّدِيقِ، فَمَا مُتَّكَرَ الْمِعْرَاجِ إِنَّ قَضَاءَ الْقُدْرَةِ لَا يَضِيقُ، وَمَا مِنْ رُغْمَةٍ مَنَامًا لِمَ أَنْكَرْتَ قَرِينُ حُلُولِ الطَّرِيقِ، لَقَدْ رَدَّدْتَ الْقُرْآنَ الْقَدِيمَ، وَالتَّقْلُ الْقَوِيمَ الْوَتِيمَ، تَكَلَّلْتَ أَتُكْ هَلْ أَتُكْ فِي هَذَا الْإِحْضَادِ إِلَّا وَتَدِيقِ، لَقَدْ كَانَتْ لَكَ أَسْوَةٌ لَوْ وَلَقَتْ بِي عَتِيقِ، سُبْحَانَ مَنْ أَنْعَمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، بِحُلَّةِ الْهُدَى وَجَلِيَّةِ التَّوْفِيقِ، لَقَدْ سَافَرَ مُوسَى إِلَى الطُّورِ، فَوَلَّعَ فِي فَرِيْقِهِ الشُّفْرَيقِ، فَلَمَّا قَدِمَ رَاقِعَهُ حَوْلَ الْعُجْلِ فِي زُفْرِ وَشَهِيقِ، فَقَالَ: يَا هَارُونَ خَلَا زَجَرْتُهُمْ يَا هَارُونَ، قَالَ: مَا كُنْتُ أَطْبِقُ.

وَلَمَّا سَارَ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْبُغْرَاجِ، قِيلَ: لَا تَزْجِعْ قُلُوبَ فِي الْأَرْضِ صَدِيقِ.

الفصل الرابع والثمانون

في قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ﴾ [القمر: ٢٣]

قال أبو عمرو بن العلاء: (إِنَّمَا سُنِّيتْ ثَمُودُ لِفِعْلِهِ مَا يَحِبُّهَا)، وقال ابن فارس: (النَّدْرُ: النَّماء القليل الذي لا مَادَّةَ لَهُ).

والنَّدْر جمع نَدِير، ومن كذب نبيا واحداً، فقد كذب بالكل.

﴿فَقَالُوا أَهَلَكُنَا رَبُّكَ وَأَمَّا إِذْنا إِذْنا فَعَلْنَا ذَلِكَ لَقي خِلالاً أَي: خطأ وسُوءاً، قال ابن عباس: (جُنُون).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (هُوَ مِنْ تَسْمَرُ النَّارُ إِذَا انْفَجَّت).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا عَنْهُمْ يَوْمَ يَبْعَثُ﴾ [القمر: ٢٥]، وفي (ص):

﴿أَنزِلُ﴾ [ص: ٨] وما هنا أَلْفِي، وهذه الحروف من التبدلات من المتشابهة،

ومثله في (البقرة): ﴿فَتَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَنَواتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وفي (حم

فصلت): ﴿فَتَقَنَّنَهُنَّ﴾ [فصلت: ١٢]، وفي (البقرة): ﴿وَكَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَنَمَ﴾

[البقرة: ٥٧]، وفي (الأعراف): ﴿وَوَطَّلْنَا عَنْكُمُ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وفي

(البقرة): ﴿فَأَنفَجَرْتَهُ﴾ [البقرة: ٦٠]، وفي (الأعراف): ﴿فَأَنبَحَثْ﴾

[الأعراف: ١٦٠]، وفي (البقرة): ﴿فَتَدَاوَى جَادَهُ بَيْنَ إِلِيمَ﴾ [البقرة: ١٢٠]،

وفي (الرعد): ﴿فَتَدَاوَى جَادَهُ بَيْنَ إِلِيمَ﴾ [الرعد: ٢٧]، في (البقرة): ﴿فَتَلَقَّيْنِ

وَالْمُتَكَلِّمَيْنِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفي (الحج): ﴿فَتَلَقَّيْنِ وَالْمُتَكَلِّمَيْنِ﴾ [الحج:

٢٦]، في (البقرة): ﴿وَمَا أَنزَلْ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي (آل عمران): ﴿وَمَا

أُنزِلَ عَلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٨٤]، وفي (البقرة): ﴿لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا

تَقُولُكَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وفي (المائدة): ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]،

وفي (آل عمران): ﴿لِيَحْكُمَ لَا تَحْكُمُوا عَلَىَّ مَا قَدْ حَكَمْتُكُمْ﴾ [آل عمران:

١٥٣]، وفي (الحديد): ﴿يَكِيدُوا قُلُوبَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، في سورة (النساء): ﴿وَلَقَدْ يَمَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [النساء: ١]، وفي (الأعراف): ﴿وَقَتْلَ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وفي (الزمر): ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُمُ﴾ [الزمر: ٦]، وفي (الأنعام): ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي (بنی اسرائیل): ﴿خَلَقْنَا نَارًا﴾ [الأنعام: ٣٦]، وفي (الأعراف): ﴿وَأَرْسَلْنَا فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، وفي (الشعراء): ﴿وَقَدْ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وفي (الأعراف): ﴿ثُمَّ لَأَخْلِيَنَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، وفي (الشعراء): ﴿وَأَخْلِيَنَّكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، في (التوبة): ﴿يُؤْيِيهِمْ أَنْ يُفْلِتُوا﴾ [التوبة: ٣٢]، وفي (الصف): ﴿يُفْلِتُوا﴾ [الصف: ٨]، وفي (هود): ﴿وَأَنْظَرْنَا عَنْهَا جِسْرَةَ﴾ [هود: ٨٢]، وفي (الحجر): ﴿وَأَنْظَرْنَا عَنْهُمْ﴾ [الحجر: ٧٤]، في (الحجر): ﴿وَمَا بَلَّيْهِمْ يَوْمَ رَسُولٍ﴾ [الحجر: ١١]، وفي (الزخرف): ﴿يَوْمَ لَيْلٍ﴾ [الزخرف: ١٧]، في (الكهف): ﴿وَلَمَّا رُئِدَتْ﴾ [الكهف: ٣٦]، وفي (حم السجدة): ﴿وَلَمَّا رُئِدَتْ﴾ [فصلت: ٥٠]، في (الكهف): ﴿فَأَتَرَفْنَا عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، وفي (سجدة لقمان): ﴿فَأَتَرَفْنَا عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢]، في (النمل): ﴿فَتَنَبَّهْنِي فِي لَيْلَتَيْنِ﴾ [النمل: ٨٧]، وفي (الزمر): ﴿فَصَوَّقُوا﴾ [الزمر: ٦٨]، في (المدثر): ﴿حَقًّا لَكُمْ تَكْوَنُ﴾ [المدثر: ٥٤]، وفي الآية التي نحن في تفسيرها: ﴿الْإِذْ عَلَيْهِمُ﴾ [القصص: ٢٥]، وفي (ص): ﴿عَلَيْهِ الْإِذْ﴾ [ص: ٨]، فهذه اللقطة من المتقدم والمتوخر في المنشأ، ومثله في (البقرة): ﴿وَأَنْظَرْنَا إِلَيْكَ شَيْئًا وَلَوْ لَوَّلُوا جَعَلْنَا﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي (الأعراف): ﴿وَقُولُوا جَعَلْنَا وَأَخْلَا إِلَاتَ شَيْئًا﴾ [الأعراف: ١٦١]، وفي (البقرة): ﴿وَأَلْفَنِينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وفي (الحج): ﴿وَأَلْفَنِينَ﴾ [الحج: ١٧]، وفي (البقرة) و (الأنعام): ﴿قُلْ إِيَّاكَ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠]، [الأنعام: ٧١]، وفي (آل عمران): ﴿قُلْ إِيَّاكَ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ [آل عمران: ١٧٣]، في (البقرة): ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِإِنَّمَا هُمْ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وفي (البقرة): ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِإِنَّمَا هُمْ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي (البقرة): ﴿لَا يَفْلِتُونَكَ عَنْ نِعْمٍ وَمَا حَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وفي

[إبراهيم]: ﴿وَمِمَّا كَتَبْنَا عَلَىٰ غُرُورٍ﴾ [إبراهيم: ١١٨]. وفي (آل عمران): ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ قُرُونٌ بِرُءُوسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وفي (الأنفال): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّيِّئَاتِ﴾ [النساء: ١٠]. وفي (النساء): ﴿كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَلَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّيِّئَاتِ﴾ [النساء: ١٣٥]. وفي (المائدة): ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَلَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّيِّئَاتِ﴾ [المائدة: ٨]. وفي (الأنعام): ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ حَيُّ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وفي (حم المؤمن): ﴿حَيُّ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٢]. وفي (الأنعام): ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِمَّا كَفَرْتُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي (بنو إسرائيل): ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِمَّا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. وفي (النحل): ﴿وَتَكَبَّ أَعْيُنُهُمْ فَوَافِرٌ فِيهَا﴾ [النحل: ١٤]. وفي (فاطر): ﴿فِيهِ مَوَازِينُ﴾ [فاطر: ١٢]. وفي (بنو إسرائيل): ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وفي (الكهف): ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ يُتْلَىٰ لَكَ آيَاتُهُ﴾ [الكهف: ٥٤]. وفي (بنو إسرائيل): ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الكهف: ٥٤]. وفي (الإسراء: ٩٦): ﴿يَتَّبِعُكُمْ مِّنْ خَلْفِكُمْ﴾ [الكهف: ٥٤]. وفي (المؤمنين): ﴿لَقَدْ وَضَعْنَا لَكُمُ الْكُرْسِيَّ﴾ [المؤمنين: ٥٢]. وفي (النمل): ﴿هَٰذَا نَحْنُ وَبَنَاتُنَا﴾ [النمل: ٨٣]. وفي (النمل): ﴿هَٰذَا نَحْنُ وَبَنَاتُنَا﴾ [النمل: ٦٨]. وفي (القصص): ﴿وَبَنَاتُكَ يُجِلُّنَ بَيْنَ أَفْئِدَتِكُنَّ﴾ [القصص: ٢٠]، وفي (يس): ﴿وَبَنَاتُكَ يُجِلُّنَ بَيْنَ أَفْئِدَتِكُنَّ﴾ [يس: ٢٠].

وأما (الذكر) ^(١) فهو في القرآن على عشرين وجهًا:

(١) الذَّكَرُ يقال على وجهين:

أحدهما: الذَّكَرُ بالقلب.

والثاني: الذَّكَرُ باللسان.

وهو في الموضوعين خفيٌّ يُسْتَعْلَزُ في مواضع تُدَلُّ عليها القرينة.

عَدَدًا محمد بن ناصر، عن أبي زكريا، عن ابن جني، قال: الذَّكَرُ بكسر الدال باللسان، وبضم الدال بالقلب تقول: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ بلساني ذَكْرًا وقلبي ذَكْرًا.

وبال: اجتمع هنا على دُخْرِ يَتَك - بضم الدال - أي: لا تشته.

والذَّكَرُ: القلا والشرف. والذَّكَرُ: التي وَلَدَتْ ذَكَرًا.

قال الفراء: كم الذَّكَرَةُ من وَلَدِيكَ؟ أي: الذَّكَرُ.

[الأول^(١)]: الذكر باللسان: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

الثاني: الحفظ: ﴿وَلَا تُكْرُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٧١].

الثالث: الطاعة: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [البقرة: ١٥٢].

الرابع: الصلوات الخمس: ﴿فَلَمَّا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا﴾ [البقرة: ١٩٨].

الخامس: الذكر بالقلب: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا﴾ [آل عمران: ١٣٥].

السادس: العظة: ﴿لَكُنَّا نُؤْمِنُ مَا دُفِعُوا بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٤].

السابع: البيان: ﴿لَوْ يَعْلَمُونَ أَنَّ بَعْدَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

الثامن: الحديث: ﴿لَا تَكْفُرِينَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [يوسف: ٤٢]؛ أي: حدثه بحالي.

التاسع: التورية: ﴿فَتَنَلُوا أَهْلَ الْأَكْثَرِ﴾ [النحل: ٤٣].

العاشر: الخير: ﴿سَأَلْتُوا عَلَيْهِمْ مِنْهُ وَضَعُوا﴾ [الكهف: ٨٣].

الحادي عشر: التوحيد: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ وَصْفِي﴾ [طه: ١٢٤].

الثاني عشر: القرآن: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ وَصْفٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [الأنبياء: ٢].

الثالث عشر: الشرف: ﴿حَسْبُكَ فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠].

الرابع عشر: العيب: ﴿لَعَلَّكَ الْبَازِيُّ يَلْتَكِبُ الْإِهْتِكَمَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

الخامس عشر: اللوح المحفوظ: ﴿فِي الزَّبُحْرِ مِنْ بَعْدِ الْإِذْكِرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

السادس عشر: الثناء على الله تعالى وعلى رسوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

السابع عشر: الوحي: ﴿فَاتَّخَذَتْ وَكراً﴾ [الصافات: ٣].

(١) ما بين المعكوفين ساقط من الأصل.

الثامن عشر: صلاة العصر: ﴿سَبَّحْتَ الْمَظْهَرَ مَنَ ذِكْرِ رَبِّكَ﴾ [ص: ٣٢].

التاسع عشر: صلاة الجمعة: ﴿قَامَتُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

العشرون: الرسول: ﴿ذَكَرَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَنسَوْنَ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

قوله تعالى: ﴿لَا هُوَ كَذَّابٌ أَزِيمٌ﴾ [القمر: ٢٥]؛ أي: بطر.

﴿سَيَقُولُونَ عَذَابٌ﴾ [القمر: ٢٦]؛ أي: في القيامة أن مرسلوا الناقة.

لما أعرضت ثمود عن كل فعل صالح، بُعث إليهم للصلاح صالح، فأنشأ يذكرهم المنشأ بعبارة: ﴿أَنشَأَكُمْ﴾ [هود: ٦١]، وَغَاذَ فَأَخَاذَ وَفَرَّ غَاذَ فِي لَفْظٍ: ﴿جَعَلَكُمْ عِلْفَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، فأقبلوا عليه بالعودة ﴿فَكَانَتْ فِيكَ مَرِيضًا﴾ [هود: ٦٢]، فحشوا على عتية عتايه، فعتبوه ﴿أَنهَضْنَا﴾ [هود: ٦٢]، فخوفهم الهلاك في رمز: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ [الشعراء: ١٤٦]، فتعلل عليه ناقة هواهم بطلب ناقة، فقام يستمطر نواء النوال، فأناه بما يريد يريد: ﴿يَا مُزِيلُوا أَشْفَقُوا﴾ [القمر: ٢٧]، فخرجت من صخرة صماء تُثَلِّبُ، ثم فصل عنها فصيل يرغو، فارتمت حول نهى نهيم عنها في حمى حماية: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسِيرُوا﴾ [الأعراف: ٧٣]، فاحتاجت إلى الماء، وهو قليل عندهم، فقال حاكم العذل: ﴿فَمَا تَزِيدُونَهَا﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وكانت يوم ورودها تنقضي دين الماء بمادنها، فاجتمعوا في حلة الحيلة على شاطيء غدير الغدير، فكتمن بعضهم للشي في مكيدة: ﴿فَلَيُكِيدَنَّ﴾ [النمل: ٤٩]، وضرب بعضهم بعضًا ﴿فَقَاتِلُوا﴾ [القمر: ٢٩]، ثم برزوا في براز العناد يتنادون بلسان: ﴿وَنَحْنُ نَقُوتُهُ﴾ [الأعراف: ٧٧]، ﴿أَفَيَنَّا بِمَا قَدَّمْنَا﴾ [الأعراف: ٧٧]، فأجاب لسان الإسهال: ﴿تَمَتُّنَا فِي كَارِصَتِكُمْ غَنَّةً أَكْبَارًا﴾ [هود: ٦٥]، فضففت على ضفصف وجوههم في اليوم الأول ضفوف الضفرة، وحثت بأسباب العذاب في اليوم الثاني بقاني الحمرة، ولم يكتسوا سوى سوء السواد في اليوم الثالث، فلما أصبحوا في اليوم الرابع شلت عليهم شدة رجف الرجف ﴿أَنزَفْنَاهُ﴾ [الأعراف: ٧٨]، فصاب عليهم صيب صار صاع ﴿سَقِيقَةُ الْمَذَاقِ لَمُزْنٍ﴾ [نصفت: ١٧]، فحين دنا ودندن دمعهم دماث، ﴿فَدَمَعْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الشمس: ١٤]، فسار نبهم من بينهم بين المؤمنين على نجا نجائب ركائب السلامة، يحدوها، ﴿يَجْعَلُنَا مَكِيلًا وَالتَّوَكُّلَ

﴿أَمَّنُوا مَعَكُ﴾ [هود: ٦٦]، فأدلىجوا في براح + ﴿يَخْتَفُونَ فِيهَا﴾ [هود: ٦٦]،
فانتدب نادب العمرة، فأطل على إطلال الهالكين يتدب طلال مللكم، ﴿كَانَ لَكُمْ
نَعْنُ وَالْأَمِينُ﴾ [يونس: ٢٤]، فلما صاح زاجر التنبيه على باب التحذير من
حالهم، ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨]، إجابة صريح الطرد
بصريح: ﴿أَلَا مَعَنَا ثَمُودُ﴾ [هود: ٦٨].

الفصل الخامس والثمانون

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]

رَوَى مُسْلِمٌ فِي إِفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: (مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحديد: ١٦] إِلَّا أَرْبَعُ سَنِينَ).

وفي بعض الألفاظ عنه: (فَجَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ يُعَاتَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا).
ومعنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦] القرب، وخشوع القلب، وقته، ولينته، والمعنى: يجب أن يورثهم الذكر خشوعًا، ﴿وَمَا تَزَلْ مِنَ الْفَقْرِ﴾ [الحديد: ١٦]: الصواب الصحيح، والحقيقة ما يصير إليه من الأمر، وحق الشيء: وجب، وحاق فلان فلانًا إذا خاصمه وأدعى كل واحد منهما الحق، فإذا غلبه قيل: حقه وأحقه، و ﴿الْمَآئَةُ ١٦﴾ [الحاقة: ١]: القيامة؛ لأنها تحق بكل شخص ما عمله، والخُفَّةُ من أولاد الإبل: التي استحق أن يُعمل عليها، والجمع جفاق، والخُفَّةُ معروفة والجمع حُفَق، والحقيقة: أرفع السير وأتعبه للظهر، قال مطرف: إن خير الأمور أوسطها، وإن شر السير الحقة.
والحق^(١) في القرآن على ثمانية عشر وجهًا:

- (١) الحق: الصواب والصحیح، وخيطة الباطل.
- والحقيقة: ما يصير إليه حق الأمر، وحق الشيء إذا وجب.
- وحاق فلان فلانًا، إذا خاصمه وأدعى كل واحد منهما الحق، فلان غلبه قيل: حقه وأحقه.
- ويقال: اخفطوا في الدين؛ إذا ادعى كل واحد الحق.

أحدها: الجرم: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ آلِ إِبْرَاهِيمَ بِغَيْرِ عَقْبٍ﴾ [آل عمران: ٢١] .
 الثاني: البيان: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٧١] .
 الثالث: أمر الكعبة: ﴿لِيَتَذَكَّرُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ١٤٦] .
 الرابع: إيضاح الحلال والحرام: ﴿سُئِلَ الْحَكِيمُ وَالْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٧٦] .

الخامس: المال: ﴿وَلْيَسْأَلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .
 السادس: القرآن: ﴿كُذِّبُوا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٥] .
 السابع: الصدق: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] .
 الثامن: العدل: ﴿أَفَتَدْعُونَ إِلَهُكُمْ آلَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٩] .
 التاسع: الإسلام: ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الأنفال: ٨] .
 العاشر: البعث: ﴿وَتَدْعُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى﴾ [النحل: ٣٨] .
 الحادي عشر: ضد الباطل: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٢] .
 الثاني عشر: الحاجة: ﴿مَا لَكَ فِي بَيْتِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [هود: ٧٩] .
 الثالث عشر: لا إله إلا الله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمَوْتَى﴾ [الرعد: ١٤] .
 الرابع عشر: الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَفْعَالَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٧١] .

الخامس عشر: التوحيد: ﴿وَلَسْتَ بِمَعْبُودٍ لِّمَنِي كَرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] .
 السادس عشر: الوجوب: ﴿وَلِيَكُنْ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] .
 السابع عشر: الحظ: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لَعَنُوا﴾ [المعارج: ٢٤] .
 الثامن عشر: إيفاء الأجل: ﴿وَتَبَيَّنَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ لِلَّذِينَ﴾ [آل: ١٩] .
 شكى رجل إلى الحسن قسوة قلبه، فقال: أدنه من الذكر،
 وروى إبراهيم بن بشار، عن إبراهيم بن أدهم، أنه قيل له: لم

والخطأ: القيانة، لأنها تخطئ بكل. والخطأ: من أولاد الإيل التي استغلت أن يخطئ عليها، والجمع: خطئ. والخطأ: معروفة، والجمع: خطئ.

والخطأ: أرفع الشجر وأتبع للظهي. قال مطرف بن عبد الله: إن خير الأمور أوسطها، وإن شر الشجر الخطأ.

خُجِّبَتْ الْقُلُوبُ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فقال: لأنها أُخْبِتَتْ ما أبغض الله عز وجل.

إبراهيم بن يشار ثلاثة:

الرمادي أحدهم، روى عن ابن عُيينة.

الثاني: واسطي، روى عن الحريري.

الثالث: مولى، وهو الذي حكينا عنه.

كان الفضيل بن عياض يقطع الطريق، فخرج ليلة، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه، فقال بعضهم لبعض: أعدلوا إلى هذه القرية؛ فإن أمامنا رجل يقطع الطريق يُقال له: الفضيل بن عياض، فأرْبَعَهُ، وقال: يا قوم انزلوا بي وأنتم آمنون من الفضيل، فأضافهم تلك الليلة، وخرج يرتاد لهم علفاً، فلما رجع سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِطَوِيلِ الْمَوْتِ﴾ [الحديد: ١٦]، فصاح، ومزق ثيابه، وقال: بلى والله قد آن والله لاجتهدن أن لا أعصي الله تعالى أبداً؛ فكان ذلك سبب توبته.

الفضيل بن عياض الثاني:

أحدهما: ابن عياض الشَّهْلَهْلُ الصَّرْفِي، حدث عن سلمة بن عبد الرحمن .

الثاني: ابن عياض بن مسعود الزاهد، حدث عن الأعمش، وهو الذي الشتاء إلى الصيف، لا في الربيع تثمر ولا في الخريف، لقد استقلع هذا البستان.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦]: أنت في دار من سكنها لم يقم، ومن صح فيها لم يستقم على بابها لإعلام أربابها قد رقم.

﴿قُلْ مَنْ عَلَى كُنْ﴾ [الرحمن: ٢٦]: انقضى وانقضى، وأكثره في غير الرضا، إن كان قد ما مضى، فمن الآن، ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦]، لا في الشباب أفلحت، ولا في الكهولة أصلحت، وهذا المشيب وما صلحت، لو كان للخير وجه بان، ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦] كم عليكم من غطاها وفنوب، كم عليك من زلات وعيوب، ما جوابك إذا نُشِرَ المكتوب، فيا ليت ما كان ما

كان، ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦] ثماحك على الدينار وتناقش؛ هلا طلبت
الأخرى طلب المعاش، تتوب وتتقص، تحب الفواحش يأبى براقش الألوان،
﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦] تنطمع في الجنة بعمل أهل النار، وترجوا الفوز
بأفعال الأشرار، وتروم قبول التوبة مع الإصرار والجنون ألوان، ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾
[الحديد: ١٦] مار الصالحون وتوقفت، وجد الثانيون وسوفت، ما يُفعدك وقد
عرفت، هذا القرس وهذا الميدان ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦].

الفصل السادس والثمانون

في قوله عز وجل: ﴿أَنَا الْخَيْرُ الَّذِي لَوْ
وَلَّوْا وَرِثَتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]

اللعب: قيل اللهو في أربعة أحرف:
في الأنعام: ﴿وَمَا الْخَيْرُ الَّذِي إِلَّا لَوْ وَلَّوْا﴾ [الأنعام: ٣٢]، وفيها:
﴿أَتَعْبُدُونَ بَيْنَهُمْ لَوْ وَلَّوْا﴾ [الأنعام: ٧٠].
وفي سورة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّمَا الْخَيْرُ الَّذِي لَوْ وَلَّوْا﴾
[محمد: ٢٦].

وفي الحديد: ﴿أَتَقْلَبُوا أَنَا الْخَيْرُ الَّذِي لَوْ وَلَّوْا﴾ [الحديد: ٢٠].
واللهو قبل اللعب حرفان:
في الأعراف: ﴿أَتَعْبُدُونَ بَيْنَهُمْ لَوْ وَلَّوْا﴾ [الأعراف: ٥١]، وفي
العنكبوت: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَّةُ الَّتِي لَا تَهْوَى وَلَوْ﴾ [العنكبوت: ٦٤].
روى سفينة أن رجلاً ضاقت عليه رضي الله عنه فوضع له علفاً، فقالت
فاطمة: لو دعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل مني، قال: فجا، فأخذ
بعضافتي الباب، وقد خربتوا فرأيتني ناجية إليّ فلما رآه رجعت، فقالت فاطمة
لعلي: الخفة فأنظر ما رجعت، فمتى فقال: يا رسول الله ما ذلك؟ قال: * ليس
بشيء أن يدخل بينك مؤمنان^(١).

سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما سمي سفينة؛ لأنه

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٠، رقم ٢١٩٧٢)، والطبراني (٧/ ٨٤، رقم ٦١٤٦)، والبيهقي
في شعب الإيمان (٧/ ٣٩٦، رقم ١٠٧٣٣)، وأخرجه أيضاً: أبو داود (٣/ ٣٤٤)، رقم
٣٧٥٥، ابن ماجه (٢/ ١١١٥، رقم ٣٣٦٠) كلاهما بنحوه.

خَرَجَ فَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَقُتِلَ عَلَى أَصْحَابِهِ مَنَافِعُهُمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ائْبُطْ بِمَا هَكَ "، فَبَسَطَهُ، فَجَعَلُوا فِيهِ مَنَافِعَهُمْ، ثُمَّ حَمَلُوهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " اُحْمِلْ، مَا أَتَتْ إِلَّا سَفِينَةٌ " (١)، فَزَكَيْتُ الْبَحْرَ، فَانْتَحَسَرَ بِهِمْ فَقَلْبْتُ بِشِيءٍ حَتَّى خَرَجْتُ إِلَى حَزِيرَةٍ فَإِنَّا فِيهَا الْأَسَدُ، فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْخَادِرُ، أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَطَاطَأَ رَأْسَهُ، وَجَعَلَ يَدْفَعُنِي بِحَنِيٍّ، وَيَدُلُّنِي عَلَى الطَّرِيقِ، فَلَمَّا خَرَجْتُ إِلَى الطَّرِيقِ هَمَمْتُ، فَقُلْتُ أَنَّهُ يُؤَدِّعُنِي.

جملة ما روى سفينة أربعة عشر حديثًا، انفرد بالإفراد عنه مسلم، فأخرج له حديثًا واحدًا، وسفينة لقب، وإنما اسمه مهران.

وممن عُرف بلقبه: الجارود اسمه فراس، أبي اللحم واسمه عبد الله، شقران واسمه صالح، [ذو الغرة] واسمه يعيش، ذو اليمين واسمه الخرياق، وكلهم صحابة. إلا غر واسمه سليمان، غندر واسمه محمد بن جعفر، لوين واسمه محمد، كان يبيع العبيد، فيقول: عندي جارية لها لوين، جزرة واسمه صالح، صحف في بعض قرائته الحديث حرزة فقال: جزرة، فلبيت عليه، مشكدة واسمه عبد الله، غامر، توبة، صاعقة، مطير، مربع، أبو العبداء، أسماء هؤلاء كلهم محمد، دحيم واسمه عبد الرحمن، جبير واسمه عصام، نفطويه واسمه إبراهيم.

روى مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " إِذَا اللَّهُ غَرًّا وَجَلَّ تَيْحُمِي غَبْدَةُ الْمُؤْمِنِ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا تَحْمُونَ فَرِيضَتَكُمْ الطَّغَامَ وَالشَّرَابَ تَحَامُوهُ عَلَيْهِ " (٢).

قَالَ الْفَضِيلُ: قِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيْخَرُ الْمُؤْمِنِ أَنْ أَزُوبِي عَنْهُ الدُّنْيَا وَهُوَ أَقْرَبُ لَهُ مِنِّي؟ وَتَفَرَّخَ أَنْ أَيْبُطَ لَهُ الدُّنْيَا وَهُوَ أَعَدُّ لَهُ مِنِّي؟!

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/٧٠٢)، رقم ٦٥٤٨.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٤٢٨)، رقم ٢٣٦٧٧، وأخرجه أيضًا: البيهقي في شعب الإيمان (٧/٣٢١)، رقم ١٠٤٥٠.

قَالَ أَبُو سَلَيْمَانَ الدَّوَائِنِيُّ: جَلَسَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ظِلِّ حَيْمَةَ عَجُورٍ، فَقَالَتْ لَهُ الْعَجُورُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَمْ يَمِنْ بَلَدُنَا، فَقَامَ، فَجَلَسَ فِي الشَّمْسِيِّ، وَقَالَ: (لَسْتُ أَنْتَ أَقْنِينِي، أَقَامَنِي الْيَوْمَ لَمْ يَزِدْ أَنْ أَصِيبَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا).

رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الشَّيْخِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْعَنَى مُؤْمِنَانِ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، مُؤْمِنٌ غَنِيٌّ، وَمُؤْمِنٌ فَقِيرٌ، كَانَا فِي الدُّنْيَا، فَأُدْخِلَ الْفَقِيرُ الْجَنَّةَ، وَخَبَسَ الْغَنِيُّ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُخَبَسَ، ثُمَّ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: أَيُّ أَخِي مَاذَا حَبَسَكَ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ حَبَسْتُ عَنِّي حَتَّى خِفْتُ عَلَيْكَ! فَقَالَ: أَيُّ أَخِي إِنِّي حَبَسْتُ بِغَدَقٍ مَحْبَسًا قَطِيعًا خَرِيفًا، مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى سَأَلَ مِنِّي الْعَرَفُ مَا لَوْ وَرَدْتُ عَلَيْهِ أَلْفَ بَعِيرٍ كُلُّهَا أَكَلْتُ خَبَطًا، لَصَبَرْتُ [عَن] (١) وَاء (٢)".

وَلَمَّا "الشَّجِيحَيْنِ" مِنْ حَدِيثِ أَصَاغَةٍ، عَنِ الشَّيْخِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "كُنْتُ بِبَابِ الْجَنَّةِ إِذَا غَامَّةٌ مَنِ يَدْخُلُهَا الْفُقَرَاءُ، إِلَّا أَهْلَ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ، إِلَّا أَهْلَ الثَّارِ فَقَدْ أَمَرَ بِهِمْ إِلَى الثَّارِ، وَوَقَفْتُ عَلَى بَابِ الثَّارِ، إِذَا غَامَّةٌ مَنِ يَدْخُلُهَا النِّسَاءُ" (٣).

يَا سَاكِنًا بِحُلَّةِ حَلِيَّتِهَا الْعَزِيزَةِ غُرُورٍ، وَحِلَاوَتِهَا مَرِيرَةِ الْمُرُورِ، أَمَا تَرَى مَعَاوِلَ النِّقْصِ قَدْ أَحَاطَتْ بِحَاطِطٍ بِحَاطِطٍ مَا عَوَّلَ عَلَيْهِ الْأَمَلُ، أَمَا تَحْسُ بُزُولَ الزُّوَالِ عَلَى قَوَاعِدِ اللُّلُؤَاتِ قَدْ اشْتَمَلَتْ، يَا طَالِبَ الْأُخْرَى دَعِ الدُّنْيَا لِيُطْلَاقَهَا، وَيَا مُحِبَّ الْأُولَى خُلْهَا لِأَحِبَّابِهَا هَلْ هِيَ إِلَّا قَاطِعٌ يَقْطَعُ عَنَّا، وَيَعُوقُ إِنْ سَمِعْتَ بِالْدُّنْيَا، فَهِيَ فِي الْمَعْنَى نَسْرٌ وَيَعُوقُ، فَانْظُرْ بِهَا لَا إِلَيْهَا، وَاحْذَرْ مِنْهَا لَا تَعُولُ

(١) مَا بَيْنَ الْمَعْكُوفَيْنِ سَاقِطٌ مِنَ الْأَصْلِ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٠٤/١)، رَقْمُ (٢٧٧٦)، قَالَ الْمُنْزَلِيُّ (٦٥/٤): إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ. وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ (٢٦٣/١٠): فِيهِ ذَوِيدٌ غَيْرُ مَنْسُوبٍ فَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي رَوَى عَنْ سَقِيانٍ فَقَدْ ذَكَرَهُ الْعَجَلِيُّ فِي كِتَابِ الثَّقَاتِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَهُ لَمْ أَهْرِفْهُ، وَبَقِيَّةُ رَجُلِهِ رَجَالُ الصَّحِيحِ، غَيْرُ مُسْلِمٍ بِنِ بَشِيرٍ، وَهُوَ ثَقَّةٌ. وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: أَحْمَدُ فِي الرَّعْدِ (٣٩٩/١).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٩٩٤/٥)، رَقْمُ (٤٩٠٠)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٩٦/٤)، رَقْمُ (٢٧٣٦)، وَابْنُ حِبَّانَ (٤١٧/٢)، رَقْمُ (٦٩٢)، وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: الْخَطِيبُ (١٤٩/٥).

عليها، إنما هي كعش لا يطلبه الطائر الكبير، وإنما يختاره الفرخ الصغير، فإذا ثبت ريشه طار، وإذا قدر على اتباع آثار الطائر ثار.

مضى ثبت ريش نفسك على جناح دينك، فتطير من عش جهلك إلى منازل أهللك، الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وهي في قلبك أعظم من الآخرة، ما نظر إليها منذ خلقها، ولا غاب عن قلبك لحظة جها.

يا هذا! أليس من المروءة أن تغض ما يحب حيك إن كنت رجلاً، فوافق في البعض وإن ضعفت فتاجر بالصبر، كيف يلحق بالسائقين والرك بوزرها، يا هذا! الدنيا دار قلعة لا حصن قلعة، فرحها بجل، وترحها بطول، إنما هي كأس ما يناوله من كأس، إن الدين لا يزال متمزقاً ما دام القلب بها متعلقاً، لو صحت فكرة عشاقها في مقايح أخلاقها لرفضوها لعيوبها، ولقبضوها لذنوبها، كلهم لم يصبوا عيب عيها، ولم يعلموا أخصاب شبيها.

[اليسط]

لَا تَلْقَ دَعْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُخْتَرٍ مَا دَامَ تَضَكَّبَ فِيهِ رَوْحُكَ الْبَدَنُ
فَمَا تَدِيمُ سُرُورُ مَا سُورَتْ بِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِدَ الْخَزَنُ
يَمَّا أَهْرَ بِأَفْلٍ الْعِشْقِ أَنَّهُمْ هَوُوا وَمَا عَزَقُوا الدُّنْيَا وَمَا فُطِنُوا
تَفَنَّى عُيُونُهُمْ دَمْعًا وَأَنْفُسُهُمْ فِي كُلِّ إِسْرٍ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ
تَحَلَّلُوا خَمَلَتُكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ فَكُلُّ يَمِينٍ عَلَى الْيَوْمِ مُؤْتَمِنُ
مَا فِي عَوَاجِجِكُمْ مِنْ مُهَجَّبِي عِزٍّ إِنْ مِتُّ شَوْقًا وَلَا بِهَا نَهْا نَمِنُ
سَهَرْتُ بَعْدَ رَجِيلِي وَخَشَعْتُ لَهُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مِرْبَرِي وَأَرْغَوَى الْوَسْنُ
كم نقصت الدنيا من حصون حصينه، كم خانت وقد ظنت أمينة، إنها وإن جادت بحلة غيبه، كم خاصمت شحيها وعادت فمادت تلك النفوس حزينه لعب ولهو وزينه، كم منحت وورثت، كم حالقت ونكثت، كم حلفت لمحبي وحتت، فقطعت يمينها يمينه لعب ولهو وزينه.

إن مالت مالت، وإن حلت حلت، كم نصبت للورى وغالت، على أنها قد رجرت وقالت، فأين الفهم الرزينة؟ ١

أين من سعى ليها ولها؟ أين من لهى بها ولها؟ اكسبه حين فقدتها ولها،
ولها السماء مكينة، ظنّها قارون قد صالحته، وظنّها كسرى قد نصحتّه،
واعتقدّها قيصر قد أصلحته، وكلهم والله قد ذبحته وكسرت سكينه.

طالبها بشقى، ودرتها لا تبقى، أنزّرها على ما يبقى، هذه والله الغيبة،
هرب منها الصديق ذو السكينة، ووافق الفاروق في الهجر قرينه، وفرقها عثمان
 فلم يخل بالمهينه، وحذرّها عليّ وقد كن له دروع يقين يقينه، إذا خاف هؤلاء
شرها فمن نفسك المسكينه؟!

ضيعت عمرك وتريد حفظها، ووعظتك بغيرها فلم تسمع وعظها، يا
مُدبر! خفف لفظها، وانقط من تحتها السبّه.

أين من أذهب العمر في المعنى وولى، ولا ليت ما مر عليك لم يحمل
عليك كلا كلا، بل ليت حمر الهوى الذي قد حال خلا خلا، تالله ما صحبه
التي لا تراقب إلا إلا صحبة السفينة، لعب ولهو وزينه.

الفصل السابع والثمانون

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى

اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التَّحْرِيم: ٨]

رَوَى الْأَعْمَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ ^(١) .

جملة ما روى الأعر ثلاث أحاديث، انفرد بالإخراج عنه مسلم، ولم يخرج له إلا هذا الحديث الذي ذكرناه، وليس في الصحابة من اسمه الأعر سواء، وفي الصحابة جماعة ليس لأسماءهم مثل، ومثل: أبو اللخم، أحمد بن عجلان، أسمر، أنفع، حندرة، حوكان، فحمة، خطيب، صغار، صدى، صنابح، عكاف، فيروز، كنان، محيصة، المقداد، نيشة، نعيمان، النواص، وائلة، وابصة، هجاج، الهلب، يزداد.

وفي المحدثين خلق كثير ليس لأسماءهم مثل، يطول ذكرهم إلا من أعجبهم (مسدد البصري) لاسمه، أمثال: غير أنه ليس لأسماء أبائه مثال، لأنه مسدد بن مسرهد بن مغرل بن مغرل بن مرغل بن أرندل بن عرندل بن ماشك الأسدي، ذكره ابن ماكولا.

وَرَوَى صَفْوَانُ بْنُ عَشَّالٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ مِنْ قِبَلِ الشَّغْرِ بَابًا مَبِيزَةً أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً فَتَنَحُّهُ اللَّهُ لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خُلِقَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَلَا يُغْلِقُهُ حَتَّى تَقْلُعَ الشَّمْسُ مِئَةً ^(٢) .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٧٦)، رقم (٣٥٠٧٢).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٨/ ٥٦)، رقم (٧٣٥٣).

وَدَوَّىٰ عَلَيْهِ بَنَ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: * مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْخِرُ ذَنْبًا فَيَتَرَهَّنَ ثُمَّ يُصَلِّيَ رَفْعَتَيْنِ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا غُفِرَ لَهُ ^(١).

وجملة ما روى أبو بكر الصديق رضي الله عنه مائة حديث واثنان وأربعون حديثاً، أخرج له منها في "الصحيحين" ثمانية عشر، المتفق عليه منها ستة، وانفرد البخاري بأحد عشر ومسلم بواحد، وجملة ما روى عمر رضي الله عنه خمس مائة وسبعة وثلاثون حديثاً، أخرج له منها في "الصحيحين" أحد وثمانون حديثاً، المتفق عليه منها ثمانية وستون، وانفرد البخاري بثمانية ومسلم بخمسة، وجملة ما روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه خمس مائة سبعة وثلاثون حديثاً مثل عمر، أخرج له في "الصحيحين" أربعة وأربعون، المتفق عليها منها عشرون، وانفرد البخاري بتسعة، ومسلم بخمسة عشر.

وأما أبو بكر فاسمه عبد الله بن عثمان، وجملة من في الصحابة اسمه عبد الله مائتان وعشرون رجلاً، ليس فيهم من اسمه عبد الله بن عثمان سوى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وآخر من بني أسيد، غير أن الأسدي لم يرو شيئاً.

وأما عمر فجملة من في الصحابة من اسمه عمر ثمانية، كلهم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وليس فيهم عمر بن الخطاب سواء، وجملة من يجيء في الحديث اسمه عمر بن الخطاب سبعة هو أحدهم، الثاني: كوفي، روى عنه جابر الواسطي، الثالث: راسبي، روى عن سويد، الرابع: إسكندراني حدث عن عصام، الخامس: عتزي، روى عن أبيه، السادس: بصري، روى عن معمر، السابع: سجستاني روى عن محمد بن يوسف.

وأما عثمان، فجملة من في الصحابة اسمه عثمان ثلاثة، ليس فيهم عثمان

(١) أخرجه أبو داود (٨٦/٢)، رقم (١٥٢١)، والترمذي (٢٥٧/٢)، رقم (٤٠٦) وقال: حسن، والنسائي في الكبرى (١٠٩/٦)، رقم (١٠٢٤٧)، وابن ماجه (٤٤٦/١)، رقم (١٣٩٥)، وابن حبان (٣٨٩/٢)، رقم (٦٢٣)، وأبو يعلى (٢٥/١)، رقم (٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٠١/٥)، رقم (٧٠٧٧)، والضياء (٨٢/١)، رقم (٧) وقال: إسناده صحيح.

ابن عوفان غيره، وليس في الحديث عثمان بن عفان سوى اثنين هو أحدهم، الثاني: سجزي، روى عن معمر.

وأما علي، فجملة من في الصحابة اسمه علي ثمانية، ليس فيهم ابن أبي طالب سواء، وجملة من يجيء في الحديث اسمه علي بن أبي طالب ثمانية، هو أحدهم، الثاني: بصري، روى عن حماد بن سلمة، الثالث: يقال له الدهقان، روى عن الهيثم، الرابع: حراني روى عنه أبو سهل القطان، الخامس: استربادي، روى عنه الإسماعيلي، السادس: تنوخي، روى عن أبي بكر بن مجاهد، السابع: يقال له: اليكر أبادي، روى عن أحمد بن عدي، الثامن: يقال له: ابن يمان، حدثنا عنه شيوعنا.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ اثْنَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَتَرَأَّسُنَا عَبْدٌ جُنْدٌ ذُنُوبٌ يَهْبِيهِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا غُفِرَ لَهُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِمَّا يُكَلِّمُ فِيهِ رَحْمَتُهُ إِنَّهُ يَلْقَى عِندَ مُخْرَجٍ﴾ [النساء: ١١٠]، وَالثَّانِيَةُ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَسِيئَةً أَوْ جَنَحُوا بِآثَامِهِمْ تَذَكَّرُوا فَكُنْهُمْ أَلْوَنَ الْأَبْدَانِ﴾.

وفي "الصحيحين" من حديث ابن مسعود، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ بِأَرْضٍ ذَوِيَّةٍ فَهَلَكَتْ نَعْمَةُ رَاجِلَتِهِ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَزَادَهُ وَمَا يُضْلِحُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ دُعِبَتْ فَخَرَجَ فِي طَلَبِهَا حَتَّى إِذَا أَفْرَكُ الْمَوْتُ وَلَمْ يَجِدْهَا، قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي أَهْلَلْتُهَا فِيهِ فَأَمُوتَ فِيهِ فَأَتَى مَكَانَهُ فَفَعَلَتْهُ عِزَّتُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاجِلَتُهُ جُنْدٌ زَائِبَةٌ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَزَادَهُ وَمَا يُضْلِحُهُ" (١).

وأكثر القراء (٢) فتحوا نون (نصوح)، وعن عاصم (نصوحًا) بضم النون. قال الزجاج: من فتح فعلى صفة التوبة، والمعنى: توبة بالغة في النصح، وفعل من أسماء الفاعلين التي يستعمل للمبالغة في الوصف، تقول: صبور، شكور، ومن ضم لمعناه: ينصحون فيها نصوحًا.

(١) أخرجه مسلم (٤/٢١٠٦)، رقم (٢٦٧٥).

(٢) انظر: إرباز المعاني ٢/ ٤٩٠.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْقَوْمَةُ النَّصُوحُ أَنْ يَقُوتَ الْعَبْدُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَلَا يَقُودُ».

وَسُئِلَ الْحَسَنُ عَنِ الْقَوْمَةِ النَّصُوحِ، قَالَ: «تَدَمُّ بِالْقَلْبِ، وَاسْتِغْفَارُ بِالْأَرْكَانِ، وَتَرْكُ بِالْمَوَارِجِ، وَاجْتِنَاءُ أَنْ لَا يَقُودَ».

ثُمَّ قَالَ حَبِيبُ اللَّهِ بْنُ وَائِلٍ زَاهِدٌ قُرَيْبِي، فَقَالَ لِعَلَّامٍ يَوْمًا: اشْدُدْ كِتَافِي، وَعَفِّرْ خَدِّي بِالْمَرْزَبِ، فَقَعَلَ الْعَلَّامُ، فَقَالَ: مَلِكِي ذَا الرَّجِيلِ إِلَيْكَ، وَلَا تَرَاهُ لِي، فَأَعْتَبِدْ أَنْتَ لِي، فَتَعَلَّمَنِي، ثُمَّ مَاتَ، فَسَمِعُوا نَادِيًا يَقُولُ: اسْتَخَانَ الْعَبْدُ لِمَوْلَاهُ فَقَتَلَهُ.

أَتَرَى يَصْلَحُ هَذَا الْقَلْبَ بَعْدَ الْفَسَادِ، أَتَرَى يُبْدِلُ بِالْبِهَاضِ هَذَا السَّوَادَ، كَمْ أَقُولُ عَسَى أَصْلَحَ وَلَعَلَّ، وَكَلِمَا اسْتَوَى قَدَمِي زَلَّ، كَمْ تَتَغَيَّرُ الْأَحْوَالُ وَمَا أَتَغَيَّرُ، كَمْ يَتَضَعُ لِي الطَّرِيقَ وَاتَّحِيرُ.

[اليسيط]

يَلُمُّ أَمْرًا مِنَ الْإِيمَانِ أَظْلَمُ مِنْهُ قَبِيْهَاتِ أَقْلَبِ أَمْرًا خَيْرَ مَطْلُوبٍ
وَحَاجَةٍ أَتَفَاهَا وَتُظْلَمُنِي كَأَنَّهَا حَاجَةٌ فِي نَفْسِي يُعْطَى
إِلَى كَمْ أَقُولُ سَأُتُوبُ؟ مَتَى يَخْجِلُ اللِّسَانُ الْكُذُوبَ؟ أَتَرَى يَصْلَحُ هَذَا
الْأَمْرُ؟ أَتَرَى يَرِاقُ هَذَا الْخَمْرُ؟ حَبِذَا يَوْمٌ تَفِي حَبِذَا، وَأَسَفَا إِنْ جَاءَ الْمَوْتُ
هَكَذَا.

[الرملي]

ثَلَمْنَا أَثْلَكَ يَوْمًا ضَالِحًا عَرَضَ الْمَعْرُوءَةُ لِي فِي أَتْلِي
أَقَطَعُ الذَّمَّ بِقَلْبِي عَنِ وَأَجْعَلِي عَمْرَةً مَا تُجْبِي
وَأَرَى الْإِيمَانَ لَا تُذْنِبِي الَّذِي أَرْزُجِي بِشُكِّ وَتُذْنِبِي أَجْلِي
يَا مَشْغُولًا عَنَّا بِمَنْ تَشَاغَلْتَ، يَا حَرَضًا عَن طَاعَتِنَا لَوْ عَرَفْتَنَا أَقْبَلْتَ،
لَوْ رَأَى أَبُوكَ عَلَى الذَّنْبِ أَبَاكَ، أَوْ شَاهَدَكَ عَلَى الزَّلِيلِ أَحَبُّكَ قَلَاكَ، أَمَا
أَنَا الَّذِي سَبَّكَ الْخَطَا وَغَطَّكَ، مَا أَقَطَعُ بَرِي وَلَوْ قَطَعْتَ شُكْرِي، وَمَنْ
كَذَاكَ.

[مجزوء الرجز]

مُتَّقِينَ غُلِيٍّ وَتَمَّا لَطَفِي عَنْكَ مُتَّقِينَ
يَا قَاطِعِي الْيَوْمِ لِمَنْ نَوَيْتَ بِغُلِيٍّ أَنْ تَجِيْلَ
يَتَا عَهْدٍ مِنْ يَوْمٍ: ﴿الْأَعْرَافُ: ١٧٢﴾، مَا أَجْعَلُ مَا حَلَّتْ، مَا
أَسْرَعَ مَا زَلَّتْ.

[الخفيف]

يَا بَنِي الْغُلُوِّ وَالْجَهَالَةِ مَا أَسْرَعَ مَا زَلَّتْ
لَوْ وَفَّقْتُمْ وَاحْتَلَفْتُمْ عَلَى غَمٍّ وَتَحَاذَافْتُمْ بِإِتِّفَاقٍ
وَزَمَانٍ الضُّيَا يَمُوتُ وَقَدْ أَنْ فَلَ إِثَابُهُ زَمَانٍ الْغُرَاقِ
وَالْقِيَالِي تَخْضِي سِرَاحًا وَتَمَّا يُلْ بَلْ مِثْلَهَا حَوَالَةً فِي الْبَقَايِ
إِخْوَانِي؛ أَفِيكُمْ عَازِمٌ عَلَى الصَّلَاحِ، أَفِيكُمْ مَحَبٌّ بِصَبَاحٍ مِنَ الْهَجَرِ، أَفِيكُمْ
خَوْفٌ وَجِدٌ يَفْلُقُ لِلْبَيْنِ، إِذَا وَقَعَتْ عَزِيمَةُ الْعَاصِي عَلَى فِرَاقٍ دَارَ الْمَعَاصِي هِيَ
مَرْكَبُ الْقَصْدِ، وَتَزُودُ لِسَفَرِ الْعَزْمِ، وَقَامَ عَلَى أَقْدَامِ الْجِدِّ، وَسَمِعَى عَلَى أَرْجَاءِ
الرَّجَاءِ، خَافَ مِنْ مَاصِرٍ قَلِقَةٍ، قَلَا قَلَّ عَيْشُهُ وَظَنَتْهُ، هَوَادِي إِلَيْهِ، فَيُتَلَقَّاءُ بِشِيرِ
﴿وَلَا تَأْتِسُوا﴾ [يُوسُفُ: ٨٧] فِي جَنْبِ ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ [الزُّمَرُ: ٥٣] بِخَلْعٍ:
﴿وَوَقَرُ الْإِي بِقَلِّ الْكُفَّةِ عَنْ عِيَادِهِ﴾ [الشُّورَى: ٢٥].

[الطويل]

لَيْسَ قَدِمَتْ مِنْ سَفَرَةِ الْهَجَرِ مِثْلُكُمْ تَلَقَّيْتُهَا بِالْوَضَلِ مِنْ قُلِّ جَانِبِ

الفصل الثامن والثمانون

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَمْثَرَ لَبَنَةٍ﴾ [القلم: ١٧]

الإشارة إلى أصحاب مكة، والمعنى: ابتليناهم بالجوع والفحط.
قال ابن قتيبة: (الابتلاء: الاختيار، ويُقال لِلْخَيْرِ: بلاءٌ، وَلِلشَّرِّ: بلاءٌ،
وَيُقَالُ: مِنَ الْاِخْتِيَارِ: بَلَوْتُهُ، أَبْلَوُهُ، يَلْوِي، وَمِنْ الْخَيْرِ: ابْتَلَيْتُهُ، ابْتَلَيْتُهُ بِلَاءً،
وَمِنْ الشَّرِّ: بِلَاءُ اللَّهِ، يَبْلُوهُ بِلَاءً).

والبلاء^(١) في القرآن على وجهين:

أحدهما: الاختيار: ﴿وَإِذْ بَخَّسَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

والثاني: النعمة: ﴿إِنَّكَ خَلَقْتَ الْفَلَاحَ الْيَوْمَ﴾ [الصافات: ١٠٦].

ومعنى (النصر منها): لنقطعن تحلمهم مصيحين في أول الصباح، ﴿لَا
تَسْتَفْرِجُوا﴾ [القلم: ١٨]، أي لا يقولون إن شاء الله، ﴿فَلَمَّا عَلِيَ طَلَبٌ﴾
[القلم: ١٩]، والطائف لا يكون إلا بالليل، ﴿بَيْنَ زَيْدٍ﴾ [القلم: ١٩]، أي:
من أمر ربك، ﴿فَتَسَبَّحْتَ﴾ [القلم: ٢٠] أصبح في القرآن على وجهين:

أحدهما: إدراك الصباح للمصبح ﴿فَتَسَبَّحْتَ كَأَنَّهُمْ﴾ [القلم: ٢٠].

الثاني: بمعنى صار، ومنه: ﴿فَتَسَبَّحْتُمْ بِحَمْدِهِ يَوْمَئِذٍ﴾ [آل عمران:

١٠٣].

و (الصريم): الليل، والمعنى: أصبحت سوداء كالليل مُحترقة.

قال ابن قتيبة: (وَالصَّرِيمُ: اللَّيْلُ وَالضُّبْحُ، وَكَذَلِكَ الْقَوْفُ يَنْغِي: الْأَعْلَى

(١) قال ابن قتيبة: أصل البلاء: الاختيار، ويقال للخير: بلاء، وللشر: بلاء، يقال من
الاختيار: بَلَوْتُهُ أَبْلَوُهُ يَلْوِي، والاسم بلاء.

ومن الخير: أَبْلَيْتُهُ بِلَاءً، ومن الشر: بِلَاءُ اللَّهِ يَبْلُوهُ بِلَاءً.

وَالْدُّوْدُ، وَالْجَوْدُ: الْإِيْتَهُ وَالْأَسْوَدُ، وَالْشَّدَقَةُ: الظُّلْمَةُ وَالضُّوءُ، وَالْجَلَلُ: الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْثَّاهِلُ: الْمُعْطَشَانُ وَالرَّيْثَانُ، وَالصَّارِخُ: الْمُسْتَفْعِي وَالْمُسْتَفْعِيَّةُ، وَالْهَاجِدُ: الْمُضْطَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِمْ، وَالرُّهُؤُ: الْإِزْتِفَاعُ وَالْأَسْجَادُ، وَالْقَرُّ: الْيَقِيْنُ وَالشَّدُّ، وَالْأَقْرَاءُ: الْحَيْضُ وَالْإِظْهَارُ، وَالْوَرَاءُ: الْحَلْفُ وَالْقَدَامُ، وَأَسْرَزَتْ الشَّيْءُ: أَخْفَيْتُهُ، وَأَسْرَزْتُهُ: أَغْلَقْتُهُ، وَأَخْفَيْتُ الشَّيْءَ: كَتَمْتُهُ وَأَخْفَيْتُهُ.

واعلم أنما أسرع الهلاك إلى تلك الجنة لما أجتت النفوس من البخل بالحق المستحق، وهذا وما بدى الإضرار إلى الفعل، فكيف بمن يضر ويفعل.

كانت هذه الجنة في دولة عيسى ابن مريم عليه السلام لبعض المؤمنين، فمات وترك التركة لثلاثة بنين، فاجتمع إيماء إيمانهم لضعف إيمانهم لضعف إيمانهم على حرمان المساكين، وعزموا على ما التزموا، فجزموا قبل الحصاد بحين، وتقاسموا وما تقاسموا، وأقسموا لنصرمتها مصبحين، فلما أن أوان الجداد جدوا قاصدين بالموق انفجار فوق الفجر، ليلا يفجأ فجهم فقير، فحلت لنشوطه عهدهم كف: ﴿لَا يَنْتَظِرُونَ﴾ [القلم: ١٨]، فاجتمع عليهم قبح القصد بحرمان الفقراء وسوء الأدب في ترك الاستثناء، ألم يسمعا قصة سليمان حين قال: (الأطوفن)، ونسى إن شاء الله كيف تجوزي على إهمال قيد المطلق، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت على شق بشق الولد، ولو جاهد في الاستثناء لجاهدوا، فلما أن عدم النبي الاستثناء ضر أطفار الظفر، فإن وجوده كقيل بالمشي لمن كفله، ألم يعلم أن يأجوج ومأجوج يؤمون كل يوم حفر السد، فإذا كادوا لما كادوا يرون من الشعاع شعاع الشمس عري عن تفهم من التقوى، فغدى يقوى ستحفرونه غدا، فإذا عادوا عاد، فإذا بلغ الكتاب أجله أنشأ مستعملهم يقول إن شاء الله، فيصيحون وما حال الحال، فبينما لهم حفر الحفر، فلما تاب أرياب ﴿لَا يَنْتَظِرُونَ﴾ [القلم: ١٨] في زعمهم على غرار عزمهم، حل بعقوة عقيلتهم لمقوتهم عقام عقوبة نطام، ﴿تَلَاكَ تِلْكَ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم: ١٩]، وذلك أن القدر رمى داءه إليها، فصارت رماقا، فقاموا حين قرون الصبح ذيل الدجى، فاستعجلوا بتحريض: ﴿إِن تَدْعُوا﴾ [القلم: ١٩]

٢٢]، واحتالوا الأنفس الشح إذ خافت الأنفس بحيلة يتخافتون، فبينما هم قد أحضروا ليحضروا بخان البخل، ضربت صدور صدورهم يد الحيرة، فحاروا في حير: ﴿إِنَّا نُنَزِّلُكَ﴾ [القلم: ٢٦].

فلما بانت لهم غيبة الخيبة وقعوا في حيف بيض: ﴿وَلَا تَكُنْ جِئْتَنِي﴾ [ص: ٣]، فقاموا بنوحون: ﴿إِنَّا نُنَزِّلُكَ﴾ [القلم: ٢٦]، وأبى مذكرهم يذكروهم بعد الفوت هفوات، ﴿أَوَّلَ لَقْدٍ لَّدُنَّا﴾ [القلم: ٢٧]، والحذار الحذار احذروا، وامنع حق هذا المال وإنما على النصيح إن قد قال.

الفصل التاسع والثمانون

في قوله تعالى: ﴿الْمَلَأَهُ نَارًا الْمَلَأَهُ﴾ [الحاقة: ١ - ٢]

﴿الْمَلَأَهُ﴾ [الحاقة: ١]: القيامة، سُميت بذلك لأن فيها حراق الأمور بحق كل إنسان بعمله من خيرٍ وشر.

وقوله: ﴿نَارًا الْمَلَأَهُ﴾ [الحاقة: ٢] استقهام معناه التعظيم لشأنها، كما تقول: زيد وما زيد على التعظيم لشأنه، ثم زاد في الترهيل لأمرها، فقال: ﴿وَمَا لَنُفِئَهُ نَارًا الْمَلَأَهُ﴾ [الحاقة: ٣]؛ أي: لأنك لم تعاقبها ولد تدر ما فيها، رَوَى عُثَيْبَةُ بْنُ عُقْبَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: * لَوْ أَنَّ رَجُلًا سَجَدَ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمٍ وَلِدَ إِلَى يَوْمٍ يَخُوتُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى لَحَقَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١).

وإنما سُميت القيامة بالقارعة؛ لأنها تفرق القلوب بالأهوال.

وفي الطاغية ثلاثة أقوال:

أحدها: طغيانهم وكفرهم، قاله ابن عباس .

الثاني: بالصحة الطاغية، قاله قتادة، وذلك لأنها جاوزت مقدار الصياح فأهلكتهم .

الثالث: أن الطاغية عاقرة ناقة صالح، قاله ابن زيد.

(١) أخرجه أحمد (١/١٨٥، رقم ١٧٦٨٦)، قال الهيثمي (١٠/٢٢٥): إسناده جيد، والخازن في التاريخ الكبير (١/١٥)، ترجمة ٥ محمد بن أبي حمزة، والطبراني (١٧/١٢٢، رقم ٣٠٣)، قال المنذرى (٤/٢١٤): رواه ثقات إلا بقية. وقال الهيثمي (١٠/٣٥٨): فيه بقية، وهو مدلس، وبقيته رجاله ثقات. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/١٧٩، رقم ٧٦٧).

وال(الصرصر): الباردة، وإنما قيل لها عاتية لأنها جاوزت المقدار، ولقد عنت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، والتسخير: استعمال الشيء بالاعتدال.

وال(الخُصوم): المتتابعة، و(أعجاز النخل): أصولها، و(الخاوية): البالية، و(الباقية): البقية.

لما تحيز قوم عاد عاد عاد في ظل ظلل ظلالتهم حين أمل أمل حديث البقاء، وروى ذكر زوالهم، وطار بريش رياشهم عن وكر الفكر، ولم يُبصروا بالبصائر كيف لحا فجح المكر، ومروا في مشارع عذاب المهوي، ناسين مُر عذابها، رافلين في حلل الغفلة بالأمنية عن المنية فأذابها، فأقبل هود يهديهم ويُباديهم ﴿أَنْتَ أَتَعْبُدُوا إِلَهًا﴾ [المؤمنون: ٣٢]، واذكرهم بعد: ﴿وَرَأَدْتُمْ فِي الْغَلَقِ بِشِقَاقٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وضمن لهم وعد: ﴿وَوَيْدَعْتُمْ قُوَّةَ﴾ [هود: ٥٢]، فأشرفوا عليه من شرفات الشرف من دروع: ﴿مَنْ أَقْدَرُ مِنَّا قُوَّةَ﴾ [فصلت: ١٥]، فبرز في براز حرب: ﴿يَكِيدُونِ﴾ [هود: ٥٥]، وجال في صف: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾ [هود: ٥٦]، فنازلوه يعتاد: ﴿عَادِيًا﴾ [الأحقاف: ٢٢]، فسحب سحب العذاب ذيل الأدبار بإقباله إلى قبائلهم، فظنوه لما اعترض عارض مطر، فتهادوا بتباشير البشارة بتهادي بشارة: ﴿هَذَا عَرِيسٌ مُتَوَدِّعٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فصاح بليل البلايل فيلبل: ﴿يَلَّ يَلَّ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ يَتَ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فكان كلما دنا وترامى ما كان كأن لم يكن، فحفظت عذاب مشاجرتهم هودًا بجنى مَنْ جَنَى مِنْ جَنَى مَا جَنَى في معنى: ﴿فَمَا أَتَقَنُّ عَنْهُمْ مَتَّعُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فراحت ربح الذنوب لكي تسم الأدبار يكي الإديار، فعبجوا منها عجيج الأدبر، فلم تزل تكوي تكوينهم بميسم العدم، وتلوي تلوينهم إلى حياض دم الندم، وتكفي عليهم الرمال فتكفي تكفينهم، وبرزهم إلى البراز عن مصون حصون ثمن يقينًا يقينهم، فإذا أصبحت أخذت تنزع في نوم: ﴿تَتَنَبَّأُ النَّاسُ﴾ [القمر: ٢٠]، فإذا أمسّت أوقفت غريظهم في غرض: ﴿كَلَّهْمُ أَكْبَرُ قَلِي﴾ [القمر: ٢٠]، فما برحت بارحتهم عن براحتهم حتى برحت بهم، ولا أقلت

قلوع قلاعهم فدامت عليهم آفة وداء لا يقبل الفداء: ﴿سَبَّحَ بُنَايَ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمْ حُشُوبًا﴾ [الحاقة: ٧]، فحسوا ما أذاقتهم من سوزها ما سواها، وسقوا من قفر: ﴿أَلَا يَتَذَكَّرُ﴾ [هود: ٦٠] إلى يوم: ﴿وَأَتَّبِعُوا﴾ [هود: ٦٠]، فلو عبرت في معبر الاعتبار لترى ما آل إليه مآلهم، لتلمحت ما لاح لآلئهم عن فك فك الفكر، ورأيت الثَّوِيَّ كيف الثَّوِيَّ عليهم، وكيف الثَّوِيَّ كيف نوى الدنو إليهم، وتواردت الحشرات بحسر عن قناعها فم الآسى وأنامل الندم قد جليت بتلاطم أمواج اللطم على فوات اللطائم حدود الأسف، وقد أحاط بهم حائط الحط على حزن الحزن في حير الحيرة.

فالنجاة النجاة من شر الخلاف، والوفا الوفا قبل لحاق الإسلاف، والحدز الحدز من خطوات الخطايا، والمهرب المهرب قبل بث الأمانى بالمنايا قبل أن تنزلوا الكفات، فتخلقوا بالرفات، فيما بينكم وبين ما إذ أحل من آفات آفات، إلا أن تعايروا الوفاة وفات.

الفصل التسعون

في قوله تعالى: ﴿يَا نُوحُ خُذْ عَلَيْكَ زِينَةَكَ﴾

[نوح: ٢٥]

(مما) أصله من ما، والمعنى: من خطاياهم؛ أي: من أجلها، ومعنى (أُذْخِلُوا): سيدخلون في الآخرة.

قال الضحاك: (أدخلوا في الدنيا؛ لأنهم كانوا يعرفون ويحرقون في النار من جانب).

لما غم أهل الأرض العمى عما خلقوا له، بعث الله نوحاً لجلاء أبصار البصائر، فمكث يُدأبهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكلهم أبصر ولكن تعامى، فلاح الاحيى عدم فلاحهم، فولاهم الصلا يأساً يأساً من صلاحهم، وبعث شكايه الأذى في مسطور: ﴿إِنَّمَا عَصَوْكَ﴾ [نوح: ٢١]، فأذن مؤذن الهلاك عند دخول وقت الطرد على باب دار إعداء دعاتهم، وكُشف لئبهم ما انطوى من الحبث في طويانهم برمز: ﴿لَئِنْ يَأْمُرْ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ نَجَّى﴾ [هود: ٣٦]، فقام نوح في محراب: ﴿لَا تَدْرُ﴾ [نوح: ٢٦]، فأنته رسالة: ﴿إِنِّي أَمْسَعُ نَفْثَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وتقدم إليه بريد الإعلام بالغضب بإنهاء نهي: ﴿وَلَا تُخْلِفْنِي﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فانتدب لعمل السفينة والسفهاء يرفلون في حبل الغفلة عما قد أعد لهم، ويتكثرون على أرائك الاستهزاء ضاحكين من فعله، ولسان الوعيد يُناديهم وسط ناديبهم: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ [هود: ٣٨]، فلما انهال كتيب الإمهال، وانقطع سلك التأخير غرست شمس الانتظار، فادلهمت ليالي عقاب العقاب، فلما انسدت الظلمة، وقات النور فار الشور، فقبل يا نوح قد حان حين الحين، ﴿فَاسْأَلْهُ مِنَّا مِنْ سَكْنٍ نَتَمَتَّى

قَتِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فتخلف خلف نوح خلف من ولده، فمد يد الحقو
ليأخذه بيده، ﴿يَبْتَغِي الرِّكَابَ كَمَا﴾ [هود: ٤٢]، فأجاب عن ضمير خائض
في مساء المساوي: ﴿سَقَاوَنَ﴾ [هود: ٤٣]، فرد عليه بلسان ﴿لَا نَجِيهَ الْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤٣]، فلما انسلخ عن نوح نهار الانتهاز للولد، بقيت
صباية شفق الشفقة، فنادى مستلباً بقية الوقت: ﴿إِنِّي أَنِّي مِنْ أَعْيُنِنَا﴾ [هود:
٤٥]، فقبل له: أشغلك حب الولد عن تفهم الخطاب، أما قيل لك: ﴿وَأَعْلَفَكَ
إِلَّا مَنْ سَخَّرَ نَحْسَهُ الْقَوْلَ﴾ [هود: ٤٥].

أما تلمحت حاجب اللفظ كيف رد طفيلي النسب بقمعه إلا فكانك ما
كنت معنا إذ ألمعنا المعنى، أما علمت أن المخالفة تقطع نسب ذي النسب
﴿إِنَّهُ لَشَرٌّ مِنْ أَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٤٦]، والموافقة تنسب من لا نسب له " سَلَمَانُ
وَبَنُوهُ"^(١)، فلما انتقم من العصاة بما يكفي، وكفت كف النجاة كف الأرض
بفسر: ﴿تَلَيَّنَ﴾ [هود: ٤٤]، وقطع جرع جرع السماء في وكف دمعها بظفر:
﴿أَقْبَى﴾ [هود: ٤٤]، وزود الهالكون في سفر ضلالتهم زاد الطرد في مزود
وقيل: ﴿بِمَا يَلْقَوْنَ الْكَاسِيَةَ﴾ [هود: ٤٤]، ونوديت نجوة الجودي: جودي
بإنجاء غرقى المسير، فأسقرت بكشف تقاب الطوفان بعد أن ظهر على ظهرها،
ومزقت ثوب الغرق، فصدر رافئاً عن رفاتها عن صدرها، ولقيت سفر السلامة
بمصاصحة تميد صفحها، فجعل مكان غناء الغواني للفرح بالقادمين بشارة النجاة
ببشر وجه البركات في وجوه السالمين، ﴿يَكُونُ أَقْبَى يَكُونُ بِنَا وَرَكَّتْ﴾
[هود: ٤٨].

يا غافلاً: قد طاف الموت حول دارك، فتدارك قبل تدارك العجز وقت
اقتدارك، تالله لقد فار تنور الهلاك وطوفان التلف، فإن لم تركب في سفينة نوح
التفرح على قبح الذنب لتهلكن في صرصر الإصرار في مرج الموج، يا هذا:

(١) أخرجه ابن سعد (٨٢/٤)، والطبراني (٢١٢/٦)، رقم (٦٠٤٠)، قال الهيثمي (٦/١٣٠):
فيه كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه،
وفيه رجاله ثقات، والحاكم (٦٩١/٣)، رقم (٦٥٤١)، وابن عساكر (٤٠٨/٢٩).

أرسل بضائع الإيمان في سفينة الإنقاذ ﴿إِلَّا يَلْعَنُ لَكَ تَكْفُرًا بِكَلْبِهِ إِلَّا يَسْتَقِ الْأَنْثَرِينَ﴾ [التحل: ٧]، وأرسلها إلى ساحل الصدق مُستعدة بريح الفلاح أن تهب، فتحت بحر الهوى، فإذا حان حين الحين، فقل عند ركوبها ومسيرها: ﴿يَسِّرْ أَقْوَمَ مَجْرَمَهَا وَتَرْتَمَهَا﴾ [هود: ٤١]، لعلها بجودة متاعها تستوي على جودي القبول، فتنادي من مجب الغيوب: ﴿أَفَرِيطَ يَسْتَوِي يَا وَرَكَّتْ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

الفصل الحادي والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿يُؤْتِيكَ الْثَنُّ﴾ [الإنسان، ٧]

قال الفراء: (فيها إضمار، كانوا يُوفون بالثَنِّ، ووفيت وأوفيت، والثَنُّ في اللغة الإيجاب، والمعنى: يوفون بالواجب عليهم ما التزموه من أنفسهم، واعلم أنما مدحوا على الوفاء لا على الثَنِّ).

وفي "الضَّحِيحَيْنِ" مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَهَى عَنِ الثَّنِّ وَقَالَ: " لَا يُرَى مِنْ قَدْرِ إِنَّمَا يَسْتَخْرِجُ مِنَ الْبَيْطِلِ ".

وقال عبد الله بن المبارك: الثَنُّ مكروه في الطاعة والمعصية.

عبد الله بن المبارك ستة أنفس:

أحدهم: الذي حكينا عنه، وهو المروزي، أحد أئمة المسلمين.

الثاني: بغدادي، روى عن همام بن يحيى.

الثالث: يروي عن أبي عوانة.

الرابع: بخاري، روى عنه سهل بن شاذويه.

الخامس: جوهرى، روى عن أبي الوليد الطيالسي.

السادس: شيخ روى عنه أبو بكر الأثرم.

ومعنى ﴿ثَنُّكَ﴾ [الإنسان: ٧]: فاشيا مُتَشَرِّفاً.

قال مُقاتل: (كان فاشياً في السموات فانشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعَت الملائكة، وكسرت الشمس والقمر، وفي الأرض: فنسفت الجبال، وغارت المياه، وتكس كل شيء على وجه الأرض من جبل وبنايا).

وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّامَ عَنْ حَيْدٍ﴾ [الإنسان: ٨]، والطعام^(١) في القرآن على أربعة أوجه:

- أحدها: الشراب: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩].
 - الثاني: الذبايح: ﴿وَتَقْتُلُوا الَّذِينَ كَفَرُوا كَيْفَ حَبَّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥].
 - الثالث: السمك: ﴿لَكُمْ مِنْهُ يَبْرُ وَطَعْنُهُ﴾ [المائدة: ٩٦].
 - الرابع: كلما يُطعم: ﴿وَإِذَا طَعْنْتُمْ فَانْكَبُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣].
- والهاء في ﴿حَيْدٍ﴾ [الإنسان: ٨] بعضهم يردها إلى الطعام وهو قول الجمهور.

وقال الداراي: (ترجع إلى الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في علي رضي الله عنه وأهل بيته).

كان للنبي صلى الله عليه وسلم بنات فضيلتهن فاطمة، وزوجات سبقتهن عائشة؛ لأن اختيار القدر لا يجابي في التساوي، ﴿يَسْتَلِي يَمَلُو وَيَجِرُ وَيَقْبَلُ تَعْتَبُهَا حَلَّ يَحْيَى فِي الْكُفْرِ﴾ [الرعد: ٤].

(١) الطعام: اسمٌ لما أُكُلَ، يقال: طَعْنْتُ الشيءَ طَعْنًا، وَاسْتَطَعْتُمْ فَلَاؤَ الْحَبِيبِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَهُ، وَفِي الْحَبِيبِ: " إِذَا اسْتَطَعْتُمْ الْإِمَامَ فَأَلْبِسُوهُ "، يقول: إِذَا اسْتَطَعْتُمْ فَافْتَحُوا عَلَيْهِ.

والإقحام: يُلْعَقُ فِي كُلِّ مَا يُطْعَمُ، عَلَى الْمَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وَقَالَ الشَّيْخُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي زَمَرِهِ: " فُلْهَا طَعَامٌ لَكُمْ، وَبِفَاهِ شَمٌ ".

وَيُقَالُ: زَجَلْ طَاعِمٌ، أَي: حَسَنَ الْخَالِ فِي التَّطْعِمِ. وَزَجَلْ بِطَعَامٍ: تَخَيَّرَ الْفَرَسُ. وَبَطَعَمَ: تَخَيَّرَ الْأَكْلِي. وَطَعَمَ: مَزَّوَلَّ. وَطَعْنَةُ: الْمَأْكَلَةُ.

وَيُقَالُ لِلْقَوْسِ: الطَّعْنَةُ؛ لِأَنَّهَا تُطْعَمُ ضَاجِبَتَا الشَّيْءِ، قَالَ أَبُو الرَّبِيعِ: [السيوطي]
رَبِي الشَّيْءِ مِنَ الشَّرَائِبِ طَعْنَةً

وَيُقَالُ: أَطْعَمْتُ الشَّخْصَ أَطْرَفَ فَرْعِهِ، وَطَعْنُهُ: الْفَتْوَى، يُقَالُ: لَطَعْتُمْ لَطْعَةً، أَي: دَقُّ لَشْتٍ، فَالطَّعْمُ: عَرَضٌ يُدْرِكُ بِالذُّوقِ.

وَيُقَالُ: فَلَاؤُ حَبِيبٍ طَعْنُهُ، إِذَا كَانَ زَوْجِي الْكُفْرِ، وَيُقَالُ: لَدَّ طَاعِمٌ، يَقُولُ: مَا لِي طَعْنِي.

كان له من الذكور: القاسم، وعبد الله وهو الطيب والظاهر، لقبان له، وإبراهيم من مارية، ومن الإناث: زينب ورقية وأم كلثوم وقاطمة، وكانت قاطمة في السن الصغرى، وفي القدر الكبرى، وما روي عنه سواها، فإنها روت ثمانية عشر حديثاً، أخرج لها في "الصحيحين" حديث واحد متفق عليه.

لما نهض علي رضي الله عنه لخطبتها، طرق بأنامل رجائه أرجاء باب الخطبة، فمشى إليه الإذن بالإذن على عجل العجل، فتقد صدقه في الرغبة قبل نقد الصداق، فجهزت إليه بالإجهاز على عدو الزهد قبل الجهاز، ولم يرض لها جهاز الدنيا لموافقة البضعة ما هي منه في مأمور: ﴿لَا تَكُنَّ مِثْلَهُ﴾ [الحجر: ٨٨]، وكان فكان الجهاز على معنى النقد، وإنما وقع النقد على ذرع والذرع بقى، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي، يقطع بيداء القدس وأُمّ بالجهاز صاحب الشرع، فحلاها الرسول بحلية "قاطمة بضعة مني"^(١)، وعقد لها عقداً خرزات نظامه "إِنَّ اللَّهَ يَلْبِسُ لِعَبْدِكَ وَيَرْضَى لِرَبِّكَ"^(٢)، وبعث بين يديها وصالف "غُضُّوا أَنْفَارَكُمْ"، ونصب لها سدة "أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةً نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ"^(٣)، وأدخلها في حلة الحال الحالية، عليها قناع القناعة ورداء رداء الهوى، يسمى على فضاء الفضائل إلى حلوة الحلوة،

(١) أخرجه البخاري (٣/١٣٦٤)، رقم (٣٥٢٣)، ومسلم (٤/١٩٠٣)، رقم (٢٤٤٩)، وأبو داود (٢/٢٢٥)، رقم (٢٠٦٩)، وابن ماجه (١/٦٤٤)، رقم (١٩٩٩)، وأخرجه أيضاً: ابن حبان (١٥/٤٠٧)، رقم (٦٩٥٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى في المعجم (١/١٩٠)، رقم (٢٢٠)، والطبراني (١/١٠٨)، رقم (١٨٢) قال الهيثمي (٩/٢٠٣): إسناده حسن. والحاكم (٣/١٦٧)، رقم (٤٧٣٠) وقال: صحيح الإسناد. وابن عساکر (٣/١٥٦). وأخرجه أيضاً: ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني (٥/٣٦٣)، رقم (٢٩٥٩)، وابن عدي (٢/٣٥١)، ترجمة ٤٨١ الحسين بن زيد بن علي، وقال: أرجو أنه لا بأس به إلا أنه وجدت في بعض حديثه التكرار.

(٣) أخرجه البخاري (٣/١٣٦٦)، رقم (٣٤٢٦)، وأخرجه أيضاً: مسلم (٤/١٩٠٤)، رقم (٢٤٥٠).

حتى أجلس على منصة النص، فأمر الله عز وجل قيلة غرسها شجر الجنان، فحملت حُللاً وحُلًياً، فنثرته على الملائكة، فليس المراد بالحُلل والحُلّى الملك، ولكن ليُعلم رضى الملك، يا عجباً نُثرت الحُلل لأجل من فرائشه جلد كبش، فلا حلت له منها حلة كلا مركب الملك أجل من أن يُحلى، فلما تلقاه عليّ على باب السرور، دخل عليهما الرسول، فاستدعى بإناء فيه الماء، فدها فيه بالبركة، ثم رش على جبين بلا غش، فلما طاب لعلّي ذلك الوقت، سألت الرسول سؤال سكران من شراب الوصل: **«يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، أَمْ هِيَ؟ فَفَضَّلَ الْحَاكِمُ بَيْنَ خُصُومِ الْحُبِّ فَقَالَ: هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَغْرَى عَلَيَّ بَيْتَهَا»**^(١)، فلما جازت بما حازت قناطر الفصل صين وجه الكمال بخال الحلل في العيش، فأقوى على إذ قوى في فخر الفقر فصيح بنصيح خطاب الشرع، يا عليّ؛ قم لكسب قوت الوقت، فخرج يسعى على أرض الرضا بين أعلام الصير، فبات يسقي نخلاً إلى الفجر بشيء من الشعير على وجه الأجر، فلما جاء به وأصلح للأكل، قام سائل على باب البذل، فنادى: يا أهل البذل والفضل؛ أطعمونا مما أطعمكم الله من الفضل، فتارت رياح الأرياح للإيثار، فأثارت سحاباً يقطر من قطريه قطر جود الجود، فقال سبله بقدر قدر وادي الود، فلما ثروت بالماء غرائب صمدح الممدح، ﴿وَيَقُولُونَ أَكَلَمَهُ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]، فخلص الإخلاص، ثم يذر بدر نذر: ﴿إِنَّمَا تَقْوِيَةٌ لِّلَّيْمَةِ كَقُوَّةِ﴾ [الإنسان: ٩]، وما قالوا ذلك باللفظ، ولكن علمه الحق من المحق، فأخبر عن مضمون القصد ليزيد لفظ بقى ﴿لَا يُبَدِّلُ بَيْنَهُمْ جُزَاءً﴾ [الإنسان: ٩]، فخرق السبل جرف الخوف، ﴿إِنَّمَا تَخَلَّفَ مِنَ زَيْتَا﴾ [الإنسان: ١٠]، فضرب اللفظ جبهة الأمن في صحراء عدن عدن على أطناط ﴿وَقَفَّهِمُ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ١١]، واتحست أجساد وكست بكساء الضحك غصارة العيش على غلل الخفض: ﴿جَنَّةٌ وَغَرِيحٌ﴾ [الإنسان: ١٢]، واستراحت أيد تفرق أيدها بين طحن الرجاء، ونزع الدلو براحة: ﴿فَالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ [الإنسان: ١٣]، ولقد عجب العلماء من شرح

(١) أخرجه السائي في سننه الكبرى (١٥١/٥)، رقم ٨٥٣١.

هذا الأجر، واستطرفوا عدم ذكر الحور في هذا الذكر، فبقوا متحيرين في حيرة الفكر، حتى تودي في بطنان وادي الفهم أن ذلك لفضل فضل زهراء الإنس غيرة عليها من الغير، أما رأيتم كيف ناب عن لسان غيرتها صاحب الشرع، إذ نهى علياً عن التزويج بقسر قهر: "يَرِيئِي مَا رَأَيْتَهَا وَيُؤْذِنِي مَا آذَنَّا"^(١).

يا علماء الشرع؛ أعلمتم لم آثرا وتركنا الطفلين عليهما أثر الجوع، آثراهما خفي عليهما رمز " اَيْدَا يَسْرُ تَعُولُ "^(٢)، كلا لأنهما علما قدر صير الصبيين؛ لأنهما غصنان من شجر " أَيْبَتْ عَثَدَ رَثِي "^(٣)، وبعض من جملة "بُضْعَةُ بَنِي"، وفرخ البط سابح وذكاه الجنين بذكاة أمه.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤/٥)، رقم (٤٩٣٢)، ومسلم (١٩٠٢/٤)، رقم (٢٤٤٩)، وأبو داود (٢٢٦/٢)، رقم (٢٠٧١)، والترمذي (٦٩٨/٥)، رقم (٣٨٦٧) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٦٤٣/١)، رقم (١٩٩٨) وأخرجه أيضا: أبو حنيفة (٦٩/٣)، رقم (٤٢٣١)، وابن حبان (٤٠٥/١٥)، رقم (٦٩٥٥)، والبيهقي (٣٠٧/٧)، رقم (١٤٥٧٥).

(٢) أخرجه الطبراني (٢٠٣/٣)، رقم (٣١٢٩)، قال الهيثمي (١١٦/٣): فيه أبو صالح مولى حكيم لم أجد من ترجمه.

والحديث أصله في الصحيحين بأطراف: "اليد العليا"، "خير الصدقة".

ومن غريب الحديث: "تعول": تلزمك موته، ونفقت.

(٣) أخرجه ابن راهويه في مسنده (٤٦٤/٢)، رقم (١٠٣٥).

الفصل الثاني والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَنتَكَ حَيِّتُ مُوْتٌ ۖ﴾ ﴿١٥﴾

[النازعات، ١٥]

هاهنا ﴿قُلْ أَنتَكَ﴾ [النازعات: ١٥]، وفي (طه): ﴿وَقُلْ أَنتَكَ﴾ (طه):
[٩] بزيادة وار، وهذا من الحروف الزوائد والنواقص من المتشابه، ومثله في
(البقرة): ﴿فَأَلَّوْا يَشْرَوْا مِنْ يَتِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي (يونس): ﴿فَكُلُّوا يَسُوءُوا
يَتِيمٍ﴾ [يونس: ٢٨].

في (البقرة): ﴿إِلَّا يَأْتِيَ لَنْ وَأَنْتَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٣٤]، وفي (ص): ﴿إِلَّا
يَأْتِيَ أَنْتَ خَيْرٌ﴾ [ص: ٧٤].

في (البقرة): ﴿مَنْ نَبَّعَ مَدَائِي﴾ [البقرة: ٣٨]، وفي (طه): ﴿فَمَنْ أَتَعَ
مَدَائِي﴾ [البقرة: ١٢٣].

في (البقرة): ﴿وَلَوْ يَتَّبِعُكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي (الأعراف): ﴿وَلَوْ
أَتَّبِعُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١].

في (البقرة): ﴿يَذَرِيكُمْ أَيْتَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي (إبراهيم):
﴿وَيَذَرِيكُمْ أَيْتَانِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦].

في (البقرة): ﴿وَسَتَرْيِدُ الشَّعْبِيْنَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي (الأعراف):
﴿سَتَرْيِدُ﴾ [الأعراف: ١٦١].

في (البقرة): ﴿فَتَذَلُّ الْوَيْتَ طَلَمُوا قَوْلَا﴾ [البقرة: ٥٩]، وفي
(الأعراف): ﴿فَتَذَلُّ الْوَيْتَ طَلَمُوا يَنْتَهُم﴾ [الأعراف: ١٦٢].

في (البقرة): ﴿وَيَتَكُونُ الْوَيْتَ يَدُو﴾ [البقرة: ١٩٣]، وفي (الأنفال):
﴿وَيَتَكُونُ الْوَيْتَ سَكُلُهُ يَدُو﴾ [الأنفال: ٣٩].

- في (آل عمران): ﴿إِلَّا يَشْرَىٰ لَكُمْ وَلِقَاءَ رَبِّكُمْ بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].
 وفي (الأنفال): ﴿إِلَّا يَشْرَىٰ وَلِقَاءَ رَبِّكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال: ١٠].
 في (النساء): ﴿فَنَجِّنَا وَنَقِّنَا وَكَأَ سَيِّئًا﴾ [النساء: ٢٢]، وفي (بني إسرائيل): ﴿فَنَجِّنَا وَكَأَ سَيِّئًا﴾ [الإسراء: ٣٢].
 وفي (الأنعام): ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وفي (هود): ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١].
 في (الأعراف): ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأعراف: ١١٤]، وفي (الشعراء): ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الشعراء: ٤٢].
 وفي (الأعراف): ﴿قَالَ إِنِّي لَم﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وفي (طه): ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ [طه: ٩٤]، في (التوبة): ﴿وَلَا تَقْرُؤْ كِتَابًا﴾ [التوبة: ٣٩]، وفي (هود): ﴿وَلَا تَقْرُؤْ كِتَابًا﴾ [هود: ٥٧].
 في (هود): ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بُرْهَانًا﴾ [هود: ٧٧]، وفي (المنكحوت): ﴿وَلَقَدْ أَتَىٰ كِهَانَتُ﴾ [المنكحوت: ٣٣].
 في (النحل): ﴿إِنِّي لَا يَمُرُّ بَعْدَ يَمُرٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠]، وفي (الحج): ﴿يَمُرُّ بَعْدَ يَمُرٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].
 في (الحج): ﴿وَلَكِ مَا يَنْدُرُكَ مِن مَّوْنِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وفي (النسان): ﴿وَلَكِ مَا يَنْدُرُكَ مِن مَّوْنِهِ الْبَاطِلُ﴾ [النسان: ٣٠].
 في (الشعراء): ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠]، وفي (الصافات): ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥].
 و(هل) ^(١) في القرآن على سبعة أوجه:
 أحدها: بمعنى (ما): ﴿فَلْيَنْفَعَكُم مِّنْهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

(١) (هل): حرف استعظام.

قال ابن قتيبة: ويندأها من معنى التوبيخ والتوبيخ ما يندأها الألف التي يندأ بها؛
 كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْفَعَكُم مِّنْهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

- الثاني: بمعنى الاستفهام: ﴿قُلْ لَنَا مِنْ شِعْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٥٣].
 الثالث: بمعنى (قد): ﴿قُلْ أَنتَ حَيُّ تُبْرِكُ﴾ [النازعات: ١٥].
 الرابع: بمعنى (ألا): ﴿قُلْ قُلْ تَبَارَكَ الَّذِي مَخْلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الكهف: ١٠٣].
 الخامس: بمعنى الأمر: ﴿قُلْ أَنتَ مُبْرِكٌ﴾ [الصفات: ٥٤].
 السادس: بمعنى السؤال: ﴿قُلْ مِنْ مَرْبِّهِ﴾ [ق: ٣٠].
 السابع: بمعنى أليس: ﴿قُلْ فِي ذِكْرِكَ قَسَمٌ لِيْ بِرَبِِّّ﴾ [الفجر: ٥].
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَذِبَهُ رُتِبَ وَالْوَرَقُ الْفَقِيْ﴾ [النازعات: ١٦] أي: المطهر، وطوى: اسم الوادي.

لما خرج موسى عليه السلام من شعب شعيب عن مدينة مدين وضعت زوجته، فطلب النار، فوجد النور، فتودي في النادي، فخلعت عن روعه خلع الروح باللفظ: ﴿فَالْخَلْعُ قَلْبِكَ﴾ [طه: ١٢]، وبسط له بساط الموانسة في مناجاة: ﴿وَمَا يَلْبَسُكَ يَسْبِيحُكَ﴾ [طه: ١٧]، فحذر أن يؤمر برفضها، فعرض بحاجته إليها في ضمن: ﴿أَتَوْحُّشًا طَبَقًا﴾ [طه: ١٨]، فتلقاء أمر: ﴿أَلَيْهَا﴾ [طه: ١٩]، فصارت حبة حبة تمر بالصخرة، فتقطعها وتطعن في الشجرة فتقطعها، فهرب حتى دخل حيف وجله الخوف ممسكًا بعقب ولم يعقب، فأخرجه أمن الأمر بإيجاب: ﴿خُلَعًا وَلَا تَحْقُقُ﴾ [طه: ٢١]، وسكن الزعاجه بضمان ستيعدها، فأدخل يده في فيها وما عصى، فإذا بها عصا، وإنما فعل به ذلك لينزل غرقات عرفانها، فيتوطد عند لقاء العدو والمعجز: ﴿وَأَلَيْ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه: ٦٩]، ثم سلم إليه منشورًا: ﴿الْقَبْ إِنْ يَرْتَوِي لَمْ يَلْقَ﴾ [طه: ٢٤]، فطلب زادًا لبلاغ سفر التبليغ بسؤال: ﴿أَتَسْرِخُ﴾ [طه: ٢٥]، ﴿وَيَبْرُ﴾ [طه: ٢٦]، ﴿وَأَتَمَلُّ﴾ [طه: ٢٧]، فاغتم فرصة النار، فسأل سهماً لأخيه بحجة: ﴿هَؤُلَاءِ نَصَحَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [القصص: ٢٤]، فوقع على سؤاله جواب: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ﴾ [طه: ٣٦]، فلما حجى إلى باب حجاجه من منى منه ليست منه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْدَ﴾ [الشعراء: ١٨]، وعيرة بذنب ﴿وَقَلْعَتِ﴾ [الشعراء: ١٩]، فلما ألقى العصا ألقوا عليه بهتان: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَكَاذِبُونَ﴾

[طه: ٦٣]، ورموه بتهمة طلب الدنيا عن قوس: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَتَ رَبِّهِمْ فِي قَوْلِهِمْ أَفَرْغُوا عَلَيْكَ أَلْهَبًا مِّنْ نَّارٍ فَتَكُونُ كَذِبًا يُكَذِّبُونَ﴾ [طه: ٦٣]، فحار فرعون في حير التحير في معجزته، إلى أن وقع على عجز المعجز، واستراح إلى الغير في مشاورة ﴿فَقَالَا تَأْتِيكُمُ الْغَمَامُ وَالْجَارِيَةُ أَتِيكُم بِمِائِدَةٍ مِّنَ السَّمَاءِ تَزِيدُكُمْ قُوَّةً وَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُعَذِّبُونَ النَّفْسَ الَّتِي نَفَخْنَا فِيكُمْ مِن قَبْلُ وَكَلِمَاتٍ يُبْدِيْنَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَكَلِمَاتٍ يُفَصِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ٣٥]، فوقفت أراؤهم على أرجاء ﴿أَتَيْتُهُمْ عَلَى أَن نُّبْرِئَنَّهُمْ مِّنَ غَمٍّ هَافِيَةٍ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وضرب القوم خيام زينتهم يوم الزينة على شاطئ شط الشطط، فلما حضر السحرة طلبوا الجزاء في صريح: ﴿هَٰذَا لَكُمُ الْيَوْمَ جِزَاؤُكُمْ خُمُسُ مِمَّا كَسَبْتُمْ يَوْمَ الْقَوْمِ الْأَوَّلِ﴾ [الأعراف: ١١٣]، وحال ما ألقوا في دياجي المداجاة، وتصرف فأزعج قلوب الحاضرين بهوله وخوفه، ﴿فَاقْبَلْ ثَوْنِ مِّمَّا كَفَرْتُمْ﴾ [الشعراء: ٤٥] في صباح ﴿تَلَفَّذْ﴾ [الشعراء: ٤٥]، ففر السحرة من عسكر فرعون إلى قصر مصر موسى، ينادون بلسان عز العزم: ﴿فَإِنَّا بِرَبِّكَ أَكْفَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، فضرب فرعون أطاب أطاب الوعيد على أوتاد: ﴿لَا تُفْلِحُ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، فأجاب شجاع شجاعهم: ﴿فَاقْبَلْ مَا أَتَىٰكَ الْكَلْبُ بِمَا لَاقَىٰ غَدَاةً فَمَا زُلَّ كَلْبًا﴾ [طه: ٧٢]، ونادى في عسكرهم مُنادي الشوق: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ قُمْ لِنُفِثْ بِكَ فَكُن مِّنَ الْمُفْثِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، ثم أرسلت إلى القبط الآيات لعل عليهم يعمل من نهر الانتهاز، فأبوا إلا غدر أن الغدر، قطاف عليهم الطوفان، وتجردهم الجراد وأقامهم القمل، وخصى عليهم أمر الضفادع، وانفتح زدم الدم، هذا وعود عودهم صم المكاسر، إلا أنهم كانوا يفضجون من ألم موسى إلى موسى، فإذا كشف عنهم ما أرادوا عادوا، فلما استغاث بهم الأقط، جاء بريد: ﴿فَإِنِّي أَخَذْتُ بِصَافِرِي﴾ [الشعراء: ٥٢]، فلما مروا تلقاهم البحر، وأتبعهم فرعون، فأظهر الجزع شكوى: ﴿أَلَيْسَ لِي بِقُوَّةٍ أُنَاجِي بِهَا عَصَا مُوسَىٰ بِحَدِّهَا وَلَئِن مَُّدْ إِدَّتِي﴾ [الأعراف: ١٢٩] وزاد: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ قُمْ لِنُفِثْ بِكَ فَكُن مِّنَ الْمُفْثِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦]، فحمل كلهم كلهم بلفظ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ قُمْ لِنُفِثْ بِكَ فَكُن مِّنَ الْمُفْثِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦]، فجاء فتح الوحي: ﴿لَا تُخِيبُ بَقِصَتُكَ الْبَاقِيَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فضرب، فانقلب سكناً، وقامت جنود الأمن على معايرهم، تُدافع بسلاح: ﴿لَا تَحْزَنْ ذَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ [طه: ٧٧]، وصاح مهمل الإملاء: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الدخان: ٦٤]، فلما حصل الأعداء في اليم، التطم عليهم بالغضب سريفاً، فتمسك فرعون بحبل: ﴿أَمَلَكُ﴾ [يونس: ٩٠]، فانقضت بمقراض: ﴿الْفَنَ﴾ [يونس: ٩١].

طالما لأن له موسى بعلة ﴿لَقَدْ﴾ [طه: ٤٤]، وأعرض عليه الهدى وكم
 ذله، فاختار على من هدى ذله، فلما ضج منه الإمهال وملة، وخرج وسط البحر
 ومن له.

لقد سألني وأصحابه دم التدم من يد ﴿نَزَّكَ﴾ [الشعراء: ١٧٢]، وتجاوبت
 أصداء بفاعهم ﴿كَفَّ نَزَّكَ﴾ [الدخان: ٢٥]، وانتقلت أملاكهم إلى ورات
 ﴿تُسْتَفْتَحُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، ومان سر رجاء: ﴿عَن زَلَّكُمْ أَن يَهْلِكَ
 عَذَابُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، بكشف نقاب الإنعام بأنامل: ﴿وَلْيُذِئِدَ أَن تَكُنَّ﴾
 [الفصص: ٥]، وأمر موسى وقومه بمقابلة قبلة الشكر: ﴿وَلْيَجْعَلُوا يَوْمَكُمْ
 قِسْمَةً﴾ [يونس: ٨٧].

الفصل الثالث والتسعون

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا كُنَّا لَآكُفِّرِينَ ۝٣٤﴾

[النازعات: ٣٤]

(الطامة): الحادثة التي تنظم على ما ميّزّاها: أي: تعلوا فوقه، وهي هاهنا: نفخة البعث.

﴿يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْأُنْصَرُ مَا سَأَى ۝٣٥﴾ [النازعات: ٣٥]: أي: ما عمل من غير وشر.

﴿وَنُفِثَ لِقَائِهِمْ يَوْمَ يَرَى ۝٣٦﴾ [النازعات: ٣٦]: لأبصار الناظرين.
﴿فَأَمَّا مَنْ ظَنَّنَا ۝٣٧﴾ [النازعات: ٣٧]: في كفره، ﴿وَنُفِثَ لِقَائِهِمْ أَلْبَابًا ۝٣٨﴾ [النازعات: ٣٨]: على الآخرة؛ ﴿وَإِنَّا لَنُفِثُ مِنْ النَّارِ ۝٣٩﴾ [النازعات: ٣٩]: له.

﴿وَلَمَّا مَرَّ كَأَنَّ نَفَقًا يُفِثُ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]: أي: قيامه بين يديه يوم الحشر، ﴿وَنَفَثَ أَفْسَسُ عَنْ لِقَائِهِ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤١]: أي: عما تهوى من المحارم؛ ﴿وَإِنَّا لَنُفِثُ مِنْ النَّارِ ۝٤٢﴾ [النازعات: ٤٢].

قال مقاتل: هو الرجل يهيم بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب؛ فيتركها.
وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة: "خُفِّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَخُفِّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ"^(١).

وفي لفظ حديث البخاري: "خُجِّبَتْ "مكان: "خُفِّتْ".

(١) أخرجه مسلم (٢١٧٤/٤)، رقم (٢٨٢٣)، وابن حبان (٤٩٤/٢)، رقم (٧١٩) والفضائي (٣٢٢/١)، رقم (٥٦٧).

وَرَوَى أَبُو بَرَزَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "أَخَوَاتُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: شَهَوَاتُ الْغَيِّ فِي بَطْنِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَثَفَلَاتُ الْهَوَىٰ"^(١).

أَبُو بَرَزَةَ اسْمُهُ ثَفْلَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَجُمْلَةٌ مِنْ فِي الصَّحَابَةِ اسْمُهُ ثَفْلَةُ ثَلَاثَةٌ: ابْنُ عُبَيْدٍ، وَابْنُ عَمْرٍو، وَابْنُ نَهْضَلٍ؛ فَكُلُّهُمْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا أَبُو بَرَزَةَ فَرَوَى سِتَّةً وَأَرْبَعِينَ حَدِيثًا، أَخْرَجَ لَهُ فِي "الصَّحِيحِينَ" سَبْعَةٌ، الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ مِنْهَا حَدِيثٌ وَاحِدٌ، وَانْفَرَدَ الْبُخَارِيُّ بِحَدِيثَيْنِ، وَمُسْلِمٌ بِأَرْبَعَةٍ، وَمَاتَ أَبُو بَرَزَةَ بِمَرْوٍ، ثُمَّ مَاتَ بَعْدَهُ بُرَيْدَةُ بْنُ الْحَصِيبِ، وَجُمْلَةٌ مِنْ مَاتَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِخُرَاسَانَ سِتَّةٌ:

بُرَيْدَةُ، وَالْحَكَمُ بْنُ هَمْرِ الْغِفَارِيِّ، وَعَبِيدُ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، وَعَبِيدُ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ، وَقُثْمُ بْنُ الْعِيَّاسِ، وَأَبُو بَرَزَةَ.

وَأَخَرُ مِنْ مَاتَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِخُرَاسَانَ: بُرَيْدَةُ، وَبِعْكَةُ: ابْنُ عَمْرٍو، وَبِالْمَدِينَةِ: سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، وَبِالْكُوفَةِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى، وَبِالْبَصْرَةِ: أَنَسٌ، وَبِمِصْرَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ، وَبِالشَّامِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، وَأَبُو الْيَسْرِ، وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَهُوَ آخِرُ الْعَشْرَةِ مَوْتًا، وَأَخَرُ مِنْ مَاتَ يَمُنُّ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُو الطَّيْلِ عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ الْكِنَانِي، مَاتَ بِمَكَّةَ.

وَرَوَى عَفِيَّةُ بْنُ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "عَجَبٌ رَبَّنَا مِنْ شَابٍ لَيْسَتْ لَهُ ضَبُوءَةٌ"^(٢).

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ: حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَأَنْتَ تَكْرَهُهَا، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَأَنْتَ تَطْلُبُهَا؛ لَمَّا أَنْتَ إِلَّا كَالْمَرِيضِ الشَّدِيدِ الدَّاءِ؛ إِنْ صَبَرَ نَفْسَهُ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ كَمَا فِي مَجْمَعِ الزَّوَادِ (١٨٨/١) قَالَ الْهَيْثَمِيُّ: رَجَّاهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ لِأَنَّ أَبَا الْحَكَمِ الْبَتَّانِي الرَّادِيَّ عَنْ أَبِي بَرَزَةَ يَبْنِي الطَّبْرَانِيُّ فَقَالَ عَنْ أَبِي الْحَكَمِ هُوَ الْحَارِثُ بْنُ الْحَكَمِ وَقَدْ رَوَى لَهُ الْبُخَارِيُّ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٥١/٤)، وَرَقْمُ (١٧٤٠٩)، وَالطَّبْرَانِيُّ (٣٠٩/١٧)، وَرَقْمُ (٨٥٣)، وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا: أَبُو يَعْقَبُ (٢٨٨/٣)، وَرَقْمُ (١٧٤٩) قَالَ الْهَيْثَمِيُّ (٢٧٠/١٠): إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ فِي السَّنَةِ (١/٣٥٠)، وَرَقْمُ (٥٧١).

على مفضض الدواء اكتسب بالصبر عافية، وإن جرعت نفسه مما يلقى طالت علة الفناء.

وقيل له: من أصح الناس عزماً؟

قال: الغالب لَهَوَاءُ.

يحيى بن معاذ ثلاثة:

هذا أحدهم، وكان حكيم زمانه، يُروى عن مكى بن إبراهيم .

الثاني: نيسابوري، حَدَّثَ عن عبد الصمد بن علي .

الثالث: تستري، حَدَّثَ عن يحيى بن المغيرة.

قال مالك بن دينار: جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن؛ فيها جوارٍ خلُق من ورد الجنة، فقليل: ومن يسكنها؟ قال: الذين قُتِلُوا بالمعاصي، فلما ذُكروا عظمي راقبوني، والذين انتث أصلاهم من خشني.

وقال يزيد بن مسيرة: يقول الله عز وجل: أيها الشاب التارك شهوته من أجلي، أنت عندي كبعض ملائكتي.

إخواني كم بين قادي على الهوى صبر، وبين عاجز قُبِلَهُ الكِبَرُ، أين تسلك الشاب من شيخ ضعيف، يا عجباً هجر الشاب المقاييس فرماها.

[اليسيط]

فقلتُ للركب إذ جَدَّ الرَّجُلُ بنا يا بُعْدَ يُبْرَيْنَ مِن بَابِ الْفَرَادِيسِ

فَلِ دَعْوَةٍ مِنْ جِبَالِ الشَّلَحِ مُسْمَعَةٌ أَفْضَلُ الْإِمَامِ وَحِبًّا بِالشَّبَارِيسِ

يَخْرَى الْوَشِيطُ إِذَا قَالَ الضَّمِيمُ لَهُمْ عَذُّوا الْخَصِي ثُمَّ قَيْسُوا بِالْمَقَايِيسِ

وَابْنُ السَّبُونِ إِذَا مَا لُرَّ فِي قَرْنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةُ الْبَزْلِ الْفَنَاعِيسِ

قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يقول: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد، فخالفت أقربهما إلى هواك؛ فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى.

وقال ابن الحواري: مررتُ براهب، فوجدته نحيقاً، فقلت: أنت عليل؟

قال: نعم. قلت: منذ متى؟ قال: منذ عرفتُ نفسي. قلت: فتداوى؟ قال: قد

أُغْيِيَتِي الدَّوَاءُ، وقد هزمت على الكي. قلت: وما الكي؟ قال: مُخَالَفَةُ الْهَوَى.

وسئل ابن المقفع عن الهوى، فقال: هو أنَّ سُرِقْتَ نَوْنَهُ.

[البيط]

وَالسَّيْرُ مَا قَامَ دَا عَيْنٍ يُقْلَبُهَا فِي أَغْنِي الْعَيْنِ تَوَلُّوْتُ عَلَى الْخَطَرِ
تَسْرُ مُقْلَبَتُهُ مَا ضَرَّ مَهْجَتَهُ لَا تَرْعَبُ بِسُرُورٍ عَادَ بِالْطَّرِ
إِخْوَانِي مِنْ غَلْبِهِ هَوَاهُ تَوَارَى عَنْهُ عَقْلُهُ، الْمَلِكُ عَقْلًا بِلَا هَوَى، وَالْكَلْبُ
هَوَىً بِلَا عَقْلٍ، فَلَمَّا تَرَكَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ قَبُولَ قَوْلِ الْعَقْلِ، حَرَّمَ قَبُولَ
قَوْلِهِمَا: ﴿إِنَّمَا هُنَّ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْنَ﴾ [البقرة: ١٠٢].
وَلَمَّا وَافَقَ الْكَلْبُ مُقْتَضَى الْعَقْلِ فِي التَّعْلِيمِ أَهْبَحَ كَسْبَهُ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ نَجْدَ
الْجَوَارِحِ﴾ [المائدة: ٤].

يَا هَذَا، عَلَّمْتَ كَلْبَكَ، فَهُوَ يَتْرَكَ شَهْوَاتِهِ فِي تَنَاوُلِ مَا صَادَ لِاجْتِرَامِ
نَعْمَتِكَ وَخَوْفِ عِقَابِكَ، وَأَنْتَ مَا تَقْبِلُ مِنْ مُعْلِمِ الشَّرْعِ، فَيَا عَجَبًا لِمُعْلِمِ عَقَالِ
الْعَقْلِ وَإِلَّا هَوَى بِكَ الْهَوَى.

مَنْ غَلِبَ هَوَاهُ زَادَ عَلَى مَرْتَبَةِ مَلِكٍ، وَمَنْ غَلِبَهُ هَوَاهُ نَقَصَ عَنْ مَرْتَبَةِ
كَلْبٍ؛ اثْبُتْ فِي صِفِّ الْجِهَادِ ثَبُوتَ عَازِمٍ وَلاَزِمٍ، فَمَا نَالَ الْغَنَائِمَ نَاهِمٍ.
لَمَّا احْتَضَرَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بَكِي، وَقَالَ: لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا زَحَقًا، وَمَا بَقِيَ
فِي جَسَدِي شَيْءٌ إِلَّا وَفِيهِ ضَرِيَّةٌ بِسَيْفٍ، أَوْ رَمِيَّةٌ بِسَهْمٍ، أَوْ طَعْنَةٌ بِرِمَحٍ؛ وَهَذَا أَنَا
أَمُوتُ عَلَى فَرَاشِي، فَلَا تَأْتِ أَعْيُنَ الْجِنَاءِ.
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: " النَّظَرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سَهَامِ إِبْلِيسَ، فَمَنْ تَرَكَهَا
أَثْبَتَهُ إِيْمَانًا"^(١).

يَا هَذَا، جِهَادِ النَّفْسِ فِي غَضِّ الْبَصَرِ سَعَرَ مَا يَبْنِيهِ إِيْمَانًا يَجِدُ حِلَاوَتَهُ فِي
قَلْبِهِ كَيْفَ يَمَا زَادَ.

تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْ كَانَ تَبْلُكُمُ امْرَأَةً، ثُمَّ بَعَثَ غُلَامًا، فَحَمَلَهَا إِلَيْهِ، فَرَاوَدَتْ
الْغُلَامَ نَفْسَهُ وَطَالِيَتَهُ، يَعْنِي: بِالْمَرْأَةِ، فَجَاهَدَ الْغُلَامُ، وَغَلِبَ هَوَاهُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (٣٤٩/٤)، رَقْمُ (٧٨٧٥) وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا:
الْقَضَائِي (١/١٩٥)، رَقْمُ (٢٩٢).

يا هذا؛ متى تركت معصية قدرت عليها، وإنما تركتها ولا سبيل إليها، فلا من الخالق خوفك، ولا من الدّم أنفك.

كان جميل يقول عند موته: لا تأتي شفاعة محمد إن كنت وضعت يدي على شئنة بريئة قط.

وكان عمر بن أبي ربيعة مع تشبيهه بالنساء يقول: ورب هذه البنية؛ ما خللت إزارني على حرام قط.

وقال ذو الرمة: مكنت هاماً بمنى عشرين سنة في غير ريبة ولا فساد.

أزوركم والنفس مأمونة	وما فؤادي عاشق
ومهجتي محفوظة من	هوى لا تحسبوني فاسق
والقلب من عقل لما	يتنفي مما يراه عافق
ولم أكن حرّاً ولا حرة	عميت فيه خالق
فلا تظنني بي إلا الذي	أقول أنسي صادق
وكل ذي ود عليلي	وده فذاك مني طائق

الفصل الرابع والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُقَرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَمْرِ﴾ ﴿١٦١﴾ [عبس: ٣٤]

الأخ^(١) في القرآن على خمسة أوجه:

أحدهما: من الأب والأم، أو من أحدهما، ﴿وَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١] .

الثاني: الإخاء في الدين، ﴿فَلْيَسْتَعِمْ بَيْنَهُمْ إِخْوَكُم﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

الثالث: الإخاء من القبيلة، ﴿أَلَاكُمْ شُيُوكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿لَتَوْفَقُنَّ﴾ [الشعراء: ١٤٢] .

الرابع: الإخاء في العودة، ﴿إِخْوَكُمَا عَلَىٰ سُورٍ مُّتَقَابِلَيْنِ﴾ [الحجر: ٤٧] .

الخامس: الصاحب، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَيْمُنٌ﴾ [ص: ٢٣] .

والأم^(٢) في القرآن على خمسة أوجه:

(١) الأخ: اسم يُراد به المساوي والمعادل، والمُتَاوَب في التَّوَابِطِ أَنَّهُ يُقَالُ فِي الشَّيْءِ، ثُمَّ يستعار في مواضع تُدُلُّ عليها القرينة.

ويقال: تَأَخَّضْتُ الشَّيْءَ أَي: تَحَرَّيْتَهُ. وَخَلَّى ابْنُ قَارِسٍ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ: سُمِّيَ الْإِخْوَانُ لِأَخِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا يَتَأَخَّضُ الْآخَرُ. وَالْإِخَاءُ: مَا يَكُونُ بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ، قَالَ: بِي وَكَذَلِكَ أَنَّ الْإِخْوَةَ: لِلْوَلَدِ. وَالْإِخْوَانُ: لِلْأَصْدِقَاءِ.

(٢) الأم: الوالدات وأصل كل شيء أمه. ومنه: أُمُّ الْفَرَسِ، لِأَنَّ الْأَرْضَ تُجِئُكَ مِنْ تَحْتِهَا.

ويقال: إِنَّ الْأُمَّ فِي الْأَصْلِ أُمَّتُهُ.

وَعَلَىٰ ذَلِكَ تُجْمَعُ: أُمَّهَاتُ. وَيَقَالُ: أُمَّاتٌ. وَاسْتَدْرَأَ: (المطارب)

فَرَجَعْتُ الْمَطْلُومَ بِالنَّاسِ

قَالَ ابْنُ قَارِسٍ: وَجَدْتُ بِخَطِّ سَلَمَةَ أَنَّ أُمَّهَاتٍ فِي النَّاسِ، وَأُمَّاتٍ فِي الْبَهَائِمِ.

أحدها: الواردة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ [النساء: ١١] .
 الثاني: المراجعة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ﴾ [النساء: ٢٣] .
 الثالث: مشابهة الأم في الحرمة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّفْسَ﴾ [الأحزاب: ٦] .
 الرابع: الأصل: ﴿وَلَقَدْ فِي أُولَئِكَ﴾ [الزخرف: ٤] .
 الخامس: المصير: ﴿وَلَقَدْ مَكَانَهُ﴾ [الفارعة: ٩] .
 والأب في القرآن أربعة أوجه:
 أحدها: الأب الأدنى: ﴿وَوَدَّكَ أَبُوكَ﴾ [النساء: ١١] .
 الثاني: الأب الأعلى، وهو الجد: ﴿وَأَتَيْتُكَ بِكَ مَكَانَهُ يَرْؤُا قُلُوبَهُمْ﴾ [يوسف: ٣٨]، وإنما إسماعيل عم يعقوب .
 الثالث: العم، ومنه في البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّفْسَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وإنما إسماعيل عم يعقوب .
 الرابع: الخالة: ﴿وَوَدَّكَ أَبُوكَ عَنِ النَّفْسِ﴾ [يوسف: ١٠٠] .
 قال المفسرون: يفر قابيل من هابيل، وإبراهيم من آزر، ونوح من كنعان، ولوط من زوجته، ونينا صلى الله عليه وسلم من والده.
 ومعنى الآية: إن الإنسان لا يلتفت إلى أحد من أقاربه لعظم ما هو فيه.
 وفي " الصحيحين " من حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إن الناس يأتون يوم القيامة إلى آدم، فيقولون: يا أبانا اشفع لنا إلى ربك، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيته؛ نفسي نفسي، وكذلك يقول إبراهيم: نفسي نفسي، وكذلك يقول موسى: نفسي نفسي، وكذلك الأنبياء؛ إلا محمداً صلى الله عليه وسلم^(١) .
 وروى أنس، قال: " سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخاري (١/١٧٤٥، رقم ٤٤٣٥)، ومسلم (١/١٨٤، رقم ١٩٤)، والترمذي

(٤/٦٢٢، رقم ٢٤٣٤). وأخرجه أيضاً: النسائي في الكبرى (٦/٣٧٨، رقم ١١٢٨٦)،

وابن أبي شيبة (٦/٣٠٧، رقم ٣١٦٧٤).

عليه وسلم، فقالت: أَيَحْشُرُ النَّاسَ عِراءَ يا رسول الله؟ قال: نعم. قالت: واسوتاء؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿لَنْ يَنْفِيَنَّ عَنْهُمْ بَهْرَهُمْ شَأْنٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [عبس: ٣٧]،^(١)

يا له من يوم يعجز واصفيه، ويذهل العاقل ويثجير فيه، وتنطق جوارحه ويختم على فيه، لا الولد يذكر الوالد، ولا الصديق الصدوق يُساعد، والشفيق الشفيق كالأباعد مشغولاً عن غيره بما هو فيه.

وظهرت النار بأفاتها، فبكت النفوس لمخالفاتها، فمكاوي ندم العاصي قبل نفحاتها تكويه، لا يتضع فيه الشكوى، ولا تكشف فيه البلوى لا مَنْ فيه ولا ملوى، بلى بلاء النيه، أُنسى ويحك ما تلقى، أترضى لنفسك أن تشقى، أتؤثر ما يقنى على ما يبقى، هذا الرأي السفه، ألا يتزود قبل الرحيل الراحل، ألا يتخلص الغريق إلى الساحل، ألا تنأهب للموت النافل، هذا قدر زجر القهم للعاقل ويكفيه.

(١) أخرجه الترمذى (٤٣٢/٥)، رقم (٣٣٣٢)، وقال: حسن صحيح. والحاكم (٢٧٦/٢)، رقم (٢٩٩٥). وأخرجه أيضاً: النسائي في الكبرى (٥٠٦/٦)، رقم (١١٦٤٧).

الفصل الخامس والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]

اعلم أن الله عز وجل تواعد بالويل لليهود: ﴿قَوْلٌ لَهُمْ إِنَّا كُنَّا بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ سَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٧٩]، والمشركين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]، والمكذبيين: ﴿قَوْلٌ يَّؤْتِيهِمُ الْمَكِذِبِينَ﴾ [الطور: ١١]، والمطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، والهمازون: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، والمتراون عن الصلاة: ﴿قَوْلٌ لِّمُؤْتَفِكِهِمْ بَعْدَ الْوَعْدِ﴾ [الماعون: ٤ - ٥].

قال الزجاج: الويل كلمة تقولها العرب لكل من وقع فيهلكة، ويستعملها هو أيضاً، وأصلها في اللغة العذاب والهلاك.

قال ابن الأنباري: ويقال: الويل: المشقة من العذاب، يقال لأهله: وي لفلان، أي: حزن لفلان، وكثر الاستعمال للحرفيين، فوصلت اللام بوي، وجعلت حرفاً واحداً، ثم حُرِّبَ عن ويل بلام أخرى، فهي اختيار الفراء.

وقد روى أبو سعيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " ويلٌ واد في جهنم، يهوى الكافر فيه أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره ^(١)."

قال ابن قتيبة: المطفف الذي لا يوفي الكيل، يقال: إناء طفان إذا لم يكن مملوفاً.

(١) أخرجه أحمد (٧٥/٣، رقم ١١٧٣٠)، وعبد بن حميد (ص ٢٨٩، رقم ٩٦٤)، والترمذي (٣٢٠/٥، رقم ٣١٦٤) وقال: غريب. وأبو يعلى (٥٢٣/٢، رقم ١٣٨٣)، وابن حبان (٥٠٨/١٦، رقم ٧٤٦٧)، والحاكم (٦٣٩/٤، رقم ٨٧٦٤) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضاً: ابن المبارك (٩٦/١، رقم ٣٣٤)، والديلمي (٤٠١/٤، رقم ٧١٦٤).

وقال الزجاج: إنما قيل مطلقاً لأنه لا يكاد يسرق إلا الشيء الطفيف، وإنما أخذ من طف الشيء، وهو جانيه.

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك، فقال له: عطني، فقال: ويل للمطفئين، فقال: هذا جزء من ططف المكيا، فكيف من أخذ الكل؟!

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى الْكُفَّينِ﴾ [المطفئين: ٢].

(على) ^(١) في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: بمعنى في ﴿وَعَلَى سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثاني: بمعنى الالتزام: ﴿وَبَلِّغْ أَقْرَبَ قَسَدٍ الْكَفِيلِ﴾ [النحل: ٩].

الثالث: بمعنى فوق: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

الرابع: بمعنى الشرط: ﴿وَلَوْ أَنَّ تَأَخَّرَ تَكْنِيَّ جَنَّةٍ﴾ [القصص: ٢٧].

الخامس: بمعنى من: ﴿إِذَا أَكَلُوا عَلَى الْكُفَّينِ يَسْتَوُونَ﴾ [٢٠] وَكَأَنَّهُمْ أَوْ وَزَوْغُهُمْ [المطفئين: ٢ - ٣]؛ أي: وزنوا لهم.

قال الفراء: سمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس أتنا التاجر، فيكيب لنا المد والمدين إلى الموسم المقبل؛ فعلى هذا لا يجوز الوقف على:

(١) قال أبو ذكريا: (على) تُسْتَقْمَلُ اسماً وفعلًا وحرًا.

فلما كانت عبارة عن شخص فهي اسْمٌ وتدخلُ عليها غلاتُ الأسماء؛ تقول: جاني غلا، وزأنت غلا، ومزوت غلا.

ولما كانت بمعنى فوق فهي اسْمٌ أيضاً؛ تقول: جئت من غلّو، كما يقال: جئت من قُرّو، قال الشاعر:

حدثت من غلّيو بغد ما نمت غلّونا

وقال الآخر: [الرجز]

فهي لشوش الخوض لوشاً من غلا

ولما كانت مُسْتَقْلَةً من تَطَرُّفٍ وقُلَّتْ على زمانٍ مخصوصٍ فهي فِعْلٌ؛ تقول: غلا يغلّو غلّوا فهو غالي.

وغلا الخائض، كما تقول: ارتفع الخائض.

وما هنا هذين الموضعين فهي حُرُوفٌ تَجَرُّ ما يَتَلَوْنَ.

﴿كَأَلَّا﴾ : لأنها معهم كلمة واحدة، ومن الناس من يقول: (هم) تؤكد، فيجوز الوقف إذن على (كألا)، حكى الوجهين الزجاج، والاختيار الأول.

واعلم أن كسب الحلال فضيلة عظيمة، وإنما صار فضله كذلك لاجتهاد المجاهد في طلبه، ودفع الحرام بكفّ الورع.

قال الحسن: طلب الحلال أشد من لقاء الرّحيب.

وقال يونس بن عبيد: ما أعلم شيئاً أقل من درهم طيب يُنفقه صاحبه في حقّ أخ يمكن إليه في الإسلام وما يزداد إلا قلة.

ومجمل ما يأتي في الحديث اسمه يونس بن عبيد ثلاثة:

أحدهم: هذا كان سيد الزهاد، وسمع من الحسن .

الثاني: مولى، حدّث عن البراء بن عازب .

الثالث: روى عن المبارك بن فضالة.

وما زال الأنبياء والصالحون يطلبون الحلال، وكان آدم عليه السلام كان حرثاً، ونوح نجاراً، وإدريس خياطاً، وداود حداداً، وإبراهيم زراعاً، وصالح تاجراً، ولقمان خياطاً، وموسى، وشعيب، ولبيبا صلى الله عليهم وسلم رعاة.

وأبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، ومحمد بن سيرين، وميمون بن مهران بزازين، والزهير، وعمر بن العاص، وعامر بن كريز خزازين، وسعد بن أبي وقاص يري التيل، وعثمان بن محمد الحنبل خياطاً، وأيوب السخيتاني بيع جلود السخيتان، ومالك بن دينار وراقاً.

وفي " الصحيحين " من حديث المقدم بن معدي كرب، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " ما أكل أحد مثكم طعاماً خيراً له من عمل يديه؛ فإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يديه " .

وفي حديث ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يكسب عبد من حرام فيُبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار؛ إن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ،

ولكنه يمحو السيء بالحسن؛ إن الخيث لا يمحو الخيث^(١).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أنه ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، ثم يمد يده إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذّي بالحرام؛ فأثي يستجاب له^(٢)."

وقال مالك بن دينار: أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجاً، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليّ أكفّاً قد سفكتنم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم ولن تردادون مني إلا بعتاً.

وروى ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " من غشنا فليس بشاً"^(٣).

وفي حديث أبي برزة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسب وفيما أنفق، وعن جسده فيما أبلاه"^(٤).

وكان زاذان إذا عرض الثوب ناول شر الطرفيين.

وقال يوسف بن أسباط: ليس الذاكر الله تعالى من قال: سبحان الله

(١) أحمد (٣٨٧/١)، رقم (٣٦٧٢) قال الهيثمي (٥٣/١): رجال إسناده بعضهم مستور، وأكثرهم ثقات. وقال في (٢٢٨/١٠): رجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف. والعدلي في الإيمان (ص ١٢٧، رقم ٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٧٠٣/٢)، رقم (١٠١٥)، والترمذي (٢٢٠/٥)، رقم (٢٩٨٩) وقال: حسن غريب. وأخرجه أيضاً: الدارمي (٣٨٩/٢)، رقم (٢٧١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٩٩/١)، رقم (١٠١)، وابن ماجه (٨٦٠/٢)، رقم (٢٥٧٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٦١٢/٤)، رقم (٢٤١٦) وقال: غريب لا تعرفه إلا من حديث الحسين ابن قيس وحسين بن قيس يضعف في الحديث من قبل حنيفة. وأبو يعلى (١٧٨/٩)، رقم (٥٢٧١)، والطبراني (٨/١٠)، رقم (٩٧٧٢)، وابن عدي (٣٥٣/٢)، ترجمة ٤٨٢ الحسين ابن قيس أبو علي الرحبي، وقال: هو إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٨٦/٢)، رقم (١٧٨٤)، وأخرجه أيضاً: الخطيب (٩٤٠/١٢).

والحمد لله؛ ولكن الذي إذا رفع ذواية الميزان علم أن الله تعالى يراء، فأخذ الحق وأعطى الحق.

جُملة من يحيى في الحديث اسمه يوسف بن أسباط ثلاثة:
هذا الزاهد أحدهم .

الثاني: يروي عن يحيى بن عبد الملك .

الثالث: يروي عنه أبو الفتح الأزدي.

يا مطفئين ما بلغكم عيب قوم شعيب؛ إنما هلكوا بالتطيف، وإنما عُذِّبُوا بأخذ الطفيف، فإن تأخر تعذيبكم إلى الموت فإن طالبيكم لا يخشى الموت.

لما رأى شعيب شُعب شُعب شعارهم قد امتلأت بالنجس وبالجور صعد على منبر التذكير بالأنعام ولكن بين الأنعام، فأخذ في حُطية: ﴿وَلَا تَنفَسُوا﴾ [هود: ٨٤]، وخوفهم من قبح قبح القحط في إشارة: ﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِفَرَكٍ﴾ [هود: ٨٤]، فبرز إليه من هوة الغلبة نهضة: ﴿أَسْأَلُكَ تَأْتِيكَ﴾ [هود: ٨٧]، ومد الكبير نحوه باع الخطوة بوعيد: ﴿تَخْرِجُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٣]، فذكرهم أمثال المثلثات في ذكر أن يصيبكم، فقابلوا بلاغة هذا التبليغ للبالغ في عتو: ﴿فَأَسْفُتْ عَلَيْكَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وعابوه لعمى بصائرهم بعمى بصره، ﴿وَلَيْلًا لَّكَرَيْكَ فَيَا ضَوْفًا﴾ [هود: ٩١]، وتعللوا بحجة: ﴿فَمَا فَتَنَّا﴾ [هود: ٩١]، فلما اسهم طلام ظلمهم اسلنطح تهازل هلاكهم، واستحكك ليل أديارهم، فحقق إليهم ما حق عليهم من محنتهم، فأظلم على ظلال ظلالهم ظلة الظلة، فارتجت أرجاء بيوتهم برج الرجفة، وشدد عليهم شدة شديد الحر، فهربوا إلى البر لا إلى البر؛ لطلب راحة الروح، فلما تم اجتماعهم في قصر الحصر، فظنوها من حر وقتهم، نزلت نار فأحرقتهم، فساروا إلى جهنم في أسر أديارهم، وسار بعد بعدهم في أديارهم نذير التحذير من تدميرهم، وهابهم بنادي في أعقابهم في عقاب عقابهم: ﴿أَلَا بِمَكَا يُمْتَنَى﴾ [هود: ٩٥].

فليحذر العُصاة من مثل أفعى أفعالهم، وليتقن أعمى البصيرة شبه أعمالهم، وليخف المطفئون من أخذ الطفيف في أخذ الطفيف في مكياهم، وليسمعوا نذير العبرة، فقد أوحى لهم بشرح حالهم.

الفصل السادس والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمِ ۝١٠١ وَاللَّيْلِ عَشْرِ﴾

[الفجر، ١ - ٢]

(الفجر): انفجار الظلمة عن الصبح، وهذا عشر ذي الحجة.

وفي الشفع والوتر عشرون قولاً:

أحدها: إن الشفع يوم عرفة، ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر، رواه أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني: إن الشفع يوم النحر، والوتر عرفة، رواه جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث: إن الشفع والوتر الصلاة، فمنها شفع، ومنها وتر، رواه عمران ابن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الرابع: إن الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب .

الخامس: إن الشفع الخُلُقُ، والوتر اللهُ تعالى .

السادس: إن الشفع . . . والوتر آدم شفع بزوجه. والأقوال الثلاثة عن ابن عباس .

السابع: إن الشفع يومان يعد يوم النحر، وهو النفر الأول، والوتر اليوم الثالث، وهو النفر الأخير، قاله ابن الزبير .

الثامن: إن الشفع ركعتان في المغرب، والوتر الثالثة، قاله أبو العالية .

التاسع: إن العدد منه شفع ومنه وتر، قاله الحسن .

العاشر: إن الخلق كله منه شفع ومنه وتر، قاله ابن زيد .

الحادي عشر: إن الشفع عشر ذي الحجة، والوتر أيام منى الثلاثة، قاله الضحاك .

الثاني عشر: إن الشفع هو الله تعالى لقوله تعالى: ﴿مَا يَسْأَلُونَكَ عَنْ ثَمُودَ إِذْ هُوَ رَايَهُمْ يَبْتَغُونَ الْآخِرَ وَنَسُوا الْآوَّلَ﴾ [المجادلة: ٧]، والوتر هو الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، قاله سفيان بن عيينة.
الثالث عشر: إن الشفع آدم وحواء، والوتر الله عز وجل، قاله مقاتل بن سليمان .

الرابع عشر: إن الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، قاله مقاتل بن حيان .

الخامس عشر: إن الشفع درجات الجنة لأنها ثمانية، والوتر دركات النيران لأنها سبع، قاله الحسن بن الفضل .

السادس عشر: إن الشفع الصفا، والوتر المروة .

السابع عشر: إن الشفع مسجد مكة والمدينة، والوتر بيت المقدس .

الثامن عشر: إن الشفع القِرَانُ في الحج، والوتر الإفراد .

التاسع عشر: إن الشفع العبادات المكتوبة، كالصلاة والزكاة والصيام، والوتر الحج. حكى هذه الأقاويل الأربعة الثعلبي.

العشرون: إن الشفع تضاد أوصاف المخلوقين من عز وذل، وقدرة وعجز، وعلم وجهل، وحياة وموت، والوتر إفراد صفة الله عز وجل بعز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، قاله أبو بكر الوراق.

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ﴾ [التجسس: ٤]، إذا سرى ذاهباً، و (الحجر): العقل، سمي حجراً لأنه يحجر صاحبه عن القبيح، وسمي عقلاً لأنه يعقل عما لا يحسن، وسمي الثَّهْيُ لأنه ينهى عما لا يجمل، وجواب القسم: ﴿وَالَّذِي تَرَىٰ كَفَّكَ قُلُّ ذَنِّكَ بِكَ﴾ [إرم ذات الجمل: ١٢] ﴿[الفجر: ٦ - ٧]﴾.

قال أبو عبيدة: هما عادان؛ فالأولى: هو إرم، وهو قوم عاد الأولى، أما الثانية: فيه قولان، وإرم اسم قبيلة من قوم عاد، وكانوا أهل خيام وعميد، فلذلك قيل: ذات العماد.

روى وهب بن منبه: أن عبد الله بن قلاية خرج في طلب إيل شردت له، فبينما هو في صحارى عدن، وقع على مدينة عليها حصن، وحول الحصن

قصور، فدخل الحصن، فإذا هو ببابين عظيمين مرصعين بالياقوت الأحمر، فدخل، فإذا مدينة فيها قصور، في كل قصر غرف وفوقها غرف، مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت، مفروشة باللؤلؤ وينادق المسك والزعفران، وفي كل زقاق شجر قد أثمر، وتحت الأشجار أنهار مطر يجري ماؤها في قنوات من فضة، فقال الرجل: هذه الجنة، فحمل معه من لؤلؤها ومسكها، ورجع إلى اليمن، فأظهر ما معه، فبلغ الحديث إلى معاوية، فأرسل إليه، فقص عليه ما رأى، فأرسل معاوية إلى كعب، فقال: هل في الدنيا مدينة من ذهب وفضة؟ قال: نعم، مدينة إرم ذات العماد، قال: حدثني حديثها، قال: كان شداد بن عاد قوامًا بقراءة الكتب، وكان إذا مر بحديث الجنة دعت نفسه إلى بناء مثلها غنمًا على الله تعالى، فأمر بصنعة إرم، فأمر على صلبها مائة قهرمان، مع كل قهرمان ألف من الأخوان، وكتب إلى ملوك الأرض أن يمددوا بها في بلاده من الجواهر، وخرج القهارمة، فتبددوا في الأرض، فوقعوا على صحراء نقية من البلاد، وفيها عيون مظهرية، فقالوا: هذه صفة الأرض التي أمر الملك أن يُبنى بها، فوضعوا أساسها من الجزع اليمني، وأقاموا في بنائها ثلاث مائة سنة، فلما أخبروه بتمامها، فقال: اجعلوا حولها حصنًا، وحول الحصن ألف قصر، عند كل قصر ألف علم، ويكون في كل قصر وزير من وزرائي، ففعلوا، فأمروا الوزراء أن ينهيوا للنقلة إلى إرم ذات العماد، فكان الملك وأهله في جهازهم عشرين، ثم ساروا إليها، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عز وجل عليه وعلى أصحابه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعًا.

وروي دخل الشيباني عن علماء حمير، قالوا: لَمَّا قَلَّكَ شَدَادُ بْنُ عَادٍ وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الصَّيْحَةِ، مَلِكٌ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَرْثَدُ بْنُ شَدَادٍ، وَكَانَ أَبُوهُ خَلْفَهُ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَأَمَرَ بِحِمْلِ أَبِيهِ مِنْ تِلْكَ الْمَفَازَةِ، وَأَمَرَ فَحْفَرَتْ لَهُ حُظِيرَةٌ فِي مَفَازَةٍ، وَاسْتَوْدَعَهَا فِيهَا عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَأَلْقَى عَلَيْهِ سَبْعِينَ حُلَّةً مَسْجُوجَةً بِقُضْبَانِ الذَّهَبِ، وَوَضَعَ عِنْدَ رَأْسِهِ لَوْحًا مِنَ الذَّهَبِ، وَكَتَبَ عَلَيْهِ: [مَجْزُوءُ الرَّمْلِ] اَعْتَصِرْ فِي أَهْلِهَا السَّعْفَ رُوْدُ بِالْمُنْزِلِ الْمُنْبِي أَمَّا شَدَادُ بْنُ عَادٍ ضَاجِبُ الْقُضْبَانِ الْمُنْبِي

فَإِنْ أَقْبَلَ الْأَوْحَىٰ لِي
وَمَلَأْتُكَ الْمَرْقَ وَالْمَرْ
وَيَفْظِلُ الْمُتْلِكَ وَالْمَرْ
فَأَتَىٰ هُوَ وَتَمَّتْ
فَعَمَلْنَا لَوْ قَبْلَنَا
فَعَمَلْنَا وَتَمَّتْ
فَأَتَيْنَا حَبِطَةً
فَعَمَلْنَا حَبِطَةً

مِنْ خَوْفٍ وَغَيْدٍ وَوَجِيدٍ
مِنْ بَشَلٍ طَلَانٍ شَدِيدٍ
رَأَىٰ قِيَمَهُ وَالْمَقِيدِ
بِشِي خِلَالِي قَبْلُ هُوَ
إِلَى الْأَمْرِ الرَّئِيسِ
كَ الْأَمَلِ مِنْ مُرِيدِ
جِي مِنْ الْأَقْبَى الْبُورِ
وَسَقَطَ بَيْنَنَا خَصِيرِ

الفصل السابع والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ﴾ [الشرح: ١]

معنى الاستفهام: التقرير؛ أي: قد فعلنا ذلك، (والشرح): الفتح، بإذهاب ما يصد عن الإدراك، والله عز وجل شرح صدر نبيه، وأخرج منه ما وضع من الطبع البشري مما يصد عن الكمال، أو يُرد إلى نقص، (ووجهنا): أي: جعلنا منك إيمك بأن غفرنا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا كُفَرُوا﴾ [الشرح: ٣]، هذا مثل، والمعنى: لو كان هذا حمل يحمل تُسحّ قبض الظهر منه.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4]، روى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عن هذه، فقال: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا دُكِرْتُ دُكِرْتُ مَعِيَ^(١).

لما سبق القدرُ باصطفائه على الكل، نَزَّهَ بذكره قبل إيجاده، فأخذَ الله ميثاقَ النبيين على تصديقه في وثيقته: ﴿تَقْوِيَتُ يَوْمَ﴾ [آل عمران: ٨١]، فتعلبت به النقل من الأصلاب الشريفة إلى الأرحام العفيفة، إلى أن ظهرت بركاته في خفة حمله على أمانة، وأصبحت به حليلة من جذب عامها أمانة.

وكانت حليلة قدمت والجذب عام في العام، فعرض عليه المرضعات، فأعرض لليتيم، فأراحت به حليلة إلى حللتها، فبان ليتها ولين راحلتها، فباتوا لبركة رواية رواء وهب على مباركهم نسيم نسمة مباركة، فلما طغنت الطغائن أتت إتانها نام أمام الركب، فلما حلوا حللهم كان الرعاء تسرح فيعقرها

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٧٥، رقم ٣٣٨٢).

سرحان الجذب، وراعى حليلة يعيدُ الغنم بالغنم، وكانت زوجها يعلمان أن البركة بركت مبارك بركهما ببركة فلما قضى موسى رضاعها الأجل رجعا به إلى أمه، فرجعا سؤالهما في أن يرجعا به لما حلَّ في محلتهما من أثر الأثر بآثره، فلما أذنت لسؤالهما أذنت لهما، فعادا به مرغمين من عادا، فبينما الصبي مع الصبيان حيث ضيَّ الخير بجبريل، فجاءه فجأة، فشق عن القلب وما شق عليه، فعلق بيده من باطنه علقه، فقال: هذا حظ الشيطان وقد قطعنا علقه، ثم أعاد قلبه بعد أن قلبه وما به قلبه، فبقى أثر المخيط في صدره باقى عمره، لإظهار صورة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ قَدْ مَضَىٰ﴾ [الشرح: ١]، وزال وقت الشرح الألم بإنعام (الم).

لثأب أخوه وهروا إلى الأبوين، منزعج لما يظنه قد فجع، لمجعل يخبرهما، فبادرا بسألانه عما جرى، فأبصرا في صدره أثرا، فخافا أن يكون الشيطان له قد اعتري، فأثا به على عجل العجل أمة، وما غلبا أنه نبي الآتية، فلما جيبت خلع النبوة جيبت إلى الإنس الخلوة، وأبى إهاب الهيبة، وتوَّج تاج السيادة " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ " ^(١)، وَضَمَّخَ بِأَذْكَىٰ عُلُقِ أَزْكَىٰ الْأَعْلَاقِ، وأحل دار المداراة، وأجلس على صفحة الصفح، وَلَقَّمْ لَقَمَ لِقَمَانِ الْحَكِيمِ، فتلقفها في في فأورثني علم الأولين والآخرين، وانتقلت إلى خنصر واحتصر لي العلم، ووضعت له أكواب التواضع، وأديررت عليه كؤوس الكيس متضمنة حلالة الحلم ختامها مسك التمسك، وأعطى لقطع مفازة الدنيا جود الجود، فكان تارة يعرق عرق الجود، وتارة يقطعها يمدى المراغبة، وقد جرس فيه حياء شجاع الشجاعة، وركز على باب علم العلم، وحامت عليه، فحات عنه جنود الرعب، وتوَّلا قلم العز، فوقع على صحائف الكد " كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " ^(٢).

كان يركب الحمارة، ويعود المريضي، ويشهد الجنائز، ويحبيب دعوة

(١) أخرجه أحمد (٢/٣)، رقم (١١٠٠٠)، والترمذي (٥٨٧/٥)، رقم (٣٦١٥)، وابن ماجه (٢/٢)، رقم (٤٣٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦/١٤٦)، رقم (٢٥١٧١)، ومسلم (٣/١٣٤٣)، رقم (١٧١٨). وأخرجه أيضا: أبو حنيفة (١/١٧١)، رقم (٦٤٠٩)، والدارقطني (٤/٢٢٧).

المملوك، ويجلس على الأرض، ويلبس الخشن، ويأكل البشع، ويبت التلالي طاولًا، يتقلب في قعر الفقر، ولسان الحال يُناديه: يا محمداً نحن نفس بك عن الدنيا لا بها عنك.

ولقد أقامه الحق مقام نفسه ﴿إِنَّمَا يَمْشِيكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ١٠]، وجعله نائبًا في الحرمة: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، وفي الرضا: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْسَلَ بِهِ﴾ [التوبة: ٦٢]، وفي الطاعة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وأمر بتقديمه على النفس: ﴿أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالتَّوْبَةِ مِنَ أَفْسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفي المحبة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١].

ولقد عرفه الأبحار في الكنائس، والرهبان في الصوامع، وألذ به الدين تقدموا، وأخبر به التابع.

وكانت تُسلم عليه قبل النبوة الأحجار، وتبشره بما أولاه مولاه الأشجار، وكان خاتم النبوة بين كتفيه، وكشف له ملكوت الدنيا بيد * رُوِيَ لِي الْأَرْضُ فَأُورِثُ^(١)، ثم سمي ليلة المعراج إلى السماء، كل نبي حوَّط باسمه، ﴿كَأَنَّمَا نُنَكِّتُ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يُنشِئُ أَقْبَدُ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَكْرِيْعُمُ أَقْبَرُ﴾ [هود: ٧٦]، ﴿يَلْمِزُ إِيَّا رُسُلَ رَبِّهِ﴾ [هود: ٨١]، ﴿يُنشِئُ أَقْبَلُ﴾ [القصص: ٣١]، ﴿يَنَادِي إِيَّا جَنَّتَكَ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿يَنْزَكِرُ إِيَّا جَنَّتَكَ﴾ [مريم: ٧]، ﴿يَكْسِي لِي مَرَمَ أَكْكَرُ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿يَنْشِئُ لِي أَكْكَرُ﴾ [مريم: ١٢].

وقيل لنينا صلى الله عليه وسلم: ﴿يَكَايْتَا الرَّسُولُ لَا يَحْرُكُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَكَايْتَا الرَّسُولُ يَلْقَا﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَكَايْتَا إِلَهِي حَبَّتْ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَكَايْتَا إِلَهِي حَزَنِي التَّوْبَةِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ﴿يَكَايْتَا إِلَهِي قُلْ لِي فِي قِيَامِكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠]، ﴿يَكَايْتَا إِلَهِي إِيَّا أَرْسَلْتَهُ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ﴿يَكَايْتَا إِلَهِي كَيْفَ الْحَقُّقَارُ﴾ [التحریم: ٩]، ﴿يَكَايْتَا إِلَهِي أَلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٩].

(١) أخرجه ابن ماجه في سنه (٢/ ١٣٠٤)، رقم (٣٩٥٢).

١، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا جَاءَكَ بِالْحَقِّ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ [المتحنة: ١٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا عَلَّمَنَّا الْإِسْلَامَ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ بَرِّئْ نَفْسِي﴾ [التحریم: ١]،

وإنما ذكر اسمه في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْتَسِبُ بِآلِ رَسُولٍ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنَ رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿تَحْسَبُ أَنَّ نَفْسًا﴾ [الفتح: ٢٩]، لأنه أراد تعريفه بالاسم، ولم يراجعه فيها بالخطاب، وقد خاطبه فيها بخطاب اللطف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [المائدة: ١]، ﴿يَس: ١﴾، ﴿طه: ١﴾، وأقسم بحياته: ﴿لَقَدْ نَزَّلَ﴾ [الحجر: ٧٢]، ودرج في درج عتبه لطف اللطائف ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: ٤٣]،

ولقد تولى الجدل عنه، وكل شي إنما دل على نفسه، ألم تسمع قول قوم نوح: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَكَنٍ مُّبِينٍ﴾ قَالَ يَقُولُونَ كُلِّى ۚ [الأعراف: ٦٠] - [٦١]،

وقوم هود: ﴿إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَكَنٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿قَالَ يَقُولُونَ كُلِّى ۚ فِي سَكَنَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٧]، وقول لمرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُكُونُ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، فأجاب: ﴿وَلَيْي لَأَظُنُّكَ يُؤْتِرَعُونَ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، والله عز وجل جادل عن نبيها، فحين قالوا: مجنون، قال: ﴿وَمَا سَابِقْتُكَ بِمَثَلٍ مِّنْهُ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقالوا: كذاب، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يَتْلَوْنَ مِنْ قَبْلِهِ قَوْلًا﴾ [يونس: ٣٧]، وقالوا: شاعر، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الْغَيْثَ﴾ [يس: ٦٩]، وقالوا: كاهن، فقال: ﴿وَلَا يَقُولُ كُفْرًا﴾ [الحاقة: ٤٢]، وقالوا: شاعر، فقال: ﴿مَا خَلَّ سَابِقْتُكَ وَمَا قَوْلِي﴾ [النجم: ٢]، وقالوا: قلاه ربه، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]،

قالوا: إنما يعلمه بشر، فقال: ﴿إِن كُنتَ إِلَّاى بِمُحَمَّدٍ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقالوا: يلقته شيطان، فقال: ﴿وَمَا نَزَّلَهُ بِدُ الْفُطُورِ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، وقال الوليد بن المغيرة: هو ساحر، فتهده به عبيد: ﴿نَزَّلَ﴾ [المندثر: ١١]، وقالوا بلسان الحسد: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [الزخرف: ١١]،

[٣١]، فأجابهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْكُمُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وعاب عدوه بعشرة خصال: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَعْيُنِكُمْ حَسْرَةً مِنْهُنَّ فَتَكُنُوا كَالْفُصَّالِ الْمُضَلِّينَ﴾ [٣٣] عظم بعد ذلك زعمهم [الفلم: ١٠ - ١٣]، كما جرى المصلي عليه مرة بعشرة، ولقد شارك الأنبياء في فضائلهم وزاد، ابن سطة ﴿لَا تَدْرُ﴾ [نوح: ٢٦] من حلم * أفلح قزوي^(١)، أين انشقاق البحر من انشقاق القمر، أين انفجار الحجر من نبع الماء من بين الأصابع، أين التكليم عند الطور من قاب قوسين، أين تسبيح الجبال في أماكنها من تقديس الحصى في كفيه، أين علو سليمان من ليلة المعراج، أين إحياء عيسى الأموات من تكليم الذراع، كل الأنبياء ذهبت معجزاتهم بموتهم، ومعجز النبي الأكبر قائم على منار: ﴿لَا يُدْرِكُهُ يَدُ بَشَرٍ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ينادي: ﴿قَاتِلُوا يُسُوفَ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [البقرة: ٢٣]، ولقد أعرب عن تقديسه على من ثقتهم بإفصاح: * آدم ومن ذنوبه تحت يوالي^(٢)، * لو كان موسى وهيسى حيَّان ما وبغتهما إلا أنبأني *، وقطع توهم من توَّله في لحافه بحسام * لا شيء يغدي^(٣)، لأنه أول الناس غروجا إذا بعثوا، وعطيط الكل إذا وفدوا، ومبشر القوم إذا أبسوا، وله الوسيلة وبه التوصل إذا الأنبياء قد سكنتوا لنطقه، والملاك قد اعترفوا بحقه، والجنة والنار تحت أمره، والكُرَّانُ داخلون في دائرة حكمه، وكلام غيره قبل قوله لا ينفع، وجواب الحبيب له قل يسمع، فسبحان من فضّل له الفضائل بما فضله، وكساء من حُلل الفخر الجَمُّ ما جُمِّلَ، جمع اللّه بيننا وبينه في ختيه، وأحيانا على كتابه وسُتِيه، والحمد لله الذي جعلنا من أمته.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٦٤، رقم ١٤٤٧) وقال: مرسل.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤/ ٢١٧، رقم ٢٣٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢١٥، رقم ٢٨٨٩)، وأبو داود (٤/ ٩٧، رقم ٤٢٥٢)، والترمذي (٤/ ٤٧٢، رقم ٢١٧٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤، رقم ٣٩٥٢)، وأبو عوانة (٤/ ٥٠٨، رقم ٧٥٠٩)، وابن حبان (١٦/ ٢٢٠، رقم ٧٢٣٨). وأخرجه أيضا: ابن أبي شبة (٦/ ٣١١، رقم ٣١٦٩٤).

الفصل الثامن والتسعون

في قوله عز وجل،

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر، ١]

(إِنَّا): للتعظيم، و (أَنْزَلْنَاهُ) يعني: القرآن، والهاء كتابة عن غير مذكور في السورة.

قال ابن عباسي: (أُنْزِلَ القرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْضُوطِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى نَبِّئِ الْعِزَّةِ).

قال المفسرون: هذا البيت في السماء الدنيا.

وفي تسميتها ليلة القدر خمسة أقوال:

أحدها: أن القدر العظيمة، قاله الزهري .

الثاني: أنه من الضيق، فهي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين يتزلزلون، قاله الخليل بن أحمد.

الخليل بن أحمد خمسة، ثلاثة بصريون، أحدهم صاحب العروض، وهو الذي حكينا عنه. الثاني: روى عن عكرمة. الثالث: روى عن إبراهيم بن هريرة. الرابع: أصفهاني، روى عن روح بن عباد. الخامس: سجزي، روى عن الجاهلي.

الثالث: أن القدر الحكم، كأَنَّ الْأَشْيَاءَ تُقَدَّرُ فِيهَا، قاله ابن قتيبة .

الرابع: من لم يكن له قَدَرٌ ضَارٌّ بِمَرَاغَاتِهَا ذَا قَدَرٍ، قاله أبو بكر المَورَاقِي .

الخامس: لأنه أنزل فيها كتابٌ ذُو قَدَرٍ، ونزل فيها رحمة ذات قدر، وملائكة ذو قدر، حكاه شيخنا أبو الحسن الزاهوني، واختلفوا هل ليلة القدر بالية أم كانت في زمان النبي صلى الله عليه وسلم خاصة؟ على قولين،

أصحهما بقاؤها، وهل هي في جميع الشَّعْرِ أم في رمضان؟ على قولين،
أصحهما أنها في رمضان، واختلفوا أيَّ الليالي أحصَّ بها؟ على ستة أقوال:

أحدها: أنَّ الأخصَّ بها أوَّل ليلة، قاله رزين العجلي.

الثاني: ليلة ثمان عشرة، قاله الحسن ومالك بن أنس الفقيه؛ لأن مالك
ابن أنس اثنان أحدهما هذا، والثاني كوفي يروي عن هاني بن حزام عن عمر.

والثالث: ليلة إحدى وعشرين، وهو اختيار الشافعي.

والرابع: ليلة ثلاث وعشرين، وهو مذهب عبد الله بن أنيس من
الصحابة.

والخامس: ليلة خمس وعشرين، وهو مذهب أبي بكرة.

والسادس: ليلة سبع وعشرين، وهو مذهب علي، وابن عباس، وعائشة،
وأبي، وأحمد بن حنبل، رضي الله عنهم.

وروي عن ابن عباس أنه استدرك على ذلك بشيئين:

أحدهما: أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَى سَبْعَةِ أَصْنَافٍ،
يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ رَيْنٍ طِينٍ﴾ [المؤمنون:
١٢] الآية، ثُمَّ جَعَلَ رَزَقَهُ فِي سَبْعَةِ أَصْنَافٍ، يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَكَ مَبَئِثَ
أَلَّةٍ سَبْعٌ﴾ [عبس: ٢٥] الآية، ثُمَّ يُضَلِّي الْجُمُعَةَ عَلَى رَأْسِ سَبْعَةِ أَيَّامٍ،
وَجَعَلَ السَّمَوَاتِ سَبْعًا، وَالْأَرْضِينَ سَبْعًا، وَالْمَنَافِي سَبْعًا، وَلَا أَرَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ
إِلَّا السَّابِعَةَ.

والثاني: أَنَّهُ سَلَامٌ، وهي الكلمة السابعة والعشرون، قاله أبو قلابه،
قال: إنها كذلك.

وقال بعضهم: ليلة القدر سبعة أحرف، وقد كررت في هذه السورة ثلاث
مرات، فهي يتكررها سبعة وعشرين حرفًا، فهذا تنبيه على أنها ليلة سبع
وعشرين.

وقال أبو قلابه: ليلة القدر تنزل في العشر الأواخر.

والحكمة في إخفائها أن يتحقق اجتتهاد القَلَابِ، كما أخفت ساعة
الجمعة، وساعة الليل، والصلوة الوُشْطَى، والاسم الأعظم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَّا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢]، هذا على سبيل التعظيم لها، والترغيب في خيرها.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَرِيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، قال مجاهد: قيامها والعمل فيها خيرٌ من قيام ألف شهر، وصيامها ليس فيها ليلة القدر.

وقال ابن عباس: * ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَمَلَ السِّلَاحَ عَلَى غَايَةِ أَلْفِ شَهْرٍ، فَعَجِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ، وَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي أَمْتِهِ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَقَالَ: هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ الَّتِي خَمَلَ بِهَا الْإِسْرَائِيلِيُّ السِّلَاحَ *^(١).

و (الرُّوح): جبريل عليه السلام، و (الإِذْنُ)^(٢) في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: النَّصْرُ؛ ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

الثاني: نَفْسُ الإِذْنِ: ﴿إِنْ تَمُوتُوا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] .

الثالث: الأَمْرُ: ﴿إِلَّا يُطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وهاهنا:

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ وَمَنْ تَكَلَّمَ النَّاسُ﴾ [القدر: ٤]، قال المفسرون: ينزلون بكل أمر قضاء الله تعالى في تلك السنة إلى قابل.

(سلامٌ هي)؛ أي: ليلة القدر، سلامٌ، أي: سلامةٌ لا يُخْذَلُ فيها ذاءٌ، ولا يُرْسَلُ فيها شيطانٌ.

وكان بعض العلماء يقول: الوقف على (سلام) على معنى: تنزل الملائكة بالسلام.

﴿حَتَّى تَطْلُعَ الْقُفُوفُ﴾ فَتَحَ لَامُ الْمَطْلَعِ قَوْمٌ وَكَثَرَتْهَا أَنْفُرُهُمْ.

وقال ابن الأنباري: أهل العربية يقولون: ما كان على قبيلٍ يَقْعُلُ فالمصدرُ وَاسْمُ الْمُؤْضِعِ نَائِيَانِ عَنِ الْقِعْلِ؛ كقولهم لِيَتَدْخَلَ الدُّخُولُ، والموضع

(١) أخرجه الإمام البخاري في تفسيره (٥١٢/٤).

(٢) الأصل في الإِذْنِ: الإِطْلَاقُ من غير خفي. وأُذِنْتُ لِلْحَدِيثِ اسْتَنْتَفَتْ، وفي الحديث: "مَا أَذِنَ اللَّهُ لِيَنْفِي مَا أَذِنَ لِيَنْفِي بِالْقُرْآنِ" * أي: ما استبح.

الذي يُدْخِلُ منه، إلا أخذَ عشرَ حرقاً، فإنها جاءت مكسورة إذا أريد بها الموضع؛ وهي: المَطْلَعُ، وَالْمَشْرِقُ، وَالْمَشِيقُ، وَالْمَشْرِقُ، وَالْمَغْرِبُ، وَالْمَسْجِدُ، وَالْمَنِيَّةُ، وَالْمَغْرِبُ، وَالْمَسْجِدُ، وَالْمَنِيَّةُ: المَوْضِعُ الَّذِي تُضَعُ فِيهِ النَّاقَةُ، وخمسة من هؤلاء الأحد عشر حرفاً سُمِعَ فيهن الكسر والفتح: المَطْلَعُ، وَالْمَشِيقُ، وَالْمَسْجِدُ، وَالْمَجْزُرُ، وَالْمَنِيَّةُ، وَالْأَصْلُ المَطْلَعُ؛ بِالتَّخْسِيرِ المَوْضِعُ، وبالفتح المَطْلَعُ إلا أن العَرَبَ تنوع فتجعل الاسم نائياً عن المصدر، فيقولون: حَتَّى مَطْلَعِ الشَّجَرِ، وهم يعنون: المَطْلَعُ، ويقولون: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ) [الكهف: ٩٠] بالفتح على أنه موضع^(١).

أضاءت ليلة القدر بنور القرآن، فاستبدلت أنوار الفاضل على دُجُور الكلام، وقامت على بُرُوج الزمان، فقاومت سائر الأيام، فزادت بقدرها لا بمقدارها، وجالت في فضاء فضائلها مُقَايِمَةً لِلدَّهْرِ، فكانت الحكومة عند فيصل الحق، . . . أنت بيئة بيئة، فنطقت حجة ﴿وَيَا يُعْرَفُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ﴾ [الدخان: ٤]، فشهدتها ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [القدر: ١]، فكان فصل الحاكم: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ سَنَةٍ﴾ [القدر: ٣].

(١) انظر: إرباز المعاني ٢/ ٣٠٩.

الفصل التاسع والتسعون

في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾

[الزلزلة: ١]

(الزلزلة): الحركة الشديدة، وذلك عند قيام الساعة، تنزل حتى ينكسر كل ما عليها، فتقع الجبال ثم تضطرب فتخرج ما في جوفها.
و (الأرض): سُميت أرضاً لسمتها، يقال: أرضيت القرحة أرضاً؛ إذا اتسعت، وكلما سفل أرض، ورجل أريض للخير؛ أي: خليق به، وخشبة مأروضة؛ إذا أكلتها الأرض، وجاء فلان يتأرض بي؛ أي: يتعرض، والأرض الرُّغْضَةُ، قال ابن عباس: (أُزْلِزِلَتِ الْأَرْضُ أَمْ بِئِ أَرْضٍ).
والأرض^(١) في القرآن على سبعة عشر وجهاً:
أحدها: أَرْضُ الْأَوْدُنِ: ﴿وَلَا تَنْكُرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].
الثاني: الْغَبَرُ: ﴿لَوْ كُنْتُمْ يَوْمَ الْأَحْزَنِ﴾ [النساء: ٤٢].

(١) الأرض: مَعْرُوفَةٌ، وسُمِّيت أرضاً لسمتها.

قال ابن السكيت: أرضيت القرحة أرضاً - بفتح الراء -؛ إذا اتسعت.
وقال ابن فارس: كُلُّ مَا اتَّسَعَ أَرْضٌ، وَزَجَلُ أَرْضٍ لِلْخَيْرِ؛ أي: خليق له.
والأرضُ دَوْبَةٌ، وخشبة مأروضة: أكلتها الأرض.
والأرض: بناءً ضَعْفٌ مِنْ وَتٍ أَوْ ضَوْفٍ.
وجاء فلان يتأرض لي مثل يتعرض لي.
ويقال: فلان ابن أرضي؛ إذا كان لحريته.
وأرضٌ أريضة: حَتَّةٌ النَّيَابِ. والأرض: الرعدة.
قال ابن عباس: أُزْلِزِلَتِ الْأَرْضُ أَمْ بِئِ أَرْضٍ.

الثالث: أرضُ متجة: ﴿فَمَا تَتْلِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].
 الرابع: أرضُ المدينة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضًا مَرْيُومًا﴾ [النساء: ٩٧].
 الخامس: أرضُ الإسلام: ﴿وَتَسْقُونَ فِي الْأَرْضِ قِسْلًا﴾ [المائدة: ٢٣].
 والسادس: أرضُ الشيء: ﴿يَكْفُوتُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].
 السابع: أرضُ الشام: ﴿تَسْكُنُ الْأَرْضَ وَمَكْرَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].
 الثامن: الأرضيُّ السُّبُع: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ يَرْزُقُهَا﴾ [هود: ٦].

التاسع: أرضُ يضر: ﴿اجْعَلِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].
 العاشر: أرضُ الحجر: ﴿فَلَدْرُومًا تَأْكُلُ فِي لَيْلٍ نَفْسًا﴾ [الأعراف: ٧٣].
 الحادي عشر: القلب: ﴿وَأَلَّا مَا يَلْقَى فِتْنَتُكَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

الثاني عشر: أرضُ الغرب: ﴿يُثْبِتُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧].
 الثالث عشر: أرضُ الجنة: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرْزُقُهَا يَكُونُ الْفَيْصُورُ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

الرابع عشر: أرضُ الرُّوم: ﴿يَا أَتَى الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٣].
 الخامس عشر: أرضُ بني قريظة: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَوَدَارَهُمْ وَتَحُولُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

السادس عشر: أرضُ فارس: ﴿وَأَرْسَلْنَاكُمْ تَطْلُفًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].
 السابع عشر: أرضُ القيامة: ﴿وَأَلْزَمْنَا الْأَرْضِ بِحُورٍ رِيًّا﴾ [الزمر: ٦٩].

و (الزَّلْزَلُ): بالكسر المصدر، وبالفتح الاسم، و (أَنفَالُهَا): ما فيها من الكنوز والموتى، و (الإنسان): اسم جنس يعم المؤمن والكافر، ولكنها إذا بدأت تنزل لم يعلم الناس أن ذلك من أشراف الساعة، فيسألون (ما لها؟)، حتى يوقنوا معنى (تُعَدُّلُ أَخْبَارَهَا) أي: بأخبارها، والمعنى: تُخبرُ بما حُبلَ عَلَيَّهَا.

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: * أَخْبَارُهَا أَنْ تُشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمْرٌ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تُقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا، فَهُوَ أَخْبَارُهَا ^(١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٥].

قال الفراء: تحدث أخبارها بوحى الله تعالى ويأذنه لها، ومعنى (لها): إليها، واللام في القرآن على ضربين: مفتوحة ومكسورة؛ فالمفتوحة على ثلاثة أوجه:

أحدها: بمعنى التوكيد: ﴿إِنَّ يَرْجِعَ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٥].

الثاني: بمعنى القسم: ﴿لَقُولُوا مَا يَحْسَبُونَ﴾ [هود: ٨].

الثالث: زائدة: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ نَدَفٌ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]؛ أي: ردكم.

والمكسورة على تسعة أوجه:

أحدها: بمعنى الملك؛ كقوله تعالى: ﴿يَقُولُ مَا فِي السَّحَابِ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة:

٢٨٤].

الثاني: بمعنى أن: ﴿يُظْلِمُكُمْ عَلَى الظُّلُمِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

الثالث: بمعنى إلى: ﴿فَقَدْ كُنَّا يَهُودًا﴾ [الأعراف: ٤٣].

الرابع: بمعنى كي: ﴿يَخْرِقُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ [النجم: ٣٦].

الخامس: بمعنى على: ﴿وَكُنَّا يَحْشِيهِ﴾ [يونس: ١٢].

السادس: بمعنى لئلا: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا نَكْتُمُ﴾ [التحل: ٥٥].

السابع: بمعنى عند: ﴿وَحَسْبِيَ الْآخِرُونَ لِيُخْرِجُوا﴾ [طه: ١٠٨].

الثامن: بمعنى الأمر: ﴿يَسْتَفْهِمُوا﴾ [النور: ٥٨].

التاسع: لام العاقبة: ﴿يَكْفُرُوا لَهُمْ عَذَابًا وَرِزْقًا﴾ [القصص: ٨].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْفُرُ كُلُّ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ [الزلزلة: ٦]؛ أي: يرجعون

(١) أخرجه أحمد (٣٧٤/٢)، رقم ٨٨٥٤، والترمذي (٦٦٩/٤)، رقم ٢٤٢٩ وقال: حسن غريب، والحاكم (٢٨١/٢)، رقم ٣٠١٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أيضًا: السائي في الكبرى (٥٢٠/٦)، رقم ١١٦٩٣.

عن موقف الحساب أشتاتاً أي: فزقاً، فأهل الإيمان على حدة، وأهل الكفر على حدة.

﴿إِنِّي زُلْزَلْتُ السَّمَوَاتِ﴾ [الزلزلة: ٦] أي: جزاء أعمالهم، ومثقال الشيء زنة الشيء، يقال: هذا مثقال هذا أي: وزنه.

وفي الزُّرَّة خمسة أقوال:

أحدها: زُرَّةٌ تَمَلُّوْ حِمَاءٌ .

الثاني: زُرَّةٌ مِنَ الثَّرَابِ، روي عن ابن عباس .

الثالث: أَضْعَفُ الثَّقَلِ، قاله ابن قتيبة .

الرابع: الْحَرْدَلَةُ .

الخامس: الواحدة من الهَبَاءِ الظاهر في ضوء الشمس إذا طلعت من نَقَبٍ، ذكرها الثعلبي.

واعلم أن ذكر الزرة ضرب مثل ما يعقل، والمقصود: من عمل قليلا أو كثيرا رآه.

وفي " الصحيحين " من حديث عدي بن حاتم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلُمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا شَيْئًا قَدِمَهُ، وَيَنْظُرُ أَمَامَهُ فَتَشْغِلُهُ النَّارُ، فَمَنْ اسْتَظَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْجِيَ النَّارَ بِشَيْءٍ نَمَرَةٍ فَلْيَفْعَلْ " (١).

وروت أم مجيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: " يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْمُسْلِمَ يَقُومُ عَلَى بَابِي فَلَا أَجِدُ شَيْئًا أُعْطِيهِ إِثًّا، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ لَمْ تَجِدِي شَيْئًا إِلَّا ظُلْفًا فَخَرُوقًا فَاذْفِيعِي إِلَيْهِ فِي يَدِي " (٢).

(١) أخرجه البخاري (٦/٢٧٠٩، رقم ٧٠٠٥)، ومسلم (٢/٧٠٣، رقم ١٠١٦)، والترمذي (٤/٦٦١، رقم ٢٤١٥) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضاً: ابن ماجه (١/٦٦، رقم ١٨٥)، والطبراني (١٧/٩٥، رقم ٢٢٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/١٧٦، رقم ٧٥٣٣)، وفي شعب الإيمان (١/٢٤٥، رقم ٢٤٩)، وابن مند (٢/٧٧٥، رقم ٧٨٧) وقال: إسناده صحيح. والرافعي (٤/١٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣/٥٢، رقم ٦٦٥).

وجاء سائل إلى عائشة رضي الله عنها وعندها نسوة، فأمرت له بحبة عنب، فتمعَّجَنَ النسوة، فقالت^(١): (إن فيها ذُرًّا كثيرًا).

[البط]

لَا تَحْفَرُ سَاعَةً مُسَاعِدَةً ثُمَّ فِيهَا يَدَا إِلَى طَاعَةِ
قَالِحِي يَلْمُوتُ وَالْمُنَى عُدُجٌ وَالْأَمْرُ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى سَاعَةٍ
يَا مُخَالَفًا مِنْ تَهَاءٍ وَأَمْرِهِ، يَا مُضِيغًا فِي التَّفْرِيطِ عَمْرِهِ، الزَّمَانُ صَوْلِجَانِ
وَالْعَمْرُ كَرَّةٌ، الدُّنْيَا بَحْرٌ وَالسَّاحِلُ مَقْبِرَةٌ، ﴿فَمَنْ يَسْتَلْ بِمَقَالِكَ ذُرَّةً خَيْرًا يَسْتَرْهُ
﴿١٧﴾ [الزلزلة: ١٧].

دع الدنيا فمشاربها كثرة، وهي خربة عند العفول، وعند النفوس خضرة،
على أنها مزرعة تحصد ما يثروه، فلا تحتفر بسير الطاعات، ولا تردن قليل
السيئات، فالنجاة والهلاك بالمحضرات، كم نُجِّتُ مِنَ الظَّلامِ وَعُجِّتُ مِنَ الْأَنَامِ
شُرَّة.

زَلَّةٌ بَعْدَتْ إِبْلِسَ لَمَّا أَهَى، وَلَقَمَةٌ أَخْرَجَتْ آدَمَ الْمُخْجَى، وَإِنَّ لِيَكْفِي زَجْرًا
مِيرًا: ﴿وَلَا تَقْرَأْ هَٰذَا الْحَجَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

بينما رجل في الطريق قد جاز، إِذَا عُطِنَ شَوْكُ يُوْذِي الْمُجْتَازَ فَرَفَعَهُ حَتَّى
جَازَ، فَعَرَفَهُ اللَّهُ لَهُ فَشَكَرَهُ.

بينما فاجرة تمشي في الصحراء إذا كلب يقلق لحرِّ الرمضاء، فسقته حتى
روته من الماء، فوجبت لها بذلك المغفرة.

كانت امرأة قبل هذه الأمة خرج عنها الولد وفارق أمه، فأخذه السبع،
فتصدقت بلقمة تلك الحرمة، ففكَّ لك الأسد، وقيل: لقمة بلقمة، فإذا الحرمة
مستبشرة.

تصدقت امرأة قبلكم برغيفين، فقصي عليها بغرق ولدها وقطع اليدين،
فبعث الله رغيفها في صورة ملكين، ورد ولدها فضلا منه ومقدرة.

(١) أخرجه أحمد في الزهد ٢١٢/١.

لو وَافَقَتْ الْإِثْيَاسَ مَا أَوْفَقَتْ الْإِثْيَاسَ وَشَدَّدَتْهَا، وَلَوْ لَدُنَّتْ لُفْمَةً
 وَجَدَتْهَا وَلَكِنْ يَزِيدُكَ الشَّرُّ، كَمْ جَاءَكَ الشَّوَابُ إِلَى الْبَيْتِ، قَرَدَ بَوَابِ عَسَى
 وَلَيْتَ، وَشَبِعْتَ وَالْجَانِعَ مَا وَاسَيْتَ، تَالِلَهُ لَقَدْ نَسِيتَ وَتَنَاسَيْتَ مِنْ أَغْنَاكَ
 وَأَقْفَرَهُ، عُمَرُ نَاقِصٌ، وَحَرَمٌ زَائِدٌ، وَمَرِيضٌ مِنَ الْهَوَى مَا لَهُ عَائِدٌ، وَعِظَاتُ
 بِالْعَاثِ وَالْقَلْبُ حَائِدٌ، يَا لَيْتَهُ يَعْمَلُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ عَشْرَةٍ.

الفصل المائة

في قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ
وَالْفَتْحُ ۝﴾ [النصر، ١]

(نصر الله): معونته على الأعداء، وسمي النصر فتحاً؛ لأنه يفتح باباً مغلقاً، و (الدين): ما التزمه الإنسان لله عز وجل وحده.
وقال بعضهم: يقال الدين: هو النهي، رادع للنفس، يقومها ويمنعها من استرسالها فيما طبعته عليه.

والدين^(١) في القرآن على عشرة أوجه:
أحدها: الجزاء: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة: ٤] .
الثاني: الإسلام: ﴿وَالْهَدْيَ وَبَيْنَ الْخَيْرِ ۝﴾ [التوبة: ٣٣] .
الثالث: العدد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا ۝﴾ [التوبة: ٣٦] .
الرابع: الطاعة: ﴿وَلَا يَبْغُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ۝﴾ [التوبة: ٢٩] .

(١) قال شيخنا علي بن عبيد الله: الدين: ما التزمه الإنسان، يقال: فَعَلَّ الرَّجُلُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أي: التزم ما يجب لله عز وجل عليه.

وحده غيره فقال: الدين قول إلهي رادع للنفس بقومنها ويمنعها من الاسترسال فيما طبعته عليه.

والدين يَدَانِ ويُراد به: التملُّكُ والشُّطْرَانُ.

يقال: جُنْتُ الْمَرْءَ أَوْ بَغَيْتُهُ، أي: قهرته وأذللتهم فذابوا، أي: قَلَّوا وخضعوا.

وقال ابن فنية: والدين لله إنما هو من هذا، قال القطامي:

فَأَنْتَ تَوَارَ تَدِينُكَ الْإِقْبَانَا

أي: تذلِّلُكَ.

الخامس: التوحيد: ﴿تَعْلَمُونَ لَهُ الْيَوْمَ﴾ [يونس: ٢٢].
 السادس: الحكم: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَمْرًا فِي يَوْمٍ أَتَىٰ﴾ [يوسف: ٧٦].
 السابع: الخذل: ﴿وَلَا تَقْلُقْ بِهِمَا رَأْفَةً فِي يَوْمٍ آتٍ﴾ [النور: ٢].
 الثامن: الحساب: ﴿يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ بِهَتَمٍ خَيْرَ﴾ [النور: ٢٥].
 التاسع: العبادة: ﴿أَقْبَلْتُمْ إِلَهُهُ وَيُحْكُمُ﴾ [الحجرات: ١٦].
 العاشر: الجلة: ﴿وَذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].
 والألواح جماعة في تفرقة، والاستفغار^(١) في القرآن على ثلاثة أوجه:
 أحدها: الصلاة؛ ومنه: ﴿وَالْتَسْتَفِيزُ بِالْأَسْتَفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧].
 الثاني: التوحيد: ﴿وَالْتَسْتَفِيزُوا رَبَّكُمْ﴾ [هود: ٩٠].
 الثالث: نفس الاستغفار: ﴿فَتَسْبِغْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَفِيزْهُ﴾ [النصر: ٣].
 لما خرج نبينا صلى الله عليه وسلم من بطن الحصر فدخل قصر النضر،
 عبت أيدي سراياه بالتصرف في الأطراف، فطار ذكره في الأفطار، فكتب إلى
 الملوك، فأمن من آمن، وجاهد من جاهد، فبعث خديفة إلى كسرى، ودحية
 إلى قيصر، وحاطبًا إلى المقوقس، وعمرو بن أمية إلى التجاشي، فعدت أظفار
 ظفره ناشبة فيمن عادت؛ لأنه جدّ وهزلوا، لمصعد ونزلوا، ألقى بدر النصر على
 ألم: ﴿إِذَا الْمَرْيَةُ الْيَوْمَ حَكَمُوا﴾ [التوبة: ٤٠]، في مزرعة: ﴿فَتَسْبِغْ كَمَا سَبَّغَ
 أُولُوا الْقَرْبَىٰ مِنْ أَرْسَلٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فإذا أخصان النبات تهتز بخزامي:
 ﴿وَالْحَرُوجُ يَكْسُحُ﴾ [المائدة: ٤٥].

قدم مكة مالحًا، وعلا كعب بلالٍ على الكعبة بعد أن كان تجرد في

(١) الاستفغار: استغفار من غلب القرآن.

والفقران: تغطية اللب بالفقو عند الفقر: الشتر. ويقال: اخبث ثوبك فهو أخفر
 للوسخ، وغفر الحر والصفوف: ما علا فوق الثوب منهما كالزيت: سفي غفرًا لأنه
 يشتر الثوب.

ويقال: ليحترق الرأس يغفر، لأنها تشتر الرأس.

وقال أبو سليمان الخطابي: وحكن بعض أهل اللغة أن المغفرة مأخوذة من الغفر، وهو
 نبت يذوق به الجراح، يقال: إنه إذا ذر عليها دملها وأبرأها.

الرمضاء على أمراض الفتنة، فنشر يَرَأَى طوى عن القوم من يوم قوله: أحد أحد، وَأَحْضَمُ الْأَذَانُ بِالْأَذَانِ عَنْ إِذْنِ الْأَذَانِ، فكان ذلك تقدماً عجلاً عن وعد: ﴿قَاتِلُوا الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَهُمُ﴾ [الأعراف: ٤٤]، فلما جلس الرسول صلى الله عليه وسلم على سرير العز، وما نزل عنه قَطُّ فَقَطُّ بسيف الرعب رموس الرموس، فوافوا وأقدين كالقَطْرِ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ، وكان يأتون قبل الفتح أحاد، فلما كان الفتح حاد إليه من عنه حاد، فَتَهَدَّ وَفَدَّ تَهْدٍ، وقد تهكته، فقام منهم طخفة، فقال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَتَيْتَاكَ مِنْ غَوْرَى تِهَانَةٍ، عَلَى أَكْثَارِ الْمَيْسِ، تَرْمِي بِنَا الْعَيْسِ، فَتَسْخَلِبُ الضَّيْبِ، وَتَسْخَلِبُ الْكَبِيرِ، وَتَسْتَعِضُ الْبَرِيرِ، وَتَسْخَلِبُ الرَّفَامِ، وَتَسْجِلُ الْجَهَنَّمَ مِنْ أَرْضِ عَالِيَةِ السَّطَاءِ، غَلِيظَةِ الْوُطَاءِ، قَدْ نَشَفَ الْمَدْنِ، وَبَسَّ الْجَعْنِ، وَسَقَطَ الْأَنْلُوجُ، وَمَاتَ الْغُسْلُوجُ، وَفَلَكَ الْهَزَالُ، وفاء الودي، يرفنا إليك يا رسول الله من الزَّوْنِ وَالْعَيْنِ، وما يحدث الزمن لنا دعوة المسلم وشريعة الإسلام ما طمى البحر وقام يعار، ولنا نعم عمل أعقال، ما نفض بيلال ووفير كثير الرسل، أصابنا سنة حمراء مؤزلة أكدي فيها الزرع، وامتنع فيها الضرع، ليس بها علل ولا نهل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ، وَابْعَثْ لَهُمْ فِي مَخْضِبِهَا وَمَخْضِبِهَا وَمَذْقِهَا، وَابْعَثْ رَاجِعِهَا فِي الدَّوْرِ بِبَايَعِ الثَّمَرِ، وَافْجِرْ لَهُمُ الثَّمَدَ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ" (١).

ثم كتب معه كتاباً نسخته: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى بني تَهْدٍ، السلام على من آمن بالله ورسوله، من أقام الصلاة كان مؤمناً، ومن أتى الزكاة كان مسلماً، ومن شهد أن لا إله إلا الله لم يكتب غافلاً، لكم بني تَهْدٍ في الوظيفة القريضة، ولكم العارض الفرس، وذو العتاب الركوب، والفلو الضبيس، لا تمنع سرحكم، ولا تُعْضِدْ طلحكم، ولا يُحْبِسْ دركم، ما لم تضمروا الأماق، ولا تأكلوا الرياق، لا يُلَطِّطْ في الزكاة، ولا يُلْحَا في الحباة، ولا يُثْثَاقِلْ عن الصلاة، من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد واللمعة، ومن أبى فعلية الرئوة.

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٨٤، رقم ٢٨٤).

فقال له علي رضي الله عنه: يا رسول الله؛ إنك لتكلم وفوة العرب بلسان ما يُفهم أكثره، قال: **إِنَّ اللَّهَ أَذْبَنِي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي، وَتَنَشَأْتُ فِي بَيْتِي سَغِيرٌ** .

ولقد لقيه وفد همدان مُقبلاً من تبوك، وكان قد خرج إليها في حُرٍّ يُشبه قلب الضَّبِّ، ويُذيب دِمَاحَ الضَّبِّ، ومقدمهم ذو المعشار مالك بن نبط، فقال: يا رسول الله؛ قصبة من همدان من كل حاضر وباد، أتوك على قُلُوصِ نواج مُتصلة بحبائل الإسلام، لا يأخذهم في الله لومة لائم من مخلافٍ خارقٍ، وأقام عهدهم لا ينقص عن سنة ماحلٍ ولا سوداء عظيمٍ ما قام لعلج، وما جرى اليحفور يصلح، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب: "من محمد رسول الله لمخلاف خارقٍ وأهل جناب الهضب وخفاف الرمل مع وأقدما ذي السمعار مالك بن نبط، من أسلم من قومه على أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها، ويرعون عناقها، لنا من ذقتهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلث والثناب والفصيل والفارض الداجي والكيس الحوري، وعليهم فيه الضالع والقادح"^(١)، وما زالت الوفود تقبل بعد إتيانها أفرافاً وأقواجاً، ولو رأيت من أهل العناد لجانحاً ثار كالجانح، والرسول يُنعم ويحيز حتى ملأ عطاؤه مخلاء الأبل الفقر بكفٍّ مَرٍّ لا يخاف الفقر.

ولقد كتب لأكيدر بن عبد الملك هذا كتاب: "من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكتافها، إن له الضاحية من الضحل والبور والتعامي والأغفال والحلقة والسلاح، فلکم الصامت من النخل والمعين من المعمور بعد الخمس، لا يُعدل سارحتكم ولا يعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النيات، ولا يُؤخذ منكم إلا عُشر النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحفتها، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه"^(٢).

(١) انظر: الغاتي ٣/ ٤٣٣.

(٢) أخرجه ابن زنجويه في الأموال ١٠٦/٢.

وكتب لوائل بن حجر ولقومه: " من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأقبال العباهلة من أهل حضرموت، بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، على البعير شاء، والبيعة لأصحابها، وفي الستون الخمس، لا خلط ولا وراط، ولا سباق ولا شعار، ومن أجبي فقد أربي، وكلُّ حرامٍّ ^(١) .

فلما تكامل نصر المصطفى صلى الله عليه وسلم، جاءه الأجل وما نزل به لما فتح له النصر من مستغلق الظهر بابًا بابًا بداره دائر ما دارى دارًا ولا حايى حايا، وقيل: قم يا من ثوى في الدنيا، فاستوف في الآخرة ثوابًا، وعنون خطاب الإشارة إلى رحيله كتابًا، ﴿فَسَيَحْجَمِدُ رَبُّكَ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ ثَوَابًا﴾ [النصر: ٣].

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ووافق الفراغ منه على يد الفقير إلى الله تعالى محمد بن منصور... بن أحمد، الواعظ الموصلي، في يوم الأربعاء سادس عشري رجب، ليلة المعراج من سنة أربع وثلاثين وست مائة بالمدرسة البدرية، حامدًا لله، ومصليا على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٠ / ٣٣٦، رقم ٧٩٥).

فهرس المصادر والمراجع

- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: للشيخ أحمد بن محمد البنا. تحقيق: الدكتور شعبان محمد إسماعيل. ط: عالم الكتب- بيروت ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧ م.
- الإنقان في علوم القرآن: للحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني. القاهرة ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧ م.
- أحكام القرآن: للإمام الشافعي. (جمع البيهقي) بعناية الشيخ عبد الغني عبد الخالق. ط: دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.
- أحكام القرآن: للجصاص. نشر: دار الكتاب العربي- بيروت. مصورة عن طبعة الخلافة العثمانية.
- أحكام القرآن: للكنيا الهراس. تحقيق: موسى محمد علي، والدكتور عزت علي عطية. ط: دار الكتب الحديثة- القاهرة.
- أحكام القرآن: لأبي بكر العربي. تحقيق: علي محمد الجاوي. ط: عيسى البابي الحلبي- القاهرة، ١٣٩٤ هـ-.
- أخبار مكة: للفاكهي. تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. نشر: مكتبة النهضة- مكة المكرمة.
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: للأزرقي. تحقيق: رشدي الصالح. ط: دار الثقافة- مكة المكرمة ١٤٠٣ هـ-.
- الأخبار الموقفيات: للزبير بن بكار. تحقيق: الدكتور سامي مكّي العاني. نشر رئاسة ديوان الأوقاف- بغداد ١٩٧٣ م.

- الأدب المفرد: للإمام البخاري، باعثناء محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار البشائر الإسلامية- بيروت ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٩ م.
- الأزمنة وتلبية الجاهلية: لقطرب، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤٠٥ هـ-.
- أساس البلاغة: للزمخشري، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م.
- أسباب النزول: للواحدي، تحقيق: سيد أحمد صفر، دار القبلة- جدة ١٤٠٧ هـ-.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر النمري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط: نهضة مصر القاهرة ١٩٦٠ م.
- الاستغناء في أحكام الاستثناء: لشهاب الدين القرافي، تحقيق: الدكتور طه محسن، نشر: وزارة الأوقاف العراقية- بغداد- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير، تحقيق: محمد إبراهيم البناء، ومحمد أحمد عاشور، دار الشعب- القاهرة- ١٩٧٠ م.
- أسماء خيل العرب وأسابيها: للأسود الفندجاني، تحقيق: الدكتور محمد علي سلطاني، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٢ هـ-.
- الأسماء والصفات: للبيهقي، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، ط: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
- إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين: لعبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، تحقيق: الدكتور عبد المجيد ذياب، نشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية- الرياض- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- الاشتقاق: لابن دريد، تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون، ط: الغانجي- القاهرة- ١٩٥٨ م.
- اشتقاق أسماء الله: لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: د. عبد الحسين المبارك، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ-.

- الإصابة في معرفة الصحابة: للحافظ ابن حجر العسقلاني. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: نهضة مصر- القاهرة- ١٩٦٠ م.
- إصلاح الوجه والنظائر: للدماقاني. تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل. ط: دار العلم للملايين- بيروت- ١٩٨٥ م.
- الأضداد: لأبي بكر ابن الأنباري. تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: حكومة الكويت- ١٩٦٠ م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للشيخ محمد الأمين الشنقيطي. طبعة الرياض- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- إعجاز القرآن: لأبي بكر الباقاني. تحقيق: السيد أحمد صقر. ط: دار المعارف- مصر.
- إعراب القرآن: لأبي جعفر النحاس. تحقيق: د. زهير غازي زاهد. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٥ هـ.
- الأعلام: للأستاذ غير الدين الزركلي. ط: دار العلم للملايين- بيروت- ١٩٨٤ م.
- الإكمال في رفع الارياب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: للحافظ ابن ماكولا. باعثناء: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي. نشر: محمد أمين دمج- بيروت- ١٩٦٢ م.
- الأم: للإمام الشافعي. ط: دار المعرفة- بيروت- ١٣٩٣ هـ.
- الأمثال: لأبي عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: الدكتور عيد المجيد قطامش. نشر: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة- ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.
- الأموال: لأبي عبيد القاسم بن سلام. باعثناء الشيخ محمد خليل الهراس. ط: دار الفكر- بيروت- ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.
- إنباء الرواة على أنباء النحاة: للقفطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ١٤٠١ هـ.

- الإنباء على قبائل الرواة: لابن عبد البر، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
- الأنساب: لأبي نصر السمعاني، تحقيق: عبد الرحمن يحيى المعلمي وآخرين، نشر: محمد أمين دمج- بيروت- ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف: لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، نشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت- بدون تاريخ.
- الأنواء: لابن قتيبة الدينوري، اعتنى بنشره: شارل بلا، ومحمد حميد الله، ط: دائرة المعارف العثمانية ببيدرآباد- الهند- ١٣٧٩ هـ- ١٩٥٦ م.
- أنوار التنزيل تفسير البضاوي.
- الأيام والليالي والشهور: للفراء، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط: دار الكتاب المصري- القاهرة- ١٤٠٠ هـ.
- إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل: لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري.
- تحقيق: محي الدين عبد الرحمن ومضان، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق- ١٣٩٠ هـ- ١٩٧١ م.
- الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، نشر: دار المنارة- جدة- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي، ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٣ هـ.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني، نشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- البداية والنهاية: للحافظ ابن كثير، تحقيق: أحمد أبو ملحوم وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبد الستار، ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٥ هـ.
- البرهان في علوم القرآن: لبيد الدين الزركشي، تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: عيسى البابي الحلبي- القاهرة.

- البث: لابن أبي داود السجستاني، تحقيق: أبي إسحاق الحويني الأثري، نشر: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.
- بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد: للقاضي عياض، تحقيق: صلاح الدين بن أحمد الإلهي، ومحمد الحسن أجانف، ومحمد عبد السلام الشرقاوي، من مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية- ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للحافظ جلال الدين السيوطي- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: عيسى الحلبي، القاهرة- ١٣٨٤ هـ.
- بلدان الخلافة الشرقية: للمستشرق كي لسترنج، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
- البيان في غريب إعراب القرآن: لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق: الدكتور طه عبد الحميد طه، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.
- تاج العروس في شرح جواهر القاموس: للزبيدي، مطبعة حكومة الكويت- ١٣٨٥ هـ- ١٩٦٥ م.
- تاج اللغة الصحاح.
- التاريخ: ليحيى بن معين، تحقيق: د. أحمد محمد نور سيف، نشر: مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز- ١٣٩٩ هـ.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: للدكتور حسن إبراهيم حسن، نشر: مكتبة النهضة المصرية- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.
- تاريخ الأمم والملوك: للطبري، تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار المعارف- القاهرة- ١٩٦٦ م.
- تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت.
- تاريخ جرجان: للسهمي، باعتناء: الدكتور محمد عبد المعيد خان، ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

- تاريخ دولة آل سلجوق: لعماد الدين الأصفهاني، اختصار: الفتح بن علي البنداري، نشر: شركة طبع الكتب العربية- القاهرة- ١٣١٨ هـ- ١٩٠٠ م.
- التاريخ الكبير: للإمام البخاري، ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٧ هـ-
مصورة عن الطبعة الأولى بحيدرآباد- الهند- ١٣٦٦ هـ-.
- تأويل مشكل القرآن: لابن فتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط: دار التراث- القاهرة- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.
- التبصرة في القراءات: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: الدكتور محي الدين رمضان، من منشورات معهد المخطوطات العربية- الكويت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
- التيبان في إعراب القرآن: لأبي البقاء المكي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط: عيسى الحلبي- القاهرة- ١٣٩٦ هـ-.
- تحفة الأريب: لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. سمير المجذوب، ط: المكتب الإسلامي،
- تحفة الفقهاء: لعلاء الدين السمرقندي، تحقيق: الدكتور محمد زكي عيد البر، نشر: إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.
- تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية: لعلي بن محمد الخزاعي، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
- تذكرة الأريب في تفسير الغريب: لابن الجوزي، تحقيق: الدكتور علي حسين البواب، نشر: مكتبة المعارف- الرياض- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦ م.
- تذكرة أولي الأبواب والجامع للعجب العجائب: لداود بن عمر الأنطاكي، ط: مصطفى الباي الحلبي- القاهرة- ١٩٥٢ هـ-.
- تذكرة الحفاظ: للحافظ الذهبي، باعتناء: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ط: دار الفكر العربي.

التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.

تحقيق: الدكتور أحمد حجازي السقا. نشر: مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة- ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.

تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس: للحافظ ابن حجر العسقلاني. تحقيق: الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري، ومحمد أحمد عيد العزيز. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٤ م.

التعريفات: للشريف الجرجاني. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام: لأبي القاسم السهيلي. تحقيق: عيد مهنا. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

تفسير آيات الأحكام: للشيخ محمد علي السائس. ط: محمد علي صبيح- القاهرة- ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٣ م.

تفسير ابن كثير: للحافظ ابن كثير. تحقيق: الأساتذة محمد إبراهيم البنا وعبد العظيم غنيم ومحمد أحمد عاشور. ط: الشعب- القاهرة- ١٣٩٠ هـ- ١٩٧٠ م.

تفسير البخوي: تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار. ط: دار المعرفة- بيروت- ١٤٠٦ هـ-.

تفسير البيضاوي: ط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م.

تفسير ابن أبي حاتم الرازي (سورة البقرة): تحقيق: أحمد عبد الله العمري الزهراني. نشر: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ودار طيبة بالرياض، ودار ابن القيم بالدمام- ١٤٠٨ هـ-، - وتفسير سورتى آل عمران والنساء: (رسالة دكتوراه) بجامعة أم القرى. بتحقيق: حكمت بشير ياسين- ١٤٠٤ هـ-

١٤٠٥ هـ. - وتفسير سورة الأنعام: بتحقيق: عبد الرحمن محمد الحامد.
 (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى- ١٤٠٤- ١٤٠٥ هـ. - وتفسير سورة
 الأعراف: بتحقيق: حمد أحمد أبي بكر. (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى-
 ١٤٠٦ هـ. - وتفسير سورتي الأنفال والتوبة: بتحقيق: عيادة أيوب الكبيسي.
 (رسالة دكتوراه) بجامعة أم القرى- ١٤٠٦- ١٤٠٧ هـ. - وتفسير سورة
 يوسف: بتحقيق: محمد عبد الكريم بنجاني. (رسالة ماجستير) بجامعة أم
 القرى- ١٤٠٥ هـ. - وتفسير سورتي النور والفرقان: بتحقيق: عمر يوسف
 حمزة. (رسالة دكتوراه) بجامعة أم القرى- ١٤٠٥- ١٤٠٦ هـ. - وتفسير
 سورة الشعراء: بتحقيق: عبد الله حامد سمبو. (رسالة ماجستير) بجامعة أم
 القرى- ١٤٠٦- ١٤٠٧ هـ. - وتفسير سورة النمل: بتحقيق: نشأت محمود
 الكوجك. (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى- ١٤٠٤- ١٤٠٥ هـ.

تفسير الطبري: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق: الأستاذ
 محمود محمد شاكر. ط: دار المعارف بمصر- ١٣٧٤ هـ. وط: مصطفى الباني
 الحلبي- القاهرة- ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م.

تفسير عبد الرزاق الصنعاني: تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد. طبعة على
 الآلة الكاتبة- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.

تفسير غريب القرآن: لابن قتيبة. تحقيق: السيد أحمد صقر. تصوير: دار
 الكتب العلمية- بيروت- ١٩٧٨ م.

تفسير غريب القرآن: لابن الملقن. تحقيق: سمير طه المجلوب. ط:
 عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧ م.

تفسير الفخر الرازي: ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٣ هـ.

تفسير القرآن العظيم تفسير ابن كثير تفسير القرطبي: لأبي عبد الله محمد
 ابن أحمد الأنصاري القرطبي. تصوير: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

تفسير الماوردي: لأبي الحسن الماوردي. تحقيق: خضر محمد خضر.
 نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الكويت- ١٤٠٢ هـ.

تفسير المشكل من غريب القرآن العظيم على الإيجاز والاختصار: لمكي

ابن أبي طالب القيسي، تحقيق: هدي الطويل المرعشلي، ط: دار التنوير الإسلامي- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

تفسير النسائي (من السنن الكبرى) : تحقيق: صبري عبد الخالق الشافعي، وسيد عباس الجليمي، نشر: مكتبة السنة- القاهرة- ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م.

تفسير النسفي : ط: دار إحياء الكتب العربية.

تقريب التهذيب: للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، ط: دار البشائر الإسلامية- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام: لابن عسكر الغساني، تحقيق: حسين عبد الهادي محمد، رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

تنبيه البصائر في أسماء أم الكباثر: لابن دحية الأندلسي، نسخة مصورة بمكتبة الدكتور عبد الرحمن العثيمين، بمكة المكرمة.

تهذيب الألفاظ: لابن السكيت، والمهذب أبو زكريا التبريزي، نشره: لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية- بيروت- ١٨٩٥ م.

تهذيب التهذيب: للحافظ ابن حجر، نشر: دار صادر- بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى بالهند.

تهذيب اللغة: للأزهري، ط: الدار العربية- القاهرة- ١٣٨٤ هـ.

التوكل على الله: للحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا، تحقيق: جاسم فهد الدوسري، ط: دار البشائر الإسلامية- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

التيسير في القراءات السبع: لأبي عمرو الداني، عني بتصحيحه: أونزل- مطبعة الدولة إستانبول- ١٩٣٠ م.

الثقات: لابن حبان البستي، نشر: دار الفكر- بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى بحيدرآباد، الهند- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

ثلاثة كتب في الأضداد: (للأصمعي، والسجستاني، وابن السكيت)، نشرها: الدكتور أوغست هفتر، ط: دار الكتب العلمية- بيروت.

- جامع البيان تفسير الطبري.
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير: للسيوطي، ط: مصطفى الحلبي- القاهرة- ١٣٧٣ هـ.
- الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي.
- الجرح والتعديل: لأبي حاتم الرازي. نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى بدائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد.
- جمل الغرائب (مخطوط): لبيان الحق النيسابوري، نسخة مصورة بمكتبة مركز البحث العلمي عن مكتبة الأسكوريال رقم (١٦٠٤).
- الجميل في النحو: لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: علي توفيق الحمد، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
- الجمهرة: لابن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط: دار العلم للملايين- ١٩٨٧ م.
- جمهرة الأمثال: لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، ط: المؤسسة العربية الحديثة- القاهرة- ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٤ م.
- جمهرة أنساب العرب: لابن حزم الأندلسي، تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون، ط: دار المعارف- القاهرة- ١٩٨٢ م.
- الجنى الداني في حروف المعاني: لابن قاسم المرادي، تحقيق: طه محسن، ط: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر- العراق- ١٣٩٦ هـ- ١٩٧٦ م.
- جوامع السيرة: لابن حزم الأندلسي، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، والدكتور ناصر الدين الأسد، ط: دار المعارف بمصر.
- الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية: لعبد القادر بن محمد القرشي، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، ط: عيسى الجابي الحلبي- ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.
- حاشية الخرشى على مختصر خليل ط: دار صادر- بيروت.

- حاشية الهيثمي على الإيضاح: نشر: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- الحجة للقراءات السبعة: لأبي علي الفارسي، تحقيق: بدر الدين قهوجي، وشير جويجاتي. ط: دار المأمون للتراث- دمشق- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- حجة القراءات: لأبي زرععة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- حروف المعاني: لأبي القاسم الزجاجي. تحقيق: الدكتور علي توفيق الحمد. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- الحلبة في أسماء الخيل في الجاهلية والإسلام: للمصاحبي التاجي. تحقيق: الدكتور حاتم صالح الضامن. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: للحافظ أبي نعيم الأصفهاني. نشر: دار الفكر- بيروت.
- خزانة الأدب: للبغدادي. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط: الخانجي- القاهرة.
- الخصائص: لأبي الفتح ابن جني. تحقيق: محمد علي النجار. ط: عالم الكتب- بيروت.
- الخيال (مطلع اليمن والإقبال في انتفاء كتاب الاحتفال): لعبد الله بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي. تحقيق: محمد العربي الخطابي. ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- المدارس في تاريخ المدارس: لعبد القادر بن محمد النعمي الدمشقي. تحقيق: جعفر الحسني. ط: مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ١٩٨٨ م.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: للنسبميين الحلبي. تحقيق: الدكتور أحمد الخراط. ط: دار القلم- دمشق- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- الدر المنثور في التفسير المأثور: للحافظ جلال الدين السيوطي. ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٣ هـ.

الدعاء: للطبراني، تحقيق: الدكتور محمد سعيد البخاري، ط: دار البشائر الإسلامية- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

دلائل النبوة: للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: محمد رواس قلجي، ط: المكتبة العربية بحلب- ١٣٩٠ هـ- ١٩٧٠ م.

دلائل النبوة: للبيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلججي، نشر: دار العلمية- بيروت- ١٤٠٥ هـ.

ديوان جرير: تحقيق: د. نعمان طه، ط: دار المعارف- القاهرة.

ديوان العجاج: شرح الأصمعي، تحقيق: الدكتور عزة حسن، مكتبة دار الشروق- بيروت- ١٩٧١ م.

ديوان القطامي: تحقيق: إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، بيروت- ١٣٧٩ هـ- ١٩٦٠ م.

ديوان النابغة الذبياني: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار المعارف- بنصر- ١٩٧٧ م.

رصف المياني في حروف المعاني: للمالقي، تحقيق: الدكتور أحمد الخراط، ط: دار القلم- دمشق- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للشيخ شهاب الدين الأكلوسي، نشر: مكتبة التراث- القاهرة- بدون تاريخ.

الروض الأنف: للسبيلي، باعثناء: طه عبد الرؤوف سعد، نشر: دار المعرفة- بيروت- ١٣٩٨ هـ.

الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: د. إحسان عباس، ط: مكتبة لبنان- بيروت- ١٩٨٤ م.

روضة الطالبين وعمدة المفتين: للإمام النووي، باعثناء: زهير الشاويش، ط: المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

الريح: لابن خالويه، تحقيق: الدكتور حسين محمد شرف، نشر: مكتبة إبراهيم الحلبي العلمية- المدينة- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

- زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج ابن الجوزي. ط: المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٤ هـ.
- زاد المعاد في هدى خير العباد: لابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- الزاهر في معاني كلمات الناس: لأبي بكر بن الأنباري. تحقيق: الدكتور حاتم صالح الضامن. نشر: وزارة الثقافة بالعراق- ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م.
- الزهد: للإمام وكيع بن الجراح. تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. نشر: مكتبة الدار- المدينة المنورة- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- الزهد: لعبد الله بن المبارك. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. نشر: دار الكتب العلمية- بيروت.
- الزهد: لهناد بن السري. تحقيق: محمد أبو الليث الخيري/بادي. نشر: إدارة إحياء التراث الإسلامي- قطر- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- السبعة في الفراءات: لابن مجاهد. تحقيق: د. شوقي ضيف. ط: دار المعارف- القاهرة- ١٤٠٠ هـ.
- سنن الترمذي: تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر- محمد فؤاد عبد الباقي- وإبراهيم عطوة عوض. ط: مصطفى الحلبي- القاهرة- ١٣٩٥ هـ.
- سنن الدارقطني: ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- سنن الدارمي: تحقيق: فواز أحمد زمرلي، وعالم السبع العلمي. نشر: دار الكتاب العربي- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.
- سنن أبي داود السجستاني: تعليق: عزت عبيد الدعاسي. نشر: دار الحديث- حمص- سوريا- ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٩ م.
- السنن الصغرى: للنسائي. باعثناء: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. ط: دار البشائر- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- السنن الكبرى: للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. نشر: دار المعرفة- بيروت- مصورة عن الطبعة الأولى بالهند ١٣٤٤ هـ.

- سنن ابن ماجه: تحقيق: الأستاذ فؤاد عبد الباقي، نشر: دار الفكر- بيروت.
- سير أعلام النبلاء: للحافظ شمس الدين الذهبي. تحقيق: جماعة من الأساتذة، ط: مؤسسة الرسالة- ١٩٨٢ م.
- السيرة: لابن هشام. تحقيق: الأساتذة مصطفى السقاء وإبراهيم الأياري وعبد الحفيظ شلي، ط: مصطفى الحلبي- القاهرة- ١٣٧٥ هـ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لابن العماد الحنبل. تحقيق: محمود الأرناؤوط، نشر: دار ابن كثير- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.
- شرح العقيدة الطحاوية: للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي. تحقيق: بشير محمد عيون. نشر: مكتبة دار البيان- دمشق- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
- شرح فتح القدير للعاجز الفقير: لابن الهمام الحنفي. تصوير: دار إحياء التراث العربي- بيروت عن طبعه بولاق.
- شرح كلا وبلى ونعم: لمكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: الدكتور أحمد حسن فرحات، ط: دار المأمون- دمشق- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٣ م.
- شرح ما يقع فيه التصحيف: لأبي أحمد العسكري. تحقيق: عبد العزيز أحمد. مطبعة: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٨٣ هـ- ١٩٦٣ م.
- شعب الإيمان: للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط: دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م.
- الشعر والشعراء: لابن قتيبة. تحقيق وشرح: الشيخ أحمد محمد شاكر، ط: دار المعارف- القاهرة- ١٩٨٢ م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض. تحقيق: علي محمد الجبلاوي. نشر: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠٤ هـ.
- شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام: لتقي الدين محمد بن أحمد الفاسي لمكي. نشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

- الصحاح: للجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. ط: دار العلم للملايين- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي. ط: المكتبة الإسلامية- إستانبول- ١٩٨١ م.
- صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق وترقيم: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- صفة الجنة: للحافظ أبي نعيم الأصفهاني. تحقيق: علي رضا عبد الله. ط: دار المأمون للتراث- دمشق- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- صيد الخاطر: لأبي الفرج ابن الجوزي. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. نشر: مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة- ١٩٧٩ م.
- الضعفاء الكبير: للعقيلي. تحقيق: الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي. نشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- طبقات الأولياء: لأبن الملقن. تحقيق: نور الدين شربية. نشر: مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.
- طبقات الحفاظ: للحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد علي محمد عمر. نشر: مكتبة وهبة- القاهرة- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.
- طبقات الشافعية الكبرى: للسيكي. تحقيق: د. محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد العلوي. ط: عيسى الحلبي- القاهرة- ١٣٨٣ هـ.
- طبقات الصوفية: لأبي عبد الرحمن السلمى. تحقيق: نور الدين شربية. نشر: دار الكتاب النفيس- حلب- سوريا- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- طبقات فحول الشعراء: لمحمد بن سلام الجمحي. تحقيق: الأستاذ محمود محمد شاكر. ط: المدني- القاهرة.
- طبقات الفقهاء: لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي. تحقيق: د. إحسان عباس. ط: دار الرائد العربي- بيروت- لبنان- ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.
- الطبقات الكبرى: لأبن سعد. ط: دار صادر- بيروت.

طبقات المفسرين: للداودي، تحقيق: علي محمد عمر، نشر: مكتبة
وهبة- القاهرة- ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م.

طبقات التحويين واللفويين: لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي
الأندلسي، تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار المعارف-
القاهرة- ١٣٩٢ هـ.

ظهر الإسلام: تأليف: أحمد أمين، نشر: دار الكتاب العربي- بيروت-
لبنان- ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٩ م.

العباب الزاخر والياب الفاخر: الصاغانى.

العبر في خبر من خبر: للحافظ الذهبي، تحقيق: د. صالح الدين
المنجد وفواز سيد ومحمد رشاد عبد المطلب، نشر: وزارة الإعلام بالكويت
١٩٨٤ م.

حجالة المبتدي وقضالة المتتهي في النسب: للحافظ أبي بكر محمد بن
أبي عثمان الحازمي الهمداني، تحقيق: عبد الله كنون، ط: الهيئة العامة لشؤون
المطابع الأميرية- القاهرة- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

عصمة الأنبياء: لفخر الدين الرازي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت-
١٤٠١ هـ.

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: للإمام أبي الطيب التقي الفاسي،
ط: السنة المحمدية- القاهرة- ١٣٧٩ هـ.

عمل اليوم والليلة: للإمام أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: الدكتور
فاروق حمادة، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٥ م.

عمل اليوم والليلة: لأبي السني، تحقيق: بشير محمد عيون، نشر: مكتبة
دار البيان- دمشق- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي،
والدكتور إبراهيم السامرائي، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت-
١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

هيون الأثر في فتون المغازي والشمائل والسير: لابن سيد الناس. نشر: دار المعرفة- بيروت.

الغاية في القراءات العشر: للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران. تحقيق: محمد غياث الجنيد. ط: شركة العبيكان- الرياض- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

غاية النهاية في طبقات القراء: لابن الجزري. عني بنشره: ج. برجستراسر. تصوير: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٢ هـ.

غرائب التفسير وعجائب التأويل: للشيخ محمود بن حمزة الكرمانى. نشر: د. شمران سركال يونس العجلي. ط: مؤسسة علوم القرآن- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

غريب الحديث: لأبي عبيد القاسم بن سلام. ط: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٣٩٦ هـ- مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد- الدكن- الهند- ١٣٨٤ هـ.

غريب الحديث: لابن قتيبة. تحقيق: د. عبد الله الجبوري. نشر: وزارة الأوقاف بالعراق- ١٣٩٧ هـ- ١٩٧٧ م.

غريب الحديث: للخطابي. تحقيق: عبد الكريم العزباوي. نشر: مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٢ هـ.

غريب الحديث: لابن الجوزي. تحقيق: الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

غريب القرآن وتفسيره: لعبد الله بن يحيى الزبيدي. تحقيق: محمد سليم الحاج. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة: لابن بشكوال. تحقيق: د. عز الدين علي السيد ود. محمد كمال الدين عز الدين. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

القاتل في غريب الحديث: للزمخشري. تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ط: عيسى الحلبي- القاهرة.

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للحافظ ابن حجر العسقلاني،
 باعتماد: محب الدين الخطيب. ط: السلفية- ١٤٠١ هـ.
- الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البضاوي: لزين الدين
 عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: أحمد مجتبى بن تدير عالم السلفي، نشر: دار
 العاصمة- الرياض- ١٤٠٩ هـ.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن
 علي الشوكاني، ط: مصطفى الحلبي- القاهرة- ١٣٨٣ هـ.
- الفصيح: لأبي العباس ثعلب، تحقيق: الدكتور عاطف مذكور، ط: دار
 المعارف بمصر- ١٩٨٤ م.
- فضائل القرآن: لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: محمد
 تجاني جوهرى، (رسالة ماجستير) بجامعة الملك عبد العزيز، ١٣٩٣ هـ-
 ١٩٧٣ م.
- الفهرست: للتنديم، تحقيق: رضا تجدد، ط: طهران- ١٣٩١ هـ-
 ١٩٧١ م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير: للشيخ عبد الرؤوف المناوي، نشر:
 دار إحياء السنة النبوية- القاهرة.
- القاموس المحيط: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط:
 مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- القطع والانتاف: لأبي جعفر النحاس، تحقيق: الدكتور أحمد خطاب
 العمر، نشر: وزارة الأوقاف بالعراق- ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.
- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة: للحافظ الذهبي،
 تحقيق: عزت علي عيد عطية، وموسى محمد علي، ط: دار الكتب الحديثة-
 القاهرة- ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م.
- الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف: للحافظ ابن حجر
 العسقلاني، مطبوع بليل الكشاف، ط: دار المعرفة- بيروت.
- الكافي في فقه الإمام المجل أحمد بن حنبل: لابن قدامة المقدسي،

تحقيق: زهير الشاوش، ط: المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.
الكامل في الأدب: للميرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

الكامل في التاريخ: لابن الأثير، ط: دار صادر- بيروت- ١٤٠٢ هـ-
الكامل في ضعفاء الرجال: للحافظ أحمد عبد الله بن عدي، ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

الكتاب: لسبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر- ١٩٧٧ م.

الكتاب المصنف: لابن أبي شيبة، تحقيق: عبد الخالق الأفغاني وآخرين، ط: الدار السلفية- الهند- ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م.

الكتاب المقدس: ط: دار الكتاب المقدس بمصر- ١٨٨٣ م.
الكشاف عن حقائق التنزيل وحيون الأنباويل في وجوه التأويل: للزمخشري، مكتبة مصطفى الباني الحلبي بمصر- ١٣٩٢ هـ-.

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس: للشيخ إسماعيل ابن محمد العجلوني، تحقيق: أحمد القلاش، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: لحاجي خليفة، ط: دار العلوم الحديثة- بيروت- ١٩٤١ م.

الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: لمكي بن أبي طالب القيسي.

تحقيق: د. محي الدين رمضان، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤ هـ-
الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة الثقات: لابن الكيال، تحقيق: الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي، نشر: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى- بمكة المكرمة- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

اللياب في تهذيب الأنساب: لابن الأثير، ط: دار صادر- بيروت- ١٤٠٠ هـ-.

- اللباب في الجمع بين السنة والكتاب: لابن المنجي، تحقيق: د. محمد فضل عبد العزيز المراد، ط: دار الشروق- جدة- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- لباب المناسك: للسندي، ط: دار الفكر- بيروت- بدون تاريخ.
- لسان العرب: لابن منظور، ط: دار صادر- بيروت.
- لسان الميزان: للحافظ ابن حجر العسقلاني، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت- ١٣٩٠ هـ- ١٩٧١ م.
- لغات القبائل الواردة في القرآن: لأبي عبيدة القاسم بن سلام، تحقيق: الدكتور عبد الحميد السيد، طلب، نشر: جامعة الكويت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- المبين في شرح ألفاظ المتكلمين: لسيف الدين الأمدي، تحقيق: الدكتور حسن محمود الشافعي- القاهرة- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- مشابه القرآن: للفاضي عبد الجبار الهمداني، تحقيق: د. عدنان زوزور، نشر: دار التراث- القاهرة.
- مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: د. فؤاد مزيكين، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ.
- مجالس ثعلب: شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط: دار المعارف- القاهرة.
- مجالس العلماء: لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- مجمع الأمثال: للميداني، تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: عيسى الحلبي- القاهرة- ١٣٩٨ هـ.
- مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر: لعبد الله بن محمد بن سليمان (داماد أفندي)، نشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ الهيثمي، نشر: مؤسسة المعارف- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦.
- مجمل اللغة: لابن فارس، تحقيق: عبد المحسن سلطان، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤ هـ.

مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي.

المجموع المفيث في غريب القرآن والحديث: للحافظ أبي موسى المديني، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، نشر: مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

المحبر: لأبن حبيب البغدادي، باعثناء: د. إيلزه ليختن شير، نشر: دار الآفاق- بيروت.

المحتسب في تبیین وجوه شواذ الفراءات: لأبن جني، تحقيق: عبد الحليم النجار، وعلي النجدي تاصف، وعبد الفتاح إسماعيل شلي، نشر: دار سزكين للطباعة والنشر- تركيا- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبن عطية الأندلسي، ط: الشؤون الدينية بقطر وط: المغرب.

المحكم والمحيط الأعظم في اللغة: لعلي بن إسماعيل بن سيدة، ط: مصطفى الباني الحلبي- القاهرة- ١٣٧٧ هـ.

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، تحقيق: علي محمد البجاوي، نشر: دار المعرفة- بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٤ م.

مروج الذهب ومعادن الجوهر: لأبي الحسن المسعودي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، نشر: دار المعرفة- بيروت- ١٤٠٣ هـ.

لمزهري في علوم اللغة: للسبوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار التراث- القاهرة.

لمستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابوري، تصوير: دار الكتب العلمية- بيروت عن الطبعة الأولى بغيرأباد بالهند.

لمستقصى في أمثال العرب: للزمخشري، نشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٨ هـ- مصورة عن طبعة حيدرآباد بالهند.

المسلك المنقط في المنسك المتوسط: للشيخ ملا علي قاري، ط: دار
لفكر- بيروت.

المسند: للإمام أحمد بن حنبل. شرح: الشيخ أحمد محمد شاكر، ط:
المعارف بمصر- ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٤ م، وط: دار صادر- بيروت.

مسند الشهاب: للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي، تحقيق:
حمدي عبد المجيد السلفي، نشر: مؤسسة الرسالة- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
مشارك الأنوار على صحاح الآثار: للقاضي عياض، ط: دار التراث-
القاهرة وطبعة المغرب.

مشكل إعراب القرآن: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د. حاتم
صالح الضامن، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة: للحافظ شهاب الدين أحمد بن أبي
بكر البوصيري، تحقيق: كمال يوسف الحوت، نشر: مؤسسة الكتب الثقافية-
بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

المصنف: للإمام عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن
الأعظمي، نشر: المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: للحافظ ابن حجر العسقلاني،
تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، نشر: دار المعرفة- بيروت.

المعارف: لأبن قتيبة، تحقيق: د. ثروت عكاشة، ط: دار المعارف-
القاهرة- ١٩٨١ م.

معالم التنزيل تفسير البغوي.

معاني القرآن: للفراء، الجزء الأول بتحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد
علي النجار.

والثاني بتحقيق: محمد علي النجار، والثالث بتحقيق: الدكتور عبد الفتاح
إسماعيل شلي، ط: دار الكتب المصرية- القاهرة- ١٣٧٤ هـ- ١٩٥٥ م.

معاني القرآن: للأخفش، تحقيق: الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد،
ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

معاني القرآن: لأبي جعفر النحاس، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، نشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: الدكتور عبد الجليل شلبي، ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

معجم الأدياء: لياقوت الحموي، نشر: دار إحياء التراث العربي، مصورة عن طبعة دار المأمون- القاهرة- ١٣٥٥ هـ- ١٩٣٦ م.

معجم البلدان: لياقوت الحموي، ط: دار صادر- بيروت- ١٤٠٤ هـ.

معجم شواهد العربية: للأستاذ عبد السلام هارون، نشر: مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م.

معجم القراءات القرآنية: إعداد: الدكتور عبد العال سالم مكرم، والدكتور أحمد مختار عمر، من مطبوعات جامعة الكويت- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.

المعجم الكبير: للحافظ أبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط: إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف، الجمهورية العراقية.

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: لأبي عبيد البكري الأندلسي، تحقيق: مصطفى السقا، نشر: عالم الكتب- بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى- القاهرة- ١٣٦٤ هـ.

معجم المصطلحات النحوية والصرفية: للدكتور محمد سمير نجيب اللبدي، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

معجم مصنفات القرآن الكريم: للدكتور علي شواخ إسحاق، نشر: دار الرفاعي- الرياض- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

معجم المفسرين: لعادل تويهض، نشر: مؤسسة تويهض الثقافية- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

معجم المؤلفين: لعمر رضا كحالة، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

- المعرب: لأبي منصور الجواليقي، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، ط: دار الكتب المصرية- القاهرة- ١٣٨٩ هـ- ١٩٦٩ م.
- المعرفة والتاريخ: لأبي يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق: الدكتور أكرم ضياء العمري، نشر: مكتبة الدار بالمدينة المنورة- ١٤١٠ هـ.
- معرفة القراء الكبار على طبقات الأعصار: للحافظ الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، وشعيب الأرنؤوط، وصالح مهدي عباس، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- المغازي: للواقدي، تحقيق: د. مارسدن جونز، عالم الكتب، بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- المغني في أبواب التوحيد والعدل: للقاضي عبد الجبار (الجزء السادس عشر)، تحقيق: أمين الخولي، ط: دار الكتب- القاهرة- ١٣٨٠ هـ- ١٩٦٠ م.
- المغني في الضعفاء: للحافظ الذهبي، تحقيق: الدكتور نور الدين عثر، نشر: إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، نشر: دار الباز- مكة المكرمة، بدون تاريخ.
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: للخطيب الشربيني، ط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٧٧ هـ- ١٩٥٨ م.
- مفاتيح الغيب تفسير الفخر الرازي.
- مفحومات الأقران في مبهمات القرآن: للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق: إياد خالد الطباع، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٨١ هـ- ١٩٦١ م.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق: هلموت ريتز، نشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- مقاييس اللغة: لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط: الخاتجي- القاهرة- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٣ م.

- المقتضب: لمحمد بن يزيد (المبرد)، تحقيق: الشيخ محمد عبد الخالق عضية، نشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة- ١٣٩٩ هـ.
- المقصود والممدود: للفراء، تحقيق: ماجد الذهبي، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- المكتفي في الوقت والابتداء: لأبي عمرو الداني، تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- ملاك التأويل الفاطم بندي الإلهاد والتعطيل في توجيه المشابه اللفظ من أي التنزيل: لابن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.
- السل والنحل: للشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط: دار المعرفة- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأسم: لأبي الفرج ابن الجوزي، تصوير: دار صادر- بيروت عن طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد- الهند.
- المهذب فيما وقع في القرآن من المغرب: للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق: الدكتور التهامي الراعي الهاشمي، من مطبوعات اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات.
- المؤتلف والمختلف: للدارقطني، تحقيق: الدكتور موفق عبد الله عبد القادر، ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- ميزان الاعتدال في أسماء الرجال: للحافظ الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، تصوير: دار المعرفة- بيروت.
- الناسخ والمنسوخ: لأبي جعفر النحاس، تحقيق: الدكتور شعبان محمد إسماعيل، نشر: مكتبة عالم الفكر- القاهرة- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦ م.
- الناسخ والمنسوخ: للقاضي أبي بكر بن العربي، تحقيق: د. عبد الكبير العلوي المدغري، نشر: وزارة الأوقاف المغربية- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.
- النخل: لأبي حاتم السجستاني، تحقيق: الدكتور إبراهيم السامرائي، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

- النشر في القراءات العشر: لمحمد بن محمد الجزري، تحقيق: د. محمد سالم محيسن. نشر: مكتبة القاهرة- بدون تاريخ.
- الكتب والعيون تفسير الماوردي.
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتتصرين: للأستاذ محمد عبد الله عتات.
- ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٦ م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي. ط: دار إحياء الكتب العربية- القاهرة- ١٣٨٣ هـ- ١٩٦٣ م.
- نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: لشهاب الدين الرملي. ط: مصطفى الباني الحلبي- القاهرة- ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٧ م.
- التواتر: لأبي زيد الأنصاري، تعليق: سعيد الخوري الشرتوني، نشر: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧ م.
- توابع القرآن: لابن الجوزي. تحقيق: محمد أشرف علي الملياري. من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- تور المسرى في تفسير آية الإسراء: لأبي شامة المقدسي. تحقيق: الدكتور علي حسين البواب. نشر: مكتبة المعارف- الرياض- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.
- الهداية شرح بداية المبتدي: للمبرغيناني، نشر: المكتبة الإسلامية- بيروت.
- هدية العارفين: لإسماعيل باشا البغدادي، نشر: دار العلوم الحديثة- بيروت، مصورة عن مطبعة إستانبول- ١٩٥٥ م.
- وضح اليرهان في مشكلات القرآن (مخطوط): لبيان الحق النيسابوري، نسخة مصورة بمكتبة مركز البحث العلمي عن مكتبة شمشري.
- وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان: لابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس. ط: دار صادر- بيروت- ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.

فهرس المحتويات

٣	 مقدمة المحقق
٥	 مقدمة حول علم التفسير
٥	 التفسير في اللغة
٥	 التفسير في الاصطلاح
٧	 التأويل في اللغة
٨	 التأويل في الاصطلاح
١٠	 الفرق بين التفسير والتأويل
١٣	 المفسرون من الصحابة
١٣	 أشهر المفسرين من الصحابة
١٤	١- عبد الله بن عباس
١٥	 ميلفه من العلم
١٧	 أسباب نبوغه
١٨	 قيمة ابن عباس في تفسير القرآن
١٩	 رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب
٢٢	 رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم
٢٤	 الرواية عن ابن عباس وميلفها من الصحة
٢٥	 طعن بعض النقاد على هذه الطريق
٢٦	 تقنيه هذا الطعن
٢٨	 التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيمه
٢٩	 أسباب الوضع على ابن عباس
٢٩	٢- عبد الله بن مسعود

٣٠	ملفه من العلم
٣٢	قيمة ابن مسعود في التفسير
٣٣	الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة
٣٤	٣- علي بن أبي طالب
٣٥	ملفه من العلم
٣٥	مكانته من التفسير
٣٦	الرواية عن علي ومبلغها من الصحة
٣٧	٤- أبي بن كعب
٣٧	ملفه من العلم
٣٨	مكانته في التفسير
٣٨	الرواية عنه في التفسير ومبلغها من الصحة
٣٩	قيمة التفسير المتطور عن الصحابة
٤٢	ترجمة المؤلف
٤٢	١- اسمه ونسبه، وكنيته ولقبه
٤٢	٢- مكان ولادته وتاريخها
٤٢	٣- عصره وبيئته
٤٣	٤- نشأته وظله للعلم
٤٤	٥- شيوخه وحرصه على العلم
٤٦	٦- تصلوه للوعظ والإرشاد
٤٨	٧- تصنيفه
٥٢	٨- صفاته وأخبار أسرته
٥٤	٩- محله
٥٥	١٠- وفاته
٥٧	وصف المخطوط
٥٨	منهج العمل في الكتاب
٥٩	نماذج من صور المخطوط

٦٣	ملحة المؤلف
	الفصل الأول: في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ بِمُتَّبِعِ الدِّينِ فِي الْآخِرِينَ﴾
٧٣	(البقرة: ٣٠)
٨٠	الفصل الثاني: في قوله تعالى: ﴿فَلْيَرْجِعْ بَيْنَهُمَا خَبَرَهُ﴾ (البقرة: ٣٧)
٨٥	الفصل الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُزَيِّنَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَيَّاتِ﴾ (البقرة: ٢٤٥)
٩٠	الفصل الرابع: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِي هَذِهِ لَذِكْرًا﴾ (آل عمران: ٩٦)
٩٥	الفصل الخامس: في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي هَذِهِ لَذِكْرًا﴾ (آل عمران: ٩٦)
٩٨	الفصل السادس: في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّاكُمُ الْفَخْرَ﴾ (آل عمران: ١٧٣)
٩٩	تسمية من شهد بدياً
٩٩	حرف الألف
١٠٠	حرف الباء
١٠٠	حرف التاء
١٠٠	حرف الثاء
١٠٠	حرف الجيم
١٠٠	حرف الحاء
١٠٠	حرف الخاء
١٠٠	حرف الدال
١٠١	حرف الراء
١٠١	حرف الزاي
١٠١	حرف السين
١٠١	حرف الشين
١٠١	حرف الصاد
١٠١	حرف الضاد
١٠٢	حرف الطاء
١٠٢	حرف العين
١٠٣	حرف الغين

حرف القاء	١٠٣
حرف القاف	١٠٣
حرف الكاف	١٠٣
حرف الميم	١٠٣
حرف النون	١٠٣
حرف الواو	١٠٤
حرف الهاء	١٠٤
حرف الياء	١٠٤
الفصل السابع: في قوله تعالى: ﴿وَكَذَرْتُمَا إِلَٰهَ تَعَالَىٰ تَنبَخِرُونَ رُوحَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ... ١٠٥	
الفصل الثامن: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الْإِسْلَامَ فِتْنًا لَّكَ سَبِيلَ اللَّهِ أَتَمَّ مِنْ أَنْتُمْ﴾	
[آل عمران: ١٦٩]	١٠٩
الفصل التاسع: في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ مَتَىٰ أَتُكَلِّمُكَ﴾ [النساء: ٧٧]	١١٣
الفصل العاشر: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَيْدَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٤] .. ١١٦	
الفصل الحادي عشر: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَأُوا الْبُيُوتَ الَّذِينَ يَدْعُونَ لِلْعَمَلِ وَالْقَتْلِ وَالنِّسَاءِ﴾	
[الأنعام: ٥٢]	١٢٠
الفصل الثاني عشر: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْكُمْ رُسُلٌ﴾ [الأنعام: ٩٤]	١٢٣
الفصل الثالث عشر: في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَخُذُوا خِشْيَةَ اللَّهِ غُصَّةً شَدِيدَةً﴾ [الأنعام: ١٦٠] .. ١٢٥	
الفصل الرابع عشر: في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ إِلَيْهِمْ نَبَا الْأَخْيَارِ فَخِذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي بَيْوتِكُمْ﴾	
[الأعراف: ١٧٥]	١٢٩
الفصل الخامس عشر: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ هُمْ يُؤْتُونَ عَمَلَهُمْ خُلَافَةً﴾	
[الأنفال: ٢]	١٣١
الفصل السادس عشر: في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْتُمُ رَبَّكُمْ فَتَتَّقُوا لِلَّهِ ذُلًّا مُطَرًّا﴾	
[التوبة: ٢١]	١٣٤
الفصل السابع عشر: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ عَلَيْهَا كِتَابٌ رَجِيءٌ﴾ [التوبة: ٣٥] ... ١٣٨	
الفصل الثامن عشر: في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٤٠] ... ١٤٢	

- الفصل التاسع عشر: في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّهُمْ قَدْ عَلَّمَ نَارَهُ﴾ [الشورى: ٧٥] ١٤٧
- الفصل العشرون: في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَشَدُّ رُحْمًا مِنْكَ الْفُتُورُ﴾ ١٤٩
- [الشورى: ١١١] ١٤٩
- الفصل الحادي والعشرون: في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَمَرَ بِتِلْكَ الْأَنْفُسِ بَيْعًا وَالْقَتْلَ قَوْلًا﴾ ١٥٢
- [يونس: ٥] ١٥٢
- الفصل الثاني والعشرون: في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ تَكُلُ الْمَيْتَةَ أَتَاكَ كُلُّ أَرْكَانَةٍ مِنْ أَسْتَهْ﴾ ١٥٦
- [يونس: ٢٤] ١٥٦
- الفصل الثالث والعشرون: في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ يَدْعُو إِلَى كُرْ أَسْتَهْ﴾ [يونس: ٢٥] . ١٦٠
- الفصل الرابع والعشرون: في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكَ تَرْتَدُّهُ أَفَوَ لَا حَوْلَ عَنَيْهِ وَلَا قُوَّةَ﴾ ١٦٥
- ﴿يَعْرِضُونَكَ﴾ [يونس: ٦٢] ١٦٥
- الفصل الخامس والعشرون في قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَافِقُو قَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ١٦٨
- [يوسف: ٩١] ١٦٨
- الفصل السادس والعشرون: في قوله تعالى: ﴿عَزَّ إِلَهُكَ يُرِيضُكُمْ الْقَرْصَ حَوْلًا وَمَلْعَمًا﴾ ١٧٤
- [الرعد: ١٢] ١٧٤
- الفصل السابع والعشرون: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَكْبِرْكَ اللَّهُ عَنَّا بِسْمَلِ الْفُلُوسِ﴾ ١٧٧
- [إبراهيم: ٤٢] ١٧٧
- الفصل الثامن والعشرون: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْذُلُ الْأَرْضُ حَزْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] .. ١٨٣
- الفصل التاسع والعشرون: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهْتَفِمْ لِقَوْلِهِمْ أَهْمُونَ﴾ [الحجر: ٤٣] ١٨٥
- الفصل الثلاثون: في قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ فِي مَكْنٍ وَفُتُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥] . ١٨٩
- الفصل الحادي والثلاثون: في قوله عز وجل: ﴿وَسَكَّلَ يَمِينُ الرِّسْمَةِ عَمِيدَ فِي عَمِيدٍ﴾ ١٩٣
- [الإسراء: ١٣] ١٩٣
- الفصل الثاني والثلاثون: في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّضَ رُحْمًا الْأَمْتَنُ إِلَّا بِهَا وَتَقَرَّرَ﴾ ١٩٦
- ﴿يَسْتَأْذِنُ﴾ [الإسراء: ٢٣] ١٩٦
- الفصل الثالث والثلاثون: في قوله تعالى: ﴿وَوَزَّيْ أَسْتَهْ فِي حَلَّتْ لَوَزَّ عَم كَوَيْهِمْ نَكْت﴾ ٢٠٢
- ﴿الزَّيْنِ﴾ [الكهف: ١٧] ٢٠٢

الفصل الحادي والخمسون: في قوله عز وجل: ﴿وَتَبَيَّنَتْ لَكُمْ فِي هَذِهِ آيَاتُنَا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [النمل: ١٦] ٢٧٨	
الفصل الثاني والخمسون: في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ تَابُوتٍ مِثْلُ نَوحٍ لَآتَيْنَاهُمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [التقصص: ٧] ٢٨٣	
الفصل الثالث والخمسون: في قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرْتُمْ وَلَقَدْ أَخَذَلْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [التقصص: ٢٩] .. ٢٨٧	
الفصل الرابع والخمسون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فَخَفَوْا بِهِ﴾ [التقصص: ٢٩] .. ٢٨٧	
..... [التقصص: ٧٧] ٢٩١	
الفصل الخامس والخمسون: في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ... ٢٩٣	
الفصل السادس والخمسون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ... ٢٩٣	
يَحْيَىٰ وَزَكَرِيَّا وَعِيسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ٢٩٦	
الفصل السابع والخمسون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ٣٠٠	
الفصل الثامن والخمسون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ٣٠٠	
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ٣٠٨	
الفصل التاسع والخمسون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ٣٠٨	
..... [الأنعام: ٢٣] ٣١٠	
الفصل الستون: في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِكُمْ رَسُولٌ﴾ [سبا: ١٥] ٣١٣	
الفصل الحادي والستون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [سبا: ١٥] ٣١٥	
..... [سبا: ٣٧] ٣١٥	
الفصل الثاني والستون: في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [سبا: ٥١] ... ٣١٩	
الفصل الثالث والستون: في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [سبا: ٥١] ٣١٩	
..... [سبا: ٣٧] ٣٢١	
الفصل الرابع والستون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [سبا: ٥١] ٣٢١	
..... [سبا: ٥١] ٣٢٥	
الفصل الخامس والستون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [سبا: ٥١] ٣٢٩	
الفصل السادس والستون: في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [سبا: ٥١] ٣٣٢	
..... [سبا: ٥١] ٣٣٢	

الفصل السابع والستون: في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَنتَكَ نَزَّ الْقَسَمُ بِأَسْمَاءِ الْحَمْدِ ۝٦٥﴾	
[ص: ٢٦]	٣٣٥
الفصل الثامن والستون: في قوله عز وجل: ﴿وَبَعَثْنَا إِدْرِيسَ بِسَكِينَةٍ﴾ [ص: ٣٠]	٣٣٧
الفصل التاسع والستون: في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُكْرِمُنَا كَيْفَ﴾ [ص: ٤١]	٣٤٢
الفصل السبعون: في قوله تعالى: ﴿تَتَوَلَّى الْكَلْبُ مِنْ أَفْوِ الْعَرِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ٤١]	٣٤٥
الفصل الحادي والسبعون: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ أَبْلٌ كَلِيمًا وَكَانَ يُعَذِّبُ	
الْآخِرِينَ﴾ [الزمر: ٩]	٣٥٢
الفصل الثاني والسبعون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَرَجْنَا بِكَ فِي هَذِهِ الْفَرَسِ مِنْ قِي مَتَلُ﴾	
[الروم: ٥٨]	٣٦١
الفصل الثالث والسبعون: في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ تَبْتَ وَهُمْ يَبْتُونَ ۝٦٦﴾ [الزمر: ٣٠] ..	٣٦٧
الفصل الرابع والسبعون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَرَأَ بَنِيكَ﴾ [الزمر: ٥٤]	٣٧٢
الفصل الخامس والسبعون: في قوله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَّحَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾	
[الزمر: ٦٨]	٣٧٥
الفصل السادس والسبعون: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ زُحَلٌ ثَوِيْلٌ مِنْ نَالٍ وَصَوَكَ﴾	
[خاف: ٢٨]	٣٧٨
الفصل السابع والسبعون: في قوله عز وجل: ﴿فَتَسْتَكْبِرُونَ مَا أَوَّلَ لِمُكْرَمٍ﴾ [خاف: ٤٤] ..	٣٨٢
الفصل الثامن والسبعون: في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا أَلْمُتُونَ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ [الشورى: ١١] ..	٣٨٥
الفصل التاسع والسبعون: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ قَرْيَتِهِ	
عَلِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١]	٣٨٩
الفصل التسعون: في قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُوتُوا رَسُولَهُ وَالْهَادِثُ يَوْمَ الْقِيَامِ﴾	
[التوبة: ٣٣]	٣٩٧
الفصل الحادي والتسعون: في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَسَلْنَا نُوحًا﴾ [التصح: ٢٩]	٤٠٢
الفصل الثاني والتسعون: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَرَأَ بَنِيَّكَ مِنْ أَفْوِ مَا يَحْمِلُونَ﴾ [الانبياء: ١٧] ..	٤٠٥
الفصل الثالث والتسعون: في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا بَنِيَّكَ مِنْ طِينٍ ۝١١﴾ مَا كُنَّا نَكْنِزُكَ وَكُنَّا	
قَرِينٌ ۝١٢﴾ [الجم: ١ - ٢]	٤١٠

الفصل الرابع والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿كَذَٰبٌ شَرُّهُ وَأَقْبَرُ ۚ﴾ [القصص: ٢٣] ... ١٦٦	الفصل الخامس والثمانون: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ فَتَقَرَّرَ أَن تَقْتُلَهُمْ فَارْتَدَّ عَنْهُمْ
تَوْبَهُ﴾ [الحديد: ١٦] ١٦٦	الفصل السادس والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ
..... [الحديد: ٢٠] ١٦٦	الفصل السابع والثمانون: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل الثامن والثمانون: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْتَظِرُ كَذِبًا أَوْ يَأْتِيَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] ... ١٦٦
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل التاسع والثمانون: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْتَظِرُ كَذِبًا أَوْ يَأْتِيَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [الحاقة: ١ - ٢] ... ١٦٦
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل العاشر والثمانون: في قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل الحادي والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل الثاني والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل الثالث والثمانون: في قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل الرابع والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل الخامس والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل السادس والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل السابع والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل الثامن والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل التاسع والثمانون: في قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	الفصل العاشر والثمانون: في قوله عز وجل: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ
..... [التحریم: ٨] ١٦٦	فهرس النصوص والعبارات
..... ٥١٦	فهرس المحتويات

AL-MUNTAḤAB FĪ AL-NUWAB

THE EXEGESIS OF SOME SELECTED VERSES OF THE HOLY QUOR'AN

by

Jamaluddine Abou Al-Faraj Ibn Al-Jawzi
(D. 597H.)

edited by

Oussama Abdul 'Azim

